رواية

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

جورجي أمادو

توكايا غراندي

الوجه المظلم

المترجم: عوني الديري

توكايا غراندي

الوجه المظلم

رواية

تأليف
جورجي أمادو

ترجمها عن البرتغالية
عوني الديري

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L
كلمة KALIMA

الناشران

الإمارات العربية المتحدة – أبو ظبي – هاتف 6314468 2 971 + – فاكس 6314462 2 971+
ص.ب 2380 – الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.kalima.ae

لبنان – بيروت – هاتف 786233 - 785108 - 785107 1 961+ – فاكس: 1 961+ 786230
ص.ب 13-5574 – الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

الطبعة الأولى 1430هـ – 2009م

ISBN: 978-614-421-065-9

جميع الحقوق العربية محفوظة للناشرين

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم،
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+) – ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb – الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي Tocaia Grande

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونيًا من الناشر ,.The Wylie Agency (UK) Ltd

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
.Copyright © 2008 by Grapiúna - Grapiúna Produções Artísticas Ltda
All rights reserved
Arabic Copyright © 2008 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

إن هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث "كلمة" والدار العربية للعلوم غير مسؤولتين عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبّر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبّر بالضرورة عن آرائهما.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر

الإهداء

إلى زيليا، من محط رحال إلى آخر...
إلى أليس وجورج رايارد،
وآني – كلود – باسي وأنطوانيت هاليري
في مدينة باريس،
إلى ليجيا وفرناندو سابينو...
إلى إيتاسوسي ورايموندو سان باريتو،
ذكرى باسيليو دي أوليفيرا...

آراء في الرواية

"وأخيراً أدركت هذه الرائعة لجورجي أمادو هدفها كاملاً، ولذلك نضع أنفسنا تحت وصايته، أسرى إبداعه السحري".

"جيرالدوفراس
مجلة استو آي

"إنها ملحمة، وكونها كذلك، وفي الوقت الذي يتناول فيه أشخاصاً من لحم وعظم، فإنه يمنحهم بعداً ميتولوجياً ذا بنية مثالية".

إيليو بيللغريني
جريدة فوليا دي ساوباولو

"إنها تحفة روائي وتحفة شعب، فتوكايا غراندي – الوجه المظلم، لا تترك المجال، كتحقيق تصوري، لأي من الروايات المهمة التي قرأتها في حياتي، والتي تم نشرها في العالم، مؤخراً، بأن تفوقها إبداعاً وأهمية".

أنطونيو أولينتو

"من الصعوبة أن نعثر، على عمل أكثر مثاراً للإعجاب في الأدب البرازيلي".

جوزي برازيلييريسيمو

"إنها أفضل رواية لجورجي أمادو بعد غابرييلا".

مجلة فيجا البرازيلية

"إن توكايا غراندي هي قمة عطاء المعلم" وبعظمة متنامية، ففيها تظهر أشكال التأزم وطرق الوصف والإيماءات بالكلية المسهبة، والتنوعات الشاعرية، لتعبّر عن التجارب السابقة تعبيراً إبداعياً أدركت به النضج المثالي للأعمال الأدبية الكاملة".

أنطونيو حويس

"إن توكايا غراندي كتاب ملحمي، مليء بالحب والتفاؤل، ولا يأتي بمثله إلا من آمن إيماناً طبيعياً بحياة النساء والرجال".

ويلسون لينز
جريدة المساء/السلفادور

"إنها كتاب كبير – هذا كل ما أستطيع أن أفكّر فيه وأنا ألتهم بشراهة صفحات الحياة الممتعة في هذه الرواية".
فرناندو سابينو
جريدة أو غلوبو

"رواية تحتويك وتأسرك. إنها بلا شك ألوهية الفن لدى مبدع، وتكرير شفاف للموهبة، وخلاصة السحر الأدبي".
ماركوس سانتا ريتا

"بعض متون القواميس والموسوعات، وبعض السير الأدبية، تجعلني مولوداً في بيرانغي. إن ما حدث، في الحقيقة، هو العكس: فقد شاهدت بيرانغي تولد وتنمو. عندما مررت من هناك، لأول مرة، رديفاً على سرج مطية والدي، كانت هناك ثلاثة بيوت متباعدة. أما محطة سكة الحديد فكانت بعيدة: في سيكيرودي إشبينيو".
جورجي أمادو
عن كتاب "الريفي الصغير"

"الكاكاو – ثمرة طيبة تولد من أوجاعك،
الكاكاو – حياة بلا معنى وموت رخيص".
إيليو بولفورا
من ديوان "أناشيد إلى روح أبي"

"لقد تمكنت الناس من مواجهة الطوفان والطاعون، ولكنها لم تستطع أن تواجه القانون، فسقطت..".
لوبيسينيو
"الشاهد الحي"

"أقول لا حين يقولون نعم، وبصوت واحد لا يتبدل. أريد أن أكشف عن الوجه المظلم وأسلّط عليه النور، ذلك الوجه الذي محوه من مسيرة التاريخ بلؤم وجحود، أريد أن أهبط إلى أعماق البداية المنكرة، وأتحسس الصبر والتجلد على البناء بالنضال والدم، والقدرة على مواجهة العنف والسيطرة عليه، وأريد أن أفضح طموح ووضاعة وقوانين الإنسان (المتحضر).. وأتحدث عن الحب الإباحي ما دام صرح الفضيلة لم يرتفع بعد.. أقول لا حين يقولون نعم، وليس عندي عهد آخر".

جورجي أمادو

لماذا هذه الترجمة؟

أقدمت على هذه المشقة، اختياراً، لأنها أيضاً قصة قريتي، شكا، ذلك الامتداد الأخضر، الوديع إزاء البحر، التي بناها آبائي وأجدادي بالنضال والدم، قبل أن تكون توكايا غراندي. ولكن قوانين الإنسان المتحضر، هي الأخرى كانت قد حوّلت شكا إلى أكبر مدينة صناعية في لبنان، فأكلها الغبار، واتسخت سواقيها وشواطؤها، وتخلى عنها أبناؤها الطيبون ضاربين في الآفاق البعيدة تفتيشاً عن جبل بلا غبار، وشاطئ بلا قذارة، ولقمة بعرق الجبين، وإنسان لا يربطه إلا الوعد، لأنهم تعلموا الحياة وقفة عز فقط.

عوني الديري

من هو أمادو؟
ولماذا توكايا غراندي؟

من هو هذا الثمانيني المدهش، المتدفقة في عروقه دماء الفتوة، الممتلئ قلبه بالإيمان، والمتوهجة روحه بالنضال؟ من هو هذا الذي تدعيه الأمم، وتحاول التيارات الفكرية الكبيرة أن تستقطبه، وتسارع كبريات دور النشر إلى أن تلصق نفسها بأدبه، لتصطبغ به، فإذا ولد اختلفوا في أبيه، والكل ادعاه، وإذا شبّ اختلفوا في ربيبات تكوينه الفكري، وإذا نشأ عاجلتهم نشأته ببهائها المتجدد الذي لا يعرف التكرار ولا يستسلم لصنمية وتحنط ولا يقبل بطقوسية. من هو هذا الذي بلغ سخط الصهيونية عليه ذروته فواجه سخط فكرها بالازدراء واستمر طوداً شامخ الثبات والعلياء في وجه الامتعاض والمكائد لذلك الفكر؟ وبين ريح الفكر الصهيوني وإعصار الإبداع الأمادوي المواجه، طلع العرب في البرازيل، وهم هناك أهل فكر مُبرِّز، يتحدون هذا وذاك مبينين أن في روحه ذلك الشرق الذي انسلّ إليه عبر عرق سامي، وإلا فلماذا في رواياته الثلاثين استطاع الشاعر جورج مدور أن يحصي ستمائة شخصية عربية راح يحلل فيها ويتبين خصائصها ليخرج بالصفعة الفكرية الحادة التي جوبه بها الفكر الصهيوني؟ إنه جورج أمادو المولود في عام 1912 في البرازيل، وأمادو تعني "الحبيب" وكم من العائلات العربية التي أقامت في البرازيل والتي ترجمت ألقابها إلى لغة البلاد، حيث استوطنت، فغدا لقب "حبيب" أمادو، ولقب "غنمة" كارنيرو، ولقب "نجار" كاربنتيرو، وقس على ذلك.

وسواء تدفق في عروقه الدم العربي، أم لم يتدفق، لأن دم الأدب واحد في هذا العالم، هو دم الإنسان وإن اختلفت فصائله، وإذا كانت فصيلة الأدب الأمادوي برازيلية الجغرافية، ومدارية المناخ، فهي عالمية الأبعاد، إنسانية المنحى، وباهيا، كما يقول أمادو نفسه، هي الولاية البرازيلية التي تمتد وتتسع لتبلغ حدود ألمانيا الثلجية دون أن تعرف سبباً لذلك.

في كتابه "الريفي الصغير": "يقولون في بعض الروايات الأدبية إنني ولدت في "بيرانغي" والحقيقة أنني في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى بيرانغي رديفا على كفل حصان والدي، كنت في السنوات الأولى من العمر، ثم رأيت بيرانغي تنمو وتكبر وتزدهر". وما "بيرانغي"، آنذاك، إلا قرية ريفية صغيرة في ولاية باهيا، وباهيا هي تلك الولاية البرازيلية الشاسعة التي تعانق البحر المسكون بآلهة الزنوج وقصص حب البحارة الذي يتأجج بين مدِّ الموج وجزره، وباهيا أيضاً تلك المزارع الواسعة،

وسع بلدان برمتها، يتعايش فيها الفقر والنعمة ويتحكم الإقطاع الذي تتحطم نواهيه وأوامره على ثوابت الحياة الطبيعية، وهي تلك المرتفعات العذراء التي تقطن الوحوش ربوعها، ويا لروعة تلك الربوع التي يعجز الخيال عن تصورها والحكمة عن سبر أغوار ما فيها من حكم الحياة. هناك بدأ الفتى القادم إلى بيرانغي رديفا يتأمل في الطبيعة والإنسان، وتتكون فيه التجربة التي سيكتب لها أن تدك عروش الأدب ليقيم للأدب عرشاً سيصعب على عُداة الزمن أن تزلزله".

من بحر باهيا، الحالم كطفل، الصاخب كالقضاء والقدر، وعند شواطئه الكأداوات صخورها، الناعمة كثبانها، حيث يرغو الموج ويزبد فيأتي مع رغوته بجثث الغرقى من البحارة العاثرين حظاً، وحيث إذا لان الموج ورقّ، حمل معه زورقاً تنتظر عاشقة وصول حبيب فيه، ومن تلك المنارات الصابرات على هداية سبيل التائهين في لجج إيمنجا آلهة الحب الزنجية، وأوشالا وأوشوسي، والمشارب المنتشرة حيث يذوب اليأس في تأوهات الأناشيد وألحان القيثارات، وحيث يذوب أسى الفقر والحاجة بذوبان الشمس في ذلك الأفق البلانهاية، من هناك طلعت رواية أمادو "بحر ميت"، وأمادو في الرابعة والعشرين، عندما نشرت للمرة الأولى.. وكان قليلاً لرائعته، تلك، أن تترجم إلى أربع وأربعين لغة، وأن تطبع في البرازيل طبعتها السادسة والثمانون، وأن توضع لها المعزوفات الموسيقية الأرقى وتراً، والأجمل لحناً، وأن تنظم رباعيات شعرية، ومسلسلات تلفزيونية، وقصصاً إذاعية، وأن يتوج المخرج الإيطالي "بونتي" مجده السينمائي بفيلم أعطى لصوفيا لورين مجدها الأثيل، عندما أوكل إليها تجسيد دور عاشقة البحار في "بحر ميت".

وكانت الرحلة الروائية التي بدأها أمادو يافعاً لتستمر عبر مواكبها الثلاثين ونيف، وها هو في أواخر الثمانينات، وقد بلغ فيها ثمانينه هو، لا يزال ذلك النهر المتدفق كأنه الأمازون قد أرغى وبدأ يهدد الأرض بالطوفان، وكانت روايته الأخيرة "اختفاء القديسة" وهي ليست أخيرة في غير سياقها عقب ما سبقها من روائع، وربما طالت به السنون وأعطى المزيد لأن من له يعطى ويزاد، لقد جاءت رواية "اختفاء القديسة" المفاجأة التي أذهلت النقاد، وتتضح بها الحقيقة التي ظلت دينه وديدنه طيلة عمره المديد. كان قد ردّ بعد صدور "توكايا غراندي" رداً على مفاتحته بشأن ثقافي: "كيف تريدني أن أقدم على عمل بهذا الحجم وقد غدوت أعيش مع الموت أكثر مني مع الحياة؟" وكأن كلمته قد أصابت مني مقتلاً فأصبت بنوع من الأسى كان هو حافزي على التجلد بالصبر لنقل "تيريزا باتيستا" و"توكايا غراندي" إلى العربية، مكرساً أوقات الفراغ والراحة وجزءاً من أوقات

العمل للقيام بما وجدت أن لا مندوحة من القيام به.. وكانت السعادة التي لا توصف حين ظهرت مؤخراً روايته الجديدة بهية، جليلة، تحمل سر الحكاية الطويلة، المشوقة.

لماذا تنكبت عبئاً كنت في غنى عنه، لو لم يكن في الأمر ما يستدعي؟ إن المسألة هي، قبل أي شيء، مسألة وعي، فقناعة، فموقف. والموقف حركة في اتجاه ما خدمة لغرض ما، وليس جموداً أو تقوقعاً طي زعانف شائكة.. وحين يكون الوعي وعياً للحقيقة على حساب الواقع، أو لإقامة التوازن بينهما، يدرك المتأمل خطر اللعبة الثقافية الذي لا يعادله خطر أي حرب مهما كانت أدواتها شديدة الفتك، وفي صراع الأمم فإن من تتقرر له الغلبة هو الذي أجاد شروط اللعبة الثقافية واستطاع أن يصون ذاته في هذه الحرب المستمرة من الأزل وإلى الأبد. ومن ثوابت اللعبة الخطيرة عدم القبول بسياسي أو أديب أو فنان لا يعي خطورة هذه اللعبة ولا يتصرف بوعي من قناعة بها، أو يتقيد بما تمليه عليه من مواقف. أضف إلى ذلك أن القبول هنا يعادل الرفض، فإما أن يكون السياسي والأديب والفنان ومعهم المؤسسة داخل اللعبة أو أن يكونوا جميعاً على هامشها متفرجين، يعرفون شروط اللعبة، كمشاهدي مباراة كرة القدم، متحمسين، دون أن يشاركوا في اللعبة. تكونون ونحن معكم، أو لا تكونون ونحن ضدكم بحكم منطق الأشياء.

وبسبب هذه الحقيقة – العبء... وعلى ضوئها الكاشف، تستوقفك الحقيقة المؤلمة في الوطن العربي، والتي تتصل بالموضوع، وهي السهولة في تعميم الخطأ وطمس الحقيقة والتستر على الشطط والارتجال في الاختيار والأحكام المطلقة حيث توجب عدم إهمال النسبية، والاعتبارات النسبية حيث يحب البناء على حقيقة مطلقة، وكل هذا يحدث من ضمن الترائي لمن بيدهم الأمور أنهم داخل الحلبة وليس خارجها.. وإلا فكيف استطاع غارسيا ماركيز، وكورتاثار، وغوميز، وبورخيس أن يحتلوا هذه المساحة من الاهتمام، وهم بالمقارنة مع جورج أمادو يتحولون داخل الحلبة من جبابرة إلى لاعبين لاهثين إزاء عبقرية أمادو ومهارته فوق العادية؟ ربما تكون اللغة الإسبانية التي كتبوا بها هي السبب في شغلهم الحيز الأكبر لما لهذه اللغة من ملمين بها تمكنوا من أن ينقلوا أعمالهم إلى العربية بأمانة، بينما اصطدم نقل أمادو إلى العربية بعقبتين: عقبة اللغة البرتغالية التي كتب بها أمادو البرازيلي، وعدم جدية دور النشر العربية في اختياراتها غير المنتظمة لأنها تخبط في منشوراتها، غالباً، خبط عشواء، وليس هناك من يحاسبها، ويبين مبلغ ضلالها في تحويلها عملية الفكر إلى عملية تخضع لمقاييس التجارة والتسويق بحجة "إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون"..

والأسوأ من كل ذلك أن بعض دور النشر ذات الاستراتيجيات الفكرية الأيديولوجية توهمت أنها في ترجمتها عن غير اللغة التي كتب بها، سيجعلها تضيف مأثرة إلى مآثر منشوراتها اعتقاداً منها بأن جورج أمادو يساري اشتراكي، وبهذا فإن في هذه الدور قد ارتكبت خطأين متعادلين حجماً، هما خطأ الإساءة إلى أمادو حيث يمكن الاعتقاد بأن هذه الترجمات السطحية تكاد تمت بالصلة إلى أدب هذا العملاق، والخطأ الثاني هو اعتقادها بأن اسم جورج أمادو قد يخدم استراتيجيتها الأيديولوجية؛ ويخطئ الكثيرون في ظنهم أن أمادو يساري أحمر، ومناضل بالمعنى المستقطب في القاموس الاشتراكي. إن من يتعمق في كتاباته وطروحاته يمكنه أن يتبين أنه يزدري الصراع الطبقي بمعناه الحركي، ويناضل من أجل إنسانية القيم فيها، والتي هي ليست المفاهيم الوظيفية التي تتلبس بلبوس القيم.. إن ما يفتش عنه أمادو هو إنسان أكبر من جاذبية الطبقة، وأعمق حساً وإيماناً بقضية الإنسان، وهو إذا كان قد ثار على الدولة التقليدية في العالم الثالث، فإن مفهومه للدولة نابع من حاجة الإنسان إلى مؤسسة تتحرك على ضوء قيم إنسانية مجردة استطاعت أن تدرك كنه الله مجردة من كل طقسية وصنمية وذاتية محنطة بقيم فردانية نرجسية.. وإذا كان أمادو قد كشف عن الوجه المؤلم للإمبريالية وافتضح نظاميتها المشبوهة، فإنه فتش عن نظام إنساني جديد أبعد ما يكون عن مفهوم الدولة الاشتراكي بمعناه التقليدي، ودعا إلى نظام الطبيعة الذي تنتظم فيه الأشياء ضمن حيزها وعلى طريق نموها وتطورها الطبيعي، وهذا ما جعله في "توكايا غراندي" يكشف عن التطور الطبيعي كشفاً دقيقاً يفسر فيه النشوء والارتقاء إلى أن يصل القانون، والقانون، كما يطرحه، قاتل أخطر من الطوفان والطاعون، ومعه تبدأ الأهواء بالتحكم في الحياة والإنسان.. ثم يصل بعد توكايا غراندي إلى "اختفاء القديسة" حيث يهتك أقنعة "الطوطمية"، وينتهك المفاهيم الدينية التي يتلطى خلفها الهوى، والأنا، والرغبة في الجهل خوفاً من مواجهة الحقيقة أو تحصناً في مواقع ليس أخطر عليها من الحقيقة.

وعودة إلى بدء..

قبل النهل من ينابيع أمادو الروائية، كانت قراءة الرواية المعاصرة الأميركية اللاتينية، والأميركية الشمالية، والفرنسية، وبلغاتها الأصلية، قراءة ممتعة لا تلبث أن تتحول مع الصفحة الأخيرة إلى شيء ما قد حدث، ولا يلبث هذا الشيء أن يتحول إلى صورة تحك ذاكرتك عند الاقتضاء لتستجلي بعضاً من ملامحها.. بول – بوب سولتزر، ريتشارد ماك جل، بيروفيت، ماركيز، كورتاثار، جيرار

كلين، جان فرانسوا دينيو، هارولد روبينز، برغارد كلافيل، وغيرهم الكثيرون، ولكن أمادو لا يتركك وشأنك لترى الأشياء بحيادية، وخلافاً لهؤلاء فإنه يعطيك من المتعة الروحية ويدفعك إلى المطاردة المشوقة لشخصياته أكثر بكثير مما يعطيك أولئك، ولكنه يسلبك راحة البال، وينغص عليك الحلم، وهدوءك في وحدتك، ثم يجعلك متنازعاً، متصارعاً، متخبطاً لا تقوى على استعادة انعتاقك، والأنكى من كل هذا أنك تجد نفسك منساقاً، ولكن بغير امتعاض، بل مع كثير من الارتياح لكونك قد غدوت أكثر إنسانية وأعمق وجدانية وأكثر ميلاً إلى التوفيق بين الواقع والحقيقة. وأعظم ما في أدب أمادو هو قدرته العجيبة على هتك الأقنعة وتمزيق الستر التي تتلطى خلفها المظالم، فإذا أنت وجهاً لوجه أمام الحقيقة البشعة المجردة المسحوبة سحباً من مخابئها العميقة، ولكنك لا تتحسس غير فرح يغمرك بدفء لا تتوقعه، وبرغبة في أن تضع يدك على العدالة، عدالة الحياة التي هي عدالة الله وقد أصبحت بمتناولك.

في ذكرى مرور مئة سنة على تحول إيروزوبوليس إلى مدينة، وبحضور ممثلين عن رئاسة الجمهورية، وكافة الهيئات الرسمية والشعبية، ألقيت الخطب المبجلة وسلطت الأضواء على المنجزات العظيمة التي حققتها السلطات، وتناولت الصحف المناسبة بالتعظيم والثناء على الجهود التي قدمها المحافظ ورئيس البلدية والوزراء وساهم فيها أصحاب الهمم من كافة المراتب والمستويات، ولكن بالنسبة إلى أمادو كان الاحتفال بإيروزوبوليس تزويراً كاذباً وتعمداً في الانتقاص من الحقيقة بل وتشويهها، لأن إيروزوبوليس قبل أن تصبح إحدى أجمل مدن البرازيل وأحدثها كانت "توكايا غراندي" التي صنعها ثلاثة.. لبناني، هندي، وزنجي.. وهذه هي الحقيقة التي سيهبط أمادو إلى أعماقها المنكرة ليكشف عن وجهها المظلم الذي يستحق العناء، أما وجه إيروزوبوليس المضيء فكذب وتزوير ولا يستحق التوقف عنده.. فإلى توكايا غراندي: الوجه المظلم.

عوني الديريبغداد في 17/6/1991

المكان

ناتاريو دافونسيكا، رجل ثقة،

ينصب كميناً في مكان جميل

1

هناك، عند أسفل المنحدر على الضفة اليسرى من النهر، قبل أن يتم بناء أي مسكن، كان قد تمّ حفر المقبرة.. هكذا تكون الحجارة الأولى قد استخدمت ليشار بها إلى القبور المسطحة التي تمّ دفن الجثث فيها، قبيل الظهر، عندما كان العقيد دالترو قد وصل، أخيراً، وهو يمتطي صهوة جواده وبرفقته بعض أزلامه – كناية عن أربعة من الرجال المسلحين، كانوا قد مكثوا في المزرعة – ليتحقق بنفسه من المدى الذي بلغته الكارثة.. لم يبقَ من المرتزقة واحد ليروي الحكاية.

تأمل العقيد في الجثث المخضبة بالدم: لقد مات "بريللو" والمسدس في يده دون أن تتاح له الفرصة ليضغط بإصبعه على الزناد وإن مرة واحدة، أما الرصاصة التي قضت عليه فقد اخترقت صدغ رأسه بصورة جعلت العقيد يشيح بنظره عن المشهد اشمئزازاً، ويدرك أن تلك المذبحة تعني النهاية. لم يعد لديه أية وسيلة لمتابعة القتال، فكظم الأسى في صدره دون أن يترك لأحد أن يلاحظ أي دليل على ما يعتريه، ثم رفع صوته القيادي وأعطى الأوامر.

بالرغم من الإعصار الهائل – أمطار غزيرة غير مرتقبة، وغيوم داكنة ملبدة، وهزيم رعد يدوي في الغابة الموحشة – كانت بعض الغربان مجذوبة بمشهد الدم واللحوم المهشمة تحلق فوق الرجال المنهمكين في نقل الجثث وحفر القبور.

– بسرعة قبل أن تتعفن الجثث وتفوح النتانة.

2

عدت بهم الجياد، وهم صامتون، إلى أن أدركوا مدخل الجسر الصغير، حيث شدّ "ناتاريو" بلجام فرسه مؤخراً خطوها. كان قد اجتاز المسافة إلى هناك على رأس المرافقين الذين خرج بهم للمجيء بالعقيد بوافنتورا من مخيم تاكاراس عند محطة السكة الحديدية؛ وعندما غدا على مقربة من العقيد تكلم بصوت هادئ رخيم.

– إني أعرف مكاناً مناسباً يا حضرة العقيد.. وأستطيع أن أريك إياه إذا تفضلت بالقيام بتحويلة صغيرة لا تتعدى نصف الفرسخ. إنه يقع إلى الأمام، قليلاً، بالاتجاه المعاكس لمجرى النهر.

مكان مناسب؟ مناسب لأي شيء؟ إن ما يطلعه عليه "السركال" وقع عليه في الصميم وجعل كل أعماقه تنتفض.. إن زوجته المتعمقة بالروحانيات كانت قد أكدت مراراً أن لبعض الأشخاص موهبة في قراءة أفكار الآخرين.. وفي إحدى المرات، بصحبة إبنه فنتورينيا الطالب في كلية الحقوق، فإن العقيد كان يحضر في أحد مسارح العاصمة عرضاً عن الحواية والتخاطر، فمكث فاغراً فاه تبدو عليه هيئة أبله مسكين إلى جانب زوجته الشقراء التي كانت تستحق فحلاً أكثر غواية من ذلك الهزيل ذي اللحية الضئيلة. الزوجة الطويلة النحيلة ذات خدين غائرين وبشرة مطلية بالأصباغ، بشعة، ولكنها كانت مغرية في التكهن وتقرأ الأفكار المخبأة في رؤوس الآخرين كما لو كانت تقرأها مكتوبة على ورقة. أما فنتورينيا الابن، الطالب المبتدئ في كلية الحقوق، الدعي، فقد أعطى الضمانة والكفالة بأن كل ما كان يجري على المسرح لا يعدو كونه خدعاً ولكنه لم يستطع أن يثبت ذلك بالحجة أو البرهان أو بإعطاء تفسير مقنع.. والعقيد يؤثر عدم التعمق في تلك الأمور المجهولة: إنه من الرجولة الأسطورية بحيث لا يقلقه شيء في العالم، ولكن حين يكون الأمر متعلقاً بالقوى الخارقة فإنه كان يشعر برعب حقيقي لا يمكن السيطرة عليه.. على كل حال، إنه بحاجة إلى مكان مناسب، وهذه هي الحقيقة، ولكن كيف تمكن ناتاريو من التكهن بذلك؟

حدّق العقيد في وجه "السركال" باستفهام، فافترَّ ثغر ناتاريو عن ابتسامة رفيعة؛ وجه هندي عريض، وشعر أسود سابل، ووجنتان نافرتان، وعينان نائستان ولكنهما يقظتان. حمل لقب "سركال" بعدما قام بالمهمة الموكولة إليه بصورة مرضية، وبصفته مسؤولاً عن أغراس الكاكاو، واهتم بالآونة الأخيرة، أقصى الاهتمام بالقتال في الصراعات الدامية التي ستصنف الأسياد أصحاب السلطة والقوة. اكتسب خبرته في تجارب سابقة وهو دائماً في خدمة العقيد بوافنتورا: من شاب هارب من العدالة، تمكن ناتاريو من أن يرتقي تلك الدرجات كلها: مرتزق، فمستزلم، فسركال، فرئيس أزلام، فموضع ثقة، فرجل لكل المهمات، يزن الأمور ويستخلص النتائج.

لكي يتلاءم مع الظروف، كان العقيد يتجنب الكلام في الصراع المسلح، كما يتجنب الإشارة إلى تبادل الرصاص والكمائن والمواجهات الدامية التي ينتج عنها جرحى وقتلى. ومهما يكن وزن العداوة وحجمها فإنه كان إذا أشار إليها استعمل كلمة تبدو له أكثر تحضراً وأقل عنفاً: السياسة.

– إن السياسة ذاهبة من سيئ إلى أسوأ يا سيد ناتاريو، ويجب أن نحتاط للأمر ونعد له كل عدة، وإلا قضي علينا، لأنها السياسة الأكثر خطورة.

كان قد تجاوز ذلك التحفظ بقليل في محادثة له مع السركال، قبل أسبوع، وعلى شرفة الصرح الكبير في مزرعة أتالايا، وهو يعلق على الأخبار الأكيدة المتعلقة باستعدادات العقيد "دالترو" الزعيم السياسي، وسيد مزرعة "كاسكافل" التي كانت أغراس الكاكاو فيها تتاخم أغراس مزرعة "أتالايا" وبعدما كانا صديقين وزميلين، فإن العقيدين تحولا إلى عدوين لدودين، كل منهما يعتبر نفسه سيد تلك الأراضي الواسعة، الخصبة، وسيد الغابة الكثيفة التي كانت تمتد من مدخل المنطقة الداخلية حتى ضفتي نهر الأفاعي.

– إن الجار قد فقد رشده وأرسل في طلب مستزلمين، حتى من "الأغواس"، وأصبح يملك من المقاتلين أكثر مما يمكن حصره.. فانتبه جيداً يا سيد ناتاريو.

– إني منتبه جيداً يا حضرة العقيد.

– فإما أن ننتبه جيداً، ونضع خطة، ونسلح كميناً كبيراً، وإما أن نفقد كل شيء.. وعليَّ أن أظل أعمل في السر، ففي معركة مواجهة مباشرة لا نستطيع عمل شيء مع الجار – كان يقول "الجار" حتى لا يتلفظ باسم عدوه.

ظلّ يفكر في تلك الإيماءات الغامضة لأنه لم يكن قد وضع مخططه بعد، ولم يكن قد تخيل الكمين. فقط في إيلايوس وعى التفاصيل جيداً. إذاً، كيف كان ممكناً أن يشير "السركال" إلى مكان محدد، وأن يجيب عن قلقه، وعن السؤال الذي لم يطرحه بعد!

إنه مكان مناسب جداً. أحس العقيد بوافنتورا بقلبه يزداد خفقاناً: هل يكون ناتاريو موهوباً في قراءة الأفكار؟ عندما يكون الأمر متعلقاً بالدم الهندي فلا أحد يستطيع أن يجزم. لقد تكلم السركال، بالتحديد، عندما كان العقيد يجهد نفسه مفكراً في الضرورة الملحة لإيجاد مكان مناسب يسلح فيه كميناً، وهذه هي العملية الرئيسية في الخطة التي يجب وضعها سراً. كان ناتاريو قد أجاب مباشرة على تفكيره، وقبل أن يفتح العقيد فمه ليعلن عن القرار المأخوذ:

– مناسب لأي شيء يا "ناتاريو"؟

تمطت الابتسامة قليلاً على ثغر المملوك. لولا عيناه الثاقبتان الصغيرتان لبدا شكله وديعاً مسالماً أقرب منه إلى البساطة. وحدهم الذين عرفوه عن كثب والذين رأوه يتصرف في اللحظات الحاسمة يعرفون كم كانت طاقته كبيرة على القرار والتفكير، وكم من الرجولة والقدرة على القيادة تتلطى وراء ذلك الوجه الجميل.

– لإقامة كمين كبير يا حضرة العقيد، لا أعرف مكاناً أنسب من هذا.

إنها الصدفة، بلا ريب، وليس من تفسير آخر، الأهم من كل هذا هو أن ناتاريو، إذا كان متكهناً بما في عقول الآخرين من أفكار، فلم يبقَ أمام العقيد من اختيار سوى أن يرسل أحداً لتصفيته.. ولكن مثل هذا القرار سيكون مبعثاً للأسف الشديد إذ ليس بالإمكان العثور على سركال بهذا الاقتدار في الطرائق وبلا عمل يقوم به.

كان ناتاريو قد بدأ يخدم العقيد منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، وبإخلاص وضع على محك التجربة أكثر من مرة: ففي الصراعات السابقة كان قد أنقذ حياة العقيد بمناسبتين.. وعندما كان قد وصل إلى أتالايا يطلب ملجأ بعدما قتل تاجراً في سوق بغاء "بروبريا" فإنه كان شاباً أجرد لا يعيره أحد أهمية.. أما اليوم، فإن اسم ناتاريو يملأ الدنيا، فيحترمه البعض وينظرون إليه بوقار، ويكرهه البعض الآخر، ولكن الجميع يخشونه: عندما يفتح فمه ليتكلم يخيم الصمت للإصغاء إليه، وعندما يشهر سلاحه ترى واحداً يصرخ "نجنا يا الله" والآخر "فليسلم بنفسه من يستطيع سبيلاً.

مقابل التفاني في الخدمة، وعده العقيد بوافنتورا بقطعة من الأرض مسجلة في الدائرة العقارية ليزرع فيها ناتاريو بستاناً من الكاكاو ويؤسس له مزرعة، وسيفي بالوعد ما إن تخمد الضجة. لم يندم العقيد على وعده: سواء تكهنت جيداً أم لا، فإن ناتاريو يستحق ما وعد به.

– أي مكان يصلح لتسليح نقطة مراقبة – كان العقيد يتجنب استعمال لفظة "كمين" – ويكفي أن يكون هناك شجرة في موقع ملائم ومراقب من ذوي الرؤية الحادة وجيد التصويب.

ازدادت شفتا ناتاريو افتراراً:

– سيادتك على حق ولكني أتكلم عن كمين كبير هو ما نحن بحاجة إليه. لقد سمعت الكثيرين يقولون إن الرجال الذين تعاقد معهم العقيد دالترو سيقدمون إلى إيتابونا خلال هذه الأيام، وربما اليوم أو غداً.. إن عددهم يفوق العشرين.

ورفع صوته:

– جذع شجرة ورجل واحد لا يكفيان.. لا يا سيدي.. لا يكفي.

كانا يرافقان تحركات العقيد دالترو وتعاقده مع المرتزقة، وقد جاء بعضهم من أماكن بعيدة بعدما تمّ اختيارهم بالأصابع ليكفلوا تسليم المحامي الصغير رئاسة البلدية بعدما تمّ انتخابه شكلياً، ومع غضّ المحافظ نظره.. بحق الشيطان لماذا كان المحافظ طرفاً في ذلك النزاع الذي يعنيهم وحدهم،

هم أسياد المنطقة، لماذا يحشر المحافظ أنفه ويأخذ القرار ما لم يكن مخولاً بذلك؟ لم يكن العقيد بوافنتورا يرغب في خلاف مع المحافظ، ولكن رئاسة بلدية إيتابونا موضوع شخصي وعلى العقداء تقريره، بالحسنى أو بالإكراه، بالاتفاق لا باللجوء إلى السلاح، ومن هو أقوى وأكثر معرفة فسيعيّن المرشح الذي يريده.. مع ذلك، ولكي يعطي الأمر الواقع شرعية، لا بدّ من إجراء انتخابات شكلية يجب أن تتم بعد القرار لا قبله.. أما الجار وقد اعتبر نفسه عليماً فإنه قدم التاريخ وأعلن المحامي الصغير فائزاً وهو مصرٌّ الآن على تسليمه رئاسة البلدية. إنها خدع مبتدئين يكرهها العقيد بوافنتورا.

بعد اجتياز منحنى النهر، أوقف ناتاريو مطيته:

– ليس ممكناً الصعود امتطاء، يا حضرة العقيد، فليس من ممر إلى هناك.. ترجلا وتركا المطيتين في عهدة اثنين من المرافقين، وتناول ناتاريو فأساً راح يقطع بها العوائق النباتية ويفتح ممراً أمامهما.. كان المزارع الكبير بجسده النحيل يتمسك بالأغراس ذات الجذور الشرسة أو يتشبث بالحجارة الثابتة، فهل يستحق الأمر كل هذا العناء؟ ولكنهما عندما وصلا إلى أعلى الهضبة لم يستطع العقيد أن يخفي دهشته وقد ترامى أمامه ذلك الامتداد المنبسط والوادي المتسع على ضفتي النهر، يا إلهي، أي منظر هذا المنظر الرائع، بهجة الأنظار.

– إنه المكان الأجمل في هذا العالم.

هزّ ناتاريو برأسه موافقاً:

– سأقيم بيتي هنا يا حضرة العقيد حين تنتهي المعركة وتفي بالوعد.. المكان سيتحول في يوم إلى مدينة.. وهذا أكيد، لا لأني سأقيم هنا، بل لأنه أمر لا بدّ منه..

كان ينظر إلى البعيد ويبدو كمن يرى أبعد من الأفق وأبعد من الزمن.

مرة أخرى وجد العقيد نفسه فريسة الشك: هل يكون هذا المملوك عرافاً بالمستقبل؟ ربما يكون دون علم منه بنفسه: كانت هنالك حالات علمت السيدة أرنستينا بأكثر من واحدة منها.. وكذلك أدريانا كانت تؤمن بالتخاطر والتنبؤ بالمستقبل، وفي هذا، كانت الاثنتان الزوجة، والعشيقة، متشابهتين، وأي فرق في ألا تكونا متشابهتين في الأمور الأخرى؟

وتابع ناتاريو:

علمت بأن المرتزقة الذين أرسل العقيد دالترو في طلبهم سيمرون من هنا ليصلوا إلى النهر دون أن يقتربوا من أتالايا. هل ترى ذلك المنفذ يا حضرة العقيد؟ ليس من منفذ سواه.. وإذا سمحت فأعطِ

أوامرك وسأكمن هنا، في الأعلى، مع حفنة من الرجال وأكفل لك أن وضيعاً واحداً منهم لن يصل إلى إيتابونا.. مكان أنسب من هذا لنصب كمين كبير لا يمكن أن يكون، يا حضرة العقيد. يكفي أن نصوب من هنا، من الأعلى، ونفتح أبواب الجحيم ليدخلها اللصوص. ابتسم: – يا حضرة العقيد، يبدو أن الله قد خلق هذا المكان، عمداً، لمثل هذا الغرض.

أحس العقيد بوافنتورا بخفقات قلبه تتضاعف.. ما عدا القوى الخارقة، فإن في ناتاريو ما يقلقه أحياناً: بالله عليه، بأي هدوء يجعل من الله شريكاً وحليفاً للعقيد! الحمد لله إن العقيد لا يزال يحتفظ به للخدمة، لأنه يعادل عشرة رجال واقعاً، وخيالاً.

– إنك ولدت لتكون عسكرياً يا ناتاريو.. لو أنك التحقت بالجيش ووقعت الحرب لكنت انتهيت إلى تعليق شارات ضابط كبير.

– إذا كان هذا ما يبدو لك، يا حضرة العقيد، وإذا كنت ترى أنني أستحق، فاحصل لي إذاً على رتبة نقيب.

– نقيب في الحرس الوطني؟

– لن تندم على ذلك..

– أجل، إني أعدك.. سأحصل لك على هذه الرتبة قريباً. ويمكنك أن تعتبر نفسك نقيباً منذ الآن.

– النقيب ناتاريو دا فونسيكا في خدمتك يا حضرة العقيد.. مكان أنسب من هذا لا يمكن أن يكون.

3

قبل مغادرة المزرعة، أمعن ناتاريو النظر في تفحص البنادق الطويلة والأخرى ذات المقابض القصيرة، والمسدسات: أسلحة من الطراز الأول تمّ اختيارها بالمعاينة الدقيقة وشراؤها بالذهب الموزون.. مزينة جيداً وجاهزة للاستعمال.. عمل وأعاد عمل كل الحسابات، وبحرص شديد على تجنب أي شيء غير مرتقب.. ليس في استطاعته تقديم الأعذار، وأكثر من ذلك فهو لا يريد أن يخضع لمحاسبة مشكوك في أمره.. لقد أكد للعقيد بوافنتورا أن أي وضيع يخرج من مزرعة كاسكافل لن يمكنه مواصلة الطريق إلى إيتابونا، وها هي كلمة وعده ورتبة النقيب في الميزان.. أما العقيد فقد ذهب ينتظر النبأ في إيلايوس.

الأمطار الغزيرة لم تنقطع عن الهطول منذ أسبوع. وأصبح السير في الطرقات التي تحولت إلى مستنقعات أمراً عسيراً، واجتياز الفرسخ الواحد أصبح يعادل الثلاثة في الأيام العادية. ومع نيته في اختصار مدة بقائه في الكمين فقد مكث ناتاريو ينتظر نبأ إعطاء العقيد دالترو الأمر للزمرة المسلحة ليبدأ تحريك الرجال.

تأخر النبأ في الوصول، إلا أن المحكوم عليهم بالموت كانوا قد أخروا بدء المسيرة من كاسكافل مدة يومين وهم ينتظرون عبثاً أن يهدأ الإعصار الهائل. الأمطار ازدادت غزارة ولم يعد لديهم سوى مواجهة الرحيل في تلك الظروف السيئة: كانوا مستعجلين لأنه يتوجب عليهم أن يصلوا في تاريخ معيّن.. وإذ نفد صبره فإن العقيد دالترو حضر وأعطى أوامره الأخيرة لبريللو: في إيتابونا يجب أن يقدم نفسه للأستاذ كاسترو، ويضع الجميع تحت أوامر الأخير.. أما ما هو متعلق بالرحلة فإن كوروبينيا سيكون الدليل: عداء صياد، وكشاف مجرب يعرف تلك المجاهيل شبراً شبراً، وسيجعلهم يمرون بعيداً عن الحدود المتماسة مع مزرعة أتالايا.. كان قد تمّ تحضير تلك الإرسالية بتكتم شديد كيما لا يبلغ خبر عنها إلى مسامع العقيد بوافنتورا أو جماعته..

وإذ أباح بالسر لبريللو وكوروبينيا فإن الباقين لم يكونوا على علم بالمكان الذي يسافرون إليه، فهؤلاء مرتزقة يدفع لهم ليقاتلوا وليسوا بموضع ثقة أو ذوي أهلية للقيادة، وبقدر ما يقل علمهم بالأمور يكون أفضل له.

– ماذا حلَّ بك يا بن الله؟ – قال بريللو لكوروبينيا عندما بدأت تظلم فانحرفوا عن الطريق باتجاه المنفذ الوحيد إلى هدفهم: – هل ترى عصفوراً أخضر أمامك؟ أو أنك خائف؟ ومن أي شيء تراك خائفاً؟

– إني أضع على أنفي بعض الطين حتى لا أضيع الاتجاه..

كان ممكناً أن يكون جدياً.. فالطين يعود ويتجمع ليمحو الآثار التي يجب أن تتبعها الخيول باتجاه النهر. كان كوروبينيا ينحني ويشم الأرض وينطلق إلى الأمام. كل خطوة كانت تقتضي جهداً، وعلى الظهر أحمال متعبة.. كان بريللو قد اتفق مع العقيد دالترو على المكان الذي سيقضون فيه الليل من ناحية الجسر الصغير، وسيكون صعباً الالتزام بالاتفاق.. الليل يهبط وهم تائهون في تلك الغابة العذراء تحت رحمة حاسة شمّ الكشاف وقد راحت تضعف أكثر فأكثر.. أما بريللو وإذ اشتبه بكوروبينيا فقد استنفر نفسه بنظرة حادة وأزمع على تأديبه بقتله.

في هذه الأثناء كان رجال العقيد بوافنتورا أندرادي قد اتبعوا الطريق الصحيح في هبوطهم ومع ذلك كانت المسيرة متعبة. كانوا قد وصلوا في الوقت المناسب لتسليح الكمين والبقاء في الانتظار.

4

المسامع المتأهبة للإصغاء تحاول أن تميّز وقع الخطى، وسط العاصفة، من عويل الرياح ودوي الرعد وتكسر جذع ضخم أدركته الصاعقة أو قلعته العاصفة. أما المقاتلون، مختبئين، ملتفين بالمشالح، موزعين خلف الشجر، عند أعلى الهضبة، فكانوا ينتظرون متوترين.. بالرغم من تعودهم تمضية الأوقات الطويلة في الكمائن، متكيفين مع المخاطر، متعايشين مع الموت، بالرغم من كل ذلك لم يستطيعوا أن يخفوا انزعاجهم من منازعة غضب الطبيعة في قفا الدنيا.. يحاولون المحافظة على الهدوء، ويتحينون لحظة الانقضاض، أما الخوف الأكبر فكان يعتريهم من ناتاريو: إنهم يستطيعون أن ينقذوا أنفسهم من الإعصار، ولكنهم إذا أرادوا أن ينقذوها من رصاصة السركال فأمر مستحيل وإن بأعجوبة.

بعدما تمّ تسليح الكمين وتعيين مركز كل واحد من المقاتلين حدّد ناتاريو كيف ومتى يدخلون في العمل، وفرض الصمت مشدداً على تحميل المسؤولية حين تبدأ المعركة: الويل لمن يخطئ في التصويب.. بعد ذلك ذهب ليتخذ مكانه حفرة طبيعية قرب جذع مولونغو، حيث يسيطر على الوادي بأكمله.

شهر مسدسه "البارابللو" واستوى متأهباً دون أن يأتي بحركة. إن عليه أن يطلق الرصاصة الأولى إشارة لسائر الرجال ليفتحوا النار، وعقاب الموت سينال في البدء من بريللو، رجل المسدس الذي تمّ استئجاره من الأغواس، ذي الشهرة المعروفة بالانحراف، وهو الذي يقود الحملة.. بعد بريللو سيهتم النقيب بكوروبينيا الكشاف، إذا أفلت هذا من الرشقات الأولى، أو إذا تمكّن من الإفلات من الهر الشرس بريللو إذا اكتشف الأخير خيانته. لم يكن النقيب يشعر بأي شعور إنساني تجاه كوروبينيا بالرغم من معرفته به منذ سنوات طويلة: كان كوروبينيا يخدم السيدين في آن واحد، ولأنه يبيع نفسه فإنه لا يستحق المواساة.. لقد ولد وشبّ في مزارع العقيد دالترو وغدا موضع ثقة وتقدير الأخير، ومع ذلك راح يعطي معلومات ثمينة لعدوه مقابل حفنة قليلة من المال: إن عدد القافلة ستة وعشرون فارساً؛ جيش كامل؛ وأعطاه معلومات عن الأسلحة التي يحملونها والوقت المحدد

للانطلاق.. واتفق معه على أن يقلّد نعيب البوم عندما تقترب القافلة كإشارة للكامنين هناك؛ وقد يفي بالوعد، وقد لا يفي.

أرهف ناتاريو سمعه محاولاً أن يتبيّن ضجة مشكوكاً في أمرها: لعله غصن تمّ كسره لينفسح مجال المرور ورافق وقع الفأس الكبيرة صوت فلغط – كانوا قد وصلوا إلى المنفذ وأصبحوا غير حريصين لأن الخطر قد أصبح خلفهم على تخوم مزرعة أتالايا البعيدة.. وربما استطاع ناتاريو أن يسمع نعيب البوم ولكنه شك في ذلك. من المؤكد أن كوروبينيا عندما يصبح على مقربة من هناك سيفر هارباً، فهو صياد لا شفاء منه، ويعرف مخابئ ودروباً فرعية عديدة.. هكذا تخيل، وهكذا حدث فعلاً.. لو أنه وثق بيهوذا لأضاع لحظة الهجوم.. إن ناكر الجميل لم يفِ بوعده.

الأسماع مرهفة. ناتاريو تكهن بوقع الخطى في الطين والدوس الحذر.. أشار بيده إلى الآخرين.. حدّق، وعلى ضوء البرق لمح بريللو. حرّك ناتاريو مسدسه؛ لم يتهور؛ ترك المتولد يتقدم إلى أن أصبح المرافقون على المرمى الأكيد.. تجهم ناتاريو: بحق الشيطان لماذا يشهر بريللو ابن الزانية مسدسه ويتطلع بحذر، مستجلياً الأماكن المجاورة باهتمام؟

رفع بريللو نظره إلى أعلى متبيناً الأمور بدقة. امتدت ذراع ناتاريو متمهلة – عن إذنك يا حضرة العقيد – وصوب إلى الرأس.. ثم اندلع تبادل إطلاق الرصاص في أعلى الهضبة.. اللغط والارتباك سادا المكان. في الأسفل المرتزقة يردون على الرصاص عبثاً ولا يعرفون في أي اتجاه يسددون.

مذبحة كما أكد العقيد دالترو. لم يكن لديه أي علم بوجود كمين بهذا الحجم، حتى في الصراعات الأولى بين آل باسيليو وبادارو.. وكان ذلك الكمين ليبقى في التاريخ: توكايا غراندي.

5

لم ينجُ أحد من أزلام العقيد دالترو المشهورين بحمل السلاح وقد جيء بهم من سرجيبي ديل راي، أرض الرجال الشجعان، ومن الأغواس أرض المحترفين. فعندما هبط المقاتلون من الهضبة، متبعين ناتاريو، لم يكن لديهم غير القليل من العمل وهو الإجهاز على الجرحى، أو القضاء على البعض ممن تسلقوا الأشجار تفتيشاً عن ملجأ، ومن أعلى الأشجار دفعوا غالياً ثمن الحياة التي حاولوا النجاة بها.. وكان على مقاتلي ناتاريو أن يضطهدوا اثنين أو ثلاثة ممن كانوا يزرعون الرعب حيثما وصلوا.

بعدما انتهى إشبيريداو الزنجي من اصطياد أولئك، عثر على جسد كوروبينيا، قرب صخرة حاول أن يختفي خلفها بالتأكيد: عندئذ فهم ناتاريو لماذا كان بريللو شاهراً مسدسه ويسير بحذر وغيظ.

تمّ تمزيق جسد كوروبينيا بالسكين، واقتلعوا قلبه وخصيته، وهذه عادةً كانت تروق كثيراً للمرحوم "شهم" الأغواس.. لقد رأى ناتاريو أن تصفيته عدل.. ولو لم يقتله بريللو لكان هو نفسه ناتاريو من سيقوم بالواجب.. ووافق على استعمال السلاح الأبيض لأن من يجعل الخيانة عمله لا يستحق أن يموت بالرصاص.. ولكن ناتاريو لم يكن يوافق على المَثُلَة (العقوبة): إن القضاء على خائن بالرصاص أو بالطعن، شيء، والتمثيل بالجثة شيء آخر، مختلف تماماً.

لم يسمح ناتاريو بأخذ الأسلحة المستعملة ذات الفائدة المحدودة.. ومع اشتداد الظلام غادروا المكان.. وعاد الرجال بأمر من الزنجي إشبيريداو إلى مزرعة أتالايا..

أما ناتاريو فقد اجتاز الجسر الصغير وتابع المسير إلى محطة السكة الحديد ومن هناك أبرق بالصيغة المتفق عليها، ولكن مع تبديل صغير في التوقيع: فبدلاً من ناتاريو: النقيب ناتاريو.

عندما بلغ منحنى النهر، نظر إلى الوراء وقد تذكّر أمراً. لم يعد يتذكر تبادل الرصاص والأجساد الممزقة، ورأس بريللو المهشم، وكوروبينيا مسلوخاً بالسكين وقد اندفع قلبه إلى خارج صدره.. كان يحمل في عينيه وذاكرته المنظر الليلي وسط الإعصار: المرتفعات، والوديان مغمورة بالمياه، والنهر ببطن منتفخة كأنه حامل، فيا للروعة! مكان أجمل من هذا، ليلاً أو نهاراً، مشمساً أو ممطراً، لا يمكن أن يكون.. ومكان للعيش أجمل منه: لا يوجد.

فنتورينيا، الطالب في كلية الحقوق،
يبدأ الحياة العامة

1

قدم فنتورينيا لقضاء عطلة القديس يوحنا، لدى وصوله بوجهه الذي يطفح حماساً، وضحكته السهلة المعبرة عن الرضى، وبعدما عانق ناتاريو في محطة سكة حديد تاكاراس، علّق بقوله:

– العقيد دالترو إذاً، قد خلع بنطاله وطلب الصفح.

وصحح السركال:

– إن رجلاً بمستوى العقيد دالترو لا يطلب الصفح يا فنتورينيا، بل الهدنة..

لم يكن ناتاريو ليمتنع عن قول أي شيء أمام ابن السيد.. ففنتورينيا لم يكن قد أكمل التاسعة من عمره عندما التحق ناتاريو بالمزرعة وأصبح تابعاً للعقيد.. وتعلق الفتى بالمستزلم الجديد وراح يسافر معه رديفاً على سرجه، متعلماً تقليد أصوات العصافير واستعمال السلاح. أما الفتاة الأولى التي تعاطى معها فنتورينيا فقد كانت بدفع من ناتاريو وهي البيضاء البشرة جوليا المتجولة بلا حقائب من ريف إلى ريف وأفضل منها مواصفات لم تكن سوى المدهشة فورموزا.

– كذا أو كذلك – بعدما امتطى مطيته واتخذ الطريق – فإن العقيد دالترو قد تمّت تصفية زعامته السياسية. ولكن حظه الكبير هو في كونه قد ذهب ليعالج الموضوع مع الختيار ذي القلب الطيب.. لو كان الأمر منوطاً بي لكنت أنهيت مرة واحدة هذا الوضيع، ولكنت أتلفت مزرعته وأحرقت أشجاره وتركته وبيده وعاء يطلب الحسنة.. ولكن والدي رقَّ قلبه ووهن.. ألا تعتقد أن الختيار كان يجب أن يمضي حتى النهاية ليستفيد من المناسبة؟

لم تتغير نبرة صوت ناتاريو الذي يعرف جيداً الانفعالات السريعة لدى الشاب:

– ممكن أن يكون، وممكن أن لا يكون.. ولكنك تكون مخطئاً إذا اعتقدت بأن العقيد لم يمضِ حتى النهاية لطيبة قلبه.. لم تكن طيبة، لا بل حكمة. نحن بأمس الحاجة إلى السلم حتى نهيئ الغابة لزراعة الكاكاو، وهنالك مساحات شاسعة يا فنتورينيا: ولو أن العقيد بوافنتورا وضع النار في مزارع العقيد دالترو لكنا اليوم نقاتل نصف العالم في معركة موت أو حياة.. إن أباك يعرف ما يفعل، ولهذا تراه في الأعلى آمراً ناهياً. في ساعة المعركة لم يضعف ولكنه لم يشأ أن يعلم شيئاً عن الاتفاق.. والناس لا يجب أن تقاتل إلا عندما لا يعود هنالك طريقة للعيش بسلام.

– أأنت الذي تقول هذا؟ أأنت الذي قضى حياته بإصبع على الزناد؟ أأنت ناتاريو "سركال" العقيد بوافنتورا؟

ابتسم ناتاريو وكادت عيناه الناعستان أن تغمضا:

– صحيح أنك أوشكت على إنهاء دروسك في الكلية وعما قريب تصبح مجازاً ولكن بقي لك الكثير لتتعلمه.. على كل حال لكل حادث حديث، ولكل ساعة فعلها: وقت لإطلاق الرصاص وآخر للتفاوض.. قل لي: إن فنتورينيا الآن سيبدأ بإثبات جدارته، وفي هذه المرة هو الذي سيحل كل المشاكل، وسأرى كيف سيخرج من هذه الإشكالات.. يجب أن لا تنسى أن كل الناس في إيتابونا تقرأ في كتاب العقيد دالترو، فواحد عرّاب، والآخر فليون، وثالث ابن بالتبني، كما أنك، هناك، لن تتكلم عن إشعال النار في البساتين وإلا أضعت كل شيء.. إنك شديد الحماس فوفّر حماستك لتصرفها على الفتيات.

– للكلام عن الفتيات فأنا لن أخبرك يا ناتاريو – ولكنه بدأ يخبر.

لم يكن ناتاريو قد أطلع فنتورينيا على قرار العقيد أن يرسل الابن للتفاوض بدلاً منه، لأن الأمور الصعبة قد تمّ حلها، والنقاط الرئيسية من الاتفاقية قد حددت وتمّ التواضع عليها.. فالمكاسب سيتم تسجيلها رسمياً، وسيلغى الانتخاب كما سيتم اختيار مرشح جديد لمدة جديدة.. بالرغم من ذلك فإن المرشح يمكن أن يكون هو نفسه المحامي الذي يدعمه المحافظ.. كان العقيد قد استعرض الأمر مع ناتاريو، معلقاً على الترشيحات الأخرى المحتملة:

– ألا تريد أن تكون رئيس بلدية إيتابونا، يا ناتاريو؟

سأل فنتورينيا وهو يضحك للفكرة الفريدة.

ولكن ناتاريو لم يضحك، بصوته الرخيم:

رئيس بلدية إيتابونا؟ لا، لا يا سيدي.. لا أريد أن أكون.. من هو أقل نفوذاً وأضعف قراراً في إيتابونا إنما هو رئيس البلدية.. بالأمس كان يحكم هناك العقيد دالترو، واليوم، فمن يأمر هو سيادتك.. أما أنا فعندما أحكم مكاناً وإن يكن المكان حفرة في آخر الدنيا، فإن من يأمر هو أنا.. أنا ولا أحد آخر.

كان طلب "رتبة نقيب" قد أنجز وتمّ تقديمه إلى مديرية شرطة الحرس الوطني في الريو دي جانيرو، ولكن الرتبة لم تكن قد وصلت بعد، مما لم يمنع التعامل مع ناتاريو كنقيب منذ أن تولى مهمة تنفيذ مخطط السلام بكل تفاصيله في إيتابونا.. لقد أضاف الأجراء والأزلام اللقب إلى اسم ناتاريو، وكذلك فعل التجار والمزارعون والمحامون وموظفو قصر العدل، ابتداء من قاضي الأمور المستعجلة، ومع كل الاحترام الواجب للوظيفة والشهرة.

وفي رسالته إلى القاضي التي حررها بمساعدة ابنه فنتورينيا، فإن العقيد بوافنتورا أندرادي طالب باستحقاقات ممثليه ومكافأتهم.. كان العقيد يكتب ويقرأ بصوت عالٍ ما يكتبه بينما فنتورينيا وناتاريو يصغيان:

– ... ابني، الطالب في الحقوق.

وقاطعه الشاب:

– "الطالب في الحقوق"؟ لا يا أبي.. إني في السنة الأخيرة من الدراسة وفي كانون الثاني/يناير المقبل سأتخرج، فأنا إذاً مجاز في الحقوق، وقريباً "عليم".

– ... "أقول المجاز بوافنتورا الابن"...

– الابن، يا أبي، لا... ضع الأصغر، جونيور، هكذا أنا في الحقيقة.. وكلمة جونيور أحدث، عصرية..

– بالنسبة لي "ابن" وكفى. لقد كتبت ولن أجازف بغير هذا، أنا أيضاً لا أحب الغرائب.. أنت لست ابن سفاح، إنكليزي أو سويسري: – أقفل الجدال وتابع القراءة والكتابة: – ... "والنقيب ناتاريو دا فونسيكا، الملاك الريفي، وذراعي اليمنى...".

نقيب وملاك: إن العقيد لم يبدُ عقوقاً أو وضيعاً...

ولكي يمنح ناتاريو الأراضي الجديدة فإن العقيد طلب تسجيل بعض الدونمات في الدائرة العقارية باسم ناتاريو، وما هو كافٍ لزراعة الكاكاو.. وهذه الأراضي لم يكن ممكناً مقارنتها بثروة العقيد، أحد أكبر المزارعين في المنطقة. ولكن ذلك كان بداية جديدة لحياة جديدة. لم يبدُ العقيد وضيعاً. وعلى العكس بدا كريماً، وهكذا يكون منح تلك الغابة العذراء لناتاريو قد تمّ ليلة الكمين الكبير وأصبح ناتاريو المالك الحقيقي لها. في المكتب العقاري في إيتابونا، ذهبوا لإعطاء شرعية للأمر الواقع،

خاضعين بذلك لشروط المفاوضة القانونية ورغبة العقيد.. أولاً الكمين، وثانياً المفاوضة، وبتعبير أصح، بالنسبة إلى العقيد: أولاً "برج المراقبة" وثانياً القانون.

كانت تبدو حملة عسكرية أكثر منها بعثة سلام: خمسة عشر مسلحاً من الرأس وحتى أخمص القدمين يقودهم الزنجي إشبيريداو. لم يكن مرغوباً فيهم في الحقيقة، لأن العقيد دالترو كان قد انسحب من النزاع، ووفقاً للإشاعات، فإنه انسحب أيضاً من السياسة متخلياً عن التزاماته السابقة.. الرجال والأسلحة لم تكن أكثر من برهان على قوة زعيم أتالايا، وعرض للغنى والقدرة، وذلك، وحسب زعمه، بغية فرض السلام الذي تمّت مناقشته مؤخراً.

كأنه العيد في إيتابونا. واحد من هنا يناديه بالنقيب، وآخر من هناك. تمّ كل شيء بعناية ودراية فائقتين، وبدا القاضي ناعماً كالحرير وهو يتعامل مع فنتورينيا كزميل، ويرحب به بكلتا يديه الضاغطتين.. أما المحامي الصغير الأستاذ كاسترو الذي كان مفروضاً ببريللو أن يتقدم منه ويضع نفسه في تصرفه، فإنه كان سيبدو أكثر حزناً وأسفاً لو لم يتم تعيينه رئيساً للبلدية بعد مفاوضة عادلة ومطلوبة.. وتمكّن فنتورينيا من احتواء لسانه وحفظه، ولم يظهر دلائل العظمة كما أنه لم يظهر نفسه بمظهر الشجعان، ولم يهدد السماوات والأرض بمسدسه الألماني – المحترم – التحفة. لم يفعل ذلك حتى عندما تعتعه السكر في الملهى وأراد أن يتحرش علناً بالبرنامبوكانية دوراليسي، صديقة العقيد كابوسو الذي كان غائباً بالمناسبة والحمد لله.. لقد أقنع ناتاريو الشاب فنتورينيا بتركها وشأنها وذهب إلى الخارج.

في المكتب العقاري لم تلقَ الشكليات التي كان العقيد قد هيأها أية صعوبة في التسجيل وتسليم صكوك الملكية التي تضفي الشرعية على امتلاك العقيد بوافنتورا أندرادي لتلك المنطقة الواسعة، وامتلاك النقيب ناتاريو دا فونسيكا لقطعة الأرض الصغيرة.

في الملاهي والنزل الصغيرة استمرت الحيوية طيلة الليل.. وراح مرتزقة مزرعة أتالايا يفرطون في صرف المال الذي أغدقه الزعيم السياسي الجديد بامتياز، فأصبح الله في الأعالي والعقيد بوافنتورا على الأرض.

بينما تجلس عند فتحة الباب المشرفة على الشارع، فإن "ماريا داس دورس" عندما رأت ناتاريو يجتاز شارع أمبوزيرو فإنها أشارت إليه بإصبعها وأوضحت لزيزينيا دو بوتيا الآتية حديثاً من لاغارتو:

– "ذلك هو ناتاريو"، "سركال" العقيد بوافنتورا، رجل سيئ، ولا يوجد من هو أكثر عنفاً منه.. هو نفسه لا يعرف عدد الجرائم التي ارتكبها.. وقد لا تصدقين أن هناك امرأة مغرمة به حتى الجنون، فلينجني الله، ويعتقني.. وبصقت باحتقار.

مقوسة الردفين، وذات صدر نافر، السمراء الساحرة زيزينيا دو بوتيا بالرغم من كونها قد وصلت حديثاً إلى المكان فإنها كانت قد اطلعت على الكثير من الأخبار، وأجابت:

– لقد سمعت عنه أشياء تختلف كلياً عما تدعين. وعلمت أن النقيب ناتاريو، الثري، الوديع ذو قلب طيب. ويقال إنه لم يسئ أبداً إلى امرأة.

وتنهدت زيزينيا مسحورة وهي ترافق ناتاريو بنظرها. لقد كانت زيزينيا دوبوتيا، كما يقال، في زهرة العمر والنعومة، يتقاتل الرجال من أجلها. ونادت على الغلام الذي كان منهمكاً بالأكل وهو يجلس على الأرض.

– اركض يا "مانو" في إثر الشاب الذي يسير هناك. اطلب منه البركة وقل له إنني بانتظاره، وأنه يستطيع أن يأتي إلى هنا متى شاء، وليس من الضروري أن يأتي معه بمال.

بالنسبة إلى البعض فهو مجرم، ذو قلب يخلو من الرحمة، ولص بلا أحشاء، وبالنسبة إلى البعض الآخر هو النقيب الشهم ذو الطبيعة الإنسانية الطيبة ومعشوق النساء.

3

قبل أن يغادر المزرعة ليذهب إلى إيلايوس ويمضي أيام العطلة الأخيرة مع الوالدة السيدة أرنستينا شفيعة كل الفضائل، فإن فنتورينيا أراد أن يتعرف إلى المكان الذي وقعت فيه الواقعة، ويريد أن يرى بعينيه، ويعلم العلم الأكيد، معطياً التفاصيل قيمتها.

وإلى هناك أخذه ناتاريو:

– إنك سترى منظراً طبيعياً هو هبة السماء..

بين أحجار المقبرة التي حفرت على عجل كانت الأعشاب قد ازدادت كثافة والغرسات الصغيرة تكاد تصبح أشجاراً، وتفتحت الزهور.. أما أخبار المجزرة التي راحت أحداثها تتضخم من لسان إلى لسان، فإنها اجتذبت الكثيرين من الفضوليين الذين كانوا ينحرفون عن الطريق ويذهبون إلى مكان الكمين. أما المنفذ الوحيد الذي كانت أقدم الحيوانات قد شقته فإنه أخذ يزداد عرضاً مع حركة

الزائرين، وتحول إلى درب.. وتفتيشاً عن اختصار الطريق فإن قافلة من البغال المحملة بأكياس الكاكاو كانت الأولى التي انحرفت في ذلك الاتجاه.

جهد فنتورينيا في بلوغ الهضبة جهداً مضنياً، فهو ذو جسم بطيء الحركة، كأبيه، وسريع العطب كأمه. وقف وراء جذع المولونغو الذي أزهر الآن، وشهر مسدسه الألماني وصوب إلى نَبْوَة في الدرب الصغير وفتح النار.. وراح الصدى يتردد في مطبات الغابة الكثيفة.

– لا بدّ من أن المشهد كان مثيراً يا ناتاريو. أليس كذلك؟ إني أشعر بالخوف في هذه اللحظة.

هل سمع ناتاريو ما قال فنتورينيا؟ كان نظره قد ضاع في الأفق والزمن. كل رجل يحتاج إلى بيت يسكن فيه مع زوجته وأبنائه، في المكان الذي يحبه أكثر من سواه، وكان لناتاريو زوجة وأربعة أولاد.

– كان على الختيار أن يضع يافطة هنا، كما يفعلون في ساحة المعركة.

لماذا اليافطة؟ ألم يكن كافياً الاسم الذي أطلقته ألسنة الشعب؟ محلة الكمين الكبير؟ ومع الزمن، وتنامي السكان، غدا الاسم: توكايا غراندي.

موقع لقضاء الليل

إله الموارنة يقود البائع المتجول
فضول عبد الله إلى جنات عدن

1

أشجار الكاجا البرية التي نمت فوق المقبرة المحفورة على عجل كانت قد أعطت ثمارها الأولى عندما اكتشف فضول عبد الله روعة ذلك المكان بعدما تاه في تلك المجاهِل.. لبناني ذو قامة قوية، وكل شيء فيه أكبر مقاساً من العادي، اليدان والرجلان، اتساع الصدر وكبر الرأس والرقبة – كان قد حمل في ملاهي إيلايوس وإيتابونا لقب "البزرة التركية"، لكنه في طرقات الكاكاو كان معروفاً باللبناني فضول أو ببساطة بالسيد فضول كما يناديه الأجراء الذين توسموا فيه العناية الإلهية.. وإذ انبهر فضول بروعة المكان فقد تراءى له أنه وصل إلى جنات عدن الموصوفة في الكتاب المقدس الذي كان يحمله معه في حقيبة "المسقطي" لأنه عندما تتاح الفرصة أو تقضي الضرورة فإن السيد فضول كان يعمد طفلاً بسعر الجملة.

أنزل الحقيبة الثقيلة عن كتفه، وقد كانت تزداد ثقلاً كل يوم، ووضع جانباً القياس المتري الذي اختزله إلى نصف متر بطيه طيتين متساويتين، والذي كان يستعمله معلناً للأغنياء والفقراء وجود التجارة "والموضة" في تلك المجاهِل.

كان يحمل في الحقيبة من كل شيء: الضروري والباذخ، الأقمشة الحريرية منها والمستخرجة، الجيدة والرديئة، والجزم، والكنادر الواطئة الكعوب، والخيوط والإبر والكشاتبين، والعقاقير السائلة المصنوعة من المياه الملونة التي كلفها أحد القديسين ووصفات طبية مصنوعة من الأعشاب لمعالجة كل أنواع الحمى.

خلع سترته وقميصه وبنطاله وسرواله، فظهرت على ظهره آثار الحقيبة المعلقة على كتفيه ثم نزع نعليه وغطس في ماء النهر الذي كان يتسع في تلك الناحية مشكلاً حوضاً من المياه العذبة النظيفة المتجمعة فوق حجارة بركانية سوداء.. سبح واستمتع بالمياه وهو يلاعبها بيديه كما كان يفعل في طفولته عندما كان يسبح في النهر في قريته ومسقط رأسه.. ولاحظ فضول أوجه الشبه بين المكانين، ما عدا أن أشجار النخيل التي كانت تنمو هناك في السفوح والوديان لم تكن مثمرة.. وقضى على جوعه وهو يلتهم الكمثري الفائحة الرائحة العطرة، من الفردوس، وهبة الله، إله الموارنة.

وكانت ثمار الكاجا منثورة على الأرض تحت الشجرة التي تفيأ في ظلها هرباً من الشمس.. ولملم بعض الثمار وهو يضحك لنفسه عارياً.. تذكر نفسه يافعاً متدثراً بالجلابية وهو يقطف التمر: إنه الآن كبير جداً، وحر لا يقيده شيء.. عندما غادر لبنان كان قد أكمل الخامسة عشرة.. وطعم الكاجا حامض ومز، ومختلف جداً عن طعم التمر المعسل، لكنها كلها ثمار وقد خلقها الله ليتمتع الإنسان بتذوقها.

كان فضول قد تعلم أن يؤمن بالله على يد عمه سعيد عبد الله الكاهن الماروني المشهور بنصائحه وشهيته للطعام.. وكانوا يأتون إليه من البعيد ليستشيروه، ويجيئونه بالتمور والعنب التي كان يأكلها كمشات بيده وهو يحل المشاكل العالقة ويبشّر بمواسم الحصاد بينما عصير العنب يسيل على لحيته الطويلة السوداء.

كان قد تغيّر كثيراً خلال خمسة عشر عاماً، فلم يعد يعرف عمه، وقد لاحظ فضول ذلك وهو يمضغ الكاجا حبة تلو الأخرى؛ لقد تغيّر من الداخل والخارج وأصبح يفضل الكاجا على التمر وأما العنب فلا ينقصه.. لقد عاد ليولد من جديد في تلك الأحراج، والفتى الذي كان يرتدي الجلابية بقي وسيبقى إلى الأبد من الناحية الثانية للبحر.

لقد قسم الله حياة البشر إلى واجب ومتعة، وبكاء وضحك، أما المتعة التي لا حدَّ لها في أن يكون حيث هو الآن، يمتص الكاجا عند الأصيل، ويصغي إلى زقزقات العصافير فهي إحدى روائع الله وها هو يرتاح هناك من نضال الأسابيع الأخيرة ومن تعب المسيرة التي لا نهاية لها، ومن الأخطار المحدقة به في كل لحظة، والبائع المتجول مع حقيبته لا يعرف يوم أحد أو يوم عيد. إن الله قد أضله السبيل في ناحية الشمال ليكون له يوم يرتاح فيه وينظّف جسده وروحه.

لماذا لا يبقى هناك، في ذلك الوادي الساحر، كما الحيوانات التي تستدفئ الشمس، أو تغط فوق الصخور. كان قد تعلم أكل لحم العرانيق وتذوقه وهو يمص أصابعه بعد أكله.

الطعام وفير، وهناك الكثير من الصيد والثمار، والمياه النقية تهبط من الينابيع، إنها الجنة! ضحك فضول عبد الله ضحكة عالية، مدوية، تليق بهامته العملاقة فأقلقت الضحكة الببغاوات والقرود.. في هذا الفردوس كان ينقص الشيء الأساسي وهو المرأة.. عندما فكّر في المرأة خطرت له زيزينيا التي كانت في تلك الساعة تركب له القرون في إيتابونا.. إنه لا يستطيع أن يفرض عليها أن تقفل مطارحها، فهذا ابتزاز، ومن أجل أي شيء؟ ألأنه ترك لها في لحظة مجون قطعتين من

فئة العشرة آلاف ريس، ومرآة مذهبة الأطراف لتنظر إلى نفسها متنهدة، لا.. لقد كانت تضحك في وجهه وتقول:

– لبناني ابن ملعونة، أكل البصل الني..

– لبناني؟ لا.. حسني لفظك.. "بزرة – تركي؟ يا جميلتي، عبدك وسيدك..

لقد كان صاحب موهبة في المزاح ومن المؤسف أن لفظه لم يكن يساعده.

2

أحب فضول المكان الذي قضى فيه ليلته. كان قد جمع حطباً وأشعل النار ليبعد الأفاعي، وارتدى سرواله وقميصه ثم تمدّد فوق الأوراق اليابسة. تأخر لينام وهو يفكر. على ضفة النهر كانت العصافير الاستوائية تزقزق مؤذنة بطلوع القمر.

وصل إلى البرازيل منذ خمسة عشر عاماً وكان قد جاء ليعمل ويثري.. إن الإثراء هو هدف كل الرجال، ولبلوغه، فقد منح الله الإنسان روحاً وذكاء؛ البعض يؤدون الرسالة، مجازفين، عملاً بوصية الله، ويربحون ويستقرون، والبعض الآخر يفشلون: روح ضعيفة، ذكاء محدود، أو تفرغ قليل للعمل مع الكثير من سوء التصرف والكسل. وكان فضول يمسك في يده بالمثل الحي على ذلك. وعند طاولة القمار في فندق كويليو في إيلايوس، هناك ألفارو فاريا الروح الطيبة، الشجاع الصقر في الذكاء، الذي لو أراد لتمكّن من أن يكون عقيداً كأخيه المليونير الثري الذي يملك عمارات ومزارع كبيرة. ولكنه لم يكن أكثر من عاطل عن العمل ومتسكع لا حول له ولا قوة، ويعيش على "الله يعطي". ولولا مائدة العرّاب جوان الغنية، والحظ في القمار وهو حظ يستدعي الشكوك والتحفظ والدهاء في الاحتيال، لمات جوعاً.

حتى الآن، عمل فضول كحمار يحمل الأثقال، يضرب في الأفق يائساً، وهو يجتاز المجهول ويواجه المخاطر، من الأفاعي، وأنواع الحمى، وتهديدات المجرمين، والقتلة ببرود.. في تلك التجارة الجوالة، فإن المسدس الذي أهداه إياه النقيب ناتاريو كان مهماً للغاية لحماية الحقيبة المليئة بالخشاخيش والأشياء الغريبة.

لم يصبح ثرياً، بعد، وهو لا يزال بعيداً عن تحقيق هذا الأمر. ولم يستقر، كما قرّر أن يفعل، في محل تجاري في مكان من تلك الأماكن الآهلة المنتشرة في عالم الكاكاو، أو في إحدى نقاط الالتقاء

بين المزارع حيث يمر الحداة وقوافلهم.. لم يكن بمقدوره أن يشتكي: لقد خطا خطوته الأولى وعلى الأخص بعد أن بدأ يسلّف المال بالفائدة.

كانت النجوم تتضاعف في كبد السماء.. وفؤاد كرم الذي يقرأ كتباً بالعربية والبرتغالية، المواطن المنور، الأكثر ثقافة من نصف دزينة من المحامين، المسؤول عن تلقيب فضول "بالبزرة التركية" ذلك اللقب الذي استنبطه عندما رأى فضول محاطاً بفتيات الملهى – كان قد أكد له أن هذه النجوم التي يرونها هنا ليست هي نفسها التي تسطع في سماء الشرق حيث ولدا. أما "البزرة التركية" فإنه لا يشك في ذلك ولكنه لا يستطيع أن يتبيّن الفرق: إن النجوم كلها متشابهة.. ولكن القمر المنعكس على صفحة مياه النهر هو نفسه، هنا وهناك: ميدالية من الذهب الخالص، كبيرة صفراء، وفيها القديس جورجيوس يركب على حصان وهو يطعن التنين برمحه.. إن الشرق الذي استشهد به فؤاد كرم ومسقط الرأس قد ضاعا في المسافات البعيدة، ولاجتيازهما سيكون من الضروري اجتياز البحر من ناحية إلى أخرى على متن المراكب.. وإذا كانت النجوم مختلفة، فإن الثمار لا تنقصه وهو أصبح يفضل الكاجا على التمر، ولديه هنا ما يكفيه من النجوم.

مسقط الرأس بعيد ومنسي. إن فضول عبد الله "البزرة التركية" في أفواه العاهرات، اللبناني فضول في البيوتات الكبيرة، السيد فضول على أفواه الفقيرات البائسات، يعرف أنه جاء إلى البرازيل ليبقى فلم يأتِ معه بتذكرة العودة، وفي مكتب الهجرة ذرف الدموع ولم يُبقِ دمعة واحدة.. فهو لم يُغيّر فقط بلده وطبيعة بلاده، لقد غيّر وطنه، إنه لبناني بالدم والولادة ويلقبونه بالتركي جهلاً، لذا لو كانوا يعلمون كيف يرون ويلاحظون لتضرعوا إلى الرياح الأربع لتأتي إليهم بأمثاله.

إن وطن الإنسان هو المكان الذي يعرق فيه ويبكي ويضحك وحيث يجد ليكفل حياته ويبني محلاً تجارياً وبيتاً عائلياً.. وإذا كان وحيداً مع الليل والنجوم في ذلك المكان المجهول الذي قادته إليه يد الله، فإن فضول عبد الله اعترف بالوطن الجديد وقبل به. هناك لم يبصر النور ولم يتعمد، ولكن كل هذه الأمور تفاهات وتفاصيل محتقرة: وما هو أهم من المهد فهو اللحد، وقبره سيكون في أرض الكاكاو، ولن يكون قبراً مسطحاً كتلك القبور القائمة هناك ولا يعرف لمن، ولماذا؟

إن قبره سيكون ضريح سيد كبير مبنياً بالمرمر، "وهنا يرقد" ستكتب بحروف ذهبية. في هذه السنوات الخمس عشرة، ها هو الفتى القادم من الشرق ليصبح غنياً وقد أصبح برازيلياً.

في الحقيقة كان يعتري فضّول نوع من الانكسار وهو يدفع رشوة إلى أوبالدو مادوريرا الكاتب في مكتب الجنسية. هي بدل تزوير معلومات استمارة التجنس وسعر الأوراق.. وها هو برازيلي بأوراق مختومة وصحيحة، تاجر مستقر، متزوج وله أولاد؛ الأعمال مزدهرة والمال يجر المال: كل هذا سيتم تحقيقه قريباً إن شاء الله.. إنه يواجه قدره كما أوصاه عمه سعيد الذي، وهو يعطيه البركة في ساعة الفراق الحزينة والسعيدة، امتزج عنده الضحك بالدموع!

– اذهب، واعمل بمشيئة الله، يا فضول، يا ابن أختي المرحومة مريانة، اذهب واربح مالاً في البرازيل لأن جمع المال هنا صعب، وأنا لم أعد قادراً على أن أعيلك.. اذهب واثرِ، فالرجل الثري يحترمه الناس وينظر إليه الله نظرة جيدة.

رسم الكاهن سعيد إشارة الصليب في الهواء، وأعطاه يده ليقبلها.. وإذ استوعب الموعظة فإن الفتى هبط من الجبل وبدأ الرحلة الطويلة.. وإله الموارنة هو نفسه هنا وهناك.

3

أشهر عديدة انقضت قبل أن يعود فضول إلى ذلك المكان. كان قد واصل تحمل التعب في حمل الحقيبة، وبدأ ظهره يتقوس قليلاً بسبب ثقلها، تحت وهج الشمس وهطول المطر. كان الزبائن يحيونه بحرارة وعطف لأنه، أبعد من كل شيء، كان طيب القلب وصاحب حديث طريف.. يحب أن يسمع القصص ويرويها، وهو في الحالتين يتجاوب معها بالتعجب وتبديل السحنة وحركات عريضة مقنعة وقهقهات ضحك مدوية.. والتصق به لقب "كذاب" ولكن الترهات التي كان يرويها ممتعة ومثيرة، وتسبب الانفعالات العميقة لمستمعيها في تلك الأماكن النائية المجردة من كل متعة:

– .. إنها ولا حكاية أطفال..

– .. إلى حدٍّ أنني بكيت..

– .. لقد شعرت بالحاجة إلى التبول لشدة الضحك وهو يروي قصة المرأة التي يرافقها القرد..

– .. هذا "التركي" اللص يثير قلق كل النساء..

كان زبائن فضول متنوعين وكثيرين، الزوجات والآباء، أهل الماء والترف، الأجراء والعمال في مزارع الكاكاو الذين يكادون لا يملكون نحاسة واحدة، المرتزقة وعشيقاتهم، فتيات الهوى وهن أفضل الزبائن ويشترين أكثر من سواهن.. وكان بائع الكشة اللبناني لا يميّز طبقياً أو عنصرياً، ويقبل

الدعوات إلى الغداء في البيوت الكبيرة وفي مساكن الأجراء على قدم المساواة، ويعبد عبادة الطرائد البرية المُسَمَّنة ترافقها الطحينة المخلوطة بالتوابل.

كان فضول يتمتع بشعبية في أوساط النساء العموميات.. ولم يكن يتردد قط في استلام سعر علبة طلاء صغيرة أو قنينة لا قيمة لها أصلاً في فرض فائدة ما على القروض الصغيرة لهن. وفي أحيان قليلة، كان يهب في أيام المجون وعندما يأخذ الحب منه فيتناسى الإمساك: خواتم معدنية مرصعة بقطع من الزجاج تبهر النظر، وهكذا بعض الأشياء التي تبدو جميلة للواتي يحصلن عليها باندهاش كونها دلائل على الحياة المرفهة ولا يدفعن بدلاً عنها كميات من المال.. كان فضول عاطفياً ويتوله في بعض الأحيان، ولديه وله بالفتيات ذوات الأرداف الكبيرة والصدور العالية.. أما المرأة الهزيلة بالنسبة إليه فليست بذات قيمة، ومن يقدر العظام فهو حفار القبور، هكذا يقول الناس المنطقيون.

كان لفضول فلايين وأشابين عديدون كونه معروفاً ومحترماً في المزارع والقرى... وهو شديد الثقة بأي كان، ولكنه في يوم الاستحقاق، قبله أو بعده بساعات، كان يصل ليحصل على الدين الذي لديه، وإذا حدث أن بدل الزبون مكان إقامته فإن فضول يذهب لاكتشاف مكان الإقامة الجديد وحيثما هو، فيسير فراسخ وفراسخ لا يني ولا يكل. كما أنه كان يتساهل في تأخير الدفع ولكن ليستعيض ماله المتأخر فإنه أدخل طريقة الفائدة المصرفية إلى أحراج الكاكاو: فبالإضافة إلى البضاعة كان اللبناني فضول يحمل الحضارة في حقيبة "المسقطي".

حذر، متوازن، كان هناك من اتهمه بالجبن واصفاً إياه بالقياس الكبير وقلب الفأر، أو بالقاضي الذي لم يدرس القانون؛ ولكنه، متسلحاً بسكين عادية فقد تمكّن من أن ينتزع دينه من "ترنسيو" المعروف بضروب الاحتيال والنصب، فقد أمسك فضول برقبة ترنسيو ووضع نصل السكين على عنقه وانتزع منه في الحال الثلاثة آلاف ريس والفوائد والاعتذارات... وعندما علم بالحادث، فإن ناتاريو كاد يموت ضحكاً إذ اعتبر الأمر هزلياً أكثر منه حدثاً... ومقابل لا شيء أحب فضول وأهداه مسدساً، فأحياناً ليست السكين وقوة اليدين بكافيتين، "والخرّاق" (المسدس) يفرض الاحترام يا عرّاب.

تحرر فضول من تهمة جبان ولكنه لم يتحرر قط من تهمة لص، فهذه التهمة كبيرة وملأت الدنيا... وفي السوق التي كان يقيمها على عجل عندما كان يصل إلى تلك المزارع كان الزبائن

ينادونه بالتركي اللص بينما يساومون على سعر البضاعة المعروضة... ومطعوناً من الممازحين فإن فضول كان يهدد بجمع الخواتم والقماش المهلهل والأمشاط والأحزمة وبيوت الرصاص وكل المغريات التجارية التي لا يمكن مقاومتها، وبالذهاب لبيعها في مكان آخر... كانت الأعمال تتواصل بين الرجاء والتعجب والضحك والتنهدات والشتائم والإطراءات: من لص تركي إلى لبناني حبيب القلب.

كانوا يقولون له بتحبب ودون غضب، ودون نيّة في الاعتداء، وهذا كان جزءاً من المساومة ولذة الشراء والبيع. إنه هر شرس بلا شك، ولكن رجلاً طيباً مثله لم يكن يتعب من القول للموجودين:

– التركي اللص هو الأب الذي خلفكم. أريد أن أعرف يا أهل العقوق لو لم يكن اللبناني فضول رجلاً طيباً يخاف الله فمن الذي سيأتي إلى قفا الدنيا ليخدمكم؟ بدلاً من أن تشتموني فعليكم أن تشكروني وتدعوني إلى بلعة عرق: لم يكن يرفض الكاشاسا ولكن في الملهى كان يشرب الفرموتي ممزوجاً بالكونياك...

في البيوت الكبيرة فإن العقداء والأثرياء لم يكونوا يطالبون بأقل مما يطالب به الأجراء:

– "توركو" إنك تسرق أكثر من اللزوم... أين رأيت في حياتك خردة من النيكل تساوي هذا المبلغ من المال؟ إنه سطو بالسلاح الأبيض، وهكذا لن نجني شيئاً من مواسم الكاكاو... وكان فضول يقسم بالله وبكل الآلهة أن ساعة يد بتلك الجودة تساوي ضعف هذا الثمن في إيلايوس... يقسم والحقيبة مفتوحة أمام نظرات السيدات وهو لا يغفل عن الحركة داخل المطبخ من حيث كانت تأتي رائحة المشويات وتوابل "الفيجوادا": إنه في مسألة القابلية على الطعام فاق عمه سعيد.

شخص صالح، خدوم... صالح لإقامة شعائر الجنازة ودفن أحد الموتى مسهلاً له الموت بسلام في المكان الأفضل، وفي مناسبات كهذه، كان كثير المساعدة ولم يكن من راغب في الحياة يستطيع أن يصمد أمام تراتيل فضول المحزنة وتلفظه بها. كان ذلك الترتيل المظلم يقلع الدموع قلعاً من عيون الأجراء والمرتزقة الذين لا روح فيهم. وفي غابات الكاكاو فإن من أراد أن يجمع المال دون أن يمتلك بساتين كان عليه أن يكثر المهن. وفضول بائع متجول، يحمل دكانه على كتفيه، ويمارس الطب غالباً، والكهنوت عند الضرورة، وكان يجري عمليات جراحية كفقء الدمامل، ويستخرج القيح ويعقم الجروح بمياه مؤكسدة ويحرقها باليود. وكان لديه في الحقيبة أربعة أدوية لا تخطئ: الشفاء المذهل، وصحة المرأة، ومرهم القديس لازارو، ودهن الجذع، وبواسطتها يعالج كل

الأمراض باستثناء الجذام الأسود والحمى اللعينة، فلا دواء لهذين المرضين ولا طريقة... وكان قد استجاب للطلبات العديدة وشفي الكثيرين في ذلك الداخل حيث لا أطباء ولا صيدليات ولا إسعاف من أي نوع كان.

كان فضول شماساً في القرية اللبنانية يساعد عمه سعيد في تأدية غرائب الطقوس وهو لم يحجم عن تعميد الأطفال الذين بدون مساعدته كانوا سيموتون وثنيين لا حق لهم في ملكوت السماء. وبارك أزواجاً متحابين ومتعايشين دون زواج، وأنقذهم من الخطيئة التي كانوا يعيشون فيها ومنحهم وضعاً جديداً كان وسيلة لحفلة يمارس فيها شرب الكاشاسا والرقص وهو يضرب الأرض بقدميه.

عندما استحوذ على السلاح قرّر فضول عبد الله أن يوسع مجال نشاطاته فراح يقرض المال بالفائدة. كان يفعل ذلك بحذر وهو يختار الذي سيعهد إليه بماله، ويقرض المال لأجل محدود يجب معه الدفع الفوري؛ وكان بطريقة حسابية معقدة يحسب الفوائد...

حين يمنح القرض ويبدأ بإعطاء المال يظهر مسدسه الموضوع تحت سترته وهو مسدس يعلم الجميع أنه هدية من النقيب ناتاريو دليلاً على الصداقة.

ومع الربا استطاع أن يطيل الجراب الذي كان يدس فيه المال، ثم رأى أن الساعة قد اقتربت للتخلي نهائياً عن الحقيبة وبناء بيت خشبي يقيم فيه مع تجارته... بقي له أن يختار المكان الأنسب والمأهول حديثاً وحيث لا توجد مزاحمة بعد.

4

بينما يصف المكان الذي ألقى فيه الرحال عندما تاه، علم أن ذلك الموقع يدعى توكايا غراندي، وقد أعطي الاسم لأنه كان مسرحاً لكمين ليلي كبير رافقته مذبحة ارتكبت بدم بارد عدة سنوات من قبل، في تلك الصراعات الدموية التي لا تعرف الرحمة، بين العقداء، من أجل ملكية الغابات الخلفية في تلك الربوع من نهر الأفاعي حيث لم تعد هناك اليوم مساحة من الأرض تعادل كف اليد ليست ملكاً لأحد.

خلال حماس الحديث، كان أشخاص من ذوي النيّة السيئة، والألسنة السليطة يستشهدون بأسماء يتعمدون ذكرها في الحديث عن الكمين الذي طبقت شهرته الآفاق، ولكن فضول كان يعلم كيف يعطي القيمة الحقيقية للتعقيدات والخيانات في الحديث والتي كانت تدخل في إذن وتخرج من أخرى... أما بعض الروايات الأخرى فمن الأفضل تجاهلها.

معلومات أخرى – وهذه مهمة بالتأكيد – كان اللبناني يستحصل عليها في بيوت الأجراء وعلى شرفات منازل العقداء وبين أفواه العاهرات، خلال رحلاته التي لا نهاية لها على مدى الأسابيع والأشهر. كانت القوافل التي تغادر المزارع وهي تحمل الكاكاو إلى محطة سكة الحديد في تاكاراس ليتم نقله في القطار من هناك، قد بدأت تهمل شيئاً فشيئاً الطريق القديم، وتتحول إلى توكايا غراندي المكان المثالي لتمضية الليل. وابتداء من زمن غير محدد أصبح العبور عبر تلك التحويلة أكثر نشاطاً وكثافة منه عبر الطريق الحقيقي.

وفي يوم، فإن لازارو أحد حداة القوافل ممن يعرفهم فضول بينما يتحرى عن حسنات اجتياز الطريق عبر توكايا غراندي – تستطيع الحيوانات أن ترد الحوض الذي يشكله النهر دون أن تتعرض لأي خطر، كما تستطيع أن تجد مراعي خصبة ولا يمكنها أن تشرد – تذمر ألا يكون هناك في موقع ملائم كهذا دكان صغير، أياً كان، يمكن فيه شراء بلعة من الكاشاسا، أو بعض التبغ المعجون، أو رغيف ذرة مع بعض الزبد أو ملحاً وسكراً. إن العليم بالأمور الذي يقوم بهذا العمل في توكايا غراندي لا بدّ من أن يصبح غنياً بين يوم وآخر.

أصغى فضول عبد الله بكل جوارحه إلى الحديث وانطلق في التفكير في سكة العروض والمقبوضات وبينما يعود إلى إيتابونا للقيام بمهمة مزدوجة وهي شراء الحاجيات الجديدة لمخزنه المتجول، ولرؤية زيزينيا دو بوتيا التي بقدر ما هي عشيقة فإنها قدره المكتوب بالرغم من أنها لم تكن سمينة وذات مواصفات تناسب حجم يده الكبيرة – فإنه تدبر الأمر ليمر في تلك الربوع مستطلعاً ومستقلاً أحد القطارات المخصصة لشحن العجول.

وكم كانت دهشته عظيمة عندما تبيّن أن توكايا غراندي لم تعد قفراً لا حياة فيه، وبالإضافة إلى المستودع الخشبي الذي يخزن فيه الكاكاو الناشف، كانت قد قامت عدة بيوت تمّ بناؤها بالأسمنت وأخرى في طور الإنشاء. وكانت الفتيات قد بدأن العمل، والزبائن متوفرون، وعمال الحقول القريبة – قتلة، أجراء، متزلمون عابرون، وحداة القوافل، يمضون الليل هناك، وأخذت تسمع ألحان وأغان وتشاهد أضواء القناديل الخافتة، عند الصباح؛ ومع انطلاق القوافل كانت تنطفئ الحيوية وتعود إلى الانتعاش، عند العصر.

عندما كان قد وصل إلى هناك في المرة الأولى انتبه إلى أن يد الله هي التي اقتادته. عندما يتخيل نفسه تائهاً فإن الله كان يقوده ويحدد خطواته، ولم يكن ذلك من أجل أن ينال يوماً من الراحة

كما فكّر آنذاك. لقد اقتاده الله إلى هناك، في الحقيقة، ليريه المكان حيث يجب أن يفي بالوعد ويواجه قدره. لم يكن بإمكانه أن يتردد، وقبل أن يتابع رحلته، كان فضول عبد الله قد اتخذ كل التدابير اللازمة.

النقيب ناتاريو دا فونسيكا
يتفقد حقوله

1

إن الاتفاق الشفهي كافٍ وينيف بينهما، ويعني الاتفاق المكتوب والموقع عدم ثقة متبادلة ودليلاً على عدم الاحترام بالإضافة إلى كونه غير ضروري. وبموجب الاتفاق فإن ناتاريو قد نال لقب مدير مزرعة أتالايا – وكلمة "سركال" ليست تعبيراً عن وظيفة نقيب في الحرس الوطني – مع حقه في أن يمضي بضعة أيام خلال الشهر في ملكيته التي بدأت تزدهر في تلك الأراضي التي استحصل عليها ودفع ثمنها خدمات ممتازة لا يعادلها أي ثمن... وبينما يبدي طيبته فإن العقيد بوافنتورا أقفل الموضوع:

– الآن، الكلام بيننا ناتاريو، لم يعد هناك سيد ومسود، لقد أصبحنا طحيناً واحداً في الكيس الواحد.

– ما دمت حياً فإنني ملكك وفي خدمتك كيفما جاءت الأمور.

– أعلم هذا، وعرفت إخلاصك ففتشت عن مبادلتك إياه.

بدا ناتاريو بهيئة جدية ولا يزال لديه ما يدفعه إلى استكمال المحادثة.

– لديَّ شيء آخر أريد أن أطلبه منك، إذا سمحت يا حضرة العقيد.

– شيء آخر؟ – أصيب العقيد بالدهشة فحدج مملوكه بنظرة:

– تستطيع أن تقول، إني مصغٍ إليك.

– إن زيلدا حامل. أريد عندما تلد، أن تعمِّد الطفل، أنت والسيدة أرنستينا.

– هل هذا هو طلبك؟ – مدَّ يده: – إذاً صافحني. سنقيم عيداً كبيراً في يوم المعمودية. إنه طفلك الخامس، أليس كذلك؟

– أجل. لديَّ الآن ذكران، وذيلان في التنورة.

– وفي الشارع، ناتاريو؟

– كمية، يا عقيد، لقد أضعت العدد. كلهم في الشارع يشبهونني حتى لتقول إنهم مختومون بختم قديس واحد.

بصورة عامة كانت زيارة النقيب لأراضيه تدوم ثلاثة أو أربعة أيام، وهي كافية لدفع أجور الأجراء، والتعجيل في تأدية العمل، وتكحيل عينيه برؤية تلك الحقول المكتظة بالأغراس الفتية. ولكن، في مرة واحدة، تأخر هناك ثلاثة أسابيع وهو يراقب العمال في تنظيف جزء من الغابة من أشجارها البرية ليزرعها فيما بعد بأغراس الكاكاو، ولو ترك ذلك الأمر في عهدة المتعاقد معهم وعلى مسؤوليتهم، لعلم الله وحده متى كان سيتم إنجاز العمل. أما تحت قيادته فإن واحداً من الأجراء لن يستطيع أن ينام ملقياً برأسه فوق قبضة الفأس التي يجب أن يقطع بها الشجر.

ملكية صغيرة وعلى ألسنة المتشدقين، مزرعة صغيرة لإنتاج خمسمائة كيس سنوياً، ووزن الواحد لا يتجاوز الخمسة عشر كيلوغراماً، يتشدقون بهذا، معقبين بآراء مرتجلة عن الحصاد والعواصف وإلى ما يمكن تصوره. أما النقيب فكان ذا رأي مختلف مما جعله يعطي ملكيته اسم: مزرعة "بوافيشتا". وبتأكيد صاحبها فإن المزرعة بعد سنتين، بعد أن تكون قد أزهرت فإنها ستنتج ضعف الخمسمائة كيس التي يتوقعها الحساد... إن خصب الأرض، والعناية الفائقة خلال سنوات والتي يقوم بها واحد لا يضاهيه أحد في أمور الكاكاو، ستجعل المزرعة تعطي ألف كيس على الأقل وناتاريو مستعد لأن يراهن مع أي شخص يشك في هذه الحقيقة: هذا دون أن يحصي الغرسات الجديدة التي ستزرع في الأرض التي تتم تهيئتها الآن.

كان ممتعاً التأمل في غرسات الكاكاو والتي تنمو بصلابة في ظل الأشجار الرطبة. وكانت عينا النقيب الناعستان تلمعان لمعان عاشق هائم، وهو يتأكد من المسافة التي يجب أن تفصل بين غرسة وأخرى بشكل متناسق، ومن الحفر المفتوحة بمقاييس غاية في الدقة وهو لا يغفل عن شيء منها. لا يفيد النقاش شيئاً فليس في العالم كله عمل يضاهي زراعة الكاكاو ويعطي عائداً سريعاً ومربحاً. إن زراعة الكاكاو كمن يبذر الذهب في التراب ليحصد كنوزاً. حقيقة ثابتة، الابتسامة تجعل الشفتين تتمطيان، وتجعل عيني سيد مزرعة بوافيشتا تتسعان. لم يكن هناك غير الصبر والأمل.

كانت المساحة التي أمر العقيد بوافنتورا أندرادي بتسجيلها باسم "السركال" تقع قرب توكايا غراندي، ولم يعلم أحد إذا فعل العقيد ذلك عمداً أو صدفة. علّق المتسرعون على الاسم الذي أعطاه ناتاريو لملكيته ملمحين إلى أنه قد استلهم ذلك الاسم عند رؤيته الوادي قرب النهر عندما، في تلك الليلة العاصفة، و"البارابللو" بيده، أطال التركيز: مشهد جميل بالرغم من العتمة. إن لسان عامة الشعب طويل وسليط وأطول من ذلك هو الاستنباط. ولم يكن يفيد الإنذار الذي تنذر به الأكثرية:

مع "يقولون" و"القيل والقال" فلن يربح أحد فلساً وإن مقدوحاً، وقد ينال، خلافاً لذلك، رصاصة سهلة. ولو لم يكن هناك "سركال"، فمن هناك كان يمكن أن يتحول إلى نقيب ومزارع.

كانت توكايا غراندي تقع في وسط المسافة بين مزرعة أتالايا ومزرعة بوافيشتا، والمسافة التي يجب اجتيازها بين هذين القدرين لم تتجاوز فرسخاً ونصف الفرسخ، وعلى الأكثر فرسخين، وعلى مطية سريعة تصبح قفزة قصيرة. ذاهباً أو عائداً فإن النقيب كان يمر من هناك مختصراً الطريق. وهكذا استطاع أن يرافق، منتبهاً أو مشاركاً عند الضرورة، في التغيير الذي يحدث.

وإذ كان قد علم بمخططات العقيد روبستيانو دي أراجو، فإن النقيب ناتاريو نصحه بأن يبني مستودعه في توكايا غراندي. فهي مزرعة لا نهاية لها، وفيها بالإضافة إلى زراعة الكاكاو، كان يمكن للعقيد أن يربي العجول، بينما سانتا ماريانا كانت تقع على مشارف نهر الأفاعي عند حدود كاياتنغا البعيدة جداً عن محطة سكة الحديد. كان ذلك هو السبب الذي جعل العقيد يقرر إقامة مخزن في الموقع الملائم ليخزن فيه الكاكاو الناشف ويسلمه إلى المصدرين في المكان نفسه، لأن هؤلاء كانوا يشعرون بالصدمة إذا اضطروا أن يقوموا بالنقل إلى إيلايوس. وإذ شعر بالامتنان للنصيحة فقد ابتدأ ببناء حظيرة تستريح فيها العجول في طريقها إلى المجازر في إيلايوس وإيتابونا... نصيحة ثمينة، ثم أرسل العقيد بالنبأ إلى النقيب، شاكراً.

كان النقيب حاضراً عندما بدأ العمال الذين أرسلهم العقيد روبستيانو أعمالهم وقطعوا الأشجار وهيئوا الأعمدة الأولى، وشاهد النقيب فيما شاهد وصول المرأة العامية الأولى إلى هناك، جاسنتا المعروفة بكوروكا لشهرتها. ولم يعد عمرها المتقدم يسمح لها بالتفتيش في المزارع، ومن بستان إلى آخر، عن زبائن، فوضعت رحلها هناك، بانتظار حداة القوافل التي بدأ عددها يزداد أكثر فأكثر إذ إن توكايا غراندي كانت قد أصبحت مكاناً مهماً لقضاء الليل.

وبينما يحدد المكان، أعلم النقيب العقيد روبستيانو بنيّته القديمة والمستمرة لبناء بيت سكن له، قريباً، عند القمة المشرفة على الوادي؛ هذا عندما تصبح إمكانيته المالية أكثر توفراً، أما ما هو لديه الآن من مال قليل فقد قام بدفنه في مزرعة بوافشتا.

2

راضياً عن الحياة، وصل النقيب ناتاريو بعد الظهر إلى توكايا غراندي؛ وإذ كان قد أطال البقاء بعيداً عن أتالايا، وأكثر مما توقع بكثير، فقد وجد نفسه أمام ضرورة الإسراع في العودة. لم يكن

مزمعاً على أن يطيل المكوث في الوادي ولكن الحركة الناشطة، وعدد الرجال المنهمكين في قطع الأشجار ونقل الجذوع جعلته يوقف مطيته أمام تخشيبة جاسنتا. ترى هل قرّر العقيد روبستيانو التعجيل في بناء الحظيرة؟ أما العانس، وقد كبرت في السن وتبدلت ملامحها، فقد ظهرت عند الباب وهي تعرض صدرها خلف قميص داخلي شفاف.

– مساء الخير، كوروكا. حياها ناتاريو دون أن يترجل عن مطيته.

– مساء الخير، ناتاريو... – ثم مصّت شفتيها فأطلقت لسانها مداعبة: – النقيب ناتاريو.

سابقاً، عندما كان لا يزال شاباً، كانا قد ذهبا معاً إلى الفراش عدة مرات، وفي بعضها في الهواء الطلق، وعندما كانت تراه راغباً، وليس لديه مال، كانت كوروكا تمنحه ما يريد بالدفع الآجل، ولكنه في الفترة الأخيرة لم يعد يهتم بها بالرغم من محاولاتها المتكررة: – هل رجعت؟ تأخرت هناك. هل تدبرت فتاة أخرى؟

– أقسم لك بأن المرأة هي آخر ما أسعى إليه.. قولي لي، إذا كنت تعلمين، ما هي هذه الضوضاء بحق الله؟ هل هي حظيرة العقيد روبستيانو، أو أي شيطان ممكن أن تكون؟

– إنه السيد فضول الذي استأجر بعض العمال ليقيم له بيتاً هنا. إنه بيت خشبي، وليس تخشيبة من السقف كتخشيبتي أنا. إن العمال يعملون وتستطيع أن تراهم من هناك.

– أهو اللبناني فضول؟ هل سيقيم بيتاً للتجارة؟ – فكّر قليلاً: – أين؟ حددي لي المكان.

– من يعرف جيداً هي برناردا، لقد أمضى الليل معها هنا وأخذ ذلك القرار.

– هي نفسها وصلت إلى هنا منذ خمسة عشر يوماً تقريباً. لقد تمّ فطمها وتخلت عن المصاصة. جاءت مع قافلة من الحمير من عند النبع. إنه نبأ الساعة، الرجال لا يريدون سواها امرأة.

وقبل أن يلكز مطيته، سأل ناتاريو:

– هل أنت بحاجة إلى المال يا كوروكا؟

– أنا لا أطلب حسنة.. أموت قبل أن أطلب.

ضحك النقيب، وكادت عيناه تغمضان: هذه العجوز طاعون وعظم رقبة:

– إني مدين لك ببعض المال المتأخر دفعه، هل تذكرين؟ منذ المرة الأخيرة..

– هذا ممكن.

منحها بعض المال وذهب ساعياً إلى العمال ومنهم علم بمشاريع فضول. إن التاجر المتجول، المسقطي، ترك مع باستياو دا روزا بعض المال وأعطاه الأوامر بقطع الأشجار وتهيئة الخشب الكافي لبناء بيت ذي بابين رئيسيين من الجهة الأمامية وثلاث غرف في الداخل. قصر صغير شبيه بهذا القصر لا يوجد إلا في تاكاراس قرب محطات السكة الحديدية وأكثر من ذلك فإن لوبيسينيو، النجار، جاء من تاكاراس نزولاً عند طلب السيد فضول ليهتم بعمل شرفة ورفوف. إنه عمل كبير يتم إنجازه. وأعطى باستياو دا روزا رأيه:

– لقد جنَّ اللبناني، يا نقيب. إن توكايا غراندي لا تتحمل كل هذه الوجاهة. هزّ ناتاريو برأسه غير موافق. مجنون؟ لا لم يكن ناتاريو يرى هذا جنوناً. لقد كان اللبناني يعلم بلا شك أنه، عاجلاً أم آجلاً، فإن توكايا غراندي ستصبح مدينة لن تكون تاكاراس قربها إلا موقعاً محتقراً، أو ربما محجراً صحياً.

3

كانت تخشيبة جاسنتا قصراً إذا ما قورنت ببيت القش الذي لجأت إليه برناردا: نصف دزينة من سعف النخيل مجموعة إلى بعضها، وأربع زوايا من جذوع مقطوعة، في الأرض، وفي الداخل، فرشة، ولوح خشب موضوع فوق أحجار ثلاثة، ولا شيء آخر.

ترجل ناتاريو، وجال بنظره في النواحي. كانت الصبية قد وصلت من ناحية النهر، مبللة من رأسها إلى أخمصيها، وفي يدها قطع الغسيل التي كانت قد ذهبت بها لتغسلها، لباس داخلي وقميص نوم. كان الفستان الذي تضعه على جلدها قد التصق بجسدها الغامق وأظهره، ومن شعرها السابل كانت تسيل الماء. عندما عرفت الزائر أوقفت خطوها لحظة وانطلقت نحوه راكضة وذراعاها مفتوحتان له. في عيني ناتاريو كانت طفلة في العامين الأولين من عمرها عندما كانت تترك بيت المسكين الذي تلهو به وتركض إليه لتتعلق بعنقه وسخة عارية. عندما التجأ إلى مزرعة أتالايا، فإنه عاش بعض الوقت في بيت فلورنسيو وآنا عشيقته. لم يكن فلورنسيو يعمل في البساتين، فقد كان منهمكاً في خدمات أكثر فوائد من سواها، إذ كان يهتم بالأسلحة والمستزلمين.

في أي عمر هي برناردا الآن؟ سأل نفسه عندما ذابت صورة الطفلة في جسد الصبية المتمرغة بالماء والشمس.. عرفها في آخر مرة وصدرها لا يزال ضئيلاً وهي متمسكة بردفي أمها، وبطريقة ما ساعد ناتاريو في تربيتها. كانت آنا قد علقت أرجوحة للضيف في البيت الصغير المكون من

غرفتين؛ وعلى الأرض، في صندوق حولوه إلى مهد، كانت تنام الطفلة وكانت تستيقظ باكية، وفي منتصف الليل، ولكن قلما كانت آنا تستيقظ لتعطيها ثديها. كأنها ميتة من التعب، كانت تغط في نوم عميق في الغرفة المجاورة، ولم تكن حتى لتسمع بكاء ابنتها. كان ناتاريو يأخذ الطفلة من الصندوق ويضعها في الأرجوحة ومع التأرجح كانت تخلد إلى النوم وهي مستلقية فوق صدره.

منذ خمسة أعوام، ليس أكثر، عندما جاء العقيد بوافنتورا بالأب أفونسو ليحيي القداس بالنذر الذي نذرت السيدة أرنستينا أن تقيمه في المزرعة وفاء بدينها إلى القديس يوسف، شفيع بوافنتورا والذي يدين الأخير له بالحياة – كما يدين بها أيضاً إلى ناتاريو الذي صوب في اللحظة المناسبة فوهة مسدسه: "عن إذنك يا حضرة العقيد" – استمر العيد يومين: جموع غفيرة من المدعوين، حتى جماعة من باهيا حضرت إلى هناك. أحيا الأب القداس، وكرّس صورة القديس، وعقد قران الزناة، وعمد قطيعاً من الفتيان ومعهم أربعة رجال كانوا لا يزالون وثنيين. مأدبة فوق ما يتصوره الخيال، وساقية من المشروبات الكحولية، وسارت الكاشاسا بالكبير وبالصغير، في منازل العمال حرية مطلقة. ولكن، كونه خادماً، متواضعاً لله، وشريكاً لا شروط له للعقيد، ونموذجاً للإيمان المسيحي والمناقب الريفية فإن الأب أفونسو كان يرتكب الخطيئة بكثرة الأكل، فيلتهم منه بمقدار كتيبة عسكرية. واستفاد ناتاريو من العيد ليتزوج من زيلدا التي كان يقيم معها بالمصاحبة منذ أكثر من عام. كان قد التقى بها تائهة في طريق أغوا بريتا، شاحبة، هزيلة وقلقة، يتيمة الأب والأم، اللذين كانا قد دفنا معاً بعدما نال منهم الجذام. وكانت عصابة من المتشردين تنظر إلى تكوينها بأعين نهمة وتتبعها كمجموعة كلاب وراء كلبة لا حامي لها، وكل واحد يحمل معه (مغيطة) التصويب بالحجارة. وبحمية أكثر مما هي بقابلية جنسية، دخل ناتاريو مزاحماً، لم يكن أحد رجال العصابة يعرف ناتاريو فشهر السلاح ونال بالمقابل ما نال. وإذ إن الهزيلة كانت قد كلفت أحد الرجال حياتهم، فإن ناتاريو أخذها معه وصنع لها ولداً.

صامتة مطيعة، عاملة نشيطة، ونظيفة، فإن زيلدا استعادت جسدها ولونها، ونالت الاعتبار والعطف، وبقيت معه إلى الأبد. من أين جاءت بالشجاعة لتقول لرجلها وسيد الشهوة أنها تريد أن تتزوج منه؟ تتزوج منه لدى الكاهن حتى لا تعيش ضد إرادة الله؛ أما في المحكمة، ولدى القاضي، فليس من الضروري ذلك.

عندما جاء بها، كان ناتاريو لا يزال يقيم في بيت فلورنسيو، وفي أرجوحة الأعزب جعلها حاملاً؛ تحت أنظار برناردا، إذا صح القول. كانت برناردا لا تزال تنام معه في الغرفة ولكن مع وجود زيلدا فقدت مكانها في الأرجوحة، وفقدت التأرجح وصدر ناتاريو الرحب.

وبمناسبة الزواج الجماعي، دعتهما آنا ليكونا عرّابين للصغيرة برناردا. وكونها مدبرة، فإن زيلدا، بقطع بالية من الأقمشة صنعت لعبة حشتها بالقش لفليونتها... أما ناتاريو فلم يعطها شيئاً أكثر مما كانت تريد: وهو أن تستطيع مناداته كعرّاب لها، وأن يجعلها تقبل يده وتطلب بركته.

وبينما كان فلورنسيو يقيم في أتالايا، فإن برناردا عاشت في بيت عرّابيها أكثر مما عاشت في بيت أبويها. وكانت قد قاربت العاشرة من عمرها عندما اختلف فلورنسيو مع العقيد الذي يعمل في بيع الأسلحة وعاد إلى مزرعة "بوكادوماتو" حيث كان العقيد "بنفيندو" يفتش عن مراقب يعرف كيف يصرخ في وجوه العمال. واقترح ناتاريو وزيلدا أن تبقى الفتاة الصغيرة بمعيتهم، فلورنسيو لم يشأ حتى أن يناقش الموضوع، وادعى أنهما – فلورنسيو وآنا – كانا بحاجة إلى برناردا لتساعدهما في تربية شقيقتها الصغرى: وفي ذلك الوقت كانت آنا قد جاءت بمولودة أخرى أسمياها "إيرارا" ولقباها بـ "إيرا". بعد ذلك، أعطت زيلدا رأيها في أن فلورنسيو كان قد وضع عينه على الصغيرة برناردا.

بعدما بدّل العرّابان إقامتهما، ظلّ ناتاريو في فترات متباعدة جداً يذهب لرؤية برناردا. وفي الثالثة عشرة من عمرها كانت قد غدت كاعباً، جميلة، عذراء. ولكن عذرية المرأة، في آخر دنيا الكاكاو، لم تكن ذات كوابح أو روادع لأنه لم يكن هنالك إناث إلا لبعض أصحاب الحظوظ، وكل من كانت تستعمل التنورة كانت تلقى ترحاباً وعناية. هذا دون التحدث عن المواشي وإناث البغال والخيول.

نوبة عسر الهضم ألقت آنا طريحة الفراش، خرساء، صماء، ومعوقة إلى الأبد. وفي الغرفة، وهو مستلقٍ إلى جانب المشلولة، فإن فلورنسيو كان يسمع الفتاة تدندن في القاعة المجاورة دندنة أغانٍ كانت بالنسبة إليه نداء سلطوياً. ماذا كان يستطيع أن يفعل السكير العجوز. افترس الفتاة قبل أن يفترسها أحد سواه. ولم يرد أحد أن يتدخل في الموضوع، فالموضوع لا يستحق العناء. لقد كان لصاً صعلوكاً عندما بدأت المعارك في سان فرانسيسكو من أجل ملكية الأرض، وأثناء تلك المعارك استطاع أن يقوم جيداً بعمله الحقير؛ لقد كانت الفتاة خاصته وعليه عبء الاهتمام بالعائلة مثلما يمر في خاطره، أو في نزواته..

مرّت في ذهنه كل تلك الأمور بينما كان يفك سرج مطيته، واستخلص ناتاريو أن برناردا الآن هي في طريقها إلى الخامسة عشرة من العمر. ولو أنها كانت تعيش في إيلايوس لكانت فتاة غشيمة لا تزال تلهو بالدمى، ولكنها الآن، في هذه الأدغال، امرأة ناضجة، وسيدة بيت تجيد الاستقبال.

جاءت راكضة وهي تفتح ذراعيها بعد أن تركت على الأرض القطع التي كانت قد غسلتها في النهر، وبينما هي تتقدم منه أوقفت خطوها وأطرقت بنظرها وبينما يتكئ على الحيوان، تأمل فيها ناتاريو، ودون أن يريد أجال نظره في جسد الفتاة: مستقيمة القامة، هيفاء القد، وذات جلد صلب بلون النحاس الأصفر. اعتراه الارتباك الذي كظمه في صدره حيث امتزجت العواطف والنزوات، متناقضة، وكما لو كان ناتاريو قد غدا اثنين.. صوتها الناعم يجيء من الماضي:

– البركة يا عرّابي،

بعد أن فرضت الحقيقة نفسها:

لقد استلمت رسالتي، أليس كذلك؟

– رسالة؟ لقد عرفت لتوي، ومنذ لحظات أنك هنا. أخبرتني كوروكا. ما الذي جرى؟

قفزت المطية مبتعدة تفتش عن رعي، ولكنها لن تذهب بعيداً.. ودون أن ينتظر جواباً اجتاز عتبة التخشيبة وجلس فوق السرير المصنوع من لوحين خشبيين. رافقته برناردا ووقفت أمامه: في فترة قصيرة كهذه أصبحت تصل طولاً إلى خديه.

– قولي لي: ماذا حدث؟ – في صوته الذي يبدو بارداً وحيادياً كانت هناك موجة حذر.

رفعت برناردا رأسها ونظرت إلى وجه العرّاب:

– لم أتحمل أكثر. إن أبي، حين يأتي من أحراج الكاكاو يفعل شيئين فقط: يحتسي الخمر ويضربنا. – كانت الكلمات تخرج ثقيلة وبطيئة: – وذلك الشيء الذي يعرفه العرّاب.

وكانت تمسك بتنورتها، وتلك هي الدليل الأوحد على الهزال:

– ليس في البيت شيء يؤكل، ولا يوجد إلا كاشاسا. لم نمت جوعاً لأن الجيران أغاثوني ولأنني ذهبت إلى الغابات مع من يدفع لي، مجازفة: فلو علم الأب لقتلني.

كان ناتاريو يصغي دون أن يعلّق. تنهدت برناردا، وبدأ البكاء يهدد بتوقف الحديث، ولكنها أمسكته في عمق حنجرتها، وتحولت حيويتها إلى نار خفيفة. وضعت رأسها في طرف ملابسها

حتى تخفي قساوة الرؤية. وانتبه ناتاريو إلى أن الفتاة المسكينة – أحست بقلبها ينزف ولكن عينيها ظلتا ثابتتين، وتابعت:

– لقد اعتدى عليَّ أبي، وكل الناس تعرف هذا. عندما كانت أمي لا تزال حية، دون كلام أو حركة، أذعنت، لأنني لم أكن أريد أن أترك أمي تموت. ولكن بعدما دفناها، شردت – ونظرت إلى العرّاب مرة ثانية لتؤكد – من ظن أنني كنت موافقة فهو مخدوع.. لقد مكثت في ذلك البيت وأمي في تلك الحالة.

لقد كانت في بيت اللاجدوى، وهذه حقيقة ناصعة، ولكن ناتاريو أطلعها:

– لم أعلم بموت العمة آنا!

– لقد انتقلت إلى رحمة الله منذ عشرين يوماً. أرسلت إليك بالنبأ إلى أتالايا. ألم ينقلوه إليك؟

– كنت مسافراً، والآن فقط أنا في طريق العودة، وماذا عن إيرا؟

– بقيت مع الوالد.

– وإذا فعل في إيرا ما فعله بك؟

– يفعل في إيرا، يا عرّابي؟ ولكنها طفلة، لم تبلغ الحادية عشرة ولم تأتِ عادتها الشهرية بعد.

– ولكن هل هو النوع الذي يتوقف أمام هذه الأمور؟ تأملي.

في ميغي لويزا موكوتو، في الراديو براسو، واحدة لم تبلغ العاشرة من العمر تمارس المهنة. يقال إن الأب هو الذي اعتدى عليها.. ففي هذه النواحي لا يوجد إلا جذوع الكاكاو والمسكنات.

كان يلاحظ دون تعليق، لقد كان الأمر كذلك حقاً وانتهى. وفي صمت الأفكار والنوايا، فإن النقيب أغلق برجله دفتي النخيل اللتين تشكلان الباب. مدَّ لها بيده، وأمسك بالفستان الملتصق بجلد الفتاة. لم تتحرك برناردا ولم تخفض عينيها.

كانت طفلة صغيرة تأتيه راكضة، عارية، وسخة، وتتعلق بعنقه. وكان ناتاريو يعرض عليها ورقة العشرين المالية ولكنها كانت ترفضها. إن ما أريد هو أن أركب معك فوق السرج وأتمسك بقبعة الجلد، وألهو. شبت وهي تنام في الأرجوحة، فوق صدر "السركال"، وتضحك عندما يبدأ بدغدغة أخمصي قدميها. كان عالم الطفولة بالنسبة إليها يتلخص كله في العرّاب، وأمامه لم يكن يوجد سوى صحراء من الأسف وعدم الاكتراث.

أكثر من عرّاب، كان أباً. وماذا؟ الأب الحقيقي كان فلورنسيو، وهي لم ترفض عندما أرادها العجوز. ومدَّ ناتاريو يده إلى بطنها، فظلت هي لا تتحرك، وعندما مرّت أصابعه من الأعلى، ابتسمت وخفضت عينيها. فشدّها النقيب إلى السرير الخشبي.

وبعد التنهد المتقطع، وصراخ النصر، مرّت برناردا بيدها خفيفة على وجه العرّاب؛ تحركت، ابتسمت، وقالت:

– فكرت دائماً في أنني سأتمدد معك هكذا..

وشدّت على الصدر الذي ينبع منه العرق كما كانت تفعل وهي صغيرة في الأرجوحة:

– لقد حدث لي في الحلم عدة مرات. عندما أريد شيئاً أحلم به. هل العرّاب كذلك؟ – كانت تفتش عن الحديث لتبقيه هناك.

– الحلم كذبة، وأن يحلم الإنسان فأمر لا يستحق العناء. عندما أريد شيئاً أفعله أو آخذه – وهدأ صوته ليستنتج: – أن يكون عندك أفضل من أن تحلمي. وأنا أيضاً كنت أريدك.

– "عرّابي" إنك لن تذهب الآن، أليس كذلك؟ لا يزال الوقت مبكراً – وكانت تعتذر: – ليس عندي شيء أقدمه لك.. فقد اقدم نفسي إذا كنت لا تزال راغباً.

وبينما كان ينتعل حذاءه، وقد عادت المطية من جولتها، وبعد أن استمرا معاً إلى أن غربت الشمس وغرقت في النهر، أراد النقيب أن يعرف:

– ماذا قال فضول؟

– إنه سيقيم دكاناً للأعمال هنا. وقال إن لهذا المكان مستقبلاً. ولا بدّ من أن يرجع.

– عندما يأتي، قولي له أن يوافيني ويكلمني في أتالايا. ولكن قولي له قبل أي شيء إن الهضبة التي تقع عند منحنى النهر، تلك الهضبة الأكثر ارتفاعاً، هي ملكي، منذ زمن بعيد.

كانت كلمة العرّاب هي الحقيقة والقانون، ولكن برناردا سألت فقط لتطيل المحادثة وبقاء النقيب والمغادرة، وإن دقيقة واحدة:

– هل اشتريتها مع بستان الكاكاو؟

– البستان نلته من العقيد بالاستحقاق وقمت بأعمال أخرى لأستحق هذه القطعة من الأرض التي لا أعرف من كافأني بها: أهي العناية أم السفالة؟ كل ما أعرف هو أن هذه القطعة هي ملكي ولا أحد يضع يده فيها أو يطأها برجله.

لم يعرض عليها مالاً عندما استأذن بالانصراف: فهو سيؤذيها نفسياً إن فعل ذلك. وهي بدل المال طلبت فقط اعترافه بها. ولكنه قبل أن يسلك طريق العودة، فإن النقيب اتفق مع باستياو دا روزا ولوبيسينيو للاستفادة من المتبقي من الخشب المقطوع بأمر من عبد الله فضول: فبتلك الأخشاب سيبنون، على حساب النقيب، بيتاً صغيراً مؤلفاً من ثلاث غرف، حيث ستقيم برناردا وكوروكا لتمارس المهنة.. فمن يقتحم ويفوز بالأمر والسلطة تترتب عليه موجبات، ويجب أن يفي وينفذ.

الزنجي كاستور أبدووين دا أسونسيون
يعتدي على أحد السادة الأشراف وينتهك عرضه

1

جاء الزنجي كاستور أبدووين دا أسونسيون معه من مقاطعة ريكونكافو بلقب تيساو الحار وظلّ يحتفظ به ولا يجيب حين ينادى باسمه الأصلي إلا نادراً ثم أصبح معروفاً بتيساو، الشاب الماجن في الوقت نفسه، وبعدما أصبح فاراً من عقاب ينتظره، خلف وراءه نهائياً لقب "أمير إيبانو" الذي كان يلقبه به أدروالدو مونيز ساراييفا دي البوكيركي، بارون إيتاواسو، بلكنة استهزاء، ولكن البارونة ماري كلود دوكلاس ساراييفا دي البوكيركي، أو ببساطة "المداما" كانت تتلفظ باللقب وهي تقلب عينيها، وتعض على لسانها، وتحرك ردفيها..

بل تحرك قفاها: لا ساقيها، أو ردفيها، أو مقعدها، تقول الزنجية روفينا، المتيمة حباً، على مسمع العاملين معها في مطبخ الدار الكبيرة، فتثير الضحك والاستهزاء؛ وكونها سيدة كبيرة محرومة من حق ممارسة هذه العلامات من الكبر فهي لم تكن قادرة على نفخها وإبرازها.. ولكنها بالمقابل، كانت تلقي على الزنجي عينين كبيرتين، زائغتين، وتظهر تحت سترتها الشفافة صدراً صغيراً ولكنه صلب، وبمرتفع هو أكثر من أبيض، وردي، إنه المتعة! وعندما بان الشاب كاستور، وهو يرتدي بزة العمل الملونة، ويظهر في القاعة وقد جلب آنية الكريستال على صينية من الفضة، كانت البارونة تهمس:

– يا أميري – ثم يتمطى الصوت دلالاً وإثارة.. وكذلك كان صوت روفينا يتمطى دلالاً عندما تراه في مشتمل الدار الكبيرة، وكله أخضر وأصفر مع علامات حمراء فوق الردفين الواسعين القصيرين: كانت تتنهد: تيساو الحار، إليَّ يا تيساو! جسد نزق يليق بسيد من الأشراف، أو بشخص محترم مثقف: الفخذان عاريان، والكتفان ظاهرتان، والصدر نافر، واللون قهوائي – حليبي، تكشف نصفها وهي ترتدي قميصاً قطنياً ولكن ليس بإباحية بل مع قليل من الخوف، ومنطلقة كالصياد مع الريح، كانت تسبح في أعالي البحر، معتزة بلهيب كاستور الملقب بتيساو الحار الذي كان يشعل أكوام الحطب في أحشائها.

كان كاستور يشعر بحرية الحركة وهو يرتدي بزّة العمل الملونة، بزّة خادم زنجي في دار كبيرة، حيكت له على مرأى من البارونة التي كانت قد اختارت موضتها من إحدى مجلات الأزياء. ولكن تيساو كان يفضل أن يعلّق الفوطة من الأمام وهي متصلة بالزنار كما يفضل حرارة الحدادة في

مشغل عمه كريستوفار أبدووين القريب الوحيد له.. ولكن البارونة سحبته من محل الحدادة لتحوله تدريجياً من حداد إلى خادم، فإلى مشعل النار، فإلى عشيق مفضل: ليس لديه رغبة في الخدمة ولا مصلحة.. ولكن مع ذلك، وبالرغم من ملابس الخدم، فقد حافظ كاستور على قامته المديدة المرتفعة، وعلى ضحكته المقهقهة والمحيرة، أما شرخ الشباب فقد كان تيساو الحار أو الأمير الأسود يجعل به روفينا فاقدة صوابها ومستعدة لمواجهة أسوأ النتائج، كما يجعل البارونة هائمة المشاعر أبداً.

2

علمت البارونة "ماري كلود دوكلاس سارابيفا دي البوكيركي" أن للزنوج أفضل طاقة ونوعية في ممارسة الجنس، من مادلين كامو، المولودة مادلين بورني، زميلتها في المدرسة، الأكبر منها سناً. ففي مدرسة القلب المقدس، عندما كانتا طالبتين عند الراهبات، وصديقتين حميمتين، كانتا تتبادلان المعلومات، وتتحدثان عن الأحلام والمشاريع، وتناقشان الأمور الدينية والدنيوية، وهما متحمستان لليوم الذي تنالان فيه الحرية.

عندما عادت من الغوادولوب حيث كان زوجها المقدم الأول في المدفعية يقود فرقة، فإن مادلين صرحت تصريحين يسترعيان الانتباه حقاً:

1 – إن كل المقدمين الأول يولدون – وتولد معهم موهبة لا تضاهى في حمل القرون، والمرأة الأكثر خضوعاً وتدجنا بين الزوجات لا تستطيع أن تمنع هؤلاء عن ممارسة مواهبهم.

2 – إن الزنوج، في أمور الفراش، بشكل مطلق، لا يضاهون، وليس من مثال على ذلك أفضل مما قام به زوج مادلين نفسه عندما جاء إلى البيت بالزنجي دودون، بصفة مراسل، حيث أعطاها البرهان الساطع، والأروع، والذي هو الجزء الأهم في التصريح الثاني.

وعندما أعلنت بارونة وسيدة شريفة بفضل محتدها النبيل، الاستعماري، أكثر أو أقل، وعرقها الممتزج، وغناها – فيما يتعلق بالثروة لم يكن هناك، أكثر أو أقل، بل أكثر فأكثر – فإن ماري كلود سافرت إلى الممتلكات البعيدة والغامضة حيث تقع مملكتها الحلوة والخضراء، مملكة قصب السكر والخدم والزنوج، وكانت تحمل بين أمتعتها الفساتين الأنيقة، وعلبة كاملة من المستحضرات، وتوصيات الأمومة الحزينة، وعلى الأخص ما تحمله من معلومات مثيرة زودتها بها مادلين. في

البدء كل شيء بدا جديداً وحيوياً وسبباً لإقامة عيد وإطلاق ابتسامة، ولكن الرتابة لم تتأخر في أن تذر بقرنها.

تعبة من الحفلات الريفية التي بسبب الأناقة والعادات الأوروبية كانت تثير الحسد وتستدعي التعليقات بين النساء المتخلفات وذات النسب الوضيع، وتعبة على الأخص من حماقة سيد إيتاواسو، المعتز بنفسه بقدر ما كان مملاً، فإن ماري كلود لتتمكن من استيعاب التفاهات وتحمل الاندفان في هذا المكان، وحيدة، وبرفقة البارون، كرست نفسها لممارسة ركوب الخيل والتجول ممتطية، وراحت تجوب الحقول على الخيول الأصيلة التي هي أفضل وأقوى خيول ريكونكافو.

وبانتباه شديد، تأكدت بالممارسة أن الأسياد، يولدون بموهبة، لا تقبل الجدل، للقرون الكبيرة: من المستحيل إيقاف هذه الموهبة عن التحقق. وكون الأمر كذلك، فإن المرأة المخلصة يجب أن تكون مستعدة للقيام بواجبها، ومتعاونة في تحقيق قدر زوجها.

وفي أحد الأيام، وبينما كانا يتبادلان الحديث عن الطهارة والجمال، وهما يسيران، فإن البارون أدروالدو أشار بإصبعه إلى زنجي شاب منهمك في العمل في محل الحدادة، مسترعياً بذلك انتباه البارونة لتنظر إلى النوع الرائع من الحيوانات الأصيلة:

– انظري إلى القامة، إلى الرجلين، إلى الصدر، إلى الرأس، يا حبيبتي: إنه حيوان جميل، نموذج متكامل. انظري إلى أسنانه.

نظرت مطيعة وشديدة الاهتمام، وأطالت النظر في النموذج المتكامل في الحيوان الجميل. لاحظت الأسنان البيضاء، والابتسامة الكسولة. يا للأسف! إن صفيحة معدنية كانت تخفي مقدمته.

كان البارون خبيراً في الأنواع، وقد ورث نباهته عن أبيه، وهو عليم في اختيار وشراء الجياد والعبيد. ولكن ماري كلود تعلمت في مدرسة راهبات القلب المقدس أن للزنوج أيضاً روحاً يكتسبونها بالعمادة. إنها روح استعمارية، من الدرجة الثانية، ولكنها كافية على كل حال لتمييزهم عن الحيوانات: إن طيبة الله لا حدود لها، كانت تشرح لهن الأخت سورور دومينيك وهي تتحدث عن بطولة الإرساليات الدينية في قلب أفريقيا المتوحشة.

– "مي با دي تو. مونامي، سنيبا أنانيمال" لا، قطعاً، لا، يا صديقي، إنه ليس حيواناً. إنه رجل وله روح خالدة وهبه إياها المبشّر حين عمّده.

– رجل؟ – قهقه البارون ضاحكاً.. وهو يجيبها بالفرنسية.

عندما كان السيد إيتاواسو يضحك بالطريقة الفرنسية، ويفرض نفسه أرستقراطياً مثقفاً وساخراً وهو يتسلى بالحماقة الإنسانية كان يغدو تحمله أمراً مستحيلاً. كان أحد البارونات أمثاله ويدعى أدرواردو ريبيرا دا كوستا، وهو مجاز في الأدب من سانتو أمارو، عندما كان يسمعه منطلقاً في ذبح لغة بودلير دون رحمة، يمضي بالإشارة إليه بالسيد "الفرانسيو" على مسامع المصغين وخلف ظهر البارون نفسه، ثم يضيف معلقاً: إن الشاعر كان يعيش حقاً في القمر ولكن ليس إلى درجة القبول بتعرضه لغضب الذي يأمر المطر فينهمر.

– لا تأخذي الأمر بمأخذ السوء، يا حبيبتي، ولكن تأكيدك يأتي من باب عدم الانتباه. أين سمعت أحدهم يقول إن الزنجي رجل؟ إنه حيوان جميل، أكرّر وهو بالتأكيد أقل ذكاء من حصانك "الماسة الزرقاء".

– "تري بووى" إنه جميل جداً، أجل إنه رجل جميل، إنه أمير. أمير إيبانو.

– أمير إيبانو! إنك غريبة، حقاً جعلتني أضحك – ثم فرض نفسه متفوقاً وسيداً مطلقاً.

إن التأكيدات الغليظة، والشتائم التي فاه بها البارون جعلت البارونة تقتنع: إنه القدر. هو القدر مكتوب في السماء.. وتبنت البارونة كاستور ولم تندم، ولو علم السيد الشريف بالمصلحة التي اقتضت تغيير حالة الحداد المتدرج، والذي يخدم الآن على المائدة، لقام بعمل فظيع، ولكنه هو نفسه مشغول في قطف ثمار العذارى اللواتي يستخدمهن ويستغلهن كما لو كان زمن العبودية ما زال سارياً.

سيد إقطاعي، كان قد أكل "العشرينات الثلاث" للكثيرات منهن، ولكنه مع روفينا حافظ على علاقة طويلة: فهي، في مطبخ الدار الكبيرة، كانت تبدو بملامح راقية، فحمة مكسوة بالذهب والفضة – أساور، أقراط أذن، مناديل، وعقود، بالإضافة إلى إشارة دينية ذهبية كان قد أهداها إياها الأسقف. إن كرم البارون لا يعرف حدوداً: كما لو أن المداعبات الطيبة لم تكن كافية، وكما لو أنه يسعى إلى أن يعلم الزنجية ممارسة الأمور ممارسة رفيعة المستوى ولكن دون نتيجة، لأنها كانت تفضل الممارسة الطبيعية.

ولإنهاء الحكاية، فإن الحبكة المفصلة لوضع القرون المزدوجة لسيد إيتاواسو لم تفصح عن نفسها إلا متأخرة عندما بلغت تفاصيلها توكايا غراندي، وسجلت فوراً كعمل تميّز به ذلك الذي خلال وقت قصير أصبح في خدمة المصلحة العامة: يحارب على جبهتين، على جبهة البارون الذهبية، وجبهة

روفينا الفضية، وبكل قوة، وبراءة، ابن الثامنة عشرة، كاستور أبدووين الذي علّق الشارات والقرون على جمجمة البارون الأرستقراطية.

3

كان بطن البارونة، الناعم والمعطر، يرتعص نَزَقاً ويتقوس، عندما كانت في وحدتها الحالمة لا يكدرها سوى شخير البارون، وتفكر في أمير إيبانو وتتجسده أمامها بكل تفاصيله: الشفتان غليظتان، الأسنان مرهفة قاطعة، واللسان معجعج، والصدر عريض، والفخذان قويان، وأما الباقي فويلاه! لا تتلفظ أبداً بالباقي، وهي لا تستعمل أبداً تعبيراً، كهذا، وضيعاً، وغير مرهف لتسمي تلك الزيادة الوحيدة والأمامية التي بمجرد مشاهدتها كان يطير صواب روفينا وتصطك أطراف البارونة، وتتبلل أجزاؤها؛ الأجزاء هي أيضاً كلمة تعيسة، مستعملة على ألسنة العاملين في المطبخ وهي يجب أن لا تتلفظ بها، والتي من حرارتها، فلينجنا الله ويحرسنا.

وبالرغم من الحساسية في ملمس الجلد، فإن البارونة كانت تحافظ في تلك اللحظات على رباطة جأشها ويغمرها المنطق والتظاهر بعدم الانبهار وهما صفتان تتميز بهما بلاد الغال.

روفينا، المنازعة بقاءها بتحمل دلال البارون وملامساته الحضارية، وهي تحتقر مالكها الممغنط، والمقرن، فإنها كانت تفتش عن تعزية نفسها وإشباع حرمانها على نفس الصدر الذي كانت تتوسده البارونة بينما الأخرى تكون منصرفة إلى الاهتمام بتصفيف شعرها الأشقر: إن كاستور أبدووين دا أسونسيون، أمير إيبانو، وخادم الرفاهية، المتدرج من ماريشال حدادة في بيطرة عمه كريستوفار أبدووين، مثل روفينا، ذو رأس صنعه الإله شانغو.

في أدغال قصب السكر، وفي حي الوجهاء كما في قصور السادة نبلاء ريكونكافو، في مدن سان فيليكس، وكاشويرا، موريتيبا وسانتو أمارو، ومن ماركوجيبي إلى العاصمة، فإن جمعية المخدوعين أصبح لها رئيس جديد ومشهور هو بارون إيتاواسو، "موسيو" فرانسيو، ذو القرون الأربعة، المقرن، أبو القرون الكبيرة، ملك الجميع. "أون جانتل كوكو" لاستعمال التحديد الظريف والمعبّر عن الصداقة على فم البارونة زوجته. آه – إن فم البارونة فقط يمكن تشبيهه بمطرح روفينا، فكلاهما تحفتان، وبارعان، وخبيران، ولكليهما رأي يعبر عنه البارون أدروالدو مونيز سارابيفا دي البوكيركي، وسيد الأشراف، ويشاطره الرأي الزنجي كاستور الذي ولد عبداً في مزارع قصب السكر..

مرة أخرى يأتي البرهان على أن الحقيقة تفرض نفسها على العالم والجاهل، وعلى الفقير والغني، وعلى الشريف والوضيع.

4

لكي لا يتم الحكم بالسوء على أدروالدو مونيز سارابيفا دي البوكيركي، بارون إيتاواسو، ولكي لا تضفى عليه صفة النبيل المتخلف، الرازح تحت أثقال الأحكام المسبقة والوضيعة غير المستحق لزوجته الأوروبية المتمدنة، يجب القول إن الحادثة مع كاستور، موضوع الاعتداء والهروب، لم تكن بسبب العلاقة الحميمة بين البارونة ومساعد الحداد الزنجي كاستور. فكل ما هو ثابت بالأدلة يشير إلى أن القرون التي ركبتها له مداعبات البارونة لتمضية الوقت لم تحرك لديه ساكناً. فقد كان يحمل تلك القرون باعتزاز، أو عدم اكتراث، ليكون المثل الصالح للسادة برابرة السكر ذوي الشريعة العادلة الذين يقتلون البيض والبيضاوات ممن يختلطون بالزنوج، أما الزنوج فكانوا يسلخون قبل أن يقتلوا! وما جعل البارون يهز بذراعه السوط ليفتح أثلاماً من الدم في ظهر روفينا العارية، كان بسبب المذلة التي سببها تصرف الوضيعة: العقوق، وقلة الاحترام. لقد أحس بنفسه معتدى عليه بسبب انتهاك ما هو أقدس الأقداس بالنسبة إليه، ألا وهو حس الملكية. لقد صرف الكثير من المال ووضح الكثير من معلوماته مع الشقية – لقد أعطاها شرف فضّ عذريتها والتمتع معها باستمرار: وسعى إلى تعليمها ما هو متعلق بالممارسات الجنسية الراقية ولكن النبتة البرية، السيئة، لم تكن لتنبت في التربة الصالحة، وأعطاها صفة العشيقة ليرتفع بها من مستوى خادمة بيت، وحيوان أليف، هذا بالإضافة إلى الهدايا الكثيرة من الفساتين والحلي. إن خيانة الزنجية آلمته في عمق أعماقه؛ لم يكن أمر هذه مثل أمر نزوة زوجته المؤقتة، وخفتها المضحكة، وخطيئتها العرضية؛ إن الأمر مع الزنجية يتعلق بخطيئة مميتة خطيرة، ومواجهة وضيعة وتقرين مذل للسيد والعشيق، وجريمة لا تغتفر. إن التسامح مع فظاعة كهذه خطر على مبادئ المجتمع وقيمه.

لهذا، فهو عندما عاد من رياضة ركوب الخيل الصباحية فإنه فاجأ، في مشتمل الإقامة القديم، روفينا يأخذها كاستور بطريقة المبتدئين الجهلة، الزنجية في الأسفل، والزنجي من الأعلى، فأصيب البارون بالغضب: ثم أمسك الغضب وراح ليصغي متربصاً إلى تنهيد روفينا، وإذ لم يتمالك نفسه راح البارون يعطي الأمثولة بالسوط.. ولكن كاستور انتزع منه السوط وكسره إلى قسمين ثم رماه بعيداً. وبدلاً من السوط فقد نال البارون صفعة، وشتيمة، وتهديداً.

– سأرسل من يقلع خصيتيك، يا أمير البراز، أيها الزنجي التافه. وإذ انقلب وجهه قاسي الملامح، ونظره حاداً شرساً، فإن أمير "كائناً من كان" إيبانو، أو البراز، أخذ البارون من سترة الركوب بيده اليسرى، وراح باليمنى يملأ وجهه بصفعات تنهال عليه كالمطارق، ولم يتوقف عن التسديد إلا حين تجمع بعض الناس مقبلين من الدار الكبيرة وسائر المجمع السكني إقبال من يأتي إلى حفلة عيد: فليس كل يوم يمكن مشاهدة مشهد تلقيم الصفعات وقبضات اليد لواحد من الأشراف.

وإذ جعل الزنجي رأسه ورقبته موضوع جائزة مالية بالتصرف الذي تصرفه، فقد أطلق رجليه للمجهول وانطلق في هذا العالم. وتأخرت البارونة عمداً لأنها لم ترد أن تتدخل لإنقاذ الزنجي.. لم ترد أن تتدخل لأنها تأثرت تأثراً عميقاً بخيانة الزنجي. يا مجدلية!! أجمل زنجي في العالم وألعن الرجال. وتمرضت البارونة ملازمة الفراش تقضي أيامها كئيبة ولكنها ما لبثت أن قامت بردة فعل وراحت تستعد لرحلة إلى أوروبا برفقة البارون. في شهر عسل جديد استحقته استحقاقاً.

وصل الهارب إلى العاصمة بعدما اجتاز نهر باراغواسو على متن مركب يحمل السكر والكاشاسا. واعتبرت الأم جيرترود دي أوشون التي استضافته. إن مدينة باهيا قريبة جداً من سانتو أمارو وليس بمقدورها أن تكفل حياة زنجي متهم بجرائم كبيرة. لقد تجرأ على أن يرفع عينيه إلى الزوجة الشريفة والمصونة، وطرد، لأنه أراد أن يعتدي على زنجية فقيرة ليس لها من يدافع عنها، وإذ منع من الاسترسال في اعتدائه فقد حاول أن يقتل السيد النبيل. وكانت الشرطة تتعقبه لزجّه في السجن، والمرتزقة قد جاؤوا من ولاية ريكانكافو وانتشروا في الطرقات مع الأوامر بقتله.

مختبئاً في مخزن أحد المراكب الشراعية سافر كاستور من باهيا إلى إيلايوس. وفي إيلايوس، حيث راح يتسكع، انتهى إلى مزرعة كاكاو شاسعة بين بونتال وأوليفنسا، فإن الأب آرولا أنقذه من التسكع وأوصى به إلى العقيد روبستيانو دي أراجو الذي لم يكن غناه ليمنعه من إعطاء الطعام إلى الكهنة ويأخذ بالمقابل البركة والنصائح المجانية. وفي مملكة الكاكاو فإن الأب آرولا كان يملك امتيازات بقدر امتيازات أسقف أو أكثر: كان أول الواصلين إلى هناك وامتلك سلطات قوية، لا تقبل النقاش، على الشمس والمطر.

5

أمضى كاستور خمس سنوات يعمل في حداية الجياد في مزرعة سانتا ماريانا، عندما، وهو يقتفي أثر قافلة من الحمير حدث له أن أمضى الليل في توكايا غراندي. كانت مدينة إيتابونا وجهته،

وبشكل أدق، كانت وجهته شوارع الركن الذي تقوم فيه بيوت الغانيات حيث كان يذهب لانتشال جسده من الشقاء. فمن رُبّيَ في الدلال، يأكل المآكل الناعمة والطيبات الوطنية والأجنبية في مقاصير نبلاء السكر في ريكونكافو، فإن مزارع الكاكاو في جنوب الولاية كانت تشعره بالرغبة الشديدة في مادة المرأة.

في الشؤون الأخرى كان راضياً عن كل شيء ولم يكن يشعر بالشوق إلا لعمه، وحتى إذا تمكّن من الرجوع، فهو لن يرجع.. إنه هنا لا يشعر بالعبودية التي تعطيه حقاً واحداً هو الطاعة دون أن يرتفع صوته. وهو، حين عومل كأمير، ووضع القرون للبارون فوق شراشف حرير الرفاهية، وأغطية القطن الطبيعي في فراش البارونة لم يحس بنفسه رجلاً حراً. ولكي يفوز بهذا الإحساس، كان ضرورياً أن ينهال بيده على وجه السيد النبيل، ويجازف بحياته، ويجتاز العالم وصولاً إلى منائي الكاكاو حيث لكل إنسان قيمته، وحيث يدفع له، خيراً أو شراً، مقابل صنيعه.

إن قلة النساء في المزرعة كان يعالجها بمرافقة قوافل الحمير: إلى المستودعات، والأماكن الآهلة، والمدن حيث كان يتوفر دفء العاهرات؛ وانتهى إلى أن ينضج ويصبح زنجياً هادئاً وودوداً، وحافظ على حركته الطبيعية وقامته المديدة، وخلقه الحميمي، وعندما كان يتأخر عن الرجوع، كانت بعض الفتيات يعبرن عن الأسف لغياب كاستور تيساو، الطويل: فلإحياء حفلة لم يكن هناك من يماثله أو يضاهيه.

فنان قدير ونبيه في مصنع حدادة سانتا ماريانا حيث يلبي حاجات المزرعة – حداية العجول، وصناعة السُرج والمهاميز، وشحذ الفؤوس، وإصلاح أدوات العمل – فإن كاستور، ليتسلى، كان يصنع السكاكين والخناجر والخواتم لإهدائها إلى اللواتي يعرفهن، وأدوات زينة من الحديد كان يرسلها هدية إلى الأب آرولا: قوس وسهم أوشوسي، وتجسيم الإله أوشوم والآلهة إيمنجا، وتمثال صغير يمثل رأس الإله شانغو، أما العقيد فلم يكن يلقي بالإطراءات مجاناً على موهبة الحداد الذي هو فنان في نظره. كان تيساو قد أهدى العقيد المزارع سرجين صنعهما بنفسه وكانا قطعتين فنيتين لهما قيمة كبيرة.

العقيد روبستيانو دي أراجو كان شخصاً طيباً؛ غني وقدير، ولم يكن يمارس روحية إقطاعية ولا ينظر من أعلى، باحتقار، إلى العمال، وبالرغم من هذا، كان حلم كاستور إنشاء مصنع حدادة في أحد الأماكن المأهولة حديثاً، حيث يعمل لحسابه الخاص، فلا يخدم سيداً مقابل أي شيء.

تيساو بمساعدة كوروكا
يقتلع ضرساً ملتهبة من لثة عشيقة مانويل برناردس القاتل الشهير

1

فجأة – بددت الهدوء المعتاد عند بداية الليل في المخيم الكبير، الذي غدته توكايا غراندي، صيحات ألم مدوية. كانت الصيحات تأتي من بعيد وتقترب، مرتفعة أكثر فأكثر: إنها آهات ألم يائسة. كان أحدهم قد أطلق صوته مستنجداً، وهو يتكلم عن الموت، صمتت الهرمونيكا بين يدي بيدرو سيغانو الذي كان يعيش على "يعطي الله" دون سكة محددة، يعمل كل شيء ولا يعمل شيئاً. أما اللاعبون المدمنون والمياومون على اللعب فقد علقوا رهاناتهم؛ حداة القوافل والعمال أصيبوا بالدهشة فوقفوا ثم خرجوا ليروا ما كان يحدث... وإلى جانب كوروكا في الفراش استدار الزنجي كاستور نصف استدارة وهو يصغي:

– يبدو أنهم يقتلون أحداً – علقت امرأة الهوى.

– سأذهب لأرى – قال الزنجي وهو يدخل في سرواله: – سأعود بعد قليل.

– وأنا سأذهب – قالت كوروكا ثم أرهفت سمعها: – إنه بكاء امرأة.

كانت تدور حول توكايا غراندي أسطورة من الخطر والعنف – إن توكايا غراندي لم تنل هذا الاسم بالصدفة، وإن لم يكن قد سمع أخيراً نبأ عن منازعات دامية في المكان. طلقة رصاص من حين لآخر، أو طعنة سكين، وعراكات حول ورق اللعب بسبب التزوير. قبل أيام فإن أجيرين كادا ينهيان واحدهما الآخر طعناً بالخناجر لتقرير من منهما يقضي الليل مع برناردا؛ سالت الدماء، ولكن لم يكن هناك قتلى – إنها حادثة لا أهمية لها.. ومع ذلك، فإن المقيمين والمارة قد استنفروا أنفسهم عندما سمعوا صرخات الألم وطلبات النجدة.

ثلاثة أشخاص كانوا قد خيموا وراء مخزن الكاكاو آتين من مزرعة سانتا ماريانا يريحون قوافلهم التي جاؤوا بها والمستأجرين الذين كانوا يحرسونها.

تمكن كاستور وكوروكا من أن يميزا على ضوء البدر امرأة شابة زنجية فاحمة ذات شعر أجعد طويل وهي تضع يداً على خدها وتتلوى ألماً دون توقف. كان يرافقها رجل نحيل تقدمت به السن قليلاً وامرأة عجوز. تقدمت كوروكا لملاقاة السائرين باتجاهها: ليس الأمر مهماً، إنها مريضة، في طريقها إلى إيتابونا، تفتيشاً عن علاج. ليس مفروضاً أن تكون في حال خطيرة لأنها كانت آتية

سيراً على الأقدام وليست محمولة على الأكتاف في شبكة إسعاف. وسمع صوت الهزء من زعيق المرأة:

– إلى هذا الحدِّ تفحين بسبب ضرس؟ وتوقظين الناس بسبب تفاهة كهذه؟ يا للرخص: – حزينة وغاضبة فإن المرأة العجوز واجهت كوروكا:

– أريد أن أرى ما كنت ستفعلين لو كان الأمر قد أصابك، يا سيدة. إن المسكينة تتألم دون انقطاع، منذ ثلاثة أيام، ودون راحة. لقد بدأت أمس ولم تتوقف عن العذاب الذي يزداد ولا يعطي راحة للشقية.

ورفعت صوتها ليسمعها الفضوليون المجتمعون:

– إننا ذاهبون إلى تاكاراس لنرى ما إذا كان هناك أحد أبناء الله ممن يقلعون أضراساً. وإذا لم نجد فإننا سنتابع إلى إيتابونا. إنها ابنتي، وامرأته.

أشارت إلى الرجل الذي كان يلتزم الصمت. كانت العجوز تملأ كيس القدرة على التحمل، وكان عليها بالتأكيد أن تكرر الشرح عن الطريق، فاستطردت:

– إن أباريسيدا التي..

ولم تستطع أن تتابع لأن صوت الرجل الأبح قطع الكلام:

– يكفي! إنك تتكلمين أكثر مما يجب.

كان الرجل يضع خنجراً على زناره وبيتاً من الرصاص معلقاً في كتفه. ودون أن تكون العجوز مضطرة إلى التوضيح فقد علم الجميع أن المرأة المتوجعة هي ملكه بسبب قلقه عليها واهتمامه بها المنعكسين على سحنته الممتعضة التي كانت تنفرج قليلاً لدى رؤيتها تكف عن النحيب. ووقف الرجل في وجه كاستور عندما وصل الأخير بضحكته عارضاً نفسه:

– إذا كنت تفتشين عمن يقلع ضرسك يا سيدة فلست مضطرة إلى الذهاب إلى تاكاراس. هنا بالذات يمكن القيام بالأمر. تعالي معي.

– آتي إلى أين؟

– إلى مخزن العقيد روبستيانو لأتبين حالة الضرس الملتهبة.

– وهل اعتدت أن تعتني بوجع الأضراس؟ – أكثر من السؤال هو موجة الصوت المليء بالشك والحذر.

لم يتراجع كاستور ولم يتجهم، بل افترَّ ثغره عن ابتسامة:

– نعم أعتني. هيا يا امرأة.

وبإشارة من الرجل مشوا إلى مستودع الكاكاو ففتح الأجراء الطريق للمجموعة المعينة وهم مهتمون، بنفس القدر، لمعرفة تطورات الموضوع. كان الحضور قد ازداد بوجود بيدرو سيغانو، برناردا، لوبيسينيو، باستياو دا روزا، والعمال ورجال القوافل. كانوا يتبادلون الهمسات وينظرون بإمعان إلى الرجل المسلح وما أن قام رقيب الأجراء بحركة حتى أجابه باستياو دا روزا بحركة أخرى مؤكدة. عرف الاثنان المسلح: لقد كبر في السن وظهرت عليه التجاعيد مما جعله الآن أكثر خطراً من قبل. وأحس لوبيسينيو ببرد في مواضعه: كل شيء يمكن أن يحدث.

طلب تيساو من المرأة أن تجلس فوق أكياس الكاكاو وتفتح فمها، ولكنها لم تحرك ساكناً وظلت ترتعص ألماً، بانتظار قرار حاميها الذي أصرَّ على السؤال:

– هل تعتني بالأضراس، حقاً؟

ضحك الزنجي من جديد، وإذا الفكاهي والمتكلم اللبق يستطرد:

– لقد قلت لسيادتك من قبل.

– لست سيادتك ولا سيد أحد. إني مانويل برناردس من إيتاكاريه ولا أحب الزعل. سأطلب منها أن تجلس ولكن المسؤولية تقع عليك. وكيَّف صوته وهو يتوجه إلى امرأته هيا، اجلسي، يا كلورياندا، وافتحي فمك وأري الشاب ضرسك.

كان لوبيسينيو وباستياو دا روزا قد كشفا هويته قبل أن يعلن اسمه منذراً مهدداً. كان قاتلاً ذائع الصيت في خدمة عائلة بادارو خلال الصراعات الدامية مع العقيد باسيليو دي أوليفيرا، وفي المعركة الأخيرة عندما نفدت ذخيرته ووجد نفسه وحيداً وقد أصيب برصاصة في كتفه وتلطخ كلياً بالدم فإنه مع كل ذلك لم يستسلم: متسلحاً بخنجر استطاع أن يجرح ثلاثة. وإذ غدا سجيناً مصاباً فإنهم كانوا سينتهون منه بطريقة سيئة ولكن العقيد باسيليو لم يوافق: لأن فحلاً من ذلك العيار لا يقتل بدم بارد، فأرسل من ينقذه مادام له يد العون. ثم انتهى مانويل برناردس إلى العيش في إيتاكاريه حيث كان يزرع الذرة والشعير ويمتلك مطحنة وليس من شهرة تضاهي شهرته إلا شهرة النقيب ناتاريو دا فونسيكا.

في تلك الساعة خاف الجميع على حياة الزنجي تيساو، الشغول، والمتقن لعمله، والذي يحبه الجميع. إنه حداد ذو يد أكيدة وقوية وهي تضرب الحديد، حداد ذو أنامل لبقة وعالية الإتقان في معالجة المعادن. وكانت نقطة ضعفه الوحيدة هي سعيه إلى خدمة الآخرين أكثر مما يستطيع، ووضع إصبعه في كل شيء، ورغبته في حل كل مشكلة: "بعلزبوب". إنه سيدفع غالياً ثمن ما طلب منه أن يتدخل فيه؟ بالتأكيد ليس لديه القدرة ولا الحذاقة في هذا الأمر، وهو لا يتعدى كونه زنجياً يحب الاحتفالات والمزاح.

عندما كان مراهقاً تدخل في شأن زرافتي البارون: الشرعية والمحظية. في الوديان والهضاب، في مزارع قصب السكر وأحياء النبلاء، في المرج الأخضر والسماء الزرقاء امتطى المطيتين الخاصتين بالنبيل مجازفاً برأسه وخصيتيه.. فبرهن على قدرته وحذقه، ثم فقد الخوف مرة واحدة وإلى الأبد.

– تشرفت جداً بمعرفتك يا سيد مانويل. اسمي كاستور أبدووين، ويسموننني تيساو لأنني حداد.. ولديَّ سابقاً ألقاب أخرى أستطيع أن أخبرك عنها إذا رغبت يوماً. الآن هيا بنا نخفف من وجع السيدة. ليس في الحياة ألم يمكن مقارنته بألم الضرس، هذا ما سمعتهم يقولون ويكررون. الحمد لله أنني لم أصب يوماً بوجع الضرس – ضحك بملء فمه وهو يكشر عن أسنانه البيضاء.

– تحت أم فوق؟ ومن أية جهة يا سيدة؟

– في الأسفل. هيا.

2

الحاضرون اقتربوا وجميعهم يريدون أن يروا، وكانت النظرات تنتقل من المقاتل إلى الزنجي ومن المرأة إلى العجوز. طلب تيساو من كوروكا أن تحمل القنديل فوق رأس كلوريندا. لم يكن يستطيع أن يرى جيداً على الضوء الشاحب دخان الفتيل، فراح ينقب بأصابعه في الجهة اليمنى إلى أن زعقت المريضة بصوت مرتفع وأحس هو بالحفرة في الضرس المسوسة. فأعلن:

– إنه تسوس – إذا أرادت.

وعاد صوت مانويل برناردس ببحته، وهو لا يزال متشككاً مهدداً:

– هل سبق لك أن قلعت ضرساً من قبل؟

في قفا الدنيا، حيث كان يضع الحدوات للبهائم انتهى إلى أن يصبح بيطرياً، وأكثر من مرة كان كاستور قد اقتلع أضراساً لبعض الحمير والجياد. أما أضراس نساء ورجال، فلم يقتلع بعد، ولكن أي

فرق في ذلك؟

– لا يوجد حساب.

في محفوظات المستودع وجدوا كماشة. ثم طلب الزنجي أن يأتوا بشيء من الكاشاسا:

– لتجرع المرأة جرعة فيخف إحساسها بالوجع.

وجاء أحد رجال القوافل بزجاجة نصف ممتلئة. فأعطى تيساو المثل، وأطرى على النوعية: إنها من الصنف الجيد وشرع في كلوريندا:

– ستؤلمك، إذا رغبت في أن أقلعها يجب أن تتحملي قليلاً، وكانت الابتسامة تجعل عدم الثقة يتبخر: – إنها ليست أكثر من وجع، وبعده ينقضي، وينتهي الأمر.

– أجل، اعمل لي هذا المعروف.

وبلطف، فإن الزنجي قدم الزجاجة إلى الرجل العابس، داعياً إياه:

– مخمضة واحدة؟ إنها جيدة لتهدئة الدماغ.

– أعتذر.

– أتعتذر؟ ألا تحب الكاشاسا أم أنك مؤمن؟ ولكن المرأة لا تستطيع أن تعتذر، أحبت الكاشاسا أم لا.

بالطريقة التي أخذت بها الزجاجة تبيّن للجميع فوراً أن كلوريندا لم تكن ترفض بلعه وقد توقفت عن الزعيق.

– والآن افتحي فمك يا سيدتي، أمي كوروكا هاتِ القنديل! راح يجس لثة المتأوهة التي كانت ترتعص عند كل جسّة من اليد الثقيلة. في الصمت الضعيف، الضاغط، كان جو من الاستنفار والحذر يحيط بالموجودين المنتبهين إلى كل كلمة وكل حركة. وأخذت العجوز الزجاجة من يد الابنة وخدمت نفسها أيضاً. ضحك تيساو وعلّق:

– ما هذا "بيبي"؟ هل تريدين أن تقلعي ضرساً أنت الأخرى؟ – أمسكي بهذا. – أعطاها الكماشة وعاد مع قليل الأدب: – أعرني الخنجر يا سيد مانويل؟

– لماذا؟

– سوف ترى في الحال. أحتاج إلى إبعاد اللثة حتى أستطيع أن أمسك الضرس بالكماشة.

استلم السلاح ووصف بلعة كاشاسا أخرى لكلوريندا.

– هكذا ستصبح ثملة – حذّرت العجوز.

– بقدر ما تصبح ثملة يكون أفضل لها.

وافق بيدرو سيغانو وأطرى على الكلام بحركة من رأسه وهي تتناول مزيداً من الكاشاسا.

– هيئي نفسك لأنك ستحسين بقليل من الألم – أعلن كاستور.

– أسوأ مما هو، لا يمكن أن يكون – والكاشاسا إذا لم تخدرها فقد أعطتها الشجاعة وبينما يطلب من كوروكا أن تحرك القنديل بطريقة تسمح له بأن يرى ما في داخل الفم المفتوح، كان الزنجي قد فصل اللثة عن الضرس شيئاً فشيئاً، برأس الخنجر، وسالت خيوط من الدم على أطراف شفتي المرأة فحاد مانويل برناردس بنظره وتطلع إلى الأمام، وبالرغم من الارتعاصات القوية لم يكن يسمع أي ضجيج، أما كلوريندا، فكانت، بين الحين والآخر تتحرك عندما تحس بوخزة ما.

– الآن أعطى كاستور علماً – أعطها القنينة يا "بيبي".

أعاد الخنجر إلى مانويل برناردس الذي مسح عنه الدم بسروال الكاكي وانتظر تيساو ريثما تنتهي المرأة من الشرب وقد جعلها تمخمض وبالرغم من كل ذلك فقد وجد صعوبة في إدخال الكماشة. لم يكن سهلاً الإمساك بالضرس بين فكي الكماشة: على الرغم من الرهافة والحذاقة اللتين برهن عليهما في حداية الحيوانات فإن الكماشة قد عضّت مرتين أو ثلاث على اللثة المتشققة مما جعل كلوريندا تعض نفسها ألماً، واستفادت من لحظة إخراج الزنجي للكماشة من فمها ليبعد اللثة بأصابعه عن الضرس، وأطلقت تنهيدة عميقة وقفزت واقفة ودون أن ينظر إليها فإن مانويل برناردس قال:

– أردت أن تقتلعي الضرس، فعليك الآن أن تتحملي! لقد أنذرك الشاب. عودي إلى مكانك، اجلسي ولا تتحركي بعد.

كان أمراً، ولكنه أمر تمّ تبليغه بنعومة، فلم يرتفع الصوت، وهو لا يرفعه أبداً عندما يتكلم مع كلوريندا. كان قد بلغ السيل زبى العابس، فرمق برناردا، واهتم بأمر تيساو: إن الزنجي إذا أفسد فم المرأة ولم يقلع الضرس فإن الموجودين سيشاهدون مشهداً آخر مزعجاً. نظر حوله وقرأ في وجوه الآخرين النزاع نفسه فيا ويلاه، يا عذراء كابيستولا.

هدأت المرأة وتمكّن تيساو أخيراً من أن يمسك الضرس بفكي الكماشة. ثبّت رجليه في الأرض واقتلع بعنف، ولكن المريضة تحركت فقاومت الضرس التي لم تخرج مع الكماشة. الزنجي، صبوراً،

أعاد الكرة ومضت دقائق كأنها الأبدية. كان الحضور يكظمون أنفاسهم. أحدهم، ربما برناردا، أطلقت تنهيدة قوية.. والآن تغيّر وأصبح قاسياً صوت مانويل برناردس الذي ارتفع آمراً:

– انتهِ من هذا مرة واحدة!

ابتسم كاستور على ضوء القنديل وتابع، هادئاً إلى أن أحس بالضرس وقد استوت جيداً بين فكي الكماشة اللتين تمسكان بالضرس من جذرها. وطلب مساعدة رجلين ليثبتا كلوريندا ويمنعاها من الحراك. وقبل أن يتقدم أحد قرّر مانويل برناردس:

– لا أحتاج إلى أحد، يكفي أن أثبتها أنا وحدي.

وضع البندقية على أكياس الكاكاو، ووضع يديه على رقبة المرأة. عندئذ ثبَّت كاستور جسده وسحب بكل قوته: قوة حداد معتاد على وضع الحدوات في حوافر الحيوانات، وضرب الحديد الحار بالمطرقة، وخرجت الكماشة موسخة بالدم، فعرضها كاستور مع الضرس بين الفكين، ضرس عوجاء يروق النظر إليها.

– ها هي ضرسك يا امرأة.

بصقت كلوريندا بصقة كبيرة، ونظفت بيدها ذقنها الحمراء؛ أخذت قنينة الكاشاسا وشربت ما تبقى فيها كمن يشرب الماء، ثم وجهت شكرها:

– يحسن إليك الله. أيها الشاب. اعذرني على بعض الحركات السيئة.

وضع مانويل برناردس البندقية في كتفه. ثم اقترب:

– ضع يدك في يدي – ومدَّ يده – اعذرني على التسرع في الحكم الذي كان بسبب رؤيتي إياك عصرياً جداً. إن العمل الذي قمت به مضنٍ حقاً. كم يتوجب عليَّ؟

– لا يتوجب شيء. إني لا أعيش من قلع الأضراس.

ونبتت، من مكان لا يعلمه أحد، قنينة كاشاسا أخرى، وراحت تنتقل من يد إلى يد فوصلت إليهم. مانويل برناردس علّقها في بلعومه، وبلع بلعتين كاملتين، ومسح فمه بردن السترة ثم ضحك للمرة الأولى وهو يعطي القنينة للزنجي:

– لست مؤمناً، لا فليحرسني الله وينجيني، ولكني لم أكن أرغب في الشرب معك في تلك الساعة – إذا احتجتني في يوم فإنك تعلم أين أقيم.

فجأة سُمع لحن شجي يولد من ناي بيدرو سيغانو، كان لحناً شعبياً من الأغواس يغلي في دم وأرجل الناس.. وتجاوبت العجوز محنجلة بخطورة رقص خفيفة وتكونت حولها حلقة من الموجودين، والأيدي بدأت تصفق منطلقة مع اللحن والحركة الآخذة بالإسراع. باستياو دا روزا، أبيض ذو عينين زرقاوين، جاء ببرنادوا إلى وسط الحلبة، أما كلوريندا وقد هدأت، فقد نظرت إلى المقاتل المتقاعد قربها مانويل برناردس الذي عاد يبتسم وقد ارتاح صدره من وجع رفيقته وسورة القتل التي اعترته، فانتزع السلاح من كتفه. كانت تفوح رائحة طيبة من أكياس الكاكاو المليئة وتمتزج برائحة الأجساد التي تفرز العرق، وكلها روائح مألوفة، عطور من الدرجة الأولى.

– دكتور تيساو.. – مازحت كوروكا وهي تعلّق القنديل على مسمار في باب المدخل.

ترك الاثنان الحفلة، وعادا إلى الفراش. لم تكن كوروكا معطرة ومغرية كالبارونة، ولم تكن لها قامة مديدة وجسد أهيف وشباب مثل روفينا، ولكنها استجابة لحاجة طارئة كانت تساوي ما تساويه أية امرأة أخرى: كان عندها خبرة بنت الهوى، ولهيب الزنجية.

3

عالم رطب حار، القفار والغبار يتنازعان روزنامة الكاكاو، الأمطار التي لا غنى عنها، كما الشمس، كانت تدوم نصف السنة، ثقيلة، لا تنتهي، وتتحول بسهولة إلى رياح خماسينية. وكانت تدوم أحياناً أكثر من الوقت الضروري فتصبح مأساوية النتائج وتفسد البراعم المحتاجة إلى الضوء والحرارة. العقداء ومساعدوهم من المرتزقة والأجراء يفتشون وأعينهم مرتفعة إلى السماوات تفتيشاً عن علامات تبشر مرة بالمطر وأخرى بالطقس الجميل: حتى، بفعل الماء تزهر الأشجار، وبلمعان الشمس تعقد الأزهار وتنمو ثماراً قوية لتتحول إلى ذهب.. وحتى تبقى الأسطورة أكثر وقعاً لتلك المنطقة ذات الامتياز التي تدور حولها الأحاديث وتروى الحكايات التي بدأت في كل البلاد.

تفتيشاً عن العمل والثروة كانت تهبط من الشمال أو تصعد من الجنوب إلى ذلك الفردوس الجديد أقوام مختلفة من البشر المتألمين: عمال، مجرمون، مغامرون، نساء عاميات، محامون، ومبشرون مستعدون لأن يتحولوا إلى ودعاء.. وكانوا يصلون أيضاً من وراء البحار: عرب، ويهود، إيطاليون، سويسريون وألمان، ولا ننسَ إنكليز سكة حديد إيلايوس – الفتح – "دي ستات أوف باهيا ساوس ويسترن ريلواي كومباني" – والقنصل الإنكليزي مع بيرق بريطانيا العظمى بارتعاصته التي لا تتبدل وميله الدائم إلى السكر، كان القنصل بكل الأعمال المنزلية، وفي الفراش، بعريها الصغير، كانت

تبدو كإلهة من آلهات الغابات وربما كانت كذلك حقاً. وقد صنع لها السيد القنصل ولداً جميلاً، أشقر ذا عينين زرقاوين، وبشرة سمراء قهوائية – حليبية عجماء (أجنبية).

كانت أقوام موقع العمل الحديث ذاك، المعروف بغناه وقساوته، ذات معتقدات دينية ضعيفة بالرغم من ذكرها اسم الله متكرراً في بعض الحالات، وملفوظاً دون معنى، لإنجاح الكمائن وضروب الاحتيال التجاري. أما العقداء الذين يكثرون من الوعود فإنهم كانوا كل سنة يجددون نذورهم ويلزمون أنفسهم باتفاقيات مع العرش السماوي، بسبب الأمطار، أو بسبب الشمس، محاولين شراء إرادة القديسين الطيبة والعفو عن الجرائم، هذا إذا أمكن تسمية حوادث الفتح جرائم.

في زمن الاستعمار، قبل أن يوجد الكاكاو، كان قد جيء بالقديس جورجيوس في ديوان العربات التبشيرية المتجولة التي يقودها البيض، وأعلن شفيع النقباء وهو يمتطي جواده، وذراعه مرتفعة بالرمح، وأنه قديس محارب، وحامٍ في اللحظة الحاسمة، أما في عمق الغابات فإن العبيد قد جاؤوا على متن السفن التي تنقلهم من أفريقيا بالقديس أوشوسي سيد الغابة والحيوانات. وأذابوا القديس الأوروبي – بالإله الأفريقي في وحدة ألوهية تأمر الشمس والمطر وتتلقى النذور والتراتيل والقداديس والحفلات الهستيرية الراقصة: أمام الأيقونات المحمولة، أو في باحة كاتدرائية إيلايوس أو في كنيسة الأب آرولا الذي ولد عبداً ونذر نفسه هناك حامياً للحرية.. وفي مقر الإقامة المتواضعة أكثر أو أقل، جنباً إلى جنب، وضع الأب آرولا القوس والسهم رمز الإله أوشوسي الذي صنعه كاستور تيساو أبدووين، والصورة بألوان زاهية للقديس جورجيوس وهو في القمر يصرع التنين وقد أهداه إياها العربي فضول عبد الله الرجل الذي يخاف الله في ساعات التوله الوجداني عندما تسمح التجارة بذلك.

كانت الطرقات والدروب والشعاب التي تقود إلى المزارع الآهلة، إلى المخازن ومحطات سكة حديد الإنكليز، إلى مدينة إيتابونا أو مرفأ إيلايوس، لا تعد، كونها سلسلة من التهديدات للحيوانات والبشر: أجمات الافتراس، ومهاوٍ تشيع الرعب، منحدرات عمودية، ومرتفعات شاهقة، والخطر يركن تحت كل خطوة ثقيلة، لتجاوزها، فإن الحمير والبغال ذات الخطو البطيء والحذر، كانت أكثر قيمة من الجياد ذات الخبب الأنيق والعدو السريع.

بعض العقداء المعتزين بالثروة والرجولة، ونبلاء إنكليز من ذوي الشعور الشقراء السابلة والسحنة السمراء، كانوا يحبون أن يعرضوا الخواتم الذهبية في الأصابع المعتادة على الضغط على زناد

المسدس، وأن يفتحوا حساباً في الدكاكين للفتيات الأنيقات ذوات المصاريف المكلفة اللواتي جيء بهن من باهيا، وآراكاجو وريسيفي، وحتى من الريو دي جانيرو، وأن يخيلوا في شوارع المدن وهم ممتطون المهور الأصيلة ذات الدم النقي.. ولكن هؤلاء، وصولاً إلى دور المزارع الكبيرة كانوا يسافرون على الصهوات الآمنة، ظهور البغال والحمير التي كان بعضها جيداً للخبب بجودة أفضل الجياد.

كانت قوافل الحمير تنقل الكاكاو الناشف من المزارع إلى محطات سكة الحديد أو إلى إيلايوس وإيتابونا حيث مقرات الشركات المصدرة التي يمتلكها ألمان وسويسريون. الحيوانات المتقدمة في العمر كانت تبقى في المزارع لتنقل الكاكاو النيئ من الغابات إلى المعاصر. وكانت القوافل، في مسيراتها المضنية والخطيرة تختار الأماكن ذات الشروط المناسبة لتمضية الليل. كان ذهابها وغيابها، مع الزمن والحركة، يعطي بشكل دائم ملامح تجمع سكني جديد على ناصية الطريق.. وكان بعض تلك التجمعات يتطور إلى مقرات سكنية دائمة وإلى مدن في المستقبل، والبعض الآخر كانت تنمو فيه سلسلة بيوت في الواحد منها امرأة ودكان لبيع الكاشاسا.

مع مرور الزمن تحولت توكايا غراندي إلى أفضل نقطة لتمضية الليل في نظر حداة القوافل الذين كانوا يجتازون مسافة طويلة من منطقة نهر الأفاعي حيث كان يقوم عدد كبير من الملكيات بينها أكبر مزارع المنطقة. وكان نبأ بناء بيت أعمال تجارية أمر به اللبناني، رجل الخبرة وصاحب الرؤية، قد شاع في مسافات بعيدة، ومع شيوع النبأ قامت دور سكنية جديدة: بعضها من الطين، وأخرى من الخشب، وأكثرها فقراً من القش اليابس.

الدار الأولى من الحجر والطين تمّ بناؤها على يد الزنجي كاستور ليضع فيها المطرقة والمثلث الحديدي الذي يستخدمه في الحداية، بعد أشهر من حكاية ضرس كلورينداً، عشيقة مانويل برناردس. ووفقاً لألسنة "القيل والقال" فإن الحداد قد اعتمد على مساعدة العقيد روبستيانو دي أراجو الذي أقرض كاستور بعض المال دون فائدة ودون أجل محدد ليدفع الدين.

– هذا الزنجي لبق، إذا لم يقع ضحية نزوة من النزوات الملحة فإنه سيثرى. إنه متخلف، ولكنه تعلم الأمور من أجنبيات، لذلك فهو هدف مطاردات النساء، وأكثر نجومية منه لم أرَ في حياتي.

طريق القوافل

في زمن البقرات العجاف،
فضول عبد الله ضحية الكوابيس، يحاول أن يصاحب إحداهن

1

تأخر زمن البقرات السمان في الوصول، واضعاً جدَّ فَضُّول وحماسه على محك التجارب الصعبة والعذابات القاسية. لم يستسلم بل حافظ على حياته وفياً للعهد المقطوع: لقد كان ينفذ الواجب المترتب عليه في المعاهدة. والله لن يخل بتنفيذ ما هو متوجب عليه. ولم يكن فضول يترك مناسبة إلا ويتذكر – بتواضع منكسر، دائماً، وبغضب عامر عندما يصيبه اليأس – الاتفاقيات العلوية الموجبة: إن السيد الأعلى قد قاده من يده إلى ذلك المكان ليستقر فيه ويثرى، سالكاً الطريق المقدرة له.

في بعض الأحيان انحنى فضول لعوادي الزمان ووصل إلى حافة الانهيار. وكانت آفاق جديدة تلوح له بمنظومات فورية، عندما كان يشقى للحصول على عائدات توكايا غراندي المحدودة والبطيئة. كان الشيطان، ليمتلك روح فضول، يصور له كل أنواع البؤس ليقنعه؛ فكان يشيد له خرائط عمرانية هائلة، ويغريه بعروض سخية، ويشعل الأوهام في وهج الكؤوس الفارغة.

وللسيطرة عليه فقد كان يستخدم زيزينيا دو بوتيا كعلامة قدرية. لقد كانت القاسية تغزو غرفته وهو نائم، وقحة فاحشة، لتنغص عليه ساعات الحساب التي هي ساعات الراحة، ولا بدّ منها. وبشكل لا يقبل الخطأ والتبديل، في الليالي الأكثر شعوراً بالتعب، كان فضول يرمي بنفسه في الفراش بجسد ميت تفتيشاً عن الراحة، عن الحلم الذي يصلح له ما أفسده يوم المشقة: عن حلم مزدهر يستطيع في ثنيات صوره البراقة أن يحس بنفسه غنياً ومحترماً... ولكن ما كان يحدث في هذه الحال هو العكس تماماً فيشعر بنفسه محاطاً بالارتباك والضرب بيده على فمه. ولا يكاد ينام حتى تكون زيزينيا قد تسللت إليه في الحلم عارية متألقة.

وإلى هناك تعد بأن تصل قريباً، وبالطبع في يوم من هذه الأيام المقبلة في يوم القديس "ماكو"...

2

الأفاعي والزحافات في ذلك المركز البائس المتكون على جانب الطريق حقيقة لا تقبل الشك وخطر دائم. الأفاعي، بغالبيتها سامة، كانت تأتي من الأدغال والغابات المنتشرة حول الأحواض،

حاملة معها التهديد القاتل الشائع، لاجئون تائهون في الطرقات، منبوذون تستقبلهم توكايا غراندي، فتيات الهوى قليلات ومستهلكات وغير صالحات لإشباع الحداة الجائعين ونزوات القتلة والأجراء العابرين من مزرعة إلى أخرى، ولم يكن في تلك البقعة أي مجال للاختيار. ولكن من يموت جوعاً يأكل الروث ويمص أصابعه.

باستثناء برناردا فإنها كانت عكس الأخريات بجمالها، وفتوتها، بأناقتها ونظافتها، وجسدها الأهيف، كأنها لعبة ذات جلد أسمر غامق. هل هي غدرات الزمان التي رمتها هناك أم أنها اختارت المكان عمداً؟ ولم تكن تعرب عن الرغبة في الانصراف من هناك للعمل في أماكن أرحب من ذلك المكان... وهنالك من استحثها لأن تهيئ أمرها وتذهب، محاولة الإثراء مع زبائن آخرين. ولكنها – أُحبُّ هذا المكان – قالت وابتسمت.

وإذ كان قد أقام حديثاً في المكان، وبعد أن حسب الأمور من كل أوجهها، فإن فضول عبد الله عرض عليها المصاحبة، ودعاها للمجيء لتقيم معه وتساعده في نضال المخزن وتقاسمه السرير الواسع. كان قد أوعز إلى لوبيسينيو أن يوصي على سرير وفراش: "اجعله بقياسي وتذكّر أن في أغلب الأحيان ستشاطرني إياه أنثى، هنا، بصورة ملكية".

شكرت برناردا ورفضت. كانت في خدمته في أية لحظة يحتاج فضول إليها، أو في أية لحظة شعر بالرغبة فيها، وفي البيت الذي يختاره، والفراش الذي يفضله؛ يكفي أن يشير بيده. يدفع إذا أراد: إن التمدد مع مواطن نبيل إلى هذا الحد، ورجل دافئ وخدوم، ليس أمراً مالياً. أما أن تعيش كصاحبة، فهي جدّ متشكرة، لا تريد هذا أبداً لا مع فضول ولا مع أي شخص آخر كائناً من كان. ثم ذهبت لتطلع كوروكا على النبأ:

– هل علمت؟ لقد منحني فضول شرفاً. إنه شخص طيب. دعاني إلى أن أقيم معه.

– مصادقة؟

– كما أخبرك دائماً.

– تقيمين مع اللبناني؟ لقد صنعت حياتك. إنك كائن محظوظ حقاً.

– ولكني رفضت. لا أريد أن أتعلق به أو بأي شخص آخر.

– ولم لا؟

– الحياة هي فقط مع شخص تحبينه حقاً... تحبينه الحب الكبير والحقيقي.

– اعتقدت أنك كنت ميالة إليه.

– يمكن أن يكون الأمر كذلك. ولكنني لن أقيم مع أحد بالصحبة أو بالمال – وبينما هي تفكر وعيناها مطرقتان، فسرت: إن العيش المشترك، دون زواج، فقط من أجل الحب الذي يدوم طيلة الحياة، ليس إلا معاناة وعناء للنفس والقلب. لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، فبالنسبة لي انتهى هذا الأمر. من الأفضل أن أصبح عانساً.

كانت الاثنتان الواحدة تعرف الأخرى. وقد أقامتا حديثاً في المكان وتعايشتا فيه. فلم تقم كوروكا بالتعليقات وبلعت الأسئلة والنصائح. فرفعت برناردا نظرها، وضحكت ثم قالت:

– إن توكايا غراندي هي أرض الرجال الوسيمين. السيد فضول، بيدرو سيغانو، باستياو دا روزا، والأحلى من الجميع عرّابي.

وظلت برناردا تعرض نفسها، متأهبة، مطلوبة من جميع الذين تأسرهم: كانوا يتنازعونها في ليالي حداة القوافل ولم تكن دائماً حرة لتستجيب لقابلية فضول النهمة... من بعيد إلى أبعد، عندما كان يتعب من الاختيار الوضيع فإن العربي كان يأتي بفتاة من إيتابونا تكلفه الكثير من المال.

3

كان ينتهي إلى الاستيقاظ الكامل عند طاولة المشرب بينما يهيئ كؤوس الكاشاسا الأولى لرجال القوافل. كان ذلك المال هو أكثر ما يسبب له من عناء: إنه مال الصباح، بل الفجر الأول، دون أن يتاح له أن يريح معدته ويغسل جسده. وبقدر ما يستطيع، فإنه كان يؤجل ذلك الأمر مانحاً نفسه للخدع الصباحية الأكثر طيبة على قلبه.

كان ينطلق لتطهير نفسه في الغابة منتبهاً للأفاعي. وكان يسبح في مياه النهر ينظف نفسه من العرق، ومن عفونة تخيلات الليل ورؤاه. وكان ينظف أسنانه بفركها بالتبغ المعجون، ويضع المياه فوق الجمر في الموقد الذي يكون قد أشعله ليعمل القهوة في علبة فارغة كيفها لهذا الغرض. وعندما يصبح من جديد خالياً لنفسه بسلام، كان يذهب متأملاً في الحياة مسترسلاً مع أحلامه. كان مطمئناً إلى أنه إذا استسلم فهو لن يلبث أن يندم: إن نعمة الله لا تعطى لقليلي الإيمان... وليستحقها ويصبح بالتالي تاجراً غنياً محترماً كان مفروضاً به أن يبني نفسه بمستوى التحدي الكبير.

يشق بيديه القويتين الكُمَّثْرَى الناضجة، الصفراء، المعسلة الطعم، وبأصابعه كان يسحب النواة فيسيل العصير على ذقنه. بعد وجبة اللحم المشوي على الفحم في الموقد الذي صنعه له كاستور

أبدووين، فإنه في أيام الراحة والرفاهية كان يترك موزة قرب الجمر، ويجعلها تنضج إلى أن تصبح بلون الذهب بفعل الحرارة. ولكي يتجنب أن تحترق فإنه كان يضعها هناك مغلفاً إياها بالطحين، بعد أن يكون قد نزع عنها القشرة: طيبة!

نسيم الصباح كان يصل من ناحية مجرى النهر، والنساء، يسترحن من ليلتهن الحمراء، وتيساو يكون قد خرج إلى الصيد واستبدل المصايد. الأجراء في مخزن الكاكاو والعمال الذين يبنون دارة العقيد روبستيانو دي أراجو لم يبدأوا نضال يومهم بعد. زقزقة العصافير وحدها كانت تقلق صمت توكايا غراندي. إنها الساعة المفضلة عند فضول: ساعة ارتشاف القهوة الحارة وهو يجلس عند عتبة البيت، وقد أشعل النرجيلة وراح يجول بنظره في النواحي المحيطة به: الوادي، النهر، القمم، الأشجار ومجموعة البيوت القليلة والصغيرة – إنه البذرة – التركية، مستريحاً في إمبراطورية بني عثمان.

لن يزيح قدمه من هنا: لا بنصيحة طبيب، ولا بتهديد قاتل ولا من أجل امرأة. لم تولد بعد الأنثى القادرة على إجباره على الاستسلام وتغيير قدره. من يضع رأسه في المرأة إلى درجة إهمال العقل ينتهي إلى الفاقة ويصبح موضوعاً للسخرية والتعليقات ويعتبر بهيماً... لقد دخلت زيزينيا دو بوتيا حياته في طليعة نساء الملاهي المغريات اللواتي عرفهن، ومع ذلك لم تستطع أن ترتكب في حياته ارتكاب إجباره على التخلي عن قدره... وأي مرتدية فستان، سواء كانت زيزينيا العاهرة أو العذراء الجميلة آروزا، المغرية، أو الأرملة الغنية يسرى راموس رباط الخداعة والإغراءات. إن التجارب التي يتعرض لها مؤمن وديع متعددة ومختلفة، وكلها، تجارب، الوهم عصبها الرئيسي وخطرها الحقيقي.

وعندما كان يهدئ من حدة أفكاره كان يحتفظ بضفة النهر تحت بصره وعلى الأخص الجانب الذي يقوم فيه "حوض السيدات" وهو الاسم الذي أعطاه كاستور الزنجي للمكان، لحوض الحجارة حيث الشلالات وحيث النساء يأتين ليغسلن الملابس. من يدري، ربما جاءت برناردا وقد أصبحت نظيفة جديدة بعد الحمام وقبلت أن تقيم العيد لتملأ فراغ صباح عبد الله فضول؟...

إن برناردا أحجية غامضة. وفكّر في أنها كانت تفضله في سلسلة العشاق، وكانت تسمح لنفسها بالبقاء معه ساعات وهي تصغي إلى حكايات ألف ليلة وليلة، وأسفار من الكتاب المقدس، وكل هذه الأمور هي من اختصاص فضول، بينما في الفراش كانت تشتعل نيراناً لا تنطفئ وهي مقهقهة...

ومع كل ذلك رفضت برناردا أن تقيم معه مؤثرة حياة الدعارة وفاتحة نفسها لأي عابر سبيل. وفضول لم يكن يفهم؛ وكان الأمر بالنسبة إليه غامضاً يصعب فك لغزه.

في حديث له مع كوروكا حول الحياة والتباساتها، سألها وهو يمر بالأمر مروراً سريعاً إذا كان لديها تفسير لسلوك برناردا الغامض، فأوضحت كوروكا:

– من يعلم! إن رأس المرأة بئر غامضة، ولا يمكن معرفة ما في عمقها. كاد يغمى عليَّ حين علمت برغبتك. ولكنني إذا قلت صادقة فإن السيد فضول سيشك في الأمر: لقد عرفت في إيتابونا امرأة تركت زوجها الغني، صاحب دكان كبيرة، وشديد الولع بها، لتذهب وتمارس الحياة العامة في بيت بغاء. كانت تدعي فالدكيسي، وكانت منحرفة وتحب أن تكون غانية. إن العالم أكثر انحرافاً مما يمكن تخيله يا سيد فضول. هذا كل ما أستطيع أن أقوله، وأكثر من هذا لا أعرف شيئاً.

قافلة من الغجر تلقي الرحال في توكايا غراندي، في ليلة مقمرة

1

عند بوابة البيوت القليلة المنتشرة على جانب الطريق، أوجد مرور قافلة من الغجر نوعاً من الفرح على الرغم من الارتباكات الغامضة التي أحدثها وصول القافلة... منذ وقت طويل، تذكر السكان مرور تلك القافلة ثم مكوثها يوماً واحداً وليلة انصرفت إثرها دون أن تترك الكثير للتعليقات والأحاديث. ولكن ظلّ هناك إصرار على وجود سحر لا يقاوم ولغز يجب حلّ رموزه.

ظهر الغجر هناك عند المغرب وخيّموا في المحيط على الضفة الأخرى من النهر. لا بدّ من أنهم أضاعوا الطريق المؤدي إلى نقطة قضاء الليل أو أنهم قد صرفوا النظر عنه، وبالذهاب إلى هناك يمكن تبيّن الأمر.

فصلوا العربات عن الحيوانات التي تجرها تلك العربات التي كانت مسورة بألواح ملونة مكسوة بالجلد ومليئة بالأشياء الغريبة. وفي الحال انصرفت النساء إلى إشعال النار بينما ذهب الرجال يوردون الحيوانات، من بغال وحمير، على ضفة النهر... وحده جوزيف الأكبر سناً، بكومة من الشعر الأبيض المجعد والمسترسل، والأقراط في الأذن، والخواتم في الأصابع والخنجر في الزنار العريض، والصديري مكان السترة، اجتاز في الحال النهر فوق الحجارة متجهاً إلى مخزن عبد الله فضول... إنه دمغة ملك، فكرت كوروكا، وهي تحدق فيه.

من ينظر إليهم من البعيد يخالهم عديدين، ولكنهم في الحقيقة لم يكونوا يتجاوزون العشرين من ضمنهم الأطفال... وهذا عدد أكثر من اللزوم، اعتبر النقيب ناتاريو دا فونسيكا، في اليوم التالي، عندما شاهد أولئك الغجر مخيمين أمام توكايا غراندي... عندها ترجل النقيب في الساعة الضرورية ليمنع التركي فضول من عقد صفقة شراء الحمار، بعدما كان سمع عند أصيل اليوم التالي عن الأمر.

2

ما كان يقال ويتكرر، عند الشاطئ، وفي داخل المنطقة، كان الجميع يعرفونه: إن الغجر أمة متخلفة ومشكوك في أمرها. ولا يمكن مقارنتها بالأجناس الريفية أو أي جنس آخر، ولا تمازج مع السرجيبيين واللبنانيين والبرتغاليين أو أي جنس كائناً من كان. من حضر حفلة زواج غجري مع

إحدى نساء البلاد؟ إنهم أمة قائمة وحدها، تعيش مع الكلاب والقطط، وتعتاش من الحيل والخدع وأعمال السحر والشعوذة.

على صهوات الجياد المسروقة فإن الرجال كانوا يتشبهون بالشجعان والأمراء والنبلاء. أما النساء، مستلقيات على فرش العربات ومرتديات العباءات المزهرة والتنانير العريضة ومزينات بالعقود والأساور، فإنهن يعتبرن أنفسهن أميرات وملكات بألبستهن وأرجلهن الحافية... وبالحكم على مظاهرهم فهناك من يقول، ويكتب، إن الغجر هم بقية أهل بلاطات ملوك بابل التائهة في العالم تنفّذ ما كتبه عليها القدر... وكائناً من كانوا فمن المناسب إبقاء المسافة معهم، والتعامل بحذر، وإخفاء الأشياء الثمينة. إنهم شعب بلا أرض، وأين رأيت شعباً بلا أرض؟ إذاً لا أحد يمكن أن يثق بهم.

حتى للهنود، وهم الأمة الأكثر تعرضاً للاضطهاد، أرض يعيشون فوقها، وإن لم يبقَ لهم الكثير اليوم في تلك الربوع التي أصبحت، منذ زمن سحيق في القدم، قبائل الباتاشوس تسيطر على أراض واسعة منها... سادة الغابات والأنهار، فإن الهنود كانوا يصطادون ويغنون ويرقصون ويحاربون... لقد قتل أغلبهم وفي النهاية لم يبقَ عندهم أية مصلحة في زراعة الكاكاو... أما الأحياء من الهنود فقد نأوا ليقيموا في أماكن وعرة منفردة، ولكن أي عذر، مهما كان صغيراً، كان كافياً لتصفية من بقي منهم... ومع ذلك فإنهم لا يزالون يشكلون خطراً وإن أقل بكثير مما كانوا عليه قبل أن تبدأ عملية إبادتهم. منذ وقت طويل لم يسمع نبأ عن ضحية هجمة من هجمات الهنود... لقد حدث مثل هذا الأمر في تاريخ سابق قديم ولكن قبل أن تقوم توكايا غراندي.

في توكايا غراندي، النقطة الضائعة في خريطة لا وجود لها، لمنطقة نهر الأفاعي، كانت النساء يتعاقبن ويتعاطين مع رجال القوافل والعابرين، حيث هنالك مال يربحنه، وخطر يتعرضن له في الليالي الحامية الوطيس... وكان الأجراء يأتون من الغابات المزروعة بالكاكاو إلى حيث تقيم بعض النساء القليلات المقيمات هناك، وبالتأكيد فإن هناك أسباباً وجيهة جعلتهن يقمن في ذلك المكان الذي مع كل تلك المخاطر لم يكن فيه إلا القليل من الفائدة...

إن أراضي الهنود المضطهدين هي أراضٍ بائسة للنساء العاميات، ولكن أراضي الغجر لا وجود لها: إنهم يعيشون على صهوات الجياد، ومتون العربات، وأخماص الأقدام. لا أحد يستطيع أن يثق

بهم. ولكن من لا يفرح بزوج أقراط تلمع تحت الشمس وبجوهرة مزيفة أو حقيقية، ومن لا يحب أن يعرف ما يخبئه له صباح اليوم التالي؟

3

لكي يغدو كل شيء واضحاً، أو ربما أكثر غموضاً، في وصف عبور الغجر في توكايا غراندي، من الضروري الإشارة، وإن إشارة سريعة، إلى ماضي "غوتا" المعطرة اليوم برائحة التبغ الطيبة. غوتا هذه التي كانت تتصرف كمجربة وعالمة، لم تكن قد وضعت عينيها، طيلة حياتها كامرأة عامية، على غجري حقيقي.

أما بيدرو الغجري الذي كانت قد صاحبته ما إن وصل إلى إيتابونا قادماً من أمارغوزا فقد انحرف عن الطريق ليقيم إقامة قصيرة في إيتابونا، فإنه لم يكن لديه من الغجري سوى اللقب واللذة في الكذب، فهو من ناحية الأم هندي الأصل، وما يؤكد هذا الأمر هو لونه وشعره السابل، وإذ كانت غوتا، قد انخدعت بالاسم فإنها ارتبطت به ولكنه ابتعد فراسخ عديدة عن الاتفاق معها، وفي العراك الأول معه: إلى اللقاء، ولكي تجدي رجلك يجب أن تعلمي أن لا شيء يدوم. لا تزعلي ولا تأخذي الأمر مأخذ السوء. ثم راحت تفتش عنه.

ولأن لا شيء يدوم، فإن غوتا تعلمت هذه الحقيقة وهي في غمرة العيد... ولكن العيد لم يدم إلا عدة ليالٍ لأن للسيد سو ناسينيو العشيق الجديد اختيارات عديدة ومتنوعة في أمارغوزا: وكانت تلك الاختيارات النسائية تتم حيث تعمل الفتيات في معالجة أوراق التبغ أو في المناشر حيث تجفف الأوراق، وفي المعمل حيث كانت تحضر الجرود بعرق الظهور لا بعرق الجبين. صاحب أرض ومزروعات، ولفائف التبغ، والجرود ذات الروائح القوية. كما لو أن الغنى لا حدود له، فإن سو ناسينيو – واسمه السابق إيناسيد بيكمن دا سيلفا – كانت له عينان زرقاوان ورثهما عن الألمان، وقامة فارعة، وابتسامة مغرية، وتصرف لبق – لقد كان فارساً. وإذ كان حريصاً على ممتلكاته فقد كان يمر منتبهاً يقظاً بين العاملات وكان يحدث أن يقع نظره على إحداهن كأن تكون في السن المناسبة... وكانت عينا سو ناسينيو تطيلان التحديق، ثم يحدث أن يناديها إلى المكتب... وبينما النزق مشتعل ومستمر لم يكن هناك من رجل أطيب وأكثر غراماً منه، أو أكثر لباقة وحرارة، وإلى أن يتوارى قمر الحب فقد كانت الفروسية تنتهي وعلى قدر الملاطفة المفاجئة كان يأتي الإبعاد المفاجئ: يطلب من الفتاة العودة إلى رتابة العمل، فليس من شيء طيب ليدوم.

لا يستحق الأمر أن يتأخر في قصة حبه مع غوتا، والسيد سو ناسينيو لم يعد عنده ما يضيفه بعد ممارسته الأولى. كانت غوتا قد بلغت الرابعة عشرة من العمر وأصبحت امرأة مكتملة وفقدت الصبر في انتظار دعوة سو ناسينيو لها، لا لأنه كان سيد عملها بل لأنه جميل. وعندما تلقت خبر حضورها إلى المكتب كانت متأهبة فركضت ملهوفة إلى هناك. وكان سو ناسينيو يعرف كيف يعامل المرأة عندما يريدها، وعندما يريد أن يحتقرها. جميل ومزيف، غجري، هكذا كانوا يقولون عنه.

وإذ كان كل ما فعله معها هو تكرار لما فعله مع الأخريات، فإن غوتا لم تقبل بالرجوع إلى معمل التبغ لتلف الجرود وفضلت أن تصبح فتاة هوى. ولكنها لم تبقَ هذه المرة في أمارغوزا لأنها لم تكن تريد أن تنازع أحزانها وهي تراه يمر في الشارع دون أن يكترث بها. لم تزعل منه ولم ترد أن تقوم بشيء سيئ تجاهه، ولم تبكِ كما أنها لم تطالب بتعويض، لأن هذا كله لن يغير شيئاً... فجهزت صرتها من الملابس وقالت لخالتها التي سواء عاملتها كأم أم لا، ما دامت الأم قد ماتت:

– خالتي. أعطني البركة، فأنا ذاهبة.

– لماذا لا تبقين هنا، أيتها الثولاء (الحمقاء)؟ فإن فالديمير الخباز يضع عينيه عليك وقد أعلمني بالأمر.

في أمارغوزا، لا فالديمير الخباز ولا أي شخص آخر: لقد أصابها القيء من هذا المكان.. ووضعت الصرة فوق رأسها، واتجهت إلى كورتا ماو حيث أقامت كأنها جديدة "بالكاغد": بعد ذلك، اتجهت إلى أرض الكاكاو التي كانت الأنباء حولها تجوب الآفاق وتتكرر أمامها مغرية تفتح شهيات العاهرات.

تعلمت بسرعة، وما فيه الكفاية، معتبرة نفسها عالمة لأنها لم تترك نفسها محكومة، بأي رجل، وأن تعيش كالأخريات القابعات في زوايا العمل بانتظار الأمر بالمجيء إلى المكتب. ولكنها لم تنسَ شكل سو ناسينيو الجميل، وعيني الغرينغو الأرجنتيني، واللباقة والخبرة، وكلها تبدأ بالأساليب الناعمة والكلمات المعسولة وكلها أمور مزيفة وصولاً إلى الأمر. ومن كان السيد هناك الذي بمقدوره أن يأخذ كل شيء عنوة، وأن يستعملها كما يستعمل صحناً أو لباساً... ولكنه بدلاً من كل هذا عاملها كأنها سليلة عائلة نبيلة لا خادمة في بيت، وكأنها تخصه وحده ويجب أن تبقى طوع الأوامر... فحل شبيه به، شفاف ومغرٍ إلى هذا الحد، لا يمكن أن تجد وإن فتشت عنه ليلاً ونهاراً.

وعندما سمعت غوتا أن الغجر قد خيّموا في الضفة الأخرى من النهر، خرجت مهرولة لتستجلي الشبه بين سو ناسينيو والغجر ومن يدري، فقد تشاهد من جديد الوجه الضائع، وتسمع مرة أخرى كلمات الملاطفة الخداعة، وتستفيد من ليل أمارغوزا المعبق بروائح التبغ.

كان الغجري الأول الذي رأته هو جوزيف وهو يضع مرفقيه على طاولة مشرب اللبناني فضول ذاهباً في المحادثة. لمحته من بعيد فاقتربت منه لتحكم بصورة أفضل على الأمر: وما عدا الطول الفارع فليس فيه شيء يشبه سو ناسينيو... فالغجري هذا متقدم في السن، وضفائر شعره المكسو بالغبار، وملابسه الرثة القديمة، إنه صعلوك متسكع، ومع كل ذلك فقد لاحظت، أو تكهنت بوجود شيء أبعد من تلك المظاهر، وكأنه نوع من الكبر يضعه في مرتبة أعلى من ثري أمارغوزا. أعلى من سو ناسينيو؟ يا للفكرة التافهة! ولكنها عندما لمحت ميغيل يسير إلى جانب الجواد لم يعد هناك من أفكار تافهة. ولم تعد تكترث بأوجه الشبه، والجمال، والتزيين. إن تذكرها سو ناسينيو أحدث في نفسها حنيناً وراحت في ذكريات بعيدة.

وانتهى التفتيش، فإن غوتا تستطيع الآن أن تموت، ولكن ليس قبل أن تتمدد، ومهما كلّف الأمر، مع ملك بابل ورجلها على الضفة الأخرى من النهر وهي تبتسم له.

4

رنّت الفلوس فوق طاولة المشرب... هو الغجري جوزيف يستعد للدفع سلفاً، حتى إذا حدث أمر غير متوقع، أو إذا كان ضرورياً تجنّب الشكوك ودلائل المخاطر بالانصراف الفوري. وليس من المناسب الاستهتار بالأمور في هذه الأدغال: لقد لاحظ نسبة من الصلبان في المقبرة هي أكثر عدداً من مجموع المقيمين في البيوت الخشبية على جانبي الطريق. ولكن الساعة لم تأتِ بعد، والمسألة تكاد تبدأ. حاول جوزيف أن يتابع الحديث حول نوعية الحيوانات الجيدة.

– لديَّ الجيد والممتاز. مطايا من الطراز الأول.

كان عبد الله فضول قد ألمح إلى رغبته الغامضة في شراء حمار، ولكنه لم يبدِ عجلة من مناقشة الشروط تاركاً الموضوع متأججاً: إن التجارة مع الغجر تقتضي الحذر. وحوَّل الحديث عن مجراه:

– هل تفكرون بإطالة إقامتكم هنا؟

– هنا؟ لنعمل أي شيء؟ ليس حتى من لوح خشبي لنصلحه – بصق على الأرض مظهراً أسنانه الذهبية – للعمل مع من؟ اعذرني.

– سترى كيف تصبح الحياة حيوية عند الغروب لدى وصول القوافل... وسعي العمال وراء فتيات الهوى. إنه منظر مؤثر.

– مؤثر.

مدَّ جوزيف نظره في اتجاه المخيم، وعلى البيوت الخشبية المتباعدة، وعلى الأكواخ القصبية، وحدّق طويلاً في الدار المصنوعة من الخشب حيث تقيم كوروكا وبرناردا، ثم حدّق في الأجير عند باب مستودع الكاكاو الجاف، وإذ وزن كل شيء، استنتج:

– إنها أجمل محطة على طول النهر. ولكنك تستحق مع ذلك حظاً أوفر من هذا – مع الاعتذار من سيادتك.

جمع المشتريات ووضعها في خرج جلدي. عدَّ وعاد ليعد الفلوس مرات عديدة في كف يده ولكنه لم يسلمها:

– إذا رغبت فإني أستطيع أن آتي بالحيوانات إلى هنا. سآتي بها كلها لتختار الآن، حالاً.

– لم يستطع فضّول أن يتوصل لمعالجة الأمر – إلى هنا، إلى هناك – إنها علوم الغجر. إن الإطراء ليس إلا وسيلة لاحتيال أفضل. ومقابل العرض، قام بردة فعل فورية، لأن القبول بالمجيء بالحيوانات إلى هنا يعني اتفاقاً معقوداً.

– هل أنت مجنون؟ تأتي بالحيوانات إلى هنا مجتازاً بها النهر؟ لماذا القيام بهذا العمل؟

– إن سيادتك راغب في شراء حمار..

– هذا كلام. وحتى من أجل حمار لا يحتاج الأمر إلى هذا الاهتمام الحار.

سأذهب إلى هناك فيما بعد، فهناك المزيد من الوقت.

– لست مزمعاً على إطالة البقاء هنا...

– ستمضي الليل هنا. أليس كذلك؟

لم يجب جوزيف بالنفي أو الإيجاب، بل غمغم:

– لأرى المشهد المؤثر؟ هل يستحق الأمر؟ اعذرني لصراحتي، ولكني أشك. ثم عرض الغجري حلاً آخر، أسهل:

– تعال معي واختر الحمار مرة واحدة. قبل أن يشتريه سواك.

وظلّ فضول محافظاً على وضعه غير الاكتراثي:

– الآن لا... لن يتأخر الزبائن في الوصول. سأظهر غداً صباحاً، وإذا كان لي رغبة في المشي فسأذهب لألقي نظرة على الحمير.

لم يكن مجدياً الإصرار، وجوزيف كان معتاداً على تلك اللعبة من الحذر والتظاهر بعدم الاكتراث. وإذا كانت القواعد لم تتغير مع الآخرين، فكيف يمكن تخيل الأمر مع اللبناني.

– ما دام الأمر كذلك فإني سأقضي الليل هنا لأخدم سيادتك.

– ابقَ إذا رغبت. ولكن أن تبقى هنا بسبب، فلا...

وضع الغجري العشرينات على طاولة المشرب، ووضع يده في جيبه ثم أخرج منديلاً مربوطاً من زواياه الأربع، فحل العقدة ثم وضع فوق كومة الفلوس المعدنية المصوغات المزيفة محاولاً إغراء التجربة الذهبية. ولكن فضول يحتقر الخشاخيش والمصوغات المزيفة.

– لقد كنت بائعاً متجولاً لسنين طويلة. وما زال لديَّ بعض المواد الشبيهة بهذه. ألا تريد أن تشتريها؟ إني أبيعك إياها بسعر مناسب.

– بائع متجول؟ "مسقطي"! تمتم بصوت منخفض، ثم جمع المصوغات المزيفة في منديله، ووضعها في جيبه، وأعاد القول: – مسقطي!

ولتوه عاد إلى التجربة، وبحركة سريعة وضع فوق الطاولة كومة من الورق الملفوف، وأخرج منها لفة دون أن ينتبه فضول لها.

– إذاً، انظر، وقل لي إذا كان في مجموعتك شيء شبيه بهذا.

ثم فتح الورقة وأخرج منها ميدالية في سلسلة. فأمسك اللبناني نفسه بجهد عن التعجب الذي ظهر على فمه وبجهد آخر حاد بعينيه عن الميدالية. فأعلن جوزيف:

– حتى في إيلايوس لن تجد مثيلاً لها.

وأمسك السلسلة بأطراف أصابعه ورفع الميدالية إلى مستوى عيني التاجر: وكانت الشمس تلمع فوق المعدن لتعطيه قيمة جوهرة حقيقية.

– ماذا تقول لي، سيادتك؟

لم يفد بشيء أن يظهر فضول عدم اهتمام، فقد لاحظ جوزيف الرغبة المكبوتة في طريقة مدِّ يده ليمسك بالميدالية، وبالانتباه الذي أمسك به: إنها جوهرة معمولة على المقاس الصحيح لتعلق في عنق امرأة.

– انظر أية هدية يمكن أن يقدم سيادتك لمعلمته، ذهب خالص. لاحظ جيداً طريقة الصنع.

– لست متزوجاً. وليس لي عشيقة – ولا أية فتاة هوى تستحق هذا الترف وإن تكن زيزينيا دو بوتيا.

لم يحتقر القطعة، ولم يقل إنها مزيفة أو بشعة؛ إنه "مسقطي" خبير في معالجة المعادن، وكان فضول يعرف كيف يميّز ويثمّن. بالسلسلة لا يدفع شيئاً، إنها خشخاشة. أما الميدالية فقد كانت مصبوغة بالذهب، وهي قطعة بسعر مرتفع، مسروقة بالتأكيد. فتحها ليتفحص داخلها، وحاول أن يزنها بيده. لم يحتقرها ولكنه أنكر عليه رغبته في الشراء.

– لا أريد أن أعرف إذا كانت ذهباً. ليس لديَّ من أعطيه إياها وليس عندي ما أفعله بها. بالنسبة لي لا تساوي شيئاً. بماذا يمكن أن تفيدني؟

– لماذا؟ لتتاجر بها وتربح مالاً. إنك تمزح بلا شك، ولكنك تعرف أنها ذهب، وذهب جيد.

ما هو متعلق بالسعر يمكن أن يجعل منها صفقة من الطراز الأول: قطعة ذهبية للبيع في إيتابونا أو إيلايوس بمبلغ كبير. ولكن فضول حافظ على نفسه غير مكترث فلم يفتح اللعبة. ووضع المصوغة على الطاولة، وهزَّ برأسه، وعلّق كتفيه معتبراً الموضوع منتهياً؛ لم يكن مستعجلاً.

لا هو، ولا الغجري الذي يبدو غير مكترث هو الآخر بحركات اللبناني السلبية، لاحظا الطريق الذي اقترب عبره رجل منهما، وهو أحد سكان المكان... وألقى فضول نظره على الواصل الجديد الذي كان النجار لوبيسينيو.. انتظر جوزيف أن يدخل لوبيسينيو ويلقي التحية ليعود لرفع السلسلة وعرض روعة الميدالية:

– إن قطعة شبيهة بهذه لا تجدها سيادتك في إيلايوس أو حتى باهيا. لقد جاءت من أوروبا مع جدودي، وفزت بها بالميراث ولكي يؤكد روايته تلفظ بعبارة بلغة شعبه وعاد يتكلم البرتغالية متوجهاً إلى لوبيسينيو: – ماذا يرى الفارس؟

متأثراً بشكل الرجل الذي يصعب الحكم عليه، وبطرق الغجري، فإن النجار، دون أن يفقه شيئاً في الأمر، لم يكفل إذا كان الذهب حقيقياً ولكنه لم يخفِ إعجابه أمام العمل المتقن للقطعة:

– إنها الكمال، وعمل فنان كبير. هل هي من ذهب؟

وقد اعتبر السؤال اعتداء، أشار جوزيف الغجري إلى فضول:

– إسأله، إذا كان ذهباً حقيقياً أو لا. ما عاد ينقصنا إلا هذا.... ثم لفّ القطعة في الورقة وأعادها إلى جيب الصديري. إنها ليست للبيع.

رفع فضول يديه عن طاولة المشرب وأخذ من الواجهة زجاجة كاشاسا مليئة إلى نصفها، ثم سكب الكمية المعتادة إلى لوبيسينيو، وقبل أن يخدم نفسه، عرض على الغجري الذي لا يزال منفعلاً.

– هل تقبل بلعة صغيرة؟

رفعوا الكؤوس، وإذا بالغجري يجرع بهدوء بلعاته التي يتلمظ بها دون أن يدير بكامل محتوى الكأس إلى جوفه كما فعل الاثنان الآخران. وعندئذ سأل فضول بصوت حيادي مجرد من كل ما يمكن اعتباره إطاراً لنوايا معينة:

– ليست المسألة أني أريد أن أشتري، وليس عندي من أمنحه المصوغة أو أبيعه إياها. ولكن لمجرد المعرفة الفضولية، قل لي، كم تطلب سعراً بالميدالية؟ الميدالية دون السلسلة.

أفرغ الغجري الكأس بهدوء وبحركة مسموعة من لسانه أثنى على السائل. وعاد ليأخذ من جيبه اللفة التي فتحها وأخذ منها المصوغة التي ألقاها فوق الطاولة. على مرأى من الجميع وبلحظة خاطفة، وبحركة غير مرتقبة أخذها ثانية ووضعها في يد اللبناني:

– احتفظ بها حتى يوم غد؛ تأكد من الذهب، والوزن والقيراط.

غداً عندما تذهب لتختار الحمار تعيدها لي. وإذا رغبت احتفظ بها، وضع السعر بنفسك، وكيف ترى أنها تساوي – ترك المصوغة في يد فضول: – غداً نتحاسب على كل شيء، ودفعة واحدة.

وقبل أن يبدي صاحب الدكان أي اعتراض أو يقوم بأية ردة فعل، كان الغجري قد تناول كيس المشتريات، ولمّ النقود التي كان قد وضعها مبعثرة على طاولة المشرب ليدفع ثمن المشرب واجتاز الباب خارجاً دون أن ينظر إلى الوراء.

– لا شيء من هذا – صرخ فضول وهو يستعيد صوته: – تعالَ إلى هنا وخذ وديعتك..

تأخر فضول: بينما لوبيسينيو ذهب بعيداً، دون أن يفهم شيئاً مما كان يجري، فطلب تفسيراً، عاد فضول ليتفحص المصوغة بالتفصيل، من يبيع بالثقة الغجري فهو أثول، قليل الدماغ، ولكن، مهما يكن سعر الجوهرة فإنها تساوي أضعاف سعر المشتريات التي لم يدفع الغجري ثمنها: لحم مجفّف، فاصولياء، سكر وزجاجة كاشاسا، إنه لا يجازف، في فقد قيمة المشتريات، وإذا كان هناك خاسر

فهو الغجري... وعلى سكة الشكوك، وفي ساعة تسديد الحسابات فإنه سيضع المسدس على خصره.

عندما وصلت كوروكا ضربت كفاً بكف لدى رؤيتها الميدالية:

– ليس أجمل من هذا! إن السيدة مارسيلينا زوجة العقيد ليديو كان لديها واحدة ولكنها لا تساوي شيئاً أمام هذه التحفة. ثم توجهت إلى اللبناني: – هل اشتريتها يا سيد فضول؟ لمن ستعطيها؟ هل تفكر في الزواج؟

5

بقطعة من حديد يضرب بها على صنج من النحاس فإن الغجري موريسيو، بشاربه الفوضوي الكث، وذراعيه الموشومتين، وقطعة القماش التي يلف بها رأسه، راح يطوف توكايا غراندي من مكان لآخر معلناً عن وجود ورشة تصليح الأشياء المعدنية كالغلايات والبراميل. صراخ بلا نفع، وعرض بلا جدوى: لا برميل واحد للتصليح، إن النراجيل المحطمة والعلب الفارغة لا تحتاج إلى اهتمامات من هذا النوع. انتبهت ماريا جينا إلى ذلك عندما التفتت إلى المخيم فلمحت موريسيو وقد عاد بخفي حنين كأنما قد وضع قرص الشمس في صنجه. بدأت الظلمة تتكثف عند الغروب. إنه غروب يستدعي الخوف واللهو معاً.

منقبون لا يكلون ولا يملون، فإن الأولاد فتشوا في كل التخاشيب، خلال غياب المقيمين فيها الذين لم يكن أحد منهم يقفل الأبواب عند خروجه. لم يكن هناك ما يسرق، أو شيء ذو قيمة، باستثناء معدات عمل كل من لوبيسينيو دا روزا، أو غيرها مما يعود إلى الشيخ جيرينو أو الرجال الذين يعملون تحت أوامره في مستودع الكاكاو. أما فضول فكان قد استخدم القفل الخارجي بينما باستياو دا رزا عندما كان يقوم بأي عمل في المزرعة المجاورة فإنه كان يأخذ معه أدوات البناء.

عدد الأولاد في القافلة لم يمكن معرفته بدقة. كانوا يظهرون فجأة، الصغار منهم والكبار، ناعمين، مترددين، منساقين الواحد في خطو الآخرين، ذوي عيون حائرة تفتش عن شيء ما، أبرياء، حسني الطلعة، محتاجين، تعساء، وأيديهم ممتدة تطلب حسنة. وبالرغم من أنه لم يكن هناك ما يسرقونه فقد اختفت بعض الأشياء التي لا قيمة لها: قطعة من مرآة مكسورة، وسكين ذات قبضة، وغليون صنعه جيرينو، وغيرها من الأشياء التافهة. حتى ساعة الغروب، لدى وصول قافلة مزرعة دوس ماكاكوس وإلقاء رحالها بقيادة ماكينيو ومساعده فاليريو كاشوخاو، كانت الفتيات يشكلن

وحدهن الزبائن، ولديهن، دائماً، في جيب التنورة نحاسة من عشرين، أو قطعة نقود معدنية يدفعنها بدل قراءة الكف أو يحملن بها على عقد مزيف لا يقاوم، أو زوج من الأقراط أو خاتم من الزجاج. لدى رجوعها من النهر فإن غوتا أخبرت صديقاتها وخصومها:

– وصل دفعة واحدة أربعة ملوك من بابل، الأكثر نحولاً بينهم هو لي، اعلمن جيداً، لا تحاول إحداكن التعاطي معه. أغنية بلاط مملكة بابل، من لا يعرفها؟ إنها نشرة أسبوعية يتم توزيعها، وقصة تنتقل من فم إلى فم، وأغنية ينشدها الجميع:

"ها قد أتى ملك بابل
مع حاشية بلاطه
ها قد أتى ملك بابل،
به سأغرم،
ومنه سأتزوج".

6

زبائن متلهفون إلى "الكلام الجيد" الذي يقرأ في خطوط كف اليد، ويتم الهمس به عند أسفل الأذن على ألسنة الغجريات اللواتي يلدن موهوبات للتكهن. حتى الفتيات اللواتي كن يقسمن أنهن لا يصدقن تلك الخزعبلات كن يبسطن أكفهن للغجريات وفي قبضة كل يد قطعة نقد من فئة العشرين. ولإزالة الشكوك، وإيحاءً بالثقة، فإن الغجريات قارئات الأكف كن يبدأن بحديث حقيقي عن أمور حدثت في ماضي فلانة، ويتكلمن عن تلك الأمور كما لو أنهن قد شاهدنها حقاً... وبقطعة نقود إضافية كانت الغجريات يسبقن المستقبل، ويكفلن عشاقاً، ومصاحبات غنية، ويتدبرن أصحاب مزارع وعقداء ذوي مراتب وإمكانيات كبيرة، ويقضين على الخصوم، ويعلن عن مغامرات عشق متميزة وأبدية. بمعنى آخر كانت الغجريات يجهزن زبائنهن بالحلم والحب وبسعر مخفّض.

وفي معرض التكهنات عند غروب الشمس، كانت برناردا من نصيب أكثر الغجريات نفاقاً وأكبرهن سناً، الجدة، التي تعبت لكثرة ترداد كلمات السحر المبتذلة. وبينما تأخذ الغجرية بيد الفتاة الممدودة، فإنها تحدثت عن اضطهاد عجوز لها؛ فهناك دائماً عجوز يضطهد الفتيات الصغيرات.. هناك طلقة رصاص ومصرع واحد.

وبتلك الإشارة البسيطة إلى الرصاص والقتل برهنت الغجرية العجوز على معرفة أكيدة بما يجري وتركت الفتاة برناردا بفم مفتوح، مندهشة:

– هذه هي الحقيقة بعينها. أعرف أنه عجوز.

لم يكن ممكناً أن يكون العجوز غير والدها، ولكنها لا تريد أن تتذكره وأن تتذكر ذلك الزمان معه.

– أريد أن أعرف ما بعد ذلك، من هنا وما بعد. أريد أن أعرف إذا كان رجلي سيحبني طيلة الحياة.

– رجلك؟

أجابت الغجرية بطرفها من كف يد برناردا إلى عينيها، فتأكدت فيهما من الوله والارتباك:

– تريدين أن تعرفي إذا كان لك وحدك، أليس كذلك؟ وأنه لن يذهب مع امرأة أخرى؟ ضعي هنا مئتي ريس، في يدي، وسأردد دعاء يجعله لن يريد أحداً سواك.

– لماذا كان عليها أن تعلم إذا كان رجلها لها وحدها؟ – تعجبت برناردا: – إن بإمكانه أن يكون مع من يشاء وبقدر ما يريد.

متعجبة، عادت الغجرية تحدق في وجه الصغيرة المتوترة. إن ما كانت الأخريات يرغبن فيه هو أن يبقين وحيدات في حياة رجالهن، لا تزاحمهن أخريات، ولكن من أجل ذلك يقمن بالكتابة السوداء ضد خصومهن، ويقمن بالأدعية وأعمال السحر. وفتشت الغجرية عن السر في وجه الصغيرة الحزين وسألت متلعثمة:

– إذاً ماذا تريدين؟

– أريد أن أعرف إذا كان سيتعب مني، وسيتخلى عن رغبته في رؤيتي إذا كان سيصاب بالسأم نتيجة علاقته بي.

– ضعي مئتي ريس وتخبرك الغجرية بكل شيء – وفي شبقها إلى القطعة المعدنية استطردت لتجعلها تأخذ قراراً: – إني أرى دماً وموتاً..

وأنالتها برناردا القطعتين المعدنيتين:

– قولي دفعة واحدة. هل سيريدني للحياة كلها أم لا؟

حزن عميق انتقل إلى صدر الغجرية عبر كلام الصغيرة، وأصابها الحزن في صميم قلبها: فأهملت التعابير المتكررة، وتكهنت فقط بما تريد أن تسمعه الفتاة الصغيرة:

– للحياة كلها يريدك.

– ولكنك تكلمت عن الموت..

– ستموتين بين يديه: – تكهنت الغجرية.

7

أشار فاليريو كاشوخاو بإصبعه إلى العربات الموجودة على الضفة الثانية من النهر:

– إنهم غجر...

ولأن تفكيره كان مركزاً على الفتيات، ربما، فقد لاحظ:

– لم أتذوق أبداً طعم غجرية.

– لا أنت ولا سواك. تعود مانينيو في مهنته كبيطري ألا يلقي الكلام على عواهنه: – إن الغجرية مثيرة جداً في عرض مفاتنها ولكنها تفعل ذلك بغية الحصول على المال، وعندما تأتي ساعة الذهاب إلى الفراش فإنها تترك الزبون ويده، فمع الغجرية لا يفيد السعي.

– حديث ثقة حديثك هذا يا سيد مانينيو.

– إنك ولدت البارحة ولا تعلم شيئاً. هل سبق لك أن صادفت غجرية في مكان عام؟ أنا الأكبر سناً والأطول تجربة في الأمور لم أرَ أبداً في حياتي غجرية في نزل فتيات، حتى في إيلايوس. مع العلم أنك تجد هناك نساء من كل الجنسيات في العالم.

لم يكن فاليريو كاشوخاو أكثر من مساعد في حدو القوافل ولكنه كان يتمتع بمواصفات رجال العصابات.

– مع هذا إذا تلاعبت غجرية معي فإني سأنيلها في صدرها وسترى بنفسك.

– إنك لا تعرف ما تقول. إن ما تحتاج إليه هو أن تبقي عينيك على الحمير، والغجر ليسوا بشراً.

– دع المسألة على مسؤوليتي.

كان عبد الله فضول قد وعد جوزيف بليلة مزدهرة برجال القوافل والقتلة والمستزلمين الذين سيبعثون الحياة في ذلك الخلاء ومعهم مال ينفقونه؛ "اعذرني ولكني أشك في ذلك" قال الغجري.

وهكذا كان الغجري على حق لأن تلك الليلة كانت أقل الليالي في توكايا غراندي حركة. فما عدا قافلة مزرعة السعادين التي يقودها ماينيو وفاليري كاشوخاو، لم تصل إلا قافلة طويلة من مزرعة سانتا ماريانا لتقضي الليل هناك بعد أن كانت قد جاءت إلى المستودع بالكاكاو المجفّف. كان حادي القافلة يدعى دورندو ويبدو عتراً قوياً قليل الكلام. أما دودو ترامیلا الفتى المراهق الذي يساعد دورندو فكان ثرثاراً يتكلم عن الاثنين.

ما عدا القافلتين برجالهما الثلاثة والفتى المراهق، كان هناك ثلاثة مسلحين ومستزلم يسعون إلى امرأة. وقد أضيف إلى هؤلاء الثمانية الحمال برجنتينو الذي وصل عند هبوط الليل وهو يقود حمارين محملين ببضاعة متجهة إلى مزرعة أتالايا حيث كانت قد بدأت الاستعدادات المتعلقة بوجبات الغداء والعشاء معاً... وفي دكان فضول أراد برجنتينو أن يعرف ما إذا كان التاجر اللبناني يستطيع أن يعطيه أية معلومات عن مكان النقيب ناتاريو دي فونسيكا. فقد كان مدير مزرعة أتالايا قد كلفه بلقائه في توكايا غراندي.

– من أجل طلبية طلب مني المجيء بها من تاكاراس. يقال إنها ستصل بين اليوم والغد.

– لم يصل بعد. إذا أردت، اترك الطلبية وعندما يأتي النقيب أسلمها إليه.

– سأترك الطلبية وإذا سمحت سأترك أيضاً الحمل كاملاً. إني لست مجنوناً لأبقيها أمام أنظار الغجر. إنها مشتريات أمر العقيد بوافنتورا بالمجيء بها من إيلايوس.. إنها من أجل العيد – استطرد.

استعجل اللبناني أمر الشائعة التي كانت تسير:

– تعني أن الأستاذ سيأتي فعلاً هذه المرة. أليس كذلك؟

– بالتأكيد.

– أي أستاذ؟ تدخل فاليريو كاشوخاو في المحادثة. كان قد جاء ماينيو ليروي عطشه ويشتري علبة لحم يسخنها فوق الجمر ويأكلها مع الطحين.

– إنه ابن العقيد وهو أستاذ محامي. يعيش في الخارج منذ ستة أشهر.

– وأين كان يعيش؟ وماذا يفعل؟

– في الريو دي جانيرو، متمتعاً بالحياة.

– إنه يفعل جيداً. سمعت أنه شاب شجاع. تابع فاليريو كاشوخاو وهو دائماً مستعد لمتابعة محادثة عن الشجعان والصعاليك.

– كان عنده من يشتبه به، تدخل مانينيو في الحديث عن الأحداث: العقيد بوافنتورا لم يعرف أبداً لون الخوف.

– وهو بالإضافة إلى كونه زعيماً شجاعاً فهو أبو الأرزاق التي لا تنتهي، والأفراح حيث وجدت، وأكد برجنتينو:

– في هذا صار أيضاً شبيه أبيه.

ظهر في الباب فجأة النصف الأعلى لغجري ذراعه في زنار شابة غجرية يعرفها جميع الحاضرين: إنها غوتا، "همشرية" خلقت للفراش، متمطية وعصبية، وذات حضور مؤثر.

8

البدر المنعكس على صفحة النهر أضاء أرجاء وادي توكايا غراندي: القمم والسهول ومرتع القوافل، وعلى الضفة المقابلة، عربات الغجر وحظيرة الحمير والجياد.

كانت ماريا جينا تعرف طريق "الأمراء" وراحت من حين لآخر تستريح فوق الحجارة وهي تجتاز بلباقة مفتشة عن الغجري الذي وشم الشمس على جسده. وبالتأكيد كان هو من جاء بالقمر وزرع النجوم في السماء. لماذا ينادي عليها لمساعدته في مهمته؟ كان عليها أن تلتقي به، وهكذا يجب أن يكون الأمر المكتوب وهي تنتظر تحققه من زمان.

كان أحدهم قد أشار بكلمة إلى وصول حاشية بابل الملكية وإلى الملوك الأربعة الطالعين من ورق اللعب، تعليقات غامضة ومتناقضة، وروايات من التكهنات، فساد المكان هياج كاد يحرق روعة المكان. ولكن ماريا جينا لم تكن لتتعجب من شيء، فقد اعتادت أن ترى الوجوه، وتسمع الأصوات التي تتناول الخرافات السائدة، الرجل – الذئب والبغلة – بلا رأس، والمارد الذي لا يقهر والملك سليمان بمعطفه المصنوع من النجوم. خجولة ومتمكنة، كانت تعيش في ركنها محاطة بالخرق البالية، وعلى شفتيها ابتسامة خوف دائمة، تتكلم وحيدة أو تحادث – يعلم الله من هو – كانت تعرف بالتأكيد كل شيء ولكنها تحتفظ به كسر، وعندما كانت تسأل كانت تضع إصبعاً فوق شفتيها إشارة إلى السر فتتمطى الابتسامة. في الفراش، ومن وقت لآخر، كانت تتمتم: ربما لهذا كان بعض الغرباء يختارونها، وكان العارفون بهذا الأمر يتركونها للحالات الطارئة... وكانت، وهي

متعلقة بالطرف الآخر تقول أشياء يصعب فهمها، وتضحك مقهقهة وترفض أن تقبض مالاً. وكأنها فجأة وجدت عشيقاً كان ضائعاً، أو كأن الغريب كان شخصاً يخصها، زوجاً أو عشيقاً، وكأنها هي قد تحولت إلى أخرى ولم تعد ماريا جينا الواسعة التي كانت تدخل إلى الغابة، وعندما كان الجميع يعتقدون أنها تاهت إلى الأبد فإنها كانت تعود مرتدية أوراق الشجر والزهور. وكونها واسعة لم تكن تسيء إلى أحد.

في ليلة القمر وهي تسير على سجادة فرشها القمر، كانت ماريا جينا تنفذ ما كتبه لها القدر تماماً كما فعلت حاشية بابل الملكية. في شفتيها الابتسامة الكاملة.

من البعيد كان يمكن معرفة الآتي: كان القمر يرتمي فوق الدروب، وتلاشت ظلمة الليل. ومع كل ذلك، لم يكن هنالك واحد قادر في كل حدود توكايا غراندي أن يعطي تفسيراً عن اختفاء ميغيل الذي كان أكثر الغجر فتوة، وعن غوتا المنحرفة. في أي مخبأ وأية ظلمة كان الاثنان متمددين؟

9

لقراءة بخت النساء، فإن قارئة الكف تكون أكثر مصداقية بقدر ما تكون أكبر سناً وأكثر تجعداً في السحنة. أما لأخذ يد الرجل، ولكي تشير بظفرها إلى خط في راحة اليد، وللنظر إلى عيني الزبون وهي تتكلم عن الحب الميؤوس منه، فإن الغجرية يجب أن تكون شابة وجذابة يخرج من صوتها الملتوي وعد بتجربة.

العجوز جوليا التي حنت السنوات ظهرها، عندما فتحت فمها المطبق وسط مجموعة رجال القوافل عارضة عليهم أن تكشف الأمس والغد، فإن مانينيو، المنشغل بتسخين علبة اللحم، مازح رفيقه:

– كاشوخاو، لقد وصلت الغجرية التي كنت تنتظرها...

– هذه... لا أفعل وإن مجاناً... أجاب فاليريو كاشوخاو بصوته الجهوري:

ولكنه مدَّ يده إلى مالينا منذ أن اقتربت الشيطانة برفقة الغجري جوزيف. هو يعرض الحيوانات للبيع أو المقايضة ومستعد لأية عملية تجارية، وهي تدلي بالتكهنات. فقط تكهنات؟ لقد وجد فاليريو كاشوخاو أن مالينا كانت تعد بأكثر من هذا:

– ألا تريد أن تقرأ الغجرية كف يدك، يا حبيبي؟ قالت وهي متوجهة بالكلام إلى مساعد حادي القوافل وكررت القول وقد افترت شفتاها عن ابتسامة مثيرة: هيا بنا يا جميلي!

معتزاً بنفسه مدَّ يده بعد أن نظفها ببنطاله فوق الساق:

– ها هي...

من الفستان كان يمكن مشاهدة نهدي مالينا وهي منحنية.

شابة، طويلة القامة، متكاملة الصنع، ذات وجه كأنه البدر، الردفان كأنهما كفل فرس، فقد أخذت بيد فاليريو، وأمسكت بأصابعه القاسية ملامسة وهي تنتزع النقود، ومرّت بظفرها فوق خط الحياة في راحة يده بتماس خفيف ومثير كان يتسرب من الكف إلى فخذي حادي الحمير.

لم يسمع فاليريو كاشوخاو إلا القليل من الحكاية المتمتم بها، فقد كان منهمكاً بمشاغلة اليد الأخرى لتقييم جسد الغجرية. ولم يتمكن من أن يتحسس حجم قفاها لأن الملعونة دون أن تتورع عن إثارته بالنظر والابتسام سحبت نفسها طالبة المزيد من المال:

– ضع قطعة معدنية أخرى، يا حبيبي، لأخبرك عن الباقي...

الباقي أراد أن يسمعه فاليريو كاشوخاو، وأن يتحسسه ويلمسه بعيداً من هنا، في ظلمة الغاب، بعيداً عن أنظار ماينيو وجوزيف المسترسلين في مساجلة لا تنتهي، وكان جوزيف يستنكر المكان: فأين الازدحام الذي وعد به اللبناني؟ وكان ماينيو يضحك بهدوء:

– ابقَ هنا لبضعة أيام وسترى.

– لست مجنوناً لأفعل هذا. إني على عجلة من أمري.

وفاليريو كان هو الآخر على عجلة، لقد أضاع ما فيه الكفاية من الوقت وثلاث قطع معدنية انزلقت في كف الغجرية. فأراد أن يأخذها من عنقها فأبعدت جسدها، ضاحكة في وجهه، ولما أفلتت، أثارته مرة أخرى بأن مدّت له بلسانها وهي تقلب عينيها السوداوين البراقتين:

– ضع قطعة معدنية أخرى، يا حبيبي!

بقي الجميل منزوع السلاح أمام إغراء بهذا القدر. وانتهى بمدِّ يده إلى جيبه مفتشاً عن قطعة معدنية سحبها بأصابعه. لم يضعها، مع ذلك، في كف يدها كما طلبت الغجرية، فهو ليس أحمق... أمسك بالقطعة بين أصابعه وبينما هو يتراجع لاتخاذ طريق الغابة، تحداها:

– تعالي خذيها.

لم يكد ينهي كلامه حتى كانت الملعونة بقفزة غير مرتقبة قد انتزعت القطعة المعدنية منه: بدورة من جسدها دارتها، وبخطوة رقص لم يشاهد فاليريو مثيلاً لها، وقعاً وسحراً.

وقبل أن يتمكن من القيام بردة فعل، راحت فالينا تركض بعيداً. وعندما أراد أن يدركها لم يعد يعرف لها مكاناً، فهناك لم يعد يلتقي بغير جوزيف الذي كان في مخزن فضول وكانت الجنية قد اختفت في ضوء القمر. ولكن فاليريو كان قد بقي يسمع مع نقيق الضفادع أصداء وقع الغجرية الراقص.

صوت مانينيو المقنع وضحكته المدوية وصلت مع النار المشتعلة التي تشوى عليها اللحمة المجففة وتسخن القهوة:

– إنك لم ترد أن تصغي إلى ما قلت لك.. إن الغجرية هي هكذا: مستعدة لتثير وعندما تتوهج نفسك فإنها تختفي.

– بنت العاهرة! – ردّد فاليريو كاشوخاو.

10

لم يعقب ذلك بشيء لو أن ما حدث لم يكن مسألة تستحق التسجيل مع ما اعتبره فاليريو كاشوخاو تهديدات مذلة لدى ظهور دورندو حادي القافلة في مخيم الغجر. كان فاليريو آتياً من دكان فضول يلهث غضباً. ثم امتزج الغضب والشعور بالذل: إن كاشوخاو ودورندو معاً قد أحسا بنفسيهما ضحية الألاعيب المتشابهة التي مارسها عليهما هذا الجنس الغجري الملعون. واكتمل كل المشهد عندما أعلن برجنتينو مستنداً إلى شهادة الأجراء رحيل الفتيات، جميعهن: لم تعد هناك غجرية واحدة في حدود المكان لتستجيب لرجال القوافل والعابرين وتلبي طلبات ما هم مفتشون عنه... يا للكارثة! إنها نهاية العالم!

كان فاليريو يحاول أن يطفئ بالكاشاسا اللهيب المشتعل في الجرح الذي سببته أظافر الغجرية في خصيتيه. إن الغجرية العاهرة قد سحرته وجعلت منه هراً وحذاء لكي تهرب فيما بعد ومعها المال الذي كان قد ادخره كاشوخاو ليدفع سعر ليلة مع الزنجية فلافيانا في نزل ليديا ليتابونا. كان يحس بالحاجة إلى العثور على اللعينة أينما كانت ليستعيد النقود الثمينة ويعلمها أن المزاح مع رجل مثله أمر لا يجوز. أية لمسة طيبة يمكن أن يكون للغجرية؟ ورشفة كاشاسا إثر أخرى أنسته حريق الأظفار التي انغرست فيه عميقة.

كانت دوافع دورندو متعددة ولكنها تشترك مع دوافع فاليريو بحضور الغجر في توكايا غراندي. هو أيضاً فكّر في التحرر من الألم بشراء زجاجة الكاشاسا من مخزن اللبناني حيث عرف بالحدث

وعرف بعد ذلك من مرافقته رجال القوافل: فامتقع وجهه، وأقفل فمه، وامتنع عن الكلام. كان كاشوخاو يقد المراجل، ودورندو يعاني صامتاً من انفعاله.

بعد أن أصغى صامتاً كالمعتاد إلى حديث الرجل، فإن مانينيو خالفه في الرأي من خلال وجهة نظر عميقة. بالنسبة إليه ليس لدورندو سبب في أن يعتبر نفسه مقرناً، مخوناً ومذلولاً. كان مارينيو يعرف عن الحياة ومسائلها الدقيقة، فهو رجل رأي ومبادئ.

من المعروف ومما يمكن ملاحظته أن زهرة الحب لا تتفتح وتفوح عطراً إذا لم يكن هناك مصلحة وتوافق لدى الجانبين؟ الرجل والمرأة: لا يفيد بشيء أن يتعلق الواحد منهما بالآخر، فإذا لم تكن هناك مبادلة من الطرف الآخر فإن المتعلق يغدو واهماً جالساً فوق فوهة الانفعال وهو وضع مؤلم يقود إلى الانهيار والحزن.

لقد صدم مانينيو نفسه عندما أدارت له زولميرا فوغاريو ظهرها وعندئذ لم يعد يرغب في الكلام معها أو السماع عنها. إن أسوأ ما يحدث في هذه الحالات هو أن يعتبر الواحد نفسه معتدى عليه ويحاول أن يفتش عن العزاء بعمل فضائحي انفعالي مؤسف.

مع كل هذا، ولو لم يكن قد وافق فاليريو كاشوخاو الذي يحتسي الخمر كأنه النار، لكان دورندو قد مضغ غضبه وابتلعه دون مضاعفات كبيرة. مع ما حاول مانينيو أن يمنعه فإن كاشوخاو خرج غاضباً والنتيجة هي: سوف ترون. أخذ معه المسكين دورندو البهيم الذي نبتت له قرون جديدة. لماذا تعتبرها قروناً، إذا كانت لا تريد أن تمارس المهنة؟

11

بعد أن سلّم الحمولة إلى العجوز جيرينو في مستودع الكاكاو الجاف استعجل دورندو الذهاب إلى كوخ غوتا: كان قد وصل إلى هناك قبله زبون آخر فتعاقد معها على تمضية الليل بكامله. وعندما كان يحدث الأمر، فإن دورندو قد احتوى انفعاله حتى لا يكلف نفسه نتيجة التبريح بها ضرباً فيصطدم بالزبون الذي سبقه إلى شغل الفراش الذي كان يفترض أن يكون شغله هو... شغله هو؟ كيف ولماذا؟ كانت غوتا تتدخل لتقول إنها لم تكن لتسمح بتدخلات أي مواطن، وبالأخص تدخلات شخص لم يربطها به أي رباط أو اتفاق. لم تهتم قط لدورندو، وإذا كان يشعر بأي ميل نحوها فمسألة تعصب، وصبر: كانت تستقبله بالتهذيب الذي تقتضيه طبيعة العمل، وتعطي نفسها بطريقة راقية له وللآخرين: الذين كانوا يذهبون معها إلى الفراش لم يكن لديهم ما يستدعي التذمر والحمد

لله. والدليل أنهم كانوا يعودون دائماً، فهي أبعد من الإعجاب والنوعية. كانت تجتذبهم بعطر طيب وسمنة مغرية في الردفين.

في الكوخ الفارغ، كان دورندو ينتظر منذ وقت طويل عودة غوتا ولكن مع طول الانتظار تخلى عن الفكرة. من يدري، قد يكون ضجرها من توكايا غراندي قد جعلها تسافر إلى تاكاراس، فراداس، ماكوكو أو أغوا بريتا؟ كان يجب أن يكتشف مكانها حتى وإن تكن قد ذهبت إلى إيتابونا حيث يوجد أكثر من عشرين بيتاً من بيوت الدعارة.

وبينما كان ينازع تلك الأحزان، اتخذ دورندو الطريق المؤدي إلى البيوت وهي كناية عن نصف دزينة، عدداً، لكي يروي ظمأه ويعزي نفسه في مشرب فضول المليء. وهناك التقى بمساعده دودو ترامیلا الذي علم أن غوتا لم تكن قد غادرت توكايا غراندي بأية صورة من الصور، وأنه إذا علم أين هي الآن فستثور ثائرته في الحال؛ إنها مع الغجري.

– إني رأيتهما معاً كما أراك الآن أمامي.

– ماذا رأيت؟

– رأيتهما معاً. كنت أنظر إليهما يبتعدان معاً فلم أحول نظري عنهما. وأين هما؟ إنهما لا بدّ من أن يكونا في طور مبادلة الغزل...

أحس دورندو بنفسه أكثر ألماً وانفعالاً. أن يراها مشغولة مع زبون ما فمسألة كانت تمضّه ولكنها لم تكن سبباً للشكوى أو الاتهام: إن غوتا كانت تكسب معيشتها ليس إلا. ولكن أن يعلم أنها تحتضن الغجري بين ذراعيها، وعلى ضوء القمر، بعيداً عن مكان العمل وتضحك بجنون، وتختفي وراء جذع ضخم، فكانت هذه أمور لتصيب مقتله ألماً: لم يكن هذا كسباً للعيش؛ إنه مُجون. إن المتشرد قد سحرها وليس من خدعة أسوأ من خدعة الغجري.

سأل اللبناني، مع انشغالاته العديدة سؤالاً:

– هل كنت على علاقة صحبة مع غوتا؟

– أكيد! ألم تكن تعلم – من أجاب بهذا كان دودو ترامیلا.

لم يقل دورندو شيئاً، فدفع سعر الكأس وما تبقى من الزجاجة ثم اتجه إلى مكان السكن حيث تمّ استقباله بالاحترام الذي يستحقه رفيق نضال متأثر بخيبات الأمل. كان الجميع يعرفون بالأمر، فقد

كان تراميلا قد أخبرهم التفاصيل، أما فاليريو كاشوخاو بحدسه الراقي لتعزية دورندو فقد اعترف بأنه كان ضحية هو الآخر. كما أن الغجرية الملعونة قد تبخرت ففقدها، هو مانينيو.

لم يكذب حادي القافلة ولم يؤكد، وظلّ مشغولاً بإخراج عظمة جرّدت من اللحم في فمه، وبسف قبضة من الطحين إلى جوفه.

12

لم يتأخر الوقت ليتزايد الرهط المجتمع حول النار وزجاجات الكاشاسا. كان برجنتينو قد ذهب إلى أسفل المنحنى ليبلغ برناردا رسالة أرسلها النقيب ناتاريو دا فونسيكا.. ولم يستطع أن يؤدي المهمة فعاد ليسمع بالنبأ المفجع الناتج عن اختفاء النساء، كل النساء بلا استثناء.

اختفين كلهن! يا إلهي لقد اختفين! أعلن ذلك وهو يفتح ذراعيه تعبيراً عن حجم الكارثة – كلهن!؟

كان النبأ قد تمّ تأكيده على لسان الأجير والأزلام الثلاثة. كانوا يعملون للعقيد أوسموندو روشا في مزرعة تقع قليلاً إلى الأمام، وجاؤوا من بعيد، زمرة كاملة تفتيشاً عن الفتيات الرائعات الصيت اللواتي كن يعملن في توكايا غراندي. ولم يعثروا على أي أثر لهن في كل حدود المكان.

كان رجال القوافل قد ألقوا رحالهم هناك بغية الاستئناس خلال ليلة فرح برفقة أنثوية. إن إلقاء الرحال يعني مخيم فتيات، وموقع كاشاسا، وحيوية. كان الأجراء والأزلام يأتون مشياً على الأقدام من حقول العمل عبر الشعاب والدروب ليطفئوا القنديل في أكواخ القش وينفسوا عن طبيعتهم؛ وبالمشاهدة المجردة لم تكن هناك قناديل لتطفأ أو نساء يرتاحون معهن أو عاهرة للالتهاب أو الإطفاء. كان الكوخ الخشبي فارغاً، وبرناردا وكوروكا غائبتين، فلم يستطع برجنتينو أن يبلّغ الرسالة – كان النقيب ناتاريو قد أرسل يعلم برناردا أنه في اليوم التالي سيمر بتوكايا غراندي – وكذلك لم يعثر على بنت هوى يقضي معها الليل.

وفي المقر، وهو يفرغ زجاجة الكاشاسا بدعوة من مانينيو، كان برجنتينو، غاضباً، سأل الله والجميع ما الذي حدث للفتيات. لماذا كن مختفيات، وقد أقفلن مطارحهن، علماً أن اليوم ليس يوم الجمعة العظيمة؟ لا بدّ أن يكون الأمر من فعل الغجر ولا يمكن أن يكون غير هذا: إنهم شعب بلا معنى، وأمة من المتشردين.

وللانتهاء من كل شيء لم يعد ينقص توكايا غراندي سوى أن يقفل السيد فضول أبواب دكانه فيذهب لكسب المال من زبائن آخرين.

13

طال تشنّج الأجير والأزلام الثلاثة وانتهى إلى قرار اتخذه فاليريو كاشوخاو بموافقة سريعة من دورينيو وبرجنتينو. إذا كانت ظنونهم قد خابت فإن الرفاق الأربعة عادوا إلى مشقة العمل تحت وهج الشمس، لزراعة أغراس الكاكاو. كانوا قد اجتازوا مشياً على الأقدام الفراسخ الطويلة طلباً لامرأة. في الغابة وحقول أغراس الكاكاو كانت النساء القليلات الموجودات محميات ومقفلات خلف الأبواب السبعة، وأي عدم احترام أو مفاتحة كانت لتكلف صاحبها حياته. كانوا قد جاؤوا للفتية فلم يجدوا فتيات فراحوا يستنكرون ضحالة المكان.

خلافاً لبرجنتيو فإن الأزلام والأجير لم يكونوا مزمعين على قضاء الليل بكامله مع أنثى، لأنه عليهم أن يعودا قبل شعاع الفجر الأول. أين كانت العتيقة جاسنتا كوروكا العجوز المهترئة ولكنها على كل حال ووفقاً لما كان يقال عنها كانت قديرة على استقبال الأربعة وتدبير أمورهم؛ في إيلايوس فإن بعض النساء العاميات، وعلى طريقة الأجنبيات، كن يذهبن مع اثنين أو ثلاثة رجال معاً، ولكن جاسنتا حتى حين كانت شابة لم تكن تمارس المهنة في نزول المدينة الباذخة وإن بمال العالم كله.

بعد أن توقفوا قليلاً في دكان فضول لمعالجة خيبة الأمل، فإن التعساء الأربعة، وإذ رأوا النار مشتعلة في موقع الغجر، توقفوا للتحقق مما يدور. وهكذا تمكنوا من أن يؤكدوا النبأ الذي جاء به برجنتينو عن الكارثة التي وقعت على توكايا غراندي:

– هم يقولون لك إذا كنت كاذباً.

تألق فاليريو كاشوخاو وعاد يطلق التهديدات على لهاث الكاشاسا: هيا بنا نفعل في العاهرات ما يستحقّنه ونبيّن لهذه الزمرة من المنبوذين أن أي متشرد لا يستطيع أن يستغل المواطنين الذين يكسبون خبزهم بعرق جباههم وهم يقودون الحمير، ويقطعون الشجر ويحرثون الأرض. أي طعم يمكن أن يكون للغجرية؟

الأجير والأزلام اعتذروا عن الدعوة: إذا لم يعجلوا في الرجوع فقد يفقدون يوم عمل.. ولكن مانينيو لم يعرهم إصغاء.. فاليريو كاشوخاو، دورندو وبرجنتينو قرروا اجتياز النهر لإعطاء أمثولة لطابور الغجر، وذهب مانينيو معهم وليكن ما يكون.

دودو تراميلا لم يكن جزءاً من القرار فهو لم يكن يحمل من السلاح غير سكين... وهمس مانينيو له بأن يبلغ السيد فضول رسالة: أخبره عن المعركة التي ستحصل. اذهب بصمت قبل أن تقع أية حادثة.

وبينما هم يتجهون إلى النهر تعجب مانينيو للصمت السائد: كان البوم قد أجّل نعيبه إلى أجل لاحق. في الليل المنعش، والدروب المقمرة، وتحت سماء مليئة بالنجوم أين كان الزيز؟ لقد اختفى هو الآخر، مع العاهرات.

14

اجتاز مانينيو النهر وهو مهيأ للأسوأ: سيحضر مرة أخرى مشهد العنف التقليدي. العراك غير مجدٍ، كان قد تعلم ذلك في دروب الكاكاو وهو يحدو القوافل. في الماضي كان قد أضاع مساعداً في عراك تافه: وخلافاً لفاليريو كاشوخاو كان زاي داليا عنصراً طيباً وكان العراك بسبب نحاسة نقدية لا قيمة لها.

لم يكن يخاف كثيراً من فاليريو كاشوخاو: فهذا مدعٍ، وفوق ذلك عندما يكون سكران فهو لا يمثل أي خطر لو لم يكن في زناره مسدس يجب حشوه بالرصاص بواسطة الفم، ولم يعد يساوي شيئاً بالنسبة إلى المسدسات الأخرى، ولكنه مع ذلك يمكن أن يجندل رجلاً. أما عن برجنتينو فإن مانينيو كان يعرف القليل ولكن كونه أحد رجال العقيد بوافنتورا لا بدّ من أن يكون لامعاً وحذراً.. وفي الوقت نفسه، وفقاً لتوجيهات النقيب ناتاريو دا فونسيكا. ولكن من كان يخيفه فهو دورندو لصمته وجبروته. بينما يجتازون فوق الحجارة التي جعل منها ممراً، كان مانينيو يساعد فاليريو كاشاخاه المتعتع سكراً، ولكنه كان منشغل البال على دورندو.

سمعوا نغمة لم يستطيعوا تمييزها. وارتفع النغم متوجاً: إنها موسيقى ولكنها ليست هرمونيكا أو كمنجة، وكانت عُلَويّة ومتماوجة فرحة وحزينة، كل شيء في الوقت نفسه وتغري بالرقص. لم يكن مانينيو قد سمع طيلة حياته شيئاً مؤثراً كهذا. لم يكن يعرف كم من السنوات كان يحمل على عاتقه، وعن سنه بدقة، ولكن لُبدته كان الشيب قد بدأ يغزوها.

الرجال الأربعة الذين جاؤوا من الحي السكني، ثلاثة منهم مستعدون للثأر والعقاب، واستعادة الأشياء الثمينة، والنقود والنساء، ولطرد الغجر بقوة السلاح، أبطأوا الخطو عندما ارتفعت المعزوفة

إلى النجوم وانتشرت فوق الغابة، وكذلك الحيوانات، الأبوام، والزيزان، والزرازير كلها توقفت لتصغي. عندئذ أدرك مانينيو لماذا توقفت الزرازير عن الغناء.

للتقدم خفّف الرجال من خطوهم، حذرين، ونظروا من خلف العربات ليشاهدوا هذا المشهد الفريد. كانت هناك الفتيات المختفيات الثماني، بعضهن جالسات، والأخريات واقفات؛ واثنان من رجال الغابات.

– واحد هو موريسيو والآخر ميغيل – كانا يحملان أدوات موسيقية لم تكن معروفة في تلك المجاهِل، ويعزفان ليطربا العاهرات والغجر. وكانت ماريا جينا تبكي وتضحك، وكان جوزيف، بأقراط في أذنيه وخواتم في أصابعه، وبرناردا واقفة قرب الغجرية العجوز قارئة الكف، وماليناترضع طفلها، وكل الباقين من الشيوخ والشباب والأولاد. وبصمت الحجر، الحاشية الملكية البابلية، والقمر بدر.

من لم يخفف الخطو – كان فضول عبد الله الذي وصل برفقة دودو ترامیلا: كان هذا يريد أن يرى ليخبر. وكان اللبناني قد جاء راكضاً لينال حصته من الطرب في الوقت المناسب؛ وعرف فضول الكمنجات.

وقد نال منه السكر، تقدم فاليريو كاشوخاو خطوة إلى الأمام وقام بحركة من ذراعه ليلحق به الآخرون ولكن هذا لم يفد بشيء. وإذ حاول أن يشهر مسدسه فإن مانينيو انتزعه منه دون أي جهد. وكذلك دورندو عندما شاهد غوتا جالسة أرضاً، وهي تصغي بانتباه، أراد أن يناديها باسمها، ويشتم أمها، توصل إلى أن يفتح فمه ليبدأ إلا أن اللبناني أقفل له فمه بيده الغليظة. ولم يحدث شيء من كل ذلك.

جاء جوزيف من الخلف وانضم إلى موريسيو وميغيل: لم يكن يبدو ملكاً بل إله غابة عذراء.. وأضاف إلى أنغام الكمنجات لغز الناي الإلهي على سمفونية القيصرات في ليلة الغجر تلك في توكايا غراندي.

لدى مروره بطريق القوافل الخريج أندرادي جونيور
يبدي تشاؤمه من مستقبل توكايا غراندي

1

ترجل النقيب ناتاريو دا فونسيكا في توكايا غراندي صباحاً بعدما اجتاز النهر، وقد لمح في الجهة المقابلة للنهر مخيم الغجر، ذلك في الوقت نفسه الذي سيمنع فيه الغجري جوزيف من أن يحتال على فضول عبد الله ببيع الأخير حماراً جيد الشكل أعجب مظهره التاجر اللبناني.

متقلداً بالذهب والجواهر، لا بالخلاخيل والزينة المزيفة التي يبيعها في حقيبة "المسقطي"، فإن اللبناني عرض ليدفع ثمن الحيوان نصف المبلغ الذي طلبه الغجري في بداية المساومة.. ويستحق الأمر عناء حضور المساومة بالتعابير التجارية المستعملة، والتعجب للفصاحات المزايداتية، والتهرب من التطرق للنقاط الضعيفة التي لا تخدم غرض صاحبها، وكل ما كان الحذقان قد التزماه، كل واحد من موقفه، وعبر مساجلة لا تنتهي... تارة يعلو صراخ الاحتجاجات والاتهامات وطوراً التباكي الذي ينفطر له القلب. وكل واحد يعتبر نفسه ضحية الخداع، وضحية بخل وسوء ظن عدوه. وسط النقاش كانت تتطاير كلمات وعبارات باللغة العربية أو الرومانية – تلك التعابير المقذوفة من فم الغجري إنما كانت رومانية وفقاً لما سمعه على لسان فؤاد كرم عندما حكى له عن ذلك، في ملهى إيتابونا.

وبينما هو يعلن أنه مغلوب على أمره، ومجبر على التنازل عن ملكيته بسعر غير منصف، فإن الغجري جوزيف كان مستعداً لقبول عرض التاجر عندما انضم إليهما النقيب وجعل كل شيء يتناثر هباء. وبعد أن شدّ على يد فضول وحيا الغجر بهزة من رأسه – أراد ناتاريو أن يعرف:

– هل تشتري الحمار يا عرّابي فضول؟

– ماذا تعتقد يا نقيب؟

– فقط حين أفحصه.

اقترب من الحيوان، ووضع يده على رقبته، ثم فتح شدقه، وفحص أسنانه أمام نظرة جوزيف المتشككة.

– هل تسعى إلى رمي النقود خارجاً يا عرّاب؟

هل تشتري حماراً عتيقاً ذا "دقة" قديمة؟ هل جننت؟ إنك لست بجهل الأستاذ جيمس الذي اشترى حمارين دفعة واحدة وأعتقد أنه كان يعقد صفقة جيدة!!

ابتسم حين تذكر براءة الأستاذ الذي انتهى إلى تكريس حياته للزراعة وغرس الكاكاو.

– حماراً عتيقاً؟ "دقة" قديمة؟ ما هذا! لم أسمع بشيء كهذا – وإذ عرف النقيب ناتاريو دا فونسيكا، فقد فضل جوزيف الغجري أن يظهر بمظهر الجاهل ويناقضه: – لا أعرف ماذا يعني.

لم يضع ناتاريو الوقت في الإجابة. وبالمقابل فإن فضول احتدم وتحول فجأة إلى مفترس، شتام، وهو يظهر نفسه بمظهر المهان لمحاولة الغجري توريطه والاحتيال عليه. تظاهر جوزيف بالتجاهل: إن اللبناني يعرف بقدر ما يعرف هو أن مقايضة الهر بأرنب هي جزء من تجارة الحيوانات:

– إذا كان هذا الحمار لا يفيدك فاختر حماراً آخر.

بعد أن جال داخل القطيع الذي يحرسه موريسيو وميغيل، فإن النقيب، الخبير بالحمير والجياد، نصح بعدم الشراء. ما كان جديراً بالاهتمام هو مهر يمكن أن يغدو في المستقبل جواداً جميلاً: لا يفيد. لتحميل البضائع بين توكايا غراندي وتاكاراس، فإن فضول كان بحاجة إلى حمار قوي دون عيوب.

– في مهرجان تاكاراس سيجد العرّاب حماراً ذا مواصفات ملائمة – اقترح ناتاريو.

لم يعطِ رأيه في المناقشة المتعلقة بالسوار الذي كان قد تمّ الاتفاق على سعره قبل تعليق المناقشة على الحمار. وحاول جوزيف الغجري أن يفسد الاتفاق ويعود إلى الوراء:

– دون الحمار، إن سعر السوار هذا غير ما هو متفق عليه..

– ماذا؟ غير سعر؟ كيف؟ ما دمنا قد اتفقنا؟

– دون الحمار... فإن سيادتك..

– سيادتك... هي الزانية التي خلّفتك.. – الآن غدا فضول غاضباً حقاً؟ ما شأن عمل بعمل آخر؟ إني أدفع ما هو متفق عليه، ولا أدفع فلساً واحداً زيادة على ذلك.

وجد أن سعر الجوهرة هو في مصلحته؛ سحب من جيب بنطاله لفّة من الأوراق النقدية القديمة، مطوية، وبصق على أصابعه، وأخذ يعد الأوراق.

– لا أريد أن أبيع. – قال جوزيف الغجري.

– لقد تأخرت، إني اشتريت وانتهى الأمر. – قدم فضول المبلغ المتفق عليه بعد أن انتهى من عدّه.

جوزيف، وقد وضع يده على خنجره، راقب الوضع بصمت، فاقترب موريسيو وميغيل ليصطفا إلى جانبه. لو كان العربي وحده، وبالرغم من قامته الكبيرة، ومتانة زنديه والمسدس في زناره، لحاولوا إخافته وحلّ المشكلة بالقوة، ولكن الغجر كانوا يعرفون اسم وأعمال النقيب ناتاريو دا فونسيكا. وانتهى الغجري باستلام النقود، وبوقاحة أعاد عدّها، وهو أيضاً كان له كبرياؤه ليدافع عنه. أدار ظهره دون أن يقول كلمة ولكن النقيب لم يتركه ينصرف:

– ألا تريد أن تبيع السوط؟

كان السوط مثيراً للفضول، وعمل معلم: وكان يسترسل قرب خنجر الغجري.

– هل هو من الفضة أو المعدن؟ – من العظم أو من العاج؟ فاستدار جوزيف بهدوء.

– لقد خسرت مالاً كثيراً اليوم، ولا أريد أن أخسر أكثر.

– قل فوراً كم تريد سعراً للسوط وإذا وضعت السعر سأدفع أنا بنفسي. فضة أو عاج، معدن أو عظم؛ من جديد فإن الغجري والعربي وجدا نفسيهما وقد اعتراهما السرور في المساجلة والمساومة. النقيب غيّر المحاولة ودون ضرورة لتلك المساجلة اشترى السوط بسعر اعتبره فضول غالياً.

بعد ذلك مباشرة، تحركت عربات الغجر، فأخذت الطريق الذي يؤدي إلى نقطة حط الرحال التالية.

2

– ماذا سيفعل العرّاب بهذا؟ يبيعه؟ أو يقدمه كهدية؟ – رغب النقيب ناتاريو دا فونسيكا في أن يعرب وهو يبدي إعجابه بالسوار الذي وضع في ورقة سميكة مطوية كان قد فضّها فضول فوق خشبة البار.

ضحك التاجر الصغير ضحكته الكبيرة راضياً بينما هو يملأ الزق من زجاجة موضوعة جانباً لمناسبة كهذه:

– لقد كلّف الكثير من المال، ولكنه يساوي أكثر بكثير. إني أعرفه. حيث كان ابن الزانية سينال مني؛ إنما في سعر الحمار لو لم تصل يا حضرة النقيب.. لقد أرسلك الله لتنقذني.

نظر عبر الباب إلى الضفة الثانية من النهر فكانت العربات قد اختفت في المسافة البعيدة:

– يقول الكتاب المقدس: "من يأخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ"، يا نقيب. لقد أراد الغجري أن يسرق فخرج مسروقاً.

– هل يساوي كل هذا السعر؟

– أستطيع أن أبيعه بأكثر من هذا السعر بكثير في إيلايوس أو إيتابونا. ويكفي عرضه في الملهى وليس من عقيد واحد لا يريد أن يشتريه. – وهزَّ برأسه الكبير – أما إعطاؤه هدية؟ فلا. ليس لي خطيبة أو زوجة، وحتى لو كان لي فلست مليونيراً لأقدم هدية بهذا السعر. كانت صفقة جيدة. ولكن النقيب دفع كثيراً بالسوط، واستعجل. لو أنك ترويت قليلاً لحصلت عليه بسعر أرخص.

– يمكن أن يكون صحيحاً ما تقوله، ولكن ليس لديَّ الصبر للمساومة. لقد اشتريته لأقدمه هدية، يا عرّاب، وفوق هذا لرجل.

– أعرف. اشتريته لتقدمه للأستاذ، أليس كذلك؟

إن مناداة ذلك الرجل الضخم بالأستاذ كان يمكن أن يبدو مزاحاً سمجاً وقلة احترام، ولكن ناتاريو عرفه صغيراً وفضول إلتقاه شاباً. كان رجوع فنتورينيا بعد إجازة طويلة في الريو دي جانيرو يسيطر على المحادثات في مشارب إيتابونا وإيلايوس، في محطات سكة الحديد كما في أغوا بريتا، ساكيرو دي إسبينيو وتاكاراس، في التجمعات السكنية الصغيرة والقرى وكذلك في بيوتات المزارع الكبيرة.

– إن على فنتورينيا أن يشقى من هنا وهناك ومن هناك إلى هنا، يبتلع الغبار: العقيد يريد بالإضافة إلى مهنة المحاماة، أن يهتم بمزرعة أتالايا. لقد اشترى حماراً مسروجاً وحمارة فتية حتى إنني اشتركت معه في الاختيار. مطيتان من الطراز الأول ومن سيمتطيهما هو فنتورينيا. – والتمعت عينا ناتاريو النائستان: – إن العقيد شديد التعلق بالابن إلى درجة لا يمكن تخيلها يا عرّاب.

– أنت على حق. إنه ابنه الوحيد وهو الآن أستاذ. أي أب لن يحب ابنه هكذا – والتمعت عينا فضول هو الآخر: – عندما سأرزق أولاداً فهم سيكونون أساتذة أيضاً. ولكني لا أريد أحدهم محامياً: فواحد سيكون طبيباً والآخر كاهناً.

– وهل الكاهن أستاذ، يا عرّاب؟

– ليس عليه أن يكون. بل هو أكثر من الآخرين، يا نقيب، إنه أستاذ الله، حتى إن لديه امرأة في مخيلته.

مليئاً بالذكريات، انطلقت من شفتي ناتاريو ابتسامة واهية:

– هل تعلم أنني كنت أردفه معي على السرج وهو طفل؟.. وحرّك السوط في الهواء: – إنه سيحب هذه اللفحة من السوط؛ إنها جميلة وذات وقع خاص.

سوط استثنائي، يليق بمتخرج شاب ابن رجل ثري، نقيب كاكاو يتكلم في السياسة كلاماً كبيراً، ويملي القوانين في قصر العدل، ويعطي الأوامر في المكاتب الرسمية.. وللمرافقة عن مشاكل الأراضي لم يكن في كل المنطقة مزارع محامٍ يمكن أن يزاحمه أو يواجهه: إن فنتورينيا كان يملك من كل شيء وأكثر من ذلك.

كان ناتاريو يعرف ذوق الشاب، وميوله، ومفاجآته. رآه ينمو وعلمه الكثير أنقذه من ورطات عديدة، وعلى الأخص في نزول النساء العاميات والملاهي. أكثر من مرة أجبر على حمله: وإذ كان فنتورينيا ضعيف التحمل في شرب الكحول فإنه كان يفقد صوابه بسهولة. وعندما رآه وقد تخرج، وأصبح الأستاذ المحامي، كما العقيد، أحس بالاعتزاز:

– للهو والحياة الرخيصة لن يكون هناك ندّ له..

– الآن بالذات سيبدأ العقيد بإعطاء الأوامر. الحمد لله أنك نقيب من جماعته وأني عرّاب بالنسبة إليك.

تناخبا الكأسين محيين عودة الأستاذ أندرادي جونيور – الذي كان يقرأ اسمه في شهادة الحقوق الخريج بوافنتورا دا كوستا أندرادي جونيور. وأخيراً العقيد بوافنتورا أندرادي سيتمكن من تحقيق مشاريعه السياسية الطموحة التي كان قد خطط لها بمناسبة تخرج ابنه في كانون الثاني/يناير من العام الماضي. كانوا في أواسط أيار/مايو وها هي ستة أشهر قد انقضت.

3

في الشارع التجاري في إيتابونا كانت ترتفع على مدخل عمارة، هي ملك العقيد، لوحة ضوئية كتب عليها: المحامي بوافنتورا دا كوستا أندرادي فليو. أما اسم أندرادي فيليو فكان مثبتاً في شهادة العمادة، وأما جونيور فإنه كان بدعة أجنبية والمزارع يكره الغرابات. كان الجزء الأسفل من العمارة يستخدم كمستودع للكاكاو الجاف، وهناك كانت القوافل القادمة من مزرعة أتالايا تفرغ حمولاتها في حركة دائمة من الرجال والحيوانات.

بدلاً من الإقامة في إيلايوس، كان رأي العقيد أن يقيم فنتورينيا مكتبه في إيتابونا، البلدية الجديدة التقدمية حيث تقوم في أرض الملكيات الريفية التي ستصبح ملكه في يوم ما، – مما يساعد على ممارسة المحاماة في كل الولاية. وفي أيار/مايو، وصل الشاب كما يبدو، ليتنكب مسؤولية المكتب والمسؤوليات الأخرى التي تنتظره وهي متعددة ومتعبة.

في يوم الأحد الذي أعقب التخرج أقيمت حفلة راقصة قدمها المتخرجون إلى أصدقائهم وإلى المجتمع الباهياني في نادي كارنافالسكو كروز فرمليا. السيدات والآنسات ارتدين الملابس الباذخة، والرجال بالزي الأبيض على طريقة النبلاء ذوي الأصول العريقة. وظهر العقيد والسيدة أرنستينا متأنقين بالكامل ومن الرأس حتى الأخامص. وتمّ إنفاق الشمبانيا الفرنسية والكونياك المسييري وهم يحيون مع آل مدور وآل باريتو أهل الشابين اللذين تخرجا من ضمن الزمرة التي ينتسب إليها فنتورينيا: ها هي أغراس الكاكاو قد بدأت تنتج أساتذة.

واستكملت الحفلة عند الفجر في نزل مدام هنرييت التي يشير اسمها ولفظها وحركاتها إلى أصلها المرسيلياني. كانت تلك الدعوة قد وجهت من فنتورينيا إلى بعض الزملاء الحميمين ففك العقيد حبال حقيبته وأنال بسخاء. لم يكن لمدام هنرييت مزاحم على مؤسسة تعريسية بهذا المستوى في مكان سحري، كما كانت هي نفسها تعلن على الملأ. نزل ناء عن الفضائح، مواعيد أرستقراطية، سيدات أنيقات تمّ التعاون معهن بوزن الذهب، وهن محظيات، سادة ذوو مستوى رفيع كإقطاعيي ريكانكافو، وتجار جملة المدينة المنخفضة وذوو الرتب العسكرية وسياسيون من أصحاب سلطة الإكليروس والإقطاع، ثريات فارهات وكل واحدة أكثر إثارة من الأخرى، ابتداء من المسؤولة العذبة عن المكان؛ فرنسية شقراء، مثيرة للاهتمام، وممولة، فإن هنرييت الحكيمة كانت توزع وقت عملها على ثلاثة زبائن منتجين في عالم التجارة العامة والمضاربين بالبورصة. رومانسية، فإن هنرييت المجنونة كانت تحتفظ بوقت المتعة للشاب الوسيم جورج مدور الذي تخرج في ذلك اليوم، مع فنتورينيا صديقه وكاتم أسراره، ورفيقه في النضال.

كان مدور شاعر الزمرة الذي يصفق له ويطلب منه، ويا إلهي كيف تغدو الفتيات والنساء؛ كان يرصف أبيات الشعر وينشرها في الصحف، وكانت العذارى ينشدن في الأعياد العائلية: "معزوفة لشعرك المقمر" وقد أهداها مدور إلى "زهرة بحر المتوسط" العطرة. وكانت تسريحة هنرييت لشعرها المضيء والمنفوش تسيطر على العيد الذي هو عيدها أيضاً كما هو ملاحظ.

قداس وحفلة، تخرج ومتعة، وأفراح عارمة لا تزال كلها عالقة في ذاكرة العقيد بوافنتورا أندرادي يتذكرها بكبرياء صحيح وبعض الاكتئاب. كان قد جثا على ركبتيه أمام المذبح أثناء القداس الاحتفالي، وتمتع بموعظة الكاهن، واهتز فرحاً وتأثر في احتفال التخرج، وعرف باستكمال الحفلة في نزل هنرييت فغضّ الطرف عندما استراح المونسنيور دا سيلفا بين ذراعي رومينغاس بيجافلور السمراوين، وهذه مخصصة للمونسينيور، نبع الفضائل والعتر القديس الذي استراح في اليوم السابع من الأعياد والانفعالات والاحتفالات.

4

في شهر كانون الأول/ديسمبر، شهر التخرج، لم يكن العقيد بوافنتورا أندرادي قد بدأ التفتيش عما يرضي نفسه. إن ابنا أستاذاً، لا يزال وجوده نادراً في الأراضي الزراعية البعيدة، وهو بالإضافة إلى فرح والديه سبب لإرضاء غرورهم، ونيلهم الاحترام، كان يعني كل هذا التحرك المقبل في اتجاه تحقيق المشاريع التي تمّ التخطيط لها من زمان.

كانت الدروس قد كلفت كثيراً، وأسعار كتب الحقوق وتكاليف فتيات الهوى في الولاية، كلها تمر عبر أبواب الموت: الكاكاو! لم يكن سهلاً تأمين المصاريف الأكاديمية وإبقاء ابنه في العاصمة بمستوى معيشي رفيع يفترض أن يحافظ عليه ابن العقيد بوافنتورا أندرادي. – إن شهرة ثروة المزارع الكبير كانت تجوب آفاق باهيا: أشجار لا تعد، وآلاف الأكياس من ثمر الكاكاو في كل موسم، وبيوت الإيجار في إيلايوس وإيتابونا والقروض بالفائدة.

ومع كل ذلك كان يدفع بجهد: إن لقب أستاذ يساوي ما تساويه مزرعة جميلة؛ إنه مفتاح أبواب السياسة وترجيح الزواج المتكافئ. مع ابنه الأستاذ هناك بين يديه، لم يعد العقيد محتاجاً إلى خدمات الآخرين من المتخرجين ليهتموا بقضاياه في المحاكم والمؤسسات الرسمية، وكذلك لن يكون متعلقاً بالآخرين لينص عليهم أوامر لا تعطى لغير الموثوقين. كان دائماً تحت رحمة التزوير والأكاذيب والمفاجآت وبأيد متشابكة.

كان لفنتورينيا، مع ذلك، مخططات أخرى للشهور التي تلت تخرجه. بعد سنوات دراسية عديدة، وامتحانات خطية واختبارات شفهية، كان يطالب بإجازة طويلة مستحقة. لا الإجازات العادية التي كان يقضيها في إيلايوس وإيتابونا موظفاً في خدمته فتيات هوى من الدرجة الثالثة في الملاهي، ولكن يجب أن تكون إجازة أستاذ متخرج حديثاً، يقضيها في الريو دي جانيرو.

سمع العقيد ووافق: في النهاية، شهران أكثر، أو شهران أقل، لا يمثلان شيئاً يذكر. ففي مخططاته المبيتة، وأكثر من حالة طارئة، كانت رغبة العقيد في أن يرى ابنه يلمع أمام المكتب، يدافع عن قضايا، ويرافع في المحاكم، ويهتم بالمزرعة ويتدخل في السياسة، ويترشح للنيابة عن الولايات أو لرئاسة البلدية في إيتابونا.

5

قبل ساعة الغداء، امتطى النقيب ناتاريو دا فونسيكا فرسه أمام البيت الخشبي الصغير، وقال لبرناردا وكوروكا "إلى اللقاء العاجل"، وأشار من البعيد لفضول وذهب ليستقبل في محطة تاكاراس الخريج أندرادي جونيور العائد إلى متاعبه الصغيرة. كان الشاب عائداً برفقة السيدة أرنستينا التي استقبلته في إيلايوس. وعن سابق تصور، ولكي لا يظهر الغيظ الذي كان يعتريه ظلّ العقيد بالانتظار في أتالايا. ولكن ناتاريو شهد انفعال المزارع الكبير عندما فضّ هذا الأخير برقية أرسلها فنتورينيا وقرأ فيها عن إعلان وصول فنتورينيا الذي حدّد ساعة الوصول إلى المزرعة: إنه الوقت الذي يحتاج إليه العقيد لتهيئة الأمور لاستقبال ابنه الأستاذ بما يستحق والذي أخيراً قرّر الرجوع من الريو دي جانيرو. كان قد وعد بالرجوع مباشرة، بعد الكرنفال، ولكنه وصل عشية عيد القديس يوحنا. كان الفرح منعكساً على وجه العقيد الذي تمكّن من البقاء صامتاً يقرأ ويعيد قراءة البرقية. وأخيراً وهو يضحك بفمه وعينيه وبكل وجهه، أبلغ النبأ:

– إنه آتٍ، وقد وصل إلى إيلايوس. أستاذنا يا ناتاريو.

ذهب النقيب مفكراً بهذه الأمور عندما لاحظ على الطريق أمامه مؤخرة امرأة. كانت المرأة تغني أغنية سمعها في زمن الطفولة، في بروبريا:

"إلى هنا سيأتي ملك بابل،

به سأغرم

ومنه سأتزوج..".

كانت ماريا جينا، حافية القدمين تائهة الدروب في فمها ابتسامة حب وبيدها باقة من أوراق الغابة وأزهارها.

– إلى أين تذهبين يا ماريا جينا؟ – سأل النقيب...

– إلى هنا يا حضرة النقيب.

– ومن هو إن لم أكن فضولياً؟

شجعها النقيب على الكلام..

كانت ماريا جينا تحب أن تتحدث مع النقيب لأنه كان محترماً جداً، ومهذباً كما لا أحد في تلك الزمر: كانت الحياة بالنسبة إليها زمرتين: وهي تعيش بين الاثنتين وتستطيع أن تمزح بينهما بسهولة.

وبينما هي تبتسم وعدت النقيب:

– عندما أعرف اسمه، سأقول لك في الحال. ولن أقول لسواك.

كان القيظ في أوجه معلناً عن الساعة، وإذا لم يتأخر القطار الحديدي فبعد قليل سيترجل فنتورينيا في تاكاراس. أما زال فنتورينيا يتذكر ماريا جينا؟

كان ناتاريو يعرفها منذ زمن مزرعة أتالايا، وكانت لا تزال فتية، النظرة غامضة، تبتسم ولا تعرف لماذا، وهي تعرض أماكنها.

– هلا زلت تذكرين فنتورينيا يا ماريا جينا؟

توقفت المرأة عن المشي وسط الطريق وبذلت جهداً، كانت الذاكرة تأتي من بعيد، من الضفة الأخرى، غامضة الأحلام والرؤى.

– من يا سيادة النقيب؟ – لا لا أتذكر.

– إنه فنتورينيا ابن العقيد، عقيد أتالايا. كان ذلك منذ زمن بعيد.

– لا أتذكر الابن، لا. فقط أتذكر العقيد نفسه، كان يجب أن يستلقي معي أكثر مما يحب أن يستلقي مع غيري، وكان طيباً.

– العقيد بوافنتورا؟

– كان صدره مشعراً، وجميل أن تمر اليد من هناك.

واستأنفت مشيتها البطيئة، وضاعت عيناها من جديد، وانفتحت شفتاها بابتسامة يوبيلية: كانت ذاهبة تفتش عن ملك بابل، سيد الشمس. ووضعت في فتحة من التنورة النقود التي وضعها النقيب في يدها.

لكز النقيب ناتاريو فرسه، وقطع مسافة بعيدة... إذا لم يتأخر القطار عن موعده فإن فنتورينيا لن يتأخر في الوصول. أستاذ خريج، ألا يزال يتذكر ماريا جينا؟

6

لا في كانون الأول/ديسمبر ولا في أيار/مايو: فمخططات العقيد شوهدت تتأجل من جديد. إلى متى؟ يبقى السؤال في الهواء، وفنتورينيا لم يحدد تاريخاً: لم يكن للتخلص مدة محددة. قد تطول بعض الأشهر، خمسة أو ستة؛ كم من الأشهر بالتحديد، فهو لا يعلم؛ حتى في كانون الثاني/يناير في أقصى حال. ولكن كيف يترك فرصة كتلك تفوته؟ إن فرصة كهذه لا تواتي الواحد كل يوم، والأماكن الشاغرة تمّ التنازع عليها من مرشحين من كل الوطن وحتى من الخارج. وأصبح العقيد عالماً بأن بين المتقدمين كان يوجد أرجنتينيون. أرجنتينيون، نعم يا سيدي. هو فنتورينيا، حصل على موافقة تسجيله بسبب علاقاته الطيبة التي أقامها مع أساتذة كبار خلال هذه الإقامة القصيرة في ريو دي جانيرو. قصيرة؟ خمسة أشهر؛ وكان العقيد يعدها على أصابعه: كانون الثاني/يناير، شباط/فبراير، آذار/مارس، نيسان/أبريل وأيار/مايو.

أخذ العقيد علماً باتجاهات فنتورينيا عبر مسلسل طويل من "كتابنا وكتابكم" و"برقيتنا وبرقيتكم"، التي فيها كان الشاب يعطي والديه علماً بقرار إطالة الدروس، والمشاركة في دراسة قانون ملكية الأراضي الضروري لمن يريد أن يمارس المحاماة بنجاح في المنطقة، ومنه سيستفيد استفادة كبيرة. وهو يسبح تائهاً في قراءة اللغة الأنيقة التي تكتب بها رسائل فنتورينيا، لغة خريج، فإن العقيد، غارقاً في الشكوك، أمر الولد بالمجيء إلى إيلايوس لتوضيح الأمر بصورة أفضل لأنه لم يكن مزمعاً ولا هو يرى ممكناً تقرير هذا الموضوع بالمراسلة.

في رأيه، وقد أكمل الدراسة في كلية الحقوق، وتمّ تعليق الصور والإطارات في حائط غرفة الاستقبال تبيّن الشهادة وصورة التخرج، فإن فنتورينيا غدا صالحاً للبدء بالمهنة وشق الطريق المرسوم: ممارسة المحاماة، والزواج من فتاة من عائلة غنية – غنية على الأقل بقدر ما هو – واحتراف السياسة، وتحمل المسؤوليات والمراكز التي يزاحم عليها. من أجل هذا عمل العقيد كعربي، ناضل والسلاح في يده، وسفك الدماء، وجازف بحياته. ولم يكن يرى من ضرورة لدروس جديدة؛ ألم يتخرج ويستلم رداء المهنة؟

وإذ وضع ضد الحائط، لم يكن أمام فنتورينيا من طريق سوى أن يتخلى عن تصرفه المفتعل الذي تعوده في الريو والمجيء لتنفيذ الأمر بصوت حيوي:

– لقد علقت دروسي وأضعت عدة محاضرات. – كان يتذمر.

وتحركت السيدة أرنستينا دعماً للابن. عامة لم تكن تجرؤ على مناقشة مخططات الزوج عندما تعلم بها، وهذا ما حدث نادراً. ولكنها، في تلك المناسبة خرجت من عزلتها المعتادة لتطالب، وبقوة غير متوقعة، من أجل أن يتعمق صغيرها بالمعارف. ما كان الصغير يسعى إليه هو الدراسة، وهذا طموح مشرف، فكيف يمكن منعه؟

– محاضرات يلقيها أساتذة ذوو شأن، ومن أكبر الاختصاصيين – كان يقول فنتورينيا واقفاً وسط الصالة، وذراعاه مرتفعتان إلى أعلى.

تخيل العقيد ابنه المحامي في المحكمة وصوته متماوج وجوابه حاضر يشير بإصبعه. وسمع بصمت أدلة الشاب، ودفاع الزوجة: إنها أمية الأب، والأم تكاد تعرف كيف توقع اسمها، فيا للشيطان ماذا تعرف أرنستينا عن المحاضرات وتفاصيل الحياة القانونية؟ وأخيراً، ورغماً عنه، انتهى العقيد إلى الإذعان والموافقة.

وزن في قراره ما أظهره الأستاذ هرناتي تافاريس، القاضي المنفرد في إيلايوس الذي، ما عدا رسالة فنتورينيا، حيا فكرة الانتساب إلى قسم "قانون ملكية الأراضي" وهو قسم مستحدث في العلوم القانونية، وذو عائدات مربحة. وبدا حساساً أيضاً لرغبة ابنه في نوع الدراسة كما يجب. كان يفتش عن إدراك معرفة الكبار من الأساتذة، ويرمي إلى أن يكون واحداً منهم. وفي منزل المناظرات لا يجب نسيان الأرجنتينيين الذين جاؤوا من مكان بعيد لمتابعة العلم الذي اعتمدته البرازيل: فهؤلاء يزنون ثقيلاً في ميزان القرار النهائي. مرتبك ولكنه ليس زعلاناً. وحزين ليرى ابنه يتغيب من جديد.

– حتى نهاية العام. تذهب إلى هناك. في العام الجديد أريد أن تكون هنا، لقد أصبحت عجوزاً وتعباً.

المحاضرة الحرّة في قانون ملكية الأراضي التي خصصت لبعض المتخرجين كانت موجهة قبل أي شيء للذين كانوا سيقومون بتأدية وظائف حكومية في وزارتي العدل والزراعة. وعرف بها فنتورينيا صدفة فركض لينتسب ولكنه لم يحضرها إلا نادراً جداً. أما المحامون الأرجنتينيون المزعومون، في الحقيقة، لم يكن واحد منهم قد جاء ليستفيد من أنوار أساتذة النور البرازيليين.

وبطريقة غير مباشرة، من استفاد من المحاضرات الحرّة كانت الأرجنتينية أديلا لابورتنيا، المدعوة "تدللاً" أديليتا.

شوشا دي أورو الآتية من مسارح بوينس آيرس، حيث كانت تحصد التصفيق والهتافات، وذلك لتذبح الرقص الهادئ في ملاهي الريو دي جانيرو، وحيث كانت تحصل على مرتب مغنية لا عاهرة. أجنبية وفنانة، وبالنسبة إلى الريفي الشاب فإن الحصول عليها كملكية خاصة كان الحد الأقصى للمجد وبكل عظمته. وأبعد من ذلك، كانت مجنونة به، ومولهة بشكل تضيع معه: "من أجلك أحطم نفسي" "بور فوس مي رومبو تودا".

7

عرف العربي فضول عبد الله، عن تطورات دراسة فنتورينيا، من تلقاء نفسه، وبعد عدة أيام، عندما توقف المسافر في توكايا غراندي يرافقه النقيب ناتاريو دا فونسيكا ومسلحان من أزلامه. وإذ كان ملزماً بالمجيء إلى إيتابونا تلبية لطلب العقيد – مرَّ من هنا، استقبل الأصدقاء، في المكتب، وأعلمهم بأنه سيكون هنا في نهاية السنة وقد حاز على لقب علمي جديد: "أستاذ في الأراضي" – لم يكن بمقدوره أن يصل كمتدرج يفتش عن قضايا. إنه الأستاذ أندرادي جونيور، ابن العقيد بوافنتورا أندرادي، والزعيم السياسي في البلدية، رجل مستوى وامتياز. لم يكن يستطيع أن يأتي بأقل مما يستلزمه الأمر النقيب والمسلحان، والفرس المطهمة والسوط.

في الطريق إلى أتالايا، فنتورينيا وقد بدأت الأشواق تمزقه، أسرّ إلى النقيب عن غراميات الأرجنتين، على الطريقة القديمة التي كان يخبره فيها بفتوحاته: وكان "السركال" مصغياً بانتباه واهتمام. هذه المرة لم يكن فنتورينيا يتكلم عن أي كان، سواء كانت بنت هوى، أو ابنة عائلة، يفعل معها كذا أو كذا، لقد كان فنتورينيا يشير إلى أديلا الإلهية، ملكة الفالس الحديث في ريو دي لاباتا: "لا باتيتيكا إنتبريريتي دلتانفورا رابالبرو". إنها حلم امرأة، طويلة بيضاء، بيضاء كالحليب، وجسد منحوت: حين تقف فكأنها تمثال، وفي الفراش كأنها الزلزال، ومطرحها لون الورد – مطرحها يا ناتاريو لا أقول لك شيئاً عنه. تذمر لأنه لم يجد في إيلايوس هدية جديرة بملكة الفالس الحديث: خاتم، عقد، سوار، ماسة... اجتاز السوق التجاري طولاً وعرضاً، وعبثاً: هنالك فقط أشياء مزيفة. سيشعر بنفسه محرجاً لأنه وعد بأن يأتيها بمجوهرات جميلة من باهيا.

توقف فنتورينيا قرب دكان فضول، فركض العربي مرحباً بحماس، وانحنى انحناءة مسلية، وأبدى السعادة بحضور ابن العقيد المدلل وهو حضور غير متوقع.

– عرفت بوصولك من النقيب. هل يعني أنك ستبقى معنا هنا..

– لم آتِ بعد فكيف أبقى يا فضول؟ إن الدروس ستحجزني لبعض الوقت في الريو دي جانيرو.

ألم ينهِ دروسه بعد التخرج؟ كان تعجب التاجر مع محاولة إخفائه أمراً لم يخف على فنتورينيا الذي بقي تحت رحمة التفسير.

– إنها دروس للاختصاص: قانون الملكية. إنه لقب إضافي إلى لقب أستاذ.

– أستاذ مرتين. – استنتج ناتاريو.

توضيح ناقص، ومع ذلك ضرب فضول بكفيه معلناً الاحتفال:

– ماذا أستطيع أن أقدم لك؟ من الجيد ليس هنا غير الكاشاسا. ويوجد كونياك ولكني لا أنصحك به.

أجال فنتورينيا عينيه في تشكيلة المشروبات، أنواع من العرق أو مركبة من الفواكه: على واحدة من الزجاجات صورة عنزة ذات قرنين. إنها مشروبات رخيصة تفيد الأجراء وحداة القوافل. ولكن فضول في مخبأ خلفي عثر على زجاجة شبه ممتلئة، نزع الغطاء، ونظّف العنق، ثم رمى بالفلينة راضياً عن نفسه:

– مشروب خاص. تيكيرا من صنع الزنجي نيكوديموس في فراداس... محجوزة لمن يستحقها. النقيب يستطيع أن يقول لك شيئاً.

– من الطراز الأول – أكّد ناتاريو: – قوية ككل الشياطين.

– لديَّ علاج لهذا أيضاً... – ضحك اللبناني وخرج. قطف فضول من شجرة بيته أربع أو خمس ثمرات كاجو ناضجة، ومتماوجة بين الأصفر والأحمر:

– بعد أن تشرب مصّ حبة كاجو فيذهب المفعول.

– لا أحتاج إلى هذا... – أحس فنتورينيا كأنما اعتدى عليه وبلع دفعة واحدة كأس التيكيرا التي كان قد جهزها البائع.

– أين تلك القطعة التي اشتراها العرّاب من الغجري؟ إن الأستاذ يريد أن يراها. – وإذ كان قد أجهز على كأسه، فإن ناتاريو ذهب يمتص الكاجو بينما يسيل العصير من جانبي فمه:

– سآتي بها.

من جديد أعاد فنتورينيا الكرة: إن الكاشاسا كانت شيئاً آخر، فهي بلا رائحة ويعلم جيداً أنها تحرق الصدر. عندما عرض فضول الجوهرة على البار فوق منشفة، أعطاه ناتاريو الزجاجة ليحتفظ

بها.

– قبل أن نجهز عليها. ما زال بيننا وبين إيتابونا مسافة وهذه التيكيرا هي خبطة على الرأس... بينما تتحدثان وتناقشان، سأقوم بزيارة قصيرة.

لم يرد النقيب أن يكون وسيطاً في بيع وشراء الجوهرة وكان يعلم أن برناردا بانتظاره بفارغ الصبر. برناردا، كل يوم، أجمل من قبل.

8

بسعر يطلبه صديق من صديقه، وهو على كل حال ضعف السعر الذي دفعه إلى الغجري، أعطى فضول العقد لفنتورينيا. في إيلايوس، وفي مشرب في الميناء وفي ملهى من ملاهي إيتابونا نال عرضاً أفضل بكثير. ولكن كما شرح له فضول فإن الأستاذ عزيز عليه ويستحقه. وترك لفنتورينيا الذي يفهم بالدرر والجواهر أن يضع السعر مردداً قول الغجري:

– إن سعرك هو سعري يا أستاذ. ادفع ما تشاء.

طلب فنتورينيا بلعة أخرى من التيكيرا بينما هو يعد الأوراق النقدية الجديدة والمبهرة:

– والنقيب إلى أين ذهب؟ لقد أخذ معه الفرس.

– في بيت برناردا... فقط هناك يمكن أن يكون.

خرجا مشياً على الأقدام ليمرا أمام الأكواخ المنتشرة على طول الطريق؛ باستياو دا روزا، وهو يقف في باب الكوخ الذي يقطنه، رفع قبعته:

– "صبحكم الله بالخير" يا حضرة الأستاذ.

النساء في أبواب الأمكنة المخصصة لاستقبال الزبائن، شبه عاريات، كن ينظرن بفضول، فمن منهن لم تسمع عن فنتورينيا، ابن العقيد الذي درس إلى أن أصبح أستاذاً؟ وتقدمت غوتا باتجاههما:

– ألم تعد تعرفني يا فنتورينيا؟

حكّ فنتورينيا رأسه، لم يعرف المرأة المتجرئة، التي أكلها عدة مرات في تلك الأحراج.

– إنها غوتا. – أوضح اللبناني.

اقتربت فتاة الهوى ووقفت أمام الزائر.

– كنت تحب رائحتي، ألم تعد تذكر؟

تذكّر رائحة التبغ الطيبة. وحين تذكّر مدَّ يده إلى جيبه ومنح غوتا "كمشة" خمسة آلاف ريس، إنها ثروة. مع الجرعات الثلاث من التيكيرا التي صعدت من معدته إلى رأسه، فإن الدكتور – قامة الرجل: – كان يحس بنفسه خفيفاً وجذاباً. كلهم هناك خدم له. أما ما هو متعلق بأديلا، فكانت تشعل حتى أصابع رجليه. أمسك بالعقد الموضوع في جيب سترة الركوب، قبل أن يقدمه؛ سيضع في الداخل صورته لكي تضعها في عنقها، وبين النهدين: آه من نهدي أدليتا الحجريين.

أمام البيت الخشبي، استعاد مطيته، ورفض تناول القهوة التي دعته إليها كوروكا، ولكنه، متلبساً الطيبة، مازح المرأة:

– أما زلت حية يا كوروكا؟ وما زلت تعبثين يا عجوز النحس؟ – جميعهم هناك كانوا خدمه.

وأجابت العجوز:

– إنك تتكلم الآن لغة أستاذ لا يفهمها الناس هنا. من قبل عندما كنت صغيراً كنت تأتي لتتمدد في فراشي. من الذي علمك ما تعرفه عن النساء، أليست هي هذه العجوز النحس؟

خمسة آلاف ريس أخرى تبعثرت. معها تعلم وتدرب على تأخير اللحظة. اللواتي عرفهن قبل كوروكا كن يرسلنه عائداً بفتحة عين وإغماضة. استاء من الماضي.

– وداعاً كوروكا.

من أعلى سرج الجلد الناعم واللجام الفضي، وعلى متن مطيته العالية، وبينما يجول بنظره في المساكن ومكانات إقامة العمال، فإن الخريج أندرادي جونيور مدَّ يده إلى العربي فضول عبد الله مودعاً:

– لا أعلم ماذا يفعل شخص مثلك في هذه البؤرة التعيسة. إذا كنت تريد أن تربح مالاً، فلماذا لا تتخلى عن هذه الحفرة فتذهب إلى إيتابونا؟ – الجميع هناك كانوا خدمه. – إذا رغبت في الذهاب، اتكل عليَّ، هذا المكان لا مستقبل له ولن يكون مطلقاً أكثر من مكان ناء.

النقيب ناتاريو دا فونسيكا لم يسمعه يعبّر عن تلك، الآن: لقد كان يرتدي بنطاله، وينتعل جزمته. وفي الفراش، عارية، كانت برناردا تبتسم له.

9

لم يعرف النقيب شيئاً عن وجهة نظر الخريج إلا بعد عدة أيام وذلك عندما مرَّ من جديد بتوكايا غراندي. لقد عاد فنتورينيا إلى الريو دي جانيرو حيث كانت تنتظره دورة دراسية حرّة، والتعرف إلى

كبار الأساتذة، ونغمات أديلا لابورتنيا الساحرة، "أديلينا شوشا دي أورو"، والتعرف أكثر إلى العاهرات، وليالي التانغو والعبث.

وبينما كان يتلمظ بكأس تيكيرا، أشار ناتاريو إلى حالة الأستاذ الشاب النفسية في إيتابونا حيث تمّ الاحتفال به باهتمام كبير:

– إلى درجة بدا معها أن إلهاً صغيراً قد وصل إلى هناك.

أما ما هو متعلق بمستقبل توكايا غراندي، فإن رأي الخريج لم يسبب أية خيبة أمل للنقيب:

– اسمع مني يا عرّاب: البقاء معي مسألة أكيدة وأضمن لك أن فنتورينيا يستطيع أن يفهم النساء والقوانين، فهي أشياء دفع ثمنها مالاً كثيراً. ولكن عن زراعة الكاكاو وهذا العالم الناشئ فإنه لا يعلم شيئاً. – وهو ناتاريو كان يعرف بالتأكيد: – تستطيع أن تصدق ما أقوله لك يا عرّاب: إن توكايا غراندي ستصبح مدينة كبيرة.

خلال الليالي المتكررة، وفي مجاهل توكايا غراندي، فضول عبد الله يقتحم حرمة الآنسة أروزة

1

متعددة، وغير متكافئة، محاولات الشيطان، لإدخال مواطن صالح من الموارنة في التجارب، وعلى الأخص إذا كان لا يزال تاجراً حديث العهد أنزله الله ونسيه في قفا الدنيا: في صحراء نائية، كما عرفها بذلك فنتورينيا.

مستيقظاً أو نائماً على طموح الإثراء السريع، فإن فضول عبد الله عانى شتى أنواع التجارب في أزمنة البقرات العجاف الصعبة. حسابات غامضة على ضوء القنديل متعلقة بالأعمال، خداعات، أرباح، قروض بالفائدة، أثاث، ودكان أقمشة.

في سرير العازب، العريض، في توكايا غراندي، كانت عذرية الخطيبة المعروضة عليه، وملكيات الأرملة الموضوعة بين يديه، إذا تزوجها، والاثنتان جميلتان، وحاميتان، تغطيان على أفكاره التي كانت تشرد إلى عري نساء الحياة العامة والتي كانت زيزينيا دو بوتيا تتحكم بشرودها.

كانت أروزة، المولودة في إيلايوس، ابنة جميل سكاف صاحب محل بيع الأثاث والفرش المشهور: "أبريغريدا موفيس أي كولشاونز دي لوشو"، ابنة شرعية، وريثة وحيدة، خطيبة خجولة، ولا تزال عذراء: أبعد من العذرية كانت "الدوتة"، ليست خجولة إلى هذا الحد ولا عذراء بهذه المتانة، والمظاهر تخدع في الغالب، وليس من "دوتة"، تعادل "العشرينات"، المفقودة.

أما يسرى، الأرملة حديثاً والمغرية، احتراماً للفقيد فإنها كانت تمتنع عن الارتماء. كان زوجها الفقيد خليل رباط قد ترك لها إرثاً هو "البيت الشرقي" في شارع إيتابونا التجاري، ومجموعة من القرون تمنح منها في ليالي المطارحات لمن حلّ محله في شهادة الزواج المؤقتة وفي فراشها الزوجي وخلف مكتب الدكان.

متراوحاً بين الاشتباه في العذرية، وإغراءات الأرملة، وضع له قرناً مسبقاً، وأين رأيت مثل هذا؟ إن من يحفر الحفرة مساعد للبناء.

جميل سكاف، الأب الصالح، ويسرى راموس رباط الأرملة السعيدة كانا يمتلكان أفكاراً خاصة بهما، دقيقة فيما هو متعلق بالزواج والإرث المتناسبين، وفيما هو متعلق بدعوة ومواهب العرب التجارية. وهكذا وجدا في فضول المرشح المثالي، وأفضل الجميع، وأصبحا بفعل شيطان الطموح

أمام أصعب تجربة حين كادا يصلان به، وبفارق زمني قصير حال بينهما وبين المناسبة، إلى الكاهن والقاضي.

في إيلايوس، نجا فضول من إغراءات العذرية بأعجوبة حين وصل الخريج في اللحظة المناسبة. وفي إيتابونا، اكتشف قبل الأوان أن الشيطان يسكن في أجساد الأرامل: ولإطفاء النار الملتهبة لا يكفي لبناني عملاق الطاقة تقوم بخدمته في حالات الشبق عاهرات المنطقة.

كيف حصلت يسرى، السيدة الناضجة، والشكل الجميل على التفاصيل الثمينة المتعلقة بفعالية فضول عبد الله في كل أنواع التجارة وكذلك بمقاسه، وفي اللحظة الحاسمة؟ فهل تراها قد علمت بعلاقته بزيزينيا دو بوتيا؟ في غمرة مشاكل الحياة، تدخل أروزة سليلة الوالدين الغنيين، بزيها الموحد الأزرق والأبيض الخاص بمدرسة الإرساليات في إيلايوس، ويسرى، هي الأخرى، تدخل بفستان الحداد الأسود سيدة دكان، راقية، في مركز إيتابونا، فيا لزيزينيا دو بوتيا الحثالة في ركن الشارع، والمرأة الضائعة، كيف كانت في يوم موضع تقديره وثقته!

2

لدى مروره بإيلايوس حيث أتى ليكمل ملء مخزنه، ويسدّد المدفوعات ويرى البحر دعي فضول عبد الله إلى العشاء برفقة ألفارو فاريا، في بيت جميل سكاف، المواطن اللبناني الرفيع المستوى الحياتي، وصاحب محلات "أبريفيرينسيا" لتجارة الأثاث والفرش المزدهرة.

تفاجأ فضول بالدعوة التي وجهت له في مشرب "شيك"، عند الميناء، فقد تعرف بجميل منذ سنوات عديدة ولكنه لم يقم معه علاقات صداقة حميمة. كانا يلتقيان أحياناً في شؤون حياتية وأخرى في أماكن "الموت" كالمشارب والملاهي، أو نزل فتيات الهوى، فيتصافحان، ويقدمان التحببات الواحد للآخر، هذا ولا شيء آخر. في المشرب، بينما يحتسي ما يفتح شهيته للطعام، وقد قرّر الغداء في "تاشودي بيبي" سمكة حارة سيلتهمها مع البيرة، فإن فضول كان يتمتع بلحظات السعادة المطلقة للتبجيل الروحي العالي الذي يسمعه من ألفارو فاريا، رجل المعرفة العميقة والإنتاج القليل. ولم يكن من يضاهي ألفارو فاريا في نقاش فكري، ومبادلة عواطف سامية، سوى فؤاد كرم؛ فواحد في إيلايوس وآخر في إيتابونا، وكل واحد أكثر علماً وروحانية من الآخر: إنهما منارتان.

– تأكل وتشرب بشكل ممتاز في بيت جميل – أسرّ ألفارو في أذن فضول – وأما ابنته فمتألقة تبهر النظر. وبقامته القصيرة وشاربه الكث، وحيويته الجسدية، فإن مواطنه اللبناني كان قد وجه له

الدعوة واستطرد أن بعد العشاء يمكنهما أن يذهبا معاً إلى نزل تيلدي الذي تمّ تدشينه حديثاً ويمتاز برفاهية الفرنسيات العاملات فيه.

3

بالرغم من أن المدعوين كانا هما وحدهما، ألفارو وفضول، فإن العشاء اتخذ شكل حفلة كبيرة تميزت بتنوع الصحون العربية والبرازيلية ونوعية الحلويات وجودتها، فأفرط فضول في الأكل.

عندما ذهب في تبجيل الجودة الممتازة للكبة، والطعم الإلهي للقطايف المحشية باللوز والممزوجة بالعسل، حلوياته المفضلة، عرف فضول أن ابنة أهل البيت الوحيدة، تلميذة دار المعلمات، هي التي جهزت العشاء: إنها طباخة ماهرة وسيدة من سادات الفرن والنار. وقد تمّ مساعدتها طبعاً بعدد وفير من الخدم.

أثناء العشاء، حافظت أروزة على نفسها منعزلة، لا موضوع لها، وهي تجيب بلفظ مفخم عن الأسئلة التي يطرحها عليها. ولم تكن تضحك حتى عندما كان الآخرون يقهقهون لبيارق الكلام المؤنسة والأقوال الجيدة التي يطلقها ألفارو فاريا. وقبل أن يجلسوا إلى الطاولة، سمع فضول على لسان جميل سكاف الإطراء على مواهب ابنته التي يعتز بها كثيراً:

– في كانون الأول/ديسمبر المقبل ستتدرج إلى معلمة؛ تعزف على البيانو، وتلقي الشعر ارتجالاً. إنها مثقفة جداً، ولم أنفق المال هباء.

سكت فضول كما لو كان يحسب كم صرف جميل من المال على تربية وريثته، ولكنه ما لبث أن استطرد مستكملاً تعداد الفضائل:

– مخلصة، شغولة، ومطيعة.

لم يتطرق لموضوع الجمال، فقد صدم فضول عندما دخلت إلى الغرفة وقام جميل بالتعريف:

– هذه هي ابنتي أروزة يا صديقي فضول:

مدَّ فضول يده الكبيرة، وابتسم تهذيباً. ألفارو فاريا كان على حق: كانت أروزة باهرة الجمال حقاً: شعر سابل، شفتان لحميتان، عينان دعجاوان، وخصر أهيف، ونهدان كبيران، السترة بيضاء، وردفان قويان تحت التنورة الزرقاء.

لقد وجد فضول نفسه أمام التشخيص الحقيقي لمفهومه الجمالي. سعيد من يتزوج منها؛ ثم أكمل جميل التعريف:

– هذا هو صديقي فضول عبد الله الذي حدثتك عنه.

منحته أروزة نظرة خاطفة، وجاء صوتها خافتاً:

– سعيدة.

جميلة جداً، وليس في إيلايوس فتاة بجمالها، وفتش فضول في رأسه عن تعبير دقيق لتحديدها، فوجده في التراث العربي: حورية. أميرة مسلمة.

4

انتهى حفل العشاء برضى الجميع، فدعا جميل سكاف المحتفى بهما إلى تناول القهوة في غرفة الاستقبال التي تفتح للمناسبات الاستثنائية؛ وإلى هناك اتجهوا.

– إلى أين تذهبين يا أروزة؟

كانت أروزة قد بدأت تجتاز الممر المطل على الخارج. توقفت وأجابت أباها دون أن تنظر إليه:

– إني ذاهبة إلى بيت بلينيا وسأعود بعد قليل.

– لا تذهبي. لا يا سيدتي. لدينا مدعوون، ومكانك هنا.

قطعت أروزة طريق الذهاب وعادت لتجلس. وبعد أن لملم فناجين القهوة أعطى جميل أوامره إلى الابنة.

– افتحي البيانو واعزفي بعض الموسيقى ليسمع الأصدقاء.

متوازنة، أطاعت الصبية. وبدأت بعزف مقطوعة "بريماكريسا". ضرب ألفارو فاريا بكفيه بحماس؛ كان العزف في الحقيقة رائعاً. ثم أعقبت المقطوعة الأولى، مقطوعتان "سوبري أس أونداس"، و"من أجل إيليز"، وأرادت أروزة بعد ذلك أن تعتبر الحفلة منتهية ولكن جميل فرض شيئاً آخر:

– ومقطوعتي؟ ألن تعزفيها؟

فتحت البيانو من جديد، وعزفت "النشيد الوطني اللبناني" فجاء الحماس جماعياً. وعندما انتهى العزف، وبينما فضول وألفارو يصفقان، وقفت الفتاة، واتجهت نحو الأب؟

– هل أستطيع أن أذهب الآن؟

معاندة؛ لاحظ فضول أن الضغط بدأ يتصاعد في الغرفة. وتماوج صوت جميل بمسحة من الغضب بالرغم من الابتسامة التي تلطت وراء شاربه:

– لا الآن ولا بعد. اجلسي هنا وتحدثي مع فضول.

بعدما قال هذا تمادى جميل في محادثة سياسية محلية مع ألفارو فاريا. تبادل فضول وأروزة بعض الكلمات، فحاول أن يثير اهتمامها بالتوراة والقرآن دون أن يفلح في ذلك. لم تكن تبدو كمن يصغي إليه، بل كانت تعض على شفتيها: طالبة معاقبة، وعذراء قلقة، مهددة في أحلامها ومشاريعها.

منشغلة النظرات، فإن السيدة جوردانا، الأم، كانت تمط بفمها ابتسامة للمدعو، ولم تسمح بأن يطول الصمت فلاحظ جميل ذلك. لقد وجدت موضوعاً على ذوق فضول هو الحلويات العربية: فوصفت طريقة الصنع، وناقشت تفاصيل العسل والسمسم.

لم تكن الأم سمينة حسب، لقد كانت مترهلة، ولكنها لا تزال تحتفظ على وجهها بمسحة جمال. عشرون سنة مضت عندما فرض عليها أبوها الزواج من جميل فاستجابت له مطيعة، مع العلم أنه لم يكن في إيلايوس حورية أجمل منها وأكثر جاذبية وإغراء.. لقد جاءت أروزة شبيهة الشكل بها ولكنها ورثت عن أبيها الثبات والتحفظ.

في الخارج، في الشارع، كان أحدهم يصفر بإلحاح جزءاً حيوياً من "النشيد الوطني اللبناني".

5

في الطريق إلى نزل تيلدي، قلعة الفرنسيات، المزيفات، ولكنهن مغريات، والمكان الذي لا يعلى عليه رهافة وبذخاً، "أو – نون – بلو – أولترا" على حدِّ تعبير ألفارو فاريا، أوقف جميل سكاف الخطو، وأخذ فضول من ذراعه وبعصبية أراد أن يعرف كيف رأى أروزة.

– إنها قطعة من الجمال، حورية. ولا نتكلمن عن الحيوية.

وفرحا بالجواب أراد مواطن فضول أن يعرف:

– هل تريد أن تتزوج منها؟

وتابع بصوت مذبذب، ومنفعل:

إن محلات "أبريفيريدا" محلقة بعائداتها، وسأفتح فرعاً آخر في إيتابونا كما أنني زرعت حقولاً واسعة بأشجار الكاكاو. أروزة ابنتي الوحيدة.

– ثم كرّر السؤال: – هل تريد أن تتزوج منها؟

إحراج غير متوقع، جعل فضول دائخاً إلى درجة أنه لم يعر الفرنسية التي جاءت تستقبله أي اهتمام. ولكنه فيما بعد، وفي غرفة فندق "ممادي"، علم أن جميل سكاف قد قرّر أن يختار خطيباً

لأروزة.

أن يختار جميل خطيباً لابنته ويفرضه عليها، فهو إجراء عادي، صحيح وعادل، ويستحق التصفيق. إن الأب المحافظ، المنشغل الفكر بسعادة ومستقبل أروزة، هكذا يتصرف ليكفل لها زواجاً مباركاً وحياة هادئة واستمراراً بالعيش الكريم. إن التقليد الجيد الذي تمّ اختياره والتصديق عليه، ولا مجال لمناقشته كان يأمر بأن الوالدين المسؤولين عن مصير البنات يجب أن ينقبا عن ذكور المملكة الذين لا يزالون عزاباً وأن يختاروا أفضلهم ليعرضوا عليه الخطبة "والدوتا". بعض الآباء كانوا يتحفظون من الواجب الأبوي هذا ويتركون لبناتهم الناهدات، الخفيفات، غير الناضجات، حرية الاختيار والقرار في موضوع بهذه الأهمية. ومن هذه التنازلات كانت تحصل زيجات غير سعيدة؛ زوجات مهملات، وحياة عائلية مفككة والإرث غير العادل، وثروات مبددة. إن جميل سكاف بالتزام ووعي يفتش عن الأفضل في مملكة الكاكاو فوقع اختياره على فضول عبد الله في قفا الدنيا.

ظلّ فضول يفكر، وهو في المرة المقبلة سيعطي الجواب. وبعدها شكر جميل على الشرف الذي منحه إياه والثقة التي وضعها فيه.

6

في صبيحة اليوم التالي، بينما كان يتوجه إلى محطة القطار، اجتاز فضول عبد الله طريقاً يمر قرب "لافاديرا دا كونكيستا" حيث تقع مدرسة سيدة الرحمة للراهبات، وحيث كان يتم تخريج معلمات الصفوف الابتدائية فتمنح المدرسة الألعاب والشهادات إلى الطالبات الغنيات في إيلايوس ومنطقة الكاكاو اللواتي كن يدرسن هناك ضمن نظام داخلي وخارجي. صباحاً ومساءً كانت الطالبات في النظام الخارجي يصعدن ويهبطن لاديرا في تزاحم شبابي نشيط. وعند الأسفل من المكان كان يحوم المرتبطون والمفتشون عن الفتيات.

عندما رأته يحمل الحقيبة، وبهيئة بائع "الكشة"، ووضع يده على قبعته لتحيتها، تركت أروزة صوتها ينطلق بصرخة صغيرة – ربما بسبب اليأس أو الغضب، وكشفت عن شخصيته إلى زميلتها التي لم تكن إلا بيلينيا الجارة وكاتمة السر. كانتا تتكلمان عنه. وتابع فضول طريقه إلى المحطة، وهو يحمل في عينيه مرأى الفتاة المرتدية الزي الأزرق والأبيض.

في ساعة الاستراحة، وفي الركن المفضل تحت أشجار المانجا، اشتكت أروزة من واقعها. ولم تجد بيلينيا حلاً للمشكلة، ولكن أوتا روزا، الطالبة الداخلية، وضعت في الحال حلاً لمشكلة المولهة

المسكينة، ويمكن أن ينقذ الحل أروزة من الزواج من خطيب اختاره الأب. كانت بيلينيا قد رأته في لاديرا فأكدت: هامة كبيرة غير متناسقة، ومخربط الملامح، إنه عكس الخريج المدلل التي كانت أروزة تتنهد له وهو يتنهد لذكر اسمها.

إن الخطوة السيئة وحدها هي الحل الجذري والفوري الذي طلعت به صراحة أوتا روزا. إنها الخطوة التي تقتضي الشجاعة والقرار: وهي عليها أن تواجه العائلة والمجتمع.. كانت أوتا روزا، حسب قول الأم "أنا دي جيزوس" كلباً بشكل إنسان. فهي مقفلة بسبعة مفاتيح وخلف جدران المدرسة كانت تتمكن لا من المغازلة مع الحبيب حسب ولكن من موافاته بالسر. ولو لم تكن كذلك فكيف كان يمكن لمحرر ومدير إخراج "غاريتا غرابيونا" أن يشير في رسائله بتعابير مولهة ورذيلة إلى تفاصيل تشريحية في جسدها وفي الأماكن المخبأة بتحفظ شديد تحت الزي الموحد؟ وبينما تقرأ الأوصاف الملهبة، فإن الأم "أنا دي جيزوس" قد ارتكبت الخطيئة مرتين: في المرة الأولى عندما قرأتها وفي المرة الثانية عندما أخفتها عن الأم الرئيسة إذ كانت ضعيفة أمام الطالبة الخفيفة والطائشة ولكنها ذات قلب ذهبي. والأم "أنا دي جيزوس" قبل أن ترتدي ثوب الراهبة كانت هي الأخرى صبية ومغرمة.

فصيحة ومقنعة، فإن أوتا روزا كانت تعطي التوجيهات. وكانت أروزة تصغي إلى نصائحها الشيطانية مسحورة بها.

7

في وحدته الموحشة في توكايا غراندي راح فضول يحصل على أروزة بشكل متواصل. وخشية إقلاقها أو إثارة ردود فعل عصبية من جانبها، جهد فضول في أن يكون مرهفاً وحذراً في الوصال الأول بينما يعريها من زيها الأبيض والأزرق. ملامسات، قبل في المطارح الحساسة، ومداعبات خفيفة تساعد على اكتشاف الكنوز المخبأة: لذة من عند الآلهة. رويداً رويداً منحت العذراء نفسها وتحول الطهر إلى رغبة.

كان فضول يصبح على وسائد خاسفة لكثرة تماديه؛ حدث له أن بدأ يسيطر على العذراء ويدعوها إليه خلال الحلم، وانتهى بالاستحواذ عليها متيقظاً وعيناه مفتوحتان. في توكايا غراندي، وخلال شهرين كاملين فإن عذرية أروزة سكاف غدت في يد اللبناني القاسية الجلفة.

والأحلام لا تختصر دائماً باللذة والمتعة، فوفقاً لما هو معلوم، فقد علم فضول أن المدعوة سيروكا ماتت أثناء عملية إجهاض. وهذه المسائل تحدث.

في بعض الليالي وفي الساعة المحددة التي كان يأوي فيها فضول إلى الفراش كانت زيزينيا دوبوتيا تنتفض في الفراش دون أن يكون قد استدعاها.

لماذا عرض جميل سكاف نعمة الزواج من ابنته الوحيدة، وشركة "أبريفيريدا" في إيتابونا للإناث، والثروة الفورية والسهلة؟ لا بدّ من أن يكون هناك سبب خطير، وماذا يمكن أن يكون؟ كانت زيزينيا دو بوتيا تضحك في وجهه: اذهب وغطِّ بجسمك الضخم وطموحك دعارة ابنة مواطنك اللبناني، أيها الدماغ الصغير، الأبله المرتزق. إنك من أجل المال تستطيع كل شيء أو أنك تعتقد أنني لا أعرف هذا.

من جهة ثانية كان إله الموارنة ينتفض في تلك الليالي راكباً على جواد مطهم، فيظهر له في الليالي المظلمة كشعاع أو ومضة نور لكي يفي بالوعد الذي وعده به.. وإذ كان إلهه قد اجتاز الغابة عبر شعابها الصعبة وقاد عبد الله فضول من يده إلى المكان الذي هو أرض ميعاده: ربح المال الشريف بالعمل والعرق والإثراء دون أن يكون له شريك، وزوج امرأة لبقة الحديث.

غيوم واسعة تنتشر كثيفة في السماء، وإله الموارنة يتحول إلى غيوم ومطر عند الفجر تاركاً اللبناني يقضم ويهضم العذارى وخيبات الأمل.

8

بعدما عانى ما عاناه ووزن ما له وما عليه، وعندما قرّر فضول أن يعود إلى إيلايوس ليعطي جواباً إيجابياً على مشروع الزواج الذي عرضه جميل سكاف، حدث أن مرَّ العقيد روبستيانو دي أراجو بتوكايا غراندي، فأوقف مطيته أمام دكان فضول ليبلغه رسالة كان قد أرسلها الصديق اللبناني ألفارو فاريا عن زواج ابنة جميل سكاف وتفاصيل الحفل.

من؟ أروزة؟ ولكنها إذا لم تكن مخطوبة منذ شهرين فكيف تتزوج هكذا وبهذه السرعة؟ وضع العقيد روبستيانو دي أراجو يديه على بطنه بحركة تعبيرية.

حامل؟ إذا لم تكن، فإنها الآن وفقاً لما كانت الألسن السيئة تردد. إن أروزة والدكتور ناسيمنتو المحامي دون قضايا واجها دموع السيدة جوردانا وغضب جميل سكاف واعترفا بخطوتهما السيئة ثمرة الحب اليائس.

ولم يفد التهديد والوعيد بشيء، وجميل سكاف الرجل العملي استعجل الزواج لكي تتمكن ابنته من ارتداء فستان الزواج الأبيض محاطة بالقداح غير المفتح دليلاً على كونها عذراء. وإذا تأخر، فإن بطن الابنة قد يصبح شاهداً على غير ذلك، ومن أجل هذا قاموا باللازم.

أصغى فضول ولم يعلق بكلمة. ترك التقدير والدندنات ريثما تختفي مطية العقيد في نهاية الطريق: "ك. أم أبوك يا بنت الشر..!" ومنذ ذلك الحين لم يعد يحلم بأروزة. وعادت زيزينيا دو بوتيا لتتحكم وحدها بالفراش العريض خلال ليالي الوحدة في توكايا غراندي.

يسرى راموس رباط، أرملة ووريثة خليل رباط
تذهب إلى توكايا غراندي

1

تعرف فضول عبد الله بيسرى راموس رباط، أرملة ووريثة خليل رباط في معرض تاكاراس بينما كان يناقش عملية شراء حمارين ضروريين لنقل البضائع إلى توكايا غراندي ولكي يستخدمهما كمطية. وكان قد اختار الحمارين بإصبعه، وتفحص الأنياب والحوافر وفقاً لما أوصاه به النقيب ناتاريو دا فونسيكا، ثم وهب نفسه لمتعة مناقشة السعر مع مانويل دا لابا، وهو يشير إلى مواصفات سيئة خيالية في الحمارين ويشك في المواصفات الجيدة التي لا تقبل الجدل.

– أشفق عليَّ يا سيد فضول وادفع لي فقط سعر الشراء.

– لا أضيف قرشاً واحداً على السعر.

وكانت يسرى، مثلما يسميها الناس، جنية، وأنثى تملأ عين أي إنسان ينظر إليها: لون برونزي أحرقته الشمس. وإذ رآها فضول تمشي باتجاهه عبر البغال والجياد والمهور لتقف أمامه وتتأمل فيه بتفرس، أحس فضول بالقلق وكادت مناقشة العملية الجراحية تمر كما الماء بين العشب، ثم أصيب بالذهول لا حول له ولا قوة. وإذ شعر مانويل دا لابا بالخطر قرّر أن يقبل بسعر فضول حتى لا ينتهي إلى: "سنرى فيما بعد".

– هل أتكلم مع فضول عبد الله؟ بدأت يسرى بالسؤال ثم أطلقت ضحكة خفيفة ومغرية وبنغمة ممتعة.

كانت عيناه تلمعان متجاوبتين مع صوتها الدافئ المتماوج الميت بين الكلمات التي تمطها يسرى، فيتمطى الصوت على لسانها ويتثاءب؛ إنها الدلال بعينه في معرض تاكاراس. من لم يكن يعرفها، كان يحس نفسه مستعداً لحمايتها فور مقابلتها وسماع صوتها للمرة الأولى، لحمايتها ضد أعمال الخديعة والخيانات والرغبات، وفضول لم يكن يعرفها، ولم يكن قد رآها من قبل.

بجهد، تمكّن اللبناني من انتزاع قبعته لتحيتها بلباقة وتهذيب. ثم راح يتأمل فيها من أعلى إلى أسفل محاولاً أن يتكهن بها وهي خلف ملابس الحداد التي تحويها، ولكنها في بريق العينين ولحم الشفتين لم يكن ممكناً العثور على أي دليل على الدموع أو الشوق إلى من فقدت. في يدها سوط بمقبض فضي، وفي فمها المعجج نصف المفتوح الأسنان الكاملة البيضاء: أسنان للعض.

– لقد سمعت الكثير عنك. إن اسمي يسرى. هل عرفت خليل رباط صاحب الدار الشرقية؟

– عرفته. عرفته شكلاً لا بعلاقة عمل. عرفت أنه مات.

– إني أرملته. ولا أعرف شيئاً عن التجارة. يا ويلي!

مدّت السوط، ومسّت به صدر العملاق، وفي الوقت نفسه وقحة وحازمة:

عندما تذهب إلى إيتابونا تعال لزيارتي. سأريك المحل. إني أفتش عمن يساعدني: لا أحد يحمل أرملة في عالم الأعمال على محمل الجد. يا تعتيري! أدارت له ظهرها ونظرت إلى حيث كان سائس يمسك بحصانها المطهم. وقبل أن تمتطي الحصان نزعت يسرى شالها بحركة مفاجئة وجعلت شعرها الأسود يسترسل خلف ظهرها طويلاً حتى الزنار. وبلع فضول على الناشف مهتماً بالتجسس. وساعدها السائس على الامتطاء فوضعت رجليها في المهمازين واستوت فوق السرج. أدارت رأسها إلى مواطنها اللبناني وقامت بحركة وداع. بعد دقيقة لم يعد لها وجود هناك.

وبينما مدَّ مانويل دا لابا يده ليستلم سعر الحمارين، علّق:

– امرأة نادرة.. إنها مفاجأة يا سيد فضول.

وإذ امتطى حماراً وقاد الآخر اتجه فضول إلى توكايا غراندي: يا تعتيري! إني مزروع في قفا الدنيا...

2

خلال الخمسة عشر يوماً التي عقبت اللقاء في معرض تاكاراس، فإن يسرى راموس رباط، الأرملة الوريثة، أزعجت ساعات فراغ عبد الله فضول. أية نوايا أفرزت تلك الحركات والكلمات، وتلك النظرات اللحوحة، وتلك الرخامة في الصوت.

إن "يا تعتيري"، التي قالتها ورددتها مستنكرة الترمل والتجارة، المشكلتين الكبيرتين: عمَّ كانت تفتش؟ ولأي غرض دعته لزيارتها في إيتابونا؟ ربما لتعرض عليه وظيفة في "البيت الشرقي"، أو ربما لتعرض عليه فوائد المبيعات، ومشاركة صغيرة في الأرباح؟ إن العمل للآخرين لا يغريه، وهو يفضل المراوحة دون تعب في مملكته، وخلال أيامه في توكايا غراندي، دون أن يكون هناك من يقدم له الحساب.

أو ربما كانت تفتش عن زوج يهتم بها وبتجارة الأقمشة كونها أرملة عصرية؟ شابة، غنية، وجميلة، لا بدّ أن يكون في مدينة إيتابونا ومرفأ إيلايوس، مجموعة من المرشحين الذين يرتمون

على قدميها، فلماذا عليها أن تسعى وراء تاجر صغير في معرض تاكاراس وسط البغال والحمير؟ كان يمكنها أن تفتش عن أحد وسط المزارعين الكبار، والتجار المعروفين والخريجين والأطباء؟ وبإمكانها أيضاً أن تتعامل مع محاسب لمدة جديرة بالثقة.

مع كل ذلك سيذهب لزيارتها في إيتابونا عندما يمر من هناك على الأقل لرؤيتها وليمتع نظره بتلك المرأة الوقحة: الإنجاز، الصدفة الرائعة، كما قال له مانويل دا لابا. وعندما كان فضول يعي شروده فإنه كان يحوله إلى لهاث الأبدي خلف زيزينيا دو بوتيا التي كانت تفتش عنه لتهرب من الفراش عندما يقاربها.. ولم يتمكن فضول من صهر الحديد والتأكد من لون اللظى الذي كان يشع في نيران عيني يسرى: أرملة شريفة وحسنة السلوك، مثلها لم يرَ قط..

3

وبينما هو جالس على عتبة الباب كان يفكر في يسرى، وشعور غامض عبر دخان النرجيلة اعتراه عندما رآها بلحمها وعظمها تترجل عن حصانها المطهم وهي توكل بالرسن إلى السائس. كان فضول عبد الله قد وصل لتوه بعد أن استحم في النهر وكأن شيئاً ثقيلاً يزن في خصيتيه. مع الضوء الباهت عند الغروب كانت توكايا غراندي تغرق في الصمت.

لم يظهر فضول أنه تفاجأ أو انبهر بقدومها واعتبر الأمر طبيعياً. حتى إنه تخلى عن التحديق فيها وهو يتابع بنظره السائس الذي يمتطي حماراً ويقود الحصان من رسنه إلى ظلال الأشجار القريبة. ولكنه فجأة انتبه إلى المشهد المفاجئ. وفرك عينيه، ونظر إلى المرأة التي كانت تسير في اتجاهه.

– لماذا لم تذهب لزيارتي في إيتابونا؟ لقد انتظرتك بلا فائدة.

– لم أذهب إلى هناك حتى اليوم...

– ما دمت لم تذهب، فأنا التي جئت، يا "تعتيري". – وجالت في المكان: – يا لهذا الموقع التعيس. ماذا تفعل دفيناً هنا؟

هزَّ برأسه غير موافق. وقبل أن يجيب، تابع:

– هل ستبقى واقفاً هنا؟ ألا تدعوني للدخول؟ ألا تقدم لي شيئاً أشربه؟

– ثم دخلت.

وقفت أمام الواجهة تتفحص السلع المعروضة للبيع، قليلة ومختلفة، فهزت برأسها إشارة إلى عدم الرضى ولكنها لم تقم بتعليقات.

وإذ لا يزال مرتبكاً رافقها فضول. يا إله السماء! هل كانت الحقيقة أم أن الشمس قد ضربته وجعلته يرى وجوهاً على ضوء النهار؟ لا يعرف ماذا يقدم لها – لم يكن عنده شيء جدير بها – فسأل:

– ماذا تريدين؟

– أقبل بجرعة ماء من الإبريق. – وأشارت يسرى بإصبعها إلى إبريق فخار عند ضلع الشباك الأسفل. واستدارت حول واجهة البار ودخلت البيت وهي تبعد من أمامها الأثاث المترامي واجتازت عتبة غرفة النوم:

– إني أحب الفراش العريض، ولكن فراشاً بهذا الحجم لم أرَ أبداً.

– ليتسع لي. – افتخر فضول وهو يقدم لها إبريق الماء البارد.

شربت يسرى الماء جرعات صغيرة وهي تمد بلسانها إلى شفتيها كأنها تتذوق نبيذاً نادراً، بينما عادت تتأمل في اللبناني، وتقيمه، وتقبل به راضية، وفمها مبلل ونصف مفتوح، وعيناها نائستان:

– إن هذا الفراش يتسع لاثنين بحجمك ويزيد.

وضحكت ضحكة معانٍ مضمرة، وسميكة، وأعادت له الإبريق.

– شكراً. عندما تذهب إلى إيتابونا لا تنسَ أن تمر لرؤيتي حتى أريك المحل؛ لا أعرف كيف أهتم به وحيدة. – كانت تردد ما قالته في معرض تاكاراس: كانت تعرض عليه وظيفة في المحل، أو من يدري، تعرض يدها للزواج؟

– متى تظهر هناك؟

جعلت صوتها أكثر نعومة، طلبت وأنذرت:

– لا تتأخر، اذهب إلى هناك بأسرع وقت. لا أستطيع الانتظار طيلة الحياة. "يا تعتيري".

استدارت نصف استدارة متأهبة للخروج من الغرفة والانسحاب من توكايا غراندي. فاهتزّ اللبناني:

– هل تذهبين الآن؟

– لماذا أبقى؟ ولأفعل أي شيء هنا؟ مررت فقط لأراك.

أظلمت في عيني فضول اللتين أظلمتا بفقدان الصبر والشبق. ودون أن يكلف نفسه عناء إقفال الباب توجه نحو يسرى وأخذها بين ذراعيه. لم تستسلم ولم تمتنع، واكتفى بأن يقول بذلك الصوت المتلوي، صوت من يحتاج إلى مساندة وحماية:

– أشفق عليَّ. ألا ترى أنني أرملة وأنني بحاجة إلى أن أتزوج من جديد؟ إذا فقدت رأسي فكيف ستكون الأمور لاحقاً؟ "يا تعتيري" فأنا لا أستطيع حتى أن أحب..

لم يجب فضول وحافظ على الصمت: كان يمكن للمحادثة أن تنتظر ولكن ليس ممكناً له الانتظار. أخذه الغضب، وقدحت عيناه شرراً؛ أحس بجسد المرأة يرتعش. نزع عنها القميص فارتعصت يسرى ارتعاصة خفيفة. ثم نزع عنها التنورة فظهر لباسها الأسود هو الآخر أسود اللون.

ولوى بها فوق الفراش ليس عليها سوى جزمة ركوب عالية تنتعلها ولم يضع فضول الوقت لينزعها عنها. ودام الجنون طيلة ساعات الأصيل.

4

– يا ويلي، ماذا فعلت، يا إلهي كم أنا حمقاء؟ أرملة بلا عقل، جئت أفتش عن زوج وها أنا أخرج ملطخة بالعار. يا ويلي، "يا تعتيري".

نظرت بعينين مبللتين بدموع خفيفة إلى اللبناني الممدد قربها عندما عادا من اجتياز الصحراء والمحيط للمرة الأولى. وقبل أن ينزع لها جزمتها استأذنها ليقفل الباب أخيراً. وكانت يسرى ذات طاقة على الكلام سهلة الاستعمال وكان يرافق كلامها تباكٍ وشكوى، بهما كانت تتهم نفسها وتحتزن:

– الآن وقد حصلت على ما تريده مني، يمكنك أن تتخلى عني، وتحتقرني، وتدعوني "عاهرة" وترمي بي إلى الخارج. إن الذنب ذنبي أنا، لقد كنت في حالة جيدة في إيتابونا، فماذا جئت أفعل هنا؟ جئت أرمي نفسي في التعاسة في حين أنا بحاجة إلى زوج يهتم بي ويقوم بأعمال المحل. إني ألعن اليوم الذي رأيتك فيه وفقدت صوابي.. غدوت مجنونة، بلا رأس، وغير قادرة على السيطرة على نفسي. فقدت كل قواي في المقاومة، فانزلقت. يا تعتيري، لقد انزلقت.

لم تكف عن لوم نفسها بينما كان الرجل قد نهض من الفراش وأقفل الباب متبختراً. لاحظت أنه، عارياً، يزداد حجماً. من الفراش كانت تنظر إليه متفحصة، إنه زوج ونصف، شغول وفطري، متحفظ وأبله، تماماً مثل خليل رباط التافه السعيد الذي ولد ليكون تيساً ذا قرنين. بغية الحصول

على ذلك الجذع الضخم جاءت يسرى بيدين مليئتين: وجه بهي، ليونة جسد، ومال لا يحصى، ومحلات تجارية مليئة بالأقمشة التي تجعلها أكبر محلات إيتابونا وأشهرها، الوقاحة والدلال، واللهيب الجنسي. ماذا يريد "دكنجي" تافه يعيش بين الصناديق الفارغة أكثر من هذا كله؟

لم تبدُ له تلك الساعة مناسبة للتحدث عن شرف الأرملة المفقود وعن كيفية استعادته، فظلّ اللبناني يصغي بصمت، بصبر جميل إلى المرثية التي لا تنتهي. ولم تتوقف يسرى عن النواح إلا عندما نزع عنها جزمتها بعناية مجانية..

– أنا المذنبة. لم أهرب في الوقت المناسب. لا يهمني. لقد انتهى الأمر.

صمتت متواجهة مع فضول، ثم ارتفع صوتها من جديد:

– لقد أضعت شرفي.. إنني بين يديك.. – لاطفت وجه فضول واضعة عسلاً في فمها لتتكلم: – ولكني لست نادمة، لقد أعميت بصري وأغريتني.

حتى وإن ضاع شرفي فلست آسفة – كلمات جميلة يسمعها: كلمات تشرح الصدر، وتبعث الحرارة في القلب، وتحرق خصيتي رجل جيد الفراش. بالرغم من الحذر الذي تعود أن يخوض به النقاش في مثل هذه الأحاديث الدقيقة والخبيثة، قرّر فضول أن يعد بشيء، ربما ليفي بالوعد، من يعلم، وبعد أن يكون قد استوضح بعض التفاصيل:

– لا يهم. إنني سأذهب في الأيام المقبلة إلى إيتابونا وهناك سنتحدث وسنضع الحلول. لا تهتمي للمحلات التجارية.

– أصحيح ما تقول؟ هل ستهتم بتجارتي؟ هل ستهتم بي؟

– كوني مطمئنة.

ولم يزد شيئاً.

5

جاءت مهتمة بتدبير زوج لها. اقتنع فضول بذلك وهو يصغي إليها يائساً. زوج يضع حداً للحالة التي تعيشها أرملة، ويتحمل مسؤولية المحل التجاري كافلاً بذلك تحقيق الأرباح. ولكي تتمكن منه فإنها كانت تراهن الرهانات الكبيرة على جسدها وشرفها. هل هي معرفة بديهية أو عبقرية متفوقة؟ حسنة النيَّة أم سيئتها؟ وهل هو الوله المفترس أو اللعبة المحسوبة.

أنهت الحداد وبدت يسرى نبيلة رومانطيقية وهي تعلن حبها من النظرة الأولى:

– جئت إليك لأنني من اليوم الذي رأيتك فيه في المعرض أصبحت ضائعة، ولم يعد لديَّ عقل لأفكر في شيء سواك. وها أنا الآن بين يديك لأغدو سعيدة أو لأنأى عنك دفعة واحدة.

– ثم عادت تسأله: – هل تريدني أم أنك ستتنكر لي؟

لم يكن الوقت مناسباً للتفكير واستجلاء الشكوك والظنون والتردد وبنوع خاص لم تكن الساعة مؤاتية لعقد اتفاقات. وبدلاً من أن يجيب عن التوسل المحزن فإنه أخذها بين ذراعيه ولم يعد بمقدوره الانتظار وإن دقيقة إضافية واحدة. فأعطته شفتيها العريضتين ولسانها المتلوي وأسنانها الحادة.. فسرح هناك وتجاوز المكان.

هل يكون ذلك التملق اليائس والامتلاك المجنون لها جواباً إيجابياً؟ أجل، وبالتأكيد، فكيف يمكن لفضول أن يعيش بعد اليوم يتيماً دون تنفس يسرى وعرقها وعطرها ودوخانها؟ الجسدان ملتصقان يطوفان رمال الصحراء ملتقيين بماء المحيط مدركين نهاية العالم بوله ولذة؛ إنهما طاقتان جبارتان: مهر بري وفرس شبقة.

عندما أتى المساء أعادت يسرى نفسها إلى الأناقة الصاعقة وامتطت جوادها الأصيل الذي كان السائس الذي يرافقها يعتني به، بينما قرّر فضول أن يقبلها قبلة الوداع:

– بعد عدة أيام فإننا سنضع حلاً لكل شيء في إيتابونا.

قبل أن تخرج من هناك، فإن يسرى ألقت رهانها الأخير على الطاولة، بل قل فوق الفراش، وبينما كانت ترتدي بنطالها الضيق، وتضع السترة ثم الجوارب السود، لتظهر بمظهر الأرملة الشريفة التي لا يمكن تعزيتها فإنها أنذرت فضول بأن ما حدث لن يتكرر، فمن يريد أن يتمدد معها للتلذذ بالطيبات واللهو الممتع يتوجب عليه قبل أي شيء أن يأخذها إلى الكاهن والقاضي. إنها لم تعد قادرة على تعريض نفسها لأفواه الناس واضعة القرون لميت: لم تجعل من خليل رباط في حياته تيساً ذا قرنين، وهي ملزمة على احترام ذكراه وهي مضطرة إلى أن تتصرف هكذا حتى لا تدع مجالاً للناس يتكلمون. إنها لم تعرف في حياتها أحداً غير زوجها. وفضول كان الأول والأخير ولمرة واحدة عندما أعمى الوله بصيرتها وفقدت عقلها واستسلمت. كلا إنها لن تعود إلى تكرار ما حدث! ففي الفراش من جديد سواء بين ذراعي من تحب أو ذراعي أي واحد آخر ربما يكون مواطناً شغولاً وذا محتد يعرض عليها الزواج. فقط بعد أن يكون قد تمّ التوقيع على عقد الزواج، وأبداً كما حدث الآن. كزوجة، أجل، وكعشيقة، فلا... آه يا تعتيري!

لكزت الجواد الأصيل يتبعها السائس على عجلة للوصول إلى إيتابونا والنظر إلى الخطيبات الجميلات. فإذا لم يكن فضول صادقاً ووفّى بوعده فإن يسرى تجيد القراءة بين السطور وتكشف النوايا في تموجات الصوت وهي لم تكن تشك في أن اللبناني سيأتي راكضاً إلى بيتها. لقد تركت على جلده وصدره وكل مطارحه طعمها الطيب الذي لا ينسى والذي غدا طعماً لا بدّ من تذوقه من الآن فصاعداً، والتعيس الحظ فضول لم يعد يعرف كيف يعيش دون أن يمتلكها. إنها لم تكن تشكو من كل ذلك، وهي لا بدّ من أن تبدأ التعاقد مع كاهن وقاضٍ.

فيما هو متعلق بفضول عبد الله، الطيب من النظرة الأولى، فإنها كانت عبر محادثة مع صديقة من صديقات طفولتها قد حصلت على معلومتين دقيقتين: تاجر شغول وقدير لا يضاهيه أحد، ولم يكن أحد يضاهيه أيضاً بطول المقاس. وهو قد أثبت منذ قليل حقيقة المعلومة الأخيرة؛ فلكي يربح مالاً في مجاهل توكايا غراندي كان من الضروري أن يكون رجلاً مفاوضاً بلباقة وذكاء.. وبالنسبة للمعلومة الأخرى فإن يسرى قد تأكدت منها وسبحان الله! ما شاء الله!

لم تكن الشمس قد غابت في مياه النهر عندما اتخذت يسرى سكة تاكاراس قبل أن تلقي أولى قوافل الحمير رحالها على الطريق. لم يرها أحد واصلة؛ لم يكن أحد قد رآها تغادر ما عدا كوروكا التي عندما ظهرت في الدكان لتشتري كازاً أشارت بقولها:

– هل استقدمت فتاة من إيتابونا يا سيد فضول؟

6

عند الغروب الهادئ في مدينة إيتابونا الفتية، وإذ ألقى بحقيبة السفر في غرفة زيزينيا دي بوتيا في نزل "شاندو" واستحم – كانت زيزينيا قد سخنت الماء في الجدر وفركت ظهره بليفة يابسة مع الصابون المعطر هي روائع الحضارة – فإن فضول عبد الله لاحظ أن الفتاة حزينة وغامضة التفكير كما لو أن كدراً يزعجها والكدر لا بدّ من أن يكون بسبب أخبار من العائلة بلغتها من سرجيبي. لقد كانت زيزينيا تعيل عائلة كبيرة في مدينة لاغارتو، قرب بوتيا، حيث ولدت؛ والدها مريض بالسل ومدمن كاشاسا، يضاف إليه مجموعة من النساء العاجزات: أم، وجدة، وعمات وكلهن مرتبطات المصير بها؛ الفقيرات!

وتعجب فضول لكون زيزينيا مع كل تلك المشاعر قد استسلمت له بكليتها مرتمية بين ذراعيه متولهة به. ولدرجة أنها بدت كأنها كانت تسلمه نفسها للمرة الأولى وكأنها المرة الأخيرة... لا لأنها

تعودت في السابق أن تتخذ منه موقفاً تباعدياً أو بارداً، بل على العكس، لقد كانت امرأة ذات مخزون هائل لا ينضب. كان الاثنان متفاهمين على ألف رائعة ورائعة ويحبان الواحد منهما الآخر. لم تكن أية امرأة أخرى بقادرة أن ترضي فضول بقدر ما تستطيع هي منحه التوقد والعطف والحنان في آن واحد. لذلك لم يكن يشبهها بأية واحدة من الفتيات الأخريات اللواتي كان يعرفهن ويعاشرهن؛ ولم يكن يحس بشوق إلى أية امرأة أخرى مهما اكتملت مواصفاتها، لأن زيزينيا كانت الوحيدة التي تداعب أحلامه في وحدته.

كان يطوف فيها وينسى هموم الحياة مرتاحاً سعيداً. كان جسد زيزينيا واحة سلام وملجأ أكيداً. وظلّ الوضع على ما هو وقتاً طويلاً وابتدأ بأن يعود هو بائعاً متجولاً: وهي فتاة هوى مبتدئة في إيتابونا.

وبينما راح يبني قصوراً من الوهم في توكايا غراندي وهو يتخيل نفسه مليونيراً فاحش الثراء، فهو قبل أي شيء آخر يجب أن ينتشل زيزينيا من نزل شاندو، ويبني لها داراً ويعطيها الجيد والأفضل دون الإقامة معها، وخياطة تجعلها ترتدي ملابس الملكات. كان يرغب فيها ملكاً له وحده لا يشاركه أحد فيها، متفرغة له، يأتي إليها للراحة من تعب الأعمال المختلفة المزدهرة، ومن تعب العائلة – كان لا يطيق التفكير في العائلة التي يتصورها: امرأة وفية ومطيعة وأبناء أقوياء.

وفي الغرفة الفقيرة من نزل العاهرات، كان الغسق قد تسلل ليبدأ بتسويد شراشف القطن.. كانت زيزينيا مختلفة ولم تعد هي نفسها. لقد حدث شيء خطير، استطاع أن يبدل فرحها المعتاد. وكانت الظالمة لا تتلفظ أمامه بأسماء – "هذا تركي، وذاك تركي". ولم تكن تطلب دفع تكاليف لا وجود لها، ولم تكن تضيع نفسها في ضحكة تنم عن ارتياح. قاسية ومتألمة كما لم تكن قط، وملتفة بالكآبة، صامتة، وفي صدرها شوكة تؤلمها. إنها أحزان بسبب العائلة، وماذا يمكن أن تكون غير هذا؟

7

تكثفت الظلال لدى الغروب. وبينما يفك نفسه من الغمرة التي غمرها بها، قفز فضول من الفراش مذعوراً، وخشي أن يصل متأخراً إلى موعده مع فؤاد كرم في دكان "رومولو سامبايو" حيث كان الصديق كل يوم يكشف أصول الناس مسلطاً الأضواء على نخبة المدينة في ساعة تناول كأس فتح

الشهية والمقبلات. أما زيزينيا غير مكترثة بواجبات المهنة فظلت مستلقية في الفراش ولم تأتِ لمساعدته:

– لقد تأخرت، أليس كذلك؟

– قليلاً. يجب عليَّ أن أنصرف بسرعة...

– اذهب راكضاً، إن الخطيبة غير قادرة على الانتظار. اذهب إليها حالاً حتى لا تتدبر خطيباً آخر وتشده إلى الفراش.

محادثة مزعجة وصوت وقح غير مكترث بأي أصول. مندهشاً وغير واثق مما يسمع، وضع كفه وراء أذنه، ولم يتمكن بعد من ارتداء لباسه:

– خطيبة. أية قصة هي هذه؟

– هل تريد أن تنكر؟ في إيتابونا لا يتكلم الناس في غير هذه المسألة:

– أية مسألة؟ قولي دفعة واحدة..

– كل الناس تعرف أنك اتفقت مع يسرى على الزواج منها. هل لديك الشجاعة لتنكر؟

لقد تأكدت شكوكه التي أيقظته من غفلته: إنها ألاعيب أرملة تحول وعدك إياها بالزيارة إلى بداية قصة عشق ونيَّة صريحة بالزواج، من سوسو، وهو تدليع لاسم يسرى، وراحت زيزينيا تردد اسم دلع يسرى في وجهه؛ شتيمة! وإهانة! وبينما يمسك بلباسه كرّر مستوضحاً:

– سوسو؟

– سوسو "يا تعتيري"، لا تقل إنك لا تعرفها.. حتى فؤاد كرم منذ بضعة أيام جاء إلى هنا وقال لي: "هل تعلمين يا زيزينيا أن صديقك فضول قد جنَّ وسيتزوج من أرملة خليل رباط".. أصابني الوجوم ولم أصدق: "لا يمكن أن يكون هذا الأمر ممكناً، ولا أصدقه. ولكنه قال إن المسألة كانت حقيقية، وأنك ستغدو الملك الجديد.. – وسكتت زيزينيا عن الكلام..".

– قولي الصدق.. ملك أي شيء؟ – ثم رفع صوته لدى شعوره بعدم الارتياح وقد وجد نفسه في طريق المرارة مضغة في أفواه المعلقين والنمامين:

– ملك القرون مثل خليل رباط المرهف، الطيب الذي مات لكثرة القرون التي ركبت في رأسه.

لم يكن فضول ينتظر مثل هذا التعليق، ولم يكن مستعداً لأن يفضح الحقيقة بصورة مفاجئة، فأحس باهتزاز في جمجمته: ناست عيناه، وبلع ريقه ناشفاً:

– إذا كنت لا تصدقني، فاسأل فؤاد، فهو العليم بهذا. اسأل من تشاء؛ في إيتابونا يعرف الجميع سمعة يسرى.

رأت عينا فضول المحتارتان الأرملة المناضلة يسرى وهي تحاول أن تلبس رداء الفضيلة. في مسمعيه ما زال صوت الدلال يتردد: إنها المرة الأولى التي مارست فيها هذا العمل في حياتي، ولم أقم علاقة قط مع رجل آخر غير زوجي ولكني عندما رأيتك رجلاً مرتباً لم أستطع المقاومة. فماذا يستطيع الشرف أن يفعل ضد القدر؟ كانت يسرى تقسم بروح أمها وهي تفتح مطارحها العاهرة المقنعة. كل ما فيها نمَّ عن تزوير واحتيال: كلبة – بقرة – عاهرة – ثلاث مرات عاهرة: كيف استطاع أن يصدق، وهو العليم بالأمور؟ اقتنع معتزاً بنفسه ومنشرح الصدر بأن فضول عبد الله رجل لا يقاوم. ومنساقاً لمثل هذا الإغراء جاء راكضاً إليها كما وعد.. وقذف شتيمته بالعربية:

– هلا.. هلا:

– أنت، بقدر ما لديك من الكبر فإن لديك من الثُّول (الحماقة). رأيت امرأة جميلة تعد بالغنى فلم تعد تفكر في شيء آخر، وحتى بزوج من القرون. – وركزت عينيها في صورة اللبناني الذي التبست عليه الأشياء فأصابته بالحيرة: – أم تراك لا تهتم بالقرون؟ تتغاضى وتصرف ناظريك عنها كي لا ترى؟ هذا ما يقولونه هنا.

عارياً ضخماً، ومنزوع القلب، كأن وطواطاً وقف في بلعومه وهو لا يزال يعمل على ابتلاعه. عاهرة، قوّادة، ثم قعد على حافة الفراش، محاولاً السيطرة على صوته وغضبه وخجله:

– ماذا يقولون هنا؟

– هذا.. ما يقولونه.. إنك ستتزوج بسبب المحلات التجارية دون أية أهمية للباقي، ودون اهتمام بالسمعة التي لها. وإنك تبيع نفسك من أجل المال إذا كنت تعتقد أن يسرى ستغير حياتها فإنك لا تعلم كيف تكون المرأة التي في ذيلها نار، ونار لا يستطيع أي رجل أن يطفئها.

وإذ فقد معنوياته، فإن فضول غدا في باطن الأرض، في عمق بئر عميقة، مغموراً بالبراز، ذا قرنين كبيرين، وقوّاداً يشار إليه بالأصابع. وافصح عن السر:

– لم أكن أعلم أنها كانت كذلك، فأنا أعيش في الغابة.

– لم يكن متوجباً عليَّ أن أهتم بهذا الأمر وأتدخل فيه فأنا لا أستفيد شيئاً من هذا. ولو كنت حكيمة لما تفوهت بكلمة. لأنك إذا تزوجت منها ستصبح غنياً ومغموراً بالمال، وسيمكنك أن تبني

لي بيتاً وتنقذني من الحياة العامة.. حتى فؤاد كرم نفسه قد هنأني وقال لي إنك ستصبحين غنية..

– وخرجت تنهيدة من صدرها دون إرادة منها: – فاحشة الغنى، ولكن عفنة، هذا ما قاله، هل تسمعني؟ وقامت بحركة تريد معها أن تمتنع عن البكاء، وبصوت متقطع:

– إذا تزوجت منها فلن أسمح لنفسي بأن أراك ثانية.. – ثم راحت تشهق بالبكاء.

لم تعد تحاول أن تسيطر على انفعالها وتمنع التنهدات في صدرها، وتبقى متماسكة: إن زيزينيا دو بوتيا غطت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء.. وإذ لمح فضول رقرقة الدموع على وجه الصبية، ورآها مشهقة بالبكاء بسببه، وقد غدت مطعونة في كرامتها وحزينة لاعتقادها بأنه غدا خطيب يسرى الغني والمزروعة في رأسه القرون، فإنه استعاد حيويته وتحرر من الانقباض النفسي والصدمة الداخلية، فتحرك في مكانه وخرج سليماً من سورة الانفعال ومن الخجل الذي اعتراه. إن إله الموارنة الطيب يتدخل في الوقت المناسب وبالنسبة إلى فضول سواء كانت يسرى أرملة شريفة أو المرأة الأكثر اتساخاً في سمعتها في إيتابونا، فإنه لم يعد يفكر في الزواج منها.. إن ما يهمه الآن، وهذه حقيقة لا تقبل الجدل، هو دموع زيزينيا وبكاؤها الذي لا يمكن السيطرة عليه، والنزاع، والانقباض، وحزن المسكينة وكلها دلائل على الحب الحقيقي.

– هل تريدين أن تقولي إنك كنت مصدومة بالخبر؟ وأن كل ما يصيبك ليس بسبب مرض أو موت أحد أفراد العائلة؟

– هل تعتقد بأن ليس لديَّ عواطف؟

هبط الليل بكليته مرتدياً معطفاً من الظلام الأسود... في الردهة الكبيرة أطفأ نزل شاندو "فانوساً".

8

"نعم، انجرفت مع التجربة" – اعترف بذلك وهو يروي لزيزينيا دو بوتيا تفاصيل الهوس القصير، اللعين، الذي كاد يربط مصير يسرى راموس رباط، يسرى "يا تعتيري" التي كانت ستربح زوجاً، واعتباراً، بينما هو كان سيربح محلات أقمشة في إيتابونا وإمبراطورية القرون الطويلة: فضول ذو القرنين. ولكنه أفلت من التجربة في الوقت المناسب بفضل إله الموارنة الطيب الذي من أجل نجدته أطلق يد زيزينيا مرة أخرى لتنقذه، وهي، زيزينيا قد تلقت الأمر بواسطة الملاك الحارس. ونظراً للخطر الكبير الذي تهدده فإن الفتاة لم تكتفِ بالظهور له في الحلم كما في زمن أروزة، فقد جاءت بنفسها لتنقذه من العار.

كانت زيزينيا تعرف الكثير بتفاصيل مسالك الأرملة قبل وبعد أن تدفن الميت وتبكي متحسرة على قرنيه ولم يعد لدى فضول مع ما سمعه عن عدد الزبائن أية شكوك ليستجليها.

بعد ذلك، وفي الملهى، فإن فؤاد كرم زاد الأخبار توضيحاً وأشار إلى الظروف التي تستدعي الفضول، واستكمل لائحة الرجال الذين عرفوا يسرى. مواطنون متنوعون كانوا يتدافعون للاسترسال في سرد السيرة التي لا تنتهي. ولم يكن أحد يستطيع أن يتهم يسرى بأحكام مسبقة في مادة الرجل، فهي بمجرد أن أحداً يرتدي بنطالاً ويحمل عصا فإنه يستحق الانتباه وحسب الظرف المناسب تأتي به إلى حيث ألقت رحلها.. ومتفكهاً بالأخبار فإن فؤاد كرم اختصر المسألة بقوله، إن يسرى تعاني من الشبق الذي لا حل له.. وكانت زيزينيا تؤكد أن في ذيلها ناراً لا يستطيع أي فحل أن يطفئها.

إذا كانت غراميات الصبية أروزة والخريج إبيتاسيو دو ناسيمنتو جديرة بوصف أدبي عميق في رأي فؤاد كرم الحصيف الذي كانت رذيلته الكبرى المطالعة ويليها القمار والنساء، فإن رواية تفاصيل غراميات يسرى تستدعي الانكباب على وضع كتاب ذي حجم كبير وبتؤدة وروية. وسيكون الكتاب مثيراً ولاذعاً يتضمن الكلام عن العواطف السهلة والمغامرات الفظة والخدع ومواجهة الألاعيب ولن ينقصه عقد درامية تثير الانفعال فيما هو متعلق بمحاولة بيبتو باسوس الطالب الجامعي الذي تعرفت إليه يسرى أثناء إجازته. لقد كانت يسرى تقدر حق التقدير جنس الذكر ولكنها كانت تفصح عن تفضيلها للفتيان منهم، وكانت تعبد المراهقين عبادة، ولا بدّ من أن يكون لديها دائماً في الخدمة سائس ذو مظهر عتري. "لعنة الله على أمك" – قالها فضول محمر الوجه منتفضاً من مكانه عندما تذكر السائس الذي كان برفقتها يوم زارته في توكايا غراندي. وضمّ فؤاد كرم صوته معاضداً إياه ووقع على الشتيمة العربية.. وفي زمنه هو – زمن فؤاد كرم – كان قد سبح في ذلك البحر من اختيارات يسرى ولكن السائس كان حينها شاباً طويلاً منحرفاً.. "لعنة الله على أمك" قالها الاثنان معاً، هذه المرة.

إن يسرى راموس رباط شخصية ثانوية في تاريخ توكايا غراندي حيث مرّت من هناك على جواد وأمضت ساعات معدودة – ولا يتسع المجال هنا لتقرير عن مغامراتها التي لا تحصى: صبية عزباء، سيدة متزوجة، أرملة تفتش عن زوج يهتم بالبيت الشرقي وحديقة القرون، آه، "يا تعتيري"! إن شبقاً دائماً يستهلكها، وناراً في الذيل تحرقها، لديها سائس دائم في خدمتها – وبالصدفة العلوية لم تصبح يسرى راموس عبد الله. وسنودعها هنا دفعة واحدة وإلى الأبد ولكننا سنقوم بهذا العمل بوقار

وشوق: إنها امرأة حقيقية، لا مثيل لها على حدِّ قول مانويل دا لابا الذي يعرف الكثير عن البغال والدابات والمهرات المؤصلة.

إن يسرى، في رأي فضول، هي تجربة أوقعه فيها الشيطان وقعة أخرى ليغير قدره ويسير على روحه ويجعله يلغي العهد الذي أخذه على نفسه مع الإله السيد. من أجل امرأة جميلة وثروة سهلة، فإنك يا فضول عبد الله تبيع نفسك للشيطان. لم يبع نفسه. إن إله الموارنة الطيب كان متيقظاً ولم يسمح بوقوع المأساة، وقد قام بهذا العمل بواسطة المرسلة إليه امرأة الحياة العامة زيزينيا دو بوتيا.

أعجب فضول إعجاباً كبيراً بمعرفة زيزينيا الواسعة بما هو متعلق بيسرى وفي نهاية الحسابات، كائنة ما تكون، فإن يسرى كانت أرملة ذات أبعاد تجارية، غنية ومتميزة، وذات شهرة اجتماعية بينما هي زيزينيا لم تكن أكثر مما هو معروف عنها: ضائعة. ومع ذلك كانت زيزينيا تتكلم عن الأخرى كما لو كانت تعرفها منذ الطفولة.

أفلست أعرف حقاً؟ إن يسرى هي من لاغارتو وقد ربينا معاً. إنها عصرية وصاحبت سائق نقل مسافرين وعاشت معه في بيت واحد. وقد جاء السائق إلى هنا، إلى إيتابونا ليستمر في علاقته معها بينما كانت قد تزوجت من السيد خليل، مركبة له القرون.

من كل ما حدث ظلّ في النفس طعم المرارة الذي يمزق اللبناني: لقد استغلته العاهرة واستخفت به معرضة إياه للضحك والسخرية. وأن يفسخ مشروع الخطبة معها ببساطة تاركاً إياها متأملة في المراكب البحرية فمسألة لا ترضيه، وكان يحتاج إلى التعبير عن كل احتقاره. وتذكر سؤال كوروكا عشية يوم المطارحات الغرامية مع يسرى: "هل استقدمت فتاة من إيتابونا يا سيد فضول؟"

وعرض على زيزينيا الفكرة السعيدة التي خطرت له: وهي إرسال أحد إلى الأرملة ومعه مبلغ من المال يعادل أجر امرأة هوى عن ليلة كاملة. إنه عمل جريء جعله يحس بأن نفسه قد اغتسلت من أوساخها. ووافقت زيزينيا على الخطة ولكنها اعتبرت المبلغ قليلاً غير لائق بسمعة شهم كريم مع الفتيات؛ إنه مبلغ أقل مما تستحقه يسرى. إن العاهرة لم تكن فتاة هوى تفتح بابها للزبائن. لقد حالفها الحظ وعلا كعبها في المجتمع: كونها أرملة، وقد تزوجت سابقاً، وكونها وجيهة ولديها خادمة وسائس في خدمتها؛ ومع كل هذا ذهبت إلى توكايا غراندي. فكم مرة فعلها فضول خلال فترة العصر؟ أفلم يتمتع؟ إنها امرأة ونيف، وذات نار في الذيل.

بقدر ما يكون المبلغ قليلاً تكون الإهانة كبيرة، وكذلك الإذلال، قال اللبناني، ولكنه انتهى إلى الاقتناع بوجهة نظر زيزينيا التي لا ترضى أن يعتبر وضيعاً وهو إن أراد أن يدفع فعليه أن يدفع المبلغ العادل وزيادة. وكون فضول حساساً بالنسبة إلى هذه البراهين البليغة فقد أبدى استعداده في النهاية لأن يرسل ضعف المبلغ الذي كانت فتيات الهوى يتقاضينه عندما يتم استدعاؤهن من إيتابونا: وكون يسرى أرملة لا تتعاطى المهنة.

أراد أن ينادي على فاديكو الذي كان يقوم بكل الأعمال في نزل شاندو، وذلك ليأخذ المبلغ بيده ولكن زيزينيا وهي تضحك تناولت المبلغ الذي خصصه فضول:

– إن تصرف فلوسك على يسرى فإنك لأحمق حقاً! إنك كمن يرمي بالمال من النافذة؛ إنها ستهزأ منك وتعطي المبلغ للسائس. من الأفضل أن يبقى المبلغ بين يدي، إني بحاجة إليه لمساعدة جماعتي.

السيئ الصيت مانيزينيو يغزو توكايا غراندي
على رأس عصابة، أثناء غياب فضول عبد الله

1

لم يقاوم تجارب الشيطان معه وهو يحلم مستيقظاً ويتألم نائماً وحسب، فالعاهرات والفاجرات يتعاقبن على فراشه عارضات أنفسهن، من أرملة ثرية، وخطيبات متقدمات، وصاحبات محلات أقمشة وأثاث، ووعود بالغنى السريع والحياة السعيدة وأنواع المجون المترفة! إنه ضحية قساوة الحياة وشرور بني آدم القادرة على أن تصرع أي مواطن سواه أقل عناداً منه وثباتاً. قبل أن يبدأ بالكسب الكبير كان على فضول عبد الله أن يتطهر من خطاياه في توكايا غراندي.

سابقاً، في نضال البائع المتجول، كان سيد نفسه ووقته: كان باستطاعته أن يتأخر أسبوعاً في إيلايوس وإيتابونا، متمتعاً بطيبات الحياة من محادثات شيقة مفيدة مع فؤاد كرم وألفارو فاريا، ومباريات في لعب الداما والبيدو، واللعب بأوراق البوكر والبيف – باف الخطيرة، والملاهي، ونزل النساء وكلها أنوار الحضارة، وانتهى التشرد والبهدلة إذ كان فضول يغسل نفسه وينزع الشقاء من جسده.

إن زبائنه الجدد لا تاريخ أو ساعة معينة لمشترياتهم، وهم يعيشون منتبهين لبداية العيد لدى وصول المحتال إلى مخزنه الكبير الذي بدأ دكاناً وأخذ بعد قليل يقتضي حضور صاحبه باستمرار ليقدم ويخدم ويقبض ويفرض الاحترام. تاجر ذو باب مفتوح في ذلك المسلك الوعر الجديد وسيد المحل التجاري الوحيد الذي يلبي حاجات رجال الغابة، ولم يعد بإمكانه أن يتمادى في ملذات البائع المتجول، كأن يجمع البضاعة ويضعها في حقيبة على كتفيه ويمضي دون اتجاه متى وأينما يشاء. لقد انتهى فضول الآن إلى أن يعيش توقيتاً خانقاً. وأصبح ابتعاده عن توكايا غراندي مدعاة للمشاكل والمخاطر.

قلّل من سفراته واختصر أيام الغياب. ومع ذلك، وفي البداية، لم يكن يتمتع بدقيقة واحدة من راحة البال عندما يمكث في إيلايوس وإيتابونا الوقت اللازم الذي لا بدّ منه للمشتريات والمدفوعات: كان الشراء بالنسبة إليه فناً، هو فن الحوار والمخادعة، وكان الدفع علماً في المدد المحددة والفوائد المترتبة. حتى إنه أثناء الليل القصير للمحادثة واللعب والملهى والفتيات كان يذهب في تفكيره القلق إلى المخزن الواقع في تلك المجاهل المقتحمة حديثاً.

بعد غيابه الأول ظلّ ثلاثة أشهر كاملة دون أن يغادر توكايا غراندي، ومنذ وصول القافلة الأولى التي كانت عائدة من تاكاراس بحمولتها الكبيرة وسلعها المتنوعة من اللحم المجفّف وملابس الأجواخ السميكة والكاشاسا، ومن الدقيق إلى ذخائر الأسلحة، تلك الغزارة التي تؤلم النظر إليها. وللحصول على تلك الأنواع بكميات كبيرة كان قد دفع كل مدخراته وظلّ مديناً. إنه بيت تجاري، نصفه مخزن نواشف ومعلبات، ونصفه الآخر سوائل مختلفة، وليس حقيبة بائع متجول.

تراكض الجميع لمساعدته في تفريغ البضاعة وتوضيبها: رجال ونساء، المقيمون منهم هناك والمارون صدفة، وإذا تمّ تعدادهم واحداً واحداً فلن يزيد العدد على عشرين خليقة في ذلك اليوم الاحتفالي بالتأسيس. وأنقذ فضول المناسبة بنصف دزينة من الفطائر وجولة كاشاسا مجانية، وبعد ذلك بدأ بالبيع.

عندما بدأت الكمية المخزونة بالنفاد قرّر الذهاب عدة أيام لإعادة ملئه من محلات إيلايوس وإيتابونا. وتكونت لديه خبرة بالسلع التي يجب أن يشتريها، وأصبح يعلم أية منها أكثر استهلاكاً، والكميات اللازمة، والعلامات المفضلة! إن استهلاك عصير الكمثرى كبير، وكذلك الكاشاسا، ولكنه من "البناطيل" السميكة التي لا يتجاوز عددها نصف دزينة فإنه باع اثنين وبسعر مخفض، ولكنه بالمقابل باع كل الأزياء الموحدة وبسعر أعلى.

في آخر الليل، أقفل على نفسه داخل البيت كي لا يراه أحد، وعلى ضوء الفانوس عدَّ لفة المال وهي من فئات ذات قيمة قليلة، ممزقة، قذرة تمّ تنظيفها بمسحها بالصابون، وتناول من المستودع منديلاً كبيراً أحمر اللون وفيه وضع مدخراته على طريقة الأجراء التي تعلمها في زمن البائع المتجول. عقد المنديل عقدة قوية من أطرافه وبقوة زجّه في عمق جيب بنطاله الأيمن. أما النقود المعدنية، الكثيرة، من النحاس والنيكل، فبعد فصلها عن بعضها وفقاً لفئة كل منها فقد لفّ كل مجموعة بقطعة من الورق ووضعها جميعاً في كيس من الجلد يحمله عادةً مشدوداً إلى زنار تحت القميص... في القفار والقمم، وفي المسالك الوعرة والطرقات العريضة من نهر الأفاعي فإن شهرة اللبناني فضول بالثراء كانت تتردد همساً: مال مخبأ، خواتم، وسلاسل ذهبية، وكان هناك من يؤكد أنه اشترى ليرات إسترلينية ثمينة وهي براقة تتبدل ألوانها عند النظر إليها: لم يكن ممكناً أن يتخيلوا أن في المنديل أو الكيس الجلدي كل الرأسمال والأرباح، وكل ما عدا ذلك المال كان موزعاً على تشكيلة البضاعة المتبقية في المخزن.

بعد أن لبّى طلب الزبائن فجراً، وضع إعلاناً عند مدخل المحل التجاري كتبه بحروف كبيرة على غطاء صندوق أحذية: مقفل بسبب غياب صاحبه. أقفل من الداخل الأبواب الخشبية، بالمزاليج، ووضع المسدس في زناره مستفيداً من رفقة زي رايموندو الذي كان يحدو قافلة متعددة البغال كانت قد جاءت من مزرعة أتالايا، وذهبت معهم كوروكا الضعيفة التي تكاد لا تزن شيئاً، فزجّها زي رايموندو بين كيسين من الكاكاو على متن بغلة قوية، بينما كان فضول قد استوى على حافة عربة يضحك فرحاً للملذات التي تنتظره في إيتابونا... وفقط بعد ثلاثة فراسخ ونصف وعندما صعد إلى القطار وأراد أن يقشر برتقالة تنبّه إلى أنه نسي في توكايا غراندي سكينه الحادة التي يقدرها كل التقدير.

2

خلال اليومين الأولين من غياب فضول لم يحدث شيء ذو أهمية تذكر سوى أن حداة القوافل ومساعديهم بعد أن يفرغوا حمولاتهم كانوا يتوجهون إلى قلعة التركي المحصنة. هكذا سيمون محل فضول التجاري الذي بناه من الخشب، وهو المادة الرخيصة، وأقامه في مكان ملائم كان يعرف بطريق الحمير، وأصبح بعد سنوات معروفاً بالشارع الأمامي. وبالمناسبة فإن تيساو أبدووين لم يكن قد أتى بعد إلى توكايا غراندي ليقيم أول منزل بني بالحجر والطين حيث سيقيم فيه محل الحدادة! حتى الآن ظلّ مخزن اللبناني أول بناء رئيسي في المكان.

كان الحداة والمساعدون يصلون عطشى مكسوين بالغبار والوحل، مرهقين، وهم بأمس الحاجة إلى بلعة كاشاسا لاستعادة قواهم ولمحاربة البرد أو الحر وفقاً للحال... وبين الشتائم والقهقهات كانوا يناقشون ألاعيب اللبناني الذي كان يتركهم في الانتظار ليذهب ويملأ سوقه الراقية.

– "تركي" ابن ملعونة... اليوم قريباً...

– لماذا لا يضع واحداً في الدكان يعمل مكانه؟

– ومن تراه يكون؟

– إن بيدرو سيغانو هنا عاطل عن العمل...

– لو كان المحل ملك السيد هل كان وضعه بين يدي بيدرو؟

كانوا يحسون بالشوق إلى المخزن الذي تغيرت معه الحياة وغدت أسهل مما كانت منذ أن أقام فضول في توكايا غراندي وكما في زمن البائع المتجول فقد تعوّد فضول أن يحتاط عندما كان يعود

من القرى والمدن بعد أن يكون قد فرك آخر نقوده المعدنية. وكانت التعليقات تتمحور دائماً على تذكّر أقوال وأعمال اللبناني المحتال الظريف والذي كان، في النهاية، عنصراً طيباً بإجماع الموجودين الذين ينتهون إلى الذهاب إلى نساء الحياة العامة:

– سوى أن النساء قررن إقفال مطارحهن..

كان عدد النساء هناك يتغير، فالبعض واصلات لتوهن، والبعض الآخر منهن ذاهبات، فالعاهرة لا تمكث طويلاً في مكان. المقيمات الدائمات هناك، نصف دزينة، لا أكثر، في المكان الأقصى المقابل للحفرة الكبيرة التي أقامها العقيد روبستيانو أراجو ليودع فيها الكاكاو الناشف الجاهز للتسليم للمصدرين.. وإلى هناك كان يذهب الحداة والمساعدون مفتشين عن امرأة تعجب؛ وفي تلك الظروف، مع المخزن المقفل، ذهبوا مبكرين أملاً في بلعة كاشاسا أو بلعة قهوة. بعض منهم ظلّ في الفلاة سعياً وراء جاكا ناضجة، ولملء معدة خاوية فليس من وليمة تضاهيها طعماً وإشباعاً.

3

في اليوم الثالث وبغية قضاء الليل بأمطاره الغزيرة التي لم تنقطع عن الهطول، فإن المدعو مانيزينيو ألقى رحاله في توكايا غراندي يتبعه اثنان من المستزلمين وهما شيكو سيرا وجانجاو. كانوا يمتطون حيوانات غير مسروجة مربوطة على أعناقها حبال بدلاً من الرسن أو الزمام: وكانت تلك الحيوانات كناية عن بغال ذات وقع ثقيل مختارة لتكون مطايا عقداء. دخلوا توكايا غراندي وهم يطلقون العيارات النارية حتى لا يبقى هناك مجال للشك.

أوقفوا مطاياهم قرب مخيم كان حداة القوافل الأخرى قد بنوه لتمضية الليل في ذلك الموقع وأقاموه من القش السميك الصالح لملجأ يقيهم الشمس والمطر. وهناك أشعلوا النار، وراحوا يطهون ما تيسر، ويغلون القهوة ويتحادثون عن الحياة والموت أو لنقل عن زراعة الكاكاو الموضوع الخالد والمثير. وبينما كان بيدرو سيغانو يعرض آلته الموسيقية انتهى بأن يعرض على المواطنين الموجودين هناك عرضاً مغرياً: المجيء بفتاتين أو ثلاث وتنظيم حفلة مقابل بعض الفئات من النقود العشرينية. ولكن من أين المال لدفع أجور مثل هذه الوقاحة؟ مع الطلقات النارية وجفلان الحمير احتدمت المناقشة.

لقد أراد القبضايات أن يعرفوا أين يقع بيت اللبناني. إنه هناك، ولكن كون صاحبه مسافراً فإن أبواب "القلعة المحصنة" مقفلة لبضعة أيام.

– نحن نفتحها. ومن لا يعرفني فليعلم أن اسمي مانيزينيو – قال ذلك وألقى نظرة على الجماعة ثم انطلق في الاتجاه المشار إليه.

ولكي يعطي برهاناً على دقة تصويبه كان طبيعياً أن يصوب شيكو سيرا مسدسه إلى شجرة قريبة وبالتحديد إلى ثمرة ناضجة فيها ثم أطلق النار فأوقعها.

علم بيدرو سيغانو أن المتشردين الثلاثة كانوا على علم بغياب السيد فضول ولذلك أتوا إلى هناك: ولا يمكن أن يكونوا قد أتوا بنية حسنة. وتخلى عن فكرة مشروع الحفلة الماجنة لأن الليل ينذر بأمر خطير.

– إنهم سينهبون الدكان!

– ممكن.. وافق أحد الحداة وهو يحرك الجمر المتقد بمسكة السوط الذي يحدو به الحمير. إن مانيزينيو هذا هو الشيطان بشكل إنسان: لقد كان "سركال" العقيد تيودورو داس باروفاس، وقد قتل منذ شهر أستاذاً في أغوا بريتا وهو الآن هارب من العدالة. لا أعرف الآخرين.

راعي البقر الذي كان قد عاد من إيتابونا بعد أن أوصل إلى هناك قطيعاً من البقر يعود للعقيد روبستيانو دي أراجو، كان يعرف الاثنين الأخرين بالصورة والسمعة، وهي سمعة مشؤومة. إن شيكو سيرا لا يفيد شيئاً سوى قتل الأحياء بالمكامن، وقد تاه في الأرض بعد أن صرفه العقيد مانيكاسا من العمل في مزرعة مورو أزول. ولا شك أنهم يسمعون أيضاً باسم "جانجاو فانشاو" وليس هذا سوى اسم المعني هنا. ما عدا "صيعانه"، ودماغه التافه، واعتدائه على النساء، فإنه كان منحرفاً.

– إلى هنا، يا إله السماء: قالت دليلة ذلك وخرجت راكضة لتحذر الفتيات ريثما يختبئن في الغابة.

وإذ كان قد أدلى بإفادته فإن حادي القوافل اقترح على الموجودين الاختباء في مستودع العقيد روبستيانو حيث يقيم ثلاثة مسلحين باستمرار ليلاً ونهاراً في حراسة الكاكاو. وهناك يمكن أن يكون الجميع في مأمن وفي ملجأ من الأمطار التي تزداد هطولاً. إنه لا يريد أن يجازف بحياته مع بقائه في الفلاة. تناول بندقيته ووقف.

– ونحن؟ ألن نفعل شيئاً؟ سأل بيدرو سيغانو ذلك ليريح ضميره، لأنه هو نفسه لم يكن يفكر بمواجهة اللصوص لمنع السطو.

– ماذا لدينا لنفعل؟ قال راعي البقر ذلك وراح يسير باتجاه مستودع الكاكاو.

– من هو المجنون الذي سيجازف بتلقي رصاصة بسبب اللبناني؟ إن المشكلة هي مشكلته هو، وإذ ابتعد عن حرارة النار المشتعلة فإن حادي القوافل حرّك الجمر بمقبض السوط ثم وقف وانصرف.

رافقه الآخرون رافضين اقتراح بيدرو سيغانو بغية التجسس على ما يحصل في أقل تقدير. إنهم يحبون اللبناني الظريف والشجاع ولكن ليس إلى حد مواجهة لصوص متشردين مفترسين ذوي نفوس مجرمة ميتة. وتحول المطر إلى نبع متدفق من أعلى وغطت الغيوم السوداء السماء.

4

عندما انتهى الصراع على السيطرة على الغابات المترامية وحلّت المفاوضات محل الكمائن في النزاعات بين عقداء الكاكاو لملكية الأراضي غير المملوكة أصبح هناك فائض من المستزلمين انتشروا في الطرقات يذهبون ويعودون دون سكة محددة ويعرضون أنفسهم للقتل مقابل حفنة من المال، أو يقتلون مجاناً من أجل السرقة. ومن مئات الأزلام الواصلين من جنوب ولاية باهايا، الآتين من داخل الولايات الثلاث ومن أحواض أخرى واضعين أسلحتهم في خدمة المزارعين الأغنياء، فإن قليلاً منهم تمكنوا من استملاك أرض قليلة وزرعوا الأغراس، والكثيرين منهم تكيفوا مع الحياة في المزارع بصفة زعيم مجموعة من المستأجرين وغدوا موالين موثوقين. البعض الآخر منهم لم يستطع التكيف مع شروط الحياة الجديدة فراحوا يطوفون في الطرقات زارعين الرعب في قلوب الناس، ولكنهم انتهوا جميعاً الواحد إثر الآخر بعد أن ظلوا زمناً طويلاً من أصحاب السمعة الرديئة. ومن بين أكثر الذين خشي الناس رعبهم كان مانيزينيو الذي كان قد اشترك في الصراعات الملحمية الرهيبة التي نشبت بين العقيد باسيليو دي أوليفيرا وعائلة بادارو.. وإذا كان مانيزينيو قد خدم كمساعد أيمن للسركال تيودور داس باروفاس في تلك الصراعات الأسطورية فإنه لم يعد يرغب في خدمة أي عقيد آخر أو في إلقاء السلاح، وأخيراً خطط لتنظيم عصابة تقوم بالسطو على المزارع والأمكنة النائية والآهلة. وحده كان يرسم وينفذ، ولكي يبدأ، استقدم شيكو سيرا وجانجاو.

وفي مراعي إحدى المزارع التي مروا بها سرقوا الجياد ولم يرهم أحد وماذا لو رأوهم؟ هزأ مانيزينيو من حذر شيكو سيرا الذي لا يزال يخشى سطوة العقداء:

– إذا كنت خائفاً فانصرف. أريد فقط رجلاً شجاعاً في صحبتي.

وإذ كان قد سمع من النساء كلاماً تافهاً وثرثرات لا معنى لها فقد علم منهن أن فضول عبد الله قد استقل القطار إلى إيتابونا... وحكمت الضائعات على فضول بالاستهتار وعدم الاحترام واتهمنه بالبله إذ كان يسافر تاركاً في منزله في توكايا غراندي ثروته التي جمعها في سنوات النضال وهي ثروة ككنز متروك لمن يتجرأ ويتمكن من اكتشافه. وكن يناقشن مكان الثروة المخبأة. ولا بدّ من أن يكون في غرفة النوم تحت الفراش؟ أو في الدكان بين البضائع؟ والجميع متفقون على أن حجم الثروة هائل وهي كناية عن كيس مليء بالذهب، وفقاً لشهادة شخصيات معروفة وذات ثقة مطلقة.

5

ربطوا المطايا إلى ركائز المخزن الخشبية، وحاولوا خلع الأبواب الأمامية دون نتيجة: إن السدات الخشبية قاومت بما فيه الكفاية لتشهد على براعة باستياو دا روزا. وقاموا بجولة حول البيت فعثروا على الباب الخلفي الذي كان خلعه سهلاً، فبعد أن أطلق مانيزينيو النار على القفل دون أن ينجح في فتح الباب ابتعد شيكو مسافة ثم ألقى بجسده مع كل ما لديه من قوة فتزعزع القفل الداخلي ثم أكمل جانجاو العمل.

في داخل البيت أشعلوا الفوانيس فإذا بالريح والأمطار أخذت تتسرب عنيفة عبر شق الباب المكسور. وبدا لهم أنه من غير الضروري أن يعهدوا إلى أحدهم بالمراقبة الخارجية، فكل واحد أكثر شهرة سيئة من الآخر، ومن سيجازف بمداهمتهم؟ وراحوا يحتسون الكاشاسا من القناني مباشرة وقد تناول كل واحد قنينة منها والجميع كانوا محتاجين إلى احتسائها، من مانيزينيو لكي يغسل دماغه ويبقي عليه نشيطاً بغية العثور على الكنز، إلى جانجاو الذي كان دائماً مصاباً بالعطش، ووصولاً إلى شيكو سيرا للمحافظة على حيويته لأن اختصاصه كان الكمين والاختباء وراء جذع ضخم بانتظار المقصود لكي يجنّد له قتيلاً بطلقة أكيدة: ولم يكن يخطئ.

نقبوا في البيت من ركن إلى ركن ومن حائط لآخر. توقفوا في البدء في المكان السكني. في غرفة النوم، في الفراش، وفوق اللحاف القذر كانت ملقاةً سكين فضول التي قبل أن يضعها جانجاو في جيبه تفحص حدّها الفولاذي الحاد باهتمام ورضى: إنها بالتأكد ما كان يحتاج إليه لتهدئة عاهرة في لحظة الاعتداء عليها.

مزّق مانيزينيو وشيكو الفراش وهما يتأملان في الصوف الجاف. جاء جانجاو بكمية جديدة من الكاشاسا وقام الثلاثة بمعالجة الفراش الكبير. وراحوا يفتشون عن مخبأ كيس النقود الذهبية.. ولم

يكن هناك مخبأ أو نقود.

– لا بدّ من أن يكون الكيس في المحل التجاري – استنتج مانيزينيو – كان لا بدّ من أن نبدأ هناك.

وابتسم مانيزينيو معتزاً بشهرته المكتسبة: ولا ابن عاهرة هناك تجرأ على أن يزعجهم. إن أسماء وشهرات القبضايات قد وصلت إلى هناك قبل أن يصلوا هم.

6

وحدها برناردا حاولت ألا تستسلم للأمر الواقع. عندما ظهرت دليلة أثناء اللغط طالبة من النساء أن يختفين في الغابة، كانت برناردا مشغولة مع أحد رجال القوافل ولم تكن النداءات لتصرفها عن أعمالها. إن الكلمات البذيئة والصراخ والتهديدات كانت أموراً طبيعية في ليل ذلك الطريق: وبقدر ما يكون اللغط كبيراً بقدر ما يكون كبيراً عدم الاكتراث. لكن الصراخ كان يعلو ويقترب: فنهضت برناردا مبعدة شريكها عنها ووضعت على جسدها قميص النوم وخرجت لترى ما في الأمر. وعادت بالنبأ:

– إن الصعاليك يسطون على دكان السيد فضول.

لم تسمع جواباً ولم تهتم باستلام أجرها، وكما هي تماماً خرجت لتواجه الإعصار. وقد ابتلت بمياه الأمطار وصلت إلى المخيم فلم تعثر على أحد هناك. إلى أين ذهبوا؟ لقد هربوا في القفار حتى النساء لا يفعلن مثل هذا! وذهبت إلى مستودع الكاكاو: هناك ربما تجد الثلاثة المكلفين بحراسة الكاكاو الجاف. وانطلقت مع الريح، وهناك كان كل شيء هادئاً – هادئاً أكثر مما هو متوقع، ويُشعر بالفزع.

وانفتح أحد أبواب مستودع الكاكاو نصف انفتاحة على وقع أقدامها. عينان متعودتان على الاستشراف عبر الظلمات الحالكة، فلمحت فوهة البندقية فصرخت باسم حاملها ثم انفتح الباب بأكمله.

داخل المستودع كان الحراس وراعي البقر يقومون بالحراسة وأسلحتهم في مقابض أيديهم. كانوا قد جلسوا أرضاً، رجال قوافل ومساعدين، يتبارون في لعبة قمار: البعض يراهن، والبعض الآخر يتفرج، ولكنهم غير مكترثين لأن المسألة هي مسألة الصعاليك التي لا تعنيهم. نظروا إلى برناردا ولكن أحداً منهم لم يتفوه بكلمة، تابعوا اللعب. كانوا يعلمون أنها لم تأتِ من أجل الزبائن، فهي

مرغوبة ولا تأتي أبداً تفتيشاً عن زبون. كانت المياه تنسال من على جسدها وتتجمع على الأرض: وكانت سترة نومها قد التصقت بصدرها وفخذيها وردفيها. وعلى ضوء الفوانيس الباهت كانت تبدو ذات وجه من عالم آخر.

– يقولون إن الصعاليك يسطون على بيت السيد فضول؛ لا جواب. أراد الحادي أن يتكلم ولكنه منع نفسه عن ذلك وصوبها بنظرة كأنه يلومها: إنه لم ينم قط معها!

– هل تسمعون أم لا؟

حاد راعي البقر بنظره عن الظلال التي تلقيها عليه المبللة، وهزَّ برأسه مؤكداً.

– جوان فانشاو، شيكو سيرا، ومانيزينيو، لا يستطيع ثلاثة أسوأ من هؤلاء أن يجتمعوا معاً.

– وأي تدبير قد اتخذت؟

أصيب الرجل الذي فتح الباب بالتعجب من سؤالها، وبصوت هادئ أعطى تفسيراً:

– تدبير؟ لقد جاؤوا بغية السطو على المحل وبعد أن يسرقوه سينصرفون.

– إنهم ليسوا إلا ثلاثة. ويوجد هنا تسعة رجال.

وعبر الصمت المخيم، قامت بخطوة إلى الأمام، وبصقت على الأرض:

– تسعة رجال يرتجفون خوفاً.

– ولا أية متشردة تتجرأ أن تناديني بالخوّاف...

أصيب الرجل الآخر بشعور مهين وكان حتى الآن لا يزال صامتاً. وتقدم من برناردا مزمعاً على توجيه صفعة قوية على خدها ليعلمها الاحترام والتقدير، ولكنه تراجع عندما سمع تحذير العجوز جيرينو:

– هل جننت يا زي بيدرو؟

وتوجه العجوز بالكلام إلى برناردا. لقد كان رئيس الأزلام المكلفين بحراسة المستودع، ولم يبدُ عليه الانزعاج من تهمة الفتاة لهم بالجبن: لا أحد يعرفك يستطيع أن يتهمك بالجبن. ولم ينسَ أن الفتاة كانت تخص النقيب ناتاريو: لو أن الرجل تجرأ عليها فإن الله نفسه لن ينقذه. وكان جيرينو يعتبر نفسه مسؤولاً عن الكاكاو وكذلك عن الرجال الذين هم في خدمته.

– ماذا نفعل يا برناردا؟ قولي لي فأنا لا أعلم. ليس لدينا أي شيء مع هذا الطارئ الممض. نحن يدفع لنا لحراسة الكاكاو، والصعاليك إذا جاؤوا إلى هنا فإنهم سيأكلون النار ولذلك نحن نكسب. فقط

من أجل هذا.

– ولكنهم يسرقون المحل ويقال إنهم سيجرون معهم النساء ويقومون بصيد لهن الواحدة إثر الأخرى...

– نحن لسنا هنا لنكفل المحافظة على بضاعة التركي أو أقفية النساء العاميات. ماذا تعتقدين؟ هل تظنين أننا نعيش في مدينة؟ فهنا، أراضٍ مقفرة فيها دكان وأربع عاهرات ونحن في مستودع العقيد: كل واحد لنفسه والله للجميع. إذا أردت فابقي هنا ولن يحدث لك شيء.

ورافق برناردا إلى الباب حيث بدت حزينة وعصبية وقال لها بغير حقد:

– ولكن إذا لم تريدي أن تبقي وإذا كنت مزمعة على الموت من أجل اللبناني فبإمكانك الانصراف. نحن لن نخرج من هنا. إذا جاؤوا إلى هنا فسنلقنهم درساً في العراك. إن للإنسان حياة واحدة ومماتاً واحداً ويجب أن ينفقهما.

7

لا في الأدراج ولا في واجهات البار الكبير. فأين دفن الشيطان، اللبناني اللعين، حاوية الذهب؟ في المحل أيضاً أقاموا كل شيء وأقعدوه، لم يتركوا مكاناً لم ينقبوا فيه وهو عمل متعب وبلا جدوى. لا بدّ من أن تكون الثروة في مكان ما، أكد مانيزينيو.

أين هي بحق الشيطان؟ في أكياس الطحين، والفاصولياء، والذرة الصفراء؟ فتحوا الأبواب الأمامية على مصراعيها وبدأوا، غاضبين، برمي البضاعة خارجاً يجمعونها بعضها فوق البعض تحت المطر. ذروا الفاصولياء. والذرة والرز والدقيق والسكر الأسمر ومزقوا بالخنجر قفة اللحم المجفّف. ولكي يخفف من خوفه فإن شيكو سيرا بلع عدة بلعات من الكاشاسا على أزيز الطلقات النارية التي راح يطلقها. وفي الغابة حيث التجأت الفتيات سُمعت العيارات النارية فانفتحت مجاريهن البولية...

وإذ تلطيا وراء جذع كمثرى اتقاء من المطر، فإن بيدرو سيغانو ونديمه كانا يبذلان جهداً ليميزا ويفهما، ولكن لم يكن بمقدورهما أن يفعلا شيئاً عبر تلك العتمة. كدس جانجاو وشيكو سيرا البضائع بعضها فوق البعض بينما رمى مانيزينيو بالنفط الأبيض فوق القش وأحرقه... أراد جانجاو أن يحرق البيت ولكن مانيزينيو منعه في اللحظة الأخيرة... لقد كان متأكداً من أن النقود كانت هناك ومحفوظة جيداً في مكان ما، وكان لدى زعيم العصابة مخطط للرجوع مرة أخرى عندما يكون

اللبناني قد عاد من سفره وتحت تهديد السلاح فإن فضول هو من سيقودهم إلى المخبأ... ومع تقبيل الأيادي.

جانجاو الذي كان في رأسه براز بدلاً من الدماغ حاول أن يطيل البقاء هناك، الوقت الكافي لاغتصاب الزنجية، ولكن مانيزينيو لم يعطه آذاناً مصغية:

– ابقَ إذا أردت أن يقتلك رجال القوافل. هيا بنا! أعطى أمره لشيكو الذي لم يكن يرغب في غير الهرب.

خرج الاثنان خائبين وهما يطلقان العيارات النارية مودعين، وجال جانجاو بناظريه في عناد المعوق العقلي: وكيف يمكن أن يتبين المطارح الحساسة في تلك العتمة الكالحة حتى وإن تكن الزنجية قد بقيت في انتظاره كما أمرها تحت العاصفة؟ ثم استسلم أخيراً للأمر الواقع: أفرغ سلاحه في اتجاه المخيم حيث التقى بها، وبضربة سوط قوية ضرب الحيوان مستعجلاً اللحاق برفيقيه. وتمتم من جديد: لا المال ولا قفا الزنجية.

النيران لم تتمكن من مقاومة المطر الغزير فانطفأت شيئاً فشيئاً: وانتشرت رائحة قوية من الذرة والسكر والفاصولياء، واللحوم المشوية، فخرج العاطل عن العمل ونديمه من وراء جذع الشجرة حيث كانا يراقبان سراً ما يحدث في بيت فضول واقتربا من هناك. وعبر بيدرو سيغانو إلى الداخل بعيداً عن النيران المشتعلة وفتّش في داخل البيت. ومن يدري فربما يكون أسعد طالعاً من الصعاليك، وهو الذي كان يؤمن بوجود حمل ثقيل من الذهب تنوء بحمله بغلة قوية، والمكان المخبأ فيه الكنز ليس كيساً أو صندوقاً. أما نديمه الذي يجهل الأمر فقد اكتفى بالتأمل في بقايا النيران. بعد قليل انضم إليهما رجال جاؤوا من المستودع، ونساء آتيات من المراحيض في الهواء الطلق. وتناقشوا بحيوية تفاصيل نهب بيت ومخزن فضول وتنافسوا في ما أمكن إنقاذه من اللهب. وهكذا تمّ استهلاك قسم من ثروة فضول عبد الله الشهيرة. تلك الثروة التي لم يكن يحملها معه وعلى جسده، وهي كناية عن بضاعة في القلعة المحصنة.

8

إذا تمّ الاعتقاد بالقصة المغالية التي رواها، التائه في النواحي السبع، بيدرو سيغانو، فإن زعقات فضول عبد الله غير المرتقبة قد أرعبت السماوات والأرض وهزّت أركان العالم الأربعة لشدة عنفها... الطيور الصغيرة، الوادعة منها والجارحة، البوم والببغاوات قد هربت أسراباً إلى أبعد ملجأ

في الغابة! الحشرات اختبأت في شقوق الشجر، واستيقظ العندليب مرتعداً، والزحافات الصغيرة تسللت إلى أسفل الصخور، الغزلان والأرانب هربت مشتتة، الأفاعي استنفرت نفسها للإنذار الأخير وحدت أنيابها لمواجهة ما سينتج عن الزعيق أو يأتي من ناحيته.. صرخات تعلو من حنجرة معروفة، وفضول يروح ويجيء دون سكة محدودة.

وأجريت الحسابات وألغيت التسعة من الأرقام وجاءت روايات الشهود الكثيرين على وصول اللبناني إلى توكايا غراندي ثلاثة أيام بعد السطو لتضخم وتفخم وتفحم. لقد رأوه خارجاً عن طوره يضرب على صدره بقبضتيه، وبعد أن غرق في اليأس، رفع يديه مفتوحتين إلى أعلى مشيراً باتجاه المهمل، غير المكترث، إله الموارنة الذي كان قد عهد إليه بسلامة البيت وأمن البضاعة. فتح فضول فمه بزعقة حيوان جريح محتجاً على خيانة أبيه له. وعاتب السيد الأعلى بشتائم عالية لإهماله له في الساعة الحرجة، المرة، وفعل ذلك باللغة العربية جاعلاً من المشهد مأساوية أكثر صدقاً، إنه حين يريد أن يتكلم مع الله، فإنه كان يفعل ذلك باللغة الأم، لأنه لم يكن متأكداً من أن العلي القدير يجيد اللغة الأجنبية... أما باللغة البرتغالية فقد أقسم على الثأر، وكان القسم قد أضاع معناه: متى، كيف، وأين يستطيع أن يبر بقسمه؟ في عيد القديس "أبدا".

إن الحوار الغاضب الذي أجراه مع العلي أفاده بتخفيف عبء الحزن الثقيل الذي جثم على قلبه. إن الله لم يهمله، وقد وضع إيمانه على المحك بتجربة أكثر صعوبة من الكوابيس عرضه لها، مع زيزينيا العارية، والتي لا يمكنه النيل منها. وفي الوقت نفسه فإن الله قد أنقذ حياته عندما أخرجه من توكايا غراندي أثناء عملية السطو.

رأوه وقد التزم الصمت ورزح تحت العبء الثقيل. تأخر في التأمل في الفوضى والزبالة كما لو أنه أراد أن يحفر في ذهنه تلك الصورة أو يتركها موشومة في أحشائه. بعد ذلك، نادى على لوبيسينيو الموجود هناك وأعطاه أوامر دقيقة: الابتداء بالعمل عند الباب والواجهات، أما الفراش فلا يستحق العجلة. في اليوم نفسه من وصوله ومشاهدة النكبة، عاد فضول يخدم الزبائن.

بمبادرة منه لم يكن يتكلم عن الحدث. ولكنهم حين كانوا يقودون الحديث إلى الموضوع فإنه لم يكن يمتنع عن المحادثة ويجيب بحذر مظهراً الهدوء والتوازن. لم يطالب أحداً بما إذا كان قد تدخل للدفاع عن أبواب المسكن والدكان، وقد وجد لتصرف كهذا تفسيراً وعذراً: وحده المجنون يجازف بحياته من أجل أكياس من السكر وما شابه، وعلم من جيرينو نفسه بنيّة برناردا وكيف كان صعباً

الإبقاء عليها بعيداً عن الموت وعن عملية جنسية جماعية كان ينوي الصعاليك القيام بها، فلو رأوا ذلك الجمال يريد أن يتدخل في شؤونهم فوداعاً برناردا! وقبل أن يجهزوا عليها لكانوا فعلوا ما هو غير مرتقب: الثلاثة وفي الوقت نفسه وبوحشية تحت إمرة جانجاو فانشاو آكل الأقفية. وساند اللبناني سلوك العجوز: لقد فعلت جيداً. وإن برناردا كانت تعاني الزكام.

لم يقل فضول إنه كان مزمعاً على الذهاب إلى أي مكان آخر أقل عرضة للمخاطر، أو أنه كان مزمعاً على العودة إلى حياة البائع المتجول: فكأنما السطو قد حدث ليشحذ همته ويعطي قراره القوة للبقاء في توكايا غراندي. ومع ذلك كان قد فقد ذلك الفرح والحيوية الشابة؛ لم يعد ينكت، ولم يعد يمازح الزبائن مثلما كان يفعل سابقاً؛ لم تعد شفتاه لتفترا عن ابتسامة بالرغم من كل محاولات إضحاكه. أية نهاية أخذت اللبناني راوي الحكايات الملفقة والمضحكة والمليئة بالابتكارات، يا إله الفتيات؟ الفتيات قلقات ويتساءلن بينهن ما إذا كان فضول سيعود إلى الضحك والممازحة.

ودفن فضول نفسه من جديد في الخداع والمراوغة المعروفين في عمله وتجاوز قرفه وانفعاله، ولكن بقيت هناك معاناة تعذب أعماقه وتمنعه عن النوم وتأكله من الداخل ولا تعطيه راحة أو سلاماً: كانت تلك المعاناة هي استحالة الثأر. كان يؤلمه أن يعلم أن الصعاليك الذين غزوا ملكيته لا يزالون يتمتعون بالحرية، يدمرون ويسرقون الأشياء الثمينة: كانوا يعيشون أحراراً وبعيداً عن متناول يديه. كان فضول يحس بنفسه شقياً، وغير متصالح مع الحياة البشعة.

9

انقضى أكثر من أسبوع على عودة فضول عبد الله وأصبح مشبعاً من الإصغاء إلى التفاصيل والثرثرات حول الموضوع. ثم عاد ليتلاءم مع نمط الحياة التقليدية. وفي يوم، عند آخر الصباح، ترجل النقيب ناتاريو دا فونسيكا عن بغلته وربطها إلى ركيزة في خان المخزن. فأسرع فضول مرحباً ليحيي ويخدم صديقه مهيئاً نفسه لمحادثة حية وطويلة حول تفاصيل المسلسل.

وخلافاً لما توقعه فضول فإن النقيب لم يكترث لذلك الموضوع. تلمظ بطعم الكاشاسا متجرعاً منها جرعات صغيرة وتكلم عن هذا الأمر وذاك. وبلغ النقيب فضول أخبار العقيد بوافنتورا الذي لا يزال قوياً وبصحة جيدة والحمد لله، ولكن حزنه الكبير هو أن ابنه الأستاذ فنتورينيا قد عاد إلى الريو دي جانيرو بعد الاحتفالات بتخرجه، ويبدو أنه غير مستعجل للعودة. وتكلم النقيب أيضاً عن غرسات

الكاكاو التي تخصه إذ كان قد بدأ بزراعتها في بوافيشتا وعلى فضول أن يذهب ليرى كيف تنمو سريعاً.

متعجباً ومشمئزاً أمام عدم اكتراث النقيب، فإن فضول حاول أن يخفي في نفسه الآلام حتى لا ينم مظهره عن خيبة الأمل والقرف الذي يسببه له تصرف النقيب الذي كان يعتز بصداقته.

كان ناتاريو دائماً يظهر الود للبناني. وكان فضول لا يزال بائعاً متجولاً عندما أهداه النقيب مسدساً وأصبح يناديه بعرّابي. وتطورت العلاقات وأصبحت وطيدة بعد أن استقر التاجر في توكايا غراندي. ومع كل هذا لم يشر النقيب إلى الحادثة الأخيرة والمثيرة، ولم يضع نفسه في خدمة فضول كما تقتضي التربية الحسنة ولم يقارب المسألة لا في العير ولا في النّفير.

وبينما عمد إلى لفّ سيكارة من التبغ المعجون قبل ناتاريو أن يشعلها من النار التي قدمها فضول، ورفض كأساً وأبدى استعداده لمتابعة السفر. وبينما هو يدير ظهره للبار عدل وقفته ومدَّ يده إلى جيب سترته الكاكية وأخذ منها السكين التي كان فضول قد نسيها فوق الفراش عندما غادر توكايا غراندي إلى تاكاراس:

– يا عرّابي فضول، ألا تعود هذه السكين إليك؟

وضع السكين فوق خشبة البار فأحس فضول بخفقان شديد في صدره:

– إنها لي! أجل يا حضرة النقيب! اعذرني على السؤال: كيف وصلت إلى يديك؟

– وكيف يمكن أن تكون قد وصلت إليَّ يا عرّاب؟

ذهب إلى خان المخزن وعاد بالبغلة من هناك ووضع قدمه في المهماز وقرأ التساؤل الغريب في عيني فضول، وعندما استوى على متن البغلة أجاب:

– عرفت بالأمر وأجهزت على الصعاليك الثلاثة. إنهم ثلاثة سيئون يا عرّابي فضول.

– التمعت عينا اللبناني وولدت الابتسامة على فمه وأحس في الوقت نفسه بالرغبة في البكاء، ومع كل ذلك أراد أن يتأكد:

– الثلاثة معاً يا نقيب؟

– الثلاثة يرقدون الآن في قبر واحد. إلى اللقاء يا عرّاب.

عادت إلى فضول عبد الله الضحكة، والقهقهة المدوية، والتندر، والمبادرة والرغبة في الوصف والمناقشة، وعادت النزوة وانفتحت الشهية. وكلها نعم الحياة. وأصبحت تسمع توكايا غراندي من جديد أخبار فضول عبد الله. عن لهوه ونوادره، وأخيراً عندما قرّر أن يبسط كفه متخلياً عن بعض الأوراق المالية من فئة العشرين أخذ بيدرو سيغانو الهرمونيكا، ودعيت النساء إلى الحفلة الراقصة حول نار الشواء، ومن كان في طليعة الراقصين كان سيد "القلعة الحصينة". لقد عاد ليكون من جديد السيد فضول وقد تحرر قلبه من التعطش إلى الثأر.

مع كل ذلك لم يتحرر كلياً من القلق. إنه مجبر على أن يسافر بصورة منتظمة لإعادة ملء المخزن بتشكيلة البضائع وللدفع إلى الدائنين، والاطلاع على الأخبار التجارية، وأن يبذل نفسه من أجل ما أصبح معتاداً، وهو سيكون ملزماً بأن يترك المخزن مفتوحاً أمام أنظار المارة وهم أناس من كل الأصناف والمستويات، وسيكون المخزن بعدئذ تحت تصرف أهل السطو واللصوص وزمر الصعاليك.

صحيح أن حظ الصعاليك الثلاثة الأسود قد طافت أخباره العالم: ونسجت حول مقتلهم الأخبار المختلفة والتفاصيل المذهلة. وشاعت خمس روايات على الأقل وهي مختلفة ولكنها تصب في خانة موت الثلاثة؛ وقد أكدت بعض الوشوشات أن النقيب ناتاريو دا فونسيكا هو شريك أرباح المخزن لا أكثر ولا أقل. وعندما كان فضول يسأل عن صحة هذه الشائعات فإنه لم يكن يكذبها: فأكثر من فعالية أي سلاح كانت تلك الشائعة تخدم الدفاع عن أبواب المحل التجاري.

مع كل ذلك، فإن حجم البضائع الكبير في المخزن أخذ يجعل علامات عدم الاطمئنان تظهر واضحة على وجه وحركات فضول. يا ليته يعثر على مسيحي قدير متفرغ وجدير بالإيمان يستطيع أن يوكل إليه البار والصندوق المالي والمسدس، لكان يستطيع أن يذهب إلى المدينة مطمئناً راضياً. وفي مثل هذه الحال ستكون تلبية طلبات الزبائن مستمرة بلا انقطاع، والمبيعات لن تصاب بالجمود، ووجود شخص واقف أمام الدكان ينام في البيت كافٍ لمنع أية محاولة سطو أخرى محتملة. وهكذا سيستفيد من وجود مثل هذا الشخص إلى جانب المعنويات التي يعطيها وجود اسم النقيب ناتاريو دا فونسيكا. مع الأسف فلن يتبين في نواحي توكايا غراندي مواطناً يحمل تلك المواصفات والمميزات الكثيرة.

أما ذهول البعض وتعجب البعض الآخر من فك العقدة وحلّ المشكلة فإن من واجب المسؤولية وتنكب العبء – تأمل – هي العجوز جاسنتا كوروكا. فهي في إحدى الليالي وإذ أحست باكتئاب اللبناني إلى درجة جعلته يلتزم الصمت أثناء الصخب في ساعات العمل المكتظة، فتقدمت منه كوروكا عارضة نفسها بهدوء وغزل:

– إذا أردت يا سيد فضول، فاذهب في سفرتك لترتاح وأنا من سيهتم بالأعمال. اتكل عليَّ فأنا أستطيع أن أقوم بكل ما تقوم به. تستطيع أن تسافر دون حذر.

تأخر فضول في النظر إليها وقياسها ووزنها بعينيه كأنه لم يرها من قبل:

– إنك أنت من يعرض نفسه عليَّ لكي أسافر تاركاً المخزن مفتوحاً فتقومين بكل شيء، كأن تبيعي وتستلمي وتعيدي "الفراطة"؟

– أعطني فقط الأسعار مكتوبة، وأنا أعرف بعض الأسعار الأخرى. سأنام عند البار إلى أن تعود.

حرّك فضول قامته: على ضوء الفانوس التمعت عيناه:

– أنت؟ نظر إليها فضول نظرة ثابتة وفمه مفتوح.

إنها مزحة ثقيلة من مزحات السيد الأعلى إله الموارنة الذي، مرة أخرى، يتركه فريسة الحظ التعيس. وقد ثارت ثائرته وأصبح فريسة الانفعال، توجه بتفكيره إلى السماء: في هذه الساعة الحاسمة التي، مع يأسه، يفتش فيها عن مساعدة رجل قوي قدير ورصين، فإذا بك يا إله السماء تجيبني على طلبي فتعرض عليَّ هذه الداعرة العجوز ذات العظام البائنة؟

وعندما التمع ضوء في دماغ فضول عبد الله وفهم عندئذ أن الشجاعة والمعرفة وأصالة المحتد ليست مميزات الرجال الأغنياء أو الأقوياء، إنها ملك أي إنسان غير خالد حتى وإن يكن عجوزاً داعرة بلا لحم، ألم تكن كوروكا في يوم طيبة الفراش وحسنة النصيحة؟

– أنت؟ أجاب فضول بلهجة مختلفة.

– نعم أنا يا سيدي، ماريا جاسنتا دا أماكولادا كونسيساو، التي تناديها جنابك بكوروكا. أعرف القراءة. وتوقيع الاسم وعمل الحساب وقد سبق أن اهتميت بمحل تجاري صغير في ريو دو براسو. لم أشعر بالخوف يوماً إلا عندما أحببت رجلاً، وهو ذاك الرجل من علمني القراءة. وبينما تبتسم، استنتجت:

– لم أتعلم قط أن أسرق، ولا أعلم لماذا.

بعد إقامته في توكايا غراندي
الزنجي كاستور أبدووين يواجه الوحدة الموحشة

1

تلطخ جسده بدم الغزال البري الذي يحمله على ظهره العاري، بينما تدلى الخرج عن كتفه وربط قطعة من القماش إلى حزامه، فبدا كأنه الإله الزنجي أوشوسي وقد خرج من الغابة متمشياً باتجاه النهر... وعلى وهج الشمس الساطعة تعرفت إبيفانيا على الشريف المحتد من خلال قامته المديدة وصيده المختار. إنه سيد الغابات والحيوانات الجارحة... وأمس لمح به من بعيد الإله شانغو في محل الحدادة وهو يعالج النار كأنه يخترعها من جديد.. "شانغو" أو "أوشوسي" فإن الزنجي كاستور أبدووين اجتاز السهل متسلحاً بفأس وبندقية.

في مكان استراحة السيدات، وهو كناية عن حوض واسع تشكل خارج مجرى النهر،كانت إبيفانيا تسبح مستسلمة للماء والنسيم البارد لتستريح من عناء الليلة عديدة التعريفات! فوق صخرة هناك كانت قد ألقت بثوبها الأصفر الذي أنهت غسيله ووضعت قربه قطعة من صابون الغار. فجأة ارتعشت وأحست بالبرد يلفح أعماقها فغطست كلياً في الماء.

وضع الصياد حمله على الأرض، على مرأى منها، حيث كان النهر أكثر عرضاً واتساعاً: ومن الجرح القاتل في شدق الغزال انسال الدم فصبغ حوض الماء بالأحمر. أخذ قطعة من حزامه ووضعها إلى جانب الجعبة والفأس والبندقية. كان هو نفسه كاستور من صنع النصل الطويلة الحادة، وأرهف حدَّ رأسها وكيف شفرتها القاطعة. وكذلك صنع جعبة الجلد لنقل الطرائد اللينة: وبعدما رفع ذراعيه قفز إلى الماء لينظف نفسه من الدم الذي انسال على ظهره.. ورفعت إبيفانيا نصفها الأعلى لترى بصورة أفضل.

بينما كان يعود إلى مكانه لمحها جالسة وسط المجرى الثانوي للنهر: إنها صورة إلهية، أو بالتأكيد هي الإلهة أوشون بشخصها، سيدة الأنهار، تقوم بزيارة إلى ولاية من ولايات مملكتها.. وقبل أن تختفي الرؤيا محمولة على شعاع، قدم لها تيساو تحية الاحترام وهو ينقر برؤوس أصابعه على جبهته مكرراً التحية "أورا – يي – ييوو".. ولكن الشبح أصرَّ على البقاء، فثبّت تيساو نظره وقام بحركة من ذراعه، ولكي يبدأ المحادثة طلب أن تعيره قطعة صابون الغار... فوقفت على قدميها عارضة صدرها الطري البض. ولشدة انفعالها غدا جلدها الأود أزرق.. الزنجية إبيفانيا صبية في

شرخ الشباب؛ إنها الخطر الأكبر في شعاب الكاكاو وهي تجوب المكان من موقع إلى موقع تزرع الحيوية حيثما وصلت.

جاءت بنفسها تلبي الطلب متوازنة فوق الحجارة الملساء والمسننة، والجلد الأسمر القاتم يلتمع؛ وإذ سلمت الطلبية وقفت في مكانها تاركة له الاستمتاع بالمشهد: كانت المياه كأنها تلد من بطن إبيفانيا. إبيفاني الإله "أوشون". امرأة أوشوسي وشانغو. وبينما هو يعيد إليها قطعة الصابون أمسكها الزنجي من ذراعها وحدّق في أعماق عينيها.

– إنك تيساو... لقد سمعت عنك سابقاً.. تمتمت إبيفانيا وتركت نفسها تنساق إليه دون مقاومة، خاضعة.

غطسا معاً متماسكين: أخذها إلى أعلى النهر وهو يشدها أسيرة إلى صدره، ويسبحان ببطء احتفالاً باللقاء. لم تعد إبيفانيا تحس بتعب الليلة الكثيرة الزبائن. وعندما لمحا على ضفة النهر جسم الغزال البري سألت ليسمعها تتكلم من جديد:

– هل أنت الذي اصطدت هذا يا أبي؟

بحركة من رأسه أجابها بالإيجاب مبتسماً ليعبر عن سروره بالطريدة: إنها أكبر طريدة اصطدتها في الساعة السعيدة وهي مناسبة تماماً. إنها عطية أوشوسي أو شانغو، أو ضحية أوشالا، من يدري.

– غداً الأحد.

– وماذا في الأمر؟ أي فرق في هذه المزبلة بين الأحد وسائر أيام الأسبوع؟

كانت إبيفانيا قد وصلت حديثاً إلى المكان ولم تكن بعد على علم بالعادات والتقاليد التي لم تكن كثيرة ولكن كل واحد فيها كان يكلف جهداً ويقتضي حذاقة ويستدعي الصبر خاصة. وكاستور أبدووين دا أسونسيون عندما يزمع على الغزل فهو لم يتعود على التخلي أو التراجع.

– سأخبرك فيما بعد.

مجرى النهر. أخذ يغطي ويكشف الاثنين: وجرف معه قطعة الصابون.

2

خلال اليوم بكامله كان الإعجاب الأحمق يستكمل معاناته للسأم. لقد اعتاد على الحياة مع من يحب اعتياده الأعياد واحتفالاتها، ولكن ها هو كاستور أبدووين دا أسونسيون، الملقب بتيساو،

يصاب بالكآبة عندما ألقى رحاله في ذلك القفر ليبني فيه بيتاً من الحجارة والطين. لقد تطهر من خطاياه، إن تكن لديه خطايا، ولكنه لم يهرب من تحدي الوحدة الموحشة له.

لقد قرّر كل شيء بنفسه، وبمسؤوليته الشخصية، كونه سيد مصيره، كان قد استعان بالعقيد روبستيانو واستحصل منه على قرض لا بدّ منه لإقامة محل الحدادة، ولكنه لم يسأل العقيد نصيحة ولم يعده بشيء، لا للعقيد ولا لأي طرف آخر. هكذا كان يتصرف منذ أن هرب المحقق حين كان مراهقاً. يتيم، ولد من عبدين، متحدياً السوط والعقاب بالموت، الشرطة والمأجورين، وسلطة السيد ذي المواهب، وبذلك حطم قيود العبودية. لم يكن أحد يأمره: وهو لدى معاقبته البارون أطفأ الخوف والخضوع في نفسه.

أطلق رأسه مع الريح متخلياً عن أعياد ريكونكافو الصاخبة، فخلف وراءه وإلى الأبد بريق الذهب ومملكة السكر: الدارة الكبيرة ومشتملها، وركوب الخيل، والمواهب والنزق والترف. أدار ظهره للسيدات النبيلات وللجواري، ولفنون الهوى لدى الكواعب، ولروعة المتولدات المتعطرات بالخزامى، وتخلى إلى الأبد عن أنواع ترف أوروبا، وفرنسا وباهيا، وفن حضارة أسياد السكر الذي يستخرج من عرق العبيد.

لم يعد يحس بالشوق إلى غير عمه كريستوفار أبدووين، الحداد البارع الذي علّمه المهنة. وقارع الطبل الذي لا يضاهى في الفرقة الموسيقية والذي علّمه الضرب على الطبول الزنجية. كانت كل ريكونكافو كناية عن عيد وحسب.

كانت ريكونكافو كناية عن عيد ولكن تيساو لم يكن مشتاقاً إلى عيد ريكونكافو. تعلم أن يكتفي بالقلة من النساء الضائعات، وأن يحب هدوء الريف، وامتدادات الغابة العذراء وبريق غرسات الكاكاو الزاهي. إنه في توكايا غراندي رجل آخر: بينما يتحدى الوحدة الموحشة كان يخطط لاحتفالات عيد آخر غير عيد البارونة في الدار الكبيرة وعلى شراشف الحرير العائدة للبارون.

مسحوراً بروعة المكان، ومطمئناً لغده، قرّر أن يقيم في ذلك الملتقى لرجال القوافل. زبائن أكيدون، والعائدات تكفي ليعيش ويجمع النقود المعدنية التي سيدفع منها القرض الذي اقترضه من العقيد. ولن يكون مع هذا مجبراً، باستمرار، على أن يؤجر قوة ذراعيه، ويضع ساعديه في الخدمة.

عندما أشعل النار، وأصلى عليها الحديد، ثم ضرب بمطرقته بعدما رفع حافر الحمار ليضع فيه حدوة جديدة – وقد اجتمع حوله المساعدون المتحمسون من النساء ورجال القوافل والصعاليك والسيد

فضول وبيدرو سيغانو – أصبحت توكايا غراندي أكثر من مكان استراحة لقوافل الكاكاو الجاف، وغدت مكاناً ثابتاً بمحل الحدادة الجديد الذي أضيف إلى مستودع العقيد روبستيانو ودار اللبناني وتجارته التي تدب فيها حياة الكاشاسا والتبغ والمأكولات المجففة.

3

من كان أكثر فرحاً بحضور تيساو أبدووين في توكايا غراندي هو فضول عبد الله... وقد بلغ فرح الأخير حداً خصص معه زجاجة كاشاسا للاستهلاك المجاني مساء اليوم الذي رفع فيه الزنجي حافر الحمار وسط صراخ المحتفلين المجتمعين أمام محل الحدادة.

كان الاثنان قد تعارفا في مزرعة العقيد روبستيانو: الزنجي الذي يعمل في تركيب حدوات المطايا، واللبناني الذي يعرض البضاعة في حقيبة المسقطي. وفي إحدى المرات، وإذ كان الاثنان مارين في تاكاراس، اجتمعا معاً في حفلة صاخبة، في نزل الهندية أليس: في ساعة الازدحام في النزل ظهرت مجموعة من زارعي الشغب وانتهى الأمر إلى العراك وطلقات الرصاص... وخرج الاثنان سليمين من العراك. أما الزنجي فبعدما حطم وجه أحد "القبضايات" انتزع منه المسدس – فمن ليس مؤهلاً لمعالجة قضبان الحديد لا يجب أن يضع مسدساً في حزامه لأنه يستطيع بسهولة أن يخسر السلاح وماء الوجه.

كان فضول يرى في تيساو ضمانة أخرى ضد التهديدات المرعبة والمحتملة التي تنغص هدوء المكان. صحيح أن كوروكا كانت تؤدي الحساب بدقة خلال غياب صاحب الدكان، وتهتم بالمخزن، وأي صعلوك لم يعد يسطو على سكان توكايا غراندي: فقبل أن يفعل فإن السيئ الحظ هذا يجب أن يفكر مرتين على الأقل بنتيجة عمله... لقد قلّت المخاطر... وعلى كل حال، ومع كل ما سبق، فإن محل الحدادة الذي أقامه الزنجي مقابل دكان فضول كان يعني سبباً مهماً في إبعاد اللصوص والمجرمين. التاجر والحداد بدآ بمعاهدة بينهما: لا يبتعد الاثنان في الوقت نفسه عن توكايا غراندي: عندما يضطر أحدهما إلى السفر فإن الآخر يبقى ليراقب المكانين ومستعداً للتدخل في حال حدوث أي شيء قد يستدعي التدخل.

بين حركة العمل الليلية والحركة الصباحية، وكلتاهما تتحددان بوصول وانطلاق القوافل، كان الملل ثقيلاً لا يحتمل: وكان الاثنان يملآن ساعات الفراغ ويتحدثان بمودة، ويتذكران الملذات وأيام

اللهو ويرويان حكايات التسلية. وكانا أحياناً يبقيان معاً بصمت: العربي على قرقعة النرجيلة، والزنجي يلف قطعاً من الحديد والتنك ويطعجها بأشكال مختلفة.

كان فضول يحب أن يقوم بتقدير عمل كاستور، وهو عمل دقيق وقاسٍ في آن، وبالنظر إليه وهو يحول قطعة من الحديد التي لا قيمة لها إلى هدية لامرأة أو خاتم أو قطعة تزيين، أو يجعل من تنكة مهملة وعاء لاستعمال. وفي المقابل، لم يكن هناك مصغٍ أكثر انتباهاً من تيساو لأخبار اللبناني، وأسفار التوراة وبهارج الشرق، والأنبياء والأعاجيب. عينان جاحظتان، وفم فاغر مشدود عليه علامات التعجب والضحك المتواصل، بها كان الزنجي يتابع الأحداث خطوة خطوة وبمتعة وولع. ولم يكن يضيع تفصيلاً واحداً عندما كان الراوي يشير بيده إلى حدث مهم، ولكي يعبّر عنه بصورة أفضل كان يفسر باللغة العربية.

كانت النساء يبتسمن للفظ فضول، ولكنه لم يكن يعيرهن اهتماماً فقد كان يصر على الاستمرار بالرواية بحيوية: عندما كان صغيراً، في لبنان، كان ينشد الأناشيد في كنيسة القرية. وإذا صادف وجود بيدرو سيغانو مع الهرمونيكا، كانت النساء يتوسلن إلى كاستور ليسمعهن نشيداً، وكان الزنجي يعرف الكثير منها ولم يكن يتردد:

"لو سألني الله

ماذا تريد أن أمنحك؟

– أريد أن أعيش على

فستانك الملتصق بك..".

خطير ودافئ صوت تيساو الذي يلعلع في الغابات وعند سفوح الجبال. وكانت زليخة مطروبة تؤكد أن العصافير على الشجر كانت تصمت لتصغي إليه. فنون ومواويل كاستور حذاء الحمير كانت تخرس الطير وتجعل الأفاعي هادئة في جحورها، وتجعل القلوب مستسلمة. إنه زنجي خيالي سعيد، ساحر، بدونه كيف يمكن أن تكون توكايا غراندي؟

4

لمعرفة التاريخ والتقويم الشهري، ولمعرفة أيام الأسبوع كان جميع المقيمين في توكايا غراندي يحتاجون إلى الاستنجاد بالروزنامة الوحيدة المعلقة عند باب مستودع الكاكاو الجاف... وكانت الروزنامة موضوعة ضمن إطار من الكروم يجعل النظر إليه متعة، والصورة كناية عن مشهد شتوي

لريف أوروبي، الجبال فيه بيضاء من الثلج وكلب كبير يقود أحد المفقودين من عنقه. إنه مشهد مثير للإعجاب. وتحت الصورة كتلة كبيرة من الأوراق المطبوعة أشير فيها إلى التاريخ واليوم. كانت الروزنامة هدية بمناسبة العام الجديد من العقيد روبستيانو إلى العجوز المخلص جيرينو.

وكونه المالك المنقذ لهذه التحفة الثمينة، فإن جيرينو كان يعرض الصورة على الفتيات ورجال القوافل، مكرراً معلومات سمعها من العقيد: في الخارج لا يمكن تصور البرد القارس، لذلك فإن البراميل مليئة دائماً بالكاشاسا لإنجاد من هو بحاجة إلى الدفء. روزنامة أجمل وأكثر تثقيفاً من هذه لا يمكن لأحد أن يتمنى، ولكنها غير ثابتة وغير آمنة. لذلك فإن العجوز جيرينو كان يمضي أياماً دون أن يقتلع الصفحات، وعندما كان يتذكر ليستجيب لتوصيات العقيد كان ينتزع الصفحات مع "الله كريم" واحدة، اثنتان، ولم يكن ينتزع أبداً ثلاثة أوراق بغية الاقتصاد بها، ولأن الحروف والأرقام كانت أموراً لا يفهمها معظم المقيمين والمارة، كانت الحياة تسير بتأخر دائم ولم يكن أحد بقادر على التأكيد ما إذا كان التاريخ في أواخر آذار/مارس أو أوائل نيسان/أبريل، أو إذا كان اليوم أربعاء أو سبتاً. وماذا عن الأحد، اليوم المقدس؟ لم يكن للأحد وجود في توكايا غراندي.

هذه الروزنامة معيقة عن العمل ومضيعة للوقت: لم تكن ذات شأن مهم بالنسبة إلى البعض، ولكن الآخرين كانوا يهتمون بالتاريخ واليوم وينفعلون لمعرفة ذلك. كان للبناني فضول مال ليستلمه من الزبائن الذين ائتمنهم أو أقرضهم بالفائدة، وكانت عليه مدفوعات للمجهزين في التواريخ الدقيقة المسجلة باللغة العربية في أحد الدفاتر... الناس المتطرفون كانوا يعتبرون الأحد يوم راحة إلزامية وفقاً لما تأمر به شريعة الله، علماً أن إله فضول الأقل تطلباً في الشؤون الدينية كان يبيح التجارة نهار الأحد، وبالتأكيد مع ارتفاع قليل بالأسعار والأرباح... أما برناردا فكانت تنازع محاولة التكهن بالأيام السعيدة من زيارات العرّاب التي كانت سبب حياتها. كانت تلك الزيارات سابقاً متكررة وسريعة، ولكنها غدت سريعة جداً وأكثر من اللازم... بسبب روزنامة جيرينو حتى النقيب ناتاريو دا فونسيكا رأى نفسه مجبراً على تغيير عاداته وأوقاته.

5

ما يحمل على الضحك هو ما يحمل على البكاء، والعكس بالعكس. كانت النساء يؤكدن هذا لمعرفتهن بالسبب. وقد جربت برناردا المثل وتأكدت منه مباشرة ومقلوباً عبر ليلة من الليالي التي لا نهاية لها، عندما أحست بأنه قد ذهب دون رجعة وأن العرّاب قرّر أن يبدّل الأوقات ويطيل مدة

بقائه بعيداً عنها، فكانت تخنقها العبرات والتنهدات الجاثمة على صدرها، ولكنها عادت تضحك وتضحك جيداً عندما علمت بسبب مكوثه بعيداً عنها وبالنتائج.

... بينما هي في الفراش، أرهفت برناردا سمعها: فمن الخارج كان أحدهم يحاول أن يفتح مزلاج الباب بإدخال خنجر من شقه. قفزت برناردا مذعورة ثم علمت بالتالي! تأكدت من أن المقتحم هو العرّاب وقد قدم موعد الرجوع من سفره. وأرادت أن تقوم من الفراش ولكن الفرصة لم تسنح لها: وعلى ضوء الفانوس النائس رأت العرّاب النقيب ناتاريو وقد وقف في الباب آمراً بصوت منخفض:

– أخرجيه من هنا فوراً...

في الظلام لم يعرف الرجل الذي في الفراش من الذي تجرأ على اقتحام المكان. وكان ذلك الرجل متولداً طويل القامة متعوداً على الحياة في بيوت النساء العاميات، فظن أن شأنه مع أحد السكارى المتعتعين الذين لا يستطيعون المقاومة. وإذ لا يزال في الفراش تكلم بغلاظة:

– لا تعرض نفسك للإهانة. لماذا تخرجه من هنا؟

– تخرجه لأنني أمرت بذلك.

– ومن عساك تكون لتعطيني الأوامر؟ انتفض من فراشه مستعداً لإعطاء الصلف الأمثولة التي يستحقها.

أنا النقيب ناتاريو دا فونسيكا. ابتعد تاركاً الباب مفتوحاً والتمع فولاذ المسدس على ضوء الفانوس الخافت.

– حباً بالله لا تفعل يا نقيب.. لا تطلق النار!!

ارتدى سريعاً بنطاله وقميصه وخرج من الباب مختفياً في الغابة ولم يتوقف عن الهرولة إلا حين اعتبر نفسه قد سلم. حالفه الحظ: لقد لمح النقيب وتميزه قبل أن يرتكب جنون تسديد ضربة من قبضة يده إلى وجه النقيب فيكون بذلك قد حكم على نفسه بالموت... حماقة كتلك لا يمكن أن يرتكبها عاقل من أجل أجمل أنثى في العالم. لن يعود إلى هناك وإن مجاناً ولينجه الله ويحرسه.

وقفت برناردا مذعورة، غير قادرة على الكلام، ولم تطلب من النقيب البركة. ظلّ ناتاريو محتفظاً بسلاحه، ووجهه قاتم لا يمكن اختراقه، وصوته قاسٍ:

– لقد أعلمتك بأنني سآتي للنوم هنا في هذا اليوم، هل نسيت؟

– لقد قلت إنك ستأتي يوم الأحد.. وحتى اليوم فإنني ذهبت إلى روزنامة جيرينو أنقّب فيها...

من الغرفة المجاورة ارتفع صوت كوروكا...

– صحيح ما تقوله، لقد ذهبت معها إلى هناك، والروزنامة تشير إلى أن اليوم هو الخميس...

جلس النقيب فوق الفراش ونزع حزامه وراح ينتزع جزمته:

– اذهبي واغتسلي...

بعد الذي حدث وعندما جاء يودعها منصرفاً:

– سأعود بعد سبعة أيام لتمضية الليل. عدّي على أصابعك حتى لا تخطئي مرة أخرى.

6

بعد اتخاذه توكايا غراندي مقراً دائماً للإقامة، فإن الزنجي تيساو جعل من يوم الأحد يوماً ذا حدث مهم ودائم الأهمية يبدأ به الأسبوع، ولكي يثبت هذا الأمر دعا السكان إلى حفلة غداء وزايد الجميع في تجنب الاتفاقيات التجارية المكتوبة والخطايا والخداعات، فأصبح يوم الأحد يوماً آخر في مصلحة التجارة الشرعية والدين وخير الخليفة.

صياد ماهر تمنحه الغابة ما هو ضروري لينوع في الطعام... وصديق أليف، كان في أيام الصيد الوفير يخصص قسماً من صيده للسكان الواصلين حديثاً، وكل مرة لواحدة منهم. وقد سألته مرة إحدى الفتيات عن سبب عدم بيعه للطرائد بدلاً من منحها مجاناً مما يمكن أن يعود عليه بمال كثير، فأجابها بأن الصيد ليس مهنته وأنه يعتاش من عمله في الحدادة... وبعد فترة قصيرة خطر في ذهنه أن يزيد من أرباحه، ولكن لم تحركه أية رغبة في الخداع عندما قرّر أن ينتج لحماً مملحاً جافاً، وبعد ذلك القرار تفانى في تنظيم غداء يوم الأحد وكل الآحاد... لقد فكّر فقط في تحسين الحياة وفي أن يجمع شمل الناس في المكان الصغير.

ولإنتاج اللحم المجفّف اعتمد في الحال على مساعدة فضول ومن يدري، فقد يكون هذا الإنتاج عملاً تجارياً مربحاً: واعتمد على مساعدة العبدة دليلة التي رجعت إلى توكايا غراندي... ومن ناحية العبدة الجميلة فإنها حين عرضت نفسها للمساعدة لم يكن لديها أية نوايا غير التعاون، ولم تفرض أي ثمن لعملها ولم تشر إلى أي ربح بالرغم من كونها اختصاصية وذات ممارسة في هذا المجال مشهود لها: لقد ساعدت شاكرة بغية المساعدة حسب.

بعد القلق الذي اعتراها عندما هددها جانجاو فانشاو بالاغتصاب، فإن الفتاة اختفت وبالتأكيد تفتيشاً عن أرياف أقل عداوة حيث يمكنها أن تمارس المهنة بسلام... وضربت في المسافات فراسخ

وفراسخ ولكنها ما لبثت أن وجدت نفسها من جديد في تلك الربوع ولاحظت نمو توكايا غراندي المطرد حيث ازداد عدد السكان، وعدد المستودعات، وقلّت الأخطار وقامت الحدادة التي لا تنطفئ لها نار.

ما عدا أخبار السوء عن نوايا الأشرار الذين قتلوا، وعن مخططات جانجاو فانشاو، فإن فضول عبد الله أطلع دليلة وبرضى بائن في توجهه على موت فانشاو. كانت الفتاة قد علمت بالأمر: إن الحدث قد أثار الدهشة وأعطى المقيمين هناك شيئاً يتحدثون فيه، وازدادت الشائعات ووصلت إليها في إيتابيرا... هل بلغت الشائعات إلى ذلك المكان البعيد؟ كيف أقول لك؟

– قولي لقد قطعوا رأسه وكان عملاً عظيماً استحقه المجرم. إن الله كبير. لم يكن في نيته تكذيب التفاصيل القاسية عن الروايات المتناقضة حول نهاية اللصوص. لذلك بدّل اتجاه الحديث تاركاً دليلة في قناعاتها:

– هل صحيح أنك تفعلين كل شيء؟

– لم ترتبك عند سماعها السؤال، وحوّلت نظرها عنه وهي تجيب بحزم وغموض:

– لا أظن أنني أفعل أي شيء مما تعتقد، ودون ذلك الموت.

وظلّت فتاة الهوى واللبناني يتمازحان بتلك المداعبات الكلامية إلى أن وصل كاستور حاملاً معه الدعوة: ألا يريد السيد فضول أن يشاركه في عملية ذات نجاح غير متصور؟ كان يفكر في صنع اللحم المجفّف الذي لم يسبق أن صنعه سابقاً ولكن تذوقه لن يكلف فضول شيئاً. وفي مزرعة العقيد روبستيانو شاهد سكان الداخل يملّحون لحم العجل في يوم ذبحه ويعرضونه للشمس فينتج عن ذلك طعم شهي ولا طعم الطرائد الطازجة. فماذا يفكر فضول لو أن كاستور شارك باللحم، وفضول نفسه شارك بالملح؟

أعلنت دليلة نفسها عليمة ومجربة في المسألة. في أعلى الداخل حيث ولدت، وسط تربية العجول، فإن الشعب كان يعيش من تلك الصنعة – يملح اللحم الطازج ويشمسه محولاً إياه إلى لحم مجفّف لحساب العقيد راوول الذي كان لدى مروره من هناك يقيم لها حفلة سريعة. وكانوا يملحون أيضاً البقر وحيوانات أخرى أصغر منها، أنواعاً من الطيور يقلون العصافير الصغيرة لبيعها في المعارض الشعبية.. ومن هذه العصافير لم يكونوا يبقون شيئاً حتى إنهم كانوا يمضغون العظام حتى الآخر...

الشركة التي تمّ تأسيسها على أيدي الشركاء الثلاثة – تيساو بصيده، وفضول بملحه، ودليلة بخبرتها – أخذت تتوسع باطراد، ولوبيسينيو وباستياو دا روزا أقاما مكاناً يعلقان فيه اللحم المملح. نساء أخريات جئن للمساعدة وكانت على ضفة النهر حركة غير اعتيادية خلال عملية التجفيف. كثير من العمل وقليل من اللحم، ولكنه كافٍ لكي يحصل كل واحد على وجبته الكاملة. تأكد فضول من أنه لن يبقى للتجارة أي قسم من اللحم المجفّف، ولكن مع ذلك ظلّ مستمتعاً بالعمل: ليس كل شيء مالاً وربحاً في هذا العالم.

الشمس الحادة ساهمت في إنجاح التجربة. خلال تلك الأيام الحارة لم تهطل الأمطار. وعندما أعلنت دليلة من برج خبرتها العالي أن اللحم المجفّف أصبح على عتبة إرساله إلى النار ليصبح طعاماً، كان العيد غير مرتقب. وفي وعاء آخر ذهبت برناردا وكوروكا في طبخ قسم من اللحم بالفاصولياء السوداء. وذهبت زليخة ترش الطحين على دهن القلي، وانصرفت كوتينيا لصنع حلوى الجاكا.. وجمع الموجودون بعض النقود المعدنية لشراء زجاجة كاشاسا من دكان فضول الذي ساهم بدوره مخفضاً السعر. وانتهى الأمر إلى أغنية جماعية.

هكذا ولدت فكرة غداء يوم الأحد، وحيوياً كما هو شأنه فإن تيساو كان واضع العرض الذي استحق التصفيق الحاد من المحتفلين: إنه غداء يجمع الجميع مرة في الأسبوع لملء المعدة الخاوية والتحدث والضحك. في البدء شارك القليلون ثم انضم الآخرون إلى الغداء.

أيام الآحاد كانت تلم شمل الجميع في ساعة الحر. تيساو وفضول، جيرينو ورجال المستودع، غيدو وباستياو دا روزا، بالبينو ولوبيسينيو، كوروكا وبرناردا، زاي لوبيس وميرنسيا، زليخة ودليلة، والناعمة كوتينيا، وكان الجميع يتزاحمون في المشاركة وصولاً إلى الأكلة الطيبة. وعندما يكون بيدرو سيغانو موجوداً فإنه كان يشارك بالعزف لأغنية جماعية راقصة.

كانت ميرنسيا تقوم بتقديم الشكر إلى الله في اليوم المقدس، وفضول يرافقها بالتضرع متمتماً باللغة العربية والعاهرات يجبنه: آمين.. وكان رجال القوافل يؤخرون انطلاق قوافلهم ليرافقوا المحتفلين ويشاركوهم الأكل والشرب.

استجابة لطلب إبيفانيا، الزنجي كاستور أبدووين
ينظّم الاحتفال بعيد القديس يوحنا

1

في صبيحة أحد الأيام، كان الزنجي كاستور أبدووين يضع حدوة في حافر الحمار بياسافا، عندما حوّل عينيه إلى داخل محل الحدادة فلمح كلباً مستلقياً قرب النار المشتعلة. ظنَّ أن الكلب يعود إلى لازارو، البيطري، في أنحاء توكايا غراندي، أو إلى كوسمي ابنه ومساعده. ربما يكون الكلب لإحدى الملكيات الحديثة إذ لم يسبق أن رآه يقتفي أثر القوافل التي يحدوانها. كان الكلب مصاباً ببرد يجعله يرتجف. فحاول الاستفادة من لهيب النار قبل أن يتابع مسيرته. ولكن تيساو لم يحسده على حظه: فالطقس سيئ للغاية.

وبسبب حالة الطرقات السيئة كان لازارو قد وصل في ساعة متأخرة من الليل، متذمراً: خلال المسيرة البطيئة. فقد الحمار بياسافا حدوة فأخذ يعرج مضيفاً إلى التأخير تأخيراً بسبب إعاقته. المصيبة دهمته فوقعت عليه أسوأ من وقع السوط.

قضيا الليل حتى الفجر عند باب الحداد وفي نيتهما بلوغ تاكاراس قبل انطلاق القطار. وبينما راح كوسمي يشد عقدة الواقيات من المطر الموضوعة فوق الحمولة ليقيها الرذاذ المتواصل، راح لازارو يمعن النظر متعجباً من دقّة عمل كاستور ومهارته. كانت الرؤوس والأكتاف مغطاة بأكياس من القنب حوّلت إلى مشالح وقبعات، والأقدام عارية، والبناطيل مبللة، والأب وابنه يسيران في الطين مستنكرين السماء المكفهرة، الصاخبة، المحزنة.

لم يكن الأمر متعلقاً بغيمة صيف عابرة تسكب ماءها دفعة واحدة بل بعاصفة من تلك العواصف التي تصيب الدنيا بالعتمة فلا تترك مجالاً لتحديد عين الشمس لشدة قتامتها. لقد بدأ الشتاء، وأصبح المطر مستمراً، والنهارات بشعة، والليالي باردة، والأفق رمادياً، يرافق كل هذه الطين، واندفاع المياه.

عند نقاط مواضع الرحال، وفي الدساكر كما في الخانات المعدة لقضاء الليل، كان رجال ومساعدوهم يفتشون عن الدفء في مساكن الفتيات بينما كانوا في الدكاكين ومراكز البيع الأخرى يسعون إلى تنظيف حناجرهم وتدفئة صدورهم بجرعة من الكاشاسا. وقبل أن يستأنف المسيرة كان لازارو وكوسمي قد شفيا غليلهما في قلعة فضول المنيعة. وأمس، كانا قد وصلا متأخرين إلى نزل العاهرات. وفيما هو متعلق بالمرأة وغيرها من الملذات، كان الاثنان صاحبي ذوق متشابه، وهذا أمر

طبيعي. على الطريق كانا صامتين، منتبهين إلى الكمائن والمفاجآت؛ وصلا وفي نفس كل واحد منهما رغبة في برناردا... كان النزق يخفف من مشقة الرحلة المتعبة، ويجعل أوقات الفراغ الطويلة أقل طولاً. وإذا لم يكن ممكناً الحصول على برناردا، الجميلة، فأية امرأة يمكن أن تفي بالغرض.

عندما أصبح الحمار بياسافا محتذياً، فقد انطلق مسرعاً ونهيقه يشق الهواء لينضم إلى القافلة. وبينما يدفع لازارو كلفة الحذاية تفكه بقوله:

– إنك فرح بالنعل الجديد يا ابن...

حدا كوسمي قافلة الحمير، وتمنى لهما كاستور رحلة طيبة ثم دخل إلى محل الحدادة – فيما بعد وعندما يتوقف المطر فإنه سيذهب لجمع الطرائد. وقرب النار، رفع الكلب رأسه وحرّك ذيله فوضع الزنجي يديه حول فكي الكلب مداعباً ثم صرخ:

– لازارو انظر إلى الكلب!

أوقف لازارو خطوه:

– أي كلب؟

– الكلب الذي جاء معكما!

– معنا؟ لم يأتِ معنا أي كلب، هل بدأت ترى أشباحاً؟

إذا لم يكن قد جاء مع قافلة لازارو، فمع من عسى يكون قد جاء؟ لا بدّ من أن يظهر صاحبه، فكّر الحداد. وبغية استجلاء الأمر جلس كاستور على كرسي الإله شانغو:

مدَّ يده فحاول الكلب أن يقف إلا أن أرجله لم تحمله، ثم تمكّن بجهد من الانتصاب وهو يحرك بذيله. وراح الزنجي يتأمل فيه من مسافة قريبة فرآه تعباً، خاوياً، مبللاً، وتكاد عظامه تخرج من جلده، فاستنتج أن الحيوان كلب بلا سيد، سائب، يفتش عن حفنة طعام وعن كلبة مشبوقة. وبالطريقة التي جاء سينصرف من جديد.

لامس الزنجي الكلب بهدوء مداعباً إياه بحك رأسه. بعد ذلك راح يعالجه بحذر فلم ينل إلا نباحاً جعله يتراجع. وبينما استمر الامتحان فإن الكلب لم يتراجع عن نيته الأصلية في الاحتفال بكاستور فاستمر بتحريك ذيله الأملس. كان الكلب ذا حجم متوسط.

لدى سماعها النباح المتواصل، قدمت إبيفانيا بفضول لتستطلع الأمر. كانت تلف حول خصرها قطعة من القماش الرقيق المزهر، بينما كانت عارية الصدر، وبدت مشبعة بالرطوبة بسبب برودة الفجر... تعجبت عندما رأت الكلب القذر الضعيف. وسألت:

– من أين خرجت هذه النفس المعذبة؟

– لم تخرج من مكان. لقد ظهرت.

كيف وصل الكلب، ومن أين جاء، فهذه أمور لم يعرف كاستور كيف يجيب عنها: لقد ظهر هنا فجأة للاستدفاء بالنار. فجأة؟ لم تتعود إبيفانيا التعجب: كانت لديها القدرة على توضيح أكثر الأمور غموضاً. لم يكن هناك شيء صعب على الإدراك، وبالنسبة إليها كان كل شيء يبدو واضحاً سهل التفسير. كل شيء ما عدا الزنجي كاستور أبدووين.

– إنه عطية الإله – كانت تشير إلى الإله إيشو – فكّر فيما أقوله لك. استجمع قواك وفك العقدة. ألا ترسل إليه الطعام كل يوم اثنين؟ ولمن تتجرع جرعة العرق الأولى؟ أليس من أجله؟ وأجبني: من رأى صياداً في الأرض يصيد بلا كلب؟ إن الإله إيشو لا يخذل من يحفظ له الود ويكن له الاحترام.

ذهبت إبيفانيا لتجلب ماء في إناء. فشرب الكلب بشراهة. أما ما كان قد زاد من لحم وفاصولياء، ليلة أمس، فإن الكلب نظر إليها بشك، ثم تأخر وهو يشتمها متردداً: يشك في أن حظاً كهذا قد توفر له. كانت عينا الحيوان الخائفتان تذهبان من كاستور إلى إبيفانيا وتتوسلان الإذن والكفالة. إنه بمناسبات سابقة، كهذه، تعرض للكثير من السوء.

مليئة بالوجع، دفعت إبيفانيا وعاء الطعام إلى أن استقر تحت شدق الحيوان مباشرة: فقط عند هذه المرحلة تجرأ أن يبتلع قطعة اللحم ومعها قليلاً من الفاصولياء، بعد ذلك مدَّ الحيوان لسانه ولحس يد الزنجية المندسة قرب تيساو.

– المسكين يكاد يموت جوعاً.

– لقد أمعنوا تعذيباً فيه؛ إنه مصاب بقروح. لا بدّ من أنه هرب منهم عبر الغابة.

– مع هذا الطين ليس من السهل معرفة لونه، ولكن له بقعة سوداء في صدره وأخرى في جبهته. سترى: حتى إنه جميل.

– جميل؟

ضحك كاستور غير مصدق: قلب من ذهب شبيه بقلب إبيفانيا لا يوجد: جميلة وممشوقة القد، بلا شك، ولكنها أيضاً طيبة وخدومة كما لا أحد سواها. ومدَّ كاستور أصابعه منادياً النفس المعذبة:

– تعالي إلى هنا أيتها النفس المعذبة.

بجهد تمكّن الكلب من البقاء واقفاً، وتقدم من طرقات الأصابع ونبح عالياً، وذيله في الأعلى، متحركاً: لقد استدفأ بالنار، ونال ماء وغذاء وحناناً.

ما عدا إبيفانيا بقدرتها على استجلاء الأمور الناهضة، وفك الألغاز، فإن أي شخص آخر لم يعرف من أين جاء الكلب وكيف وصل إلى تلك الربوع. لم يصل أي خبر ولا أي شيء يستدعي الظنون. ولم يعرف أحد الكلب ولم يدعيه. وتيساو لم يصدق بما تكهن به. كان الكلب سائباً ولا سيد له، فإنه قد أحب هذا البيت وعرف فيه من اتخذه صديقاً.

3

مشت إبيفانيا حتى بلغت باب الحدادة معرضة نفسها للمطر اللزج، المتواصل: لم يكن الطقس يسمح برؤية السماء، وتأسفت:

– إنني أحس بثقل في صدري، وبانقباض شديد... ويبدو كأن عيناً حسودة قد أصابتني. وهذا ممكن جداً.

وقف تيساو راغباً في استجلاء أمر يراوده منذ أيام:

– حتى إنك تمشين بثقل.. هل أنت..؟

في هذا الصباح غير المشمس لم يلح له شعاع ضوء ولم يحصل على جرعة دفء. وإبيفانيا التي تفهم الأمور بشكل مفاجئ، قاطعته:

– لم أجد مكاناً أكثر تخلفاً من هذا المكان، ولا لهو في هذا المكان حتى في عيد القديس يوحنا. إني أستنكر هذا الواقع! ولكنه تابع مكملاً:

– إنك تريدين الذهاب إلى غير هذا المكان، أليس كذلك؟

مشت إبيفانيا باتجاه كاستور، معطية نفسها بكليتها، واهبة إياه عنقها وصدرها. كانت عندما وصلت إليه، وقد وضعت يديها على كتفيه العريضتين، واجهته بصوت يحمل الشكوى والتحدي في آن:

– لن يكون لذهابي أية أهمية بالنسبة إليك.

عليمة بنزواته، فقد قربت جسدها منه، إذ كانت تعرف طاقاته ونقاط ضعفه. وحدّق فيها قبل أن يستأنف الكلام:

– إن ما تريدين معرفته هو مدى تمسكي بك، ومدى حزني على ذهابك، لتهزئي مني. إنك حركة في أن تفعلي ما تشائين. نحن لا يربطنا عقد موقع وليس هناك شيء جميل ليدوم، وهذا ما كنت قد قلته بنفسك وشددت عليه. هل تذكرين؟ ولكن لا تقولي إنني لا أهتم.

– إنك لا تهتم بشيء. لا تحبني ولا تحب سواي. ولكن في يوم ستعرف الحب والويل لك لما ستعانيه. ستعرف بالحب، مع ذلك، صفة السعادة، وتعلم بما هو طيب – وطوقته بذراعيها.

– كيف يمكنك أن تقولي شيئاً كهذا؟ وكيف تدعين أنني لا أحبك؟ ألا ترين؟ ألا تحسين؟

كانت تحس بالضغط عليها:

– للذهاب إلى الفراش أجل، إنك تحبني وتحب زليخة، وبرناردا ودليلة، وحتى كوروكا. أية امرأة لا تحبها؟ قافلة من التافهات المولهات بتيساو، ابتداء مني. يقال إن الأمر هو نفسه في تاكاراس. هل تعلم ما أنت في الحقيقة؟

ازداد جسد الزنجي التصاقاً بجسدها، وارتفعت حرارة التوقد، وإلا فلمن الطاقات الكبيرة ونقاط الضعف؟ أقفل عينيه: ماذا يفيد أن تكون ممشوقة القوام وكبيرة الهامة؟ متعلقة به. مستهلكة، كانت تنتهي دائماً إلى إلقاء السلاح في ذروة التوقد.

– أحياناً أفكر في أنك لست أكثر من طفل كبير، دون تفكير أو إرادة.

– إنك لم تجيبي بعد عن السؤال: هل تفكرين في مغادرة هذا المكان؟

دون أن تفك ذراعيها عنه، أبعدت إبيفانيا جسدها:

– هل تريد أن تعرف الحقيقة؟ لم أقضِ في حياتي عيد القديس يوحنا دون أن أشعل النار واشوي الذرة الصفراء وآكل الكابيكا وأرقص الرباعية – نظرت إلى الخارج، وكان المطر قد أخذ يخف في السماء:

إن شهر حزيران/يونيو قريب. بالنسبة لي، ليس من عيد يضاهي عيد القديس يوحنا، فرحاً.

بعدما أفرغت ما في صدرها أحست بنفسها فارغة وحزينة؟ وعادت لتلتصق بكليتها وحرارة الزنجي تدفئها أكثر من حرارة الحدادة – عند ذاك الحد لم يعد مهماً معرفة من سيستسلم، في البدء، للآخر:

– لم أكن أفكر في البقاء هنا زمناً طويلاً، ولكنك وضعت الأغلال في رجلي. ولم تطلب مني مرة أن أمكث معك.

– وهل كان ذلك ليرضيك؟

– إن لديك دائماً جواباً، إنك العفريت بنفسه. كنت قد ارتبطت بكوتينيا، ولكن من أجلك أستطيع أن أنسى مار يوحنا نفسه.

– وهل تحبين مار يوحنا إلى هذا الحد؟

– وأكثر من هذا.

وكانت ترغب في رؤية النيران المشتعلة وفي البطاطا الحلوة، والذرة الخضراء، وشرائح الكانجيكا، وشراب الجنيبابو، وخطوات رقص الرباعية – وهي تستحق كل هذه الأمور... الأخريات أيضاً يستحقن. ومرَّ تيساو بيده على ظهر إبيفانيا. وها هي الزنجية إبيفانيا، الساخرة، التي يتوسل إليها الرجال فتعاملهم بالتعالي والكبرياء: ها هي مرتمية بين ذراعي تيساو، ودون حركة، ودون مقاومة، فمن يصدق؟

– إذا كنت ترغبين في قضاء عيد مار يوحنا في مكان آخر أكثر حركة فإن بإمكانك الذهاب، ولكن يجب أن تعلمي أن في هذه المناسبة ستقام حفلة كبيرة في توكايا غراندي... وستستمر حتى المساء وطيلة اليوم التالي.

– ومن الذي سيقيم الحفلة؟ أنت؟

– إنني أيضاً أحب الحفلات وأشتاقها.

– هل ستقيم الاحتفال لزنجيتك؟

– من أجلك ومن أجل الجميع.

– يا لك من زنجي رائع، متحضر. إن في نفسي الرغبة في رؤية ذلك.

– أجل. سترين.

أحست إبيفانيا بنفسه.

وقد استيقظت، فانطلقت بغنج ودلال:

– إنني أحس بوجع في جسدي: لقد أصابتني بعين حسودة. إنك الإله إيشو "إيغبا"، إنك كلب.

– اسمي كاستور أبدووين، والفتيات يناديننني بتيساو، فهل أنا شاب طيب أم لا؟

رافق الكلب بعينه الزنجي واحدهما يضحك للآخر. وبينما عادا إلى غرفة الحداد، سمع الكلب اللهاث في شبكة الأرجوحة فأخفى ذيله بين جنبيه ونام.

4

كانت إبيفانيا تمتلك منديلاً أصفر هو كنزها الأكبر ومجموعة من الأبواق الصفدية السحرية تستطيع بواسطتها التكهن. وكانت بعض الفتيات يخشينها ويمكثن بعيدات عنها، قلقات، ظناً منهن أنها ساحرة.

وتدبرت أمرها مع المقيمين في توكايا غراندي خلال فترات الانتظار لحصاد المواسم، وراحت تطوف، هناك، الطرقات السهلة والآمنة تحت وهج شمس الصيف المتحكمة بالحياة ومخلوقاتها. وكان الفقر في ذلك المكان النائي يذوب في المناظر الخلابة التي لا مثيل لها، وفي روعة المكان. وإذ لم يكن من كاكاو لنقله فإن حركة القوافل والحدادة كانت تتضاءل في فترة الانتظار... وكانت الفتيات اللواتي يحملن في أقفيتهن ما يستحثهن إلى ممارسة المهنة يذهبن إلى الأماكن الآهلة ذات الزبائن الثابتين. وفي مواجهتها لمزاحمات قليلة، فإن إبيفانيا حكمت حكماً مطلقاً على أسفل ما بلغوه من دركات. وفي حدادة كاستور أبدووين خلال فصل الحر لم تكن هناك نجمة مرغوبة وامرأة أكثر أناقة منها باستثناء برناردا. ولكن برناردا لم تكن في الحساب، فهي بزرة جديدة تمارس الفراش بالمصاحبة وتسكن بيتاً من الخشب.

كانت إبيفانيا قد رأت فضول شخصاً ذا كيان ما فتمددت معه ليلة وصولها وكررت ذلك مرات عديدة، وقد أحسنت تقدير جاذبيته وطاقته الهائلة، ولكنها لم تطل علاقتها به إذ تعلقت بتيساو لدى رؤيتها إياه من بعيد في محل الحدادة يهوي بمطرقته على الحديد المتقد اللظى.

إن المصاحبة تعاش مع شخص واحد في كل مرة، وإذا لم تكن كذلك فهي ليست نتيجة توله حقيقي بل خدعة وخيانة لا بدّ من أن تنتهي بالتشاتم والبكاء حين لا تنتهي بالطعن بالسكاكين أو بطلقات الرصاص. كانت إبيفانيا تعتبر المصاحبة موضوعاً جدياً ومعقداً: لذة وعذاب، انسجام ونفور، خصام ومصالحة، والمصالحة تضاعف اللهفة وتكيفها بصورة أفضل.

وإذ كان رأسها كأنما صنع بيد الإله أوشون رمز الدلال والاعتزاز بالذات، فإن إبيفانيا المليئة بالنزق كانت تبدو أحياناً كأنها ابنة الآلهة يانسان حاملة بيارق الحرب لتفرض سيادتها. أما النزق

فكان تيساو يقبل به مبتسماً ويراه نعمة ويجد فيه رضى لرغباته، أما أن يأمره أحد فهذه مسألة لم يكن ليقبلها من أي كان.

في اليوم الأول من اللقاء عند النهر، وعندما صعدت إلى شبكة الأرجوحة في محل الحدادة لمتابعة نزقها حذرت إبيفانيا وفي نيتها أن تعتلي العرش وتسن القانون.

– إنك لن تستغلني بمجرد تعلقي بك. ليس بيننا عقد موقع وليس هناك شيء ممتع ليدوم. إنني هنا اليوم في الشبكة وغداً قد تراني مع أي سائر على الطريق مفتشة عما هو أفضل لي.

– إني لا أحب إعطاء الأوامر... أجاب كاستور محدقاً فيها: – ولا أحب أن يعطيني أحد أمراً.

بالرغم من كونها زنجية ذات لون فاحم، ومتجولة لا تملك مكاناً تموت فيه، فإنها كانت تتصرف كما لو كانت أجنبية بيضاء ذات لون وردي، وغنية، كانت عاهرة في مهنتها ولكنها كانت صاحبة ملامح سيدة رفيعة المستوى ومتزوجة. كانت تزعل بسهولة وتجهز نفسها استعداداً للخروج:

– إذا كنت بحاجة إلى امرأة فتدبر واحدة أخرى إذ لم يعد من مجال للعلاقة معي. وعندما ينقضي الغضب، وتندم، فإنها كانت تعود لتفرض السلم وتعوض عن الزمن المفقود. وحدث أن رأت تيساو عدة مرات مع رفيقة أخرى:

– إنك طلبت أن أتدبر امرأة أخرى.

كانت تصاب بنوبة جنون وتخرج عن طورها وتهدد بالعصي والحجارة وبكلمات تحسها هباء. وكانت بعض الفتيات مفتونات بتيساو الزنجي الجميل ولكنهن كن يبتعدن عنه حتى لا يتعرضن لأعمال السحر الأسود والكتابة، ومع ذلك كانت هناك من تواجه الحقيقة، مجازفة، كالشجاعة دليلة، مثلاً، والتي كان جسدها مقفلاً لا يدخله شيء ولا يتمكن منه سم أفعى ولا جذام أسود، وكانت تعتبر نفسها ابنة الإله العجوز "أو بالواييه".

كان الأمر يستحق عناء مشاهدة إبيفانيا وهي تعبر المكان بمواجهة الشمس: وكان كاستور يرى على جسدها الأسود أضواء زرقاء سماوية كما كان يرى في السابق تموجات ذهبية على صدر السيدة البارونة، الأبيض، النقي كالثلج. انظر من كانت تشبه إبيفانتا: كانت تشبه "المداما". كانت الاثنتان متشابهتين: متساويتين: كأنهما من صنف واحد، توأمان.

على طاولة العشاء في الدارة الكبيرة كانت الإقطاعية تعرض على شريط قميص نومها الباريسي زهرة نادرة مقطوفة من الحديقة. ولا يكاد البارون يغادر المكان إلى الشرفة الخارجية لتدخين السيجار

الذي يزعجها حتى تكون المتهتكة قد دعت العبد بإيماءة من إصبعها وهي تقول له:

– إنه لك يا حبي.. تقولها بالفرنسية وتبعد القميص الشفاف وتواصل كلامها: – تعال فتّش... وكان صوتها يذهب متماوجاً.

كانت إبيفانيا تصل ومعها زهرة برية معلقة على قميصها وكانت تنحني لكي يتناولها ويرى ما تحتها:

– وجدتها جميلة فجئت بها إليك: – وكان صوتها يبلغ أعلى أوتاره. إنهما متساويتان بالاعتزاز بالذات، والدلال، والنزق، والملذات. الواحدة كالأخرى ذات نيّة واحدة؛ إعطاؤه الأوامر، واستنزاف طاقته، ووضع اللجام والسرج عليه، وامتطاؤه.

5

كان قضاء الصيف سهلاً وممتعاً. صبية فرحة، منطلقة، ضحوك، وامرأة مكتملة، نظيفة وحارة؛ كانت مرافقتها في الفراش المتعة بعينها، وكذلك في ولائم الآحاد، وحلقات الرقص؛ حيث تظهر كان ينظر إليها بعين طيبة، وتتم تحيتها بترحاب؛ وبصحبتها، كان غسيل الملابس عند مجرى النهر انطلاقاً نفسياً احتفالياً، إذ كانت تعرف الكثير من الحكايات ذات التعابير المضحكة وغير المألوفة. بالنسبة إليها كان شعور الآخرين يتراوح بين الإعجاب والخشية لأنها كانت تفرض نفسها وتعرف كيف تأكل وتترك الآخرين يأكلون.

كانت الخشية منها بسبب السحر وتلك المجموعة من الأصداف التي كانت ترميها لتكتشف وسيلة تقييد الرجل بذيل تنورة إحداهن، أو خلافه، ولكي تقضي على آلية عقبة تقف حداً بين اثنين يريدان أن يرتبطا أو يفترقا: وكانت الوسائل المكتشفة لا تخطئ. هكذا كانوا يلاحظون ويقولون. ولم يكن ما حدث لكوتينيا، وزي لويس وميرنسيا مجرد أوهام أو كلام مُلقىً على عواهنه.

عندما وصلت إلى توكايا غراندي، وقبل حصولها على مكان إقامة خاص بها، وجدت إبيفانيا موضعاً في كوخ كوتينيا التي ارتبطت معها بصداقة. وبعد مضي بعض الوقت، ونزولاً عند طلب كوتينيا، تدبرت إبيفانيا ما تحتاج إليه من بعض أصناف ورق الشجر وقلب أرنب كان تيساو، قد اصطاده لتضع رقية في طريق قدر الصداقة، وعند ذلك بدأ زي لويس يحوم حول كوتينيا فأقام معها في الفراش وإلى موائد الطعام وأخذ يصرف ما يملكه وما لا يملكه وراحت الاثنتان تتمتعان بطيبات المآكل والمشارب على قدم المساواة.

كانت إبيفانيا تذهب وتعود من النهر إلى الغابة، ومن كوخ كوتينيا إلى بيت كوروكا وبرناردا، ومن مستودع الكاكاو إلى دكان اللبناني، وبعد جولة ونصف الجولة تظهر عند الحدادة وتتأخر هناك، مطمئنة، عندما ترى كاستور وهو يعمل بمعالجة الحديد والتنك متأكدة بذلك من أن أية امرأة لم تكن تضع عينها عليه عارضة ذيلها على من هو مرتبط وله سيدة.

ولم تكن تعترف أو كانت تتظاهر بأنها لا تفهم، ولكنها كانت تتآكل من الداخل، وتفترسها الغيرة، وعندما تشك في أنه قد ضاجع إحداهن أو هو في طور التمهيد لذلك: إن مراودة تيساو من قبل النساء هي كل ما كانت ذوات النزق يرغبن فيه، فيا لهن من متسكعات! وكانت إبيفانيا على وشك أن تفقد عقلها بسبب دليلة النتنة التي لا تحترم نفسها.

خلال الصيف وما دام الطقس خفيفاً ومضنياً كانت تضحك وتعذر كل شيء. ولكن الشتاء أتى قائماً وبارداً وحزيناً. ونشطت الحركة، وأخذ المال ينساب بوفرة، وبالرغم من ذلك كان صعباً تحمل الضباب والعتمة فكم بالحري انحرافات كاستور أبدووين، حذاء الحمير، والفحل الذي لا يرتوي، والزنجي الخداع.

أما ما هو متعلق بدائمة الوله كوتينيا فقد تدبرت عشيقاً جديداً – إني لا أتحمل رجلاً يضرب امرأة – وقررت أن تنتقل إلى بلد أكثر تقدماً بإقامة الاحتفالات وإحياء الأعياد الحزيرانية وأعياد القديسين أنطونيو ويوحنا وبطرس وهم كلهم شفيعوها المفضلون، ولم تتردد إبيفانيا:

– سأذهب معك.

– هل تعبت من تيساو؟

وكادت تجيب بالإيجاب ولكنها تماسكت:

– من تعب إنما هو نفسه، فكرت وبدأت تتأمل في المطر – إذا كان قد أحبني فهو لم يقل هذا قط.

وكما هو معلوم، لم تنفذ إبيفانيا الاتفاق، ولم تتابع الرحيل.. ومن حسن الحظ أن كوتينيا ما لبثت أن غيرت عهدها الجديد وبدلت من جهة طريقها. وعندما سمعت كوتينيا بأن الزنجي كاستور قد أخذ يحضر للاحتفال بعيد القديس يوحنا فإنها سارعت إلى عرض نفسها لصنع شراب الجنيبابو الذي لا بدّ من توفره بالمناسبة: الفاكهة كانت قد بدأت تتهاوى على الأرض وتتعفن.

– وهل تعرفين أنت كيف تصنعين هذا الشراب؟

كنت قد تعلمت ذلك من الراهبات في مطبخ الدير في سان كريستوفاو، المدينة السرجيبية التي ولدت فيها.

– هل كنت راهبة في الدير؟ – تعجب كاستور.

– أردت أن أكون ولكنني لم أتمكن من ذلك – وخرجت من صوتها نبرة اشتياق – كنت أعمل هناك كخادمة مقابل معيشتي وخدمة لله. بعد ذلك فإن الأخ نونو، البرتغالي الذي كان يأتي يومياً للصلاة في الكنيسة، أنالني من الخارج، وراء النصب الكبير – تذكرت بحنين: – إنه جذع ضخم، تبارك الله. لم أكن أصل إلى خصره. كان يرفع ثوبه الكهنوتي ويرفع تنورتي وفخذي..

تنهدت وهي تتذكر ذلك المكان الواسع في زمن العبادة: نبيذ القداس وعصا مباركة:

– لكن الراهبات اكتشفن ذلك فصرفنني من المكان.

6

لا شيء غير الضباب والعتمة. كان الشتاء يدوم من أواخر نيسان/أبريل حتى بداية تشرين الأول/أكتوبر، وبعد هذا الوقت بقليل وأثناء الحصاد كانت الأشهر ذات الحركة الأقوى حين تبلغ الحيوية أوجها. كان البرد يعاقب المخلوقات، والمطر يقبض على ملامح الطرقات، ومن الظهر حتى منتصف الليل كانت توكايا غراندي تعيش ساعاتها الأكثر نشاطاً وينساب المال وتتدفق الانفعالات.

في محل الحدادة حيث تشتعل النار باستمرار، وأثناء النهار على الضوء الخافت، وأثناء الليل على ضوء القناديل، كان الزنجي كاستور أبدووين، مكشفاً عن ذراعيه، يتفحص الحدوات، ويحذي الحمير، ويقوّم اعوجاج السهام، ويصنع السكاكين، ويقيس شفرات الخناجر ويحدها، ويصلح الأسلحة النارية. وكان دائماً مستعداً ليلبي طلبات رجال القوافل الذين كانوا يأتون إلى حدادة الزنجي ودكان فضول، مكانيهما المفضلين اللذين مَنَّت بهما العناية الإلهية. أما الأمور الأخرى فكانت العاهرات كفيلات بتدبيرها.

خلال ذهابه ومجيئه من بوافيشتا لم يكن من بدّ للنقيب ناتاريو دا فونسيكا من ملاقاة فضول وكاستور. وكان الثلاثة يجتمعون غالباً في الدكان أو في الحدادة يتسلون بالأحاديث عن حجم الموسم وسعر كيس الكاكاو، وعن الصخب والقتلى في إيلايوس وإيتابونا، وعن العراكات الدموية في أسواق البغاء، بينما يرتشفون بهدوء جرعات الكاشاسا.

... أي خبر هو هذا؟ – أراد النقيب أن يعرف حين لمح الكلب مستوياً عند قدمي الزنجي: – هل تلقيته كهدية أم اشتريته من أحد الأحياء؟

– لا هذا ولا ذاك. لقد وصل واستوى دون أن يناديه أحد.

– من الأفضل إبقاؤه هنا يا نقيب.. أعطى فضول نصيحته ضاحكاً.

– هذا الزنجي شريك الشيطان في شيء ما.

– لقد سمعت هذا القول سابقاً... – ابتسم ناتاريو ابتسامة واهية، معطياً موافقته: – ولكن الأمر يستحق عناء كلب جيد. كان لديَّ كلب لم يكن يفارقني ولكنه مات بلدغة أفعى. ولديَّ في البيت قطيع من الكلاب التي تلهو مع الأولاد، ولكن لا واحد منها يفيد بشيء.

حرّك النقيب أصابعه مداعباً الكلب الذي أجابه بتحريك ذيله دون أن يبارح مكانه عند قدمي الزنجي. فبدل النقيب الحديث:

– يقولون إن صديقنا يجهز للاحتفال بعيد القديس يوحنا؟

– إني منصرف حالياً لهذا الأمر، كيما تلهو الناس، وتستمع الفتيات. فما الذي يقوله النقيب في هذا الشأن؟

– ألم يتم الاتفاق على أن صديقنا شريك الشيطان؟ لقد أوقعني في الفخ، وسأشارك بالسكر والملح، والمال، لشراء الذرة الخضراء، وجوز الهند الجاف، ولا بدّ أيضاً من الصنفور "والهبولة": – قال فضول كل هذا متذمراً ولكن دون أن يكف عن الضحك.

– لا تتذمر يا عرّاب، إنك أيضاً تعطي الحياة حقها، لقد سبق أن رأيتك تجتاز الفراسخ الطويلة حاملاً حقيبتك من أجل الوصول إلى مكان لهو:

– هذا صحيح، لقد حصل.

وبينما يأخذ حبلاً من الدخان المعجون ليجهز سيجارة، عاد النقيب ناتاريو دا فونسيكا ليوجه الحديث إلى الزنجي:

– أعتقد بأنك تقوم بعمل جيد. إن توكايا غراندي تنمو ولن تتأخر في أن تصبح قرية. إنه الوقت المناسب لتتمدن.

– لا يزال الوقت مبكراً لكي تغدو قرية: – قال فضول ذلك وقد توقف عن الضحك.

وصولاً إلى توكايا غراندي، ذاهباً باتجاه الشمال، وآتياً من الجنوب أو عكس ذلك، كان النقيب ناتاريو دا فونسيكا يجتاز قسماً كبيراً من مساحة أراضي نهر الأفاعي، ويعرف بقعة بقعة حقول الكاكاو الحديثة العائدة إلى العقداء، الواسعة الامتداد، وما يعود منها إلى المساكين الصغار أمثاله، مصادقاً كل واحد منهم. وبينما يشعل سيجارته الملفوفة بورقة الذرة الصفراء كان يفتتح أبواب المستقبل:

– إنه لمنظر جميل أن ترى الأغراس تنمو باطراد. ولا بدّ من أن تبدأ بالإزهار خلال سنة وستعقد الديافير.

كانت الأعين تمتلئ بالأمل، والقلوب تخفق بأشد من عادتها. فليكن كلامك كلام ملاك يتكلم بلسانك يا نقيب؟ قال العربي ذلك وهو يجمع يديه ويرفعها إلى السماء:

– خلال سنة؟ سنة واحدة؟ أليس خلال أربع أو خمس سنوات كما هو مفروض؟ – سأل ذلك بصوت دافئ كما لو أنه يتكلم عن الفتيات في عبثية من عبثيات ولهه.

كانوا يعيشون مسلِّمين أقدارهم للمطر والشمس من أجل أن تتمسك الديافير جيداً بأُمّاتها، دون خطر التناثر تحت وقع الأمطار، أو التهرؤ بسبب الرطوبة.

أخبار طيبة بالنسبة إلى النجارين والبنائين، وعلى الأخص بالنسبة إلى ميرنسيا وزوجها زي لويس: لقد بدأت التسليفات والتوصيات. وما دام الأمر كذلك فلا بدّ من الاحتفال بعيد القديس يوحنا حتى لا تكون الحياة كلها عملاً، وصيدا، وعرقاً وممارسة جنس مع نساء المباغي، وضبابا وعتمة.

7

لقد حان وقت الكلام عن زليخة التي تأخرت إقامتها في توكايا غراندي منذ وصولها في الشتاء المنصرم فاستحقت الإشارة إليها: بالنسبة لزليخة كانت العصافير تتوقف عن الزقزقة لتصغي إلى غناء كاستور أبدووين دا أسونسيون؛ كانت صاحبة أساليب خفية وغموض لا يلبث أن يتوضح. في تحويمها الدائم حول محل حدادة تيساو كانت تمر بسرية وتكتم. كان وجهها طفولياً وحركاتها محافظة: لو لم تكن هناك تمارس المهنة لأمكنها أن تتحول إلى ابنة عائلة.

ربما كانت الأخريات أجمل منها؛ وأكثر معاصرة وأكثر فعالية في الفراش، ولكن أية واحدة لم تكن مرغوبة ومطلوبة بقدرها. كانت مرهفة، خجولة، وحذرة. مع كل ما يمكن ملاحظته، أنت وكوروكا تعتبران كل تلك المظاهر لا تعدو كونها شيئاً من الكبرياء القاسية كالحجر:

– إن زو تعرف ما تريد. إنها متطلبة وغير مغلفة.

في الحقيقة، عندما كانت تتخذ قراراً مفاجئاً لم يكن هناك من يقف في وجهها ويجعلها تتراجع عنه. وكانت تنفذ القرار دون أن تخرج من ركنها أو تبدل من مظهرها الجليل. ويخطئ من يظن أن العاهرات متشابهات، ويعرضن أنفسهن بصورة خارجة عن المألوف، ومجردات من المشاعر واللياقة. وكانت جاسنتا كوروكا تكمل الصورة:

– لكل واحدة شكلها وطريقة تبرجها وأسلوبها الخاص في عرض بضاعتها. قبل وصول إبيفانيا حاملة في حقيبتها السيطرة والعراكات، كانت مصاحبة طويلة وجدية قد قامت بين تيساو وزو لم تتعرض قط للصدامات والكلمات البذيئة والخلافات الحادة. وكان هناك من أكد جازماً أن المصاحبة ستتحول إلى معاشرة دائمة عندما كانت التجهيزات قد استكملت في محل الحدادة وسكن الحداد في بيت خاص به. ولكن المتهتك، المنحرف لم يدعها للإقامة معه، وهي مع ذلك ظلت كما هي ولم تتبدل تصرفاتها ولم تطالب بشيء. وهكذا ظلت الحياة للاثنين مستقلة عن المصاحبة.

تذكرت كوروكا، لدى اهتمام كاستور بالواصلة الجديدة إبيفانيا، إن زليخة عرفت كيف تنسحب بصمت، دون عراك، ودون فضائح ولم يسمع أحد اتهامات أو تشهيراً. لقد اكتفت زليخة بعدم المجيء إلى محل الحدادة لتنظيف الطرائد وطبخها والأكل معه. ولكنها لم تغدُ عدواً ولم تبادله شراً بشرّ.

وإذا كانت قد توقفت عن الظهور في الحدادة فإنها لم تهمل التواجد معه في ساعات الطرب واللهو: كانت عيناها تسبحان في المسافات البعيدة عندما كان الزنجي يطلق صدره عبر حنجرته في الغناء، ليسكت الطيور. في البدء لم يعر تيساو اهتماماً لانسحاب زليخة. عندما أحرك إصبعي فإن زليخة ستعود.

في الواقع لم تمانع زليخة عندما، في إحدى المناسبات، جاء الحداد ليأخذها إلى شبكة الأرجوحة. ولكن كيف كانت المفاجأة لدى الزنجي عندما تحركت الأرجوحة فانتفضت زليخة بغضب وارتدت فستانها واستعدت للانصراف؟ الأسوأ من ذلك أنها مدّت يدها وطالبت بالتعريفة. لقد جاءت إليه كامرأة عامية وعليه أن يدفع الثمن ويتبين الفرق: لم تبقَ لقضاء الليل، ولم تستسلم مجاناً، ولم تمارس الجنس برغبة بل بواجب تمليه المهنة.

وإذ كان الأمر قد فاجأه، وقف كاسترو يحدق فيها لا يعلم ما يفعل أو ما يقول مرتبكاً، قدم لها بعض النقود، فتسلمتها، ولكنها ما لبثت أن رمتها أرضاً وهي تجتاز باب الحدادة الخارجي. وظلت هادئة، وذهبت هادئة، ولكن في رأسها صداع.

لم يضحك تيساو، ولم يعترض، ولم يعتبر تصرف زو خطأ أو اعتداء. إنها أمثولة، من يدري؟ عندها فقط علم كم جعلته يعاني لا لأنه ضاجع أخرى بل لأنه جعلها محظيته تاركاً زليخة كالأخريات دون أن يرضيها بشيء. في الأرجوحة، مفكراً، قضى الزنجي الليل بشك يحفر في قلبه: عندما كانت تبلغ ذروة التوقد كانت تشده بذراعيها وتتنهد، ولكنها في هذه الليلة لم تقم بغير واجب المرأة الماهرة في مهنتها.

منذ ذلك الحين أخذ يعاملها بكثير من المجاملة، ولكنها كانت تمكث على مسافة منه، وفي رأي الجميع أن المصاحبة كانت قد انتهت بين الاثنين، وأصبحت شيئاً من الماضي. وكان من الصعب تصديق كوروكا حين تؤكد جازمة مطمئنة:

– إن زو مجنونة بتيساو ولا تطرده من عقلها.

كانت إبيفانيا الوحيدة التي تعطي كوروكا الحق حين تضع الإثبات الذي لا يقبل الدحض: ما هو السبب الذي لا يجعل هذه التافهة تتخذ لها عشيقاً للتمدد معه مجاناً؟ أين رأيت عاهرة لا فحل عندها، وكم بالحري في قفا الدنيا حيث لا عمل غير الجنس؟

في يوم أحد وبعد وليمة الغداء الجماعية التي في كل مرة جديدة تغدو أكثر تنوعاً وبينما هم مجتمعون يضحكون ويلهون، فإن ميرنسيا – الرومانسية في أعماقها – توسلت إلى كاستور أن يسمعهم بمساعدة الآخرين بعض أناشيده: وكان يعرف الكثير منها: فأعلن الزنجي أنه سيبدأ الغناء بأغنية مفضلة لدى زليخة.

– واحدة من الأغاني التي كنت تطلبينها غالباً يا زليخة، هل تذكرين؟

– أية أغنية؟ لقد عرفت: ماريا ستتزوجين؟ وخرجت زليخة من جديتها وضربت كفاً بكف.

انطلق صوت كاستور وعيناه محدقتان فيها كأنما لم يكن أحد هناك غيرها:

"ماريا ستتزوجين!

سأقدم لك التهاني

وسأرسل إليك هدية

قميصاً من حرير...".

كان ذلك كافياً لإبيفانيا الجالسة قرب الزنجي لتنسحب بنوبة من الحنق. إذا كان هذا أمره مع الأخريات فكيف يكون مع هذه المصنوعة جيداً؟ بصقت على الأرض وداست البصقة برجلها.

8

الاحتفال، بإشعال النار، الذي ابتدعه بيدرو سيغانو ليضفي الفرح على ليل القديس أنطونيو، انتهى إلى العراك بالخناجر وإطلاق الرصاص والدم.

ولا بدّ من الأخذ بالاعتبار أنه لم تكن هناك نيّة وضيعة أو رغبة خسيسة في المال عندما اقتحم العاطل عن العمل ذاك النوع من الاحتفالات. لم يفكر في ذلك حتى حين تناول آلته الموسيقية ليعزف عليها؛ كان فقط يفكر بالاحتفال، وبجدارة، بعيد القديس أنطونيو، وهو أكثر القديسين جدارة بالتكريم بالنسبة إليه. كان قد ناقش الأمر وأقنع الجميع، ولكن لا يجوز تحميله مسؤولية ما حدث. وفي الحقيقة لم يحمله أحد مثل تلك المسؤولية.

في الواقع لدى توقفه في ذلك المكان وفي مثل ذلك اليوم الممطر والبارد، لم يكن يفكر في المكوث هناك ليلة واحدة يقضيها في أحد الأكواخ مع فتاة هوى يستدفئ بحرارتها. كانت وجهته تاكاراس إذا لم تكن فراداس، أغوا بريتا ريو دو براسو أو إيتابونا، وهو نفسه لم يكن متأكداً. كان قد وعد نفسه بالتمتع باحتفالات حزيران/يونيو حيث يكون ممكناً التمتع مجاناً، آكلاً، شارباً، وراقصاً على هواه. ولدى اطلاعه على الاستعدادات للاحتفال بعيد القديس يوحنا في توكايا غراندي، قرّر المكوث.

كانت الاستعدادات بحدِّ ذاتها عيداً. وقد شغلت تلك الاستعدادات كل وقت السكان القليلين الذين بدأوا يتكاثرون. وكان رجال القوافل، لدى رجوعهم من المزارع المنتشرة، يعودون معهم بالاحتياجات التي لا تتوفر في قلعة فضول المسلحة: عرانيس الذرة الصفراء، وجوز الهند المجفّف، والأسهم النارية، ولا نتكلمن عن المنطاد لأن هذا كان سراً بين تيساو وكوروكا ولم يكن أحد حتى الآن يعلم بوجوده.

لدى رؤيته باستياو دا روزا، ولوبيسينيو، وزي لويس، وبالبينو منهمكين بتحويل مكان واسع إلى كومة من الحطب – فإن بيدرو سيغانو تخلى عن فكرة متابعة السفر. وقد فعل ذلك في الوقت

المناسب لأن فضول عبد الله كان قد تلقى جواباً من لولو سانفونا يعتذر فيه عن المجيء إلى توكايا غراندي ليعزف في الاحتفال بعيد القديس يوحنا.

باستعداده للمساعدة دون أن يبذل جهداً فإن بيدرو سيغانو أخذ يوجه ويدير، ودون أن يتعب أخذ يذهب من مكان إلى آخر جاهداً نفسه بإعطاء التوجيهات والنصائح، وناقلاً الأوامر إلى الرجال والنساء.

كانت النساء قد بدأن بالعمل، مساعدات في بناء المرتفع الخشبي، ناقلات الحطب الذي كان الرجال يقطعونه من الغابة لإشعاله ليلاً، ويضعن بعض الحطب ضمن مواقد صخرية ليضعن عليها لاحقاً الكانجيكا وسواها من متطلبات حزيران/يونيو. وبمساعدة من إبيفانيا فإن كوتينيا المجتهدة كانت تعالج ثمار الجنيبابو وتقشرها وتنزع منها النوى، وتجهزها لتتحول إلى عصير. وكانت كوتينيا تقوم بتلك الخدمات وهي تتذكر طعم نبيذ القداس وفضائل الأخ نونو وما أكثر فضائله: كان يناديها بكياسة وبذلك الأسلوب الممتع: تعالي إلى هنا أيتها الملكة الجميلة. وكانت هي تطيع وكان هو "يتكلبن". أما بيدرو سيغانو فكان يعرض نفسه ليتفحص الطبخة حين توضع على النار، وليقرر اللحظة التي يكون طعمها قد بلغ كماله. إنه ذو ذوق صافٍ، وخبير مرهف بالمآكل والمشارب.

كانوا قد قرروا تجهيز "محرقة" عملاقة في مكان لا يحيطه شيء من شجر أو بناء، ثم جعلوها اثنتين، واحدة لكل ليلة. وحين فاض الكثير من الحطب عن الحاجة قرروا بطلب من ميرنسيا، دعمه تيساو، أن يعطوا بقية الحطب لمن يرغب في أن يصنع أمام بيته محرقة صغيرة لشي البطاطا الحلوة والذرة الصفراء. ومن رغب أيضاً في أن يأخذ إلى بيته فإنه يستطيع أن يأخذ بعض الكانجيكا وزجاجة من عصير الجنيبابو ليقدم منها لجيرانه قبل أن يأتوا إلى مكان الاحتفال السعيد بعيد القديس يوحنا، لأكل الكانجيكا وشرب الجنيبابو والتلذذ بالمشويات والتمتع برقص الرباعية.

خلال تلك الأيام عرفت دكان فضول حركة غير اعتيادية، وإذا كان التركي قد أبدى بعض الامتعاض فإنه، بالمقابل، سارع إلى إمداد الاحتفال بالمواد الجافة والرطبة على السواء مع بعض التباكي.. أما تيساو فقد زاد من عدد المصائد ليكفل الحصول على صيد كافٍ ووفير بالإضافة إلى ما جهزه من السفود لشيّ الذرة وجوز الهند: ولا يمكن نسيان مساعدة النقيب ناتاريو دا فونسيكا الذي تأسف لعدم قدرته على المشاركة بالعيد وحل حبال حقيبته ودفع المال باسمه واسم كوروكا وبرناردا.

ومع ذلك فإن المرأتين – ومعهما كل الفتيات الأخريات – شاركن ببعض المال الذي كن قد كسبنه من بيع أجسادهن وخبأنه في أعماق المخابئ، ذلك برضى وسرور.

تمّ توزيع الذرة وجوز الهند والسكر والملح بين النساء. وكان كل شخص يتنكب هذا العمل أو ذاك. ولتنفيذ الأعمال توزعوا مجموعات تميزها الحيوية: يتحدثون، يناقشون، يطلبون، يضحكون، ينادون لتزويدهم بجرعة كاشاسا يكسرون بها العطش لأنهم ليسوا مصنوعين من الحديد.

لم يكن هناك موجبات أو ساعة عمل محددة. لا محسن، ولا "سركال"، ولا سيد؛ كان فضول وتيساو يوجهان ويديران ويفعلان ذلك بتكتم. لم يكن أحد يأمر أحداً. هكذا حدثت الأمور منذ أن اقترح كاستور أثناء غداء يوم الأحد القيام باحتفال بعيد القديس يوحنا.

لم يكن صعباً إقناع السكان بذلك. ففي ذلك المكان النائي الواقع في نهاية العالم لم يكن شيء يثير الحماس أكثر من صوت موسيقي منطلق ووقع خطوات الرقص وهزِّ الأقفية. وكان مثل ذلك نادراً ما يحدث حين كان يمر بيدرو سيغانو من هناك، أو حين يخيم عازف كمان أو قيثارة، ليلة، في توكايا غراندي.

كان تيساو يتساءل كيف لا يهبط عليه وحي كهذا. وفي ريكانكافو كانت أعياد حزيران/يونيو تبدأ اليوم الأول منه ولا تنتهي إلا في ليل التاسع والعشرين في عيد القديس بطرس، شفيع الأرامل.

9

المحرقة بنت عاهرة. هكذا تماماً: الشعلول في القش، شديد الاحتراق وقليل اللظى، يبدأ فجأة وفجأة ينطفئ ولا يدوم إلا قليلاً. يلتهب بصورة غير مرتقبة، يتوهج، يصل إلى ذروته، ويفقد تلهبه، ثم حيويته وينطفئ. لا يبقى منه شيء وإن دخاناً.

العراك الذي تسببت فيه إبيفانيا ودليلة لدى بداية اشتعال كومة الحطب في ليلة القديس أنطونيو لم يكن عراكاً مثيراً ولكنه أعطى الاحتفال بعض الحيوية. وكما سيتم تبينه لاحقاً فإن من تسبّب في تلك الحيوية كان ميزاييل الذي، برفقة راعيين من البقر، أحدهما متقدم في السن والآخر شاب مكتمل الفتوة؛ كان ميزاييل عائداً من إيتابونا: الثلاثة يرتدون أحزمة من الجلد ويمتطون جياداً قوية ويحملون الأسلحة والمال. ألقوا الرحال عند الأصيل في توكايا غراندي. إن عيد القديس أنطونيو حدث كبير ومناسبة للمتعة.

لم يكونوا قد رقصوا أكثر من خطوات قليلة على أنغام هرمونيكا بيدرو سيغانو حتى كانت إبيفانيا قد تملصت فجأة من ذراعي المعلم غيدو وهددت بتحطيم وجه دليلة التي كانت ترقص مع المدعو ميزاييل الجميل الشكل والذي ينمّ مظهره عن شيء تحدده حركاته وتصرفاته. وبالمقابل، فإن دليلة ابتعدت عن ثنائيها، ميزاييل، وأجابتها:

– تقدمي إذا كنت حقاً امرأة.

تنحى غيدو وميزاييل جانباً للمساعدة بالتأييد الحماسي:

فمن الذي لا يسحب ولا يقدر شدة شعر بشدة، وصفعة بصفعة، ورمية إلى الأرض برمية، تقوم بها نساء في عراك؟

هاجمت إبيفانيا ببصقة. سددت إلى عين دليلة اليسرى وبصقت فيها مليئاً وتشابكت الشتائم:

– زنجية نتنة! عاهرة!

– عاهرة مصابة بالطاعون. مسفلسة.

كلتاهما زنجيتان وعاهرتان ومسفلستان، ومصابتان بالطاعون، ولكنهما كانتا زنجيتين ذات قدر، متميزتين، وأميرتين في المكان. وفي توكايا غراندي، لبلوغ مركز أميرة أو عرش ملكة – عرش برناردا مثلاً – لم يكن الأمر يقتضي الشيء الكثير، ويكفي أن تكون الواحدة جميلة أو ذات تربية مرهفة مختلفة عما هو شائع في تصرفات النساء الأخريات. على كل حال كانت الاثنتان تنفران الواحدة من الأخرى، وتتقاسمان الغيرة والحسد.

مدّت دليلة يدها التي نظفت بها عينها من البصاق وهوت بها على وجه إبيفانيا، وشدّت الواحدة بشعر الأخرى، وتبادلتا الرفسات، ومضتا بالشتائم والتطاعن بالأظافر. وتشكلت حول الاثنتين حلقة من المتحمسين، المعجبين بالعراك، المتأملين فيما يحدث.

– إني أراهن على أم القفا – تحدى ميزاييل إكراماً للتي كان يراقصها.

– إني أراهن على قطعتين من النقود – قبل بالرهان إذ ليس غيدو أقل فروسية. دون أن يتوقف عن العزف، وقف بيدرو سيغانو عن المقعد الخشبي الطويل، تحفة النجار لوبيسينيو، حيث كان يجلس برفقة زليخة وانضم إلى الحلقة. وبالرغم من أنه كان مفلساً فإنه جازف على إبيفانيا متأكداً من نتيجة العراك. ووافق باستياو دا روزا على الرهان بروح رياضية لتزكية الحماس دون أن يترك العنان لأوهامه بأنه سيحصل على أربعمائة ريس لأن بيدرو سيغانو كان مديناً لله ولنصف العالم.

وفقاً لرأي غيدو فإن الرهانات كلها قد ألغيت عندما دخلت زليخة إلى الحلبة أمام دهشة الجميع. كانت دليلة على حافة الانهيار، إذ كانت إبيفانيا قد بدأت تنزع عنها تنورة الشيت عارضة قفاها على مرأى من الجميع، ودون أن تعلم كيف تقوم بردة الفعل شوهدت دليلة على وشك الانسحاب من ساحة المعركة. في هذه اللحظة وقد وقفت هي الأخرى على المقعد الخشبي شوهدت زليخة تهاجم إبيفانيا برفسات قوية من رجليها. وإذ أحست دليلة بأنها مدعومة وقفت مع قفاها العارية وانقضت من جديد لتهوى على عدوتها. أما المتجمعون في الحلقة فقد صفقوا مع الهتافات العالية والصفير.

– اثنتان ضد واحدة، حقيرتان، جبانتان. سألقن الاثنتين معاً.

ولكن إبيفانيا لم تهاجم وحيدة، وها هي الصغيرة كوتينيا، مؤيدة لصديقتها، تدخل في العراك كاشفة عن شجاعة غير متوقعة؛ دارت النساء الأربع فوق بعضهن أرضاً؛ وبالإضافة إلى قفا دليلة شوهد صدر إبيفانيا وقد انقطع خيط الصدرية.

عندما تدخلت زليخة عرف السبب الحقيقي في العراك: لقد كان كاستور أبدووين دا أسونسيون راضياً عن نفسه، وفي أعلى درجة من التقدير لذاته.

من أجله كن يتنهدن ويتشاتمن ويتعاركن. وتمّ تدخل حسم الموقف عندما تقدم الزنجي من المرتميات أرضاً، المتسخات، المبصوق عليهن، شبه العاريات وأمر دون أن يرفع صوته:

– يكفي لهذا اليوم، أيتها الفتيات، وتعالين لنلهو.

وارتفع صوت الموسيقى من جديد مع كثير من الحماس الذي لا يقاوم. وإذ أدار ظهره لذوات الحركات الغليظة فإن الحداد العاق، حذّاء الحمير، مدَّ يده لميرنسيا، المرأة المتزوجة التي كانت تستنكر كل ما حدث، وذهبت معه إلى حلبة الرقص. أعادت دليلة ارتداء التنورة وعادت إلى ذراعي ميزاييل، أما إبيفانيا فعادت إلى غيدو. وسحب فضول الصغيرة كوتينيا: لقد كان التركي أكبر من الأخ نونو دا سانتا ماريا، ولكن القياس لا يخيف إذا كان من يعرضه شخصاً تربى على خدمة الله في الأعالي. وبخطوتها المعتادة لم تبدُ زليخة كأنها خارجة من عراك عندما قبلت دعوة باستياو دا روزا، اللحية الذهبية، بعدما خلعت نعليها.

وبينما هو يطلق العنان للهرمونيكا هاوياً برجليه على الأرض ليحدد خطوات الرقص، كان بيدرو سيغانو يرقص وحده بين الجميع. لم يحس أحد بغياب العازف لولو سانفونا. لقد بدأت الحيوية في عيد القديس أنطونيو تتوقد.

10

ويلاه – لقد توقدت الحيوية بأكثر مما هو معقول على أنغام سيغانو. ولم تقف الخلافات عند حدِّ بعض الصفعات والشد بالشعر بين الفتيات؛ لقد حدث ما هو أكثر من هذا وأسوأ. لقد حمي وطيس التوقد، وأصبح الأمر قاتماً ولكن في اللحظة الحاسمة سمع الجميع إعلاناً غير متوقع. كان على العربي فضول عبد الله أن يذيعه فجاء وقعه العاصف قوياً على الجميع باستثناء الحداة الذين يرتدون السترات الجلدية المصبوغة بالوقاحة. كان الإعلان كفاية عن كلمات بسيطة – وفي الوقت المناسب يمكن معرفتها – انحفرت في القلوب وسارت في العروق مع الدماء.

عادت المماحكات الكلامية إلى الظهور بين غيدو وميزاييل، وكانت بسبب الرهان الذي وضع خلال عراك النساء. ولسبب غير معلوم، أو دون سبب، وبغية الإثارة حسب، فإن ميزاييل بعدما جرع عدة جرعات أعلن دليلة منتصرة وطالب بالدفع الفوري.

تعجب الجميع في هدأة قصيرة من الموسيقى بينما كانوا يشربون الجنبيابو الذي صنعه كوتينيا طيباً وقوي المفعول. ووصلت المماحكات إلى التراشق بالكلمات البذيئة والتهديدات التي لم تُنفَّذ لأن فضول قرّر التدخل. لقد اعتاد فضول مثل هذا التدخل أثناء تحديات وعراكات عنيفة. وكان فضول يفض الخلافات ويكفيه لذلك استعمال سلطته المعنوية: صاحب مخزن، وإن لكثيرين منهم. وعندما يقتضي الأمر كان يلجأ إلى قوته الجسدية.

ودون أن يأخذ بالاعتبار وجود رعاة البقر الآخرين الملتزمين بالصمت والشعور العدائي، وبيديه القويتين، أبعد فضول الاثنين عن بعضهما بعضاً وهو يشد بأصابعه الضخمة على كل واحد منهما:

– هنا في الداخل، ومن يتعارك إنما هن النساء فقط. أما الرجل، إذا أراد العراك فهناك، بعيداً، ويستطيع أن يقتل إذا شاء. هنا قاعة رقص – أفلت الاثنين من يديه ونظر إلى رفيقي ميزاييل، المتقدم في السن والشاب، ثم توجه بالكلام إلى بيدرو سيغانو:

– أين الموسيقى يا ابن الله؟

وبينما كان يتمتم لمصير القطعتين النقديتين – خذهما، لا أحتاج إليهما، ضعهن في قفاك – ابتعد ميزاييل وتبعه المأموران الآخران. ولحسن الحظ أن غيدو لم يسمع التعليقات لأنه، إذا كان لم يتعود إثارة أحد، فإنه إذا أثير لم يكن يهرب بل يواجه. إن الجبان لا يأتي إلى أرض الكاكاو بل يموت في المهد عند أول زيارة ذل.

كان الليل ومعه العيد قد تقدما عندما انفجر حوار في ركن من المكان قليل الحركة. من جهة رعاة البقر الثلاثة: الرئيس ميزاييل، والمتقدم في السن توتونيو، والشاب إبريجيو، ومن جهة ثانية ثلاث نساء: برناردا، دليلة ومرغاريدا كوتو. ما كان يبدو في البدء بسيطاً وطبيعياً هو نيَّة الرقص، ولكن الأمر لم يكن بشيء من هذا. لقد كان قراراً أراد الحداة الثلاثة أن يفرضوه. لأنهم كانوا ينوون على السفر عند الفجر، لكسب الوقت، فقد فرضوا على النساء الثلاث أن يتوقفن عن الرقص حالاً، لأنهم غير مزمعين أن يغادروا توكايا غراندي دون أن يشفوا غليلهم. كانوا على عجلة من أمرهم ولا يستطيعون الانتظار إلى أن ينتهي الاحتفال: فالانتظار يعني البقاء حتى الصباح.

أما العاهرات، وبتأثير من حمية الاحتفال، فكن قد قررن إقفال مطارحهن والامتناع عن استقبال الزبائن في ليالي حزيران/يونيو الاحتفالية: العيد هو العيد. كن متكيفات بالاستئناس والرقص والشرب والضحك، والغزل إذا اقتضى الأمر. إنها ليست ليلة كسائر الليالي التي يتخمن فيها ويعرقن على صدر غريب ويتنهدن دون الرغبة في ذلك، ويتمتعن بالتظاهر – وهكذا رفضت النساء الثلاث بصوت واحد العرض الذي قدمه راعي البقر ومساعداه: اليوم لا! واتركوا الأمر لليلة أخرى. اليوم غير ممكن مقابل أي مبلغ من المال.

كان ميزاييل قد اختار دليلة، وترك برناردا للمتقدم في السن، ومرغاريدا للشاب الآخر. وكان العجوز يلحس أصابعه شبقاً، وأما الشاب فلم يحتر في الاختيار والسبب هو أن ابن الثامنة عشرة يهضم ما يتوفر ويطلب المزيد.

لم يفد بشيء تفسير دليلة ورفض مرغاريدا، وكذلك موقف برناردا السلبي: إن "مطارحنا مقفلة يا جدي" ويجيبها صوت العجوز مخنخناً: "نحن نفتحها".

كان الحداة مستعجلين جداً والوقت قصير.. ويحك، قالت برناردا عندما حاول العجوز توتونيو أن يأخذها إلى الخارج. أما ميزاييل الذي كان يمسك بدليلة من رقبتها فقد عيل صبره فأعلن:

– إذا لم تأتين بالحسنى فستفعلن عنوة يا سيداتي العاهرات.

وسكتت الموسيقى ريثما يرطب بيدرو سيغانو حلقه ويروي عطشه ببلعة من الكاشاسا، وسمعت عندئذ التهديدات في كل أرجاء المكان، فتقدمت الفتيات بفضول، أما ميزاييل الطيب، الغني، الفارس، فقد ظنَّ أنهن يعرضن أنفسهن مكان المحظوظات الثلاث:

– لقد اخترنا ولا نحتاج إليكن: – وعاد يوجه كلامه إلى المضلات وحاول أن يسحب دليلة: – هيا.

تقدمت إبيفانيا خطوة إلى الأمام، والعرق ينسال على جلدها الأسود، وأمام رعاة البقر صعد صوتها قوياً تفح منه رائحة الليكور:

– لا هن ولا نحن، ولا أية واحدة أخرى ستتخلى عن الحياء لنذهب معكم. ألا تدري أننا مقفلات المطارح؟ اذهبوا، وضعوا في أبقاركم، إذا شئتم – لكي لا تفقد العادة، وأيضاً لكونها كانت قد أفرطت في شرب الجنيبابو، فإنها بصقت على الأرض وفركت البصقة بحذائها.

إن الرجل الذي يحترم نفسه لا يحمل معه إلى البيت إهانة رجل، فكم بالأحرى إهانة بنت هوى؟ وأعلن ميزاييل قبل أن يتصرف:

– هؤلاء الثلاث سينلن اليوم، شئن أم أبين، وأنت ستنالين على وجهك يا زنجية البراز.

وأخرجت الصفعة صدى في النواحي الأربع من القاعة – قاعة الرقص؟ هكذا كان اللبناني يسمى مكان الرقص، "قاعة رفاهية لا عراك". وإزاء الصفعة القوية فقدت الزنجية توازنها، أما الصفعة الثانية فقد رمتها أرضاً وسال من وجهها خيط دم متواصل.

– ابن العاهرة: – زعقت دليلة ووثبت كذئبة.

11

– ابن العاهرة: – رددت برناردا وتقدمت هي الأخرى.

عندما انتبه رعاة البقر إلى ما حدث الآن كانوا قد أحيطوا بأنواع من غصب جهنم. وإذ كانت قد انطلقت للدفاع عن إبيفانيا فإن دليلة انقضت على ميزاييل محاولة أن تخنقه. لم يعد هناك خصومات وغيرة، قد نسيت العاهرة الصفعات والمشادات في بداية العراك الأول.

الآن، أخذت المعركة طابعاً آخر؛ إنها حرب الزميلات بنات المهنة الواحدة. اجتمعن جميعاً، ودون استثناء، لمواجهة الحداة، ولرفض القرار الذي أراد رعاة البقر فرضه عليهن: إذا لم يكن قادرات على غلق مطارحهن متى شئن، وإذا لم يكن سيدات مطارحهن فماذا يبقى لهن من الحياة؟ كل اللواتي كن يمارسن المهنة في توكايا غراندي كن موجودات هناك: دليلة، إبيفانيا، برناردا، زليخة، مرغاريدا كوتو، مارينيا كينزي أروباس، دروتيا، تيتي، وسيلفيا برنامبوكو، متضامنات متعتعات سكراً، ولم ينقص من اللائحة سوى اسم جاسنتا كوروكا لا بسبب النسيان بل بسبب التقدير

والاعتبار لها: وحدها كانت تساوي جميع الموجودات هناك. وعندما حاول إبريجيو الشاب، قليل الخبرة، أن يهدد بشهر مسدسه وهو يظن أنه يستطيع بذلك أن يتجنب عضّ الأسنان وتجريح الأظافر، فإن كوروكا نالته لبطة على خصيتيه. وسمع صراخ الشاب على بعد ثلاثة فراسخ على ذلك بعينيه وأذنيه.

أما العجوز توتونيو المسكين الجدير بالشفقة فإنه أهين أكثر من سواه. كان يأمل في أن ينال من برناردا فرأى حلمه ينهار ووجد نفسه متضايقاً من ذلك. وبينما كان يشدها من زنارها انتهى إلى أن يلقيها أرضاً؛ كان يسعى إلى أن يمس صدرها ويرفع تنورتها، مستعداً، يعلم الله، لأن يفعل فيها هناك بالذات وعلى مرأى من الجميع. بدا كأنه قد جن، وأخذ يرتجف كمن أصابته حمى مالطية. وكان يحاول أن يعطي صوته بعض النعومة: – هيا.. ثم يسمع صرير أسنانه لإعطاء الأمر: هيا! ونزع عنه حزام الجلد ليصبح أكثر حرية في الحركة. وكان ذلك خطأه الأكبر. لقد فقد الاحترام الذي يفرضه حزام الرصاص. عندئذ استفادت برناردا من الفرصة لتتخلص منه، وقبل أن يتمكن توتونيو من الوقوف ألقت ماريتيا كينيزي أروباس ثقلها فوق قليل الحظ وانهدت الأخيرات فوقه. وإذ بدأ يتأسف على آخر بريق أمل، وإذ لا يزال مطروحاً أرضاً صرخ العجوز حين رأى برناردا تنقض على ميزاييل.

– إبريجيو أمسكها إلى أن أجيء.

كيف يستطيع الشاب أن يمسك ببرناردا إذا كان قد التوى على نفسه وأصبح اثنين وهو يدافع عن خصيته من رفسات كوروكا؟ أما مسدس الشاب فإن كوروكا أخفته بين ثدييها تحت الصدرية: إن إبقاء السلاح في أيدي الصغار مجازفة تقود إلى الموت.

كل شيء كان يحدث في الوقت نفسه، وخلال دقائق معدودات. كان ميزاييل يحاول أن يتخلص من الحلقة المحيطة به والتي تزداد عداء، وإذ كان قد تعرض لجروح من الأظافر، وبصقات عديدة من أفواه الثائرات، فإنه سدد لكمة إلى وجه دليلة تلقى مقابلها رفسة من قدم. إن من يعارك عاهرة لا يفكر جيداً، لأنه ضعيف العقل.

12

بالرغم من سحنة فضول المتجهمة، ظل ميزاييل واثقاً من نفسه، مبتسماً، عندما شاهد الرجال يتجهون نحوه. كان متأكداً من أنه سيجد عندهم التفهم والتقدير، ومساعدة لإخضاع تلك العاهرات

المتمردات على القيام بواجبهن الكامل تجاه السيد ابن العاهرة: يجب تأدية الواجب تجاه الأمر الذي يدفع ودون مناقشة أي ظرف أو أفضلية. إنه لا يتخلى عن هذه القاعدة. فأين رأيت امرأة عامية ذات إرادة تفرضها وتوقيت لساعة عمل، ويوم راحة؟

كان العربي يتقدم، غاضباً: ودون لماذا، وكيف. وراحت الفتيات، الواحدة تلو الأخرى يبتعدن عن حلبة الرقص تاركات الرجال لتصفية الحسابات، كما لو أن العيد قد انتهى في قمة توقده. وصرخ العربي في النساء.

– ماذا تفعلن هنا؟

ولكن حين انتبه إلى ما كان قد حدث، توجه إلى ميزاييل: إن الصديق لا يتوقف عن إثارة المتاعب! جئت إلى هنا من أجل أي شيء؟ سننتهي من هذا اللغط.

كان هنالك هدنة مؤقتة، فتركت الأظافر والصفعات مكاناً للنقاش. وأخذ راعي البقر يظهر نفسه بمظهر حسن النية، فكيَّف صوته:

– نحن لا نريد إثارة المشاكل. إننا لا نريد غير بعض العاهرات يأتين معنا ليروين ظمأنا.

– إنهم يريدون أن يأخذوا النساء عنوة ولكننا جميعاً نرفض ذلك لأننا مقفلات مطارحنا.

قاطعت إبيفانيا والدم يسيل من فمها.

– لا اذهب معهم وإن ميتة... أكدت برناردا.

– العاهرة لا إرادة لها: – أجاب العجوز توتونيو وهو يقترب من المتوعدة.

وأوقفت كوروكا الضرب على رأس الشاب:

– نحن عاهرات لا عبدات: – قالت ذلك ونظرت إلى فضول عبد الله كأنها تتحداه: – أليس كذلك يا سيد فضول؟ أم أنك تفكر مثلهم؟

مقتنعاً بمساعدة الرجال، ومعتبراً نفسه عقلانياً، ومستعداً لأن يدفع ثمن دورة كاشاسا قبل أن يغيب عن المكان مع الحاديين الآخرين والفتيات المختارات، فإن ميزاييل بدا مندهشاً عندما سمع صوت الزنجي كاستور أبدووين يسأل ويؤكد: – ألا تعلمون أن العبودية قد انتهت منذ أكثر من عشرين عاماً؟ إنهن سيذهبن إذا أردن، وإذا لم يردن سيبقين.

نظر ميزاييل حوله مجيلاً نظره من تيساو إلى زي لويس، ومن بلينيو إلى باستياودا روزا، من غيدو إلى لوبيسينيو، من جيرينو إلى فضول، ومن حراس مستودع الكاكاو إلى رجال القوافل

والمارة، فإلى بيدرو سيغانو ومعه ميرنسيا الضخمة الفظة، وأخيراً ألقى نظره على حداد حدوات الحمير:

– لم يكن مفروضاً أن تنتهي العبودية حتى لا يكون هناك زنجي متجرئ مثلك. لا أعرف لماذا لا أحطم وجهك. ثم نظر إلى الآخرين:

– إذا كنتم لا تريدون الوقوع في مشكلة فلا تتدخلوا.

عندما رفع يده إلى زناره العريض فإن العجوز والشاب أحاطا به مؤكدين التهديد. وقبل أن يشهر راعي البقر مسدسه، فإن فضول، بعدما ابتسم لكوروكا، تكلم بلهجة جدية كما لو أنه كان يتحدث بهدوء ولا يفرض أوامر.

– اترك سلاحك بسلام يا سيد ميزاييل: أليس هذا هو اسمك؟

وحاول أن تنصرف من هنا في الحال قبل أن يصبح الوقت متأخراً: – ونظر فضول إلى الناحية الأخرى موجهاً كلامه إلى الزنجي: – ابقَ هادئاً يا تيساو.

وإذ لا تزال يده عند الحزام تشكك ميزاييل من الأمر:

– هل تريدون أن تتعاركوا من أجل هذه العفنات؟

– إذا كان الصديق يرمي إلى إجبارهن فإننا سنقاتل. أعرف شيئاً واحداً. هنا، الأمر كذلك: من يعتدي على واحد فقد اعتدى على الجميع. – هكذا هو الأمر، إذا لم يعجبك فتدبر نفسك بنفسك: – تدخلت ميرنسيا الواعية كونها امرأة متزوجة والتي لم تقم بجوار حي العاهرات لتبقى بمنأى عنهن وتفرض الاحترام. وكانت قد وضعت يديها على خصرها مشترية العراك كما لو أن التائهات كن أقارب لها، بنات عم وأخوات.

واختصر فضول.

– إنها القاعدة في توكايا غراندي.

حتى لو لم تكن تلك هي القاعدة المعمول بها، فقد غدت كذلك في هذه اللحظة. أما ميزاييل، الغني، الفارس، الطيب، فلم يكن قادراً على التراجع عن موقفه:

– إني لا أكترث بقاعدتكم.

ولم يكد يشهر مسدسه حتى كان تيساو قد انقض عليه يرافقه الكلب ألما بينادا الذي غادر مكانه تحت المقعد الخشبي ذلك المكان الذي كان قد اختاره ليغفو على أنغام الهرمونيكا. وأخذ الكلب

يحدق في الصديق وفي العدو.

عند هذه اللحظة أصبح المشهد ممتعاً. فقد أمسك فضول عبد الله بالعجوز توتونيو من قميصه ومن وسط بنطاله ورفعه في الهواء ثم رماه بعيداً. أما النساء فقد استمتعن بنزع الملابس عن الشاب إبريجيو؛ مع هذا العدد الكبير من الرجال الذين يودون المشاركة غدا الأمر ضرباً من الجبانة. لذلك حاول غيدو جاهداً أن يحتوي غضبه: وراح يتوسل إلى كاستور أن يترك له ميزاييل ليصفي حسابات سابقة معها. ولكن تيساو كان مستمراً في عمله ليهدم وحده الغنى، والفروسية، والطيبة التي يتمتع بها الحقير المعتد، وليعلمه أيضاً قيمة الزنجي المتجرئ.

وكان الكلب قد أخذ يقفز حولهما نابحاً عاضاً.

وبينما هو يخرج ليكفل هروبه فإن العجوز توتونيو أطلق رصاصة: لم يتذكر أحد أن ينتزع منه السلاح القديم الذي كان يحمله فاستقرت الرصاصة في صدغ كوتينيا.

13

في شبكة العمل والنوم، هدية زي لويس في أزمنة الازدهار، وضعوا جسد كوتينيا وحملوه إلى المقبرة البدائية حيث أخذت تنمو أشجار الكمثرى، وأقراط الموز، وتنضج البيتانغا بلون الدم. كانت قد أمطرت طيلة الليل، وأثناء الاحتفال والعراك. ولكن عند الصباح توقف المطر عن الهطول وجاءت الشمس لتحضر الجنازة.

عند الفجر ذهب بعض الرجال وحفروا حفرة تحت شجرة كاجو مزهرة. القبر عميق وهو الأول الذي تم حفره منذ غدا المكان يحمل اسم توكايا غراندي.

وازن كاستور ولوبيسينيو على أكتافهما جانبي عصا الخيزران التي أدخلت في الشبكة وسارا بها. كانت مرافقة الجثة مزيجاً من الدموع والضحكات، وراحوا يشيرون إلى الميتة بالخير، والوفاء، وإجادة صنع الحلوى وشراب الجينيابو. في صمت المسيرة إلى المقبرة تذكر الزنجي تيساو تفاصيل المحادثة، ودير سان كريستوفار، ونبيذ القداس، والنصب الكبير والأخ نونو وهو "يتكلبن"؛ ابتسم للذكرى وفي لحظة إنزال الجثة إلى القبر، سأل:

– من يعرف صلاة ما؟ لقد عاشت في دير وكادت تصبح راهبة. يستحق الأمر عناء الصلاة من أجلها.

قاموا بأكثر من محاولة ولكن لم يكن أحد يعرف صلاة كاملة من البدء حتى الأخير، وإن "السلام عليك يا مريم". أما ميرنسيا فقد غفرت للخاطئة كما توصي وتأمر الرحمة، ولكن ليس إلى حد مرافقتها إلى المقبرة. ومع ذلك فإن روح كوتينيا لم تصعد إلى السماء – حتى وإن يكن للعاهرات سماء – فلن تدخلها بدون وساطة من يفتح لها الأبواب إلى هناك.

وإذ كانوا يرددون مقاطع من "أبانا الذي في السموات"، ارتفع صوت فضول عبد الله الجهوري. في طفولته كان شماساً في خدمة عمه في القرية اللبنانية وأنشد بالعربية بحنان متماوج ما يجعل السامع راغباً في البكاء. ولم تستطع إبيفانيا أن تمسك نفسها عن التنهدات.

وما كادوا يعودون حتى اختفت الشمس وعاد الشتاء.

14

لم تنتظر إبيفانيا نهاية الشتاء لتغير المكان. لقد تمتعت بعيدي القديسين يوحنا وبطرس، وقالت لمن يريد أن يسمع أنها لم تتمتع في حياتها بهذا القدر.

في ليلة القديس يوحنا أشعلوا النار أمام الأكواخ المتعددة وزار الجيران بعضهم بعضاً. وأضيء الفضاء باللهب، والأسهم النارية، بألوانها الزرقاء والخضراء والحمراء الرائعة الجمال، وأكلوا وشربوا حتى التخمة واعترفت الفتيات متعتعات: ليس من راقص رباعية يمكن قياسه بكاستور أبدووين: ألم يكن الزنجي حاذقاً في غرائب الأمور. وأشعلت إبيفانيا كومة حطب مع زليخة وغدت الاثنتان صديقتين.

أما اللحظة المهمة فكانت في إطلاق المنطاد – المفاجأة التي أعدها تيساو وكوروكا. كانت تمطر خفيفاً. وملأوا المنطاد بدخان كومة الحطب الكبرى والجميع متحلقون حوله. أشعلوا الفتيل فصعد المنطاد إلى السماء وضاع فيها. وقبل أن يختفي أصبحوا لا يميزون بينه وبين النجوم القليلة: لقد كانت النجمة الكاذبة أجمل النجوم.

بعد عدة أيام عندما رأى كاستور إبيفانيا تنتظر مستعدة للرحيل، كانا قد قضيا الليلة الماضية معاً. وبينما تضع هي صرتها على رأسها:

– إني ذاهبة الآن يا تيساو – كانت تريد أن تستفيد من وجود قافلة اليزيمو حتى لا تسافر وحيدة.

لم يطلب منها أن تبقى، واكتفى بالقول:

– سأتذكرك طيلة حياتي.

مدّت إبيفانيا رؤوس أصابعها. حافية، الصرة على رأسها، وتمثال صغير أهداها إياه، بيدها، التحقت إبيفانيا بالقافلة ووجهتها كاراكاس، ورافقها الكلب ألما بينادرا لمسافة طويلة، ولكنه حين علم بأنها منصرفة نهائياً غيّر طريقه وعاد ليستلقي قرب دفء النار. كان الكلب لا يزال ضعيفاً وبشعاً، ولكنه كان قد تكشف عن موهبة في الصيد والشجاعة؛ وظل يحرس محل الحدادة وخطوات تيساو.

النقيب ناتاريو دا فونسيكا يلتقي بعائلة من السرجيبيين ويقودها إلى توكايا غراندي

1

حتى يمكن اعتبارهم حجاجاً إلى تلك البقاع كان ينقصهم، وهم يسيرون، الأناشيد الدينية والكلاب المرافقة. فكّر النقيب ناتاريو دا فونسيكا بذلك وقد لمح القافلة تسير.

في شبابه الذي عاشه مشرداً، لم يرفض ناتاريو المشاركة في الاحتفالات بالأعاجيب في حفر نهر سان فرانسيسكو حيث ولد. لقد عمل دليلاً لأعمى، وأغرم بامرأة عامية وأخلص لها، وكان حيوياً نشيطاً فوق مطيته، وركب جواد الرؤيا والوحي وكان ديوسكوريدس يسير غير آبه بالمخاطر، إلى يوم الحساب، محتجاً على العقاب في نهاية العالم. وخلفه على الجواد، بدلاً من بوق القيامة، كان كبير الملائكة رديفه يحمل بندقية قصيرة المقبض ويمارس التصويب.

شريك في مآتم الجرحى، رسول يذهب ويعود بالأخبار، يحرسه عيسى الطيب والأم العذراء، وبتلك الحراسة بلغ التحدي أقصى أقاصي الرعب، ورقص في عيد المفارقين الحياة، ومسحت جبهته برماد الصيام الأربعيني، وأحرق يهوذا في الهاليلويا؛ مع يهوذا لم يبقَ للشعب غير قامتة الأعاجيب ودفع الوعود – آه يا أرض الفقر والشقاء! في حدود الكاكاو لم يكن هماً لك مجال للمسيرات الدينية والأعاجيب الإلهية.

2

كانت مطايا السرجيبيين تتوالى من الجهة الأخرى لنهر الأفاعي وقد اجتازت الطريق إلى هنا عبر الغابات، وكانت المزارع الحديثة قد أعلنت عن حاجتها إلى عمال. وبينما هم يمرون مروراً على دكان فضول، كانوا قد تحمموا عند مجرى النهر، واستحصلوا على المعلومات. ومن المال الذي عدوه تكراراً كان قد بقي لدى بعض الجامحين النقود الكافية لامرأة. يا له من مكان جميل، ذلك المكان.

في الوطن "سرجيبي"، الشقي، لهؤلاء، كانوا يسمعون أخباراً رائعة، وروايات بديعة عن أراضي جنوب باهيا وعن زراعة الكاكاو. أرض خصبة، والكثير منها لا يزال غير مملوك – وكان يكفي أن يمتلكوا منها – والزراعة لا مثيل لها هناك وتساوي منجم ذهب. ومن كان لديه طموح، ومستعداً للعمل، وعليماً بالاستفادة من هذا الطالع غير المنتظر، يستطيع أن يثري! وكانوا يرددون في

المعارض الشعبية أخباراً عن حالات أكيدة، ويعطون أمثلة هي البراهين الساطعة بعينها، وكلها حقائق لا تقبل الشك. وكانت قصة العقيد أنريكي باريتو، ملك الكاكاو تنتقل من لسان إلى لسان، وتسري من أذن إلى أذن! عندما خرج من خدمة سيماودياس كاد الجوع يقتله. كان قد بدأ حياته أجيراً، وبعده رجل قوافل، يحدو الحمير ليل نهار. ثم أقام له دكاناً على طريق ريسيفي لبيع الكاشاسا والذخيرة فجمع المال الضروري لشراء قطعة صغيرة من الأرض وجعلها حقلاً من الكاكاو، ولما أنتجت الأرض أصبح طاقة مالية هائلة. إن ملك الكاكاو، العقيد أنريكي باريتو، الذي ولد ونشأ في شقاء سيماودياس، كان في أعياد نهاية العام يرسل بعض المال إلى أقاربه يسدون به الرمق في سرجيبي. أما هو، العقيد، فقد غدا من سكان المدينة.

على الطرقات وفي المساكن الوعرة كانت زمر الشباب في اتجاه جنوب باهيا وقد تخلوا عن حقول الإقطاعيين والمدن الصغيرة الميتة، إذ لا يكادون يبلغون سن الرشد حتى يكونوا قد فقدوا كل أمل في العثور على عمل وراتب.

وداعاً يا أبي، وأمي، أعطياني بركتكما، سأذهب للإثراء في إيتابونا، وداعاً يا زوجتي وأولادي، إني أتقدم لأكسب المال في إيلايوس لأجمع لكم تكاليف السفر لاحقاً.. وفي أكياس الجلد التي يحملونها، كما في قلوبهم أيضاً، كانوا يحملون الوصفات ضد الحمى ولدغات الأفاعي، ويحملون الذكريات والنصائح ووجوه الأحبة والدموع والتنهيدات. وكان الوالدان والزوجة والأولاد يبقون في سرجيبي على الوعد وبالانتظار، وكلها أسباب وهمية لحياة يمضيها الشيوخ ببطء ومع القلق على الجنون الذي لا حدَّ له، وكان الأبناء ينتظرون بلوغ سن الوداع والرحيل.

على الطرقات كان يمكن مشاهدة القلة من المتزوجين وأقل منهم مما ينقلون معهم أطفالاً.. ونادراً جداً يمكن العثور على عائلة متعددة الأفراد، من الذكور والإناث، والطاعنين في السن والشباب، والجدود والأبناء والأحفاد. ومع هؤلاء، كان يحدث أنهم، معاً، قرروا القيام برحلة، وقرروا أن يبقوا معاً في كل الاحتفالات. كيان عريق ذو جذور قوية وروابط دموية عميقة تجمعهم، ولكنهم كانوا ينتهون إلى التبعثر في حقول الكاكاو، ومطابخ البيوتات الكبيرة، والكمائن، وبيوت العاهرات. وإذ تكون الروابط قد انتهت فإن قيماً جديدة كانت تقوم لتفرض نفسها.

كانت العادات وأنواع الاحتفالات والبكاء تتناقض عندما تجتمع، وكان السرجيبيون يمتزجون بأهل الداخل. وتتمازج مع ذلك اللغات واللهجات والروائح والمسالك والصلوات والأناشيد والرقيات.

وإذ كان السرجيبيون مجتهدين وعنيدين فإنهم ملأوا أرض الكاكاو. ولم يكن ينقص العمل، وكان الإثراء ممكناً: ولكن الإثراء كان مادة للحلم ومسكناً للأوجاع ودعوة للتخلي عن مطارح العوز والرحيل بعدها. كما أن السرجيبيين كانوا قد حافظوا على التعاون والتعاضد فيما بينهم وكانوا يساعدون بعضهم البعض في أي وقت سمحت به الظروف.

كان البعض عندما يصلون إلى إيلايوس يحملون معهم عنواناً أكيداً: عنوان مزرعة أحد مواطنيهم، وهو عادة عقيد ذو شهرة في الإثراء تغذي الأحاديث والأحلام في أيام الفقر في المدن الخالية من الرجال.

عندما هرب ناتاريو من بروبريا، جاء معه بتوصية من أحد أقاربه للعقيد بوافنتورا أندرادي. في مناحات المجازفة والمخاطر، يغدو مفضلاً منح الثقة إلى مواطن.

3

أوقف النقيب ناتاريو دا فونسيكا خطى مطيته قرب المجموعة الغامض أمرها ليحيي العجوز بشكل متلائم، فرفع العجوز قبعته ليسأل عن أمر. أراد أن يعلم ما إذا كانوا يسلكون الطريق الصحيح الموصل إلى مزارع القائمة في أراضي نهر الأفاعي، وإذا كان صحيحاً القول إنهم بحاجة إلى عمال في تلك المزارع. إنها الحقيقة، أجل:

– إن القطاف سيبدأ، والديافير بدأت تنضج وأنه لأمر ممتع النظر إليها.

لم يكن محتاجاً إلى السؤال ليعرف من أين كانوا قادمين، ولكنه سأل ليمد بالمحادثة:

– هل أنتم سرجيبيون؟

– أي نعم.

– وعائلة واحدة؟

وراح يعد الموجودين بنظره: ما عدا المتزوجين الثلاثة، الشاب الطويل القوي والطفلة ذات السنوات القليلة، والفتى الذي حمل معه دبقاً لالتقاط العصافير. أما المرأة ذات المنديل فإنها كانت تحمل طفلاً ذا أشهر من العمر، والأخرى، شابة، كانت حاملاً. عشرة أحياء وقريباً يصبحون أحد عشر.

– أي "نعم".. كلنا عائلة واحدة.

– من أين قدمتم؟

تأخر العجوز قليلاً في الإجابة – وماذا لو يكون النبأ قد وصل إلى هنا؟ ومع ذلك قرر الإجابة:

– لقد وصلنا من مكان قريب من ماروين. هل سمع السيد بهذا المكان؟

– مررت من هناك عندما أتيت منذ زمن بعيد. إني في الأصل من بروبريا.

توقفوا منتبهين وهم يرافقون الحوار. وبينما توكأت على غصن شجرة، فإن العجوز الضعيفة، البائنة العظام، والوجه المجعد بسبب الغبار أكثر منه بسبب العمر، اقتربت خطوة من الفارس ورافقتها المرأة التي تحمل طفلاً ممسكاً برقبتها. إن ابن المنطقة هو قريب تقريباً وليس أمره بأمر الغريب. من يدري، فذلك المواطن من بروبريا، الذي يمتطي جواداً مطهما وعليه ملامح الطيبة والجاه، قد يكون ذا نفع فيساعدهم وينقذهم؟ هنالك سبب ما يجعلهم يطيلون الحديث تحت وهج الشمس على حافة الطريق. لقد كانت العائلة كبيرة، فكيف العمل حتى لا يبتعدوا بعضهم عن البعض، وعلى الأخص بعد كل ما حدث؟ ترددت المرأة العجوز في السؤال. كانت تفتش عن السلام لعائلتها ولكن القوة خانتها.

– إن أكثر القادمين إلى هنا هم من السرجيبيين، ولكن أغلبهم يصلون أفراداً، ولا تصل عائلة كاملة إلا نادراً، فكم بالحري إذا كانت عائلة بهذا الحجم؟ لماذا جاءت العائلة كلها – وإن يكن سؤالي في غير مكانه؟

تقدم أحد الرجال من العجوز:

– إن هدفنا هو العمل، ويقال إن العمل هنا متوفر. جئنا من أجل هذا ولا شيء آخر.

لم ينظر الرجل إلى النقيب، بل نظر إلى الآخرين: إن الإجابة عن السؤال قد أعطيت، ولم يكن أحد هناك يريد استطراداً. قصيرة كانت الإجابة ولكنها ليست وقحة ولا تحدي فيها: فقط تحفظ وربما احتراز، من يدري؟ أطرق العجوز برأسه عندما قاطعه ابنه عن الكلام ثم أخذ دوره بالكلام من جديد

– إن الأصالة والاحترام صفتان أساسيتان في خلق سكان ماروين.

أجال ناتاريو بنظره من واحد إلى آخر وهو يقيس بطون الرجال الأربعة، فأيهم الذي أطلق الرصاص وجعل الجميع يهربون؟ لم يشأ أن يحدد:

– فقد أردت أن أعرف. دع الكلام الجميل فأنا لست بكاهن اعتراف. إن الناس حين تصل إلى هنا فإنها تولد من جديد. فليس من حسابات يجب تأديتها. تستطيع حتى تغيير اسمك إذا أردت.

عندها تقرب الشاب الأصغر بعدما أفلت من يد المرأة واتجه باتجاه ناتاريو:

– لقد مسوا بكرامتنا وطردونا. نحن لم نأتِ لأننا أردنا، جئنا مرغمين.

– أقفل فمك! – أمر الشاب الأكبر الذي كان قد تكلم سابقاً.

– قام العجوز بحركة ولم يكملها.. وجّه ناتاريو نظره إلى الجرح في كتف الشاب ولكنه لم يتمكن من أن يوجه سؤالاً أو يقوم بتعليق. ولكن الشاب دون أن يلتزم بحركة الأب وأوامر الأخ الأكبر – كشف عن صدره. وحرّر ناتاريو من التساؤل الذي أقلقه:

– لم يقع الحادث كما تفكر.. النساء لم يتركنني أفعل – أشار إلى المرأة العجوز وإلى الأخرى الحامل، الأم والزوجة: – علماً أنني أردت أن أجهز على اللعين. نظر إلى كف يده: – لقد شدتاني من يدي... وقضتا على القوة التي تمتلكني!

كان قد أراد أن يتناول السلاح ويجهز على اللعين. ولكنه متزوج منذ قليل، وزوجته لا تزال عروساً جميلة وحاملاً وهي التي أمسكت برقبته: فكّر في وفاة الطفل، وأمسكت الأم بالبندقية لأنها فضلت الموت على أن يكون لها ولد مجرم سجين أو هارب من الشرطة.

– لم أقم على تربية ابن ليصبح قاتلاً أو معرضاً للموت برصاص حملة المسدسات – هكذا كان والدها وأخوها قد ماتا في تحدٍّ شبيه بذلك التحدي.

بين المرأتين ضاع عنفه أو هدأ وتبعثر التهديد مع الرياح الأربع. وبالنسبة إلى السينادور لم يكن هنالك فرق بين التهديد ومحاولة القيام بالجريمة التي تقع مسؤوليتها على الجميع وعلى كل واحد بمفرده: إنها عدالة سليمان المنطوق بها على سياج حظيرة عجول.

4

عبر مسالك الغابات الوعرة وتحت وهج الشمس المحرقة، تقيأوا الحدث وكل مؤرخ منهم سجل موقفه بلهجة دقيقة: وفي مقبرة الذكريات دفنوا الماضي، الشوكة المؤلمة، والعبء الثقيل. وعادوا يعيشون كما من قبل أن تضع القساوة رحالها فوق حياتهم بمنهجية، وبمنطقية أو إرادة فوقية لا مجال معها للحوار. عادوا كما كانوا ولكن ليس كلياً: إن الجروح وإن التأمت تبقي في مكانها آثاراً.

وأكثر من مرة أصغى النقيب إلى المسلسل الذي روته النساء. أدرك أن الرجال والنساء، والشيوخ والأطفال جميعاً قد استأجروا مساحات كبيرة من الأرض مناصفة بين الوجيه، السيد، وبينهم. وكانت الحياة تسير بهدوء، يزرعون ويحصدون، ويحملون حصتهم من الإنتاج إلى معرض ماروين الشعبي حيث يبيعون ويتجرون. وأيام الآحاد كانت النساء يذهبن إلى الكنيسة والرجال إلى تجارتهم.

ودعي العجوز كبير العائلة إلى مقر وزارة الزراعة، من حيث عاد بالمبلغ التعويضي الذي تقرر دفعه من قبل السينادور – ولا يفيد أن تناقش، تستلم المبلغ أو تتخلى عنه – وعاد معه بمعلومة أعطي إياها عن المدة التي يجب أن يحزم فيها أمتعته ويفتش عن مقر آخر، وفي عينيه جمر يتقد، وفي حنجرته عقدة مستعصية. ولمن يشتكي العجوز؟ إلى الأسقف؟

بالنسبة إلى النساء وهن في غمرة الحزن لم يكن ما يعوضهن أكثر من كبير الكهنة الذي مسّه القرار هو الآخر. ذلك القرار المفاجئ الذي حرمه من الديوك السمينة والثمار المختارة والخضار الطازجة، تلك التقدمات الأسبوعية، وكان أولئك الطيبون المؤمنون بالله يقدمونها. ونصح الأسقف بالطاعة والخضوع وبطريقة ما كان يجب عليهم أن يعتبروا أنفسهم بشراً من ذوي الحظوظ التي منحهم إياها الإله الصالح. قال الأسقف ذلك وقد أغمض عينيه نصف إغماضة وهو يشبك أصابعه بعضها بالبعض الآخر فوق المنبر الذي استند إليه، وكون السينادور صاحب الأرض فقد كان ممكناً أن يرميه خارج الأرض دون أي تعويض ومن أي نوع كان، ودون مهلة يتدبر فيها أمره، ودون مصافحة أيضاً. لقد كان السينادور بحاجة إلى تحويل تلك الأراضي الواسعة إلى مراع لتربية العجول بدلاً من زراعتها بالذرة والفاصوليا. إن القطيع هو أحق بالأرض وهذا قرار عادل. لقد كان السينادور لطيفاً مرتين: مرة حين سمح لهم بالزراعة والحصاد لمدة طويلة من الزمن، وبالتالي، لكونه دفع لهم تعويضاً ليس من حقهم.. وأعطاهم أيضاً المهلة الكافية ليتمكنوا من الذهاب إلى المعرض يوم السبت ولبيع المحاصيل الأخيرة قبل أن يرحلوا. يكفي أن يشكروا. ثم أعطاهم الأسقف البركة، والله أكبر.

ولولا الاجتماع والتهديدات التي أطلقوها لمر الأمر دون مشقة. ولكن، عندما علم السينادور بغضبهم وكلماتهم التي لا معنى لها أصيب بصدمة عميقة: إنه لا يستطيع التغاضي عن الحقوق. لذلك ألغى المهلة وأمر بالطرد الفوري – إذا وجد أحد أفراد العائلة حول أراضيه فلن يكون عنده مجال للتفاوض.

أما المنحرف، اللص الذي فكّر بقتل السينادور لقرار فإنه ليستحق أمثولة. وإذ تمّ توقيفه، فقد ربط إلى أحد المعالف داخل الإسطبل، دون ماء أو أكل، ومع احتمال أن يطبخ على أشعة الشمس.

واعتصمت المرأة العجوز في مقر المطرانية في ماروين إلى أن تمّ استقبالها من قبل الأسقف. لقد بدت للأسقف غنمة متواضعة من أغنام السيد، ورآها مكتئبة متجهمة كأنما عضّها كلب مسعور

عضة بالغة. يا سيدنا إذا لم يطلقوا سراح ابني فإن عائلتي كلها ستعود لإنقاذه وسيتمكنون منا جميعاً، واحداً إثر واحد. بدءاً بي، وستكون هنالك مذبحة جماعية. حتى الأسقف ذو الطبيعة التأملية والحسوبة: فقد توازنه، وأحس بالبرد في أسفله: سأذهب لأرى ما أستطيع أن أفعله وليسامحك الله يا امرأة.

وبرهن السينادور مرة أخرى على كرمه وقدرته على التسامح، واستجاب لطلب الأسقف، وأمر بإطلاق الشقي في الوقت الذي يجب أن يلتحق فيه بقومه الملاعين. وقبل أن يطلقوه فقد قدّموا له دزينتين من الحلوى واستعملوا في ذلك المسطرة التي كانوا يستعملونها سابقاً في ضرب العبيد في زمن العبودية والرق.

إن السينادور لم يكن يسمح بالبقاء في أرضه لأناس بلا إيمان. وأراضيه هي ولاية سرجيبي، أراضي ومياهاً، وأشجاراً وحشرات، طاقات وعدالة وكان له بعض الشركاء الصغار وهم سادة أغنياء وذوو مواهب، على كل حال، أما الآخرون جميعاً فعبيد.

5

– لقد جئنا مهانين..

ماذا يفيد وضع البندقية على الكتف؟ لقد تأخر العمل وانقضت الساعة. من الأفضل اتباع نصيحة الأم والنسيان: ومن الأفضل استبدال ورم المسطرة الثقيلة ولهيبها بالتعب والمشقة من أجل العيش.

– كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ – استنتجت العجوز – وما مضى قد مضى. لقد مرّت التجربة ونحن على قيد الحياة. وليساعدنا الله على أن نبقى معاً. ولم يعلق النقيب على الأحداث، لم يقل نعم أو لا، ولم يمل إلى أحد، لم يؤيد ولم يدنُ؛ قصة عادية، ذات إثارة قليلة، ولم تكن العجوز لتترك برهة دون التأكيد على كونها على حق: ما مضى قد مضى؛ إذا ظلينا معاً نستطيع أن نحول سوء الطالع على اكتفاء. إننا عائلة عديدة الأفراد، نظامية وشغولة، متعودون على زراعة الذرة والفاصولياء والشعير وتربية الدواجن والماعز.. ومثل هذه العائلات أليس بالتحديد ما تحتاج إليه توكايا غراندي ليصبح لها جذور وقدرة على التطور؛ وإذا قامت هذه العائلة فإن عائلات أخرى ستأتي.

هل صحيح أنكم تريدون أن تبقوا معاً؟

– جئنا بهذه النية، ولكن يقال إن المسألة صعبة العجوز. – أخذ الكلام والقيادة من جديد:

– ما اسم حضرتك؟

– إمبروزيو، خادمك المطيع.

– وأنت يا عمة، ما اسمك؟

– إيفانجيلينا، ولكن يسمونني فانجي، هل تعتقد أن لا مجال؟..

– لكل شيء حل ما عدا الموت.

وأخذ النقيب يعلن عن اسمه ولقبه – في هذه الأماكن النائية من العالم يعرفني الجميع. ثم راح يتكلم عن توكايا غراندي. إنه مكان صغير يبعد فرسخاً عن الطريق، وآخذ في النمو في موقع جميل جداً. وأخبرهم عن الأراضي الواقعة على ضفاف النهر حيث يمكنهم أن يزرعوا مساحات هائلة بالفاصولياء والذرة والشعير، وهي أراضٍ لا أصحاب لها، ويملكها من يصل إليها أولاً.

– أراضٍ بلا مالكين؟ هل يمكن؟

– وهي خصبة وجميلة أيضاً.

– وإذا حدث فيما بعد...

– إن القانون هنا هو قانون الحياة يا سيدة فانجي. وليس الأمر كما هي الحال في سرجيبي حيث لكل شيء سيد ومالك... حتى أعاجيب القديسين.

فهمت فانجي أن رجل بروبريا هو رسول القدر، وأحست بنفسها وقد تحررت من المخاوف والقلق. وذهب العجوز إمبروزيو مع ذلك إلى القول.

– إن ما لدينا من مال لا يكفينا حتى لنبدأ.

– لا تهتم للأمر. حين تصل إلى هناك، فتّش عن لبناني اسمه فضول: ثم فسّر النقيب كل هذا الكرم:

– لا أعرف مكاناً أجمل من توكايا غراندي، ولكنه لن يزدهر إلا إذا أقامت فيه عائلة جديدة، وولد لها طفل، وبدأت بتربية حيوان ما.

الأخ الأكبر من العائلة السرجيبية الذي ظل صامتاً طيلة الوقت أراد أن يعرف:

– هل حضرتك من توكايا غراندي؟

لقد ولدت في بروبريا، كما قلت لك. ولكن أريد أن أموت في توكايا غراندي حين تأتي ساعتي.

6

عربات الثيران المتعبة بدأت تختفي في غبار الطريق إلى توكايا غراندي. وذهب تفكير النقيب ناتاريو دا فونسيكا بعيداً من بيوت الفقر والشقاء على ضفاف نهر سان فرانسيسكو إلى عالم الظلم والتحكم، المستبد بمصائر البشر. وفي صمت الغابة سمع صرخات الاستغاثة وأصوات النزاع الأخير. وللحظة خاطفة امتطى من جديد صهوة جواد الرؤيا ديوسكوريدس مستعداً لوضع نظام لهذا العالم يضع حداً لعذاب الإنسان. ولكن حصان الرؤيا بطيء، بطيء، ولمواجهة إمبراطورية الشقاء المفروض على الإنسان فإن النبي يجب أن يمتطي على الأقل الرجل – الذئب، أو البغلة – مقطوعة الرأس. إن حياة الخليفة لا تزال غير مستحقة لآه واحدة، حتى مسطرة ضرب العبيد لم يقضِ عليها، فكم بالحري وسائل التعذيب الأخرى.. لماذا يمسك بنفسه لاهثاً أمام هذه الفوضى التي تحكم العالم؟ إن اتفاقيات دقيقة تلزمه حالياً بالاهتمام، والتي لا يمكن تأجيلها.. ويكفيه الآن أنه بدل الغدارة ذات الطلقة الواحدة قد حمل الخنجر والبرابلو وهما الكفالتان الأكيدتان لتطبيق الشفهية ومنع المظالم.

لامست ابتسامة حقيقة شفتي ناتاريو: إن اللبناني سيقلق قلقاً مضنياً عندما يتجابه مع السرجيبيين الذين يحملون منه رسالة إلى فضول. ولم يكن الأمر مقصوداً عندما، في صباح ذلك اليوم بالذات، تكلم الاثنان معاً وقد شخص ناتاريو المشكلة ووضع العلاج:

– أجل، كما قلت لك يا عرّابي فضول: ما دام ليس من عائلة مقيمة هنا، وإن اقتصر الأمر على القوافل والمهنة المهمة، فإن الحركة ستظل بطيئة. ولكن لا تيأس، ولا تتجهم، فقريباً سأتدبر بعض السرجيبيين ليأتوا ويقيموا هنا. إنه الوقت المناسب جداً:

إن الغرسات الجديدة ستبدأ بإعطاء الكاكاو، وسيجري المال أنهاراً.

– من فمك إلى إذن الله يا نقيب ناتاريو. إن ما ينقصنا هنا هو المال.

– ألا تصدق أيها "التركي"؟ هل تعلم من الملكيات الجديدة في الجوار؟

– لو لم أكن أصدق لما تمسكت بالمكان. ولكني اعتقدت أن الأمر سيحدث بأسرع من هذا، وهو لا يزال يسير بطيئاً.

– لكل شيء ساعته الأكيدة يا فضول، ولا يستحق الأمر تسريع الأشياء... قبل ذلك لم يكن من رجل ليصل إلى هنا لأن الزرع كان لا يزال في طور النمو. هل فكرت يا عرّاب كيف سيكون الأمر

حين تحمل كل هذه الأغراس بثمر الكاكاو؟ إنه عالم بلا نهاية. لن تكون توكايا غراندي مكاناً صغيراً.. إنها الآن قد تجاوزت تاكاراس بكثير، اكتب ما أقول على ورقة، إذا كنت تشك.

– إن الله على كل شيء قدير، يا نقيب. متى سيتدبر صديقي مسألة المجيء بالسرجيبيين؟

– في يوم من هذه الأيام فضول... وفي أسرع ما يمكن. هكذا تكلم عند الصباح عندما مرَّ في توكاي غراندي عائداً من مزرعة أتالايا... من المؤسف حقاً أن النقيب لن يتمتع برؤية وجه اللبناني عندما يصل إليه السرجيبيون: التعجب، الحركات، والانتفاخ الاندهاشي، والحديث مع الله فيما هو متعلق بالصدفة الرائعة الفريدة؛ إن إله فضول عبد الله هو نسيب قريب له، ويكاد يكون فرداً من العائلة، وصديق قدير ولكنه حميم ووفي، وشريك في الأعمال.

كان النقيب يقدر فضول اللبناني، "التركي" اللص، طيب المحادثة والعشرة، التاجر النبيه، الدؤوب في العمل: البائع المتجول ذو الشهرة الواسعة في حقول الكاكاو والمزارع حيث لا يزال أصحابها يشتاقون إلى وجوده... وقد رأى بنظره الثاقب بعيداً. فاستقر في توكايا غراندي متحمساً لنمو حركة القوافل والعابرين. لقد تجاوز دون امتعاض سنوات البقرات العجاف. وتحمل المشقات السبع دون أن يبدل طريقه. إنه رفيق صبور وعرّاب سعيد.

عائلة السرجيبيين تصل إلى توكايا غراندي
والعقيد ناتاريو دا فونسيكا يبدأ ببناء بيته

1

كان الصباح قد تقدم بينما فتاتا الهوى، العجوز جاسنتا كوروكا والصبية برناردا، تستمتعان بنور الشمس الصيفية عند باب البيت الخشبي الذي كان النقيب ناتاريو دا فونسيكا قد أمر ببنائه. كانت جاسنتا ترتق الفتوق في بعض الملابس بينما انصرفت برناردا إلى تسريح شعرها الأسود الكثيف، وكانت تعرف أن شعرها جميل، وتتفحصه شعرة شعرة تفتيشاً عن القمل.

وبينما تحول نظرها عن عملها الدقيق لتجديد الخيط في الإبرة، نظرت كوروكا بطرف عينيها إلى رفيقتها، وعكرت صفو الصمت والهدوء:

– إن المرأة العامية التي تحبل ليست كفوءة، ولكان أفضل لها لو ظلت تعيش في الغابة وتكسر جوز الهند.

قالت ذلك بصوت منخفض يكاد لا يسمع، وبالصوت نفسه تابعت حديثها العامي مع تنهد خفيض، وكان نظرها ثابتاً على الخياطة كما لو أنها كانت تتكلم إلى نفسها وليس إلى أي طرف آخر.. وبالطريقة نفسها كانت برناردا تصغي إليها: كما لو أنها لم تكن تسمع شيئاً مما يمكن أن يؤجل صفو الصباح إلى إشعار آخر.

– لماذا كان عليها، بحق الشيطان، أن تترك بطنها تنتفخ؟ سترى، بالإضافة، أنها لا تعرف أباه.. ولا تعرف شيئاً.

نسيم الصباح يداعب مياه النهر وأفنان الشجر وشعر برناردا. واستمرت كوروكا بإعطاء الحجج المنطقية:

– من لا تفهم يجب عليها أن لا تختار مهنة الدعارة لأنها ليست مهنة عادية بل صعبة للغاية. وإذا كانت تظن أنه يكفي أن تحسن هندامها وتبرجها، وتجعل فمها يفتر عن أسنانها وتضع العطر على مطارحها، فهي مخطئة للغاية. إن المرأة العامية مثلها مثل الراهبة فعندما تدخل هذه إلى الدير تتخلى عن كل شيء: الأب والأم، الأخت والأخ، وعن اسمها الحقيقي وحقها في الحبل والولادة.. والفرق الوحيد هو أن الراهبة تصبح قديسة وتصعد إلى السماء لتجلس بين يدي الله، بينما المرأة العامية لا تتعدى كونها عاهرة، ويحكم عليها في الآخرة دون مجال للخلاص.

ونظرت إلى الأفق أبعد من النهر والمرتفعات، فآلم الضوء الحاد عينيها:

– لقد فقدت نظري لكثرة ما شاهدت من أطفال السفاح يبكون في زوايا بيوت العاهرات وهم يبتلعون المخاط الساري من أنوفهم. إن ابن العاهرة هو أكثر الناس ألماً وشقاء؛ يجب أن تكون حمقاء حتى تفكر أن بإمكانها أن يكون لها رفاهية الحصول على ابن تضعه في هذا العالم.. ومما هو أكثر مدعاة للأسف أن يرى الواحد امرأة عامية ناضجة تمارس المهنة مع فتى صغير يتعلق بتنورتها.

ودون أن تقطع نشيدها المتواصل، أوقفت الخياطة وتفحصت الرتوق في سترتها:

– إذا كانت تجهل ما العمل حتى لا تحبل فلماذا تسال من هم أكبر منها؟ لماذا لم أحبل وأنا أمارس المهنة منذ زمن سحيق: إن أصابع اليدين ومعها أصابع الرجلين لا تكفي لعدد السنوات التي قضيتها في هذه المهنة: إنهم لا ينادونني بكوروكا، في الفترة الأخيرة حسب، بل منذ زمن بعيد.

صمتت لبرهة، متذكرة. إن ذكريات القدر هي امتياز لها دون سواها، ولكنها إذا لم تعجل في نجدة برناردا فإن الجاهلة ستصنع حليباً لابن سفاح عليه الحياة. كانت برناردا تبدو كأنها حفيدتها.

– كنت عصرية عندما علمتني والدتي كيف لا أحبل من العقيد إيليديو. كنت صاحبته وذات بيت خاص لي. كان هو من أعالني بعدما افتض أولافو بكارتي ثم توفي وهو يبصق الدم من صدره الضعيف. لقد منحني العقيد بيتاً كامل الأثاث وأكثر مما أردت. كان يكفي أن أرغب في شيء فيرسل ضعفه. كنت أعيش مرهفة ولم تكن أمي تكف عن قول هذا. كان يكفي ألا أحبل لأن السيدة ماركولينا، زوجته، لم تكن لتتحمل هذا.. خلال سبعة أعوام كنت عاهرة سيدة أم تراها كانت تظن أنني ولدت تائهة؛ ولم ألجأ إلى ممارسة المهنة إلا عندما توفي العقيد فأرسلت ماركولينا من يضربني ضرباً مبرحاً ويشدني من شعري ويدور بي مثل المكوك. كان ذلك هو الأمر الأول الذي أعطته لأزلامها بعدما قررت أن تبدأ النضال كأرملة وتهتم بالمزرعة بنفسها. – وهنا صرفت نظرها عن الخياطة:

– كان أفضل لي لو أنها أمرت بقتلي.

عبر شعرها المسترسل على وجهها، رافقت برناردا بنظرها جاسنتا التي تنطلق دون سكة محددة.. وأمام النور الساطع، بدت عيناها فارغتين كأنهما عينا أعمى، وعادت كوروكا إلى الخياطة لتبدأ أنشودتها من جديد:

– لو أنك سألت لكنت كلمتك. كان يمكن أن تقولي: يا جاسنتا، ما الذي يمكنني أن أفعل حتى لا أحبل؟ ولكن، متى سألت؟ وأين؟ أنت هنا منتفخة البطن ولا تعرفين من هو والد الطفل.

بدأت برتق مشلح، ثم ألقت نظرة جانبية إلى البطن المنتفخة، فتماوج صوتها:

– ومع ذلك فهذا ليس سبباً للحيرة. إني أعرف وصفة لمزيج يصنع من أوراق شجر يمكن الحصول عليها من الغابة: طلقة وإصابة. تشربه الحامل، وفي اليوم نفسه، وبعد ساعات قليلة فإنها ترمي بكل شيء إلى الخارج، ولا يبقى أثر لأي شيء. ويجب تناول الوصفة مع الماء أثناء الحمام. لقد تعلمت الوصفة من المرهفة كريميلدا التي كانت تحبل مرتين كل ثلاث ممارسات جنسية، لا لأنها كانت تريد، بل لأنها كانت كذلك قادرة على الحبل من رائحة الرجال. ولكن لحسن الحظ أنها بقدر ما حملت فإنها أجهضت.

وحدقت في الصبية: رفيقتها في البيت وفي المدينة، عصرية ولكنها كانت بلا ذرة عقل ولم يكن بمقدور كوروكا أن تسمح بهذا القدر من الغباء:

– إني أتكلم معك، ولي من العمر ما يجعلني جدتك. سأجهز الوصفة اليوم، وإن تكن ذات طعم سيئ فإنها تنظف الرحم؛ ستجرعينها عند العصر، وستسقطين غداً وبطنك نظيفة. هل سمعت؟

رفعت برناردا رأسها، وعادت بشعرها إلى الوراء، وفي النهاية، واجهت نظرة الشمطاء:

– تعذرينني لأنني لن أتناول أية وصفة لإفراغ رحمي، فلا تزعجي نفسك في الذهاب إلى الغابة لقطف أوراق الشجر. أعرف أنك لا تتكلمين بسوء نية، بل تريدين مساعدتي. والفرق هو أنني حبلت لأنني أردت أن أحبل لا لأنني جاهلة. كيف لم أحبل عندما كان والدي يضاجعني؟ لأنني لم أكن أريد أن ألد ولداً منه: كنت عندما يفتح رجلي، أغلق بقية جسدي.

– ألم تكوني تشعرين بشيء معه؟

– سيادتك تستطيعين ألا تصدقي، لأنك تفكرين في أنني أكذب. في المرات الأولى كنت أصاب بثورة انفعال وغضب، ولم يكن بمقدوري غير البكاء. بعد ذلك حتى هذا الأمر لم يعد يحدث. – وقامت بحركة من كتفها تتعجب لتلك العذابات السابقة:

– لا أريد أن أتذكر، والآن لم أعد أهتم لأي شيء غير الطفل الذي أحمله في أحشائي. لقد حبلت لأنني أريده، ولن يقف أحد في وجهي.. لن يقف أحد في هذا العالم عثرة أمامي.

تكاسلت ثم وضعت يديها على بطنها لتعرض الطفل بصورة أفضل، ثم أخذت يد جاسنتا وقبلتها.

لم يكن هناك ما يمكن عمله وأن بأية وصفة أخرى. وافقت كوروكا بإيماءة من رأسها، وعندما حل اللغز اختفت أسباب المحادثة العامية – وها هو الخل يتحول إلى عسل في المناظرة:

– لقد فهمت – إنه ابنه، أليس كذلك؟

لم يكن ضرورياً ذكر اسمه لكي تعلم برناردا من أرادت جاسنتا أن تشير إليه عندما تمطت شفتاها بابتسامة مظفرة:

– إنه ابن العرّاب، أحسنت التكهن. – أدارت وجهها، وتوقدت شجاعة ورضى، وقد توزع شعرها على كتفيها بينما راحت بعض الشعرات تتطاير مع نسيم الصباح، ورأتها كوروكا متألقة إزاء نور الشمس.

– ماذا يمكن أن أطلب أكثر من هذا، وماذا يمكن أن أسأل؟ – أن يلد رجلاً شبيهاً به.

– كل ولد من أولاده يشبهه. أولاد زيلدا وأولاده في الشارع.

– إن ابني سيكون شبيهاً له في التألق والأعمال الخيرة.

لكل حي، مهما يكن بائساً ومهملاً، مسكيناً أو وحيداً، الحق في قدر من السعادة وليس هناك حياة بالمرارة ممكنة، ولا يهم ثمن السعادة، والسعر الذي يجب دفعه. إن جاسنتا نفسها دفعت أسعاراً هائلة من أجل نزق، ونداء رغبة. لم تندم أبداً حتى عندما أخذت تعيش وحدتها الرمادية المخيفة. وفي النهاية، ما الذي يمكن جنيه من الحياة غير السراء والضراء، وغير المنازعة والمغامرة في العشق؟ يستحق الأمر عناء المجازفة: ومهما يكن الثمن غالياً يبقى رخيصاً.

– ليس في هذا العالم شيء مجاني، ولكل شيء ثمنه. يمكن للواحد أن يدفع حياته ثمناً. إذا كنت قد حبلت بإرادتك وقررت ذلك، فليس بمقدور أحد أن يدينك. ولكنك، لاحقاً لن تستفيدي بشيء من التذمر، وعليك أن تتحملي صامتة.

– أتذمر؟ من أي شيء؟ قولي لي: ألا ترين أنني أكاد أجن فرحاً وأنا أضحك بكل جوارحي؟

قلب مفعم بالفرح، ضحكة مطلوقة، ورأس هوائي.

– يا فارغة الرأس، إنك تحتاجين إلى الاستعداد للولادة، حتى الحيوانات في الغابة تستعد للولادة.

– كنت أنتظر أن يتقدم الحبل قليلاً لأفاتحه بالموضوع.

– ولكن لا يستحق الأمر الكلام مرة واحدة. أين ستلدين؟ في تاركاراس؟ في إيتابونا؟

– سألد هنا، بالذات.

– هنا؟ هل أنت مجنونة؟ هنا لا يوجد وإن قابلة لتتلقى الطفل ساعة الولادة.

عادت برناردا لتبتسم:

– ألا يوجد؟ وسيادتك؟

– أنا؟ – أخذتها الدهشة وقلقت كوروكا وارتعدت: لقد فعلت الكثير في هذا العالم، ولا يمكن أن تتصوري أنني عالجت مصاباً بالجذام. ولكنني لم أولد طفلاً قط.

– إذاً يجب أن تستعدي لمقابلة ابني.

لانت العجوز. كانت قد حضرت عدة ولادات، وحدث لها أن ساعدت في ولادة ساعة المخاض بأن جاءت بحوض الماء، وسائر الأواني. القابلات، بعضهن مليكات كفوءات، واثقات الخطى لدى وصولهن، ذوات حركات رصينة، وكلام نهائي، ومنتشرات في القرى، وبأيديهن سلطان الله. وعندما عادت لتتكلم، فقد فعلت بصوت تكاد تخنقه التنهدات، ثم تحول فجأة إلى صوت مجلجل خارج من الأحشاء:

– هل تريدين أن أولد ابنك؟ هل تعتقدين بأنني قادرة على القيام بهذا العمل؟

– إذا أردت فإنك تستطيعين أن تفعلي ما تشائين.

– توليد الطفل، ومساعدته على الولادة، لله، ما أجملها: – نظرت إلى يديها الهزيلتين، البائنتي العظم. – يمكن أن يكون الأمر إيجابياً.

– بعدما ألد سنصبح أقارب.

– نحن أصبحنا أقارب منذ عيد القديس يوحنا، هل نسيت؟ لقد أصبحنا أقارب عند شعلول المحرقة، والآن سنصبح أقارب في الموت والحياة.

هزّت رأسها لتحكم على نفسها:

– يا لي من عجوز حمقاء، شمطاء، لقد كنت أريد أن أقتل الحشرة قبل أن تولد.

ضحكت الاثنتان، مقهقهتين؛ عاهرتان تتمتعان بالشمس عند باب البيت الخشبي في محط الرحال في توكايا غراندي، وعند بداية الصيف. ضحكة مجانية، كانت ضحكة العجوز والصبية، شبيهة بتمايلات رؤوس الشجر وتهدبات مياه مجرى النهر، وضحكة البراءة المفرحة، عندما يطالها نسيم الصباح.

– لا يمكن أن يكون في غير هذا المكان. – أكد إمبروزيو ذلك وقد أوقف خطوه.

كان السهل يمتد إلى جانبي النهر، محاطاً بالمرتفعات الشاهقة.. وكانت الخضرة الطبيعية الكثيفة تكسو الضفة اليسرى غير الآهلة. وعلى الضفة اليمنى كانت تنتشر الأكواخ ومستودع كبير في المكان المكشوف.

– لقد صدق الرجل عندما قال إن المكان كان جميلاً. – تمتم العجوز. – النقيب – صلّحت فانجي كلامه. – لقد قال إنه نقيب. النقيب ناتاريو.

العجوزان إمبروزيو وإيفانجيلينا المعروفة بفانجي، ضعيفان، بائنا العظم من الهزال: هو لم يتجاوز الخمسين وهي لم تقارب ذلك العمر. فلاحان متقدمان في السن طردا من مزروعاتهما وراحا يفتشان عن مساحة من الأرض يزرعانها ويحصدانها لحسابهما الشخصي. كانا يحدقان في الغابة العذراء الممتدة أمامهما. إنها أراض مشاعة ويكفي أن تصل وتمتلك. ألن يكون ذلك الأمر مبعثاً لأزمة جديدة أو تصرف متوحش جديد؟ ولكن لماذا يكذب النقيب؟ لقد انقضى الرعب في إبعاد سرجيبي وانتزعت منهم الأرض. كانت كالمياه العابرة.

كانت دينورا لا تزال متمسكة بالوقوف إلى جانب فانجي، وطفلها ممسك برقبتها. ولكنها عادت إلى زوجها جوان جوري الملقب بجواوزي، وابتسمت. لقد انتهى الطواف وأصبحوا قادرين على حط الرحال، وأخيراً أصبح ممكناً تشييد منزل لهم. كانت قد اعتقدت بأنها لن تجد أبداً مكاناً تلقي فيه الرحال، وموقعاً تشرق فيه الشمس عليهم، يزرعونه ويربون فيه الدواجن. وكانت قد خافت من أن يموت الطفل على طريق الترحال بين ذراعيها: كان القلق الممض يمسك بخناقها بصمت وبطء، ولم تكن لديها قوة للبكاء.

عاودوا المسير. في الطليعة العجوز وبيده العصا التي يستعملها للاحترام والقيادة. وأخذت فانجي الطفل من أمه لتتمكن الأخيرة من السير شابكة يدها بيد زوجها، بينما إغنالدوا أعطى ذراعه للمرأة الحامل المتعبة:

– ها قد وصلنا يا ليا. لم يبقَ إلا القليل؛ لماذا تبكين؟

– من الفرح.

– أين يمكن أن تكون دارة الغريب؟

وأجابت ديفا الفتاة الكاعب عن سؤال أخيها:

– لا بدّ من أن تكون تلك الدار هناك – وأشارت بإصبعها إلى محل الحدادة المبني بالحجارة والطين.

هيا بنا يا جماعة.

ووصلوا إلى هناك متعبين يحدوهم الإيمان والخشية في آن. الغلام والشاب مرا أمام مجموعة راكضين باتجاه النهر.

– إلى أين تذهبان؟

– دعيهما يا أمي. من يدري فقد أذهب أنا أيضاً. تأمل في ديفا: شعرها غدا قاسياً بفعل الغبار، والوجه ملطخ، والبنية قوية، والجسد بحاجة إلى حمام.

– حتى أنا سأذهب. وافقت المرأة الحامل.

– إلى اللقاء. الآن سنذهب للتحدث مع "التركي".

3

بسنواته القاسية الاثنتي عشرة، وضع الأصغر فخ العصافير على الضفة حيث كان النهر يتسع، وخلع عنه أطماره، وغاص في الماء.

– أما أوريليو، الأخ الأكبر، فقد نظر إلى الوراء، فلم يلمح أحداً غير أهله وهم يجرون وراءهم الغبار على الطريق. نزع قميصه، وبدأ يفك أزرار بنطاله عندما سمع قهقهات من الضحك. نظر إلى أسفل النهر، فتعجب لوجود حوض واسع مليء بالحيوية والنساء. مكث أوريليو دون حركة وهو يمسك بنطاله. وكانت فتيات الهوى، على هواهن، بعضهن شبه عاريات، والبعض الآخر كما خلقن، يعصرن الملابس، ويغتسلن في النهر، غافلات عن كل شيء ما عدا الانطلاق بالحديث. وإذ غدا مرتبكاً، فإن الشاب لم يعد يعرف كيف يفعل أو كيف يمنع نفسه عن الغربة في الاستمرار بما هو مزمع عليه. إنها أرض خصبة ومعطاء: مليئة بالأقفية الجميلة، والفتيات المؤهلات، كان لأوريليو سبعة عشر عاماً من العمر.

أما ناندو، الأصغر، فقد كان النهر هو فتحه الأول؛ بعد ذلك يأتي دور الشجر والمصائد والعصافير.

4

من السهل معرفة "التركي" من أنفه المستقيم، المؤرنب، ومن شعره الأجعد، ولهجته الدعجاء. وفي البيت المبني بالحجارة والطين شاهدوا زنجيا أهيف يضرب الحديد الملظى وقد علق إلى زناده خرجاً من الجلد.. تركي بهذا اللون لم يشاهدوا أبداً: ولم تستطع ديفا أن تمنع نفسها عن الضحك.

أوقف تيساو العمل، لم يعرف لماذا ضحكت الفتاة، وضحك بارتياح. بعد ذلك لمح العجوزين ومن معهما آتيين من جهة النهر، بينما برناردا كانت تجتاز المكان؛ أحست ديفا بالثقة والارتياح.

– إن بيت التركي هو ذلك البيت الكبير المبني بالخشب. من الأمام الدكان، ومن الخلف مكان السكن. في هذه الساعة يكون فضول نائماً أو أنه يقوم بعمل الحساب.. سأذهب معكم. ورافق تيساو الجماعة حتى الدكان. كان فضول متمدداً عند أسفل البار يتفحص الأسماء المدونة والتواريخ المسجلة في دفتره: لائحة الديون، القروض، وتواريخ الاستحقاق.

– إنه النقيب ناتاريو من أرسلنا إلى هنا. قال إن الأرض ممتازة للزراعة وأكد أن حضرتك ستجهزنا بما نحتاج إليه.

أجال اللبناني فضول بنظره من واحد إلى آخر.

– هل جئتم من سرجيبي؟

– أي نعم.

اللبناني العملاق الجثة جثا على ركبتيه ورفع يديه إلى السماء وتمتم باللغة العربية: بدا كأنه يتكلم إلى أحد هو موضوع ثقته وكان ذلك الذي وجّه إليه الكلام هو الله. بدت سيماؤه نقية، وكلماته تمجيدية: إن العرّاب ناتاريو لم يُخلّ أبداً بوعد قطعه: لقد وعده صباح هذا اليوم بإرسال عائلات سرجيبية للسكن في توكايا غراندي. وقبل الغروب وصل الطابور الأول في اليوم نفسه: فليتمجد اسم الله.

انتصب فضول عبد الله واقفاً، ولكي يعبر عن مبلغ السعادة التي اعترته بدأ بتقديم الكاشاسا للرجال. بعد ذلك أدى الاحترام إلى المرأة العجوز، والحامل، والكاعب، بأن يذهب ليأتي من بين محفوظاته بزجاجة ليكور الجنيبابو التي كانت قد بقيت منذ احتفالات حزيران/يونيو من العام المنصرم. قدم الشراب إلى الكاعب والحامل، بينما فضلت العجوز بلعة كاشاسا.. إن عددهم ثمانية مع الطفل المقمط، ولكن السرجيبيين أعلموه أن شابين لم يصلا إلى هنا وقد تحوّلا إلى النهر للاستحمام.

– إنهم السرجيبيون! – هتف اللبناني هتافاً أطلقه عالياً. ووضع نفسه في خدمتهم. إن الأراضي تقع هناك، وهي واسعة لا حدَّ لها، يكفي للوصول إليها اجتياز النهر.. لا يوجد جسر أو زورق، وعبور النهر يجب أن يتم فوق الحجارة من ناحية الانبساط النهري، والعبور يغدو في الشتاء أكثر صعوبة بسبب الأمطار. إنها أراضٍ من النوعية الممتازة تنتظر من يأتي لزراعتها.

– وليس لها مالك، أصحيح هذا؟

– الآن أصبح مالكوها هم الأصدقاء الذين هنا؛ يكفي أن تختاروا القطعة التي تريدونها. أليس هذا ما قاله النقيب؟

– هل هو مأمور الأراضي. والقيم على الأرض؟

– كما لو أنه كذلك.

جوان جوزي كمن في حنجرته شوكة:

– ولمن سنبيع؟

بسط اللبناني ذراعيه العريضتين:

– خلف الغابة حقول لا نهاية لها من الكاكاو الذي بدأ يثمر.. ولن ينقصكم زبائن.

هكذا أكد له النقيب في ذلك الصباح، وفقط مجنون يجازف في الشك فيما يقوله النقيب ناتاريو دا فونسيكا.

ولكي لا يشعروا بالسأم خلال الأيام الأولى، فقط، نصحهم اللبناني بالمستودع الكبير حيث كان يتجمع رجال القوافل والمارون من هناك، وهو موضع حركة واسعة خلال الليل وفي بعض الليالي يتحول إلى حلبة رقص ولهو.. وبينما تيساو لا ينفك مبتسماً، تذكر أن النساء يستطعن، إذا أردن، أن يسترحن في تخشيبة من التخشيبات المهجورة، وقد تكون تلك التي كانت إبيفانيا تستعملها؟

– ماذا في الأمر؟ – قالت فانجي.

ظهرت فجأة كوروكا لتشتري نفطاً أبيض، وتعجبت من الحركة النشيطة في تلك الساعة.

– إنهم السرجيبيون الذين أرسلهم النقيب. سيزرعون الحقول على الناحية الثانية من النهر بالفاصولياء والذرة.

– إن الأمر ملح.

من طريق الحمير إلى أسفل المنحدرات تجمع النساء والرجال مهتمين بالأمر، عارضين الخدمات، وجاؤوا بالمأكولات للضيوف الجدد. أما الطفل الرضيع فقد راح ينتقل من ذراع إلى ذراع.

5

بينما تترجل من عربة الثيران فإن زيلدا زوجة ناتاريو، لم يتم استقبالها بحماس لأن النقيب نسي أن يعلم فضول بذلك بغية القيام بالتمهيد لوصولها. وليس بالسبب نفسه مرَّ وصول السرجيبيين بالترحاب قبل شهرين. أما الخبر الذي تردد حول قرار النقيب ناتاريو بالبدء ببناء بيت سكن فقد ولد شعوراً بالحماس والفرح لأن في ذلك القرار دليلاً على تحقيق مرحلة جديدة في حياة توكايا غراندي. إن أشجار الكاكاو الجديدة كانت قد ازدهرت في الحقول القريبة وبانتظار قطاف الموسم الأول.

قبل أيام شقّ بالبينو ولوبيسينيو درباً وصعدا القمة بغية دراسة الموقع الذي سيتم فيه بناء البيت: وجاءت زيلدا لتناقش مع البنائين والنجارين تفاصيل البناء والتقطيع الداخلي. ويجب أن يكون العمل تقنياً لأن صاحب البيت ليس أياً كان، ولأنه أيضاً رب عائلة مؤلفة من زوجة وثمانية أبناء، خمسة منهم شرعيون، وثلاثة بالتبني.. ومما يثير الفضول أن الثمانية كانوا متشابهين. ولم تكن زيلدا تميز بين هؤلاء وأولئك وكأنها قد ولدت الجميع.

عندما كانت عربة الثيران قد بانت في البعيد فإن السكان هرعوا إليها فرحين لتحيتها. ولكن ناتاريو الذي كان يتقدم الثورين اللذين يقودان العربة، ممتطياً بغلته السوداء في خبب بطيء، وجّه القافلة إلى البيت الخشبي حيث كانت تعيش كوروكا وبرناردا. وكانت الاثنتان تنتظران عند الباب.

جاءت زيلدا معها بولدين من أولادها: إيدو، الأكبر، وهو غلام ممشوق القامة في الثالثة عشرة من عمره، شبيه أبيه ونسخة عنه، والابن الأصغر الذي كان قد ولد في نهاية الصراعات، وبعدما كان ناتاريو قد ربح مساحة الأرض التي زرعها بأغراس الكاكاو، وهذا الأصغر هو فليون العقيد بوافنتورا وزوجته القديسة دونا أرنستينا، وتشريفاً للعرّابة اعتمد له اسم أرنستو في كتاب المعمودية.

وبالرغم من كونها نحيلة الجسم، ذات مظهر سريع العطب، فإنها في الحقيقة معافاة ونشيطة؛ وهكذا ترجلت من العربة وهي تشد سحاب تنورتها، وقبلت الابنة بالتبني يدها:

– البركة يا سيدتي.

– باركك الله يا ابنتي. صباح الخير يا كوروكا. أنت في كل مرة تبدين أكثر قوة ونشاطاً من قبل.

– إني أمضي كما يشاء الله.

ترجل ناتاريو عن مطيته وربط رسنها إلى عمود خشبي هناك. كان مزمعاً على استكمال سفرته ما إن يطلع زيلدا على القمة حيث سيبنون منزلهم على حافة جذع المولونغو. وترجل أرنستو من عربة الثيران يقود كلباً ربط بحبل. وبدا الحيوان قلقاً فكشّر عن أنيابه ثم مرَّ بشدقه على يد كاستور أبدووين التي راحت تداعبه، وعندها قالت زيلدا:

– إنها كلبة جئت بها لك يا سيد تيساو، إن عمرها لم يتجاوز الشهر: يقال إن عندك كلباً، وهذه زوجة له.

ضحك ضحكة قصيرة سحرية: الذين كانوا يعرفونها يقدرون طريقة عنايتها ببيتها وتربية أبنائها الذين من دمها والآخرين: امرأة خلقت لتكون زوجة لرجل كرجلها:

– يجب أن تنتظر كي تكبر..

حذّر الزنجي كلبه ألما بينادا الذي كان يدور حوله دون الموادعة المعتادة.

وإذ أخذ إيدو من أذنه، فإن ناتاريو توجّه إلى كاستور:

– إنك ستربح أيضاً هذا الولد هنا؛ إنه ابني الأكبر إدواردو.. سيبقى معك ليتعلم المهنة. اجعل منه حداداً حاذقاً مثلك..

– يمكنك أن تترك الأمر معي.

– تفضلوا بالدخول. – قالت كوروكا.

على النار القهوة المعدة في الحال. بعض المأكولات وضعت على الطاولة فوق صندوق حديدي كان سابقاً يخزن فيه النفط الأبيض: فواكه مطبوخة، لحم مجفّف ومدخن، طحين، ومانجا قلب الثور، خضراء اللون، ناضجة للطعم، لم يستفيدوا كثيراً من الوليمة لأن ناتاريو كان على عجلة:

– هيا بنا يجب أن أصل إلى البساتين: سيكون لكم الوقت الكافي للمحادثة.

لم يكن ناتاريو قد عاد إلى أعلى القمة منذ أن صعدها مع فنتورينيا الذي كان مهتماً بمعرفة تفاصيل الكمين منذ سنوات. وذلك بعد قليل من ليلة العاصفة، ليلة الكمين، الكمين الكبير: توكايا غراندي.

التجمع السكني

العجوز جاسنتا كوروكا تبدأ مهنة التوليد بما لها من خبرة قليلة

1

كيف كانت وكيف غدت؟... تأملي ملياً في هذه الحركة يا سيدة كوروكا... تبارك الله. كان النجار لوبيسينيو يشير بذلك إلى المتغيرات التي استجدّت في توكايا غراندي.

كان الاثنان متوجهين معاً إلى الفلاة، هو وجاسنتا كوروكا. أيام الآحاد، عند الصباح كان الفلاحون يعرضون أمام المستودع الخشبي منتجات زراعية وحيوانات للتربية يأتون بها في الزورق الذي كان باستياو دا روزا، وهو، نفسه لوبيسينيو، قد حفراه في جذع ضخم كان إمبروزيو وأبناؤه قد قطعوه بالضرب بالفؤوس. وفي بداية هذا العالم الجديد كان أرباب المهن، من بنائين ونجارين لا يرفضون القيام بعمل، فهم مصنوعون ليصنعوا كل شيء. وفي كل الحالات لم يعد أحد يستطيع أن يندثر من قلة العمل منذ الشتاء الماضي. وكون المعاملات شفهية، والأغلبية شحيحة الموارد، كان يحدث أن يتأخر الدفع ولكن الكلمة كانت تكفي للالتزام بدفع ما هو مترتب. وفي أغلب الأحيان كانت المهمة بمساعدة جماعية: فتبادل الخدمات عملة شائعة في ذلك المكان.

عند موقع السرجيبيين الذين كانوا قد أتوا من ماروين، كانت عائلتان أخريان قد استقرتا على الضفة الأخرى من النهر، تحرثان وتغرسان، وتربيان الدجاج والماعز والأغنام والنِّعاج. وبسبب كثرة الأفاعي السامة، كانوا يبنون بيوتهم على أعمدة خشبية عالية، وتحت تلك البيوت الخشبية المرتفعة كانوا يقيمون الحظائر. كانت الغدد النابية لبعض الحيوانات تغدو لزجة بسبب لدغات الأفاعي التي كانوا يقتلونها ويأكلونها. وبطلب من المقيمين الجدد وضع غيدو ولوبيسينيو تصاميم جسر بين الضفتين المتقاربتين من مجرى النهر، وبسبب ما كانوا قد فقدوه سابقاً بفعل ارتفاعات المياه المفاجئة كان العقيد روبستيانو دي أراجو يبدي اهتماماً بالمشروع، وكذلك النقيب.

كانت عائلة جوزي دوس سانتوس القادمة من بوكين مكوّنة من خمسة أفراد: هو، زوجته وبناته الثلاث. أما عائلة التاميراندو المكوّنة من الوالدين والابنة الوحيدة، فقد جاءت من السرتاو بسبب الجفاف، وكانت ليزا المصابة بالشلل منذ ولادتها قد أكملت الثالثة عشرة من عمرها. كان التاميراندو، كل خمسة عشر يوماً، يشتري عجلاً من مزرعة العقيد روبستيانو – بالآجل، ويدفع الثمن بعد انقضاء المدة المذكورة – ويذبحه ليبيع اللحم الطازج أيام الآحاد ويجفّف بالملح الكمية المتبقية.

وبشراكة مع إمبروزيو، كان جوزي دوس سانتوس مزمعاً على بناء مطحنة ومستودع للطحين: لقد كانت أغراس الماندیوكا تَعِدُ بمواسم وفيرة.

– حتى قبل فترة قصيرة (تابع لوبيسينيو حديثه) لم يكن أحد يشاهد هنا غير العصافير والأفاعي وحمير القوافل. هل تتذكّرين يا سيدة كوروكا؟ أما اليوم...

كان يشير بإصبعه إلى قطعان الدجاج والديوك التي تفرّ من أمامهما مذعورة وكانت القرقة السوداء، خاصة ميرنسيا، تقرق محاطة بمجموعة من الصيصان العارية الرقبات. وتحت شجرة الجاكو على مقربة من مخزن فضول كانت نعجة قد وضعت ثم راحت تضع أنفها في الثمار الذابلة على مرأى من مجموعة الأغنام.

– أتذكر... إن جماعة إمبروزيو نشيطة حقاً مع الاحترام للآخرين. إنها جماعة طيبة. اليوم جاءتني السيدة فانجي بفرّوج سمين، وهي ليست مدينة لي بشيء.

– أليست مدينة، يا سيدة كوروكا؟

– من هو مدين، أنا، ولا أعرف كيف أدفع ديني – ونظرت إلى يديها الجافتين ذات الأصابع الطويلة والهزيلة – العلم عند الله وحده.

أثنيا على السرجيبيين والسرتاونيين، وتحدّثا في هذا وذاك، وتبادلا نظرات دافئة على طعم المحادثة العاطفية.

في صباح يوم الأحد، وبالنسبة إلى لوبيسينيو لم يكن هناك من لحم دجاج يضاهي مذاقاً لحم الدجاجة السوداء. ولكن كوروكا لم تكن موافقة: في رأيها أن لدجاجة أنغولا المواصفات المفضّلة على ما عداها. كانت زيلدا زوجة النقيب تصنع صحناً تسمِّيه مقالي الأنغولية ومن يأكل منه لا ينساه أبداً: وهو يصنع من الدجاجة الأنغولية السمينة التي يزيد عمرها على العشرين شهراً: وهذه تؤثر العيش في الغابة وليست معتادة على العيش في الأقنان.

– قالت السيدة فانجي إنها سترِبّي هذا الصنف الصعب. وأتاليا مليئة به، وقد وعدني النقيب بأن يجيئني ببعض بيضها لأضعه تحت قرقة ما.

– إن دار النقيب ناتاريو أصبحت جاهزة، مؤثثة بالكامل، فمتى سينتقل إليها؟

– لو عاد الأمر إلى زيلدا لكانت الآن قد انتقلت إليه. ولكن ناتاريو هو الذي يعيِّن التاريخ، ووحده يعرف، وهو لا يقوم بشيء دون إمعان النظر فيه. إذا لم يكن قد انتقل بعد، فلا بدّ من أن

يكون هناك سبب ما.

– حتماً...

لم يكن يفيد مناقشة أسباب النقيب ودواعيه. لا بالنسبة إليهما ولا بالنسبة إلى زيلدا... ولا إلى أيٍّ كان.

2

كانت التغييرات قد بدأت مع وصول السرجيبيين خلال الصيف المنصرم. ولكنها تسارعت عندما، قبيل موسم القطاف، كانت أشجار الكاكاو الأولى قد بدأت تعطي ثمارها في المزارع المجاورة لدى نهاية الصراع الذي كان قد انتهى إلى سيطرة العقيد بوافنتورا أندرادي وشركائه وأزلامه المخلصين.

ولولا بداية القطاف لم تكن توكايا غراندي لتتغيّر بقليل أو كثير بالرغم من الخبرة وتفاني الفلاحين في معالجة الأرض وتربية الضرع. ولكن قدوم إمبروزيو وفانجي تحول إلى علامة لتحديد الزمن.

قبل أو بعد ذلك اليوم الذي جعلت ديفا الزنجي كاستور أبدووين والثري فضول عبد الله يرتبكان بينما انطلقت هي في قهقهتها.

في شهر أيار/مايو كانت بعض الحمير قد وصلت إلى توكايا غراندي قادمة من مزرعة بوافيشتا. كان النقيب ناتاريو دا فونسيكا بشخصه، وهو يمتطي بغلة سوداء، قد وصل وهو يحدو القافلة التي تحمل على ظهورها موسم القطاف الأول من بساتينه... كانت قصة ممتعة أدّت إلى احتفال كبير لم يكن ممكناً تجنُّبه.

كانت الحمولة كناية عن أكياس قليلة مليئة بالكاكاو، ولم تكن بشيء يذكر إزاء إنتاج المزارع الأخرى، ولكن كل ذهب العالم لم يكن بمقدوره أن يحرِّك ذلك الانفعال السعيد الذي اعترى المستزلم السابق: ففي وجهه الجامد، كانت عيناه الرطبتان تلمعان وعلى ثغره قتامة ابتسامة. وطال الاحتفال في مأدبة غنية كانت الكاشاسا فيها متوفرة ومجانية. وغدت برناردا شبه عاجزة عن احتواء سعادتها، على الرغم من حملها فقد قضت الليل بكامله بين ذراعي العرّاب.

3

سابقاً كان الوقت يمرّ بطيئاً، والحاضر يلقي برحاله ويدوم أشهراً طويلة. ولكن، مع الأغراس التي بدأت تثمر، أصبحت أحداث الأسبوع المنصرم أشياء من الماضي البعيد. الأيام أخذت تتلاحق

وأمس غدا بعيداً، وقبل أمس لا يتكلم عنه أحد إذ يكون قد ضاع في المسافات.

لم يكن يعود إلى الماضي غير يوم الأحد الذي، في الزورق المحفور في الجذع الضخم، كان الشاب أوريليو والفتاة الطريقة ديفا قد وصلا آتيين معهما بالإنتاج الزراعي ليبيعاه لمن يريد أن يشتري. السكان البدائيون رأوا، موضّبة في أكياس القنب، أشياء لم يكونوا قد رأوها في توكايا غراندي: الهندباء والبطاطا الحلوة والخيار المائي، والملفوف الإفرنجي، وكل شيء بكميات محدودة. كان هناك من لا يصدِّق عينيه.

وفي كل أسبوع كانت تزاد الأنواع والكميات للبضائع المعروضة. وأظهر الثري فضول، بلهفة، شوقاً إلى الفلفل الحار بكافة أشكاله وألوانه. وكان ناندو قد بدأ يتاجر بالعصافير. هو وإيدو شريكان ينصبان المصائد والفخاخ في الغابة التي تسكنها عصافير الكوريو، والباباكابين، والببغاوات؛ وكان الاثنان يصنعان الأقفاص. وفي محل حدادة تيساو كان بلبل أجمل ما يكون عليه ريش من ألوان زاهية ينشرح الصدر لغنائه ومنظره.

موهاليا كانت قد تأخّرت عن الوصول أمام المستودع الخشبي للمساعدة في المعرض. وعندما رأوها قرب زوجها، وحميها وأنسبائها، كانت قد وصلت وعلى كتفها مولود جديد، وبكاء، وضعته قرب بضاعة المفرق.

كان المعرض الأسبوعي يجتذب، بالإضافة إلى المقيمين، المستزلمين والعمال من المزارع القريبة. كانوا يأتون ليشتروا البطاطا والخضار غير المتوفرة في المزارع، حيث الأرض، مهما اتسعت، كانت مخصّصة لزراعة الكاكاو، قطعة من الخيار المائي لطبخها مع الفاصولياء السوداء، وبعض الخس والملفوف الإفرنجي والهندباء لمزجها بالتوابل وأكلها مع اللحوم المجفّفة. وكانت تأتي إلى المعرض أيضاً للمرح، تفتيشاً عن اللهو، نساء وأهل عيد. وكان قد جاء بعض العازفين على الكمنجة والهرمونيكا، وليكو كارابيبا يخرج موسيقى من طرف فمه تطرب لها الآلهة. أما في محل الحدادة فكان البلبل "سوزي" يحفظ النغم.

وأخذ يزداد رهط الفتيات، وتزداد أكواخ القش وتتجمّع هناك بعدما كانت مبعثرة. وأخذت الدبكات تبدأ عند مغيب الشمس نشيطة حيوية. كان ذلك هو الوقت الذي كان الغداء الأسبوعي الذي يولم به تيساو ويجعلهم يشعرون بوجود يوم الأحد.

أفراداً وزرافات، حين يمرّون بكوروكا ولوبيسينيو في طريقهم إلى المعرض، كان المستزلمون يرفعون قبعات القش ويلقون التحية باحترام، وبصوت دافئ وبطيء:

– صباح الخير يا سيد لوبيسينيو. صباح الخير يا سيدة كوروكا. من قبل كان النجار وابنه فقط يتعاملان معها كسيدة لأنها الكبيرة: وبالرغم من كونها امرأة عامية فإنها كانت تستحق الاحترام بسبب سنها. ولكن هذا الأمر غدا هو الآخر شيئاً من الماضي. كان المقيمون الجدد قد بدأوا يتوجهون إليها بالسيدة كوروكا، وبكل وقار، وحتى أولاد المستزلمين والعمال والقتلة كانوا يطلبون منها البركة. لو أنها كانت عاهرة لما نادوا عليها بالسيدة، ولما كانت أكثر من امرأة ضائعة ومحتقرة، ولكن كونها قابلة، فالأمر مختلف تماماً. إنها امرأة معتبرة وتستحق التقدير والتمييز عن الأخريات.

4

عندما احترفت مهنة القابلة، في الرابعة والخمسين من عمرها، لم يكن الطفل الأول الذي أبصر النور على يد كوروكا هو ابن برناردا كما كانت تأمل وتتوقّع.

كانت تغطّ في نوم عميق قرب زي رايموندو، زبونها المفضل، في أزمنة الدعارة والذي كانت تستطيع أن تحادثه وتضحك معه قبل وبعد العملية الجنسية، عندما بدأ أحدهم يناديها بصرخات ترتفع من عند الباب.

– إنهم ينادونك يا خالتي... أخبرتها برناردا التي استيقظت في الغرفة المجاورة.

– إني ذاهبة...

عند الباب، وهو يرتجف حتى العظم، ودون أن ينتبه لإلقاء التحية، أخبرها أغنالدو:

– لقد حان وقت الولادة! لقد أرسلتني أمي للمجيء بك. هيا بنا، بسرعة، لقد بدأت ليا تعاني آلام الوضع – وكرّر أغنالدو – بسرعة.

إنه أمر مفاجئ وغير منتظر: وإذ لا تزال كوروكا في آثار غفوتها فإنها لم تفكر مرتين:

– سآتي في الحال.

في الوقت الذي راحت فيه تستر عريها بأي شيء، وفي الغرفة، فتح زي رايموند عيناً وأراد أن يعرف سبب الضجيج.

– لا شيء... لا. سأذهب إلى هناك وأعود في الحال.

وإذ لا يزال الزورق راسياً عند جذع الصفصافة، اجتاز أغنالدو النهر سباحة، بينما راحت كوروكا تجتازه متوازنة على الحجارة كالمعتاد. عندها فقط انتبهت جيداً حتى لا تهوى في النهر احتراماً للسبب الذي جعلها تسرع في اجتياز النهر وصولاً إلى الضفة الأخرى. وكانت برناردا إذا سئلت: أين ستضع وليدها الجديد، وعلى يد أية قابلة في كاراكاس أو إيتابونا؟ ودون تفكير، تجيب بردّها المعهود: لا في كاراكاس ولا في إيتابونا، هنا بالذات في توكايا غراندي، وبمساعدة الخالة جاسنتا.

– وهل تعرف كوروكا التوليد؟

– بالتأكيد... وما الذي لا تعرفه؟

كانوا قد علموا بشهرة كوروكا في التوليد قبل أن يبصر أي طفل النور على يدها، وقبل أن تحترف مهنة القابلة. وعلماً منها بالشائعات، تذكّرتها السيدة فانجي في ساعة الضرورة عندما بدأت كنتّها تحسّ بالمخاض العسير. كانت فانجي ذات خبرة في الولادات لأنها كانت قد ولدت تسعة أطفال، خمسة منهم أحياء، والباقون؟ لم يولدوا! في حقول ماروين، وعلى الأخص كنّتها الأخرى، ساعدت فانجي في الولادة العسيرة لدينورا. ولكنها كانت تتردّد في أن تكون المساعدة الوحيدة لكنّتها ليا، وعلى الأخص أن الأخيرة حلمت قبل ليلة بزوجها مربوطاً إلى جذع في حظيرة العجوز فقفزت من نومها، وبأعجوبة تمكّنت من المحافظة على الجنين في رحمها.

كانت فانجي تخشى الولادة العسيرة، وتفرض وجود يد ماهرة وثابتة لقابلة عليمة، حتى تتم الولادة بسلام، وعندما سألت، علمت بكوروكا: الكفاءة بعينها.

5

متمدّدة على ألواح السرير الخشبية، لم تكن ليا تتوقف عن الزعيق والمطالبة بحضور زوجها. إمبروزيو وجوزي كانا يذهبان ويعودان قلقين. ديفا لم تكن تعلم ما تفعل، ودينورا كانت تقمط ابنها نصف مرتعبة. ووجدت فانجي نفسها وحيدة لا تستطيع السيطرة على ما يعتريها من قلق وحالة سيئة. أين هذه الخالة التي لا تصل؟ وحده ناندو في الغرفة المجاورة كان ينام ولا يعلم بما يجري.

دخل أغنالدو جالباً الماء، ثم خطا سريعاً نحو ليا وأخذ يدها وجلس قربها. عندما رأته أرخت الباكية جسدها دون أن تتوقف عن الزعيق، واستفهمت فانجي من ابنها:

– أين الخالة؟

– إني هنا، "يا ست" فانجي. السلام على الجميع.

تقدّمت كوروكا من السرير الخشبي، وأمرت أغنالدو:

– أنت، يا شاب، اذهب إلى الخارج، اختفِ من هنا، واترك المسكينة بسلام. إذا بقيت قربها فهي لن تلد اليوم ولا أي يوم – وعمّمت الأمر على العجوز إمبروزيو وجواوزي: – أنتما أيضاً، لا أريد أن أرى رجلاً يتمختر في هذه الغرفة.

ومثل شمعة ظلت واقفة قرب الفراش إلى أن رأتهما يخرجان. فقط عند ذاك، عادت تنظر إلى ديفا وتأمرها:

– يا صغيرتي، اجلبي القنديل واشعليه هنا.

شغلت كوروكا المكان الذي كان يحتله الشاب، وابتسمت لليا، وبيديها قاست البطن وعدد الطلقات:

– الآن، يا صغيرتي، سنبذل الجهد من أجل أن يخرج هذا الجلف إلى النور. لا تخافي أبداً، فالولادة ليست مرضاً. – داعبت وجه ليا – هل اخترت اسم الطفل؟

– لم أختره بعد يا سيدتي.

تسلّمت كوروكا القيادة كما لو أنها لم تفعل في حياتها شيئاً سوى توليد الأطفال ولم تعد فانجي ترى نفسها وحيدة فقد استعادت ثقتها ووضعت نفسها بتصرف الخالة. طلبت كوروكا قنينة. جلبت ديفا قنينة فارغة ما تزال رائحة الكاشاسا عالقة بها.

– انفخي فيها بقوة – أمرت كوروكا وهي تضع القنينة بين يدي ليا لتأخذها بالتالي من جديد: – لا تنفخي مرة واحدة حسب بل استمري بالنفخ. سأريك كيف... أُنظري جيداً...

علّمتها الطريقة الصحيحة:

– انظري خذي نفساً عميقاً، هكذا مثلما فعلت، وانفخي في القنينة بقدر ما تستطيعين – تنفّست عميقاً ونفخت في فتحة القنينة:

– ثم افعلي من جديد، ولا تتوقفي عن النفخ.

طلبت كوروكا أن يغلوا الماء ويضعوه في وعاء كبير لحمام الجلوس الضروري لتسريع الطلقات والتعجيل في الولادة:

– ليس من شيء أفضل من هذا.

وطلبت كوروكا من دينورا الواقفة هنا بدون عمل، وهي تحمل طفلها على عنقها:

– ما هذا الاندهاش الذي لا معنى له، يا امرأة؟ خذي الطفل إلى سريره لينام، وتعالي للمساعدة، اجلبي الحوض وضعيه قريباً من هنا.

لم تكن كوروكا قد قامت بأية عملية توليد في السابق، ولكنها في المباغي حضرت عدة ولادات، اليسيرة منها والعسيرة، وساعدت الخالات المحترمات وهن يهيئن للولادة، وأبدت إعجابها بمعرفتهن وخبرتهن. ولكنها كانت قد شاهدت مولودين جدداً يخرجون أمواتاً إلى النور أو يموتون بين أيدي الفضوليات اللواتي لا مهارة لديهن بل عدم انتباه وجهل.

تلك القابلات كن يدّعين الخبرة ولم يكن لديهن منها شيء، ومع ذلك كنّ يطالبن بالأجور ويحصلن عليها. وكانت كوروكا قد تعوّدت القول، من أجل الضحك، أن لا أحد أكثر منها قد حضر ولادة أبناء عاهرات. ولكن، لتحمل مسؤولية القيام بأعمال قابلة، وأن تأتي بالحياة أو الموت، فهذه هي العملية الأولى.

كانت كوروكا تحسّ بالبرد يخرج من أحشائها إلى صدرها، ولكنها لم تكن تظهر ذلك، ولا تجعل أحداً يحسّ بما تستشعره. كان منظرها الخارجي هادئاً، غير مكترثة، تطيل الحديث عن أغراس الكاكاو والحيوانات والدجاجات البياضة والنعجة الحامل. وكانت تقطع الكلام لتفرض على ليا الاستمرار في النفخ في فتحة القنينة بقوة ودون راحة. الطلقات بدأت تطول، وأحسّت المرأة بأن داخلها يتحطّم: الويل لي، سأموت.

مع ذلك تمكّنت كوروكا من أن تحمل المرأة المتوجعة في مخاضها على الضحك:

– في الساعة التي كنت تصنعين فيه الطفل كنت متمتعة أليس كذلك؟

استعجلت كوروكا كلاًّ من دينورا وديفا في تسخين الماء:

– عجلوا في تسخين الماء. وضعوا المزيد من الحطب في الموقد.

في الغرفة المجاورة استيقظ الطفل وهو يبكي وأخذ ينادي على أمه. وأرادت دينورا أن تسرع إليه، ولكن كوروكا لم تترك لها المجال:

– إن والده سيرد. أنت مشغولة هنا.

– انظر ما به يا جواوزي. انظر ما يحتاج إليه.

وأطلعها جواوزي على الأمر:

– إنه ممرّغ بالخراء.

– إذاً نظّفه أنت. – أجابت كوروكا قبل أن تترك دينورا الإناء على الموقد الحجري لتعتني بابنها.

أفرغوا المياه الحارة في الحوض الذي تمّ شراؤه من دكان فضول، بالدَّين، شأنه شأن كل محتويات المنزل. وساعدوا ليا على النهوض من السرير الخشبي ووضعها في الحوض وتنورتها مرفوعة إلى أعلى من الخصر:

– يا ويلاه. لا أستطيع التحمل: إن الماء الساخن يحرق لحمي.

– بقدر ما يكون حاراً يكون أفضل لك.

أمسكت فانجي ودينورا المرأة الحامل من ذراعيها وجعلت كوروكا تشدّ برجليها لإبقاء فخذيها مفتوحتين لتدخل الحرارة إلى جسد المعتنى بها. وفي ذروة الحماوة كان البطن يتمدّد، وتزداد الأوجاع، وتزيد الطلقات، تتوالى الواحدة بعد الأخرى، وكانت ليا تزعق حيناً، وتصرخ حيناً آخر: أغنالدو يتجسّس من الباب منازعاً. وكانت ديفا تقلِّم أظافرها بأسنانها، مضطربة.

عندما بدأت الماء تبرد أعادوا ليا إلى فراش القش على السرير الخشبي.

6

مجتمعات حول السرير الخشبي، ووسط الزعيق المخيف، طيلة النهار، فإن النساء هناك – كنّ ينتظرن انتزاع الحياة... ووصل الطفل عند منبلج الفجر والرجال قد انطلقوا إلى العمل: كانوا قد بدأوا بمعالجة الأرض بينما الليل لا يزال معتماً. وإذا كانت كوروكا قد سمحت لديفا فإن الأخيرة رافقتهم مع الزوادة التي تضع فيها اللحم المجفف، وطحين الذرة، والأجبان ومربى الموز. كان أغنالدو قد ذهب بالرغم منه، لأن كوروكا لم تسمح له بالبقاء.

– إن الأب لا يفعل غير الإعاقة عن القيام بالضروري.

متيقظة، فإنها لاحظت، خلال طلقة قوية انقطع أثناءها صوت ليا عن الصراخ، عندما وقفت عند مدخل الرحم جمجمة طرية يكسوها وبر أسود، وتمنّعت هناك على الخروج.

– إنه يولد... لاحظت كوروكا وهي تقول ذلك متمتمة.

– لقد عصي على الخروج – الويل لي يا الله – وبينما هي مستنفرة كانت دينورا تشدّ على يديها.

– اقفلي فمك. – أجابت فانجي.

لحسن الحظ إن القابلة كانت قد أرسلت ديفا وأغنالدو إلى العمل، لو كانا هناك لكان الصراخ قد بلغ أوجه "ولينجنا الله" وانحنت لترى.

وبينما هي منحنية أمام ليا، أدخلت كوروكا يديها، كل واحدة في جانب من جانبي فم الحياة، وجعلت أصابعها تتوغل لتفسح مجالاً للمرور. ولامست عندئذ بدقة متناهية الرأس الطري، وبثقة وأمان سحبت الرأس إلى نور الفجر بين يديها، بعد ذلك سحبت جسد المولود المكسو بالدم. وبطلقة أخرى طردت ليا من بطنها العبء.

المولود الجديد لم يبكِ: هل يكون حياً أم ميتاً؟ عندما رفعته إليها انتبهت كوروكا إلى أن حبل الصرّة كان يلتفّ على رقبة الطفل مهدِّداً بخنقه. وإذ كانت قد شاهدت سابقاً مثل هذا الارتباك فإنها كانت تعلم كيف تتصرّف. وبسرعة حلّت الحبل وأنقذت الوليد من الاختناق. ودون أن تنتظر وصول المقص – ففي ذلك الاختناق لم يكن أحد يعلم أين يوضع – وبأسنانها قطعت حبل الصرّة وعقدت جانبه بعدما تركت مسافة أربعة أصابع قبل أن تقضم حبل الحياة بأسنانها.

قطعة لحم ملطّخة بالدم، وضع الطفل بهدوء في الحوض: وأخذن يصفّقن بأكفّهن إلى أن سمعن بكاء الطفل ينطلق وجاءت الصرخات المنطلقة لتؤكد على وجود الحياة.

– تهاني الحارة يا خالة: قالت كوروكا وهي تبعد الحوض بعدما أخذت الطفل بين يديها لتعرضه على الأم: إنه صبي.

لقد انتهى التوليد، عملية التوليد الأولى لكوروكا. ولو سألوا كوروكا من الذي خلّف، هي كوروكا، أم ليا، لما عرفت كيف تجيب. لقد انتهى الحزن وها هي الأم والجدة تبتسمان. ونسيت دينورا مظهرها المضحك، وركضت إلى الحقل مع النبأ: إنه صبي، وصبي رائع.

أخذت فانجي تعدل من حرارة الماء في الحوض لغسل الحفيد:

– لقد رأيت قابلات كثيرات يولدن، ولكني لم أرَ قط واحدة ذات يدين ماهرتين كيديك. مباركة يداك يا خالة جاسنتا.

يدان ماهرتان، مباركتان! دون أن تجد جواباً مناسباً ودون أن ترغب في صدم أحد، أدارت كوروكا ظهرها، والتجأت إلى الغرفة الأخرى: كانت تتنهّد بعمق، والدموع تسيل على وجهها. ولو خرج أحد يروي في توكايا غراندي أو في العالم الخارجي أنه رآها مجهشة في البكاء، فسيكون أكبر الكذّابين على الإطلاق.

العقيد بوافنتورا أندرادي
يقترح نخباً من الكاشاسا

1

قلة من الحمير، في قافلة صغيرة، كانت كافية، في ذلك الوقت المبكر، لحمل محصول الكاكاو الأول في مزرعة بوافيشتا. ولكن العديد من الحمير، وقافلة كبيرة، كانت ضرورية لحمل الموسم الأول الذي جني في المناسبة نفسها من غرسات العقيد بوافنتورا أندرادي. لدى نهاية الصراعات كانت مزرعة أتالايا قد تضاعفت مساحة، ولن تلبث أن تتضاعف مرة ثانية، ومن يدري فقد يأتي الإنتاج أضعافاً مضاعفة فيما بعد.

كونه مديراً لملكيات العقيد الريفية، فإن ناتاريو كان قد قرّر، ونفّذ قراره: إن القطاف سيتم في المساحة التي حصل عليها من العقيد كمكافأة وسجلت باسمه في السجل العقاري في إيتابونا. لم يقطف حقله قبل أن يقطف حقول سيده العقيد.

إذا كانت مزرعة بوافيشتا إلهية، فماذا يكون القول عن الحقول المترامية في إيتالايا؟ حتى مزارع العقيد هنريكي باريتو، الملقّب بملك الكاكاو، لم تكن تنال عناية مماثلة، ولم تكن تصل في أوجها إلى محاصيل كهذه، بالرغم من وجود مهندس زراعي دائم يحمل لقب دكتور، وشهادة تكفل تقنيته الزراعية المتطورة. إن الأزلام والعمال لم يكونوا يلهون ويقومون بأعمالهم، ومن المستحيل أن يفعلوا ذلك تحت إمرة النقيب ناتاريو دا فونسيكا. ومقابل النشاط في العمل كان دفع الأجور يتمّ بلا تأخير ودون ارتكاب أخطاء حسابية في حسابات الأسبوع.

لم يتمّ هناك إلا محاولة سرقة واحدة للأزلام والعمال ولكنها لم تتكرّر. فالمحاسب بيريفالدو، الموظف المسؤول عن دفع الأجور، وهو محاسب متخصص، تمّ إعلام ناتاريو عنه بواسطة بعض المتطورين عقلياً: لقد كان المحاسب يدفع أقل من الأجور المتوجبة، ويحسم أكثر من الديون والسلفات المترتبة على العمال. ولما تمّ التأكد من صحة التهمة فقد طرد المحاسب من العمل والمكان ولكنه لم يذهب بعيداً، إذ لم يكد يتجاوز حدود أتالايا حتى أصبح جثة تنهشها الغربان: لم يستحق أكثر من طلقة واحدة كانت كافية وتنيف.

– هل كان ذلك ضرورياً؟ – سأل العقيد بوافنتورا النقيب بينما يتحدث الاثنان على حدة حول ما حدث: ألم يكن كافياً تأنيبه بالضرب؟

– لعمل سيئ، أجل. ولكن لتجرؤه، فلا.

– تجرؤ؟ أي حديث هو هذا؟

– لكي يجد العذر لنفسه فإن الشقي راح يدّعي أن سيادتك أمرته بعمل هذا. فهو، إلى جانب كونه لصاً، مُشهّر وعاق.

ابن العاهرة! الأخذ مما ليس لديه، فليحرسني الله ويعتقني! من يزرع الكاكاو ليس بحاجة إلى أن يسرق عاملاً. لقد تصرّفت جيداً يا عرّاب.

– بإذنك يا حضرة العقيد.

كم من المرات كان العقيد قد سمع تلك العبارة؟ كان ناتاريو يتصرّف بإذنه وباستقامة مطلقة. لم يستغل أبداً ولم يتجاوز. هزّ العقيد رأسه موافقاً، واستطرد:

– إنك تهتم بأرضي، وتحافظ على اسمي بإخلاص.

إداري قدير، ومسؤول، فإن ناتاريو كفل للعقيد بوافنتورا أندرادي كاكاو متفوّقاً وبكميات أكبر بكثير مما توقعه العارفون: وعندما تحقّق من الكمية، فإن المهندس كلوفيس بانديرا الزراعي المشهور، غدا مندهشاً وهنّأ المزارع الكبير.

وبالرغم من كونه ملاكاً، ومزارع كاكاو وضابطاً في الحرس وبرتبة معلقة على صدره، فإن ناتاريو لم يهمل إطلاقاً مصالح السيد: كأنما مزرعة أتالايا كانت تخصّه أرضاً وإنتاجاً... مع ذلك لم يهمل قط، وبنزق مماثل، العناية بغرساته التي تتكوّن منها مزرعته الصغيرة. إنها صغيرة في أيدٍ غير يديه... أما في يديه، هو النقيب ناتاريو دا فونسيكا، فهي مزرعة بوافيشتا.

2

جالساً على الكرسي ذي المرفقين، والمسند المرتفع، إلى طاولة الطعام في دارته الكبيرة في مزرعة أتالايا، فإن العقيد بوافنتورا أندرادي جال بناظريه على السادة ذوي الشأن من المدعوين المختارين جيداً، وبينما ارتفع صوته، توجّه بالكلام إلى ناتاريو مقاطعاً، دون استئذان، المدّعي العام في إيتابونا الذي كان يعرض فصاحته: إن المدّعي العام بهيم!

– إنك رجل مستقيم يا عرّاب ناتاريو، أعلن ذلك.

المدّعي العام فلافيو رودريغز دي سوزا، جيد الاتهام في محكمة المحلفين، صمت وسط الجملة التي، عندما مدَّ لسانه ليعلن العدالة، كان يتلمّظ بطيبات الآلهة. صمت الجميع. وقال العقيد ثم كرّر

القول حتى لا يبقى مجال للشكوك:

– إنك رجل خير على غرار القليلين.

ولكي يعرف الجميع – من وجهاء إيلايوس وإيتابونا وسيكيرو دي إشبينيو وأغوا بريتا – كم من الاعتبار كان يحمل لمن استحقّ ذلك، بالإخلاص والتفاني، طيلة عشرين سنة.

– كم من السنوات، يا عرّاب؟

– لقد زادت على العشرين يا حضرة العقيد.

– كنت في مقتبل العمر ولكني رأيت أنك تستحق الثقة. إنك لم تتغيّر في وفائك أبداً.

كان ذلك تأكيداً مذهلاً ولكن العقيد لم يكن قد انتهى بعد من الإصغاء والكلام.

– قيل لي إنك بنيت بيتاً خارج أتالايا حيث ستقيم مع العرّابة والأطفال. هل تفكّر في التخلي عني؟

ما دام العقيد على قيد الحياة راضياً عن خدماتي فإنني رجله الأمين. ولكن الحقيقة هي أنني سأقيم وسط الطريق بين أتالايا وبوافيشتا. وفي مكان أريته لسيادتك يوماً. هل تذكر؟

ما دام العقيد على قيد الحياة راضياً عن خدماتي فإنني رجله الأمين. لقد سمع ما كان يرغب في سماعه، فتنفّس مرتاحاً. لقد تفهم نبأ بلغه عن بناء ناتاريو بيتاً له.

– أتذكر يا عزيزي. أتتذكر جيداً، وكيف يمكن أن أنسى؟ إنني إذ تكلمت في هذا الموضوع فلكي أقول لك إنني لا أعرف رجلاً أكثر استقامة منك. أريد أن يكون معلوماً لدى الجميع أنك لم تخذلني أبداً.

كان العقيد يرأس الغداء التذكاري بمناسبة عيد زوجته، القديسة السيدة أرنستينا. وعاد ليملأ كأسه بنبيذ برتغالي أحمر قانٍ. كان قد أتى ببرميلين منه من إيلايوس وفي نيّته ذلك الغداء الذي لم يرده فقط وفيراً بمآكله ومشاربه، بل أراده احتفالياً ولكي يحتفل في الحين نفسه وبنفس القدر بوجود ابنه الواصل حديثاً من الريو دي جانيرو.

بالرغم من كونه العقيد بوافنتورا أندرادي، الأكثر من ثري، المليونير، سيد الكاكاو المطلق، فإنه كان يمشي في الآونة الأخيرة متجهماً، قليل الكلام وقليل الابتسام. كانوا يقولون متمتمين إن ذلك يعود إلى غياب ابنه الوحيد، الدكتور الذي تأخّر في عاصمة البلاد منذ انتهاء تخصصه، وقد

مضى على ذلك خمسة أعوام طويلة ومريرة. كان ابنه يجمع الشهادات، ويلتحق بفروع علمية، ليتخصّص. ما لم يكن العقيد يستطيع أن يكتشفه كان في كونه يبدِّد المال تبديداً.

رفع العقيد كأسه باتجاه ناتاريو ليناخب المستزلم السركال: ذراعه اليمنى كما كتب ذلك يوماً إلى قاضي إيتابونا عندما انتهت الصراعات على ملكية غابات نهر الأفاعي. وكرّر:

– لم تخذلني قط.

أحاط العقيد مدعويه بنظرات الذكريات.

– لقد أنقذت حياتي مرتين. بصحتك يا عرّاب.

بوجهه الجميل، جالساً على الطرف الآخر من الطاولة، وقف ناتاريو، وحرّك كأسه: بصحتك يا حضرة العقيد: وقلب كل ما في الكأس إلى جوفه.

كان الصمت ما يزال مخيماً لأن المحتفلين لم يكونوا يعلمون ما إذا كان العتيق قد أنهى، أم لا، سفسطته السخيفة.

المحتفلون، أشخاص من ذوي النفوذ، جميعهم، ووفقاً لما تمّ الكلام عنه سابقاً، قاضي الشؤون المدنية، من إيلايوس، وقاضي الحقوق المستعجلة من إيتابونا وبرفقته المدّعي العام، والدكتور جوان مانغابيرا نائب الولاية الذي لا يزال شاباً ولكنه مشهور بذكائه، العقيد روبستيانوا أراوجو صاحب مزرعة سانتا ماريانا، والعقيد بريجيدو باربودا صاحب مزرعة سانتا أولايا، والعقيد جوان دي فاريا صاحب مزرعة بياوتينغا الذي قاتل إلى جانب باسيليو دي أوليفيرا في سيكيرو دي إشبينيو، والعقيد برودنسيو دي إغيار صاحب مزرعة ليندا فيشتا، والعقيد إميليو مدور، العربي، الذي، بالإضافة إلى مزرعة دمشق الجديدة كان يمتلك بيتاً في أغوابريتا، وأحد أبنائه يدعى جورج، زميل في زمرة فنتورينيا، كان أيضاً يلهو في ريو دي جانيرو، ويكتب مقالات إلى الصحف، وقد نشر ديوان شعر كان والده مفتخراً به يعرضه اعتزازاً في حلقات الأصدقاء، ويكمل اللائحة محاميان خبيران في شؤون التزوير، والقاضي العجوز أفونسو ذو الشهرة العريضة بالقابلية على الأكل والشرب، ولم يكن تقدّمه في السن ليحدّ من تلك القابلية.

السياسيون، والقضاة، والدكاترة والكاهن العلاّمة كانوا يأكلون من يد العقيد ويدعمون بحرارة الإطراء على المستزلم السابق. ولكن أصحاب المزارع، وحدهم، والعقداء كانوا أنداداً له: كانوا

يعرفون سبب الأشياء، ويعرفون القيمة الحقيقية للوفاء وسعر الموت والحياة، ويفهمون أسباب التبجيل والإكبار للنقيب ناتاريو دا فونسيكا.

3

كل الموجودين يعرفون أن الغداء مزدوج الغاية الاحتفالية. كانوا يحتفلون بتاريخ ولادة الزوجة القديسة والسيدة الفاضلة، وبحضور الابن الوحيد، للزوجين، الدكتور بوافنتورا دا كوستا أندرادي جونيور – أو أندرادي الابن وفقاً لعناد العقيد – أما حين كان طالباً في كلية الحقوق باهيا، وفي بيوت الدعارة، فكان معروفاً بفنتورينيا السعيد. كان قد جاء من ريو دي جانيرو إلى حيث ذهب في زيارة متعة قصيرة، بعد تخرجه، ولكنه مكث هناك خمسة أعوام مع بعض الزيارات القليلة والسريعة إلى إيلايوس. إنها لمرض مزمن، هذه الرغبة في العيش في ريو دي جانيرو: كان الفتيان الريفيون يفقدون هناك عقولهم ويهملون أراضيهم وعائلاتهم كما لو لم يكن لديهم واجبات يجب القيام بها، وكما لو أنهم فقدوا كل عطف تجاه آبائهم.

أما ما هو متعلق بالشاب جورج مدور، فهذا على الأقل كان يوقع مقالات في الصحف وقصائد في المجلات، وهي مهنة مشكوك في عائداتها ولكنها ذات بريق وتقدير. "قصائد عاشق للعشق"، كان ذلك عنوان الغلاف الذي كان إميليو مدور يحمله تحت سترته ليعرضه في بيوت ومزارع الأصدقاء، وعند طاولة المحل التجاري، وفي البارات، ونزل العاهرات، أما الدكتور أندرادي، جونيور أو الابن، لم يكن قد نشر كتاباً ولم يكتب قط في الصحف، كان يقوم بتكديس المحاضرات واحدة تلو الأخرى: وكان والده العقيد قد تعب من تجميع الشهادات، فهذه كانت تعلق بلا جدوى في مكتب إيتابونا، المغلق، البكر، إلى حين يأتي يوم تلك المعلومات القانونية الواسعة والغالية.

لم يعد للعقيد رغبة أو حيوية في أن يعلن في إيلايوس وإيتابونا عن تلك الألقاب الجديدة التي يحصل عليها الطالب الأبدي. أبدي أو مزمن؟ أي من الصفتين سيختار الظريف فؤاد كرم ليحدِّد مهنة فنتورينيا؟ أم ترى فؤاد كرم يعلنه طالباً مدى الحياة؟ أمام العقيد كان التبجيل يبلغ مداه الأقصى لرغبة ابنه في الدروس، أما خلفه فكان الهزء والتندر.

كان العقيد قد تخلّى عن النضال من أجل أن يبقى ابنه قربه، وحول وبدل في النهاية من مشاريعه القديمة، وفي طموحاته الموثقة، كأنما قد تحقّق المصير الزاهر الذي حلم فيه وقرّره لابنه. ولكنه لم يكن يفقد الأمل في أن الابن، وفي زيارة من تلك الزيارات الخاطفة، وبأعجوبة من السماء،

سوف يعود إلى رشده، ويفتح مكتبه، وينكبّ على العمل كما يجب. وإذا انتبهت السيدة أرنستينا، وقد فتحت عينيها، فإنها أخذت تقدِّم النذور إلى القديسين الذين تؤمن بهم ليعيدوا الابن إلى بيت أبيه. إن العقيد لا يريد أن يموت دون أن يتمتّع برؤية ابنه يرافع في المحكمة، ويتدفّق بالدرر، سيد الفصاحة والبلاغة، وساحق المدّعين العامين.

فنتورينيا، هو الآخر، رفع كأسه وحرّكه باتجاه ناتاريو. كان قد سمن كثيراً وأخذ يبدو شبيهاً بأمه ولكنه يقلّد الوالد بحركاته وجلسته وفوقيته. وبينما الكأس في قبضته نظر إلى العقيد وإلى المستزلم، وهو أيضاً يريد أن يشترك في المحادثة الشعبية:

– ما زال التصويب عرضة للتبديد، يا فنتورينيا.

في الصمت الذي ساد لاحقاً، فإن مدّعي عام إيتابونا الدكتور رودريغز دي سوزا، أخذ الكلام ولخّص مجمل حديثه القانوني: متعة الآلهة.

4

هل تريد أن تبيع يا عرّاب؟ إذا رغبت في البيع فأنا مرشح للشراء. مازح العقيد بوافنتورا أندرادي بعدما جال، بقعة بقعة، في مزرعة بوافيشتا مبدياً إعجابه بالأغراس الجديدة التي أصبحت بساتين من الكاكاو في نمو مدهش. لم يكن هناك ما يماثلها غير مزرعة أتالايا التي تمّت العناية الكاملة بها.

كان العقيد قد انتهى إلى مراقبة ملكياته الواسعة. كانت ملكيته الأساسية الأولى التي استولى عليها قد زرعها منذ سنوات بعيدة، عندما، مدفوعاً بعنفوان شبابه، حطّ الرحال في أراضي باهيا الجنوبية واصلاً من سرجيبي: كان قد احتلّ وظيفة أمين الصندوق في شركة لوبس ماشادو وشركائه في أشتانسيا ولم يعد أمامه غير تحديد وجهة مسيرته الجديدة. ترك كل شيء وأخذ يجدّ في المسير. ثم انضمّت مزرعتان مجاورتان للأولى كان قد اشتراهما بشروط مغرية خلال الصراعات الأولى عندما كانت إيتابونا لا تزال قفراً ولم يكن القطار الحديدي يمر من هناك بعد. ومع الصدامات التي اشتعلت على ملكية الأراضي غير المملوكة في ناحية نهر الأفاعي تمّت مضاعفة المساحات السابقة، وهنا كانت قد بدأت تنمو الأغراس وتزهر وتعطي مواسمها الأولى. كان المنظر ممتعاً للغاية.

لم يكد فنتورينيا يتخذ طريق العودة إلى ريو دي جانيرو – مكرّراً نشيده المعتاد: إنني إذا أنهيت حصتي الدراسية الجديدة، فسآتي لأبقى، وإذا تأخرت فلكي أوسع معلوماتي وقدرتي، ولست أضيّع الوقت ولا أبدِّد المال جزافاً، فلا تحزنا – حتى كان العقيد قد قرّر الخروج مع ناتاريو في جولة مراقبة تقليدية وضرورية: من لا يهتمّ شخصياً بأرزاقه لا يستطيع أن يملك ولا يمكنه أن يتذمّر. كانت الرحلة الطويلة على ظهر الخيل التي بدأت قبل طلوع الشمس وكانت تتقطع بين بستان وآخر قد خدمته لتفرح قلبه وتنزع من رأسه هامش غياب ابنه بينما شوكة سامة كأنما غرست في صدره. وكانت الرحلة لتخدمه أيضاً من حيث امتحن كفاءة وإخلاص مدير ممتلكاته الريفية. لم تتوقف الإطراءات، وناتاريو يستحق التقدير والعرفان بالجميل. لذلك، فإن العقيد بدلاً من أن يعود إلى دارته الكبيرة، أعلن:

– أريد أن أرى غرساتك أيضاً، يا عرّاب، والدار التي بنيتها لتقيم فيها مع عائلتك في ذلك المكان: كيف يدعى ذلك المكان؟

– توكايا غراندي، يا حضرة العقيد.

أطال العقيد بوافنتورا أندرادي النظر في أشجار الكاكاو، تذكّراً للأزمنة السابقة، ولمسيرات أخرى مع ناتاريو:

– لقد سمعت بهذا الاسم. بين الحين والآخر أسمعه على لسان أحد رجال القوافل. إنه أبشع اسم لأجمل مكان.

–هذا صحيح يا حضرة العقيد. ولكن أصبح الوقت متأخراً لتغييره.

– لكل شيء في الحياة سببه، ولا يحق لأحد أن يغيّره يا ناتاريو.

5

عندما دخلوا الغابة علق المزارع الكبير، مأخوذاً بروعة أشجار الكاكاو المزهرة في ظل أشجار الغابة:

– ليس في الحياة أجمل من كعب كاكاو مثقل بالثمار كهذا. – وأشار إلى الشجرة، أمامه، المكسوة بالثمار التي كانت تنضج بميلها إلى التموجات الصفراء لتضيء العتمة: – حتى تحمل شبيهاً لها فلا شيء هناك غير فتاة جميلة. شيئان يفرحان قلب عجوز مثلي.

– للكلام عن فتاة جميلة، يا حضرة العقيد، ألم تقدم الخدمة إلى ساكرامنتو ابنة تيبور سينيو؟

اقشعرّ بدن العقيد. كان المملوك يقرأ أفكاره، وقد قرأها سابقاً أكثر من مرة: إن قوماً يحملون الدم الهندي في عروقهم لا بدّ من أنهم يحملون جزءاً من الشيطان معهم.

– لقد قمت لها بالخدمة، أجل، يا ناتاريو. إن ما لا تعرفه، إنما تتكهّن به أنت. الواحد بين ذراعي ثنائيه.

بعض المتهتكات، بالتأكيد، كن يتصرّفن في الفراش الزوجي كالعاهرات على فراش المباغي، ولم يكن يحترمن أنفسهن. لم يكن يقضين على نبل الحياة الزوجية وشرط الأم الإلهي بأن تكون عفيفة. أما هؤلاء فقليلات وغير جديرات بالاحترام ومن أجل حاجات الرجال الدنيئة، كانت هنالك نساء عاميات وأخريات خاصة. وكانت السيدة أرنستينا تعلم بوجود أدريانا عشيقة العقيد من أكثر من عشر سنوات: وهو منذ قرن لم يلجها، وقد تركها بسلام، والحمد لله.

ولحسن الحظ إن السيدة القديسة كانت تفكر بهذه الطريقة، فهي مع العبادة والتدني غدت كبقرة متقدّمة في السن، في حين أن العقيد، وبسبب السن كان قد أصبح أكثر تطلباً. وأدريانا نفسها أصبحت تَلوُح له غير شهية، وطعاماً تقليدياً، وخبزاً بارداً. لقد أكملت المصاحبة بينهما الإحدى عشرة سنة، أضاعت أثناءها أدريانا الحرارة والرومانسية، وأخذت تشتكي من أمعائها، وتعاني من كثرة الإدرار، وبدأت أوجاع الظهر تنال منها، وكانت تتقلّص في الفراش بسهولة وتذهب ليلاً ونهاراً إلى اجتماعات السبيريتاس؛ كانت زوجة ثانية، ونسخة طبق الأصل عن الأولى، ولكنها أقل سمنة وأصغر عمراً. صبية بالكلام: لقد تجاوزت الثلاثين، ولم يعد لديها لا طاقة الفتاة ولا شكلها منذ أن عرفها العقيد وتولّه بها.. وللحمار العتيق سرج جديد.

6

هكذا قفزت ساكرامنتو فجأة إلى حلبة النساء، متدبّرة الأمر بالاجتماع به في أقصى نقاط التلاقي عبر حقول الكاكاو النائية إلى درجة أن أي واحد من المستخدمين والقتلة ورجال القوافل لم يكن يتجرّأ على الاعتداء عليها.

ولم تكن ساكرامنتو سيدة نفسها ومتكبرة حسب، ولكنها كانت أيضاً محافظة وحويطة. كانت قد أكملت الخامسة عشرة ولكنها لا تزال تبدو غير مستعجلة لمغادرة بيتها الصغير، حيث تعيش برفقة أمها، لتقيم مع رجل. لقد وضع العقيد عينيه عليها، ومن لم يضع مثل تلك العينين، عندما شوهدت

تمرّ متواضعة، ومع ذلك واثقة من نفسها، وحذرة، وتفاصيل جسدها غير مخبأة جيداً تحت الفستان الشفاف؟

كان فنتورينيا نفسه قد ألقى عينيه خلال الأيام القليلة التي قضاها في المزرعة وأراها لناتاريو عندما، قرب البيوت الخشبية الصغيرة، كانا يمتطيان الجياد بحيوية وهما يتحادثان عن مغامرات الشاب التي كان الأخير يحب التحدث فيها وكان ناتاريو يهوى الإصغاء إليها. في المستودع كانت ساكرامنتو ترقص فوق الكاكاو الناضج رقصة العسل بغية تنظيف الثمار من قشورها تاركة إياها جاهزة للتجفيف في الغرف المعدّة لذلك. كان العسل يسيل في الأقنية الخشبية؛ وعلى خصر ساكرامنتو وهي تقوم بذلك العمل يقف أسيراً طرف فستانها المشدود وفخذاها بارزتان ووركاها تدوران مع خطواتها الخفيفة والسريعة:

– "إني بلون الكاكاو الجاف، وأنا عسل الكاكاو الناضج".

– كاعب جميلة! انظر يا ناتاريو: إنها تستحق..

– لا تستحق شيئاً يا فنتورينيا. لا تتدخل في الأمر، إن لها سيداً.

– هل تداعب هذه الفرخة الطرية؟ تهاني.

– لست أنا من يفعل. – وبحركة من رأسه أشار إلى الدارة الكبيرة.

– الختيار؟

ضحك فنتورينيا: كان العقيد واقفاً عند الشرفة ينظر إلى البيت الصغير حيث كانت امرأتان، أم وابنتها، تعملان: السيدة أبيفانيا وساكرامنتو.

وغيّر ناتاريو مجرى الحديث:

– اترك الأمر عند هذا الحدّ. قل لي، لمن أعطيت الهدية التي اشتريتها من يد التركي فضول؟

– لقد وهبتها لألمانية راقصة تدعى كات. إنها قطار من الأخطار، يا ناتاريو، وفلفل حار. وهي متزوجة، مع كل هذا.

خلال السفرة السابقة، كان فنتورينيا قد وصف له كيف أنه لدى وصوله إلى الريو كان قد وجد أديلا الإلهية، راقصة التانغو الأرجنتينية (إنها مجنونة بي يا ناتاريو)، في الفراش مع أحد العاملين في الملهى ويدعى أريستيدي بيف – باف. وكان الاثنان مسترسلين للطيب الجيد، إلى درجة أنهما

لم يشاهداه يدخل إلى الغرفة. هل تذكر يا ناتاريو ذلك السوط الجميل الذي أهديته لي؟ لقد كان ذا فائدة كبيرة لي: فيه قطع وجع ابن العاهرة تقطيعاً وترك قفا (الخنزيرة) ملطخاً بالدم..

– هل تعني أنك الآن على علاقة بألمانية؟ هل تحب حقاً أجنبية؟..

كانت الألمانية هي الأخرى قد دخلت هيكل الماضي ولم تمكث معه طويلاً، إذ كانت قد ذهبت إلى منتجعات أخرى، ومراكز لهو جديدة، مع زوجها. وبالمناسبة كان فنتورينيا على علاقة صداقة براقصة أخرى، غير أنها من غاليزا الإسبانية، وهذا هو الأجمل في الدنيا، يا ناتاريو.

– هل سمعت أحداً يتحدّث عن رقصة الفلامنغو؟ على أنغام موسيقى الكستانيولاس؟

لم يكن ناتاريو يعرف الرقصة باسمها الأجنبي. ولكن الفرصة كانت قد واتته لحضور سيرك في إيتابونا حيث إحداهن كانت تعزف موسيقى "كاستانيولية" وترقص. كانت ترتدي سترة ضيقة وتنورة عريضة: تبدو غجرية، ومن يدري فربما كانت من غاليزا. ولكي يوضح الأمر، فإن فنتورينيا رفع جسده السمين والكبير الحجم وهزّه بحركة راقصة، مقلداً بيديه وفمه خطوات الرقصات وأنغام الكاستنيولاس.

– كان شيئاً شبيهاً بهذا.. – اعترف ناتاريو.

أوقف فنتورينيا العرض، واعترف:

– غيرة قاتلة إلى درجة الخوف. لا أستطيع أن أنظر إلى امرأة أخرى لأنها تتحوّل إلى وحش كاسر، وتهدِّد بقتلي، وقد بدأت تعدّ للفضائح. إن الإسبانية قادرة على القيام بأي شيء عندما تكون مولهة: فرحاً بنفسه وراضياً عنها، ومعتزاً، فإن فنتورينيا بدا مفتر الثغر عن تلك الابتسامة الخفيفة لفتى كان يعاشر العاهرات في كاراكاس وإيتابونا بغية البقاء دائماً في حالة عشق مزمنة: – هل تعرف اسم تلك الراقصة الإسبانية؟ تأمل فقط: كانت تدعى:علاج.

– علاج؟ إنك تخترع كل واحدة، علاج! هل هذا اسم يستعمل؟

عند هذا الحدّ، كان فنتورينيا قد عاد إلى ريو دي جانيرو سعياً وراء أجنبيته تاركاً العقيد حزيناً منكسر النفس، يطوف حقول الكاكاو ليرفع رأسه أو ليحافظ عليه مرفوعاً، وليعود إلى الضحك، ولكنه مع ذلك، لم يكن قادراً على استعادة الفرح.

– إن سيادتك بحاجة إلى استخدام شخص لمساعدة السيدة بيكينا في غسل الأواني والمطبخ. إن السيدة بيكينا أصبحت متقدّمة في السن ولم يعد بمقدورها أن تقوم بالعمل وحيدة. – لم يقل أكثر من

ذلك، إذ لم يكن الأمر يستدعي المزيد.

– إنك كنت دائماً ذا نصيحة جيدة يا ناتاريو.

في مزرعة بوافيشتا، كان العقيد بوافنتورا أندرادي قد سأله ممازحاً إذا كان يرغب في البيع. ولم يتعجّب للعناية المبذولة للأغراس: كانت عناية شبيهة بالتالي لاقتها مزرعة أتالايا. ولكن العقيد أصيب بالدهشة عندما وصل إلى توكايا غراندي: لقد غدت بحجم وحركة البلدة.

7

قبل أن يترجّل قرب مربط الخيل إزاء مستودع فضول عبد الله، سأل العقيد بوافنتورا أندرادي:

– كم سنة انقضت، يا ناتاريو؟

– سبع سنوات كاملة، يا عقيد.

– كان المكان مقفراً، وأتذكّر ذلك جيداً. أتذكّر أيضاً ما قلته لي آنذاك: هذا المكان سيغدو يوماً مدينة. إنها لم تصبح مدينة بعد ولكن ينقصها القليل.

مغالاة زائر، إنها ليست أكثر من بلدة صغيرة تنمو بسرعة بعدما تمّت زراعتها خلال سنوات. كانت سنوات البقرات العجاف عندما كان فضول لا يزال عرضة للكثير من التجارب الكبيرة والعذابات التي تضع إيمانه على المحك.

وها هو التركي ينقض مسرعاً، خارج الباب، لمساعدة العقيد على الترجل عن حصانه.

– أية سعادة، يا حضرة العقيد، أن نشاهد السيد الكبير في آخر الدنيا.

– صباح الخير، يا فضول التركي، دعني أخبرك: إني مصاب بالذهول حقاً. لم أنكر قط في أن يكون المكان قد غدا قرية كبيرة. لقد سمعت من هذا، ولكني مصاب بالدهشة. لقد أحسنت فعلاً عندما توقفت عن التجوال واستقريت هنا. الحق مع من يقول إن العرق العربي يمتلك حاسة شم قوية، وحيث وضع قدمه فإن الأعمال تنمو وتزدهر. إنك لن تتأخر في أن تصبح غنياً وتشتري مزرعة كاكاو.

– إن الله هو من قادني إلى هنا، يا حضرة العقيد. لقد جئت وهو ممسك بيدي، ولكني لم أمكث، ولم أنصرف من هنا في البداية عندما كان كل شيء عسيراً، إلا بفضل النقيب الموجود هنا. لولاه، لا أعرف ما الذي كان سيحصل لي.

وبينما هو يقف أمام باب المستودع، فإن العقيد تفحّص المكان المحيط به. وعند الضفة الثانية من النهر كانت البساتين قد نمت على مدِّ النظر.

– يا لها من بساتين رائعة: هل هم سرجيبيون؟

وأعلمه ناتاريو:

– أغلبيتهم. ولكن يوجد أيضاً قسم من السرتاون.

– قبل أيام وصلت عائلة من ربوع بوكين. – أخبر التركي –: خمسة أشخاص.

– من بوكين؟ إنني من مكان قريب منها. أنا من أشتانسيا: يا له من مكان رائع لانتظار الموت:

– منذ كم سنة لم يعد إلى المدينة التي ولد فيها وبدأ العمل؟ منذ وفاة والده العجوز أندرادي، المواطن الذي لم يكن يجلب العار إلى بيته وكان يعزف على المتردِّدة في كنيسة أشتانسيا: – إن أهل أشتانسيا طيبون، نظاميون وشغولون. إنهم ليسوا كسكان الجنوب عند ضفاف نهر سان فرانسيسكو: – كان يثير ناتاريو، متسلياً: – فهؤلاء فوضويون، كسالى، أليس كذلك يا ناتاريو؟

لم يستنكف النقيب من الممازحة، وكأنما ابتسم:

– الفرق يا حضرة العقيد هو أن في أشتانسيا فقراً. أما في سان فرانسيسكو فالفقر يعتبر رفاهية لأن البؤس يخيّم هناك.

صهل جواد قرب النهر. العقيد، قبل أن يستجيب لدعوة فضول ويدخل إلى الدكان توقف لمراقبة البيوت المحاطة بطريق الحمير، وهي بيوت تكاد تبدو حديثة. ورأى، أبعد من القفار البعيدة، تجمع أكواخ القش التي تسكنها العاهرات.

– وما هذا الذي هناك؟

إنه أسفل المنحدر. حي الفتيات. في السابق كن خمساً أو ستاً، لكنهن الآن عديدات ولا يمكن معرفة عددهن.

تأخر العقيد وهو يتأمل في الحركة. على باب مستودع العقيد روبستيانو دي أراجو كانت قافلة مكوّنة من مجموعة عديدة من الحمير تفرغ حمولتها من الكاكاو الجاف. وفي الإسطبل، كانت مجموعة من رجال الأحزمة الجلدية تعتني بالثيران. الدجاج البياض والماعز مبعثرة في المحيط تنقب وترعى. ورأى العقيد امرأة عجوزاً تجتاز النهر فوق الحجارة.

– وبيتك يا ناتاريو؟ هل هو ذاك البيت، هناك؟ – أشار العقيد إلى بيت مبني بالحجر والطين يعود إلى الزنجي تيساو أبدووين.

– كلا، يا حضرة العقيد. إن منزلي يقوم فوق تلك الهضبة، هناك. يمكن أن تراه من هنا، إذا كنت لا ترغب في الصعود إلى هناك.

رفع العقيد عينيه إلى البناء الحديث فبدا داراً تليق بإقامة سيد مزرعة ببوافيشتا: كان المكان يشرف على القرية.

– لا حاجة إلى الصعود. أرى من هنا. إنها دار إقامة وينيف، نعم يا سيد.

ابتسم بدفء للمستزلم السابق: أراد أن يقدِّم هدية لتزيّن المقر الجديد:

– والأثاث، يا ناتاريو، هل اشتريته؟

– أجل يا حضرة العقيد. لقد أوصيت على القسم الأكبر عند لوبيسينيو، أما القسم الآخر فقد جئت به من إيتابونا.

فكّر العقيد وهو يضع عينيه على بيت ناتاريو:

– لقد استنتجت أن العرّابة تحب الموسيقى. إنها تحب الأغاني، أليس كذلك؟

– أكثر مما يجب.

– إذاً سأعطيها غرامافون شبيهاً بالذي لديَّ، حتى يكون عندها في البيت وتسمع الموسيقى التي تريد. في ساعات الفراغ في أتالايا كان العقيد يتمتّع بالاستماع إلى قطعة موسيقية طويلة لا بدّ من وجودها في بيوت الوجهاء.

– شكراً يا حضرة العقيد، فزيلدا ستطير فرحاً.

وأصرّ فضول على الدعوة:

– تفضّل يا حضرة العقيد. البيت بيتك.

اجتاز المزارع الكبير عتبة الباب، فوضع سوطه على الباب، وجال بنظره في الواجهات يزن المخزون فيها. كان العربي يبيع من كل شيء قليلاً، وكان المكان في الوقت نفسه مشرباً للكاشاسا، ومستودعاً للجاف والنيء، مكاناً لبيع الملبوسات والأقمشة الرخيصة من القطن والشيت والبلغاريانا بالإضافة إلى خزانة لخشاخيش الزينة.

– إذا كنت ترغب في الراحة، ففي الداخل أرجوحة. إن بيتي بيت فقير ولكنه في تصرفك.

– سأبقى هنا، يا فضول، لأنني لن أمكث طويلاً.

ضجيج خطى في الخارج؛ أحدهم يركض. كانت امرأة غير مسرّحة الشعر الذي أطلقته للريح يبدو عليها الارتباك والاستعجال، وكانت تتنهّد بسبب الركض. تقدّم ناتاريو خطوة إلى الأمام.

– ماذا في الأمر يا ريسو؟ – كانت تدعى ماريا دي ريسوريكسيون.

– لقد أرسلتني السيدة كوروكا لأخبرك أن برناردا قد وضعت طفلاً. في هذه اللحظة بالذات. – تنفّست مفترة عن أسنان بيضاء حليبية وشفتين رومانتيتين.

– تقول كوروكا أن اطمئن فكل شيء قد انقضى جيداً.

وتمطت الابتسامة، وملأت كامل الوجه:

– لقد رأيته يولد!

لم يتحرّك في وجه ناتاريو أي عضل. كان ضرورياً معرفته من الداخل والخارج، لملاحظة إشارة دهشة أو دليل فرح على وجه أو في قلب المملوك. ولكن العقيد بوافنتورا أندرادي كان يعطي نفسه لقراءة أفكار الآخرين:

– إذهب وبارك إبنك يا ناتاريو. – وضع يده على كتف العرّاب:

– ولكن قبل كل شيء سنشرب نخب صحته.

– إن لديَّ قنينة عرق، ممتازة، جئت بها من إيتابونا، وهي من صنع الأخوات فرحات. سآتي بها من الداخل. – قرّر فضول.

– اتركها ليوم آخر يا فضول التركي. إن مشروباً من اليانسون لشيء أجنبي ولا يناسب نخب الطفل فاسكب كأساً من الكاشاسا. ولا تنسَ أن الفتاة تشرب الكاشاسا هي الأخرى.

كانت أصوات احتفالية ونغمات حيوية تتعالى على طريق الحمير: إنها قافلة من القوافل التي وصلت لتفرغ حمولتها. على رأس وعنق البغلة كانت أجراس معلقة ترن مولدة أنغاماً متناسقة.

لقاءات الحب وفراق العشق
مستودع الطحين وعلى الجسر الكبير

1

من السهل معرفة التركي بمجرد النظر إليه: سواء كان سورياً أو عربياً أو لبنانياً. إنهم جميعاً جنس واحد، يمكن معرفتهم من أنوفهم المروسة وشعورهم المجعّدة؛ وبالإضافة إلى لهجتهم الثقيلة، يأكلون اللحم النيء بعد أن يسحقوه بمدقة حجرية.. هكذا جزمت ديفا في طريقها مع ذويها لبلوغ البناء المصنوع من الحجر والطين عشية وصول الدفعة الأولى من السرجيبيين إلى توكايا غراندي، مأخوذين إلى هناك بالخوف وعدم الاطمئنان.

وبدلاً من العثور على تركي، صادفوا الزنجي منهمكاً بضرب الحديد، عاري الصدر، وقد علّق على ظهره جلد حيوان ليستر عورته.. جعلت المفاجأة ديفا تنطلق بضحكة طفولية ما لبث الحداد في الحال إن بادلها إياها بضحكة ترحيبية. وبينما هو غارق في ضحكته تلك، مرحباً بحرارة، قدّم نفسه لأهل الغابة:

– اسمي كاستور أبدووين ولكنهم ينادونني بتيساو. أعمل هنا حذّاء حمير.

عندما سمعته، أمسكت ديفا نفسها. أصبحت جدية وأحسّت في نفسها سلاماً وثقة. نظرت إلى فانجي ولمحت في عيني الأم المتعبتين بريق أمل أعاد إليها حيويتها. أما وجه إمبروزيو فقد بدا مضيئاً. من أين جاء ذلك السلام ليختم رحلة الظلمة، ومن أين ولد ذلك الإيمان؟ كان الجمر المتّقد في أتون الحدادة قد بدأ ينطفئ ويتصاعد منه بعض الدخان. وإذ كان واقفاً أمام المطرقة، بضحكة احتفالية، ووقفة مستقيمة، فقد بدا الزنجي حيواناً ذا شأن كبير، أو شجرة عملاقة، وكلاهما رمز للقوة والجلال، فيا له من كائن فرح وشفاف. وعادت ديفا إلى الضحك ولكن ضحكتها لم تعد لتكشف عن فتاة صغيرة، بل غدت ضحكة صبية تكاد تكون مغرية.

أراد كاستور أن يتكهّن بسنها، ولكنه ظل متشككاً. الطراوة والفخذان والضحكة تشير إلى أنها فتاة صغيرة. ولكن تحت الفستان، كان ثدياها يوحيان بالتمرّد على الطفولة، وفي وجهها، كانت عيناها حائرتين، هاربتين، والابتسامة مبطّنة، والتعبير تأملياً: فجأة بدت أكبر سناً مما رآها في البداية، وبانت عن صبية مكتملة. كانت أحياناً تبدو ابنة الثالثة عشرة، وأحياناً أخرى ابنة ستة عشر أو سبعة عشر عاماً.

ورافقهم الزنجي إلى بيت فضول عبد الله وهو كناية عن مكان للسكن وآخر للتجارة، وكانت ديفا تسير قربه وعيناها مطرقتان إلى الأرض، بينما كانت عينا تيساو تنظران إلى الأمام صريحتين وموصلتين. وإذ تخلّى الكلب ألما بينادا عن استكانته فقد انضمّ إلى القافلة.

2

لولا فانجي لما تذكّر أحد أن ديفا كانت قد أكملت الرابعة عشرة من عمرها وهم في طريق رحلتهم. في موقع العمل، وفي أزمنة ماروين المزدهرة، كانوا يحتفلون بأعياد الميلاد، ويحسنون من نوعية العشاء، ويصنعون حلويات الجزر والكريما. وإذا وقعت المناسبة يوم أحد أو في عيد أحد القديسين فكانوا يجعلون الغداء احتفالياً بحضور الجيران والعرّابين. ومن يدري فربما تعود تلك المناسبة عندما تكمل ديفا في العام المقبل الخامسة عشرة من عمرها وهم مقيمون في ذاك المكان الذي يتوجّهون إليه عملاً بنصيحة ذلك الفارس المسلح، الذي يسمّونه النقيب.

في غبار وتعب الرحلة الطويلة، وحدها فانجي تذكّرت، لكونها أُمّاً أو لانشغال بالها على نحو ابنتها الصغرى؛ طويلة، هيفاء، ونحيلة، لم تكن قد اتخذت أشكالها بعد، كما لو أنها توقفت عن النمو: كانت قد تأخرت ما فيه الكفاية. وكانت فانجي تنحى باللائمة على تراكم المشاكل – القلق، وفقدان البيت والبساتين، ورؤية أغنالدو محتاراً ويداه ورجلاه مكبّلة بالأصفاد وهو يتلقى الضرب بالمسطرة والقساوة وعدم الاكتراث به – لقد وصلت ابنتها بجسدها النحيل، تارة حزينة، وأخرى فائرة الدم، إلى سن الرابعة عشرة، ولم تسبح بعد في ضوء القمر، ودون أن تكون قد نزفت دماً إشارة إلى أنها أصبحت جاهزة للزواج والحمل. فهل ستبقى جافة إلى الأبد؟

في ذلك المساء البعيد من وصول العائلة إلى توكايا غراندي، كانوا قد تسلّموا طعاماً قدّمه السكان المقيمون هناك، وتموينا أدانهم إياه التركي، وأشعلوا ناراً في الفلاة لتجهيز الطعام. وقبل الوليمة الهزيلة، كانت النساء قد ذهبن للاغتسال في النهر وكن يحتجن إلى ذلك. كان الزنجي تيساو قد دلهم على المكان الذي يسمّونه "حمام النساء" وهو اسم وضعه الزنجي نفسه لمكان واسع وسط تجمع ماء النهر. غسلت دينورا طفلها، ونزعت ديفا عنها أطمارها وعندما رآها الزنجي راجعة من هناك تأسف لكونها صغيرة إلى هذا الحد.

متوسلاً بأدب، كان كاستور قد ذهب إلى محل الحدادة للمجيء بقطعة لحم مجفّفة بالملح لتحسين الوجبة المتواضعة. بعد ذلك جاء بقافلة النساء إلى مقر الإقامة الذي شيّده لايبيفانيا حيث لم تقم

بعدها أية امرأة أخرى. كان البيت الصغير شبه فارغ بالرغم من أنه مبني جيداً وقد تمت العناية به بأكثر مما عداه من بيوت هناك. أما العجوز فانجي فقد ارتأت أنه من الأفضل البقاء مع زوجها وأبنائها: وفي كل الأحوال لا يكفي البيت الصغير لكل هؤلاء. وهكذا قاد كاستور النساء الثلاث: دينورا مع ابنها الصغير، وليا وهي تحمل بطنها المليء، وديفا. وذهب معهم أغنالدو رغبة في رؤية ليا تنام مرتاحة. كان الكلب ألما بينادا ينبح على القمر المنعكس على صفحة الماء. مغطّى بشرشف، كان السرير الخشبي وعليه فراش القش العريض، كما تقتضي المهنة، مسترسلاً لما لاقاه من إهمال. ألقت دينورا الطفل فوق الشرشف وتمدّدت ليا إلى جانبه.. وجاء أغنالدو ببعض الحطب، وأشعلت ديفا النار، وتصاعد في الجو دخان رطب. ومع غطاء سميك أحاط الدفء بالطفل والمرأة الحامل، فاندسّا مندهشين فرحين.

اختفى الزنجي دون أن يلقي التحية: فتعجّبت ليا. ولكنهم ما لبثوا أن رأوه عائداً: كان قد ذهب إلى بيت الطين والحجر حيث كان يعمل ويعيش ثم عاد بأرجوحة كبيرة واسعة قذرة لكثرة الاستعمال. إنها الأرجوحة التي كان تيساو يستقبل فيها الفتيات ويتمتع بمعشوقاته. إنها أرجوحة زليخة وأبيفانيا، هذا للاستشهاد باثنتين فقط. هو نفسه نصب الأرجوحة في المكان المخصص لها في البيت.

– إنها تكفي الاثنتين، لأنها أرجوحة متزوجين – قال ذلك متوجّهاً بالكلام إلى ديفا ودينورا.

عندها فقد تمنّى للجميع ليلة سعيدة بعدما وضع نفسه في التصرف. في حال احتياجهم إلى أي شيء، فلا يشعرن بأي حرج، فبإمكانهم أن ينادوه في محل الحدادة وفي أية ساعة من الليل. انصرف برفقة أغنالدو وقد سبقهما الكلب ألما بينادا، ورأتهم ديفا ينصرفون عبر الباب المكسو بسعف جوز الهند: الكلب، الأخ، والحداد. مكثت ديفا للحظة تتأمّل في البدر الساطع المنعكس على النهر؛ لقد وصلوا أخيراً.

3

احتقرت دينورا الأرجوحة وفضّلت أن تتمدّد على فراش القش فوق السرير الخشبي بين ليا والطفل. وسط دفء الأجساد غفا الطفل البكّاء ثم غفت الأم كميتة من التعب. وكذلك القلق الذي كان يمنع ليا عن النوم قد هدأ ونسيت الحامل في النهاية ثقل حملها وحجمه في بطنها المنتفخة.

وحدها في الأرجوحة، مرخية ذراعيها وفخذيها، ظلت ديفا مستيقظة، منتبهة إلى الأصداء التي كانت تتوالى في أسفل المنحدر أو التي كانت تصل إليها من الفلاة. سمعت خطوات، وكلمات

نابية، وقهقهات ضحك: لقد أخذت الحركة تشتدّ تدريجياً إذ كان الليل يستكمل دورته في توكايا غراندي. وسمعت ديفا أسماء الحيوانات التي كان رجال القوافل مع مساعديهم يحدونها: كانجيراو، فلوردا ماتا، كوسكورتي، ديامانتي، ماريسكا، مهرة الطاعون. ومن كوخ مجاور كانت تصل مقاطع من حوار:

– اليوم لا يمكن، فأنا مقفلة. كانت امرأة تعتذر.

– بنت العاهرة.. ما هذه "السختجة"؟ كان الرجل يتأسف.

فجأة سمعت أحداً ينادي، وسط الصمت، بلقب الزنجي:

– تيساو... إلي تيساو!

إنه بلا شك أحد رجال القوافل يفتّش عن خدمات حذّاء الحمير الذي على ما تمت مشاهدته كان يستجيب بطيبة لما يطلب منه، ولكن النداء لم يتكرّر.

كانت رائحة قوية تفحّ من الأرجوحة، ولا بدّ من أن تكون رائحة الزنجي، تحيط بها. فهنا كان قد عرق في ليالي الدفء، وبين أذرع النساء، وقد ترك العرق على الحبال رائحة الرجل، دليل الفحولة. وعطره الطبيعي، العطر المميّز كان يجعلها تنتشي. لقد أحسّت ديفا بمثل هذا في ليلة القديس يوحنا السابقة عندما أفرطت في تناول شراب الجينيبابو؛ إنها تشعر بثقل في رأسها على وشك أن يجعلها تشعر بالدوار.

لم تتمكّن من أن تغوص في نوم عميق وأن تتخلص من ذكريات ليلة أمس، ومع ذلك لم تكن مستيقظة كلياً؛ لقد كانت تسبح في غموض، في الأرجوحة، أسيرة الرائحة التي كانت قد تنشقتها من قبل في محل الحدادة عندما انطلق الزنجي بالضحك واقفاً أمام الجميلة. في الأرجوحة كانت الرائحة المسيطرة والملحة تدخل أنفها، وكل مطارحها، وتنتشر فوق جلدها، وتحوم فوق ثدييها الصغيرتين، وتنسال فوق بطنها ثم تعود لتحرق شفتيها العذراوين. كانت تشعر بجسد كاستور يطوف فوق الأرجوحة، وجلد الحيوان يكسو ويكشف عن مطارحه، وبذراعيه القويتين يأخذها ويسحقها على صدره.

وفي النهاية فرض النعاس نفسه، ولكن ديفا لم تكن مطمئنة. لقد نامت مع الزنجي حتى منبلج الفجر؛ فقط إنه لم يكن أسود، لا أسود ولا أبيض، ولا حنطياً ولا قهوائياً، ولا شبيه بعرق الرأس الأخضر. كان لونه مضيئاً، خلال مسافة من الرحلة التي كانت طويلة وعفوية، وتراءى لها كاستور

كطائر الكايتيد، ولكان كطائر "الجفالية" لو كانت ديفا تعرف هذا الطائر. لقد أخذها عبر الوادي وطار بها فوق القمم والنهر، وألقى بها على أرض القمر، وحشرها في ركن محل الحدادة وحدها. أحسّت ديفا بنفسها تذوب بين يديه.

عندما استيقظت على بكاء ابن أختها وعلى ضجيج القوافل المتحركة بالانطلاق كان الدم يسيل من فم الجسد، قاتماً، سميكاً، وينساب على فخذيها: لقد أصبحت امرأة.

قطعة القماش الحمراء في الأرجوحة سجلت وقاحة على الزنجي كاستور أبدووين دا أسونسيون، الملقب بتيساو، والذي بعدما ركب حدوتين للحمار "لاساروتي" نام راضياً عن نفسه طيلة الليل. كان قد نام جيداً ولم يكن هذا يحدث إلاّ نادراً.

4

عندما كانت أوفريسيدا – وهذا اسم أعطاه كاستور للكلبة التي وهب إياها كهدية ولكونها جريئة منذ الصغر – تأتي لتثيره، وتقفز حوله، وتعضّ فخذيه، وتشدّه من ذيله، فإن الكلب ألما بينادا كان يستجيب للهوها فيخرج مسرعاً لاضطهادها فيرميها أرضاً ويضع قدمه على بطنها ليثبتها: ولم يحدث لهما أبداً أن استرسلا معاً لغرائز أخرى باستثناء اللعب السعيد والزعل الكاذب والتهديدات غير الجادة.

ولكن الكلبة أوفريسيدا أخذت تغدو أقل مزاحاً بالنسبة إلى نموّها: فقد صارت تقضي الساعات الطويلة نائمة في دفء الحدادة، قرب الكلب ألما بينادا، متمسكة به، ولكنها مع ذلك لم تتخلَّ عن حمله على الركض في الفلوات، مثيرة إياه، ومتحدية، بعراكات لم تكن أكثر من محاولة سيطرة بريئة. وكان كاستور يستأنس بحركة ثنائي الكلاب هذا وهما يتمرّغان فوق التراب، يتعاضان ويتنابحان كما لو أنهما يجازفان بما هو أدهى. بعد ذلك، وحين يتعبان، يمدّان لسانيهما ويتمدّدان عند قدمي صديقهما تفتيشاً عن مكافأة. وكان ألما بينادا يبدي انزعاجه، فقط، عندما كانت أوفريسيدا، مستفيدة من عمرها وحجمها الصغيرين، تقفز إلى عنق تيساو حتى يحك لها خلف أذنيها وعلى بطنها. وبسبب ما يعتريه من غيرة كان الكلب يقف على قدميه الخلفيتين، ويستند إلى فخذي الحداد، طارداً المتدخلة وواضعاً نفسه مكانها في دفء تيساو.

وفي يوم تغيّر كل شيء ودون سبب ظاهر استغربت أوفريسيدا رفيقها: أن يبدو ما حدث كأنه قد حدث أمس، ومع ذلك فإن أكثر من نصف عام كان قد مضى منذ زيارة زيلدا الأولى لتوكايا

غراندي: كانت زوجة النقيب قد أخذت الحيوان من عربة الثيران ووضعته على الأرض أمام دار برناردا. وفي الحال ثار الكلب ألما بينادا وبدأ يهاجم وينبح على تلك الهبة: أوفريسيدا.. أوفريسيدا، قال تيساو مشيراً إلى اسمها.

وبإشارة أخذت الأمور تتصاعد تدريجياً... ودون أن يتدخّل أحد كشّرت أوفريسيدا عن أنيابها عندما رأت ألما بينادا يقترب منها ليبدأ جولة الغزل الأولى. ونبحت بشدة عندما أصرّ الكلب على إعادة محاولة الغزليات البريئة والوقاحات في أرض الآخرين.

خلال لحظات ظلَّ ألما بينادا هادئاً دون أن يفهم شيئاً مما كان يحدث. وها هو أيضاً يتغيّر، فكفَّ عن أن يكون الممازح الذي كان، فقد تغيّرت العلاقة بينهما كلياً وأخذت هي تهرب كما لو أنها تخاف منه، وتتجنّبه كما لو كانت تحتقره، وتبعده عنها كلما حاول التقرب منها. ولكنها إذا هربت منه فلمسافة قصيرة، وإذا تجنّبته فللحظات قليلة، وبقدر ما كانت تبعده عنها كانت تفتّش عنه، تنظر إليه شزراً، وتعرض له قفاها.

وإذا أغفل عن عاداته المريحة والمفيدة، فقد أخذ الكلب ألما بينادا يحذر من النباح على القوافل، ومن القفز حول الحمير، وفقد الجوع – الجوع الذي لم يكن أي طعام ليسده، ووصل إلى العبث، فترك كاستور يذهب وحيداً إلى الصيد منذ منبلج الفجر، ويمكث هكذا متمدّداً قرب الكلبة، أسيراً للرائحة التي كانت تخرج من شدقها.

خلال أيام قليلة عالج ألما بينادا الوضع وأخضع نفسه لصبر عنيد إزاء رفض أوفريسيدا. وإزاء احتقارها له ورفضها وعنف عضاتها، كان مزمعاً على أن يغزوها فغزاها. ولكن ألم يكن ذلك كله عندما رغبت الكلبة؟ كانت أوفريسيدا قد تخلت عن الاعتراض والهروب والتكشير عن الأنياب، وسمحت له بأن يقترب منها، ويشتمّ مطرحها الذي ذهب يلعق منه بلسانه.

وفي إحدى الأمسيات، وفي الفلاة أمام محل الحدادة، وأمام أنظار ناندو وإيدو، اللذين كانا يحرّضانه، وبحضور الزنجي كاستور أبدووين، والتركي فضول وكوروكا الغارقين في محادثة طريفة ومشهد جميل غير متوقّع، فإن الكلب ألما بينادا تمكّن من أن يدخل أحشاء أوفريسيدا الخصبة، وبعدما انتهى الاحتفال وصل الكلب والكلبة معلّقين الواحد بالآخر. أراد ناندو أن يلقي بعض الماء عليهما ليحلّ العقدة ولكن كاستور لم يوافق. دع الطبيعة تحدِّد مصير ما هو متبقٍ.

يمكن التأكيد، ودون إساءة في التشبيه، أن الشيء نفسه حدث للحداد كاستور أبدووين دا أسونسيون وللسرجيبية ديفا، على الأقل فيما هو متعلق بالطريقة التي رآها فيها، وبالأسلوب الذي اتبعه في معالجتها خلال أشهر طويلة، أكثر من نصف سنة، بالمفاجأة عندما، في يوم كسائر الأيام، عرف فجأة بما حدث من تغيير "مفاجأة"! لا تفي بالغرض نظراً لحجم الحدث: لقد كانت كشفاً مدوياً.

إنه يوم كسائر الأيام بالنسبة إلى سكان المكان، ولكنه ليس كذلك بالنسبة إلى حذّاء الحمير، وهو كذلك بالنسبة إلى الصبية القوية والحارة وبقدر ما كانت الكلبة أوفريسيدا. هذه وتلك من الأشياء الاستثنائية التي تخبِّئها الحياة لنا: ألغاز، عجائب، وروائع، إنما، هي الطبيعة، التي تتكفّل بتفسيرها ووضع الحلول لها. هكذا علم كاستور أبدووين، المستعجل في قراره، ناندو: لا يفيد بشيء تكرار قول بهذه الأهمية وهذا الوضوح.

6

في كل الأحوال فإن أول الملاحظين لتحول ديفا باستياو دا روزا، البناء ذو الزبائن الكثيرة، والمواطن ذو الشكل الجميل، الأبيض، ذو العينين الزرقاوين، القطعة النادرة في المحيط، صاحب الحظوة الكبرى عند النساء والعشيق الذي تتعارك من أجله فتيات الهوى.

بين البيوت التي لا تزال معدودة، المبنية بالقرميد والحجر، والمنتشرة على طول طريق الحمير وبمواد ممتازة في نظر ميرنسيا وزي لويس، فإن بيت باستياو دا روزا – جوزي باستياو دا روزا – كان، من بعيد، البيت الأجمل منظراً للعين والأكثر رفاهية، وهذا يمكن تفسيره بسهولة: لأنه يعمل لنفسه، كان يبذل الكثير من النزق في بناء متين الأساسيات ومكتمل المظاهر النهائية. جدران زرقاء وشبابيك بلون الورد مع واقيات خشبية، ومزاريب لتصريف مياه الأمطار. أما ما هو باذخ للحالات الضرورية فقد تمّ تشييده في البستان: حفرة كبيرة وفوقها صندوق خشبي حتى يجلس عليه صاحب المقام الرفيع. كما هو الأمر في دور تاكاراس وإيتابونا. كانت الدار الفخمة الأولى في توكايا غراندي. وكان ذلك البذخ فيها طريقاً لكاستور وفضول عبد الله ليقتفيا أثر باستياو. وهكذا كان على فضول أن يتّخذ المبادرة في حفر بئر خلف المستودع، قبل أن يتمّ حفر البئر لسقي القطيع ورجال القوافل، التي كانت عملاً خيرياً من أعمال روبستياو دي أراجو.

إنه بيت كبير جداً لرجل أعزب؛ وراحوا يتمتمون في توكايا غراندي ويتهامسون بأن باستياو دا روزا كان مزمعاً على الزواج، وتكوين عائلة، وسعت العمّات في إثر خطيبة يتعاقدون معها في إيتابونا، المدينة التي ولد فيها. لكنه كان قد ترك هناك شهرة شاب ماجن، وراقص لا تتعب قدماه، وقابض على قلوب النساء المتزوجات. لم تكن توكايا غراندي أكثر من محطّ رحال ليلي للقوافل عندما وصل لوبيسينو إلى هناك، وقد تمّ التعاقد معه لبناء بيت فضول عبد الله الخشبي الذي قرّر أن يتقاعد من حمل الحقيبة وبشراكة لوبيسينيو. وإذ وجد نفسه في حالة مرضية هناك، أقام في المكان نهائياً لأنه أحبّ توكايا غراندي. ومتجوّلاً في مناسبات عديدة بين المزارع المتقاربة، وبالتعاقد معه لبناء الزوارق والأقبية الخشبية والمستودعات، فقد قرّر لوبيسينيو أن يطيل شاربه ولحيته وأصبح ممكناً له أن يمرّ من هناك كأجنبي إذا أراد ويكفيه لذلك أن يلاعب لسانه عندما يتكلم. وفي توكايا غراندي كان يتسلّى بالحديث مع تيساو، عن العاهرات.

كان الوقت يمرّ وباستياو دا روزا لا يزال عازباً، حتى إنه لم يفكّر في المصاحبة بالرغم من أن اللواتي عرضن أنفسهن كن كثيرات. إحدى هاتيك ماريا بياتريس ماوغادو، القريبة الفقيرة للسيدة دونا كارمن ماوغادو دي أسيى غوتينيو، وبالتبنّي للعقيد إينوك دي أسيس غوتينيو – كانت تلك فقيرة ولكنها إقطاعية. وكان باستياو قد تأخّر في مزرعة غوتينيو كمشرف أول على إصلاح الدارة الكبيرة، وبمجازفة كبيرة قرَّب إلى صدره السيدة ماريا بياتريس، وهذه لم تكن عذراء لأن قريبها الغني كان قد قطف عذريتها بمجازفة، هو الآخر. وبالرغم من ذلك فإن القريبة الفقيرة، وقد غدت في الثلاثين منتظرة زوجاً محترماً، كان يجب أن تظهر بمظهر العذراء بالنسبة إلى الآخرين. وعندما تعلّقت بلوبيسينيو أرادت السيدة أن تتخلّى عن الفراش والطعام الذي كان الأقرباء يقدّمونه عطفاً عليها – وكانت بالمقابل تهتمّ بترتيب الدار، وتراقب أعمال الخدم وتهتمّ بالصغار – لتأتي وتعيش مع باستياو دون أن تفرض عليه ورقة موقّعة، ودون أن تكترث بالأخطاء المسبقة لمتاعب وإلحاحات عائلتي مورغادوس وغودينيو. وحوّل باستياو دا روزا المحادثة في هذا الموضوع، ورمى بنفسه خارجاً، لأنه لم يكن يرغب في التهرؤ في كمين من الكمائن، ضحية امرأة.

اجتاز النهر بصحبة غيدو، ملبّياً دعوة العجوز إمبروزيو وجوزي دوس سانتوس للمناقشة في بناء مستودع للطحين: لم يعرف ديفا عندما التقاها تعتني بالأرض مستندة على قبضة يدها. وأنها واحدة من بنات جوزي دوس سانتوس اللواتي كنّ ثلاثاً وكل واحدة منهن تعادل رجلاً في العمل، اثنتان

منهن حديثتا العهد، وثالثة أكبر سناً وعذراء هي ريكاردينا. رغم كونها عذراء فإنها لم تتوقف عن ملاقاة أي كان: كانوا قد شاهدوها مع دودو بيرويا، وهذا، كناية عن نصف إنسان، كان يأتي إلى هناك لا يعلم أحد كيف ولماذا. يأتي لمشاهدة العصافير، وغير ذلك، لا يمكن أن يكون. وبعد فترة أوصى على كرسي حلاق عند لوبيسينيو، سرّاً، على أن يدفع له متى استطاع: كان قد اختار قص الشعر وحلاقة الذقن. ووفقاً لرأي النقيب ناتاريو دا فونسيكا الذي غدا زبوناً لدى الحلاق الجديد فإن كرسي دودو بيرويا كانت دليلاً على حقيقة لا تقبل الجدل: لقد بدأت توكايا غراندي تستقبل أناساً متطورين.

وإذ كان هناك طلب دائم عليه، شأنه شأن العديد من البنائين والنجارين لإنجاز أعمال البناء في المزارع، فإن باستياو دا روزا كان يتوقف قليلاً في توكايا غراندي، ولم يكن قد شاهد بنت إمبروزيو منذ شهور عدة. تذكّر تلك الفتاة الصامتة، النحيلة وهي ترفع تنورتها وتركض مع الصغار أثناء المعرض الأسبوعي وعلى مرأى من إخوتها وأبيها. لا يمكن أن تكون هي نفسها التي لمحها فجأة أمامه، ونصفها الأعلى منحنٍ، والتنورة مرفوعة، تعالج الأرض بالمعول، والعرق ينبع من جبينها ويسيل: إن هذه التي أمامه تحفة: جديدة، شهية، وجميلة، كيف تبدو له؟ شبيهة بأغراس الماندیوكا الخضراء.

قبل ذلك كانت الحقول مقفرة، والأرض مليئة بالشوك والأفاعي، ومع وصول السرجيبيين بدأت تزهر أغراس الفاصولياء وحقول الذرة والماندیوكا وتمتدّ الخضار بامتداد النظر. لقد تغيّر كل شيء. لم تتغيّر الأرض وحدها بل الناس كذلك.

كان إمبروزيو وجوزي دوس سانتوس يفصلان التصاميم لإقامة مستودع للطحين وكان لوبيسينيو يصغي ويناقش. كان باستياو يتحيّن الفرصة ويلقي عينيه على الصبية المنكبّة فوق الأرض، تضيء عليها الشمس بوجه قديسة، وجسد ملكة: مع هذه، أجل، تستحق المصاحبة العناء.

7

لم يجرِ الأمر مع كاستور أبدووين على هذا النحو، وبهذه الطريقة، ومع ذلك لم يكن هو السبب في جعل المفاجأة وردّة الفعل بأعنف مما حدث. لقد حدث الإفشاء بسرّ الحقيقة بعد عدة أيام من تحول عائلة النقيب ناتاريو دا فونسيكا إلى مقر الإقامة الجديد عند أعلى الهضبة: كان ذلك المقر هو الدار السكنية الكبرى في توكايا غراندي بحجمها، ورفاهيتها وموقعها. حاملة على رأسها كانت

ديفا تتسلّق إلى هناك، الطلعة الصعبة الاجتياز ولكنها مع ذلك معالجة جيداً بحجارة متناسقة لكي تسمح بخطو لا يتزحلق وعلى الأخص في فصل الأمطار. وبالمقابل يبدو سهلاً إقفال العبور، إلى هناك، على الأغراب، ويكفي لذلك وضع رجل واحد وبيده بندقية عند أي منحنى من منحنيات ذلك الطريق الكثير الاعوجاج. وصدفة، بينما كان يمرّ باتجاه النهر، رآها تصعد، ومتعجباً، توقف عن المسير: إنها، بكل بساطة، لا يمكن أن تكون ديفا، ورفض أن يصدِّق عينيه. لكنها كانت ديفا، أجل، وليست غيرها: وعندما توقفت قليلاً لتوازي حمولتها، رأته عند أسفل المنحنى يقف متجسساً عليها، فاغراً فاه: كانت تبدو، تحت التنورة، عارية الفخذين؛ ابتسم وحرّك لها يده بإشارة.

كان الشعب قد عمّد الهضبة وأعطاها اسم عرزال النقيب، لأنه، هناك عند الأعلى، وكما في برج مراقبة، كان النقيب قادراً على رؤية القرية بكاملها من أسفل المنحدرات مع أكواخ العاهرات، وبيت برناردا وحتى البيوت الممتدة على طول طريق الحمير؛ ومن الفلاة عند موقع المعرض، ومستودع التبن، ومحطّ رحال القوافل، وما يسمّونه بصالة الرقص، إلى مستودع الكاكاو، وإسطبل العقيد روبستيانو ومحل حدادة تيساو حيث يتعلّم ابنه الأكبر إيدو مهنة الحدادة، ومستودع فضول عبد الله قرب شجرة الجاكيرا. وكان بإمكان النقيب أيضاً أن يشاهد بساتين السرجيبيين والسرتونيين، والحقول وحظائر الأبقار وأقنان الدجاج.

كل ذلك، بالإضافة إلى حركة المارة، كان بإمكان النقيب ناتاريو دا فونسيكا أن يراه بعينيه من شرفة دار سكنه. إنه أفضل من جذع المولونغو الموجود، خطوات إلى الأمام، ومن حيث أطلع العقيد بوافنتورا أندرادي على المكان الذي كان لا يزال آنذاك قفراً مهجوراً، ومن حيث استشرف المستقبل: إن هذا المكان سيصبح مدينة في يوم.

لم يكن ينقص إلاّ القليل ليصبح مدينة، وافق العقيد وهو يمرّ من هناك بعد سبع سنوات، وكانت طريقة كلام العقيد واضحة: قرية صغيرة، ينقصها كل شيء لتصبح مدينة. ولكن هو، ناتاريو، عندما وصل إلى هنا في مقتبل العمر إلى شراء الكاكاو، هارباً من عدالة سرجيبي، لم تكن تكاراس أكثر من نقطة لقضاء الليل، ولم تكن المحطة أو السكة الحديدية قد وجدت، ومدينة إيتابونا، هذا الصرح الكبير، كانت لا تزال تسمَّى توباكاس.

لهذا السبب كان النقيب يظل منتبهاً لما كان يجري ويحدث، معطياً رأيه ومتدخلاً إذا اقتضى الأمر. كان قد سلف مبلغاً كبيراً لبناء مستودع الطحين الذي كان يقيمه لوبيسينيو وباستياو دا روزا

لحساب إمبروزيو وجوزي دوس سانتوس، وانضمّ إلى العقيد روبستيانو دي أراجو لتمويل قطع الخشب لإقامة الجسر الخشبي الكبير. في تلك الأعمال وضع النقيب كل عائدات الكاكاو التي كان قد ادخرها، لأن مَن بيده السلطة والقيادة تترتّب عليه موجبات يجب أن يؤدّيَها. هكذا كان يفكّر ويتصرّف قبل أن يبدأ بقطاف الكاكاو بكثير، وهو لم يكد يبدأ بزراعة الكاكاو في بوافيشتا حتى التقى ببرناردا هناك وقد بدأت العمل بالدعارة.

8

لم يحدث ذلك فجأة، أو دون توقع: فخلافاً لباستياو دا روزا الذي مكث أجيالاً دون أن يراها، كان الزنجي يراها باستمرار ويحادثها، وإذ لم ينتبه لهذا الأمر وقع عليه الخطأ، وليس على أحد سواه، ظلّ على احتكاك متواصل بديفا منذ أصيل اليوم الذي رافق فيه العائلة السرجيبية إلى مستودع فضول وأعارها الأرجوحة التي قضت فيها ليلتها المقمرة، وظلّ كذلك حتى اللحظة التي رآها فيها تتسلّق إلى الأعلى، موازية على رأسها قفة مليئة بالخضار والبقالة من إنتاج حقول السرجيبيين هدية من فانجي إلى زيلدا. فقط عند ذلك تمكّن من التأمل في فخذيها العاريتين، وقفاها التي لم تكن مكسوّة جيداً: جسد امرأة مكتملة! ولكي يرى وجهها من جديد، ذلك الوجه الذي رآه جميلاً، وليقيس نمو صدرها انتظر حتى تعود. رآها بجسدها كاملاً، فجنّ جنونه ولم يعد يتعامل معها إطلاقاً كفتاة صغيرة، ولكنه استمرّ في أن يراها بريئة مع ملقط شعر ناقصاً من رأسها.

كانت تأتي سابقاً مع ساو وداندو إلى الفلاة تفتيشاً عن إيدو لتأخذه من عمله ويذهب الجميع إلى الصيد في الغابة، ونصب الفخاخ للعصافير والتقاط ما يمكن.

كان ناندو وساو يدخلان إلى محل الحدادة، ولكن ديفا لم تدخل أبداً. كانت تظل في الخارج وتتطلّع إلى الداخل، وكان تيساو ينظر إلى وجهها الملائكي، ويريح نفسه من عناء المعاناة ويدعوها:

– ألا تريدين أن تدخلي يا آنسة ديفا؟

كانت تجيب سلبياً بإيماءة من رأسها، ودون أن تنتظر الآخرين كانت تخرج راكضة كأنها تهرب: تخافين من أي شيء؟ حباً بالله؟ في البداية استغرب الأمر، وفي النهاية تخلّى عن المحاولة: وكان نادراً اليوم الذي لا تظهر فيه بجوار محل الحدادة، محاولة إخفاء نفسها مضطربة، قلقة. وكانت رجلاها وذراعاها تبدو متّسخة بالتراب والطين.

في الصباح الباكر من أحد الأيام، وبينما هو يدخل الغابة ليجمع صيده كما يفعل كل يوم، فاجأها وهي تتبع خطوته متلطّية بين الأشجار. وكذلك عند النهر، كان يسبح عند غروب الشمس بعيداً عن المنطقة التي تستحمّ فيها النساء اللائي يغسلن الملابس، عندما ظهرت ديفا أمامه وكادت تلمس جسده العاري: كانت ترتدي فستاناً مبللاً يعريها أكثر مما يكسوها. لو لم تكن آنذاك صغيرة جداً لما تمكّن من أن يقاوم. وصرخ: انتبهي يا آنسة ديفا؟ ولكي ينقذها محذّراً من مجرى النهر الصاخب: إن النهر هو مقر إقامة الآلهة المشرفين. فغاصت في الماء من جديد وابتعدت: كانت تسبح مثل سمكة، أو مثل حورية بحر. مبللاً لاقاها وتحدّث معها. كانت ديفا تبتسم وتخفض رأسها وتخرج راكضة ولكنها لا تبتعد كثيراً. أبكم وأصم لم يكن تيساو يفهم الإشارات وتصرفات هذه المخلوقة العجيبة، ولم ينتبه للفخذين اللتين كبرتا واستدارتا، والثديين المشرئبين على نصفها الأعلى المرتفع. لقد ظلت بالنسبة إليه الآنسة الصغيرة ديفا، وهي تركض في الفلوات. ولم ينتبه إلى أنها تخلّت عن اللعب بالكلل ومرافقة الفتيات الصغار وأصبحت تمشي وحيدة أو برفقة أمها وزوجات إخوتها. وحيدة تأتي وتتلصّص عليه في جوار محل الحدادة. لم يكن قد رآها مكتملة الجسد وامرأة ناضجة.

فقط لاحظ التحول ووعاه جيداً عندما رآها تصعد السفح إلى بيت النقيب ناتاريو. تلقّى صدمة وأحسّ بقلبه ممزقاً. قرّر أن يبقى بالانتظار ليتأكّد من الأعجوبة. لمحته ديفا بالتأكيد، واقفاً هناك منبهراً، ولكنها تصرّفت كما لو أنها لم تره ولم تنظر إليه ولم تخفّف خطوها. توقفت دون أن تفرغ حمولتها إلى الأمام وأدارت رأسها إلى الوراء وضحكت كما لو أنها كانت تسخر منه. وليفهم من يرغب في الفهم.

لم يكن قادراً على أن يفسِّر السبب والغاية، والدافع إلى هذا التصرف الذي تصرّفته بلا معنى: الضحكات والعينان المنخفضتان، والهرب والتلطّي، التجرؤ والانسحاب، الإقدام والإحجام.. لقد تغيّر شكلها ولكن حركاتها السخيفة لم تتغيّر. وراح كاستور يحكّ دماغه ليطرح التسعة من العشرة. إذا لم تكن هذه الحركات سخافات أولاد وتفاهات طفولية، فإنها تبدو غير مستقيمة، وفنون امرأة، وغزل فتاة هوى.

منذ رآها تدير رأسها لتنظر وتضحك، منذ تلك اللحظة لم يعد يتملّكه غير تفكير واحد في عقله، ورغبة واحدة في صدره: دون ديفا لم تعد الحياة تستحق العناء، لم تعد حياةً. يئس مع ذلك عندما

أدرك – وكان الإدراك سهلاً – أن باستياو دا روزا كان راغباً فيها. وهذا، بذقنه وشاربه الأشقر، وشعره الكثيف المتدلّي، وسحنته الحمراء الأجنبية، أجنبي أوروبي، لا تركي أسمر تكاد تكون سمرته شبيهة بسحنة خلاسي ريفي – أن البناء يتميّز عنه بمميزات لا تقبل الجدل. وكون ديفا غير فرنسية بل سرجيبية سمراء، فلا بدّ من أن تفضّل الأبيض ذا العينين الزرقاوين بلون التبغ الأخضر. فقط الفرنسيات، كما كان يعرف، ولديه البراهين، كن يعطين القيمة الحقيقية للجنس الزنجي. ومع ذلك لم يلقِ سلاحه: إن الاستسلام والهرب من المواجهة لم تكن أموراً في طبيعته، فكم بالحري في تلك اللحظة عندما تغدو المكافأة على النصر: الحياة نفسها.

9

عندما جاء دورفالينيو ليملأ الماء، التي يحتاج إليها في المطبخ، من البئر، تذكّر فضول عبد الله بشوق زيزينيا دو بوتيا، وتنهّد: فبقدر ما أعادته البئر إلى ذكرى الفتاة كذلك أعاده إليها الفتى دورفالينيو. وكان راضياً: إن البئر ذات نفع كبير، ودورفالينيو قد أمضى حتى الآن سنة في خدمة مستودع الأغذية، واثبت بما لا يقبل الشك نفعه وحسن خدمته. وهو شريف أكثر مما يبدو عليه. ولم يكن لزيزينيا مميزات الجمال كالسمنة وكبر الحجم التي يحبها فضول ولكن أية امرأة أخرى لم تكن لترضيه بقدر ما تفعل زيزينيا. كان لونها أجمل من لون الكاكاو، وجهها أشبه ما يكون بوجه لعبة جميلة، أما جسدها فكأنه تمثال، والتفاصيل الأخرى لا توصف، والقلب عاطفي، وتنهّد من جديد لا يعزيه التصوير.

انتبه إلى أنه كان يفكّر فيها كأنها غدت شيئاً من الماضي، كأنها قد ماتت ودفنت في مقبرة لاغارتو، ولكن لحسن الحظ لم يكن الأمر كذلك. عملياً لا فرق عنده سواء كانت مدفونة في مقبرة أو تعيش في البيت، فهو فقط بالحلم والتصوير كان يستطيع أن يلتقي بها ويسمع كلامها السحري وهي تدعوه إلى لذّة الفراش: تعالَ يا تركي وأرني ما قد نسيته. وكانت تسمّيه بأسماء مختلفة، وتأخذ منه المال، وتحيطه بكل عناية؛ إنه ملاك من السماء ونعمة من الله. وكانت تغني له الأغنيات الشعبية، آه كم هو مشتاق إليها!

كان فضول قد استلم منها أخباراً لمرة واحدة بعدما جدَّت ساعية إلى سرجيبي: كانت رسالة أرسلتها مع حفيدها "دورفالينيو" الذي بدا لدى وصوله فتى مهملاً يرتدي سروالاً قصيراً ووجهه مليء ببثور الشباب وعليه بعض آثار الجرح. وكانت رسالة مكتوبة دون تنقيط وبحروف كبيرة غير

منتظمة وأسطر تعلو وتهبط على الورقة، وفضول يعيد قراءتها مرات ومرات محاولاً أن يفك الرموز وأصبح قادراً على إلقائها غيباً كأنها قصيدة أو آيات من التوراة: "هذه الأسطر المكتوبة تقول لك يا فضول إنها لا تنساك ولن تستطيع أبداً أن تنساك لأنني ليلاً أحلم بك وعندما أستيقظ ولا أراك بجانبي تغرورق الدموع في عيني". في نهاية الصفحة وتحت التوقيع "لك إلى الأبد ماريا جوزي باتيستا". ووضعت كمية كبيرة من النقاط النهائية وعلامات التعجب والاستفهام حتى يتأمّل جيداً في المكان الذي يراه مناسباً.

وأشارت إلى الوقت القصير الذي قضته في توكايا غراندي قبل أن تسافر: "وعندما ذهبت إلى هناك رأيت أنك تضحي بالكنز وأنت تعمل كحمار نقل أثقال، لهذا أرسلت لك حفيدي (دورفالينيو) ابن شقيقتي الكبرى الأرملة والمصابة بالسل حتى يعمل عندك. أي مبلغ ضئيل تدفعه له سيكون لطفاً منك": أفضل له من أن يموت جوعاً هنا.

كان يفكّر في التعاقد مع محاسب يساعده في المشرب، ولكن أين يمكن العثور على رجل ثقة؟ خلال السنوات العجاف كان لديه مجال للنوم طيلة اليوم لو أراد لأن رجال القوافل والعاهرات كانوا يشكّلون غالبية الزبائن وقلما جاءه مارة من هناك. أما ساعة الازدحام فكانت تبدأ بعد الغروب وعند الفجر، لكن حركة العمل مع بداية نضج الكاكاو قد نمت كثيراً: فهو ما عدا كونه مجبراً على الاستيقاظ عند الفجر والنوم متأخراً أصبح عليه أن يبقي أبواب المستودع مفتوحة أثناء النهار، وكان الزبائن لا ينقطعون عن المجيء. إذا كان يريد فعلاً أن يجمع المال فإنه لا يستطيع الإهمال أو النوم مغمضاً عينيه على حلم عميق – إن عليه الكثير من المسافات لاجتيازها إذا أراد أن يملأ الصندوق.

وهكذا استقبل الفتى "دورفالينيو" بانتباه واضح ولكن بحماس خفي: إن زيزينيا دو بوتيا – العناية الإلهية – تنقذه مرة أخرى من مشاكله. ولكنه لم يفسح المجال للفتى بأن يتبيّن مبلغ سروره، لأنه ليس فقط في الاتجار مع الغجر يجب أن يكون الرجل متنبهاً ومتحفظاً: ولكن أيضاً في التعامل مع شعب سرجيبي. ولم يكن فؤاد كرم يتعب من القول إن السرجيبيين هم عرب البرازيل، وفؤاد كرم لم يتعوّد أن يطلق الكلام جزافاً:

– إن أحتاج لا أحتاج، فبإمكاني القيام بالعمل وحيداً. ولكن كون زيزينيا هي التي طلبت ذلك فإني لا أستطيع إلا التجاوب مع طلبها.

واستجلى فضول بوضوح مواهب الفتى: كان الفتى يعرف القراءة والكتابة والجداول الحسابية الأربعة، ويقول إنه مستعدّ لتأدية كل الخدمات والقيام بكل الأعمال مهما تكن سيئة.

– إذاً، سوف نرى. ضع بقجتك في غرفة البضاعة، واسحب من هناك حصيرة لتنام وبعدها تستطيع أن تبدأ. ما هو متعلق بالراتب سنناقشه فيما بعد، سيتوقف الأمر عليك لا عليَّ أنا. إذا أرضيتني فإنك لن تندم.

وأخيراً ألقى السؤال الذي ظلّ مخنوقاً في صدره:

– وكيف هي أحوال زيزينيا؟

كما يريد الله! أجاب الصغير. لم تعد تعيش في بوتيا ولا في لاغارتو. كانت قد انتقلت للعيش في أراكاجو في دار كبيرة أقامها لها الأستاذ بانفيلو فريري: طبيب لا يمارس مهنة الطب بل ينتج السكر ويكرِّره ويقطر الكاشاسا، وكان غنياً فاحشاً وقد تجاوز السبعين من عمره. إنها مصاحبة مع رجل غني وهذا أمر ممتاز. لم يرد فضول أن يعرف تفاصيل أخرى: إن زيزينيا حارة ولن تكتفي مع عجوز سبعيني.

10

أمر فضول بحفر البئر خلف البيت عملاً بنصيحة زيزينيا دو بوتيا. كانت قد أعطته النصيحة مجاناً في المناسبة السعيدة والحزينة في آن عندما قامت بزيارتها إلى توكايا غراندي لتفي بالوعد الذي قطعته وكرّرته مرتجفة. في يوم ما وفي غفلة منك سأظهر فجأة – كانت تقسم بهذا في نزل شاندو في إيتابونا. ولكن اللبناني لم يكن يؤخذ بالسراب ويجيبها: في يوم القديس: "قطعاً لا". ولكن حدث أن والد زيزينيا كان قد نزع خفّيه في لاغارتو ضحية السل أو الكاشاسا، فلماذا استجلاء هذا الأمر؟

في لاغارتو، النساء المتقدمات في السن، المجنونات منهن، والأطفال، لم يكونوا يعرفون ما يجب القيام به وكانوا يحتاجون إليها لتبدأ سكة التيتم: كانوا يطالبون بحضورها ولم يكن يكفي المبلغ الضئيل الذي ترسله في نهاية الشهر. وقبل أن تذهب إلى هناك جاءت تستأذن بالانصراف مستفيدة من مرور قافلة زي رايموندو لتجتاز المسافة على ظهر حمار. وصلت دون أن تعلم بوصولها، وكان فضول منهمكاً في المخزن عندما سمع صراخات حادي القافلة تعلن:

– يا سيد فضول! يا سيد فضول: أسرع إلى هنا وانظر إلى الهدية التي جئتك بها.

منفعلة وضاحكة، تعلّقت زيزينيا برقبته:

– ألم أقل لك إنني سآتي في يوم، أيها التركي ابن "التينة"؟

بعد ذلك ذرفت دموعاً حارة وهي تخبره بموت أبيها الذي كان رجلاً طيباً ولكن لا حظّ له. عندما كان قوياً كان يزرع أراضي الغير ولكنه انتهى إلى الإدمان على الكحول، ولولا مساعدة زيزينيا للعائلة لماتوا جميعاً من الجوع. ومن البنات الراشدات فإن زيزينيا كانت الوحيدة التي تقدّمت في الحياة وازدهرت أمورها وبمعونة الله الذي حماها وحصّنها. لقد ذهبت لتصبح عاهرة في إيتابونا.

لم تكن الساعة مناسبة للترحاب، فالقوافل قد ألقت بحمولاتها، وبدأ الرجال يتزاحمون على غزو القلعة المحصنة ليشتروا ما يأكلونه. وكانت الفتيات قد بدأن يظهرن تفتيشاً عن تعريفة وبلعة كاشاسا. أما زيزينيا فقد أخذت إلى الغرفة حقيبتها النسيجية وجاءت تساعد اللبناني مما جعل الاستهلاك يزداد والجميع يريدون أن يتناخبوا معها ومع الثري اللص، ومن منهم لم يعرف بالآفة العتيقة المزمنة؟

وفي ساعة متأخرة جداً رافقته إلى ضفة النهر حيث جاء فضول معه بالصفيحة ليأتي بالماء الذي يحتاج إليه في البيت وحاجته إلى الماء في ذلك اليوم هي أكثر بكثير بسبب خوف زيزينيا من المرض وقد كانت مصابة بهاجس النظافة. ذهبا متشابكي الأيدي: ولشدّة نعومتها فإن زيزينيا بدت فتاة في مقتبل العمر تتمشّى مع حبيبها خفية عن عائلتها.

– لماذا لا تأمر بحفر بئر فيكون عندك ماء في البيت؟

– إن الكلفة عالية.

– ولكن ما هو أكثر كلفة هو هذا العمل الذي يجب أن تقوم به حصولاً على الماء. ملأ الصفيحة وأراد أن يعدو لأنه كان مستعجلاً التمدد في الفراش: فكم من المرات لحق بها وهو متمدِّد وحاول التغرير بها. وكانت هي تبدو قاسية في الحلم تعرض نفسها ولا تستسلم ثم تهرب من بين ذراعيه وتضحك في وجهه. ها قد أتى يوم الحساب وسيستعيد كل شيء له مع فائدة مركبة.

– هيا بنا.

– ليس الآن.

أخذته من ذراعه وجلسا إلى حافة الماء عند المكان الذي يطلقون عليه اسم حوض النساء يصغيان إلى زقزقات الطيور. ووضعت زيزينيا رأسها على كتف اللبناني العريض وأدخلت يدها عبر

القميص لتحك له صدره المشعر.

– لم أرد أن أذهب دون أن أرى لبناني "التركي".

– ودون أن تغرسي فيَّ السكين. أليس كذلك؟ قال ذلك بلهجة ممازحة دون إمارة تذمُّر أو اتهام.

– جئت أطلب مساعدة، لن أكذب عليك. ولكن ليس من أجل هذا وحسب، والله يشهد على ذلك. إنك "تركي" جلف وجاهل، هل تظن أن ليس لي عواطف؟ ضمّها فضول بين ذراعيه وتأمّل عميقاً في عينيها: الدموع هذه المرة لم تكن بسبب وفاة والدها: كانت دموع الشوق والحب ذرفتها في ليل اللقاء والوداع.

11

استيقظت زيزينيا دو بوتيا في الوقت الذي استيقظ فيه فضول عبد الله عندما بدأت البلابل والزرازير بإيقاظ الوادي فمضى حداة القوافل يشدّون الثيران إلى العربات. إنها ليلة الحلم لا ليلة النوم، ليلة الضحك والتنهدات واللهاث المتواصل والتمتمات والكلام الجميل يقال ويسمع. اقترح عليها فضول أن تظل نائمة، وإذ كانت قد وقفت فإنها رفضت الاقتراح:

– سأذهب لمساعدتك.

وانتبهت إلى حجم السرير الكبير فعثرت على نقطة اتهام بصوتها الناعم:

– كان هذا هو المكان الذي أوت إليه يسرى رباط، أليس كذلك؟ لقد قضت فيه كامل بعد الظهر.. يا لها من عاهرة مقنعة.

كان قد مضى زمن طويل على ذلك ولكنها كانت لا تزال تتذكّر بألم وحقد. ولمسها اللبناني بيده الغليظة:

– امرأة مثلك لا يوجد، ولن يوجد.

نزعت زيزينيا عنها ثياب النوم واختارت شيئاً تستعمله. ولكي تقدّم الكاشاسا في تلك الساعة المبكرة فقد ارتدت أفضل ما عندها من ملابس العيد. كانت تهيئ نفسها كما لو أنها ستذهب إلى إيلايوس وليس إلى ذلك المكان في آخر الدنيا.

عندما انتهت الحركة، ومباشرة بعد الحمام في النهر، واللحم المجفف المقلي، خرجا يتمشيان في الدسكرة الجديدة. وكانت فتيات الهوى يسترقن النظر إليهما عبر فتحات الأكواخ الخشبية ثم يحيينهما بأصوات عالية. ومازحتهما كوروكا عندما مرّت بهما في أسفل السفح:

– هل صاحبت يا سيد فضول: أهنئك فقد أحسنت الاختيار. – ثم وجّهت الكلام إلى الزائرة: – إنك زيزينيا، أليس كذلك؛ أنا جاسنتا، وعندما يسافر السيد فضول لرؤيتك أبقى للاهتمام "بالقلعة الحصينة".

– لقد جئت لأودّعه، وسأذهب إلى سرجيبي. إن فضول يحدّثني دائماً عنك، ويقول إنك تساوين عشرة رجال.

– لطفاً منه.

اجتازا توكايا غراندي من أقصاها إلى أقصاها، وتعرّفت زيزينيا بالعجوز جيرينو وميرنسيا ولوبيسينيو. وكانت قد تعرّفت سابقاً بكاستور. وعندما عادا إلى البيت اختصرت زيزينا رأيها:

– إنهم فقراء كسكان بوتيا حيث ولدت. ولكن بوتيا بدلاً من أن تتقدّم فإنها تسير إلى الوراء مثل روث الحصان. ولو كان بإمكاني لبقيت هنا معك في الصباح التالي.

صرف فضول رجال القوافل بينما كانت هي على الصندوق تمارس العمل بين ضحك وممازحات. وعندما بلغت القافلة الأخيرة الطريق العام فإن اللبناني أعطى مفتاح البيت والمسدس إلى كوروكا وسرح الحمارين ليرافق زيزينيا إلى محطة سكة حديد تاكاراس.

اجتازا الطريق صامتين، حزينين كأنهما سيفترقان إلى الأبد. وعندما صعدت إلى القطار، ذكرته زيزينيا وهي تضرب على صدره بإصبعها:

– أوصِ بحفر البئر، لا تنسَ.

ولم تسعَ إلى إخفاء دموعها:

– شكراً للمساعدة الكبيرة. – وبذلت جهداً لتبتسم: – ولكل شيء. ولم يعد ممكناً السيطرة على التنهدات العالية والمؤلمة.

مدَّ اللبناني يده إلى جيبه، وسحب منه منديلاً كبيراً، وناوله إلى زيزينيا التي غطّت وجهها به حين وضعت رجلها في حافلة القطار.

أراد فضول أن يتكلم، فلم يستطع. صفّر القطار وبدأ يتحرّك، وكانت زيزينا دو بوتيا تقوم بحركة الوداع ملوّحة بالمنديل الزهري.

برهن دورفالينيو على أنه قدم ثور، لا يكلّ من العمل، وشريف، بالإثبات: كان يخفي قطعة من النقود المعدنية لتغذية ميوله إلى المبغى، من حين لآخر، لكن قيمتها كانت ضئيلة إلى حدّ أن فضول لم يكن يقيم لها حساباً. ما عدا ذلك كان "عرنوقي" الشكل، طويلاً نحيلاً، فضولياً، يحب التدخل في كل أمر عادي، ملك الألقاب، بسبب طوله غير الطبيعي، ولسانه المنطلق على عواهنه: "عصا سمسم، قصبة صيد، خذ واجلب، جنابك سترى وأصبح على علم". كانوا ينادونه بهذه الألقاب مع علامة استفهام في صوت المنادي. وكانت تلك هي ألقابه الرئيسية، وهنالك أخرى أقل تحقيراً وأكثر شاعرية: "ضرطة التركي"، "خراء العاهرة"، "براز الكلب"..

ولم يكن هناك عاقل ليحاول مزاحمة بيدرو سيغانو على ما له من صيت ذائع لتلك النجاحات التي حقّقها في تلك المجاهل النائية، وفي تلك الأرض الواسعة الممتدة عند نهر الأفاعي، مع ملكيات لا حصر لها، ونقاط استراحات ليلية، ومسالك وقرى ونواحٍ. وعارضاً بسعر بخس ألحان هوايته، دليل الفرح ووجود العيد، فإن بيدرو سيغانو ذا أرجل المهارات السبع، كان يطوف في الطرقات، حاملاً، من موقع إلى موقع، آخر الأخبار، وأحدث الأنباء: من مات، ومن وُلِدَ، الدكان الذي فتح حديثاً وهذا الذي أقفل أبوابه، العراكات، أعمال الشغب، المصاحبات، نزاعات المستزلمين، غزو الأراضي، مذبحة الهنود، بيع البساتين والمزارع، منتجعات العاهرات، ومحطّ رحال اللواتي يتجوّلن مثل عازف الصنفور هذا وكان يستحق الثقة لأنه لم يكن يستنبط، ويكتفي بحسم جزء من الاسترسال ومن حجم الحبكة: ولكنه حين يعدّ فإنه كان يرفع العدد، ويضخّمه، وخيط الوبر الواحد يتحوّل إلى لُبْدَة أسد.

وفيما هو ضمن حدود توكايا غراندي، لم يكن أحد يرفع يده على دورفالينيو الموجود عند الحوادث الطفيفة، والمشادات الكلامية مع الفتيات، والخلاف العابر بين رجال القوافل في حفلات الرقص، ومجون العاشقين: لم يكن يقع حادث في توكايا غراندي دون أن يعرف به دورفالينيو ويشير إليه. "خذ واجلب"، كانوا يقولون عنه ليشيروا إلى طبيعته، ولكن ما عدا الأخذ والمجيء بالأخبار وعادة المغالاة التي يشبه فيها بيدرو سيغانو – يجب أن يضاف إليه من الصفات ما يشير إلى عادته المزمنة بمعرفة تطور كل موضوع قبل حدوثه، معلناً عما سيلي ذلك الحدث؛ ما عدا "خذ واجلب"، لقّبوه أيضاً بلقب "جنابك سوف ترى".

شكل مألوف عند أسفل المنحدرات، وكان يضع نفسه باستمرار في المأزق نتيجة ملاحظاته "وأنهم يقولون في الجوار"، واهتمامه بالهمس والشائعات، ولكن على الأخص بسبب ادعاءاته التي لا أساس لها وتكهناته بكل الأحداث. كان قد انصرف عدة مرات حاملاً على قفاه الرفسات وعلى رقبته الصفعات القوية من العاهرات اللواتي اعتبرن أنفسهن مطعونات في كرامتهن أو معتدى عليهن بالكلام من "قصبة الصيد"؛ ومع ذلك، كان بشكل عام، يصل فيرحّب به بفضول وعطف عندما يدرك المبغى بهيئته الغريبة وسؤاله التقليدي: هل عرفت بالخبر الجديد؟ ولكي يعرفوا كانوا يحيّونه عندما يلوّح برجليه الطويلتين وعينيه الزائغتين.

وبفضل دورفالينيو، غدا فضول يعيش برفاهية الكبار: لم يعد مضطراً إلى النهوض قبل شروق الشمس ليستجيب لطلبات رجال القوافل، فقد ألقى تلك المهمة المتعبة على عاتق دورفالينيو. كان قد أخذ يصل إلى المشرب بعدما يخفِّف من عبء معدته ويسبح في النهر ويتناول وجبة الصباح المكوّنة من القهوة وطحين المانديوكا وأقراص السكر والجابا. كان مستعدّاً ليصغي، وفي نفس الوقت مع "صباح الخير" القلبية، إلى الأنباء والتعليقات وتكهنات الخادم الذي لم يكن يذهب إلى البيت، إلى النهر أو السخان، قبل أن يفرغ جعبته:

– جنابك تعرف ما يحدث بين تيساو وباستياو دا روزا بسبب ديفا؟ الجميع يعلمون بذلك..

كان فضول يعلم أيضاً، لأن دورفالينيو نفسه كان قد لفت نظره إلى الاهتمام بأمر الشخصين المذكورين اللذين كانا يحومان حول ابنة إمبروزيو وفانجي، ويحاولان قص جناحها، على مرأى من الجميع. ومع ميل إلى القمار هو ميزة سكان توكايا غراندي – المقيمين، والعابرين عبرها – كانوا قد راهنوا على أي من الاثنين سيربح الشوط باللطائف واللباقات ويقتحم أولاً عذرية السرجيبية المغرية؟ أن تكون ديفا عذراء فمسألة لا تقبل الشك حتى لدى "جنابك سوف ترى"، و"أصبح على علم". ولكن لساناً سليطاً وسامّاً أوحى ببعض الشك في هذا الموضوع: عذراء حتى اللحظة التي قام بها كاستور أو باستياو بتقديم الخدمة لها. كان الرأي العام يرى نفسه مقسوماً إلى قسمين فيما هو متعلق بالحدث، ولكن دورفالينيو كان صاحب وجهة نظر أكيدة، لا يقبل مناقشتها:

– ألا تعتقد "جنابك"، أن باستياو سيربح الشوط بمسافة بعيدة؟ إنه غباء من جانب تيساو أن يفكّر أن ديفا ستفضّل زنجياً بشعاً، أبله، على أبيض يبدو كأنه من عرق ألماني! إن السيد كاستور يخرج خاوي الوفاض من هذا النزاع "وجنابك سوف ترى". والكلام بيننا.

– إنك تعتبر تيساو بشعاً لأنه زنجي، ولكن ألا ترى أنه بالنسبة إليك ينقصك القليل لتصبح مثله.

– كان دورفالينيو أشدّ اسوداداً من عمّته الغلاسية ذات اللون الشبيه بالكاكاو الجاف: – إن اللون لا يصنع الجمال ولا البشاعة لأحد، ويمكن أن يكون جميلاً من الأسود والأبيض: خفض صوته كما لو كان يتكلم مع نفسه:

– لو كانت زيزينيا بيضاء لما كانت جميلة إلى هذا الحدّ.

وبهروب ذهني مفاجئ عاد فضول يراها على البار تصبّ الكاشاسا لرجال القوافل، وبعدما أنهى الكلام تضاعف الارتباك الذي سببه الثرثار:

– أجل إني أراهن على المال الذي تسرقه مني أن تيساو سيربح. – ابتلع دورفالينيو ريقه:

– الذي أسرقه؟ لا تقل هذا وإن بمزاح. أقسم بالله! – وإذ أقسم بالله عاد إلى أطروحة ولهه:

– إذا كان "جنابك" يقول إن تيساو هو المنتصر، فلست أنا من سيشك في الأمر. إن ريسو ذات رأي واحد، وهي مجنونة به.. كل قضية!! ولكن "جنابك سوف ترى": إن هذا النزاع سينتهي بشكل سيئ، سينتهي بمبارزة... "جنابك سوف ترى".

13

كان يقع شجار بالأيدي، أو عراك جسدي، أو مشادة كلامية، باستمرار، وفي أغلب الأحيان بسبب اللعب بالورق أو الخلاف بسبب امرأة. وكانت كل تلك الأزمات مجرد ضجيج لا يلبث أن يخفت، فلا تستدعي القلق والتعليق. كان يحدث أن اثنين يستغربان المراهنات على طاولة القمار، أو في مقر فتاة هوى: فيتبادلان الشتائم ويتحدّيان واحدهما الآخر. ولم يكن الأمر يتعدّى ذلك، فيتدخّل الآخرون لتهدئة الموقف. ومع هذا كله فقد تمّ تسجيل بعض المواقف الحساسة التي أعقبها صدام خطير.

أخطر تلك المواقف، المسجلة في ذلك العيد الاحتفالي للقديس أنطونيو كان عندما تلقّت كوتينيا الرصاصة في رأسها ووقعت ميتة في الحال. أموات آخرون حملوا، ليزيدوا من عدد الصلبان إلى المقبرة، ولكن اثنين منهم فقط حملا إلى هناك نتيجة التطور الذي حدث في القرية: اثنان من القتلة المأجورين دخلا في عراك بسبب الفتاة سيباء التافهة، البائنة العظام، والتي لا قيمة لها. وبسبب هذه الخرقة من الفتيات انتهى أحد المأجورين إلى أن ينزف دماً فتمّ دفنه على عجلة دون أن يرافقه أحد، بينما الآخر، الذي أصيب بإعاقة، اختفى في الغابة ولم يعد أحد يعرف عنه شيئاً. وحادثة هي

الأخرى تافهة – هل التكرار ضروري؟ – إذ إن مستزلماً قتل أحد مساعدي حداة القوافل الذي حاول أن يغشّه في القمار: إن القمار والمرأة كانا دائماً السببين الوحيدين كما يمكن ملاحظته. بالإضافة إلى هذه القبور فإن المقبرة قد نمت واتسعت بسبب الأفاعي والأمراض التي كانت تشيع ناشطة في كل منطقة الكاكاو.

وكانت امرأة موجودة تعاني من ألم في معدتها قد أطالت استعمال جسدها في الطريق فوقعت ميتة بينما يذهبون بها إلى إيتابونا متعاونين على حمل الشبكة التي وضعت فيها، فعادوا ليدفنوها في القرية بعد أن قاموا بحفلة توديع للفقيدة متناولين كميات كبيرة من الكاشاسا بالمناسبة. وكانت حفلة التوديع قد استمرّت طيلة الليل بسبب تعاون رجال القوافل وفتيات الهوى. ونظراً لعدم وجود كاهن، فإن فضول عبد الله، رجل كل المهمات، غسل الجسد باهتمام وعطف وراح ينشد باللغة العربية، مجاناً: لم يكن فضول يتلقّى بدل أتعابه الدينية، فالإله الصالح سيضعها في حسابه في يوم الحساب.

وحدثت أيضاً خلافات ذات طابع عنيف لم تنتهِ إلى مأساة دموية، مثلما وقع عندما قرّر فاليريو كاشوخاو، مساعد أحد حداة القوافل، والذي لا يتحمّل تناول الكاشاسا، أن يمارس حرياته مع امرأة شيكو أشيبينييرا الذي مع زوجته، باتجاه تاكاراس، قرّرا أن يقضيا الليل في الفلاة هناك. كان شيكو أشبينييرا هو نفسه ذلك الشخص الذي أرسل إلى محكمة إيلايوس موقوفاً، عند نهاية الصراعات، متهماً بقتل جوستينو ماسييل واثنين من أزلامه، وكان التركي وحادي القوافل مانينيو قد تدخّلا في اللحظة المناسبة لمنع الأسوأ: كان شيكو أشبينييرا بإحدى يديه قد أمسك فاليريو كاشوخاو من عنقه، وبيده الأخرى راح يشتغل بهدوء مستعملاً رأس الخنجر الحاد. ثم غسل فاليريو كاشوخاو بالدم ولكنه نجا بحياته.

وإذ كانت توكايا غراندي لا تزال في بداياتها، فإن اثنين من القتلة المأجورين كانا قد وصلا إلى هنا معاً مستعدين للتخفيف من حدة متطلبات الطبيعة الإنسانية، فإذا بهما يتبادلان الطعن بالسكاكين فجرح واحدهما الآخر لمعرفة من الذي سيمضي الليل مع برناردا. كانا قد شاهداها في دكان التركي ولكنهما لم يكلماها: فلو أنهما استشاراها قبل العراك لما كانت تلك الطعنات بالخناجر لتحدث، لأن برناردا كانت متوعكة، ومقفلة مطارحها في تلك الليلة. مجازفاً بنفسه لأن يتلقّى ما هو أكثر من الطعن، فقد تمكّن فضول من أن يبعد الخصمين العنيفين عن بعضهما بعضاً، ولكن لماذا

يكونان خصمين إذا لم تكن برناردا قد أظهرت أي اهتمام بأحدهما؟ وانتهى الاثنان إلى السلام المصنوع حديثاً عندما قرّرا أن يتخلّيا عن السَّخْلَة. وغسلت لهما كوروكا جروحهما بالكحول وعزّت أحدهما، بينما سحب الآخر دليلة معه، وهذه أيضاً لها قدرها نظراً للمغالاة في طريقة عرض نفسها.

منذ وصلت برناردا إلى توكايا غراندي تسبّبت في شجارات متتالية كانت تحل "بالطرّة والنقشة" أو بالورقة الأقوى المسحوبة من ورق اللعب، ولكنها حين حملت رتبة الحماية التي ميّزها بها النقيب ناتاريو دا فونسيكا، فإن الكاعب الجميلة لم تعد موضوع مراهنة وتحدٍّ. أصبح بمقدورها أن تستفيد من الوضع وتعطي لنفسها القيمة بالاستجابة فقط لمن تريد أن تستجيب في الأيام المخصصة لكسب العيشة. كانت تخصّ ثلاثة أيام للعرّاب منذ أن يعلن عن مروره المقبل: مساء يوم وصوله لتتمكن من استقباله باطمئنان وراحة، ويوم السعادة التالي الذي يليه اليوم الثالث الذي يخصّص لذكرى الأهم وذكرى التفاصيل، كل كلمة، وكل حركة، وكل ابتسامة غامضة، وكل ضمّة من ضمّاته القوية، وتنهيدة وارتخاء. كانت حياتها تتلخّص بهذه الساعات من المغامرات التي تقضيها برفقة طيبة.

هذا هو سجل التحديات الأكثر جدية، والحوادث الأعنف، والقتلى والجرحى: فهي لم تكن كثيرة، ولم تقتضِ الكثير من التعليقات الحادة، ولم تنهمر بسببها الدماء بكثرة. أما الأحداث الصغرى، والصفعات الخفيفة فقد تعب فضول عبد الله من فضّها بالصراخ وهو يفوض أصله العريق كتاجر أو كدائن بالفائدة، وأحياناً كان يفعل ذلك بالقوة الجسدية. في عالم الكاكاو المجرّد من الإنسانية، إذا كان لتوكايا غراندي سمعة سيئة لم تكن تستحقّها فإنها مكان هادئ، وموضع آمن لقضاء الليل: منظر بديع بعد المال، ومتعة سهلة.

14

لم يكتفِ دورفالينيو بتوقع عراك لا بدّ منه نتيجة استعدادات كل من باستياو دا روزا كاستور للحصول على متع الآنسة ديفا: فقد سجّل تاريخ ومكان الحدث الأكيد الذي سيقع، بشكل مؤكد، يوم الأحد، خلال الحفلة المعلن عنها في توكايا غراندي للاحتفال بحضور زوجة لوبيسينيو المواطن الشريف. لم تكن زوجة لوبيسينيو، السيدة إيستر، اللئيمة المملة، مثيرة القرف، تحب الرقص. كان استئناسها الأكبر يقوم على الأحاديث مع الجيران عن الأمراض وفعاليات الصلوات التي لا تعدّ.

خلال سنوات طويلة كانت السيدة إيستر ترفض أن تقيم في توكايا غراندي مصرّة على البقاء في تاكاراس، في حين كان زوجها وابنها يجاهدان بلا تعب في مجاهل العالم. وفي النهاية، وقد لاحظت أن لوبيسينيو أصبح قليل الذهاب إلى محطة سكة الحديد، مرسلاً إليها مع أحد رجال القوافل الضروري للمصاريف، قرّرت أن تأتي إلى توكايا غراندي لقضاء بضعة أيام مع زوجها العاق وتعطي البركة لابنها الذي رافق أباه صغيراً ليتعلّم مهنة النجارة؛ حذقاً ومجتهداً، كان زينيو يدّعي أنه سيصل إلى درجة حفار خشب كما كان يفعل غيدو:

– نجار، وكفى! صحِّح كلامك، فأنا معلم الحفر الوحيد.

لم تكن السيدة إيستر تحب الرقص ولكن ليس بسبب هذه الرذيلة لم يكن الشعب مستعدّاً للتراجع عن الاحتفال. إن فكرة الحفلة الراقصة انطلقت من الزنجي تيساو الذي، كما تمّت معرفته، كان همّه الاحتفال بحدّ ذاته أياً كان السبب أو الغرض. فكم بالحري في تلك المناسبة: أنه سيستغل العيد ليستجلي الأمر الذي يشتدّ غموضاً عليه أكثر فأكثر – وسيعرف لأي من المزاحمين سيميل التفضل لدى ديفا إذا كان هناك تفضيل. من الصعب معرفة الأمر لدى هذه المخلوقة الغامضة والنزقة: تارة تبدو مسترسلة في الضحك، وطوراً تصمّ أذنيها، وتقطّب وجهها وتبدو حردة. لقد قرّر الزنجي وحده الإعداد للعيد دون أن يستثير أحداً عندما شاهد، على طريق الحمير، الرجل الذي هو دائماً موضع ترحيب: بيدرو سيغانو.

لم يعد بيدرو سيغانو، منذ زمن طويل، وحده العازف على الهرمونيكا لإحياء حفلات الرقص للسكان. فأيام الآحاد بدأ يظهر هناك عازفون آخرون على الكمنجة والأكورديون والناي، ولكن السكان لا يزالون يعتبرونه الأفضل ودون اعتراض أحد، وأبعد من ذلك كان يكتفي بأي شكر، ولم يكن يفرض شروطاً صعبة ليستلّ آلته ويلاعب عليها أصابعه مخرجاً منها روائع الألحان.

غجري لكونه بدوياً، اليوم هنا وغداً هناك والأكورديون على كتفه، فإنه كان يظهر تفضيله لتوكايا غراندي، الموقع الجميل، ومتعة الأنظار التي عرفها منذ زمن سحيق وبوقت طويل قبل وصول التركي فضول. لم يكن هناك غير كوروكا تستقبل رجال القوافل وكانت القوافل تلك تبدأ لحطّ الرحال في تلك الشعاب لتختصر الوقت وتقتصر الفراسخ للرحلة الطويلة.

في روحاته ومجيئاته شاهد بيدرو سيغانو نمو المكان وتكاثر الأكواخ عند أسفل المنحدرات وتناثر البيوت على طريق الحمير ومستودع الكاكاو ودكان التركي وبيت التبن والإسطبل ومحل الحدادة.

ولم يتخيّل قط أنه ستقوم عند الضفة الأخرى من النهر البساتين الواسعة، ومقرات الإقامة المسقوفة بالقرميد، ومستودع الطحين والحيوانات الأليفة المتناثرة في الفلوات. أما بيت النقيب فلم يفاجئه لأنه كان يسمع الأخير يؤكد أنه سيأتي للعيش هنا مع عائلته. وبغية تصديقهم فيما يقولون بفم صغير وهمس أصغر – لم يكن أحد مجنوناً ليتكلم عن هذه الأمور بصوت عالٍ – يجب القول إن النقيب وصل قبل الجميع وقبل أن ينال رتبة وأرضاً مزروعة بالكاكاو عندما كان لا يزال مستزلماً على رأس مستزلمين يرافقهم الموت خادماً ورفيقاً.

في تلك الأثناء، وبينما تتحدّث مع كوروكا، وضعت برناردا بيدرو سيغانو في مصاف الرجال الجميلي الشكل في توكايا غراندي: هو، فضول، باستياو دا روزا والنقيب نفسه. لم يكن اسم كاستور أبدووين على اللائحة لأن الحداد لم يكن قد بلغ المكان، وشهرة جميل لم تصله فقط بذكرى برناردا، فالكثيرات من فتيات الهوى كنّ من الرأي نفسه: وكانت لائحة عشيقات الموسيقى طويلة، وكذلك المصاحبات على طول نهر الأفاعي، وحيث تجد نصف دزينة من الغرف المحصنة فتيات يمارسن المهنة شبقات إلى العطف والتعاون.

15

عند خشبة مشرب التركي، علم بيدرو سيغانو، على لسان أمين الصندوق دورفالينيو، عن الأزمة الحادّة التي تجعل الزنجي تيساو وجهاً لوجه مع الأشقر باستياو دا روزا وعن المأساة التي ستنتهي إليها الأزمة كما يتوقع "جنابك سوف ترى".

كان بيدرو سيغانو قد أمضى وقتاً طويلاً دون أن يأتي إلى توكايا غراندي، منشغلاً بإحياء الحفلات الدينية خلال بعثة إلى أغواسيكا، كورتا ماو وإيتاباري: كان على رأس البعثة أخ ألماني خبير بتضخم الآلام في جهنم، ولم تكن أية كمية من الطعام لتكفيه، ولمواجهته لم يكن هناك غير الكاهن أفونسو، فهل تذكره؟ أشار إلى البناء على الضفة الأخرى من النهر، وكان ذلك على وشك الانتهاء:

– ما هذا الذي هناك؟

– إنه مستودع طحين إمبروزيو دوس سانتوس. أوضح فضول:

– سيصبح الطحين متوفراً بكثرة.

– إن الذي يبنيه هو السيد باستياو. استطرد دورفالينيو:

– إنه يقضي يومه هناك، قربها.. قرب ديفا.. بالنسبة لي فإن تيساو قد هوى عن ظهر الحصان ووقع في المصيدة..

لم يشارك بيدرو سيغانو فقد كان مهتماً بتقدير نمو القرية:

– نعم يا سيدي، من الذي كان يقول. مدَّ الكأس الفارغة بانتظار جرعة جديدة، ولاحظ بعد ذلك أنه لم يجرِ محادثة منذ زمن طويل مع صديقه فضول.

– لقد بدأ الكاكاو يتوفّر.. قال التركي وهو يقيس رغماً عنه الجرعة المجانية، ويفسِّر ما كان الواحد والآخر جاداً في معرفته. تبارك الله! – زمجر ثقاب العالم.

كانت زمرة من الفتيان قد مرّت مسرعة أمام الباب تاركة وراءها الغبار في وجه فتاة ترميهم بالشتائم: يا أبناء الزانيات، وأصحاب القرون، وبينما يشير إليها بإصبعه أراد الموسيقي أن يعرف من كانت.

– إنها ابنة التاميراندو – ساو... كان قد نزعها من رأسه. إنها تعيش مع الفتيان ولن تتأخر في أن تحمل بطناً منتفخة. – توقّع فضول.

تابع بيدرو سيغانو نظر دورفالينيو في فراغات الزمن. ولم يكن التعليق على حياة الآخرين، وحده، هو الذي يشغل أمين الصندوق. وابتسم ملك الطرف، مستأنساً. أما الفتاة الصغيرة، وبغية الهرب من الاضطهاد، دخلت إلى الدكان ووقفت قرب التركي مذعورة. وتحت الفستان الشفاف الذي كانت ترتديه كانت تعرض روعة الجسم المراهق.

– لا تتركهم يأخذوني يا سيد فضول. إنهم يريدون استغلالي.

في الخارج، كان يقف ناندو، وإيدو وأخو بيبا ذو الإحدى عشرة سنة، ابن النقيب، لا ابن زيلدا، الأم بالتبني، ينتظرون. كانوا متأكدين من أنها ستعود لإثارتهم بعد أن تشرب ماء البئر التي سكبها لها خادم فضول في كأس لا تزال ملوّثة بالكاشاسا. ولكنها حين رأت بيدرو سيغانو قلّلت ساو من مناورات المزاح ومن كونها سخلة عمياء ونظرت باحتقار إلى الفتيان الصغار الذين كانوا بالانتظار. جلست على الأرض مطلقة رجليها بارتياح، ومدّت لسانها للأولاد، وضربت يدها على ذراعها بحركة أرسلت لهم معها الموز وتناستهم. الفخذان مبتعدتان الواحدة عن الأخرى، والضحكة واقفة على فمها المفتوح ومتصالحة مع الحياة، قالت:

– أسيكون هناك رقص؟ إنه الشيء الذي أحبه في الحياة أكثر مما عداه.

16

بثرثرة شبيهة بحجر رحى تتوقف جعجعته، كان دورفالينيو يعلن دون توقف عن الخلاف الذي يضع بتيساو وباستياو دا روزا وجهاً لوجه، ويناقض نوايا الاثنين، ويقدِّم التوقعات، ولكنه لم يكن يقبل بالرهان لعدم توفُّر المال لديه ولكنه، كأنه يقفل فمه كان أبكم وأصم، إذا حدث أن سمع إشارة متعلقة بمن سيأكل، وقريباً جداً، العشرينات الثلاث للفتاة ساو. كان هو أحد المرشحين لذلك سراً لا علناً، ولكن ليس لهذه السرية كان يفضل عدم المفاتحة في الموضوع. ففي هذا الموضوع الخطير عن المرأة كان يترك الأمور، متجاهلاً إياها، للآخرين الذين كانوا يجدون اللذّة في الحديث عن مغامراتهم. وفي صمته ذاك، ودون أن ينقطع عن تأدية الخدمات كان يلاحق الفتيان الأكثر تعاسة في المبغى، اليوم واحدة، وغداً أخرى. وفي حالة ساو، العذراء الممشوقة، لم يكن ينقص مزاحمون مشتعلون وعارضون لأنفسهم. ضمن هذه الزمرة، دورفالينيو.

لم تكن ساو تحسب حساباً لإيدو وناندو، أقل منهما بيبا، فهؤلاء تنقصهم الكفاءة. وفي تعب العدو لم يكونوا يصلون إلى أكثر من الملاحقات، والالتصاقات، والأجساد المتشابكة، وعندما كانوا يحاولون أن يرفعوا تنورتها كانت ساو تهرب منهم.

كان المزاحمون الآخرون الحقيقيون من الشباب الذين بلغوا سن الاكتمال ممن كانوا قد عاهدوا فتيات المباغي ولم يكونوا يلتجئون إلى غير ذلك إلا في الحالات القصوى. اثنان من هؤلاء، بنوع خاص، كانا يشغلان بال دورفالينيو ويبدوان موضوع اهتمام ساو التي كانت تثير مشاعرهما بقدر ما يثيران في دورفالينيو، الأول هو السرجيبي أوريليو ذو القامة العالية الذي بدأ مؤخراً بتعلم العزف على الغيتار. أما الثاني، زينيو، فكان يقيم في المكان من زمان، ويبدو دائماً نظيفاً وحسن الهندام، وصاحب حركات مرهفة، ومتكتماً، بالإضافة إلى أنه لم يكن كثير الميل إلى التهتكات. فمن منهما سيكون صاحب الحظوة؟

وحده الله الذي صنعها هكذا، مجنونة، يستطيع أن يقول إذا كانت ساو تحسّ حقاً بالميل لأي منهما. من المؤكد أنها لم تكن تحتقر أحداً، حتى الفتيان؛ حمقى جهلة، والذين لا تخدمهم جيداً، هؤلاء الفتيان، بالرغم من كل شيء، كانوا يساعدونها في تمضية الوقت ويشعلون فيها النار. إن ما هو متعلق بالمراهقين الثلاثة الذين كانوا يرعونها ويسعون إلى قطفها في ظلال الغابة أو تعرجات النهر، وبينيو، وأوريليو، ودورفالينيو، فإنها كانت تتركهم في حالة نزاع، الماء في أفواههم والعصي

في أيديهم. كانت تترك لواحد أو آخر المجال للالتصاق بها خارجاً ولكنها كانت في اللحظة الحاسمة تجد دائماً طريقة ما لتهرب.

لو أعطي لأحد أن يتكهّن بما يفكّر فيه لعلم أن الميل، والرغبة، والتوقد، لم تكن لتحسّ بها ساو نحو رجل بل نحو ما يميّز الصنف الذكوري، لا فتيان ولا مراهقون، بل رجال، ناضجون، فحول، وزِيَرَة. مختبئة وراء الأشجار حدث لها أن رأت فضول وكاستور يبدلان ملابسهما فقدّرت عندئذ خصائص الرجل حق تقديرها. وفي إحدى هذه المرات تمكنت من المقارنة: كان الاثنان معاً يتحدثان؛ (خاصة السيد فضول – ما شاء الله – هي العجب العجاب، فكأنها خاصة حصان. أما كاستور، فيا مريم، لعل خاصته هي التي جعلته يحمل لقب تيساو). لهؤلاء ومعهم، فإنها مستعدّة لكل شيء. وكذلك مع عازف الصنفور الجميل كالكلب.

17

هرباً من الموت المحتّم، كان كاستور أبدووين قد أبحر في زورق شراعي من مرفأ باهيا، وخلال الليل لمح يد الإلهة جاناييينا على ضوء القمر، تمسح آثار خطواته المضطهدة. الشعر، خصلاً، في تهدبات الأمواج، والعينان الدافئتان في سماء النجوم، وعلى البطن الفضي موكب اللاهثين. الخُطّاب الذين اختارتهم من الربابنة والصيادين، وأكثر البحارة شجاعة، كانوا يرافقونها إلى ليلة الزفاف في أعماق البحر: أراضي الإلهة أيوكا. و"لإيمانجا" وجهان، وجه الولادة وجانبية الموت. كان كاستور قد أبحر إلى الحرية في المياه التي تنساب من ثدييها، محكوماً عليه بالموت، فإنها أنقذت حياته لأن إيمانجا أم وزوجة.

عندما وصل إلى إيلايوس، دلّه الكاهن أرولا على الشاطئ الذي يقع عنده مسكن "إيمانجا"، وهو كناية عن مغارة في الصخر تدخلها الأمواج. وكان قد جاءها بهدية رقيقة: أنبوبة من العطر، وصابونة، وإزار للشعر أزرق اللون.

أميرة البحر، وسيدة العواصف، فما الذي جاءت تفعله عند تلك الحدود الضيقة في مياه النهر الآسنة؟ كان الزنجي كاستور أبدووين دا أسونسيون، ابن الإله شانغو، مع زمرة أوشالا وزمرة أخرى لأوشوسي، يحفر بالنار في المعدن الأبيض، بأدوات عمل بدائية، معطياً شكلاً وحياة لحورية البحر، وسط الصفيحة المستديرة. كان المعدن الذي تحفر فيه إيمانجا من الفضة البيضاء، ومن الذهب ذاك الذي تحفر فيه أوشون، ولأنه لم يكن يملك فضة وذهباً، فقد حفر واحدة في صفيحة بيضاء،

وأخرى في صفيحة صفراء. وكانت الجميلات يستعملن هذه المحفورات في حفلات المشرفين من أتباع الإلهتين عندما يأتيان ليرقصا مع الشعب. كان تيساو يرغب في وضع محفورته بين مقتنيات بيت العبادة: ومن يدري، فربما، إذا وضعت في بيت العبادة، تأخذ بيدها الصفيحة التي لا مثيل لها وتضيء هناك الفجر والفرح.

إذا كانت قد جاءت من النهر، مشتاقة إلى مملكتها، فإن الآلهة أوشون أعلنت نفسها وسيادتها، واستوت على أرجوحة النوم والحلم. ولكن أوشون، كما نعلم، نحن الأتباع، من "إيكيديس" و"أوغونات"، هي الأناقة والإثارة، النزق والكبرياء، والقلب المستخف. إنها لا تعطي نفسها للرفقة بل للعشق: وزمن العشق صاخب وقصير. كانت إبيفانيا قد رحلت وهي تحمل معها المحفورة المزيّنة. ورافقها الكلب ألما بينادا لمسافة من الطريق. الآن غدا الكلب يحيط بديفا عندما بدأت تظهر وتختبئ وراء الأشجار، وكان الكلب يحتفل بها، هازّاً بذيله، وكانت هي تعطيه بقايا الطعام الملفوفة بأوراق "الماندیوكا".

إما "إيمانجا" سرجيبي، أميرة شواطئ الصفاء ومرتفعات القمم، فهي الناعمة "إيناي"، أم وزوجة مصنوعة للحمل والولادة، و"إيمانجا" تعني الخصب والاستمرار. كانت هي من ولدت المشرفين عندما وهبت نفسها للإله أغانجو في بداية البدايات، وبدء العالم. وهو، كاستور أبدووين دا أسونسيون ولد عبداً لعبيد ولكنه أنقذ نفسه، وأصبح رجلاً حرّاً، لا حب له ولا سيد، وإذ إن "أوشالا" هو الذي يحميه، فإن لديه الرغبة في ولد يولد له، ولو واحد على الأقل: لا يكفي أن يكون له كلب يدعى ألما بينادا.

لم يتعلّم الخوف حتى عندما كان أزلام السيد البارون يفتّشون عنه ليقتلوه. ولم يكن يعرف معنى الخجل، فيظهر نفسه كما الشمس على سجيتها وحرارتها؛ وهكذا كانت النساء يعلنَّ وهنَّ يضعنه وسط حلقة الشعر المنثورة وحبكة القصة: إن كاستور أبدووين سلطان حاكم.

خلافاً لكل هذا، وأمام ديفا كان يبدو شخصاً آخر، لم يكن هو تيساو نفسه، حَذّاء الحمير الضاحك، معلم الحدادة ذو اليد الماهرة، معشوق فتيات الهوى، والمتزوجات والراقيات، والذي كانت المشرفات يتحلّقن حوله، باسماً، وهن يقدّمن الخضوع. لقد غدا ضحية عين حاسدة، وراح يسير كسير الخاطر أمير إيبانو المدلّل، وتيساو المتنازع على حرارته. لقد بدا مريض النفس وفقد الفرح والبهجة.

جاءت إيمانجا من البحر إلى النهر لتمنحه طبيعة مختلفة، وتجعله خجولاً خائفاً وجباناً. أين هي الشجاعة ليذهب مفتِّشاً عنها فيأخذها من عنقها ويأتي بها أسيرة؟ أين هي ضحكته المتمطية، وجملته المباشرة، وشمس وجهه العريض ذي الأنف القوي والشفتين الغليظتين والعينين الملتهبتين؟ ما الذي حدث للزنجي كاستور أبدووين دا أسونسيون الذي هاجمه الانكسار فجعله ينازع حياته على قدمي بيضاء؟ بيضاء؟ كان لها شعر طويل وسحنة شاحبة، وفي سانتو أمارو يمكن أن تعتبر خلاسية بيضاء.

كانت حورية البحر تسير على الأمواج تحت سماء مليئة بالنجوم. واستمر كاستور بقطع الصفيح، والقمر ساطع، أجل، لأن القمر يأمر البحر في غياب جاناييا. لقد انتهى عمل الحفر بالنار حيث ستتمرّى الحبيبة وتعرف نفسها.

كلا لم يكن بمقدوره أن يستمر في ذلك النزاع، جباناً، خيالياً تافهاً، مضيعاً للوقت في عشق عذري، مع عينين هاربتين ونوايا يمكن التكهن بها. كان عليه أن يعود الزنجي صاحب الإرادة، الواثق من نفسه والمنطق، والذي كان من قبل. لم يكن هو هذا المكتئب، المتردّد، عندما علّق قرنين للبارون سيد الرفاهية، ولم يكن هو هذا المتنازع بين الحياة والموت الذي تمدّد في سرير "الماداما" وعلى أريكة الخادمة، وانتهى إلى أن يحطّم وجه البارون.

وكان باستياو دا روزا قد بدأ بناء مستودع الطحين، ويقضي اليوم بكامله قرب ديفا، ووفقاً لما أصبح ممكناً ملاحظته وسماعه من الآخرين، غدا باستياو صديقاً حميماً للعائلة فكان يلاطف الكبار في السن ويتآخى مع جواوزي وأغنالدو وأوريليو وقد شوهدوا معاً في دكان فضول. وعلم تيساو بالمراهنات والتوقعات؛ بسبب كبريائه القاسية فقط، لم يكن يرغب في المزاحمة واستعمال الألاعيب، واجتذاب الأهل. كان يرغب فقط في الحصول عليها إلى الأبد. ولكن فقط إذا أرادت أن تأتي من تلقاء نفسها وبأمر من قلبها. ولم يكن يلجأ إلى التعاويذ للآلهة لكي يجعلها تحبه وتستسلم له بفعل السحر. فهذا الموضوع مشكلته هو، لا مشكلة "الأوريشاس".

في اللوحة المعدنية المحفورة كانت إيمانجا تشعّ متوهجة: وكان النظر إلى ذيل حورية البحر كأنما هو نظر إلى امتداد جسد السرجيبية.

بعدما تمّت الاستجابة لحاجات رجال القوافل، ذهب تيساو، في منتصف الليل ليوقظ دودو بيروبا مربي العصافير عند طريق الحمير، فتيساو وحده لا يستطيع أن يجمع الطرائد، وكان الكلب ألما بينادا يتقدّم المسيرة إلى الغابة بينما ظلت الكلبة أوفريسيدا قرب موقد النار وهي حامل للمرة الثانية. وفي المرة الأولى كانت قد وضعت سبعة جراء وكونها أمّاً فقد يئست عندما فصلوا عنها الجراء التي توزّعت في زوايا القرية الأربع: جروان مع ميرينسيا وزوجها زي لويس، وزوج آخر في بستان التاميراندو، وتمّ إهداء الثلاثة الباقية إلى راعي البقر ليريو المسؤول عن الإسطبل، وزينيو وإيدو، وكما لو أنه لم يكن كافياً لهذا الأخير قطيع الكلاب والهررة التي كانت زيلدا قد جاءت بها في عربة الثيران. ومع انتقال العائلة إلى توكايا غراندي، كان إيدو الذي لا يزال يعمل في محل الحدادة، قد عاد ليقيم مع والديه.

لم تكن الشمس قد بزغت بعد عندما كان تيساو ودودو قد أفرغا في بيت الزنجي حصيلة الصيد – غزالاً كبيراً وسميناً كان يقارب العشرة كيلوغرامات، وجاموسين، ودجاجة أرض كانت قد وقعت في الفخاخ وهي تطوف الغابة. كما جاء الصيادان بنصف دزينة من الأرانب البرية و"الإيكبين" المفضلة عند أوشالا ورجع دودو بيروبا ليعود بالعصافير، وكان قد ترك قضبان الدبق في أحضان الشجر، وإذا لم يستعجل فإن إيدو وناندو سيحتفلان على حسابه.

عند ضفتي النهر، كانت السماء الحمراء تعلن عن وصول الشمس، وكان رجال القوافل ما يزالون نياماً.

19

تجنّباً للفوضى والاستغلال بدأوا بسكب الكاشاسا لإيشو، وكان موجوداً، هناك، إيشو الحديدي الصغير، رجل الصدامات الكبيرة، والعرّاب الوفي صاحب العضو الأكبر من الجنبين. بعد ذلك، وللتعجيل في تجهيز الطعام قطعوا رأس الجاموس. وبينما كانت تضرم النار، فإن ريسو، ودون أن تنظر إليه، سألت:

– هل تقدّمه ضحية دليلاً على الإعجاب؟ لم أرَ أبداً ضحية بهذا الحجم.

– بل ضحية لاستعادة صحتي.

– هل أنت مريض؟ ومنذ متى؟

– إن الحب هو أيضاً مرض، ولكنه مرض لا يمكن رؤيته. إنه يصيب الجسد بالوهن وهو أسوأ من الاكتئاب. إنه مدمِّر، هل تعرفين كيف يكون؟

– إني أعرف؟ لقد عانيت منه حتى الدمار. يبدو كأن عيناً حاسدة قد أصابت صاحبه، بل هو أسوأ من هذا: إن صاحبه يفقد الإرادة في الحياة.

ومع ذلك فإن فضول المعرفة عندها ظل يطلب المزيد.

– إن الجاموس هو "لامولو" بالتأكيد، ولكن لمن هذه الكمية من الطرائد المختلفة الأخرى؟

– إنه واجب أدين به للآخرين منذ زمن طويل.. لا بدّ من أنني بسبب هذا الدين أراني واهناً إلى هذا الحد..!

– واهن؟ أنت؟ – ضحكت بتهتّك.

واستعجلها تيساو:

– عجِّلي قبل أن يطلع النهار.

أشعلت النار تحت الآنية: إن لحم الجاموس يستغرق وقتاً طويلاً لينضج. انضمّت إلى تيساو وذهبا إلى داخل البيت حيث أخذ هو سكيناً مسنونة، مروّسة، وأمسكت هي برجلي الجاموس، فنحره تيساو. وعندما انفجر الدم أحمر، حاراً، قرّب الزنجي فمه من صدر الحيوان وامتصّ الحياة بشراهة ولهفة. بعد ذلك جاء دور ريسو، وفي النهاية ملأ الدلو بالدم لخدمة القديسين.

غنّيا أغاني أومولو. وبينما هما يضربان كفاً بكف على نغمة "الأوبانيجية"، رقصا رقصات: "الأوريشا": رقصة المعوق، والأحدب، والمقعد، والمصاب بالجذام الأسود، ورقصا رقصات الشفاء، منقذين الناس من الطاعون ومنتصرين على الموت. وبينما كان يلامس يدها ليتغلّب على انكساره وعلى العين الحاسدة التي أقفلت فمه، قيّدت ذراعيه وكادت تخنقه.

عندئذ سمع دوي الرعب يعقب وميض الأشعة، وسمعت تنهدات الغيمة السوداء. أما النجوم المنطفئة فعادت تسطع في السماء الحمراء بلون الدم. ووصلت الإلهة يانسان على غيمة سوداء، وامتطت جوادها، وأطلقت صرخة الحرب، ورقصت رقصة المعركة والنصر، وضمّت تيساو إلى صدرها وطردت "الأوغونات" التي كانت تحيط به ونظّفت الجسد من أدرانه. كل ذلك حدث في لحظة خاطفة لا أكثر، وعادت ريسو لترتدي ملابسها الشفافة.

كان كاستو أبدووين محروساً من الجهات السبع، وكانت كل الطرقات مفتوحة أمامه.

20

ملطّخين بالدم من الرأس حتى القدمين، ذهب الاثنان إلى النهر ليغتسلا وأخذا كمية كبيرة من الصابون، وفي الطريق، أخبرت ريسو:

– يقولون إن تيساو يضع اللمسات الأخيرة على بيته استعداداً للعيد.

– أي عيد؟

– يعني.. اليوم الذي تقرّر فيه أن تقيم معه. ولكن، في رأيي، فإنها لن تصل إلى منقاره. إذاً، الآن، يتّضح كل شيء..

كانت تعتقد بقدرة الآلهة، وقوة الذبائح.

اغتسلا بالصابون، ونظّفا جلد الجاموس، فوعد تيساو، شاكراً على المساعدة:

– سأصنع منه جراباً لتحتفظي فيه بمدخراتك.

تراشقا بالماء وغاصا معاً، وتلامس الجسدان، وعند شروق الشمس بدأ المزاح الطيب: لا أحد مصنوع من الحديد، وأي عود ثقاب يشعل محرقة كبيرة. كان هو غارقاً في التفكير في ديفا التي لم تكن تبارح مخيلته، وكانت هي، دون أفكار مضمرة، مأخوذة بالمتعة وحدها. لم تكن تلك المرة الأولى. لقد حدث سابقاً، ولكن في الأرجوحة، لا هنا، عند مجرى النهر.

– فقط إذا لعبت الثولاء (الحمقاء).. – تمتمت ريسو.

عاد إلى محل الحدادة لذرِّ الملح على اللحم، وفصل بعض القطع للأصدقاء: التركي، كوروكا، التاميراندو، والعجوز جيرينو وبعض الآخرين: كان تيساو قد ولد كريماً.

– هل سترسل منها إلى السيدة فانجي؟ – أثارته ريسو.

– ارسلي إليها إذا رغبت، أما أنا، فلا... هنالك أشياء لا يستطيع الناس أن يشتروها بالمال أو بالهدايا. إن الحب ليس سلعة.

– من باب الحدادة، عندما انصرفت ريسو، كان الزنجي كاستور وأبدووين، قد عاد إلى حجمه الأكيد. أرسل نظرة إلى الضفة الأخرى حيث كانت تعيش الغامضة. كان قد اتخذ قراره: سيذهب إلى ملاقاتها بصدر مفتوح، وعنوة أو بالحسنى سيأخذها بين ذراعيه ليرميها في شبكة الأرجوحة مبيناً لها قيمة زنجي موله. لقد جاءت الساعة ليضع نقطة النهاية لهذا الحب العذري الذي لا رأس له ولا

قدمين. سيفعل ذلك قبل أن يسبقه الأبيض ذو العينين الزرقاوين إلى رفع فخذها. يا "أتوتو". ويا "أومولو" أب الكآبة والجذام الأسود، والقوة والصحة، "أتوتو"، "أبي"، "أوبالويه".

21

اجتاز كاستور أبدووين النهر إلى الضفة الأخرى: سريعاً وفي الوقت نفسه اجتاز المسافة ماشياً فوق الحجارة، مبللاً رجليه بمجرى النهر. وهناك، كان المستزلمون يقطعون الأشجار وينظفون الجذوع التي كان غيدو ولوبيسينيو ومساعدوهما يحوّلونها إلى ألواح وعوارض خشبية لاستعمالها في بناء الجسر الكبير. وكان العقيد روبستيانو دي أراجو الذي تعاقد مع كل هؤلاء قد شكَّ في أن يكون معلما النجارة قادرين على إنجاز عمل بهذا الحجم واقترح بإمكانية المجيء بمعلمين حذقين من إيتابونا ولكن لوبيسينيو، أحد بناة مستودع الكاكاو والإسطبل، أبدى انزعاجه من العرض: وفي النهاية كان العقيد يعرفه بوجهيه: الكفاءة، والتركيب النفسي.

– ضع المال، يا عقيد، واترك الباقي علينا.

وضع المزارع المال، وشارك النقيب ناتاريو دا فونسيكا ببعض منه، وبعد قليل سيصبح اجتياز النهر بأمان وثقة. وبعد سنة من ذلك، عندما هبط السرجيبيون هناك، من يستطيع أن يتخيّل هذا التقدّم في بناء الجسر الكبير ومستودع الطحين؟

أما ما هو متعلق بمستودع الطحين فإن البناء كان قد وصل إلى النهاية. كان باستياو دا روزا يأمر على مستخدمين في بناء الجدران، وكان لوبيسينيو وابنه يديران الطاحونة التي تكاد أن تصبح جاهزة للعمل. كانت مجموعة كبيرة من النساء متحلّقة حول العمل: فانجي وكنتاها، وزوجة جوزي دوس سانتوس وبناتها. وكان مستودع الطحين يتمّ بناؤه وسط الأراضي التي كانت العائلتان تهتمان بزراعتها. أما بستان التاميراندو وحقوله فكانت تقع على بعض البعد من هناك. وكانت ساو وأمها داس دورس تأتيان أيضاً للمساعدة. ولم يلمح كاستور ديفا وسط ذلك الرهط الثرثار، فأين يمكن أن تكون؟ لا بدّ من أن تكون في الحقل. جلس الزنجي أرضاً وحيّا الجماعة:

– مساء الخير جميعاً.

واقتربت العجوز فانجي:

– مساء النور يا سيد تيساو. لقد جاءت ريسو بضلع جاموس وقالت إنك اصطدته.. فليعطك الله أضعافه. – وأشارت إلى البناء: – هل ترى؟ لن يتأخر الوقت وسيكون لدينا طحين دون أن نضطر

إلى الحصول عليه من الخارج. عند أول عجنة سأرسل إليك بعض الخبز المرقوق.

وجاء كذلك باستياو دا روزا، ويداه وصدره موسّخة بالطحين، ليتحدث:

– إن أول بيت من حجر وطين بنيته هو بيتك، أتذكر؟ لقد أقمت هنا بيتاً من قرميد، وآخر من خشب وثالثاً من السعف، وحتى من القش، وبنيت مستودعات، وأقبية خشبية، وإسطبلات كما أنني صنعت شيطاناً على أربع. في هذه المجاهل، على الواحد منا أن يعرف كل شيء ولا تكفيه مهنة واحدة، وعندما أنهي هذا التعهد، فسوف أتعاطى النجارة لأساعد في بناء الجسر.

كان متحدثاً لبقاً يأسر من يتعامل معه سواء كان هذا رجلاً أو امرأة:

– بعد أن ينتهي هذا الجسر سأقوم ببناء بيت جديد للسيدة فانجي. وهذا، حتى أنتشلها من هذه البؤرة التي تعيش فيها. أليس كذلك يا عجوزتي الطيبة؟

– أين هي؟

– إنها في محل الحدادة، وتستطيعين أن تأتي لتأخذيها ساعة تشائين.

نظرت ديفا إلى الزنجي، مفكرة. ولم يكن غافلاً عنها – وكيف يمكن أن تغفل إلا إذا كانت ثولاء مع وجود كل هذه الدلائل – اهتمام تيساو وباستياو دا روزا وكلاهما يحيطان بها، ويسعيان وراءها، ويبادلانها النظرات والابتسامات. ولم يكن باستياو دا روزا يخفي مراده، وهو دائماً وراء فانجي وإمبروزيو، ويتغدّى في مركز العمل كل يوم، ويطري على التصرف والهدوء ويذهب مع رجال العائلة مساء للتحدث في أمور شخصية في قلعة فضول، على جرعات الكاشاسا، وكما لو أنه غدا واحداً من العائلة. وكان تيساو يبقى للتلصص وبالتالي ليذهب بالتحدث عندما يراها أمام محل الحدادة تلاعب الكلب ألما بيندا. يذهب الأخير إلى النهر في الساعة التي تستحمّ فيها هناك.

– هل تريدين أن تذهبي لتأتي بها من الحدادة؟

– أنت تعرف أنني لم أدخل إلى هناك إلا يوم وصولي إلى توكايا غراندي. حتى إنني أشعر بالخوف.

– الخوف من أي شيء؟ – وانطلقت في الضحك، وبمثل تلك الضحكة التي لم تميّز فيها بين الزنجي كاستور أبدووين والتركي فضول عبد الله:

– سأذهب اليوم بالذات، لآتي بالمهفة من هناك.

وفت ديفا بالوعد، عند المساء؛ توقفت عند باب الحدادة، ونظرت إلى الداخل فرأت، أتون النار مشتعلاً ولكن لا أثر لكاستور. تقدّمت خطوة إلى الأمام، دخلت، ونظرت حولها. في ليلة الوصول إلى توكايا غراندي لم ترَ شيئاً هناك، سوى الزنجي العاري الصدر، وعليه جلد خروف مشدود إلى خصره ليستر عريه.

أربعة صحون طعام، قطع من الحديد، وأخرى من الخشب، قش ومعدن وأشياء سحرية. كانت تنظر مأخوذة بما ترى ودون أن تتوقّع اشتمّت تلك الرائحة القوية التي كانت تدخلها في الأرجوحة، في تلك الليلة الوحيدة التي لا يماثلها أو يعادلها، والتي أبحرت فيها على القمر المنعكس على صفحة الماء وانسال الدم من جسدها. عرفت، قبل أن تراه، أنه وصل لتوِّه. استدارت ببطء: وكاستور، بضحكة واحدة فقط، تكلم:

– إنك في بيتك.

ماذا يعني بما يقوله؟ لم تسأل ديفا، فأين الشجاعة؟ تقدّم تيساو إلى ذلك الركن حيث كانت تلك الأمور الغريبة والأشياء الغامضة. انحنى باحترام، وبإصبع يده لامس الأرض قبل أن يتمدّد فوقها ليقبّل حجر التحية لإيكا.

وقف آخذاً إحدى القطع، جديدة، برّاقة، وتوجّه إلى ديفا. أحسّت بنفسها مرتبكة وقلقة ومحاطة بمحيط من الغرائب. ومدّت يدها، خائفة، فقدّم لها تيساو المرآة.

في عيني الحداد، يلتمع ضوء قوي أحمر، ضوء أو شعلة، جمرة متّقدة. جاء الصوت خطيراً قوياً وجاداً:

– إن حورية البحر هي "إيمانجا"، يعني أنت.

رأت ديفا وجهها ينعكس على مرآة المعدن، وبينما هي تحدِّق في الصورة المحفورة فيها، عرفت نفسها وتكهّنت بذاتها: الشعر، النصف الأعلى، النصف الأسفل، ابتسمت، أخفضت عينيها، وانتظرت أن يتابع وينتهي إلى كلمات تمنّت لو سمعتها من زمان.

خلال الصمت، أخذتها ذراعاه وشدّتاها بعنف، ودون توقع بمفاجأة. وبدلاً من أن يتلفّظ بالكلمات التي كانت تنتظرها، وتريد أن تسمعها، فإن فم كاستور، وبوضع شهواني، لساناً، وأضراساً، غطّى شفتيها وأقفل عليهما شبقاً عنيفاً، يحاول أن يسحقهما. استغربت وأحسّت بخوف شديد يعتريها؛ مكثت باردة، بلا إحساس، وميتة في داخلها، وبدلاً من العطف واللياقة، كانت القسوة والقوة

المسيطرة. وبجهد ابتعدت عنه، وقبل أن يحاول قليل الحياء أن يأخذها من جديد بين ذراعيه خرجت من نفسها، وهوت بيدها على وجهه.

– ألا تخجل؟ قالت وخرجت راكضة.

ظلّ تيساو في مكانه مرتبكاً، كأنه أصيب بلوثة عقلية، وتركها تذهب دون أن يتفوّه بكلمة ودون أن يقوم بحركة محاولاً أن يحتفظ بها. ومع ذلك، لاحظ، متعجباً ومنهاراً، أنها بعدما اجتازت الباب، وعلى مسافة قصيرة، أوقفت هربها، وللحظة طويلة، كأنها الحياة برمتها، انتظرته: كانت رائحة كاستور قد امتزجت بالهواء الذي تتنفّسه، وانسلّت إلى جسدها وسالت في عروقها. ولكنه لم يرها: أعمى من الغضب، لا يقوى على حركة بسبب الانفعال، ويده الغامقة اللون موضوعة على وجهه الذي يسيل منه الدم.

فقط، عندما وصلت إلى الباب مرتجفة، ومنفعلة، انتبهت ديفا إلى أنها كانت تحمل بيدها مهفة المعدن التي صنعها كاستور ليهديها إليها. كانت قد استعملتها سلاحاً في اللحظة القدرية: إنها "بيبي إيمانجا". إن "لإيمانجا" وجهين، يؤكد بحارة مرفأ باهيا: وجه الطيبة، وجانبية العاصفة، الصلبة.

23

بالرغم من أن السيدة إيستر لم تأتِ إلى حفلة الرقص المقامة احتفالاً بحضورها الأول إلى توكايا غراندي، فإن المبادرة السعيدة قد عرفت نجاحاً لا مثيل له. بيطري المكان، بيدرو سيغانو، ملك الطرب، لم يكن يتذكّر عيداً بتلك الحيوية والفرح. في البداية، فإن المواجهة العنيفة المتوقعة بين كاستور أبدووين أسونسيون وباستياو دا روزا والتي أعلن عنها "دورفالينيو"، "جنابك سوف ترى"، لم تقع، وكاستور وباستياو لم يتحادثا بمودة حسب، بل إنهما معاً تناخبا مع لوبيسينيو، زوج الشريفة المحتد.

ولكي يعزي نفسه، فإن أمين الصندوق رأى أن توقعه الآخر قد تحقّق: فغدا واضحاً ومعتدّاً بذاته، وأمام من يريد أن يلاحظ ويستنتج، لمن كان تفضيل السرجيبية ديفا.

الفتاة المرهفة التي أكملت الخامسة عشرة، وأرخت شعرها كذيل حصان، ثم ربطت عند الأعلى قطعة دانتيل بلون الورد بنفس العرض واللون لما كانت تلفّه على خصرها فوق فستان الشيت، ذي التموجات المتواترة وعلى الجسد الممتلئ، والذي كانت قد خيّطته لها السيدة ناتالينا، يا للإبداع!

من هي السيدة ناتالينا هذه التي لم يتم المجيء على ذكر اسمها، بعد، في تقرير توكايا غراندي، والتي تنبت الآن وسط العيد: من هي؟ ومن أين جاءت؟ إنها أرملة جوان ميديروس من الأغواس، القليل الكلام الذي كان مديراً لمزرعة بون ريتيرو ومات في كمين، مؤخراً، ولم يعرف أحد من أقام ذلك الكمين له ولماذا؟ كانت متقدّمة في السن، ولا تصلح لامتهان حرفة الهوى، وكونها تجيد الخياطة وصاحبة ماكينة "سينجر" تعمل على اليد، فإنها جاءت إلى توكايا غراندي واختارت مهنة الخياطة، وأخبار عديدة أخرى طافت في القرية ولكنها مرّت دون تسليط الأضواء عليها: وفي حال السيدة ناتالينا، يعتبر الأمر أكثر من خطأ، إنه ظلم.

بالنسبة إلى تيساو لم يكن تفضيل ديفا للآخر، بسبب ذلك الغموض في تصرفاتها الذي كان يعانيه وهو يفتِّش عن أسباب مواقف الفتاة الآتية من ماروين.. لقد غدا كل شيء أكيداً بالنسبة إليه في اللحظة التي حاول أن يقبلها، وهي قد نفرت وابتعدت، فإنها هوت "بالابيبي" على وجهه.. وبقي أثر الجرح في وجهه.. ما هذا يا تيساو، هل جرحت نفسك بشوكة مسمومة؟ إن أثر الجرح ليس شيئاً إذا قيس بالجرح المفتوح في صدره، الذي يؤلمه وينزف، ويجعله يتألم. ومع ذلك النزيف في الجرح، فإنه لم يتركه يظهر، فكان يتظاهر بأنه الزنجي الضحوك كما هي عادته، والزير الدائم، والفرح الأبدي، صاحب القلب المنتعش باستمرار.

في حفلة الاحتفال بالسيدة إيستر – إني أخاف من هذه التجمعات، قالت السيدة إيستر لبيدرو سيغانو عندما نقل لها الخبر ووجّه لها الدعوة – لم يكن هناك من هو أكثر حيوية من الحداد كاستور أبدووين. لقد خرجت منه فكرة العيد ويريد أن يراها تتجسّد مشتعلة. رقص دون توقف، طيلة الليلة، ولم يفقد المتعة بالمشاركة، في أية رقصة "بولكا" أو "مازوركا" أو "كوكو" أو "شوتي". كما أنه طالب برقص رباعية ملتهبة. كان الأخير يبدو أجنبياً، ولكن من كان يتلفّظ بكلمة "بالانسي" و"أنافانتو"، وبلغة الأجنبيات، فهو نفسه تيساو، وبملء فمه كان قد تعلّم الكلام باللغة الأوروبية، كما تعلّم الرفاهية على فراش "الساتين"، فراش "المداما"، "البارونة"؛ فهذه، أجل، بيضاء اللون بلون الحليب، وشقراء بلون العسل.

كان قد بدأ بدعوة زيلدا إلى رقصة "شورتي"؛ كانت زيلدا قد جاءت معها إلى هناك بأولادها الثمانية: خمسة كانت قد ولدتهم، وثلاثة بالتبنّي، أما الابن الأصغر، فليون العقيد بوافنتورا أندرادي والسيدة أرنستينا، فكان يركض وحيداً على حلبة الرقص، ولكن الفتاتين التوأمين ذواتي السنوات

العشر، فلم تكونا ترفضان من يراقصهما. وكان النقيب يمشي في أتالايا: كان القطاف قد بدأ وكان هو يدير أعمال القطاف. لذلك أيضاً لم تمكث زيلدا حتى النهاية، فجمعت بناتها والأبناء الصغار.. كان إيدو وبيبا قد رفضا مرافقتها، وفارقت الاحتفال.

كان قد افتتح الرقص مع زيلدا ولكنه لم يوفّر واحدة من الموجودات من فتيات الهوى، أو بنات العائلات، ولكنه، إذا لم يكن قد رقص مع ديفا، فلإلحاح باستياو دا روزا على عدم تركها تتملّص منه عارضة فستانها، وخصرها وشعرها مشدودان بلون الورد، فقط في رقصة الرباعية، "أنافانتو"، "أناريي"، لمس كاستور يد ديفا برؤوس أصابعه، ودون أن ينظر إليها.

ولم تكن السن لتمنع كوروكا عن المشاركة في المزاحمة، هي امرأة ذات معاهدات سابقة: احتفظ لي بالرقصة التالية. وللكلام عن فضول عبد الله، فهو أيضاً لم يتخلَّ عن المشاركة بفعالية معهودة، لا يكلّ ولا يملّ، ولم يعد عليه، بالإضافة، أن يهتم ببيع الكاشاسا لأن إيدو كان قد أخذ يهتمّ بذلك.

كان كاستور يضفي الحيوية، ضاحكاً، ممازحاً، داعياً إلى الشرب، وهذا واجب مبدع العيد.

– دعينا نلتهب يا كوروكا، فالموت أكيد.

ورافقته جاسنتا بالنزق، ولكنها رفضت أن تصدِّق مغالاة الزنجي المؤثرة:

– إنك تموت سعادة، تبارك الله، لماذا تغدو المرأة عمياء وصماء عندما تقع في العشق؟ لا تهتم ولا تكترث... لم يضف ولم يطلب تفسيراً.

لقد التهب الاحتفال كما رغب تيساو. إنه الاحتفال بالسيدة إيستر التي تتمتّع بغيابها. ولكن زينيو ولوبيسينيو، الابن والزوج، كانا قد نسيا غيابها وراحا يستأنسان كما يروق لهما، زينيو في أثر ساو، ولوبيسينيو يقطر نينينيا عشيقته القديمة التي غدت في سن الزواج. وكان زينيو يتنافس على جذب انتباه الفتاة مع أوريليو، ومع دورفالينيو، الذي لو سنحت له الفرصة لتوقف عن بيع الكاشاسا. إن أكثر شيء أحبّته هو الرقص، كانت قد أفصحت ساو في دكان فضول، وهكذا كانت الحقيقة. فهي لم تكن تدفئ بقفاها كرسياً، وهي تنتقل من واحد لآخر وكانت هي نفسها تصوب ثم تختار ثنائيها، وتدعوه دون مقدّمات: – "اسحبني"، "هيا" عندما ترى أحد مفضليها – فضول، كاستور، باستياو دا روزا، غيدو – متوقفة عن قتل المسكين مقدّمة له الحساء. وطافت المكان وهي تضع ذراعها على ظهر بيدرو سيغانو: وبيد كان العازف يمسك بالهرمونيكا وباليد الأخرى يغمر خصرها، السيد بيدرو سيغانو جميل مثل كلب!

وبعدما ترك كوروكا تقفز مع بالينو، توجّه كاستور إلى طاولة المشروبات حيث "خذ واجلب"، وقد رآه يقترب، ملأ كأسه وقدّمها إلى تيساو قبل أن يطلبها الأخير.

لم أرَ قط سيادتك حزيناً إلى هذا الحدّ، يا سيد تيساو، وفي صوته إعجاب وتعجّب: ولكن الزنجي لم يكن يعطي ذراعه لمن يستطيع أن يلويها، وكان يتآكل في داخله ولكن لم يظهر ذلك كما لو أن الأمر لا يعنيه.

إذا كان قد سمع فإنه لم يجب ولم يعلِّق. ابتلع الجرعة كاملة وطلب المزيد. ملأ دورفالينيو الكأس واستلم ثمنه، ومستعجلاً، اندفع إلى حيث تقف ساو وحيدة بصورة غير مرتقبة، بانتظار من يدعوها للرقص:

– إني ذاهب إلى هناك وسأعود..

رافقت تيساو بعينيها ورأته يقفز مع ساو، بفرح وحيوية، وكان باستياو دا روزا يرقص مع فانجي، فيا له من عليم، ثم توقف حين لمح قربه ظلاً فرفع نظره إلى الشبح الذي يقف أمامه. وإذ نظرت إليه بعتب، وبابتسامة أخاذة، أطلقت ديفا شكواها:

– ألا تريد أن تسحبني للرقص؟

24

عندما انتهى العمل في مستودع الطحين، وتمّ تسليمه، وبدت عرانيس الماندیوكا ممتلئة بالحب ثم طحنت الوجبة الأولى، لم يتوقف باستياو دا روزا عن الظهور، هناك، في ساعة الغداء، أو عن الاجتماع بالرجال عندما كانوا يعودون من الحقول عند غروب الشمس فيذهبون للاغتسال في النهر.. كان يتكلّم على مسامع فانجي وإمبروزيو، ويستحثّ ديفا للتعمّق في شؤون الحب وإعطاء الأفضلية، وعلى الأخص فيما هو متعلق بحاجات المتزوجين. وكان عندما لا ينضم إلى سائر النجارين في بداية الأعمال في الجسر الكبير يذهب ليهتم ببيته الشخصي ليجعله أكثر راحة: أنهى الصبغ، وحفر بئراً، وبنى فرناً، وجهّز حطباً، ولم يكن يشبهه إلا بيت ميرنيسيا، فانظر جيداً، ودعا فانجي إلى هناك لإعطاء رأيها.

وفي مساء قاتم ممطر رذاذاً، وبينما هي تعود مع ديفا من حمام النساء حيث غسلتا الملابس واغتسلتا، تحدّثت فانجي كمن لم يكن يريد شيئاً.

– إن بيت السيد باستياو أصبح جاهزاً. لقد ذهبت إلى هناك، فيا للروعة!

– سمعت عن هذا.

مشتا صامتتين، وبدا كأن الموضوع قد انتهى. ولكنها، بغية التغلب على المتاعب المحتملة والممانعات، إن وجدت، تابعت فانجي:

– إن السيد باستياو شاب مستقيم. لقد تكلّم معي ومع إمبروزيو.

– في أي موضوع، يا أمي؟

تأخّرت في الإجابة كأنما الجواب يكلّفها جهداً:

– سوف تعرفين لاحقاً.

توقفتا عند البيت المبني على جذوع شجر مرتفعة وتقوم تحته الحظيرة، حيث كانت الأرانب تلتهم بقايا الجاكا. وراحت فانجي تنظر بصمت كما لو أنها كانت تتذكّر وتتأمّل وقد نسيت السؤال. من الأعلى بلغها بكاء ابن ليا وأغنالدو، وقالت بحزم:

– إننا لا نستطيع هنا أن نحل المشاكل بنفس الطريقة التي كنا نحلّها في ماروين. فهناك، كنا كل يوم أحد نذهب إلى الكنيسة ونحضر القدّاس وخطبة الكاهن. ولو أن شخصاً ما جاء يحدّثني عن رغبته في العيش مع ابنتي لما عرفت كيف أحبّته إذا كان يزمع دون زواج شرعي وخطبة. هل فكّرت؟ لقد تزوّج جواوزيه وأغنالدو شرعياً، فتصوّري كيف تكون الحال معك أنت.

نحنحت لكي تعطي التفكير قوة:

– ولكن هنا، من الذين يتزوّج شرعياً؟ لا كاهن ولا كنيسة يمكن فيها الصلاة.. ولكن، بالمقابل، توجد أراضٍ واسعة وأكبر مما نحتاج. وهذا لا يعني أيضاً أننا نعمل في أراضي الآخرين. لقد سارت أمورنا جيداً في هذا المكان، صحيح أنه مكان متخلف ولكنه أفضل لنا من هناك.

كانت تسعى إلى أن تكون موضوعية وترى الأشياء كما هي؛ ومستسلمة للأمر الواقع نظرت إلى ابنتها، المرأة ذات الخمسة عشر عاماً، في سن الزواج، أو المصاحبة. إذا تأخرت عن الزواج فسوف تنتهين إلى فتاة هوى. ولكنهم كانوا في توكايا غراندي حيث لا أثر لكاهن، أو لكنيسة، أو لشيء غير اللاشيء يرون من الأفضل لها المصاحبة على معاشرة رجل عند أسفل المنحدرات؛ المسكينة!

– إن باستياو يريد أن يقيم معك وأعطاني كلمة وعد بأن بإمكاني أن أكون مرتاحة البال لأنه سوف يتزوّجك شرعياً لدى وصول أية بعثة مقدّسة إلى هنا.. وفي بيته أكثر مما هو مطلوب، ولا

ينقص شيء. سرير حديدي كبير، سرير زوجين، اشتراه من إيتابونا، ومرآة في الحائط. – وكرّرت بغية إقناعها وإقناع نفسها: – إن باستياو رجل مستقيم.

خفّضت ديفا عينيها، وابتسمت بطرفي فمها:

– زواج شرعي؟ لا حاجة إلى ذلك يا أمي.

تنهّدت فانجي: متفاجئة أم مرتاحة؟ كان نظرها ملقياً على التخشيبة حيث كانوا يعيشون محشورين بعضهم إلى بعض أشبه ما يكونون بحيوانات الحظيرة. ولم تتوقف عن السرد: لقد وعد باستياو أنه لدى انتهاء الجسر سوف يبني لنا بيتاً جديداً: إنه شاب طيّب، باستياو دا روزا.

ويلاه، لماذا لا يرسل الله في الحال بعثة دينية إلى تاكاراس؟ إن الله القدير على كل شيء يكفي أن يريد دون أن يكلفه الأمر شيئاً، ولكن الله كان لديه الكثير ليفكّر فيه منهمكاً في مملكة السماوات ومع كبار العالم، ولا يستطيع أن يضيع الوقت في تفاهات عجوز شمطاء. وخلافاً لإله عبد الله فضول، شفيع الموارنة الطيب، المواطن والوفي، الخدوم، كان إله فانجي هو الأب الخالد، الأعلى، ملك الملوك، العالي، المهيب.. فلتذهب فانجي إلى هناك لتعلم متى يصل كهنة البعثة إلى تاكاراس، وفي قبضة كل واحد الصليب، لمقاتلة الخطيئة، وتوزيع العقوبات وتعميد الأطفال وتزويج الحوامل. تنهّدت فانجي من جديد.

إن المصاحبة كلمة بشعة. ولكن ماذا يمكنها أن تفعل؟ هل تطلب من باستياو أن ينتظر؟ وإلى متى؟ لم تكن ديفا الوحيدة في عمرها التي تقيم في القرية. إن ابنة جوزي دوس سانتوس الكبرى، ريكاردينا، كانت تعيش موزّعة نفسها على هؤلاء وأولئك قبل أن تفتح بابها عند أسفل المنحدرات خوفاً من الأب الذي كان يريدها أن تساعده في الحقل. أما الأخريات، إيزورا وإبيغايل الجميلتان، فكانتا تضعان أعينهما على معلم البناء وكل واحدة أقل حياء من الأخرى. كان الجميع يعرفون في توكايا غراندي أن باستياو دا روزا كان قد بنى صالة وغرفة نوم وحفر بئراً وبنى موقداً وفي نيّته أن يضع امرأة في البيت. وكانت المتقدمات له مصطفات: ويكفي أن يشير بإصبعه حتى تتسابق إليه الصبايا وفتيات الهوى متلهفات، ولم يكونوا في ماروين. في توكايا غراندي لا كنيسة ولا كاهن فكيف التفكير في الزواج؟

كانت تائهة في أحزانها، وعندما انتبهت فانجي إلى نفسها كانت ديفا قد اختفت. لا حاجة إلى الزواج، وافقت هي، وهذا ما خفّف من الوزن الذي يثقل على صدرها: تأمل إذا لم تقبل؟ إن باستياو

دا روزا، في دليل اعتباره لهم، طلب موافقة إمبروزيو وفانجي حتى يأخذ ديفا، يوم الأحد، بعد المعرض، إلى البيت الجديد على طريق الحمير. لو كانوا في ماروين!.. لم يكونوا. فلتكن مشيئة الله وتنهّدت فانجي مرة أخرى.

كانت ظلال المغيب تتكثّف، وأخذت تسيطر العتمة على النهر والبساتين.. ففي الوادي، كان الليل يهبط مفاجئاً. هبطت ديفا الدرجات الريفية، وفي يدها صرّة، وجاءت قرب فانجي غير قادرة على الحركة وفي نفس المكان الذي تركتها فيه:

– البركة يا أماه.

– إلى أين تذهبين؟ – إلى بيت باستياو لا بدّ من ذلك.

– إني ذاهبة إلى بيت تيساو. وسأعيش معه.

25

النجوم الأولى الشاحبة في السماء الرمادية بدأت بالظهور... الفلاة، القوافل الأولى، والرجال يغطّون رؤوسهم وحمولتهم بأكياس لا يخترقها الماء. وتحت الرذاذ وبيدها الصرّة، اجتازت ديفا النهر، واتّجهت إلى خيمة ومحل الحدادة ومقر الإقامة للحداد. لم يكن هناك فرن حطب، بالتأكيد، بل أتون نار متأجج يمكنها أن تجهز الطعام. مرآة؟ لم تكن تعرف. في محتويات الصرّة كانت مهفة المعدن اللماع حيث يمكنها أن ترى نفسها، فهذه كانت مرآة ومحفورة، اخترعها الزنجي المشعوذ. ابتسمت حين فكّرت في ذلك.

لقد أرادته، ورغبت فيه، منذ وصولها إلى توكايا غراندي مكسوّة بالغبار والطين مرهقة من التعب، وعليه وقعت عيناها: وجه ضاحك، عريض، وصدر عارٍ، وجلد الخروف على خصره يكسو عريه. كانت تفكّر في ملاقاة تركي، هناك، ولكنها التقت برجلها، في الأرجوحة ليلاً، الرائحة القديمة غزتها جسداً وروحاً، وجعلتها امرأة: كانت تلك رائحته قبل أن تعرفه وزناً ومتعة.

كان باستياو دا روزا طيباً، أشقر ذا عينين زرقاوين، أجنبياً ونيف، وصاحب بيت فيه كل شيء. ولكن رجلها، ذلك الذي كان يدفئ دمها ويظهر لها في الأحلام، كان الزنجي كاستور أبدووين، حداد الحمير الملقب بتيساو. لقد ذهبت إليه بإرادتها، وهي تحمل بيدها اليمنى صرّتها، وبيدها اليسرى قلبها.

وبينما هو يجثو على ركبته ويمسك برجل البغلة "لاميري"، مثبتاً إياها، ليضع لها حدوة جديدة، ارتفعت المطرقة في الهواء. كان إيدو الذي يتعلّم المهنة يناوله المسامير، بينما الفتى ترابوكو يساعد رجل القوافل الذي كان يتعجب للمهارة. وقفت ديفا وابتسمت له. ابتسم كاستور، هو الآخر، وأحسّ بالأمر يفاجئه دون أن يجعلها تشعر بذلك. لم يتبادلا أية كلمة: هوى بالمطرقة على المسمار ولم تحسّ البغلة بذلك. ورحّب الكلبان ألما بينادا وأفريسيدا بها، فاجتازت ديفا الباب، ودخلت إلى البيت، إلى بيتها.

كانت النار تزداد اضطراماً في محل الحدادة، فتناولت ديفا القنديل المشتعل وأضاءت الغرفة التي لم تدخلها قط: الأرجوحة معلقة، وفي صندوق الخرق التي ترتديها، وقرب بناطيل وقمصان وبعض ملابس تيساو رتّبت تنورتها وعدّة سترات أخرى، وفستان الشيت. أطفأت القنديل وصعدت إلى الأرجوحة وتمدّدت. ومن الآن وصاعداً، فإن أية امرأة أخرى، كائناً من كانت، لن تشغله. لقد أصبح عنده سيدة.

تركت نفسها لرائحة رجلها، وضحكت بهدوء الضحكة التي أطلقتها منذ اللقاء الأول وشعرت أنها في سلام: غداً سيكون سيلان الدم الثاني منها، دمها، في أرجوحة الزوجية القذرة.

موكب الحبالى
وسط اندفاع الناس والحيوانات

1

ببطونهن المنتفخة، تواكبت النساء الحوامل، باعتزاز، داخل حدود توكايا: سينجبن أطفالاً، عندما يحلّ الصيف، مع انتهاء القطاف. في طليعة الموكب ديفا، وأباغايل الابنة الصغرى لجوزي دوس سانتوس، ثم وصلت ليزورا التي تكبر أختها بأحد عشر شهراً، ودينورا المتزوجة من جواوزيه، ومع تقدّم الأشتانسيين، فإن موكب الحبالى سيتضاعف، قريباً، كون ثلاث نساء منهن كنّ منتفخات البطون وسيلدن على يدي جاسنتا كوروكا المباركتين.

كانت دينورا قد ولدت من جديد، في اليوم الذي لمحوا فيه توكايا غراندي، فلامس جواوزيه بأصابع الأمل وجهها المتعب والمغبر. ميتة، حيّة، كانت قد جاءت وهي تحافظ بأعجوبة على الحياة في جسدها المرهق بسبب الداهية التي دهمتهم، مجهشة في البكاء بين ذراعيه، متأكدة من أن كل شيء قد انتهى عندما صدر الحكم النهائي وطردوا من حقولهم في ماروين. ولكنها عندما رأت الوادي الجميل، الخصب، وعندما أحسّت بالملاطفة غير المرتقبة من يد العطف والحب، تلك، فكّرت أنها ربما تعود إلى العناية بالأرض، وتربية الحيوانات، وتحسّ بالرغبة، ولحدّ القدرة على الحبل: مستعدة من جديد للفراش كما للعمل.

هكذا حدث، ومع ذلك فإن الحبل لم يتم في الحال. فقط، بعدما تمّ افتتاح المطحنة، بنى جواوزي بمساعدة أبيه وأخواته بيتاً بالحديد المسلح وأقام فيه مع امرأته وابنه. أما في البيت العائلي المكوّن من غرفتين فلم يكن في نيّة أحد أن يخفّف، هناك، من ثقل المعدة. هما، وبنفس القدر، ليا وأغنالدو، عندما كانت الحاجة تفرض نفسها، كانا يلتجئان وراء الأشجار في الغابة، أو عند منعطفات النهر ليبرزا ويتنهدا، في الخفاء، وبسرعة.

في البيت الحالي عثرا من جديد على سلام الليل، والملجأ الشخصي، فراحا يبتسمان، واحدهما للآخر، عندما يكون الطفل قد غطَّ في نوم هادئ. وهكذا عادت لتحبل من جديد.

2

تواكبت ديفا، إيزورا وإبيغال، تستعرض الواحدة بطنها إثر الأخرى، مع فارق قصير من الوقت. كانت الأولى التي عرضت انتفاخ بطنها هي إبيغال صغرى الثلاث، وقد حملت من باستياو دا روزا

بعدما أقامت تستثمر مواهب البيت الذي بناه معلم البناء الأكبر.. وهذا بعدما طلى واجهة (الشاتو) – هكذا كان يصف فضول عبد الله بيت البناء لتمييزه عن الأكواخ المجاورة – بلون أزرق، وصبغ النوافذ بلون وردي، وحفر بئراً للماء، وأشعل موقداً للحطب، واشترى من إيتابونا سريراً وفراشاً زوجياً: السرير من حديد، والفراش من الوبر، وكلها مظاهر عقيد فخمة، وكل هذا بنيّة مصاحبة ديفا وجوزي. باستياو دا روزا لم يزرع ليجني غيره، وبسرعة استهلك إبيغال بهجمات قاسية وانفعالية، ومع اعتبارات قصيرة وتشاؤمية للمشاعر النسائية، ودون إظهار أي دليل على اليأس أو نيّة في الثأر.

أما تلك التي حوّم حولها محلّقاً خلال أشهر، والتي فضّلت أن ترتّب الأطمار في خيمة الحداد، تاركة أغلب سكان توكايا غراندي، ومنهم دورفالينيو، يخسرون الرهان، فصبراً عليها لم تكن العذراء الوحيدة أو أجمل الفتيات في المكان. وعندما التقاها ثانية في المعرض، معتزّة بنفسها معطية ذراعها لتيساو، تمنّى لها السعادة وانطلق إلى الأمام.

وهنا يجب فتح مزدوجين إزاء تعجّب نصف دزينة المتكهنين المنشغلين في تعليق التشخيصات والتعجبات، وذلك بغية الإعلان عن نباهة كوروكا؛ ففي اللحظة نفسها التي كان طويلو الألسنة يبدون تعجّبهم... (لقد تركت باستياو معلّقاً في منتصف البئر وفضّلت الزنجي، وفي الحياة كل واحدة).. كانت كوروكا تعلق، بينما برناردا تساعدها بالاستعدادات للطفل:

– مثلما قلت.. يجب أن يكون الواحد أعمى حتى لا يرى.

– يا عرّابتي، لا تقلقي من شأن الذين لا يرون بغير عيونهم، ولكن أنت ترين بعينيك، ومعرفتك.

وتوقّعت كوروكا على قدم المساواة، رد فعل الحقير:

– إنه لن يتأخّر في أكل الأخرى.

في الحقيقة لم يتردّد باستياو دا روزا.. لم يكن في نيّته أن يضيع الوقت، والمال، من أجل أن يتحوّل إلى شقي. كان قد أعدّ البيت ليستقبل امرأة دائمة الإقامة فيه، ولتكوين عائلة، وهو لن يتركه فارغاً، مهملاً للأفاعي والحشرات. ما عدا ديفا، هنالك الكثيرات في توكايا غراندي، عصريات، وجميلات، وقادرات على الاهتمام بالموقد وبالأطفال حين يصلون. لم يكن مضطراً إلى الذهاب بعيداً: ففي مستودع الطحين، يطحن الماندیوكا، ويجمعن الدقيق، وكانت بنات جوزي دوس سانتوس فائضات العدد. وبعدما استبعد ريكاردينا الكبرى لكونها غير عذراء.. ومفتضّة البكارة، كان بإمكانه أن يختار بين إيزورا وإبيغال وكلتاهما عذراوان، مصنوعتان جيداً، فاختار إبيغال الأشد اسمراراً.

وإذ بدا شاباً، بشعره السابل، وقامته القوية الممشوقة، وشخصاً قليل الكلام وكثير الحيوية في العمل، فإن جوزي دوس سانتوس كان قد ترك مصير بناته على مسؤولية السيدة كلارا إذ تكفيه أعباء العمل. كان يعرف أن الفتيات في يوم، أكثر أو اقل، سيتّخذن طريقهن: لم يكن يهتم لغير الفراغ الذي سيتركنه في الحقول. وخلافاً لما يشير إليه الاسم فإن السيدة كلارا "المنيرة" كانت قاتمة اللون. الشعر معثكل أسود، والجسد سمين مترهّل والوجه مستدير، ومقبول بالرغم من التقدّم في السن: منتبهة لتصرفات الفتيات وتحوّلاتهن ولم تتعوّد أن تقلق من أجلهن.

كانت قد جاءت معها من سرجيبي بنفس المفاهيم التي كانت تجعل فانجي تحسّ بالمرارة، ولكنها كيّفت نفسها دون جهود كبيرة على تقبُّل واقع الحياة الريفية الجديدة والخصبة حيث تفرض نفسها قيم مختلفة وحيث كان للحياة سعر مختلف. وما كان غالباً يفترسها من هموم هو قلقها الأكبر على بناتها الناتج عن التخوف من رؤيتهن في منطقة البغاء كعاهرات مشرعات الأبواب عند أسفل المنحدرات. فهذا، أجل، كان يحزنها. إن المصاحبة في قفا العالم تعني نعمة من السموات وذات قيمة أكبر من قيمة الزواج في الكنيسة، في بوكين، من حيث أتت. إن الأشياء هي كما هي وليست كما يتمنّاها الناس، أليس كذلك؟ هنا وهناك، فإن مباركة كاهن والبراز، هي نفسها، وليس لها أية قيمة.

كانت البنات الثلاث لجوزي دوس سانتوس والسيدة كلارا مختلفات كلياً الواحدة عن الأخرى، شكلاً وتصرّفاً، وإلى درجة لم يكن يبدين معها كأخوات من أب وأم. وشابهت إيزورا أمها بالمودّة وطيب المحادثة والعشرة وأباها بشعره السابل، ولون الجلد الأسمر، المعروف في الرأس الأخضر والذي يميّزه الدم الهندي. أما إبيغال الصامتة مثل جوزي دوس سانتوس، فكانت تشبه في الغالب السيدة كلارا: سمينة، قاتمة اللون، ذات عينين محرقتين، ويسيطر في عروقها الدم الزنجي. ومن أي جد ورثت الناعمة ريكاردينا، المرأة، ذات الشعر الأشقر، والعينين الزرقاوين، والقامة الممشوقة؟ في العائلات السرجيبية، فإن الخلاسيات المتعدّدات الفصائل الدموية، كنَّ، ومن وقت لآخر، يلدن طفلاً جديداً بعينين زرقاوين وشعر أشقر، ذا قامة تعود بأصلها إلى جد هولندي، ومن يدري إلى مسيحي جديد جاء من ريسيفي مع الأمير موريسيو دي ناساو، وهذا كان قد هرب بعد هزيمته إلى سرجيبي ديلري، وهناك منح الأمان واللجوء فاستقرّ إلى الأبد، وهو يصنع للزنجيات والخلاسيات، وريكاردينا هي المثل الأصلح، بالرغم من كونها عذراء: ولا يستطيع أحد أن يفرض الكمال.

احتار باستياو بين إيزورا وإبيغال عندما نزع عن رأسه القرنين، ولكن الحيرة دامت قليلاً إذ تمّ اقتحامه من قبل السمينة إبيغال. وهذه كانت في الأمور الخاصة أكثر موهبة من ديفا، فهي متطلبة وأحياناً وقحة ولكي لا يخدع من جديد، وقبل أن يبدأ التعامل مع السيدة كلارا وجوزي دوس سانتوس، ويأتي على ذكر البعثة المقدّسة ومباركة الكاهن فإنه تحدّث مع الفتاة وحصل على الموافقة:

– إذا كان الأمر يعجبه، فهو يعجبني أيضاً. – إنها حمامة وديعة.

وقبل أن تكمل السادسة عشرة من عمرها، كانت إبيغال قد نفخت بطنها، وباستياو دا روزا لا يمزح في أداء عمله. كذلك شأن كاستور أبدووين، إذ يجب التوضيح أن ديفا إذا كانت قد تأخرت في الحمل فإنها مسألة متعلقة بالقمر والعادة، لا بالكفاءة؛ كانت الاثنتان في سن واحدة. أما ما هو متعلق بإيزورا، وقبل أن يعيش معها، فإن الشاب أوريليو كان قد اقتحمها خلف المطحنة في مستودع الطحين، ومع إضافة الأشتانسيات الثلاث فلم يكلّ لحظة، وعند كل ركن في توكايا غراندي كان بإمكان من يمر من هناك أن يقابل امرأة حبلى؛ وكانت بطونهن المنتفخة تعلن عن التزايد في عدد سكان توكايا غراندي.

3

توكايون؟ بغية جعل التقرير جلياً وأدبياً، ومن أجل إضفاء التفاصيل الدقيقة على الحبكة لمشاكل توكايا غراندي، يستحق الأمر عناء الإشارة، وإن سطحياً، إلى المناظرات الحامية الوطيس المتعلقة بالتسمية الصحيحة التي يجب إعطاؤها للمواليد في قفا الدنيا هناك وإلى الهوية التي سيحملها أولئك المواليد. كيف يجب تسمية مواطني توكايا غراندي؟ توكاويون غراندیون أو ببساطة توكايوس؟ وضع فضول عبد الله للبحث على طاولة فؤاد كرم في ملهى إيتابونا، وكان ذلك في إيلايوس وفي مشرب المرفأ، وفؤاد كرم يشرب مع ألفارو فاريا.. سمع فضول عبد الله مع المثقفين استنتاجاً إذا لم يكن شبيهاً بالشكل، فهو نفسه في المضمون.

– لا شك في ذلك. – قال فؤاد كرم بصوته الممزوج بالعرق المعطر بالآنسون:

– إن من يولد في توكايا غراندي "الكمين" يجب أن يدعى (جاغونسو). – قاتل في الكمائن – وبزرة لبناني. وهي أكثر رجال الكمائن تجرّداً من الرحمة بالتأكيد.

أما ألفارو فاريا وبينما هو يتذوّق متلمظاً طعم الويسكي الإنكليزي، فإنه لم يكن أقل حسماً وموضوعية:

– إن ابن توكايا غراندي لا يمكن أن يدعى غير (الكلافينوتيرو) – مسلح بالبندقية – يا أخي فضول.

سمعة سيئة، ظالمة وتعيسة، قال التركي فضول وهو غير موافق. لو كان في عالم الكاكاو الواسع وفي كل المنطقة الريفية موقع آمن، وقليل العنف، فهو توكايا غراندي حيث يسود سلام الله. إن ما حدث في السابق وأعطى المكان الاسم والشهرة قد حدث قبل بدء العالم وقبل أن يوجد أي حي يرزق. وبالرغم من ذلك فإن من رأى النور الأول هناك كان ولداً حاملاً على ظهره الدم المسفوح، وذكريات الموت والموتى.

4

من المؤكد أن أحداً لم يحمل بطن ساو المنتفخة على محمل الجد. كان ذلك سبباً لقهقهات من الضحك والتعليقات المفرحة. فطمعاً بابن كانت المسكينة قد وضعت على بطنها تحت الفستان كومة من أوراق (الكابين) اليابسة ليعتقدوا بأنها حامل وتنتظر مولوداً.

ففي يوم أحد ظهرت في المعرض وهي تعرض بطنها المنتفخة والمتكوّمة بشكل غريب؛ جلست فوق الأرض وسط الناس وبين ضحك الموجودين وتعليقاتهم ولدت دمية، وذهبت بالتالي، على مرأى من الجميع، إلى أن كشفت عن صدرها وحاولت أن تعطي الدمية ثديها لإرضاعها، راضية عن الحياة.

5

لدى وصوله إلى توكايا غراندي شاباً في مقتبل العمر مشرفاً على الثامنة عشرة من العمر مغرياً، ومثيراً، فإن أوريليو أقلق عقول الكثيرات من فتيات الهوى اللواتي وضعن في تصرّفه الأراجيح والفرشات العريضة مجاناً.

راضياً عن ذلك، فإنه غرق في اللهو على نفقة العاهرات إلى اليوم الذي حصل فيه على المال الضروري فقرّر أن يدفع ثمن دخول على برناردا. كان قد خطّط لقضاء ليلة كاملة، ولكون الصعبة المنال منذ ولد ابنها عادت إلى ممارسة المهنة، فإنها حدّدت أوقات العمل بالفترات القصيرة بين

ساعات إرضاع الطفل، وأبداً، بعد منتصف الليل. ومع ذلك فإن ممارسة العملية بسرعة مع برناردا كانت كافية لترك أوريليو يتولّه بفتاة الهوى، وتوقفت الأخريات عن إظهار أي اهتمام به. أما ساو التي ستجدِّد لها التزامها فلم تكن قد أقامت في توكايا غراندي.

وجعل من حياة برناردا جحيماً. لا يخرج من عندها ولم يعد ينقصه غير أن يسرق ليتمكّن من أن يجمع المبلغ الذي يخوّله الترشيح للفراش وإن لإطلاق طلقة واحدة. وعلم منها في محادثة قصيرة أنها كانت تحب أنغام الأكورديون فكان ذلك كافياً ليبدأ على أيدي رجال مستودع الكاكاو تعلُّم العزف على هذه الآلة، وكان يقضي كل ساعات فراغه لفتاة الهوى: كان يصرّ على أن يراها حتى إنه ذهب في مساعدتها على الطفل برناردو الذي حمل اسم أمه ولم يكن قادراً على حمل اسم أبيه.

حين كانت برناردا، ودون نيّة في ذلك ترضع الطفل من ثديها عند باب البيت الخشبي، رضعة المساء الأخيرة – لتجعل من الساعات الأربع التالية ساعات عمل – فإن أوريليو كان يتحوّل بشكل ما إلى إنسان غير وديع مما جعل فتاة الهوى تتخلّى عن الإرضاع أمامه. ولم يكن قد مرّ شهران على وصول السرجيبيين إلى المكان حتى كان أوريليو قد عرض عليها الحياة المشتركة وذهب إلى أبعد من ذلك: إذا كانت ترغب فإن بمقدورهما أن يغادرا توكايا غراندي للعيش في موقع بعيد حيث يمكن أن يجدا كاهناً. كان مزمعاً على أن يتزوّج منها في أول كنيسة يواجهانها وأن يساعد في تربية الطفل كما لو أنه كان ابنه.

أصغت برناردا إلى مفاتحة المراهق لها وحاولت أن تعتبره ضرباً من الجنون ومشروعاً سخيفاً، ولكنها فعلت ذلك دون أن تنال من كرامته إلى درجة شكرت له حسن نيّته:

– أي واحد يستطيع أن يقول لك لماذا لا أريد أن أسمع حديثاً عن شيء كهذا..

– ولماذا لا تقولين لي بالفم الملآن؟

– أجل أقول لك: إن لديّ رجلاً وأحبه. هذا هو السبب.

أراد أوريليو أن يسمع التفاصيل ولكن برناردا التزمت الصمت. عرف المزيد من الآخرين: اخرج من هناك، واترك المرأة في أمان، إنك تجازف بارتكاب خطأ لا يغتفر، وبأن تنال ما لا تتوقّعه. النقيب ناتاريو دا فونسيكا، نار كاوية؟ بسبب الخوف وعرفاناً بالجميل، فإن أوريليو ابتلع مخططاته، وتقيّأ القرف، فبيد النقيب وتحت حمايته كانت العائلة السرجيبية قد جاءت لتستقرّ في توكايا غراندي.

عاد إلى رحمة العاهرات، مشبوقاً، ثم لاحت له ساو في الأفق فاكتمل شفاؤه، وشوهد الشاب أوريليو يحيط بها مزمعاً على العيش معها دون أن يفكّر في إعاقتها. كانت ساو تترك نفسها للمداعبة، حارة وسهلة، سامحة له بكل شيء تقريباً، ولكن، كانت تتمنّع عليه، وكان أوريليو يبقى محتاراً إلى درجة أنه عرض عليها المصاحبة ليضع حدّاً لذلك الاستغلال وكان ينحي باللائمة في ذلك على الخوف من أن ترى نفسها مهملة بعد ذلك، وفي ركن الإهمال: ولم يكن ينكر عليها الحق في ذلك.

وفي يوم، ولم يكن يتوقّع ذلك، تركت له ساو المجال لأن يفتضّ بكارتها، ولكن حماسة الظفر لم تلبث أن تحوّلت إلى خيبة أمل عندما لاحظ أنها لم تكن عذراء. وبسورة غضب عنيفة حاول أوريليو أن يجبرها على أن تقول مَن من الاثنين سبقه إلى الدخول الذي طالما اشتهاه وعانى من أجله. ولم يحصل على جواب: كانت ساو تضحك وتطلب المزيد، وبعد عدة رحلات من العبور، تبيّن أن زينيو وأمين الصندوق، كليهما، قد عانا خيبة الأمل المماثلة وطرحا السؤال الذي لا جدوى منه – أي من الاثنين؟ ودون أن يجد أحد الجواب: وأمام هذا الواقع، ودون اتفاق مسبق، ظلّ كل واحد من الثلاثة يطرحها أرضاً في الغابة: كانت تكفي الثلاثة، وبينما هي تضحك كانت تطلب المزيد.

أما إيزورا، فإنه لم ينظر إليها باهتمام. كانت حقول جوزي دوس سانتوس تبدأ حيث تنتهي حقول إمبروزيو، وكان مستودع الطحين يقوم في الوسط عند الحدين. وكان أوريليو يرى إيزورا يومياً فكأنه لا يراها. وفي الثامنة عشرة من عمره، وبالرغم من اكتماله فإن أوريليو لم يكن قد وصل إلى سن الرشد لتأسيس عائلة، أما في السادسة عشرة من عمرها، فإن إيزورا كانت قد بدأت بتجاوز الوقت المناسب لذلك.

في حقل الماندیوكا، وخلف المطحنة، ودون أن يتوقّعا، تعرّفا إلى بعضهما بعضاً حين التقت العيون، وكانت ديفا وإبيغال قد اتخذتا سكّتهما، وكذلك إيزورا يجب أن تستجيب للإرادة التي فرضتها عليها السماء. في بيت الطحين، في الحقول، وعلى ضفة النهر، تبادلا الابتسامات والكلمات، وعندما انتبها للأمر كانت إيزورا قد أصبحت حبلى وأوريليو سيغدو أباً عن قريب.

في مجلس العائلات المجتمعة كان الأصعب من كل شيء هو تقرير المكان الذي سيعيشان فيه، هل يعيشان في بيت الشاب أو في بيت الفتاة؟ وافق الجميع على الإقامة في بيت إيزورا حيث يتّسع

قليلاً بمساحة متبقية، ولكن أوريليو سيستمر في مساعدة والديه، نصف الأسبوع في حقول إمبروزيو والنصف الآخر في حقول جوزي دوس سانتوس.

وتعجّب سانتوس لانسحاب أوريليو، الذي اختفى وانقطع عن اللقاء المسائي. أن كونه قد صاحب إحداهن لا يعطي مبرّراً للابتعاد؛ بالنسبة إليها لا فرق أن يكون متزوجاً، مصاحباً، وأعزب، فأهلاً جميعاً بصرف النظر عن الحالة المادية والسن. كانت تفضّل، مع ذلك، الناضجين، هؤلاء أقل جنوناً، وأكثر معرفة، ولا يضيعون الوقت بأسئلة لا أهمية لها. مراهقاً كان أم مكتملاً، مستعجلاً أم متمهلاً، فإن واحداً من هؤلاء يجب أن ينفخ بطنها ويزرع فيه طفلاً. إنها تريد طفلاً تداعبه بين ذراعيها. أين يسير بيدرو سيغانو، الجميل كالكلب؟

6

كان عدد السكان آخذاً في تزايد مضطرد مع إقامة واصلين جدد إلى الناحية للإقامة فيها، مأخوذين بالأخبار التي، فيما هو متعلق بتقدّم توكايا غراندي، كانت قد أخذت تسري في منطقة نهر الأفاعي، وأبعد من ذلك: قي فراداس، وريو براسو، وسيكيرو دي إشبينيو، وأغوا بريتا، ومدينة إيتابونا، رجال القوافل، مستزلمون أجراء – وأكثر من أي شخص آخر بيدرو سيغانو – كانوا يغالون في وصف الحركة، والحيوية وفتيات الهوى. ووصلت الأنباء إلى إيلايوس يحملها، في جملة الحاملين، مزارعون أغنياء وعقداء من مستويات رفيعة من سادة إيتالايا وسانتا ماريانا... أما مسلسل الانتصارات التي حقّقتها توكايا غراندي فقد كان أكثر المشاركين فعالية في إخراجه هو اللبناني فضول عبد الله الذي كان حين يمرّ من هناك ليشتري ويدفع ثمن البضاعة ويتنفّس الهواء الحضاري ويتفاصح بوصفه لاحقاً – في إيلايوس فرنسيات ماهرات ومرتفعات الثمن وبولونيات يفعلن كل شيء وأكثر مما يمكن تخيله – وليرى بنوع خاص البحر.

ومع تعاقب جيران بهذا العدد، كان طريق الحمير يمتدّ ويتّسع بامتداد النهر. بعض البيوت، المبنية بالحجر والقرميد ومن البيوتات الخشبية الصغيرة، وحركة ذهاب وإياب مستمرة للحيوانات والأحياء لم يعد هناك ساعات تمّ خلالها، بعد انطلاق القوافل، لقاء العربي والزنجي وفتيات الهوى ليرتاحوا من عناء الليل وبدايات النهار المتعبة، راقصين، يروون الحكايات وينشدون الأناشيد. ولكنهم لم يكونوا قد أهملوا كلياً العادات السابقة التي عرفوها عندما كانت توكايا غراندي موضعاً لقضاء الليل أو محط رحال مؤقت، غارقاً في الإهمال. كانوا لا يزالون يلتقون في الأماكن المألوفة

ولكنهم كانوا يفعلون ذلك بأقل من السابق، مع عدد أكبر من المشاركين. أما المجموعات الاحتفالية فكانت تلتقي أيام الأحد في المعرض الأسبوعي، وعند حمام النساء وأمام خيمة الحداد، وفي محل حلاقة دود بيروبا. وكالمعتاد في دكان فضول عبد الله.

كانت الرقصات تنطلق على أنغام الكمنجات والهرمونيكا والأكورديونات والمزامير القصبية. أما العدد الصحيح لأكواخ العاهرات عند أسفل المنحدرات فلم يكن يعرفه غير الله، الله ودورفالينيو أمين الصندوق الشعبي (خذ واجلب).

7

بالقدر نفسه تزايدت الحيوانات الداجنة، وقد نمت تربيتها في الملكيات الخاصة وعلى الضفة الأخرى من النهر. أو تركت تسرح في الطرقات. صباحاً ومساءً كان يتوالى ازدحام قوافل الحمير، وخلال النهار كان المارة يتواجهون مع قطعان من الحيوانات وأسراب من الدجاج تفرّقت في الغابة وأزواج من البط متفرّقة هنا وهناك. وكان النقيب ناتاريو بمساعدة وصول السرجيبيين قد جاء معه بدزينة من البيض (شوفراكو) أرسلتها زيلدا إلى فانجي. وإذ وضعت التفقيس تحت قرقة، نتج عنها عشرة صيصان منها هذه القطعان العديدة التي تسرح عند ضفتي النهر حيث ملكية الحقول تشكِّل نظرياً جزءاً من حقول الكاكاو وعملياً هي ملك مشترك للسكان. كان دجاج أنغولا، ذو اللحم الأسود، طيباً إذا أعدّ مقلياً، أو أجزاء مغلّفة بالطحين.

وبالإضافة إلى أحفاد جراء ألما بينادا وأوفريسيدا فإن كلاباً أخرى جاءت مع بضائع المقيمين الجدد وانسلّ منها العديد من الكلاب الهزيلة. وانتقلت مع زيلدا إلى توكايا غراندي أنواع أصيلة ومتكاثرة من الحيوانات. فبالإضافة إلى الكلاب والهررة وبيض التفقيس، تمّت مشاهدة الغنم والماعز في عمق البستان. هذا، ولا تتكلمن عن البوم والببغاوات والعصافير الموضوعة في الأقفاص المعلّقة عند الشرفات.

كانت الببغاوات ثلاثاً، حادّة النظر وثرثارة، اثنتان منها مخصصتان للمطبخ والبستان والثالثة – ساركانا هندية، حمراء، دائمة الحركة وطليقة اللسان – هي صاحبة المفردات الجنسية البذيئة. وكانت تعيش طليقة عند الشرفة حيث كان قفصها الذي لا تمكث فيه إلاّ قليلاً: كانت تلك هي الطير المفضّل عند صاحب البيت، وكانت تجيب عندما كانت تنادي باسم (اذهب – لنيل المتعة)، وكانت هي تردّدها مرتين كلما تمّت مناداتها مرات ثلاثاً، وبسبب أو دون سبب، وكانت تمشي من

مكان إلى آخر على حافة الشرفة وهي تصيح بكلمات بذيئة، وتصفّر منادية الأرانب وتطلق ضحكة قوية عندما كانت ترى الأرانب تركض مستجيبة لدعوتها. وكانت تتلفّظ معتزّة باسم ورتبة السيد والصديق الساحر: النقيب ناتاريو دا فونسيكا.

كان النقيب يضع كف يده على ظهرها. ويداعب رأسها وبطنها (اذهبي لنيل المتعة) فتقفل عينيها مسترخية ومستسلمة. لا بدّ من أن تكون أنثى لتترك نفسها للدلال هكذا، تؤكد زيلدا. أنثى ووفية لأنها لم تكن تسمح بتلك الخصوصيات لغير ناتاريو، وكانت تنقضّ على أي شخص أو آخر يريد أن يعجبها، تنفر غاضبة وتنطلق بالشتائم: لص ابن عاهرة (اذهب ونل المتعة) وكادت تقتلع إصبع الزنجي تيساو يوماً عندما حاول أن يقيم صداقة معها: من هناك الطريق، يا أشقري الجميل.

كانت لغة ماركانا البذيئة، قد ولدت من العيش الطويل في غرفة القمار في نزل وضيع في إيتابونا. وكانت تلك الغرفة متعدّدة النشاطات حيث كانوا يسكبون الكاشاسا والكونياك ويمهّدون للعلاقات الجنسية وقد أنقذ النقيب حياتها من تلك البؤرة العفنة في إحدى جلسات القمار التي انتهت بسبب الغش إلى ما انتهت إليه.

كان النقيب موجوداً بالصدفة في ذلك المكان نزولاً عند دعوة فتاة هوى كانت إحدى صديقاته في الأزمنة السابقة: (لن أراك بعد اليوم يا ناتاريو) قالت الفتاة بدلال عندما التقته في الشارع. ومن ذكرى إلى أخرى انتهيا إلى أعلى غرفة في نزل نوفنس، ذاك، للاحتفال باللقاء وإطفاء الظمأ.

كان ناتاريو قد أخذ يرتدي ملابسه، مبتدئاً بالاستئذان بالانصراف عندما لفتت انتباهه ضجّة الطاولات التي تنقلب، والكراسي التي تتطاير يرافقها صياح ببغاء حماسي – لص – لص البراز! منحرف! لم تعر المرأة العارية اهتماماً لأن الشتائم وأعمال التحطيم كانت مألوفة هناك. ولكن عندما تابع قفا الثور تهديداته بالموت – سأقطع خصيتك يا كلب – وقد تعرّف النقيب إلى صوت "لالاو" المستزلم الذي عمل تحت إمرته، وهو مواطن جريء وصاحب كلمة، فقد اندفع النقيب في الوقت المناسب لمنع إرسال لويس بريتو إلى أرض (السابلة أرجلهم): وكان خنجر "لالاو" يلمع وسط الدخان والضوء الخافت، وبعدما عاد النظام ليستتب، وتمّ وضع الطاولات والكراسي، واستؤنفت النشاطات، تأخر ناتاريو وهو يثير ماركانا، وكاد يثور غضباً عندما سمع الببغاء تأمره: (اذهب ونل المتعة) بينما تحدجه بعينيها وتصفّق فرحاً بجناحيها الأخضرين الأحمرين. وإذ اعترف لويس بريتو

بالجميل فقد أرسل الببغاء إلى نزل السيدة سينيورينيا حيث كان يقيم النقيب في إيتابونا: هدية من مبعوث حياً.

في مزرعة أتالايا تعلّمت (اذهب ونل المتعة) أن تصفّر للخنازير، وأن تنق للدجاج، وأن تقلّد صوت الزنجي إشبيريداو: بالسلامة والصحة يا عمتي زيلدا. أما في توكايا غراندي فإن التركي فضول عبد الله قد علّمها كلمات بذيئة باللغة العربية... وكانت ماركانا تردّدها باللهجة النظيفة لأهالي جبل لبنان.

على طاولة الطعام الغنية، في بيت النقيب، حيث كان فضول يتواجد غالباً، فإن العربي لا يتوقف عن القهقهات والضحك لدى سماعه، باللغة العربية والبرتغالية، للشتائم التي كانت تطلقها (اذهبي ونالي المتعة). ولكن فضول لم يتمكّن قط، بالرغم من المحاولات العديدة، أن يداعب رأس الببغاء وبطنها. فهذه الميزة من امتيازات النقيب ناتاريو دا فونسيكا.

8

غدت الببغاء (اذهب ونل المتعة) متعدّدة اللغات، فبالإضافة إلى تكرار الكلمات البذيئة باللغة العربية، فإنها كانت تغنِّي بالإيطالية مقاطع غنائية – (ريدي بالياتشو) (لادونا أي موبيلي) – المعزوفة على الغراموفون، وهكذا طافت شهرة الببغاء الآفاق مع قوافل الحمير.

– لدى النقيب ناتاريو ببغاء عجيب يتكلّم التركية، ويغنِّي بلغة أجنبية، يا له من عجبة ممتعة.

كان الغراموفون، هدية العقيد بوافنتورا أندرادي، التسلية الكبرى والرفاهية الرئيسية في بيت النقيب ناتاريو دا فونيسكا. وكانت زيلدا تعطيه من التقدير إلى درجة لا تسمح معها حتى لابنه الكبير إيدو، أن يشغّله، فهي فقط مع ناتاريو يستطيعان تشغيله. ومرة في الحياة، وأخرى في الموت، كان النقيب يدير المساك ويضع الحبل في الجهاز ليعرضه للزائرين من ذوي المقامات الرفيعة: كالعقيد روبستيانو دي أراجو، والعرّاب لوبيسينيو رئيس محطة تاراكاس، والسيد سيسرو مورا مشتري الكاكاو لحساب شركة كويفمان وشركاه للتصدير.

في أوقات الفراغ، وعادة عند الأصيل، وقبل طعام العشاء، كانت زيلدا تطلق الغراموفون للغناء، وتجلس لتصغي ويدها على خدّها وعيناها شبه مفرغتين: لم تكن تفهم اللغة التي بها يطلقون الحناجر بالآهات والمواويل، وكانت الآهات على الأخص تشعل عواطفها. أحياناً، كانت كوروكا تظهر هناك لمرافقتها، والتعليق على أحداث الناحية، وسماع الموسيقى، وكان لديهم ثلاث

أسطوانات، فقط. كانت قد جاءت مع الجهاز، وكانت فانجي أيضاً تأتي جالبة معها بعض الهدايا – بطاطا حلوة، أبو شوشة، ولفت، إلى المطبخ، وتطري على الغراموفون:

– حتى لا يمكن رؤية المغني...

كانت فانجي قد غدت صديقة حميمة لزيلدا، ومحتفظة للنقيب باحترام خاص: لن يكون بمقدورها أبداً أن تنسى لقاء العائلة به على الطريق. كانت قد سمعت روايات عنه، وكانت تلك الروايات تدخل من أذن وتخرج من أذن أخرى. فبالنسبة إليها، يشهد الله، لا يمكن لأحد أن يماثل النقيب ناتاريو دا فونسيكا. كانت قد دعته ليكون عرّاب ابن ليا وأغنالدو عندما يقرّرون في يوم أن يعمِّدوه. أما العرّابة، اعذريني يا سيدة زيلدا فلا يمكن أن تكون غير جاسنتا كوروكا التي قامت بالتوليد.

في البدء، كان الصغار، الذين يأتي بهم إيدو وبيبا، يجتمعون عند أقدام الغراموفون منتبهين ومتجهّمين، ويريدون أن يعرفوا أين تختبئ فلانة أو الشخص الذي يغنِّي تلك الأغاني الغريبة. وتعبوا من ذلك سريعاً، فالمقطوعات الموسيقية كانت دائماً هي نفسها، وراحوا يفضّلون الغابة والعصافير وينصبون المصائد والفخاخ.

كانت برناردا تصل وابنها يشدّ بزنارها. تطلب البركة من الأم، وتساعد في الأعمال البيتية، وكانت صامتة وباسمة، تصغي إلى الغراموفون في حين تذهب للتنقيب عن القمل في شعر زيلدا. كانت برناردا تذهب إلى هناك دائماً في غياب النقيب، وإذا حصل أن وصل من السفر وصادفها هنالك، كانت تطلب منه البركة – ثم تستأذن بالانصراف. كانت تذهب للمكوث في البيت، منتظرة أن يأتي ليراها في أي وقت يشاء.

وكانت زيلدا تقدِّم للزائرين شراب الجنيبابو، والبيتانغا، والماراكوجا، وكلها مصنوعة منزلياً: كيف توفّر لنفسها الوقت لتقوم بكل الأعمال: المشاغل البيتية، المطبخ، المشروبات، ومربّى الموز، وتحميص فستق الكاجو، والخياطة والتطريز، ولكي تربّي الأولاد بحرص وأمانة، أولادها الشرعيون والمتبّنون وكل هذا من دون أن ترفع صوتها، ودون أن تتذمّر، من أي شيء؟ عندما اتخذها ناتاريو زوجة كانت يتيمة، متسوِّلة، لم تتصوّر أنها ستصل إلى هذه المراتب العالية: متزوجة، وزوجها في الحرس الوطني، ومزارع وهي ربة بيت بهذا القدر، وأولادها متعافون، وطاولتها غنية المأكولات ومعروضة للجميع. هل تتذمّر؟ فقط إذا كانت عاقة.

طاولة غنية ومفتوحة، يأتي إليها كل من يصل، دون دعوة، وكانت النساء يتزاحمن على إعداد الطعام في غياب النقيب: كوروكا، ميرينسيا، برناردا، وأية صديقة أخرى؟ أما الرجال فلا يأتون إلى هناك أبداً عندما يكون رب الأسرة غير موجود. وكان ناتاريو يقضي معظم وقته في المزارع، في أتالايا وبوافيشتا، ويطول غيابه أكثر أثناء القطاف، مهتماً بتجفيف الكاكاو. وعندما يتوقف في توكايا غراندي، كان البيت يمتلئ بالزوار. إلى الطاولة، كانت المقاعد تصبح غير كافية مما يجعل ذلك الباقين يأكلون على الشرفة أو في المطبخ مع الأولاد. أصدقاء، عرّابون، معارف، وأشخاص لديهم ما يناقشونه فيه، وحطابون كانوا يأتون لتحيته، بالإضافة إلى سكان المكان. وعندما كان النقيب يمر، ماشياً أو ممتطياً حصانه، في الفلاة، أو على طريق الحمير، أو عند أسفل المنحدرات، كان الجميع يحيّونه بمودّة وفرح، وبمزيج من الاحترام والتقدير. كان الرجال يرفعون قبعاتهم دليلاً على الاحترام، والنساء يبتسمن له تقديراً: في احترام بعض الرجال له سمة من الخوف، وفي تقدير بعض النساء رعشة ثقيلة، وكان الأولاد يركضون ليقبّلوا يده.

– البركة، يا نقيب.

9

العقيد بوافنتورا أندرادي نفسه، الآمر الناهي في تلك القفار الواسعة، السيد والإقطاعي، كان قد ذاق الطعام على طاولة زيلدا، وكرّر الكمية، وهو يمصّ أصابعه مستطيباً: الدجاجة المحشوة، مع الصلصة، والأرانب البري المشوي على الجمر، والسمكة المقلية بزيت جوز الهند، وحلويات الموز والكاجو، وقشرة الأناناس، كانت زيلدا تعتذر عن الوجبة القليلة التنوع، فليس هناك غير أربعة أنواع من الطعام، فيا له من غداء متواضع إذا ما قيس بأنواع الطعام على مائدة القصر الكبير. كانت البنات يساعدنها في المطبخ وقد تعلّمن الطهو وتحديد كميات تحسين المذاق وتكييفه ثم تفحّص المرحلة الأخيرة منه.

إذ كان قد جاء من أتالايا، فإن العقيد كان قد مرَّ بتوكايا غراندي، وفي نيّته أن يتدارس مع ناتاريو تحديد الموقع الذي ستنزل فيه مجموعة من السرجيبيين كانوا ينتظرون وصولهم إلى إيلايوس، قادمين من أشتانسيا موطن المزارع – وفقاً لما تمّ معرفته سابقاً، كان الأشتانسيون أقارب الإقطاعي، واستفاد من المناسبة ليطوف في الوادي: كان قد جاء إلى هناك في الموسم السابق

وأكثر من سنة. وفي المرة السابقة كان قد دهش لتقدُّم توكايا غراندي، فما الذي يمكن أن يقوله الآن؟

زار حقول إمبروزيو، وجوزي دوس سانتوس، والتاميراندو الذي كان قد بدأ بتربية الماعز، وراح يهزّ برأسه دليل إعجابه، ودخل بيت الطحين حيث كانوا يطحنون المانديوكا. إن الأشتانسيين سيقيمون هنالك برفقة طيبة.

أما المفاجأة الكبيرة التي اقتلعت تعجباته الحماسية فكانت رؤيته للجسر الكبير الذي بلغ مرحلته الأخيرة. حجم العمل ومستوى التنفيذ، واللمسات الأخيرة التي ستتركه روعة للنظر. وقد تلقّى لوبيسينيو وغيدو، معلما النجارة الأكبران، التهاني بتواضع ورضى العقيد. أما لوبيسينيو فقد كشف عن سرّ دون عناء:

– كان العقيد روبستيانو يعتقد بأننا لا نستطيع القيام بالعمل. وأخيراً أن إنهاء العمل تمّ بمساعدة الكثيرين الآخرين. فالعقيد روبستيانو والنقيب ناتاريو دا فونسيكا كانا قد شاركا بالمال، وكذلك شارك في التنفيذ كل من معلمي البناء بالبيتو وباستياو دا روزا، وتحوّلت ميرينسيا وزي لويس والحداد تيساو أبدووين إلى نجارين وقاطعي أخشاب، وحتى فتيات الهوى ساعدن في العمل.

توقفوا عند بيت برناردا، فأبدى العقيد رغبته في رؤية الطفل الذي ولد أثناء وجوده في العام الماضي، في توكايا غراندي والذي شرب نخبه كأساً من الكاساشا في دكان فضول. وقدّمت كوروكا القهوة، ولم تتوقف برناردا عن عرض الطفل الذي يشبه أباه:

– إنه العلامة المسجّلة لناتاريو... مازح العقيد.

ومرَّ العقيد بخيمة كاستور ليحيي ديفا، ولم تعد توكايا غراندي مخيماً لفتيات الهوى حسب، بل تكوّنت العائلات فيها: ففي جولته كان قد التقى بدينورا وإيزورا، وشاهد أبيغال في الطريق، والتقى بديفا، والنساء الأربع جميعاً، بانتظار الولادة. وعاد العقيد ليتذكّر توقع ناتاريو وهو ينظر من أعلى القمة حيث يقوم بيته الآن. كان الوادي ما يزال غير آهل، والغابة ما تزال عذراء، فلمح المستقبل، إن العقيد لم يتمكّن أبداً من تفسير القوة التي كانت تجيز للمملوك أن يقرأ الأفكار ويتكهّن بالمستقبل. إنه الدم الهندي، وليس هناك من تفسير آخر. وفي النهاية ذهبوا إلى دكان فضول لتناول كأس قبل الغداء.

– ما هو رأيك يا حضرة العقيد؟

– بعد بضع سنوات ستسبق تاكاراس، ولم يعد ينقصها غير وصول سكة الحديد! متهادياً غادر الطاولة إلى أرجوحة الشرفة ليسترخي، وقبل أن يقيل فإن العقيد تبادل مقطعين من الكلام الجميل مع زيلدا وأطلعها على أخبار أتالايا الجديدة. لقد كسبت السيدة بيكينا مساعدة لها هي ابنة تيبور سينيو: هل تذكرين تيبور سينيو، يا عرّابة؟

– ساكرامنتو؟ أتذكرها جيداً. إنها فتاة رائعة الجمال.

على وجه العقيد، حيث ترك الزمن والحياة بصماتهما وحيث مرارة الحياة تترك آثارها، بدت ابتسامة خفيفة تكاد تكون خجولة.

– لم تعد السيدة بيكينا قادرة على المشي بسهولة. كان حظّها في العثور على هذه الفتاة التي لا يضاهيها أحد في العمل. إنها فتاة طيبة يا عرّابتي. لقد أصبح البيت متعة للنظر، حتى إنها تهتمّ بي: – هل كان يتكلم عن عشيقة أو عن خادمة؟ بالنسبة إلينا، يا عرّابتي، أصبحت أمضي الوقت في أتالايا أكثر مما في إيلايوس.

– فنتورينيا، يا عرّاب؟ هل من خبر عنه؟

اختفت الابتسامة عن وجه العقيد:

– إنه لا يزال في الريو، أعتقد بأنه انتقل إليها نهائياً.

– دائماً في الدراسة؟ كانت كلمات بريئة، لا تنطوي على خبث.

– أجل يا عرّابتي، لقد آن الوقت ليتوقف عن الدراسة، مع كثير من الدراسة يصبح الأستاذ متسكعاً.

وقطع صراخ الببغاء، الحاد، الحوار:

– ابن العاهرة: اذهب ونل المتعة.

أغمض العقيد عينيه محاولاً إبعاد التفكير بفنتورينيا الذي يتجوّل في ريو دي جانيرو، فبأي شيء يفيده الحزن؟ ولكنه كان يحزن، أراد ذلك أم رفضه؟ فإن ناقص العقل هو ابنه، وحيده، بسببه عمل بلا تعب، ليلاً ونهاراً. ومن أجله حمل السلاح وقاتل، وجازف بحياته، وأمر بالقتل، وقتل بيده. آه... فلولا الجميلة ساكرامنتو لكان فَقَدَ نهائياً لذّة الحياة. إن المال والسلطة لا يكفيان.

عندما رأته وقد أغمض عينيه، انسحبت زيلدا بهدوء، محاولة ألا تثير أية ضجّة. لم يطلب منها العقيد البقاء، وتركها تنصرف دون أن يمسك بخيط المحادثة. لم يكن يحب أن يتكلّم عن غياب

ابنه. وبسبب قرفه من غياب ابنه، من يدري، فإنه كان يتمسّك أكثر فأكثر بخدمة السابقين البسطاء، السيدة بيكينا التي شاخت في الدار الكبيرة دون يوم راحة واحد، والزنجي أشبيريداو مع بندقيته البيضاء الذي عندما جاء مع سلاحه كان فتى في منتصف العمر ومنذ ذلك الحين لا يزال يحرس نوم العقيد في الدار الكبيرة، وفي زيلدا وناتاريو؛ لقد انتهى ناتاريو إلى عرّاب مقرّب ونقيب، لأنه بالإضافة إلى الشجاعة والوفاء، كان يمتلك الذكاء، ويعرف القراءة والكتابة، وعلى الأخص القيادة.

إنهم أناس بسطاء ومستقيمون، حتى هي، الصبية ساكرامنتو التي لم تناده في يوم "بأنت" بل "بسيادتك" كانت تقول له "سيادتك" أو حضرة العقيد، ولكن صوتها وحركاتها كانت تعزية له في زمن الأحزان والتوتر، لقد أعادت تلك الصفات في الفتاة اللذّة والرغبة في الحياة. كانت تقطع عليه أفكاره وهو في الأرجوحة، وهي فوق الأرض، وكانت تشتمّ فيه رائحة البيتانغا، وتستقبله على صدرها في الفراش، وهي تضحك وتتنهّد. كان العقيد يعمل بنصيحة ناتاريو، وها هي النصيحة الأخيرة تأتي إيجابية كما هي العادة.

10

حين وجدوا أنفسهم فريسة الفاقة التي داهمتهم، وتقلّصت إمكانياتهم إلى القليل من المال الذي يأتيهم من أعمال الإحسان التي يقدّمها لهم صاحب معمل السكر البدائي ليوفيجيلدو كالاسان، فإن السيدة ليوكاديا الثمانينية، الأرملة، الأم، والحماة، والعمّة، والجدّة، تذكّرت القرابة. في تلك الساعة من السوء والحاجة، من يستطيع أن يمدّ لها يد العون سوى القريب؟ إنه قريب من درجة ثالثة أو رابعة، ولكن ليس في هذه القرية ما يستدعي عدم الاعتبار.

كان العقيد بوافنتورا أندرادي، في المرة الأخيرة التي ذهب فيها إلى أشتانسيا، منذ زمن بعيد، قد عرفهم وحيّاهم في المعرض الأسبوعي حيث كانوا يعرضون ويبيعون المواد الزراعية الوفيرة، ومع كونه ثرياً كبيراً لا يعرف أين يضع أمواله، فإنه لم يكن يحتقر فقر أقاربه وبينما هو جالس على صندوق قريبته ليوكاديا تأخّر في المحادثة، متذكِّراً الأشخاص والأحداث، بعضها ممض، وبعضها الآخر محزن حقاً، بالإضافة إلى كونها من ذوي القربى، فإن ليوكاديا كانت عشيقة ضارب الطبل جوزي دي أندرادي والد العقيد وكان الاثنان قد أمضيا معاً أوقاتاً ممتعة في الحفلات الراقصة الصاخبة في أعياد شفيعة أشتانسيا، وهي حفلات لا تنسى:

– كدت أكون أمك، لولا القليل، يا قريبي بوافنتورا.

متجلباً، فإن اللورد الريفي فتح محفظته وأعطى بعض الخردة للأولاد، خردة؟ بل لفّة كبيرة من المال احتفظت بها ليوكاديا لحاجة صحية عند الطبيب. وعندما استأذن بالانصراف، فقد عرض العقيد خدماته إذا احتاجوا إليها في يوم؛ إنه في تصرفهم، في إيلايوس، وما عليهم سوى أن يكتبوا. ويكفي أن يضعوا الرسالة في الظرف ويكتبوا عليه: العقيد بوافنتورا أندرادي، إيلايوس، ولاية باهيا، وستصل الرسالة، ولا يهم اسم الشارع "لأن الجميع يعرفونني هناك".

ولم تكن تلك القصة مختلفة عن سواها، وتتكرر هي نفسها، مع تبدل قليل في التفاصيل. كانوا قد زرعوا نصف الأراضي وعرفوا أوقاتاً مزدهرة، ثم حدث ما يمكن مشاهدته: لقد عادت الأراضي إلى صاحبها، واستبدل قصب السكر بزراعة الذرة والمانديوكا. لم يعد لديهم وسيلة لكسب العيش في أشتانسيا: لا أرض يزرعونها ولا موظفون في التجارة، وليس من عمل سوى المأوى في حقول السكر القديمة.

كانت أشتانسيا قد غدت مركزاً ذا أهمية كبيرة في ولاية سرجيبي، وكانت البضائع المنقولة بحراً تنقص عند ميناء ريوريال، تتكدس في مرفأ دوكراستو، وكانت تخرج من أشتانسيا إلى السرتاون حركة واسعة من القوافل والعربات. لكن سكة الحديد التي ربطت باهيا بسرجيبي مرّت بعيدة عن أشتانسيا وحكمت عليها، إن لم يكن بالموت، فبالانحطاط. لم يكن للأشتانسيين بديل عن الانطلاق نحو الجنوب. كانت شهرة الكاكاو تسيل لعاب المتشردين، فكم بالحري لعاب الذين فقدوا الأرض، والزراعة، والأمل.

عندئذ تذكرت السيدة ليوكاديا القريب البعيد والثري الكبير، وجمعت رهطها واقترحت الرحيل. كان مجموعهم ثلاثة وعشرين حياً، آباء وإخوة، عمومة وأقرباء، من دم واحد. سبع نساء، ستة رجال، وعشرة أولاد قاصرين، وبأعمال مختلفة. ورفضت الصبية نينيكا الذهاب إذ كانت على علاقة غرامية جدية مع أوزيريس الخطيب الرسمي اللامع، والعازف العادي على المزمار في ليدا أشتانسيا، وأمين صندوق غامض في الدكان المتواضعة لأبيه أميركيو الذي هو، في النهاية، ميت لا يزال يقوى على المشي. ووجدت لينيكا الفرصة المناسبة لتخرج من البيت وترتبط بالمتوسل إليها: وليكن زواجها عبئاً إضافياً على ظهر المسكين أميريكو، أما غابرييل، والد لينيكا، فقد هدّد وتوعد، ولكن الابنة لم تهتم

وأمرته السيدة ليوكاديا بترك الماء تجري، وإقفال الموضوع. إذا كانت الحمقاء تريد أن تبقى هنا لتعاني الجوع وتنتهي إلى بيع جسدها، فهذه مشكلتها، ولديهم الكثير ليهتموا به.

وكتبت السيدة ليوكاديا رسالة إلى العقيد، مذكرة إياه باللقاء والوعود والخدمات. – ألم يمد لسانه بعد؟ – سأل فافا، ابن ليوكاديا البكر، الخمسيني، لو أنه مات فإن خبر وفاته كان يمكن أن يصل إلى أشتانسيا بالصدفة لأن الأخبار السيئة تنتشر بسرعة ولا تضيع ولا تتأخر. وهو لن يجيب عن الرسالة، توقع الصهر أماندیو، الأحب، ورجل الملذات الذي لا شفاء له.

إنه لم يجب حسب، كما فعل بالبرقية، بل أبدى اهتمامه، فجمعوا أطمارهم وركبوا في الدرجة الثالثة من قطار باهيا حيث سيستقلون المركب إلى إيلايوس، وهم يعدون المال ليدفعوه. وفي إيلايوس، سيهتم القريب بهم.

لا ينقص العمل هناك، وبوجه خاص في موسم القطاف. لكن العقيد لم يكن يرغب في رؤية أقاربه يعانون الظروف القاسية التي يعاني منها الأجراء. تذكر توكايا غراندي، وقرّر أن يذهب بنفسه للتحقق من الوضع. وبمساعدة ناتاريو، اختار المكان، وسط الحقول وزريبة حيوانات التاميراندو. هكذا سيكون بإمكانهم أن يتوسعوا، والعقيد سوف يمنحهم بعض المساعدات في البدء، ولن يتعرضوا لخطر أحد يأتيهم مطالباً بالأرض لزراعة قصب السكر.. حتى العقيد نفسه لا يستطيع أن يقوم بمثل هذا العمل ليزرع الأرض بأغراس الكاكاو إذ لم يكن هناك مالك رسمي. إنها أرض مشاع ويكفي أن يحتلوها.

طلب العقيد من ناتاريو يذهب لاستقبال الأشتانسيين في محطة تاكاراس، لدى وصولهم إلى إيلايوس. في النهاية إنهم أقاربه ومواطنوه، والعجوز سوف تكمل قريباً الثمانين سنة من عمرها، وكانوا يستحقون أكثر من مواساة بسيطة، وهكذا أخذ ناتاريو معه بغلاً ضخماً، وحمل، احتياطاً، شبكة وعصا: إذا كانت الشمطاء عاجزة عن الركوب فستأتي محمولة في شبكة مرفوعة على طرفي العصا. انتظرهم في المحطة وقاد قافلتهم إلى توكايا غراندي.

لم تكن السيدة ليوكاديا توحي بشيء إلى عجوز شمطاء، بل كانت مكتنزة اللحم، نشيطة، ولا توحي بعمرها الحقيقي، ظريفة، ومجتهدة. أمسكت بلجام الحمار على خطوة من البغلة القوية التي يمتطيها مبعوث قريبها وطلبت بعض الإيضاحات:

– هل هو مكان متطور؟ هل توجد فيه فرقة موسيقية؟ ما هي دعوة الكنيسة؟ ومن هو القديس الشفيع؟

بدا على فم النقيب خيط ابتسامة:

– لا يوجد بعد فرقة موسيقية ولكن الكمنجة والمزمار متوفران باستمرار، ولا يوجد كنيسة، وما عدا ذلك فالمكان متطور جداً كما سترين. أما القديس الشفيع، فسأخبرك عنه: إذا كان قديساً، فهو هذا، خادمك، النقيب ناتاريو دا فونسيكا.

ثلاث نساء كن حوامل: فاوستا، هيلدا، وزفرينا.

11

الأقفاص المعلقة على جدران محل الحلاقة لم تزد قط على نصف دزينة. ودون أن يحسب قفص (الكاكاو) الذي كان فارغاً أغلب الأوقات لأن الطير كان يخرج ويطير بحرية قاتلاً الحشرات بمنقاره الطويل. هناك، كانوا يعرضون عصافير تبهر النظر، مختارة بإصبع دودو بيروبا. وكيف يمكن تفسير هذا العدد القليل من الأقفاص إذا كان أبو العصافير يجلب من الغابة مثل هذا العدد، في كل مرة ينصب فخاخه في النقاط الستراتيجية؟

كان إيدو وناندو، الشريكان في تجارة العصافير والحيوانات الصغيرة، يعرضون في كل مرة عرضاً متنوعاً في المعرض الأسبوعي للمشترين الآتين من الأماكن المحيطة. إن العصفور يفرح البيت، وحتى أكثر البيوت فقراً يمكن أن يثري ويصبح جميلاً بالغناء وبوجود ريش البلابل، والكناري، والفنجس، والكوريو، والباباكابين، والكاردينال، والسابيا: اللائحة طويلة، أما الببغاء فإنها ودودة ورفيقة لا تقدر بثمن.

ولم تكن العصافير حسب، بل هناك حيوانات أخرى. كانت الأرملة ناتاليا تمتلك (جوبارا) بلون العسل المحروق يتخبط في صندوق ماكينة الخياطة. إذا صدقت الناس فإن هذا النوع من الحيوانات المسمى (بقرود منتصف الليل)، كانت تزرع أغراس الكاكاو: تنام طيلة النهار، وتقضي الليل بأحسن ما يكون عليه النشاط. ولم يكن دودو بيروبا يصطاد العصافير ليبيعها في المعرض، بل ليأسرها، ببساطة، في الأقفاص، مضيفاً الحياة على محل الحلاقة الذي كانوا يسمونه (العش) وبنفس الطريقة التي سموا فيها الفلاة المنظَّفة من العشب قاعة الرقص؛ وهذه هي طرق تسمية الأشياء على ألسنة سكان المكان.

كانت العصافير التي يربيها دودو ويدربها لا تصل إلى الطلبيات، ولا تستجيب إلى الطلبات الكثيرة من المزارع الكبيرة الممتدة من محطة تاكاراس إلى إيتابونا. بل كان رجل العصافير يسلمها رغماً عنه وحزيناً وبعد مناقشة طويلة. لم يكن يبيع لأول من يظهر هناك، ولأي كان. كان يريد، قبل أي شيء، التأكد من أن المشتري يحب الحيوانات حقاً، وليس واحداً من أولئك الذين يمتلكون الديكة الهراتية والعصافير التي يربونها للقتال والمراهنات.

وطليقة في محل الحلاقة كانت تعيش (فوغو بيغو). وهذه لم يسمح ببيعها مقابل ذهب العالم: كانت تحك أصابع رجليه، وتقف فوق كتفه أو فوق لمته مفتشة ثم ناقدة بمنقارها إلى شعرات الشيب هناك. لم تكن عروض الشراء تنقص. وكان قد تلقى عروضاً مختلفة رفضها كلها، وكان يثور حانقاً ويخرج على هدوئه المعتاد إذا ألح أصحاب العروض على الشراء. كيف يمكنه أن يعيش دون أن يسمعها في كل لحظة تردد شعارها الوتير والمسلي (فوغو – بيغو)، (فوغو – بيغو). وكان يمكن رؤيته عند الباب جالساً على مقعد خشبي والطير على رأسه ينقر قرعته.

مرة لاحظ في ليلة، بعد انقضاء صَخَب رجال القوافل، أن الصمت خيّم على الفلاة، فاستيقظ دودو بيروبا من نومه الخفيف متفاجئاً بالببغاء تردد شعارها السعيد: في تلك الساعة يجب أن تكون نائمة في القفص والفجر الأول لم يلح بعد. وقف على الأريكة وأخذ يصغي في الظلام: العصافير كانت نائمة، ولم يعد يأتي من الصالة الصراخ الذي كان قد استمر بنداء عنيد. هل يكون ذلك الذي سمعه قد أتى من طائر ضائع من الخارج؟ وربما يكون مجروح الجناح، لا يستطيع الطيران، ويطلب مساعدة.

تحرك من مكانه دون إثارة ضجة لكي لا يزعج العصافير، وتوجه نحو الباب. لم يمشِ أكثر من خطوتين: وفي الحال وجد المعوَّقة هناك، مستجمعة نفسها حول المطر، وعندما تبينته في الظلام، ابتسمت ساو، ووقفت على رجليها ومدّت له ذراعيها.

مياه فيضانات النهر
كادت تقضي على توكايا غراندي

1

تحت الأمطار الغزيرة، المفاجئة، وبينما يرشح منه الماء، وقد ابتل معطفه حتى كاد يعصر عصراً، ترجل العقيد روبستيانو دي أراجو عن مطيته عند باب محل حذّاء الحمير.. ثم سلّم اللجام إلى السركال الذي كان يرافقه ويدعى فزارينيو وهو أخ جيرينو الأصغر، وكلا الأخوين من أصحاب الثقة المطلقة عند العقيد:

– انتظرني في المستودع.

عند الباب حيا كاستور أبدووين المزارع الكبير بحفاوة:

– تفضل بالدخول يا عرّاب، البيت بيتك، لقد ولد فليونك، تعال وانظر أي خلاسي رائع هو.

كان العقيد هو الآخر خلاسياً. ولكن في تلك الربوع لم يكن التمييز بين البشر عنصرياً بل تمييزاً بين الأغنياء والفقراء: إن المزارع الكبير غير الأبيض لا بدّ من أن يكون أسود كالعقيد جوزي نيكي ليشرف العنصر؛ الزنجي زاي نيكي جميل ومليونير: – كان يعلن نفسه كذلك من أعلى حصانه الأصيل وهو يمسك بصوت الجلد المجدول ذي القبضة الفضية. وكان العقيد روبستيانو عند بداية الحصاد يقدم إلى الأب ماريانو باستوس كاهن كاتدرائية القديس جورجيوس، ضحية تمجد القديس المحارب، ويقدم طريدة كبيرة، على قدم المساواة، إلى الأب أرولا خادم الإله أوشوسي سيد الطبيعة.. وبواسطة الاثنين، القديس وخادمه، كان يجب المحافظة على الأمطار ضمن الحدود المعقولة لكي تتمكن براعم الكاكاو وديافيره من النمو دون أن تهددها عوامل الطبيعة، ولكي يأتي الحصاد وفيراً. الوعد طارئ وضروري: في أعالي مرتفعات نهر الأفاعي كانت الأمطار قد بدأت بالهطول، غزيرة.

خلع العقيد معطفه ووضعه قرب نار الحدادة ليجف: طقس أسوأ من هذا، وأكثر "تعهراً" لا يمكن أن يكون.

– لقد تلقيت رسالتك بخبرها السعيد، فجئت لزيارة العرّابة. فكيف هي الآن؟

– سعيدة كعصفور، ولا تكف عن الضحك.

كان الاتفاق ينفذ بهدوء. وعندما كان يدفع كاستور الدين الذي استلفه من العقيد لإقامة محل الحدادة، كان يدفعه أقساطاً يحددها وفقاً لما يريده. وكما وعده الدائن الكريم – ليس من الضروري

أن تقلق يا تيساو، لا تستعجل. كان يكرر العقيد لدى استلام كل قسط، وكان تيساو يعلن:

– عندما أتزوج يوماً سأطلب من سيادتك ومن السيدة إيزابيل أن تقوما بمعمودية ابني الأول.

– سنفعل ذلك بسرور كبير، يا تيساو.

وكان الزنجي متقيداً بالالتزام. أن يتزوج، فإنه لم يتزوج، ولكنه أقام معها بالمصاحبة، وعملياً فإن المسألة هي نفسها. وعندما بدأ بطن ديفا ينتفخ فإن كاستور حين شاهد العقيد في توكايا غراندي، قال له:

– لقد أقدمت يا حضرة العقيد، وأوصيت على الفليون.

وإذ أقاما معاً فإن كاستور وديفا كانا يبدوان كعاشقين: وسواء أدركه الزعل أو الفرح فهو لا يفقد أبداً مزاجه: كان الاثنان دائماً متشابكي الأيدي، ضاحكين، متبادلين للأسرار والقبلات، وكان يقال إن واحدهما خلق للآخر: يناديها بالسوداء، يا سودائي، وكانت تناديه يا "أبيضي". وعندما تريح رأسها على الصدر الأسود العريض يضع يده على بطنها المنتفخ ليقيس مبلغ النمو وينتظران مرتبكين.

في النهاية جاء الفجر صاخباً في خيمة الحداد. في بداية الحصاد كانت قد تقلصت حركة قوافل الكاكاو الجاف. وعندما، في أثناء الليل، بدأت الأوجاع تتصاعد، ذهب تيساو ليأتي بالديك الذي كان قد ربطه سابقاً إلى جذع شجرة الغويابا في البستان، وذبحه مقدماً إياه ضحية للآلهة. بعد ذلك ذهب ليأتي بكوروكا.

عاد تيساو ينتظر في الخارج، مبتلعاً صبره، أذناه مرهفتان، وعيناه على صديقه الدائم، الكلب "ألما بينادا". عندما سمع الصراخ، قفز كاستور قفزة واحدة واقتحم الغرفة حيث كانت كوروكا تمسك بيديها المولود الجديد وهي تعرضه ملطخاً بالدم على نور الضوء الشاحب ليراه الجميع: تيساو، ديفا، فانجيه، وليا ودينورا؛ في صدر الزنجي بدأ القلب يزداد خفقاناً، وشعر بعينيه مبتلتين. لم يكن يعرف الدموع سابقاً. حتى حين بلغه متأخراً موت عمه كريستوفار أبدووين الحداد الطيب. كان قد قال لديفا إذا جاء الطفل ذكراً فسأسميه باسم عمي كريستوفار الذي رباني، وإذا جاء أنثى فإنك تطلقين عليها الاسم الذي تريدين.

مباشرة بعد ذلك، وفي اليوم نفسه، أرسل خبراً بواسطة حادي القوافل، روميو دا روزا، إلى العقيد روبستيانو دي أراجو في مزرعة سانتا ماريانا:

– لا تنسَ أن تقول للعقيد إن فليونه قد ولد.

كان روميو دا روزا قد رافق جيرينو حتى خيمة الحداد لزيارة ديفا والتعرف على ابن تيساو، وكان الرهط هناك كاملاً، فلم يتغيب أحد. جلبت زيلدا قميصاً ولادياً وحذاء من القماش مطرزاً كانت قد صنعتهما بنفسها. وتناول فضول عبد الله من محفوظاته قلادة صغيرة من الذهب وعلقها في عنق كريستوفاو لتحرسه من العين الحاسدة، وبين أوائل الذين جاؤوا إلى هناك، باستياو دا روزا وأبيغال التي كانت منتفخة البطن مستديرة الشكل: كانت قد حبلت قبل ديفا وولدت بعدها بثلاثة أيام.

– إذا ولدت أنثى – قرّر معلم البناء – فإن الاثنين سوف يتحابان عندما يكبران، لقد تمّ التعاقد على ذلك منذ الآن.

في المزارع كان القطاف قد انتهى، وانتهوا إلى مرحلة تجفيف الكاكاو. جاء الموسم أكبر من كل الآمال والتوقعات وبلغ الإنتاج ضعف ما كان عليه في العام الماضي بسبب حمولة أغراس الكاكاو الجديدة. وأصبح المال في بيوت العقداء فراشاً للقطط، وتمّ إيداع العائدات في فروع بنك البرازيل في إيلايوس وإيتابونا، وفي الحسابات الجارية لشركات التصدير.. في الملاهي أصبح كبار المزارعين يأمرون بفتح الشمبانيا، ويقدمون الهدايا للفتيات كخواتم ألماس، وأساور الذهب، وعقود اللؤلؤ. ولكي يكون العقيد محترماً يجب أن يملك بيتاً مدنياً وآخر عسكرياً: في البيت المدني زوجة محافظة متدينة وربّة بيت مكرسة نفسها لخدمة العائلة وواجبات الأم، وفي البيت العسكري عشيقة جميلة وأنيقة، متخصصة في استرعاء النظر وإمتاع الجسد وإثارة الغيرة.

ومع النيَّة في إعطاء الأمور الحجم الذي تستحق فإن صوتاً خفيفاً في شوارع المدينة وعلى طرقات حقول الكاكاو، راح ينساب ليروي أن العقداء كانوا يشعلون السيجار بأوراق نقدية من فئة الخمسمائة ألف ريس. وفقاً لما بدا في الحقيقة فقد حدث في الليلة التذكارية التي أقيمت بانتهاء القطاف، وفي ملهى إيلايوس، أن العقيد داماسيو دي كاستور أو ربما ابنه الطالب زيكينيا – الروايات تتناقض في هذا الموضوع – قد أحرق ورقة نقدية من فئة الخمسمائة ليشعل بها سيجارة وانداملياو – مياو ضيفة الشرف الكبرى. أشعل سيجارة البولونية الحارة واستفاد من الشعلة المتقدة لإشعال سيجار سوبر ديك المصنوع باليد في مصنع فيلكس.

ولم يكن قطاف جاسنتا كوروكا أقل فرحاً وإنتاجاً، ولكنه قطاف للمولودين الجدد. لم تفقد أي طفل وبدلاً من سبعة، ولد تسعة، الواحد تلو الآخر. وكيف يحدث هذا إذا كانت الحبالى سبعاً ومن يتواكبن في توكايا غراندي مستعرضات أنفسهن على ضفتي النهر خلال فصل الشتاء المنصرم وتحت الرذاذ؟ إن دينورا، وفقاً لتوقعات المجتهدين، ولدت توأمين مع فارق نصف ساعة بين المولودتين مرتا وماريا اللتين كانتا أول إشراف لكوروكا على الإنتاج. أما التاسع، بالإضافة إلى توأمه آندي الذي ولد قبله، فقد جاءت به إلى الحياة غوارا سيابا زوجة بلو كوتينيو. وكان هذان الزوجان قد جاءا من ريكونكافو، ومنهما علم كاستور بموت عمه كريستوفار أبدووين وسلوك المداما البارونة المخلصة التي كرست نفسها للأعمال الخيرية في جمعية متريز. وكثر من السن فإن الشمس القارية قد جعلتها مسنّة ولكن دون أن تقلص من انطلاقتها، لأنها كانت لا تزال نشيطة وفعالة وخلال ترداد نشيد – أورا – برانوبيس الديني كانت تقتنص مراهقين دون تمييز عنصري للون، ولكنها كانت لا تزال تحتفظ ببعض الميل للسمر من أبناء الله المفضلين.

وإذ كانا بارعين مهنياً فإن غوارا سيابا وزوجها إيلوي قد ابتنيا لهما بيتاً خشبياً صغيراً وبدآ يعملان بجهد وتواصل في الجلود والخشب، وكادت غوارا سيابا تجهض في الطريق لما كانت تعانيه. أما الرائدة في تلك الولادات فكانت إيشتانسية تدعى زيفيرنيا وقد اختتمت هذه الجولة وجاءت بمولودها في الليلة التي بدأ فيها الطوفان.

خمس إناث وأربعة ذكور على يدي جاسنتا كوروكا المباركتين على لسان العجوز فانجي، بالإضافة إلى المديح الذي ينتقل من فم إلى فم: وكانوا قد بدأوا يأتون إلى المزارع المجاورة لما ذاع لكوروكا من صيت. كانت قد أنقذت حياة زوجة العقيد سيتيمبرينوا أرودا وطفلها وحوّلت الولادة العسيرة في الشهر السابع إلى نجاح كبير. وكانت السيدة بياتريز ترتاح في الدار الكبيرة في المزرعة، بين تاكاراس وتوكايا غراندي، بانتظار تاريخ الولادة المتوقع لتذهب إلى إيلايوس ويساعدها في الولادة الدكتور البارع إسماعيل ألفيس الذائع الصيت علماً وعمراً مناسباً. وفجأة بدأ المخاض ومعه الارتباك والركض في كل اتجاه، وليساعدنا الله، أرسلوا مبعوثاً على عجل ومعه أوامر بالمجيء بكوروكا طيراناً إذا أمكن. وصلت كوروكا وراحت تصوب إلى الأهداف مناضلة ضد الموت كفاً بكف ودون خوف. هل يمكن أن تكون قد فشلت؟

قدم العقيد روبستيانو أندرادي رزمة من الأوراق النقدية من فئة الخمسمائة إلى ديفا، وهي أوراق تليق بمن كان يقطف أكثر من خمسة آلاف غرسة من الكاكاو، ويدفع لوشم اسمه على ما يعادلها من المواشي ذات القطعان التي لا تعد من الثيران والبقر والعجول وثورين للسفاد اشتراهما بنقود ذهبية من ميناس جيراس وهما عجلان ولدا ابنين لصاحب الرقم القياسي الشهير الذي استورده مربي العجول العقيد ألفريدو ماشادو. أوراق نقدية من فئة الخمسمائة الجديدة اللماعة.

– إنها إيزابيل من أرسلت لقريبتها هذا المبلغ لتشتري بعض الحاجات للفليون. زيارة تهنئة، ومفرحة بالنتيجة. في هذه الأثناء لاحظ تيساو في حركات المزارع، الذي اعتاد عليه محدثاً لبقاً واثقاً، بعض الارتباك؛ لم يغامر الزنجي بالسؤال عن السبب ولكن العقيد، وبينما هو يستأذن بالانصراف عند باب محل الحدادة، أفصح عن السر:

– إني قلق يا تيساو، قلق جداً.

– ولماذا؟ إذا سمحت بالسؤال يا حضرة العقيد؟

– إنها تمطر بلا توقف عند أعلى النهر، كأنها حبال من الماء تزداد أكثر فأكثر. إن النهر قد امتلأ أكثر مما يجب. لا أعرف ما الذي يمكن أن يحدث. لا يحدث شيء إن شاء الله، ولكن بسبب الشكوك التي تعتريني، فقد اتخذت الاحتياطات اللازمة لأسحب القطيع إلى تلك المراعي في الداخل.

هناك أيضاً يملأ المطر الوادي ويجعل النهر يرتفع؛ تأخر المزارع وحَذّاء الحمير قليلاً وهما يتفحصان السماء الملبدة بالغيوم السوداء، ويصغيان إلى أنين الريح التي تعصف بالغابة، وأكمل العقيد روبستيانو دي أراجو قبل أن ينصرف وسط الإعصار:

– إن خوفي الكبير هو على أغراس الكاكاو التي أخذت تزهر: قد يضيع الموسم المقبل. سنتوسل إلى الله حتى يوقف المطر.

4

السيد سيسرو مورا، المعروف في المباغي بلقب دكتور برمانغانانو القصير القامة والنحيل الجسد، ممثل شركة كويفمان وشركاه إحدى كبريات شركات تصدير الكاكاو، كان يصعد ويهبط أراضي نهر الأفاعي ممتطياً نفيلوبي، الحمار البطيء ذا الخطوة الرتيبة الحذرة. وفي الطرقات

الغارقة في الطين والمقطوعة بالمنحدرات الخطيرة والمهاوي الضيقة المفاجئة، فإن سلامة الراكب تتعلق بجودة المطية.

حتى يجتاز الشعاب المفتوحة وسط الغابة، لم يكن السيد سيسرو مورا يتخلى عن ربطة عنقه الفاقعة الألوان، وعن المنديل الحريري على العنق، والقفازين، وطرف المنديل المتدلي من صدر سترته وسلسال ساعة الجيب المتدلي من الصدرية والشعر اللامع بفعل الدهن البراق، والفرق وسط شعره المسرح ومثلما يقضي الزي العصري. كانت الطريق إلى تلك المجاهل هي نفسها إلى قاعة عرض باريسية. وبطريقة ما، هكذا هو الأمر، فإنه في الدور الكبيرة في المزارع، وحيث يمكن أن يستريح عندما يستطيع ذلك، فإن وصوله يحرك الخادمات والطباخات، كونه قد وصل إلى الطاولة المليئة بالطيبات وإلى الخادمات هنالك. وبالرغم من قصر قامته وهزاله فإنه كان يأكل وزنه في كل وجبة. أما ما هو متعلق بالخادمات، فإن الأسباب التي تدعوه إلى تفضيلهن فعديدة.

إن أفضل زبائن سيسرو مورا كانوا من صغار المزارعين، فهؤلاء يحتاجون إلى النقد لمواجهة التكاليف، ولم يكن بمقدورهم أن ينتظروا طويلاً حتى يبلغ سعر الكاكاو حدّه الأقصى كما كان يفعل كبار المزارعين. وكان السيد سيسرو مورا يشتري مسبقاً، وبسعرٍ مناسب ويدفع سلفاً. وفي هذه الحقول الصغيرة كان يناقش قليلاً ويعقد الصفقات وهو يرشف فنجاناً من القهوة أو كأساً من شراب الجنيبابو. ولكنه رغبة في الحلول ضيفاً وفي الأكل وتمضية الليل، كان يفضل المزارع الكبيرة حيث الطعام من الدرجة الأولى والخادمات في البيوت جميلات وطيبات.

جميلات وطيبات يسعدنه بصباهن وطاقتهن.

وعندما يتمدد معهن كان يعتبر نفسه مرغوباً، وسليماً من خطر التقاط مرض بشع، ولم يكد يبدأ بارتياد المجاهل في قفا العالم حتى أصيب بمرض زهري في أحد المباغي في تاكاراس وأصبح المرض مزمناً وسبب له المتاعب المستمرة. ومنذ ذلك الحين كان يحمل معه في سفراته مسحوق "البرمانغانات": إذا كان عليه أن يعاقب نفسه بمضاجعة بنت هوى فإنه كان يفرض على العاهرة أن تبدأ بغسل مطارحها بمحلول "البرمانغانات". وهذا الشرط لا يقبل المناقشة للقيام بالمهمة والدفع لاحقاً، ولم يكن غبياً، إذ كانت الفتيات يستجبن لرغباته. ولكنه لم يكن يلجأ إلى العاهرات إلا في الحالات الطارئة. في أحضان الخادمات كان يحس بأنه آمن على نفسه وكونهن مفضوضات ومملوكات للعقداء كان عليهن أن يكن نظيفات وصحيات. لم يكن يحتقر المصاحبات، وكان يمكن

أن يكرس حياته لصبية صغيرة مفتضة البكارة حديثاً. إن السيد سيسرو مورا كان مهووساً قصير القامة، ومجنوناً بالنساء.

كان قد غدا شخصية شعبية في حدود ولايات نهر الأفاعي. وفي الحقيبة الجلدية المنتفخة، بالإضافة إلى دفتر الملاحظات الذي يسجل فيه عدد المشتريات ومبالغ المدفوعات، كان يأتي معه بدفاتر صغيرة، ملونة، يوزعها بالتساوي على زوجات العقداء والخادمات في مقرات الإقامة الكبرى في المزارع وعلى فتيات الهوى في المباغي: ويتم استلام الهدية، دائماً مع الشكر. كان يشاهد سيسرو مورا من حين إلى آخر يترجل عن الحمار "تفيلوبي" أمام دكان العربي فضول عبد الله ويتناول جرعة مضاعفة من الكونياك ويستفهم عن النساء:

– هل من قطيع جديد في المحيط يا صديقي فضول؟ عجلة أصيلة غير حامل؟ وإذ بدأ جولته في المرحلة التي تلي القطاف ومعها أمطار الصيف فإن مشتري الكاكاو مرَّ بتوكايا غراندي وطرح سؤاله المعتاد. أشار التركي بإصبعه إلى العوراء الواقفة فوق الجسر وهي تغطي نفسها بكيس من البلاستيك الشفاف.

– إن أحدهم قد أكل براعمها – حتى هذا الديك هنا يشاركهم في ذلك – أشار إلى دورفالينيو المنشغل بغسيل الأواني قرب البئر.

واستمر سيسرو مورا يستقصي التفاصيل عن العمر والخبرة: متى حدث هذا على وجه التقريب؟ هكذا، حديثاً، ولا يزال مطرحها مزهراً. ولم يتسنَّ لها الوقت لتلتقط مرضاً، وهي تفعل ذلك رغبة لا حباً بالمال، وهي بالتحديد كما يرغب سيسرو مورا الذي ابتلع المتبقي من الكونياك واتجه إلى الجسر الكبير: النظر منطفئ!

5

بينما يصب الكاشاسا القليلة للزبائن وهو في الجهة المقابلة من الباب، كان فضول عبد الله يقيس الأنباء المثيرة بعينيه الملقيتين على السماء المكفهرة. آراء مرتجلة، تكهنات، وتعجبات تستدعي التحفظ تدور كلها حول البار المتسخ.. وكذلك قلب اللبناني كان مرتبكاً.

قبل أن يتابع الطريق إلى تاكاراس تحت المطر الغزير، كان العقيد روبستيانو دي أراجو قد توقف في دكان العربي ليلقي عليه تحية الصباح، ويتناول جرعة مبيناً قلقه ضد علامات تشير إلى فيضان مرتقب مؤكداً الاضطراب الذي يستهلكه:

– سأذهب إلى إيلايوس ولكنني سأعود في الحال. منذ خمسة عشر عاماً لم أرَ مطراً بهذه الغزارة. إن المسألة جدية للغاية.

وبالسرعة نفسها فإن النقيب ناتاريو دا فونسيكا كان قد وصل بعد غياب طويل في مزارع بوا فيشتا وأتالايا، آتياً معه بأخبار محزنة بلغته في إيتابونا عن أغراس الكاكاو التي يهددها المطر. إن نهر كاشويرا قد بدأ يفيض مغرقاً المزارع، مدمراً الأغراس، محولاً الحقول إلى بحيرة واسعة، ومبعداً العمال من هنالك إلى بلدة فرداس.

لم يكن العقيد بوافنتورا أندرادي أقل قلقاً، وقد انتهز الفرصة لإرسال السيدة أرنستينا إلى القصر الصغير في إيلايوس، ولكن ليس قبل أن تشعل السيدة الفاضلة عدة دزينات من الشموع في الكنيسة الصغيرة عند أقدام القديس يوسف، وبمساعدة الصبية ساكرامنتو. "الحب الصغير" المكرسة نفسها لسيديها، الرصينة الهادئة. وديعة ومطيعة، كان العقيد يضيف الصفات وهو يتكلم إلى رفيقتيه الدائمتين، وهو يأخذ ساكرامنتو بين ذراعيه المرحبتين لكي تستطيع أم تتحمل الأحزان الجديدة المضافة إلى أحزانها الثقيلة ومرارتها السابقة. وإذا لم يتأثر القديس يوسف بالشموع والوعود، واستمر الفيضان في أعالي سفوح نهر الأفاعي، فإن ما سيحدث شبيه بما حدث عند نهر كاشويرا وسيتعرض المحصول لخطر كبير.

لم يكن العقيد روبستيانو والنقيب ناتاريو وهما أسياد أرض وأصحاب مزارع وحدهما، ليتبادلا الحديث في الأمر. القتلة والمرتزقة والمارون في محطة السكة، وفي المدن، وزمر العاهرات المتقاعدات كن يرددن اللغط المتكرر: إن المياه كانت ترتفع وترتفع مهددة حقول الكاكاو. وكذلك بيدرو سيغانو وقد بللته الأمطار كان قد جاء مفتشاً عن مأوى في توكايا غراندي:

– لم تعد هنالك طرقات، فكلها تحولت إلى أكوام من الطين، ولم يعد بإمكان القوافل أن تمر. سأبقى هنا إلى أن يرسل الله برحمته.

وراء بار تجارته المزدهرة، كان فضول عبد الله يصغي إلى تقارير القلق، والتكهنات السيئة. كلهم، المزارعون والأجراء، الفتيات وعازف الهرمونيكا، كانوا قلقين على براعم الكاكاو، وعلى الديافير الجديدة التي ولدت على أشجار الكاكاو، وعلى مواسم الحصاد.

وبينما يصغي كان يلاحظ أن لا أحد يشير إلى مصير الأحياء. كان الجميع يحسبون مبلغ الأضرار التي سيسببها طوفان نهر كاشويرا، ولكن مع حظ الذين عطلت أعمالهم وغدوا بلا مأوى أو

طعام، وانتشروا في فرداس، لم يكن أحد يعلم عنهم أو يظهر الأسى لمصيرهم. وإذ سأل عما حدث لأولئك الأشقياء، فلم يعلم، سوى أشياء غامضة عن اقتحام الجذام الأسود.. والحالات القليلة عن الجذام ليست سبب القلق، ولكن حين تزهر البكتيريا فإن الموت يصبح في عيد وتغدو الفواتير باهظة.

كانت قد انقضت أكثر من عشرين سنة على وصول عبد الله فضول إلى أرض الكاكاو حيث تحول إلى ريفي بالروح وبالأحشاء أولاً، ورسمياً بالتالي. احتفظ في عمق صندوق خشبي بوثيقة الأحوال المدنية التي منحت له من مكتب الجنسية في إيتابونا حيث يمكن قراءة مكان وتاريخ ولادة الطفل، الذكر الأبيض البشرة، الذي اكتسب في المعمودية اسم فضول. أبصر النور في مزرعة آرارواما. الرجال والنساء، الفتيات والبنات الذين كانوا يأتون إلى البرازيل من النصف الآخر للكرة الأرضية كانوا يعودون ليولدوا من جديد كبرازيليين بعد جهد المعاملات الرسمية التي تتسم بالرشوة وتزوير موظفي الدولة.

إنهم برازيليون طيبون، يجب الاعتراف حتى تكتمل الحقيقة. وكاد فضول أن ينسى اليوم الظروف التي هبط معها في إيلايوس وهو لا يزال مراهقاً ليعمل. ومعه وصيته إلى مواطنه اللبناني إميليو سليم صاحب أسواق الإسكندرية حيث شقي وتعلم العمل.. ولكنه حتى الآن لم يصل إلى حيث هو مزمع عليه: وفي وطنه الريفي الجديد تأتي جذوع أشجار الكاكاو قبل النساء والرجال، وهي أغلى ثمناً.

كان السيد سيسرو مورا، قد وصل بشكل مفاجئ وكان مفروضاً به أن يكون منتقلاً من مزرعة إلى أخرى ليشتري الكاكاو لحساب كويفمان وشركائه ثم ربط بغله إلى مربط الخيل قرب الدكان ووصل إلى البار محترزاً لكي لا يوسخ أردان معطفه الذي ظلَّ معطفاً جيداً بالرغم من كل ما ابتلعه من أمطار. وتعجب فضول لأن الواصل لم يسأل عن أخبار النساء ولم يرد أن يعرف أي شيء. الوجه مكفهر، لا يخفي القلق:

– إن الوضع أسود، يا صديقي فضول، وليس من أحد يريد أن يعقد صفقة، سأمكث هنا إلى أن تتوقف الأمطار عن الهطول.

تعجب فضول: لكون الانتظار في توكايا غراندي! إن الأستاذ برمانغانانو اعتاد البقاء في تاكاراس حيث يقيم أيضاً بعض من أقاربه. ولكن اللبناني لم يسأل: ففي بار القلعة الحصينة كان

فضول قد علم بسبب الأشياء ولم تعد هنالك ضرورة لإبداء الفضول أو الاهتمام، أو الظهور بمظهر المتطفل.

6

توجهت كوروكا إلى قلعة الأشتانسيين على الضفة الأخرى من النهر، وبرفقتها تاسيسيو. وبينما كانت تجتاز النهر لاحظت ارتفاع المستوى الفائض من منسوب مياه النهر. كان النهر ممتلئاً صاخباً، تنساب مياهه بغضب معلنة شيئاً ما. تأملت في أكوام الزهور والنباتات المتجمعة عند الصخور التي يتكون عندها التجمع المائي عند المصب.. ولفتت نظرها زهرة زرقاء مشرئبة بين زورقين خضراوين صامدة عبر صخب المياه المتدفقة متكيفة برهافة وكبرياء. إن النهر صديق صدوق: كان يمنحهم الأسماك والمحار والمياه لكل الحاجات، وفيه يستحمون، ويغسلون الملابس، ويقتلون الوقت بالثرثرة والتأفف في الكلام. وفي الليالي المقمرة والليالي المظلمة على السواء، كان العشاق يستعملون النهر للحب والعناق ويغوصون في مياهه العذبة بأذرع متشابكة، ويلتجئون وسط مقاصب الخيزران، ودون سبب، فلماذا، تحول النهر إلى عدو، يفور بالشتائم، ويطلق التهديد. هكذا فكرت كوروكا، ولكنها لم تقل شيئاً حتى لا تزيد من أحزان الرفيق الذي يتوسل إليها.

الفتى يسير مسرعاً ومتوتراً، وكان ذلك طبيعياً: إن زوجته زيفيرينا كانت قد بدأت تشكو من الطلقات الأولى، وكانت أوجاع الولادة لا تزال خفيفة ومتقطعة. وإذ أصيب بالذهول، فقد ذهب وسط الإعصار إلى كوخ الخشب عند أسفل المنحدرات. لم ينتظر انقشاع الغيوم المتلبدة أو بدء التجمعات المائية بتفريغ نفسها ليخرج مفتشاً عن القابلة.

لقد جاءت الساعة يا سيدة كوروكا، هيا بنا، هيا بنا، كم من المرات كانت كوروكا قد أصغت إلى الأمر المتوسل توسلاً، وذهبت مستجيبة للنداء، وخرجت، تنازع هي الأخرى؟ كانت تسيطر على الخوف والعصبية، ولم تكن تستعيد الهدوء الضروري إلا عندما تصل إلى المكان المقصود وتبدأ عملية الولادة: هي واقفة من جهة، والموت لها بالمرصاد من جهة أخرى. وها هي تجد المسألة أشد إقلاقاً، وخفقات قلبها أشد تسارعاً. ولم تكن الساعة قد تجاوزت الثالثة من بعد الظهر وقد تراءى للجميع أن كابوساً طويلاً بشعاً ومحزناً سيخيم فوق توكايا غراندي.

هيا بنا، وافقت كوروكا وهي تبتسم بغية تهدئة تارسيسيو؛ غطت رأسها بكيس وذهبت لتساعد في ولادة زيفيرينا.

أنين الرياح كان يهدد بحمل جسد كوروكا المتعب. وعند الجسر كان عليها أن تمسك بذراع رفيقها لتتماسك... مع هذه الأمطار الغزيرة لم يكن أحد يضع قدماً خارج البيت، ولكن هذا لا يفيد، وليس بمقدور الحامل أن تعين ساعة الولادة.

إن ولادة زيفيرينا سهلة، مثل ولادة هيلدا وفاوستا، ولكن ولادة إيزوا، كانت مشقة وتكاد تكون ضعف ولادة دينورا إيلاماً... وولدت زيفيرينا بعد التاسعة ليلاً فأعلنت ليوكاديا الاسم المختار: جاسنتا، وهو اسم كوروكا الحقيقي التي قامت بدور القابلة في ولادة ثلاثة أطفال من العائلة الأشتانسية، ومن يستحق أكثر من كوروكا مثل هذا التكريم؟ جرى كل شيء بانتظام، ثم غسلت كوروكا يديها بقطعة صغيرة من صابون الكوكو، وها هو نبأ آخر عن الأشتانسيين، وبدأ توزيع القهوة وجرعات الكاشاسا التي جهزها غابرييل... بعد ذلك رفضت كوروكا أن يرافقها أحد في طريق العودة – وأين رأت شيئاً مثل هذا؟ وبينما هي تجتاز الجسر شعرت بالقلق: المياه صاخبة، متمردة، مجتاحة، كانت قد بدأت تغطي الألواح الخشبية للجسر بشكل لا يمكن السيطرة عليه. لم تكد تصل إلى عتبة البيت حتى سمعت دوياً مقلقاً.

7

التجمع المائي الأعلى الذي غزته الأمطار ازداد ارتفاعاً عند مصبات نهر الأفاعي وكان يتحول إلى جبل شاهق ما لبث أن انفجر. عندئذ تدفق النهر من الأعالي مزمجراً يجتاح في تدفقه كل ما يطالعه. عند الحدود المرسومة للضفتين ارتفعت المياه عن الجانبين وانقضت لتغرق توكايا غراندي.. كان مشهداً مرعباً. يتذكر اللبناني فضول.

في الغابة التي غزتها السيول فرّت الحيوانات مرتعبة تتسلق الأشجار أو تندس في داخل الأرض بنزوح امتزجت فيه الأفاعي بالزحافات البرمائية، والطيور بالقرود، والأرانب البرية بالوعول، وتحركت السلاحف بطيئة من مكان إلى آخر. كل من لم يهرب في الوقت المناسب وجد نفسه مناضلاً ضد التيار، ولم تلبث الجثث العديدة والمتنوعة أن بدأت بالظهور من الحيوانات البرية والمخلوقات الداجنة.

مع دوي الرعود المتلاحقة والسيول الهادرة دفعة واحدة، فقد استيقظ من كان نائماً. أما من كان يسهر على ضوء الشموع بانتظار الأسوأ فقد انتفض من مكانه واقفاً. واندفع الجميع إلى الأبواب الخارجية. كان النهر قد فاض متدفقاً، وكانت تجمعات المياه قد كبرت وانتشرت في كل لحظة،

والاندفاعات المائية تدمر في طريقها كل شيء... وانضمت الريح إلى غضب النهر، تكسر وتشلع ليجهز الاثنان معاً على البساتين... وبدأت تلوح في القمة أطياف الذين خرجوا وبأيديهم الفوانيس التي لا تلبث أن تنطفئ. وآخرون يصيحون بتوجيهات، وغيرهم يطلبون النجدة. وتعطي أوامر من يدري ما هي: كان الإعصار يبتلع في جملة ما ابتلع الكلمات وأضواء الفوانيس. لم يكن يسمع شيء سوى الهزيم المرعب للإعصار وصخب الطوفان الشيطاني.

مرَّ رجل راكضاً، كان ذلك هو النجار لوبيسينيو الذي ذهب ليقف قرب الجسر. هل كان يفكر في أن يدعم الجسر بيديه، وأن يمنع انهياره بجسده؟ وكانت النسوة قد تدفقن من أسفل المنحدرات لا وجهة لهن، ووصل آخرون من طريق الحمير. الجميع يتجمعون في الموقع مع لغط وارتباك، وصراخ وبكاء. لم يكن أحد يعلم إلى أين يذهب، أو ماذا يفعل.

أقوى من الرعب واليأس، كان صوت العربي فضول عبد الله هو الذي استطاع وحده أن يكون أقوى من أنين الريح وصخب المياه المتدفقة. وبينما قبضتا يديه متجمعتان كان يتحدى بهما السماوات.

8

البناء الأول الذي تهدم وانجرف مع لجة الماء الهائلة كان كوخ السعف القديم، تلك السَّعَف التي اهتزت بفعل الزمن، وقلعت معها في الجرف ذكرى الأفراح والأحزان. عندما كان هناك مناسبة للرقص، وعلى الأخص الدبكة، كان القاع الخشبي للكوخ يبدو أقوى من الأسمنت. وهناك كان فضول عبد الله يستخدم مفردات الملاهي، وأطلق عليه بلفظ تفخيمي اسم "صالون الباليه". والمكان أيضاً استخدم كمنامة لرجال القوافل والمارة الذين كانوا يشعلون هنالك الخشب لشي الطرائد وتسخين القهوة. يجتمعون فيه حول أوراق اللعب محولين إياه إلى صالة مقامرة، وكازينو مراهنات، وباحة مواجهات وعراكات عند الاقتضاء بخناجر الفولاذ... وكان المكان أيضاً ندوة للمناظرات، ومسرحاً للأغاني الشعبية والفولكلورية والأنغام الموسيقية.. واستعمل في جملة ما استعمل كاستراحة في مستشفى يؤمها المرضى في طريقهم إلى إيتابونا سعياً وراء طبيب أو صيدلية. وكذلك استعمل ككنيسة لمراسم الدفن حيث كان أهل الفقيد والمعزون يجتمعون ليتذكروا أعمال الميت وصفاته الحميدة بحرية تنفحها فيهم الكاشاسا. وهو أيضاً أرض الغزل حيث يلتقي العشاق وتسمع المدائح والإطراءات وحيث كان المولهون يختلفون ويتفرقون، وحيث كانت تولد الأحلام وتتحطم... وهناك

كان للعنف مكان حيث في الصراعات الدامية سالت الدماء ووقع قتلى.. وهناك سمع الجميع الإعلان الذي أطلقه فضول عبد الله بصوت عالٍ ونبرة جميلة باسم المجموعة السكانية الصغيرة التي كانت تعيش في توكايا غراندي وتناضل: في توكايا غراندي الجميع للواحد، والواحد للجميع، وهذا هو مبدأ المكان. ويستحق الأمر عناء تذكرها في ساعة الانهيار القدرية عندما شوهدت الحقول مهددة بالاختفاء عندما انتفض اللبناني مرة ثانية ليتكلم باسم المجموعة التي غدت الآن أكثر عدداً... وهنالك كان عهد الحياة وانتصارها على الموت...

9

وسط السعف المبعثر والقش الطافي فوق الماء تمّ التعرف على الأشياء التي تعود إلى سيسرو مورا: القفازات الجلدية، الشال الصلب، ربطة العنق والقميص. أين يمكن أن يكون المعطف وهو قطعة ذات أهمية؟ وأين يمكن أن يكون شاري الكاكاو نفسه، المواطن المتميز، وممثل "كويفمان وشركائه"؟

10

فيما بعد انجرفت مع المياه كل ألواح القش، والأكواخ الخشبية، وأماكن الإقامة البائسة، وكذلك انجرف ما يكاد أن يكون لا شيئاً مما يمتلكونه: أوعية معدنية، وعلب صفيح حولوها لاستعمالات شتى، والأغطية القذرة التي كانوا يلتحفون بها.

لم يبقَ واقفاً غير البيت الخشبي الذي أمر النقيب ببنائه لإيواء كوروكا برناردا: العجوز والصبية. وكذلك غمرت المياه آنية النفط الأبيض، ومهد الطفل وخرق الملبوسات... وعلى دفعتين متتاليتين جرفت المياه ولم يبقَ من بايشا دوس سابوس غير الاسم.

11

عندما سمعت الدوي الهائل، سارعت كوروكا الخطو إلى البيت، ودخلت تنادي على برناردا. ولم تنتظر أن تصرف الضيف، فتناولت الصغير وخرجت راكضة وهي ترشح ماء منحنية أمام الريح، وبينما هي تخرج، أعلمت برناردا:

– إنني ذاهبة إلى بيت النقيب وسآخذ نادينيو معي.. الحقيني بسرعة.

وأدركتها برناردا عند بداية الدرج الحجري، مرتعبة:

– ما هذا المطر يا عمتي؟ لم أرَ مثله قط..

أعادت كوروكا الطفل إلى أمه:

– ليته كان مطراً فحسب... إنه الطوفان، ألم تعلمي بذلك؟

– كنت مشغولة. إلى أين تذهبين؟

استدارت كوروكا نصف استدارة وأمسكت برناردا من ذراعها، وكانت الريح تمر بين سيقان المرأتين داوية وتجعلهما منحنيتين:

– لقد ولدت زيفيرينا منذ قليل، فأنا سأذهب لرؤيتها ورؤية الطفلة، على أن أساعد بأية طريقة أستطيع.

عند أعلى القمة كانت خيالات أجساد تتحرك. لم يخطر على بال برناردا أن تتخلى عن العجوز، وعلى العكس فقد مدّت إليها بذراعيها، وناولتها الطفل، وقبل أن تعود إلى البيت أخبرتها:

– سأترك نادينيو مع العمة زيلدا وسأوافيك إلى هناك.

– من الأفضل أن تمكثي هنا. سيكون عليك أن تقومي بأعمال عديدة.

– ربما.

وهبطت كوروكا متوازنة الدرجات غير المتناسقة بينما تابعت برناردا صعودها. ثم جاء إيدو لملاقاتها:

– هل تريدين أن أساعدك؟ أعطيني الصغير. إن أمي في انتظارك...

– لا ضرورة لذلك. وأنت؟ إلى أين تذهب؟

سأخرج الحمار لأذهب وأحضر أبي في إيتالايا الذي لا يعلم شيئاً مما يحدث.

سمعا ضجة كوخ السعف الذي انهار. وتوقفتا، وحاولتا أن تتبينا شيئاً في الظلام، بينما الريح تقص كحدِّ السكين.

– اركضي بسرعة.

تابعت برناردا بينما الطفل يبكي. عن الشرفة تبين نصف زيلدا الأعلى، فقد ركضت إلى برناردا ومدّت بيديها لتناول الطفل:

– أعطني ابني.

فقط عندما التجأت إلى بيت عرّابيها، أحست برناردا بالخوف: لم يكن الخوف من الطوفان، أو من الموت. كان خوفاً من ذاك: لقد كان خوفاً من تنكرات الحياة للإنسان. كانت كوروكا قد حذرتها: عندما تأتي عاهرة بطفل إلى هذا العالم، فإن أحدهما يجب أن يهيئ نفسه للعذاب. فأما عذاب الابن في وقاحة حياة المباغي، وإما عذاب الأم الموزعة بين الاثنين، وقلبها خارج صدرها.

12

الأحداث، الكبيرة والصغيرة، والأخيرة ليست أقل أهمية، كانت أحداثاً متنوعة في الوقت نفسه، وبنفس السرعة التي لا تصدق والتي معها كانت المياه تتجمع وتتراكم لتغطي الوادي برمته وأسفل المرتفعات، بحر، ربما يكون تشبيهاً غير ملائم – قال العجوز جيرينو الذي لم يرَ البحر أبداً ولكنه يعرفه واسع الامتداد..

وبينما هم يتخلون عن منازلهم تحت وطأة غضب النهر المتفجّر، فإن السكان انتبهوا إلى أنهم يسيرون في الماء حتى ركبهم، ولكنهم لم يعطوا الفرصة للتعجب لأن المياه استمرت في الصعود إلى أن بلغت الظهور وتجاوزت البطون ووصلت إلى صدور طوال القامات وأعناق القصار منهم. وأخذ الناس يصعدون متبينين الدرجات التي يمكن أن تقودهم إلى بيت النقيب.

ليلة كابوس بدأ بالتخريب وكاد أن يجهز على كل شيء. بالرغم من العذابات القاسية كان ممكناً إعطاء الأوامر باتخاذ التدابير عندما كان الطوفان لا يزال دون مستوى الرجال المكتملين. الفتيات كن يذهبن من محل الحدادة إلى دكان فضول يطلقن صرخات وولولات لا معنى لها، ويستنجدن بكاستور وفضول. ومن بعضهن الأكثر ارتعاباً كانت تخرج صرخات هستيرية تعلن عن نهاية العالم. الأكواخ والتخشيبات انجرفت مع السيول شبيهة بفواكه مهترئة وقعت من أشجارها. ولم يبقَ واقفاً إلا الدور القديمة المبنية بالحجر والطين التي غزتها المياه التي كانت تدخل ثم تخرج من الأبواب والنوافذ وقد طردت المقيمين فيها.

الذين لم يعرفوا الخوف إلا قليلاً، من الشجعان والقبضايات المعتادين على التعايش مع الحيوانات المفترسة والأفاعي السامة وتحدي الموت في الطرقات والمكائن، من مستزلمين وحملة بنادق، وجدوا أنفسهم فجأة مهددين بقوى فوقية خارقة. المياه الثائرة تهدم البيوت، وتغرق الحيوانات، والرياح تقتلع الأشجار وتنثرها في الأعالي – ولم يكونوا يعرفون كيف يواجهون تلك القوى، وأحسوا بأنفسهم مجردين من الأسلحة لا حول لهم ولا قوة. إن الأسلحة النارية، من مسدسات، وبنادق وغدارات،

والسلاح الأبيض والخناجر والسكاكين الحادة لم تكن لتحل شيئاً، وكان الأمر يستدعي وجود شجاعة من نوع آخر.

كانوا قد أحاطوا بفضول لا يعرفون ما يفعلون، لم يكن ينقص عمل شيء إذا كانوا يريدون مواجهة الوضع وتحديد النتائج. يكفي أن ينظروا حولهم مرافقين حركة اللبناني الآمرة، ويداه ممدودتان. إن فضول لم يتردد، كان قد انتهى من الإفصاح إلى الله بالحقائق الأخيرة، وأصبح جاهزاً لكل ما يحدث أو يجيء به القدر.. وليكن ما يكون.

ابتدأ فضول بإعادة الثقة إلى دورفالينيو الذي كاد أن يفقد عقله عندما شاهد ملابس السيد سيسرو مورا طافية فوق المياه. امتقع لونه وراح يرتجف. جحظت عيناه وهو يشير إلى القميص وزوج الأحذية، وبدأ يصيح كأنه مولود جديد ويبدي دلائل الذهول كما لو أن فضول لا تكفيه العاهرات. واستعجل فضول وضع نهاية للمثل السيئ قبل أن يبدأ الآخرون بتقليده ويصبح اللغط عاماً. ولم يضع فضول الوقت بالخطب والنصائح، والتجأ إلى العلاج الناجح: ألقى بكف يده عند أسفل أذن الذي أصبح يعلم ما في الأمر، صفعة واحدة كانت كافية:

– تحمل يا جبان.

جاءت الصفعة طلقة وثقباً. وتحمل دورفالينيو العلامات: وهو إن لم يستعد الهدوء فقد ابتلع الارتعاب وبدأ العمل في اللحظة نفسها. جبان ورعديد هي كلمة غير مناسبة، لقد كان ارتعاباً وشعوراً سيئاً للغاية. وظلَّ من وقت لآخر يرتجف، ويفتح فمه كمن يريد أن يقول شيئاً، لكنه لا يلبث أن يبتلعه محتفظاً لنفسه بالأشياء... إن ما كان عليه سيده في تلك المناسبة لا يسمح بمناقشة الأوامر.

وبغية استعادة الهدوء ومنع انتشار الفوضى، أضاف فضول لكل واحد، في الحال، مسؤوليات محددة للمواجهة والقيام بعمل ما. إن على كاستور أبدووين وباستياو أن يهتما بسكان الضفة الأخرى، لكونهما أقارب السرجيبيين برباط المصاحبة.

13

لم يلبث منزل النقيب أن امتلأ بالناس وهناك حتى الأكثر شجاعة أحسوا بنفوسهم في أمان إزاء كل شيء، وإزاء الجميع، بما في ذلك قوى الطبيعة التي لا يمكن مواجهتها، حتى إنهم أحسوا

بأنفسهم بمنجاة من غضب الله وعقابه. كل ذلك لأنهم وجدوا أنفسهم في بيت يقع عند أعلى الهضبة ولكونهم أصبحوا محسوبين على ناتاريو دا فونسيكا.

إلى هناك نقلوا المواليد الجدد والنساء الحوامل، بالإضافة إلى فتاة نالت منها الحمى، تدعى ألزيرا، لم يكن بمقدورها أن تمشي فتم نقلها على ظهر بالينو. في غرفة الجلوس كان نادينيو طفل برناردا يقوم بخطواته الأولى ولا يستطيع المحافظة على التوازن وكان أبناء النقيب يحيطون به ويمسكونه مقهقهين بالضحك. وجاءت برناردا للمساعدة وفي عينيها المنظر المقلق الناتج عن ذلك الفرح غير المكترث بشيء.

وكذلك ديفا، بعدما وضعت طفلتها في عهدة زيلدا اجتازت الحقول حيث غمرتها المياه حتى وسطها وأرادت بذلك أن تصل إلى أهلها على الضفة الثانية من النهر، مواجهة الفيضان، غير مطيعة لتيساو الذي قال لها:

– ابقي مع الطفل. سأقوم أنا بالذهاب إلى هناك.

الصغار على الفراش الزوجي، المريضة في شبكة إيدو، النساء يبكين، الرجال صامتون، متهيبون، ووسط تلك المعمعة فكرت زيلدا في ما يمكن أن يخفف من الخوف السائد ويعطي بعض الثقة إلى الضعفاء والمرتعبين الذين التجأوا إلى هناك.. والقيام بالصلاة كما اقترحت ناتيلدا لا يفيد، فذلك سيزيد من اللغط والصخب السائد... وتقدمت زيلدا إلى الغراموفون وضبطت الأسطوانة، فانطلقت الموسيقى التي امتدت وارتفعت طاغية على أصوات المتضرعين والطوفان والإعصار الشديد.

14

إذ تغلبت على قلق الصدمة الأولى، فقد أبدت الناس الشجاعة مستجيبة لنداءات الاستغاثة فكان التعاون طيباً. في الدكان، بغية المحافظة على البضاعة ومدّ يد المساعدة لفضول ودورفالينيو، وضعوا المواد على أعلى رفوف الواجهات، أما في الممر الضيق وبينما يدفعون بالبضاعة المكيّسة ليركنوها في أماكن جانبية كانوا يرافقون العملية حريصين على ألا تأتي مساعدتهم بلا جدوى إذا امتدت يد سارق إليها. وقد أتاهم الحظ لقلة مشاغل ذلك اليوم المقتصرة على بقرة وعجل يجب حدوهما إلى المجزرة، إذ إن العقيد روبستيانو كان قد قدّم موعد التسليم في إيتابونا بعد أن أشار

هناك إلى أنه سيجهز إيتابونا بأفضل ما لديه في القطيع. أما في مستودع الكاكاو فإن الحمولة المكدسة كانت تنتظر وصول القوافل التي تأخر مجيئها من شركة كويفمان وشركاه.

عشرات من أكياس الكاكاو تراكمت في المكان بواسطة المتطوعين المتكاتفين من رجال ونساء – والنساء كنّ قد توقفن عن النحيب وبدأن يستأنسن بآلية العمل الذي يقمن به. تمكن جيراو وزملاؤه الذين يحرسون المستودع من القيام بأعمال عديدة غير الموكولة إليهم لحراسة مستودع الكاكاو.. فقد أسرعوا في جمع الكاكاو لينقوا الجاف منه ويبعدوه عن الماء، وبالرغم من ذلك فقد طالت المياه جزءاً منه، وبذلك غدا الكاكاو العالي الجودة نوعاً جيداً أو عادياً. وبقي ما يجب تحديده فيمن يكون المسؤول عن العواقب، العقيد روبستيانو أو الشركة المصدّرة. ففي إيلايوس قام المزارع بتحذير كورت كويفمن كبير مسؤولي الشركة: انطلقوا بسرعة لاستلام المحصول لأن كل احتمالات المخاطر واردة في وادي توكايا غراندي. إن الأمطار هناك بدأت تؤثر في أزهار الشجيرات الصغيرة، وكذلك الكاكاو الجاف في المستودع ليس بمنأى عن الخطر إذا حدث لنهر كاشويرا ما حدث لنهر الأفاعي من ارتفاع لمنسوب المياه إلى حد الفيضان من جانبيه.

وبغية لفت الأنظار إليه فإن بيدرو سيغانو جعل من استعادة القارب مهمته، وهذا أمر غاية في الأهمية. كان الزورق راسياً عند الضفة الأخرى من النهر، ومن الطبيعي أن يتولى المهمة السرجيبيون المقيمون هناك. ولكن الصنفور لا يريد أن يسمع الأسباب التي منعت السرجيبيين عن القيام بالعمل، فجدّ بنفسه متجهاً إلى حيث الزورق. وكاد دورفالينيو – أمين الصندوق – أن يلتحق به ويتلقى صفعة أخرى على وجهه لو لم "يقصّ فضول عبد الله جناحيه" عندما حاول مخدومه التقدم ليرافق بيدرو سيغانو ويثبت أنه هو الآخر فريد من نوعه، إذ ما لبث أن أمسك نفسه عن الانطلاق عندما وقعت نظرات فضول عليه فعاد دورفالينيو يتلقى الأوامر وينفّذها.

وهناك توفرت الصلوات والنذور: الخياطة ناتاليا، بغية الوصول إلى بيت النقيب لتلتجئ هناك، أخذت بصعود المراقي الصعبة مجتازةً السفح وقد وضعت فوق رأسها ماكينة الخياطة "السنجر" التي تقيها غائلة الجوع وتوفر لها خبزها اليومي، وقد وعدت في السر والعلن بالإيفاء بنذورها إلى القديسة مريم شفيعة البائسين. ثم انطلقت تنشد ترتيلة لم تنل، في الحقيقة، إعجاب من كانوا يسمعونها. ومثلها فعلت ميرينسيا التي استنجدت بالقديسين ملتمسة منهم الغفران والرحمة. هذا دون الأخذ بالحسبان توسل العاهرات، فأُولئك، برأي الخياطة وميرينسيا، لا يصل التماسهن الرحمة إلى

السماوات لكثرة الخطايا المميتة التي ارتكبنها، ويجب أن يمتن غرقاً في مياه النهر العارمة ومعهن تخشيبات الدعارة حيث يمارسن المهنة، والقش الذي صُنع منه الفرش والسقوف.

إن ميرينسيا التي تخاف الله، وتبارك اسمه في الأعالي، تلقت في الحال تلبية لتضرعاتها. فقد شاعدت عنزاً لها أضاعته فهرعت إليه وشدته من رقبته السمينة بمشهد أثار ضحك الموجودين بينما كانت تجتاز بالعنز طريق الطين لتضعه على مقربة من حظيرة هناك. أجل في تلك الليلة من الحدث الكبير، ضمن حدود توكايا غراندي تمكن الجميع من معاينة جانب من كل شيء من الأشياء إذ كانت هناك دوافع للدهشة والضحك، وأخرى للدموع واليأس.

15

استجمع دودو بيروبا قواه على أحسن ما تكون عليه الرجولة من شكل، وانتفض مسرعاً لمساعدة ريكاردينيا عندما سمع انفلاق النهر، كأنما ذلك الانفلاق طلقة مدفع تصمّ الآذان، وصخب مروع هائل كأنه نغم الموت. خلع الدوي الهائل باب مستودع الطحين وغطى الجسدين المتعانقين ورماهما أرضاً. استطاع دودو أن يقف على رجليه ويساعد المرتعبة ريكاردينيا على الوقوف. وخرج ليرى المشهد فأمسكت به محاولة منعه عن الخروج وإبقاءه في مأمن، ولكنه رفض ذلك حازماً بطريقة تعبير غامضة من حركة قام بها. واجه الإعصار وهو لا يعلم بالفيضان بينما تفكيره كان يتركز على العصافير المسجونة في الأقفاص المعلقة في محل الحلاقة.

كان قد وصل متأخراً، فمحل الحلاقة لم يعد له وجود وأقفاص العصافير انجرفت مع المياه المتدفقة. وكي لا يكون كل شيء مدعاة للأسى والحزن ورغبة في التخفيف من دموع مربي العصافير، فإن غيدو استطاع أن يستعيد كرسي الحلاقة منتشلاً إياه من وسط السيول بينما كان دودو قد أمسك بعصفور مبلل بالماء الذي دخل عينيه وجعلهما مغمضتين. ثم وضع دودو العصفور داخل قميصه، قرب الصدر، عسى أن ينال الأخير بعض الدفء. وعند هذا الحد أبدى اهتماماً بالكرسي، الشيء الوحيد الذي بقي له، ولم يعثر على أية بقايا من الملابس والأدوات... لقد تأخر كثيراً في الوصول.

16

هبط تيساو أبدووين وباستياو دا روزا من بيت النقيب حيث تركا النساء والأطفال بصحبة ماريا روزا ابنة عامل الصناديق التي بفعل الماء بدأت تبدو كزوارق صغيرة في مواجهة العواصف.

قرب الجسر كان النجار لوبيسينيو يضع جذعاً ليدعم الجسر، بينما يحاول زينيو أن يحرك الجذع عبثاً. ووقف الاثنان في حراسة الجسر. أما باستياو دا روزا الذي كان قد عمل مع إيدو ولوبيسينيو في ذلك البناء الصعب للجسر فقد بدأ بالتبجح:

– هذا هو العمل الذي ترفع له القبعة. فلتعش يا عرّاب لوبيسينيو.

– لقد كان الجسر إحدى مفاخر توكايا غراندي.

– إنه لا يزال صامداً حتى الآن. ترى ما سيحدث. إلى أين تذهبان؟

– لنرى كيف يتدبر السكان في الضفة الأخرى أمورهم. لماذا لا تأتيان معنا؟ ربما نحتاج إليكما.

– هيا بنا – أصرّ الشاب – ماذا يفيدنا أن نبقى هنا؟

– لا يفيدنا الأمر بشيء. أعرف ذلك. ولكن شيئاً كهذا بنيناه بالجهد والمتعة هو شيء كالابن تماماً. إذا تعرض لخطر فإننا سنكون قربه. اذهب أنت معهما.

– لا. لن أذهب، سأبقى معك.

الشخص الأول الذي لمحوه في بيت الطحين كان كوروكا بين ذراعيها المولودة الجديدة التي ولدت قبل ساعات، وأعطوها اسم جاسنتا.. الآخرون يتمرغون على الأرض: ومن المولودين الجدد. توأما دينورا، وأبناء هيلدا وفاوستا، وكان ينقص ابن إيزورا. ومع الموجودين بعض الرجال، بينما الآخرون كانوا قد مضوا تفتيشاً عن الزورق.

شباب وفتيات تحتويهم الآلام، عالم من النساء الصامتات. المحيط غامض وكئيب، فحاول باستياو دا روزا أن يضع فيه بعض الحياة:

– طفلة محشية بالزلابية.

ما عدا اثنتين أو ثلاث من الفتيات، فقط السيدة ليوكاديا الجالسة خلف الجاروش وفخذاها مبتلان بالماء، ضحكت لمزحة النجار، ولكن إمبروزيو لم يجد في ذلك ما يضحك، فاستنكر:

– سيمضي وقت طويل دون أن نأكل الزلابية ودون أن نطحن القمح... لقد أتلف المحصول وجرف النهر الشجر وأضعنا كل ما كنا نملك... تقدمت السيدة فانجي باتجاه زوجها، ودون أن تنبس بكلمة أقفلت فمه المتذمر. ماذا تفيد الشكوى؟

– صحيح يا عم. لقد جرف النهر الشجر والحقول والحيوانات، ولكنه لم يجرف كل شيء. إن الأرض لا تزال هنا، وستزرعها من جديد إن شاء الله.

وقال أمانسيو وهو أحد الأشتانسيين:

– يبدو أن الله لا يشاء. لو توقف الأمر عليه...

– أقفل فمك – قالت السيدة ليوكاديا – لا تعرف ما تقول. إنني أؤيدك يا سيدة فانجي نحن لا نزال أحياء ولم يأخذ أحد الأرض منا. اطلب من الله أن يمنحك الصحة.

– الصحة وبعض الشمس... مازح باستياو من جديد: هل تتذكرين الوعد الذي قطعته لك يا عمة فانجي؟ إن أول بيت سأقيمه هنا سيكون بيتك أنت. لا تظني أنني نسيت.

17

كانوا يتحركون بجهد داخل بيت الطحين. وطلب تيساو أنباء عن التاميراندو وزوجته وابنتهما، وعلم أن الزوجين ظلا في المرج مهتمين بإنقاذ الحيوانات. لقد جرف الطوفان الحظيرة وقن الدجاج. ولم تنتهِ المحادثة لأن الرجال الذين كانوا قد خرجوا تفتيشاً عن الزورق عادوا يحملون أنباء سيئة.

كما هو متوقع لم يعثروا على أي دليل على الزورق. كانوا قد تركوه راسياً عند أسفل تجمع المياه في مكان لا صخور فيه ويتسع هناك أو يصبح أكثر عمقاً. كيف يمكن التخيل أن رسوه هناك لا يزال يجعله تحت تصرف أصحابه؟ لقد غدا النهر السيد والمالك الوحيد غير المنازع، ووحده يأمر وينهي. لا يستحق الأمر عناء الذهاب، قال إمبروزيو. مع أولئك قد وصل بيدرو سيغانو وقد التقوا به عند جذع شجرة الجوافة: ممتقع الوجه متجهماً، ويتكلم وحده.

لم يفسح الزنجي كاستور المجال للبدء بمناقشة مسألة الزورق:

– هيا بنا ما دام الجسر لا يزال صامداً، وقبل أن يتخلى عن دعاماته. وتقدمت كوروكا المسيرة وهي ترفع الطفلة ليشاهدها البناء وحادي الحمير:

– لا أجمل منها.

نزعت سترتها ولفت بها الطفلة: خيط الحياة، وباب الأمل.

18

نظر التاميراندو الحائر المتنقل من مكان لآخر، وسط المياه التي تزداد وتعلو، وهو يسأل عن ابنته – هل رأيتموها؟ أين؟ مع من؟ ماذا تفعل؟ سبب لدورفالينيو انفعالاً كاد يعرضه من جديد لغضب فضول عبد الله: سيده الذي يحترمه، ويطيعه ويخافه:

– يا سيد فضول، لا تأخذ الأمر على مأخذ اللوم ولكن عليَّ أن أذهب..

– تذهب إلى أين، حباً بالله؟ هل ترى قليلاً..

– لقد رأيت بعيني..

– أيها اللعين، ألا ترى أن الوقت ليس مناسباً للتوهم؟

– اقسم بروح أمي أنني رأيت الاثنين، ساو والسيد سيسرو على متن الزورق، والسيد بيدرو سيغانو رآهما أيضاً.

– حين أردت أن أقول فإنك لم ترد أن تسمع.

لم يتمكنا من الوصول إلى جذع شجرة الجوافة حيث كان الزورق راسياً، وما كادا يحصلان على أخبار ساو وسيسرو مورا حتى بدأت تواجههما متاعب جديدة. لقد علم الجميع باختفاء الزورق من السرجيبيين الذين أكد لهم بيدرو سيغانو أنه رأى ليلاً الغريقين متوجهين إلى مرسى الزوارق. بعد ذلك لم يعد يعلم عنهما شيئاً.. وسيغانو عندما سمع اندفاع الطوفان للمرة الأولى لم يعلم ما إذا كان الطوفان قد جرفهما؟

وسط الطرفين بين الجسر وبيت الطحين التقى اللبناني وخادمه دورفالينيو بمجموعة السرجيبيين. بالرغم من كل شيء كانت المجموعة تسير ببطء اهتماماً بالمولود الجديد، والأطفال بين تحذيرات واحترازات، عجائز وشباب، رجال ونساء ومجموعة أطفال غير مطيعة، ما عدا الذين كانوا قد أتوا من الضفة الأولى – كوروكا، كاستور، باستياو، وبيدرو سيغانو. وخطرت للعربي خاطرة جاءته من أبعد أبعاد ذاكرته: عندما كان طفلاً كان قد شاهد قوافل آتية من الصحراء وتحمل البؤس والشقاء.. تلك القوافل مختلفة عما يراه الآن ولكنها متساوية.

فقط عندما عاد مع العائدين أدرك فضول حجم الكارثة. لم يكن قد تفرغ من قبل لمواجهة مثل هذه الأمور: لقد أتى الطوفان على الزرع والضرع والبيوت وابتلع توكايا غراندي. على ضفتي النهر لم يعد غير البؤس والشقاء. وكل ذلك حدث ما إن استقر وبدأ يجني ثمرة أتعابه وإصراره على

البقاء. ها هو إله الموازنة الصالح يضع إيمان فضول من جديد على محك التجربة. إله صالح؟ فلتقضِ الأشعة على روحه إلى الأبد؛ إنه إله الدماء والأحزان. إله بلا رحمة، مخرب وجلاد.

19

لن يفيد بشيء أن يلاحقوا مصير جثتي ساو وسيسرو مورا: لم يعد الزورق صالحاً كنقطة تحديد للموضع الذي غرقا فيه واقترح تيساو تنظيم حملة تفتيشاً عن المفقودين بعد أن يكونوا قد أوصلوا النساء والأطفال إلى بيت النقيب. من يدري ما عدا الغريقين يمكن أن يكون هناك غرقى آخرون: مع المقيمين الكثيرين في توكايا غراندي، من يستطيع أن يؤكد أن جميعهم سالمون؟ سيجمعون الرجال المتفرغين لبدء الحملة – لست رجلاً ولكن ضعني على قائمة الرجال قالت كوروكا، – ولكن باستياو شك بالفكرة غير العملية:

– ما دامت المياه مستمرة بالارتفاع فليس بمقدورنا عمل شيء... بعد قليل لن يمكن المشي.. من الآن فصاعداً سيسوء الأمر كثيراً.

لم يكد يتكهن بذلك حتى طلع زينيو كالطيف طالباً النجدة. لقد اقتلع النهر ألواح الجسر العليا.. وإذ كانت قد ثارت ثائرته، فإن لوبيسينيو كان يتكلم عن قتل نفسه إذا تمكّن الطوفان من تدمير التحفة التي أنجزها هو ومساعدوه بعرق الجبين، والكفاءة، والنزق الإبداعي.

كان الفيضان يزداد حجماً وعنفاً. وسارع تيساو متقدماً من الجسر ليحدد مبلغ الأعطال. رفع فضول بيديه القوتين السيدة ليوكاديا التي غدت جلداً وعظاماً مع رغبة ملحة في الحياة، ووضعها على كتفيه وجعل رجليها تتدليان على صدره:

– هل أنت مرتاحة يا عمة؟ – تكلم فضول في البدء إلى العجوز، ثم وجّه الكلام للآخرين؟ – يجب أن نختار وأياً تكن الطريقة. لا يستطيع أحد أن يبقى هنا: إنه الموت المؤكد.

لم يكن سهلاً الاجتياز ولكنهم تمكنوا من العبور. كان الزنجي قد غطس في الماء تحت الجسر ليؤكد أن النهر قد جرف الألواح الخشبية فقط. أما الدعائم الأساسية فظلت تقاوم، ثم نظموا جسراً بشرياً: على كل جذع من الجذوع الاثني عشر التي كانت قد ثبتت عليها الألواح الخشبية التي جرفها الماء وقف الرجل ثابت القدم وأخذ الأطفال ينتقلون من يد إلى يد حتى تمّ العبور. أما الطفلة المولودة حديثاً، جاسنتا فإن كوروكا، فلم توكل بها إلى أحد: وبينما هي تمر من جذع إلى جذع متوازنة تمكنت من الوصول بها إلى الضفة الأخرى. وهكذا عبر الرجال والنساء.

عند الضفة الأخرى، أنزل فضول السيدة ليوكاديا عن كتفيه قبل أن يذهب لمساعدة الحوامل في اجتياز الدرجات المؤدية إلى بيت النقيب. وسأل عن داس دورس. تبادل فضول وتيساو النظرات دون كلام واتجها من جديد إلى الضفة الأخرى من النهر، من حيث وصلا الآن.

20

لشدة ارتباكهما، فإن اللبناني والزنجي لم يسمعا صراخ ديفا الضائعة في زئير الفيضان.. صرخات مرتفعة وتنهدات متلاحقة: كانت ديفا قد حملت بين ذراعيها الكلبة أوفيريسيدا التي غرقت وهي تحاول مرافقة صاحبتها.

كانت ديفا قد جرت نفسها عبر الماء بغية اجتياز النهر لتساعد عائلتها عند الضفة الأخرى غير قادرة على انتظار وصول الأخبار. ولم تلاحظ أن الكلبة لحقت بها منذ غادرت بيت النقيب. فقط لاحظت ذلك عندما بلغت الضفة الأخرى وراحت تجيل نظرها في النواحي وجاءت ملاحظتها متأخرة. إن السيول سحبت الكلبة أوفريسيدا إلى أن بلغت مهبط المياه وألقتها محطمة على الصخور السفلى. ولاحظت ديفا الدم يمتزج بالسيول قبل أن تشاهد الجسم: أبعد بقليل من مهبط المياه. وتمكنت ديفا من المجيء بالكلبة الميتة. كانت ديفا تجيد السباحة كسمكة! الوقوع على الصخر شجّ رأس الكلبة أوفريسيدا. ولم تسمح ديفا بأن يجرف النهر الكلبة ويرميها جيفة مع سائر الحيوانات التي ابتلعها. وعندما عاد تيساو حفروا للكلبة حفرة عند الهضبة قرب المقبرة ودفنوها هناك، يساعدها في ذلك مجموعة من الأولاد.. أما الكلب ألما بينادا فإنه ظلَّ خلال ساعات يئن فوق الحجارة التي أشير بها إلى قبر أوفريسيدا.

21

تمّ العثور على جثتي ساو وسيسرو مورا عند أسفل مجرى النهر وقد علقتا بأكوام من المجروفات المتجمعة عند ممرات صخرية عالية. من عثر عليهما هو النقيب ناتاريو دا فونسيكا مساء، عندما كان قد استعجل الرجوع نزولاً عند طلب زوجته زيلدا.

في مزرعة أتالايا، كان على إيدو أن يجتاز الحقول المزروعة بأغراس الكاكاو مفتشاً عن ناتاريو الذي كان يرافق العقيد بوافنتورا أندرادي في عملية مراقبة دقيقة لأشجار الكاكاو الجديدة: كانت براعم

الكاكاو قد عانت الكثير من شدة الأمطار. وطال الخطر، وبينما الوجهان مقطبان فإن النقيب والعقيد استنكرا سوء الطقس، وتكهنا بنتائج فادحة الخطب.

– البركة يا حضرة العقيد، البركة يا أبي. لقد أرسلتني أمي لأبلغك بأن الفيضان قد قضى على توكايا غراندي؛ إن المشهد يثير الهلع.

– عن إذنك يا حضرة العقيد. يجب أن أذهب إلى هناك لأرى؛ غداً، وفي أقصى الحالات، بعد غد، سأكون هنا.

إن المشهد يثير الهلع حقاً، كما أعلن إيدو ويقطع نياط القلب... مع بداية تقلص الأمطار استقر ارتفاع الماء ولكن النهر كان لا يزال يفيض بلا رحمة وينتشر في الغابة. النقيب، قبل أن يصل إلى مقر إقامته في أعلى الهضبة، طاف الوادي من ركن إلى ركن، بينما بغلته السوداء طامسة في الطين. وظلَّ ممتطياً وهو يطوف النواحي السكنية التي التجأ إليها قسم من السكان، فتوقف للحديث والإصغاء إلى الأنباء وسماع الإجهاشات بالبكاء متوجهاً إلى كل واحدة باسمها مباركاً الفتيان. لم يقل إن الفيضان كان كارثة أو أن نهاية العالم قد أتت. لقد فضل أن يصغي إلى اقتراحات عن كيفية التصرف بعدما يتوقف الطوفان: إن الأسوأ قد حصل. وظلَّ منتبهاً إلى الآراء والاقتراحات، وكاد يبدأ بمناقشة مشاريع إعادة الإعمار والاستصلاح.

– هل فكرت أين ستقيم مكان صناعة العجلات الخشبية يا صديقي إيلوي؟ وأنت يا سيد إمبروزيو هل ستزيد عدد الأغراس؟ كانوا يتمعنون في التفاصيل وأخذ القرارات: إنه الوقت لإقامة نزل للفتيات في توكايا غراندي، ألا تعتقدين بهذا يا ريسو؟ كانت تعتقد بذلك.

استدعى المتطوعين لانتشال جثتي ساو وسيسرو مورا، واستجلى أمر التاميراندو. علم أن السرجيبي قد عاد إلى الضفة الأخرى من النهر وجاء معه بقطعة من اللحم المجفّف وزجاجة كاشاسا. وفي الدكان قال النقيب للبناني فضول:

– سأطلع التاميراندو وزوجته داس دورس على النبأ.

– هل تريد أن أرافقك يا حضرة النقيب؟ – عرض فضول نفسه – إن المهمة صعبة والعبء ثقيل والتاميراندو لن يتلقى النبأ بسهولة.

من الأفضل أن تبقى هنا وأن تهتم بالدفن.

ليلاً، دخل ناتاريو إلى بيته وحيا الموجودين الذين أحاطوا به من كل الجهات. ووضعت زوجته زيلدا ابن برناردا على عنقه:

– سآخذه لأربيه...

أطرق النقيب برأسه، يرسم السبعة ولاحظ أن البيت كله يضج بأولاد الذين ولدتهم زيلدا أو تبنتهم، وجميعهم ذوو ملامح واحدة، ودم هندي قوي: البركة يا أبي.

22

وضع التاميراندو وزوجته داس دورس جثة ابنتهما الصغيرة في الشبكة. النقيب ناتاريو واللبناني فضول رفعا جثة سيسرو مورا وهو لا يزال ينتعل جزمته ويرتدي معطفه وعيناه مفتوحتان جامدتان. وفي مواكبة الجميع إلى المثوى الأخير لم يتخلف أحد من سكان توكايا غراندي، وهناك لغز من يستطيع أن يفكه: من الذي تمكن من أن يقطف عند نهاية المهابط المائية الزهرة الزرقاء السماوية ويضعها بين أصابع ساو؟

كانت المقبرة تقع عند منقلب سفح جعلها أقوى من الطوفان فظلت صامدة. وبين القبور كانت قد نبتت أشجار الموز، والجوافة، والبيتانغا، ذات الألوان الفرحة الغنية بالرائحة الطيبة. وبينما تنتقل من قبر إلى قبر تستطيع أن ترصد تاريخ توكايا غراندي كاملاً، منذ البداية الأسطورية وحتى اجتياح الطوفان الذي لا يزال متدفقاً.

23

دام الطوفان أكثر من ثلاثين ساعة من النزاع، وإلى أن أخذت الأمطار تنقطع في الليلة التالية وبدأت المياه بالانخفاض عائدة ببطء إلى مجرى النهر، وأشرقت شمس حادة لتضيء أرض الوحل، بدت الكارثة كلية، شاملة، قذرة.

على الضفتين الخراب والتخلي: تشلعت الأغراس وانتلف معظم الزرع وقضي على الضرع. في الحي السكني ظلت واقفة البيوت المبنية بالحجارة والطين، ومستودع الكاكاو، والإسطبل ومحل الحدادة، ودكان اللبناني، ومقر إقامة النقيب عند أعلى الهضبة. ولم يبقَ عند أسفل المنحدر كوخ الخشب الذي يؤوي كوروكا وبرناردا.

المزارع الكبيرة، وعلى الأخص الموجودة قرب النهر، لحق بها الأذى الأكبر من الطوفان، ولكنه على كل حال أذى أقل مما كان متوقعاً. كما لو أن النهر المستمر في مهمته التقليدية قد فضل العنف في تدمير مساكن الرجال ووفره في اجتياح حقول الكاكاو.

بعد عدة أيام، وإذ سافر إلى إيلايوس حيث أفرطت السيدة أرنستينا بالوعود وإقامة القداديس وهي تستنجد بأرواح عليمة بالأحوال الجوية، فإن العقيد بوافنتورا أندرادي يرافقه النقيب ناتاريو دا فونسيكا والزنجي إشبيريداو، مرَّ بتوكايا غراندي حيث الناس لا يزالون يلملمون بقايا حاجاتهم. وبينما كان يهز رأسه، فإن العقيد تأسف بمرارة:

– العرّابة على حق حين قالت إن كل شيء قد انتهى، ودفعة واحدة. لن تعود توكايا غراندي أبداً إلى ما كانت عليه.

كان العقيد قد قال ذلك أمام النقيب وفضول وكاستور وعند خشبة البار حيث كان قد انضم إليهم بيدرو سيغانو. فمرّت على شفتي النقيب تلك الابتسامة الرفيعة، ورفع صوته:

– عن إذنك يا حضرة العقيد؛ اسمح لي أن أقول لك إنك في المرة القادمة سترى توكايا غراندي ضعفي ما كانت عليه. لست الوحيد الذي يقول هذا. اسأل فضول وتيساو واسأل أي واحد تجده مقيماً هنا.

ونظر عبر الباب إلى المشهد الذي عاد جميلاً تحت وهج شمس الصيف:

– لا أعرف أحداً قد تخلى عن توكايا غراندي بسبب الطوفان. حتى الفتيات المتعودات على التنقل اللواتي لا يقمن أبداً في مكان واحد! فقط تسمع عن بناء بيت، لا تجرفه المياه. لا بدّ من أن تعود معي يوماً إلى هنا وسوف ترى توكايا غراندي وتتعجب.

في يوم الاحتفال بافتتاح المستودع الكبير،
الوباء يصل إلى هناك ويقيم

1

لو كان بيدرو سيغانو غجرياً حقيقياً، أمة ودماً، لتحول إلى مادة إيمان بما تعودت بعض فتيات الهوى أن يعطينه قوة خارقة حين يصفن مرات الوصول، المرحلية، للمتجول المذكور في توكايا غراندي. ولكن كونه غجرياً باللقب، حسب فإن الفتيات كن يرجعن معرفته المسبقة بالأحداث والتواريخ إلى حكمة غامضة ولم يكن أحد يعترف بالصدفة العادية.

لقد تكهنت بالاحتفال. أليس كذلك يا عزيزي؟ – تعجبت أتاليا التي ذهلت عندما رأته يجتاز عتبة الباب في نزل تورا – باو – دي – لو: كيف عرفت بالاحتفال؟

– لقد حطَّ عصفور على كتفي وزقزق في أذني. ألا تدرين أن العصافير تخصني؟ إنها تخبرني بكل شيء.

كان اختفاؤه قد طال لشهور عديدة وكانت الأخبار التي يأتي بها رجال القوافل تمنع اعتباره ميتاً مدفوناً في التراب: كان يحيي الحفلات الراقصة في جهات العالم ويسأل الجميع عن توكايا غراندي، ولإعطاء مبرر لغيابه الطويل، كان هناك سبب آخر.

ولعل السبب متعلق بموت ساو بين ذراعي السيد سيسرو مورا، القصير الأشوه، القزم. ولكن الحقيقة في تلك الاستنباطات لم تستطع أن تثبت نفسها بالرهان، وإذا كان المعلم بيدرو قد اعتقد بأنه الوحيد الذي يقيم معها علاقة لأنه كان الأول الذي اخترقها فإنه بهذا الاعتقاد إنما يكشف عن جهل كبير بطبيعة العورات من النساء. وهنّ أمة متفردة بمزاياها. وفي المسلسل العرضي على الطرقات كانت الروايات الكاذبة تغذي ما يقال، إن بيدرو سيغانو لم يعتز بنفسه أبداً لكونه الأول الذي قطف براعم عذرية ساو. وعلى العكس من ذلك. إذا كان أحد ما قد أطلق فمه في الموضوع فإن بيدرو كان يبدل المحادثة.

في كل الأحوال، بالتكهن أو الحكمة، ولكونه متفوقاً خارقاً أو مصاباً بالقرف، أو لأنه لم يستطع أن يتحمل الشوق، وإذ تمّ تعيين تاريخ الاحتفال بالمستودع الجديد، فها هو مرتاح إلى خشبة المشرب في الدكان يتلمظ جرعات الكاشاسا التي يقدمها فضول عبد الله، مجاناً في حرارة الاستقبال:

– كيف كان يمكن ألا أجئ؟ من الذي افتتح المستودعين الآخرين؟ حتى الموت لم يكن بإمكانه أن يمنعني، ولكنت قمت من القبر وجئت.

كان تاريخ الافتتاح قد تمّ في السابع من أيلول/سبتمبر وبمناسبة سعيدة هي تاريخ ذكرى إعلان استقلال البرازيل، وفقاً لتذكر التركي، المواطن المثقف، والوطني الوحيد في توكايا غراندي. بالنسبة إلى الآخرين فإن قصة الاستقلال كانت محادثة شخصية، غامضة ومجردة، لا مجال فيها للإضافة طولاً أو عرضاً. أما بالنسبة إلى تيساو فإن عيد الاستقلال البرازيلي، هذا، ربما يكون في الثاني من تموز/يوليو عندما يتم استعراض مجموعات طلاب المدارس في مدن ولاية ريكونكافو، والصغار منهم يحملون الأعلام إلى جانب حاملات تماثيل القديسين. ففي الثاني من تموز إذاً، وباستعمالهم للقوس والرمح ضد البنادق النارية فإن الهنود تمكنوا من طرد البرتغاليين. هذا، أو شيء شبيه به.

– لم يكن ينقصه غير مشاهدة الصديق – وافق فضول.

كيف يمكنه أن يكون غائباً؟ صوت المرارة يفضح شعور عازف الضفور. يا للإهانة: من سواه تعاون في بناء المستودعين الآخرين؟ هل تتذكر مستودع التبن يا سيد فضول؟ إنه قصر إذا ما قيس بتلك التخشيبة الركيكة الواقعة وسط الفلاة بين النهر والمرتفعات: أربعة جذوع ضخمة مغروسة في الأرض تغطيه أربع من أشجار جوز الهند. إنه هو بيدرو سيغانو، من ساعد على بناء الملجأ التالي، وبالإضافة إلى المساعدة المطلقة، فإنه أعطى توضيحات وتفسيرات واستخرج نظريات للبناء. لا تكفي للذراع، ولا يمكن عمل شيء دون استعمال العقل. كان قد عرض على الآخرين أن يقبلوا بالأمر الواقع ويحاربوا المطر والبرد مع إمكانية المتعة الممكنة، وهكذا كان. وظلوا يناقشون حتى الفجر، ثمانية أحياء يرزقون، منهم رجال القوافل والمساعدون والعاهرات، وهو، هو بيدرو سيغانو وبيده آلة الموسيقى.

– اسألوا لازارو إذا كان ما أقوله كذباً – كان يتحدى.

إنها أحداث من الماضي السحيق لم يكن التركي نفسه يعرفها. ولكن لازارو كان هنا، حياً، يحدو قوافل مزرعة دومولیادو إلى إيتابونا، وهو يستطيع أن يؤكد سلسلة التفاصيل التي استشهد بها الجوال:

كان عدد العاهرات ثلاثاً. لا بدّ لكوروكا أن تتذكر. وكان يتذكر اسمي الأخريين: ماريا غريلاو التي انتقلت إلى رحمة الله، ودوكارمو التي حين ارتبطت بصحبة راعي البقر أوزياس تخلت عن

مهنة الدعارة. وأنهى بيدرو سيغانو حديثه في قلعة فضول المسلحة: قلعة مسلحة مثلما كان يقال عندما فتح فضول أبواب متجره لبيع الكاشاسا، واللحم المجفّف وقطع السمك المسكوف.

كيف كان يمكن أن يغيب؟ أي حدث ذي أهمية، سيئ أو مفرح، حدث في توكايا غراندي دون أن يشارك فيه عازف الهرمونيكا؟ منذ سطو الصعاليك عندما كانت توكايا غراندي وكراً لأربع عاهرات، وكان وفقاً لما قاله جيرينو بالمناسبة، وإلى فيضان النهر الذي إذا لم يكن قد أجهز كلياً على الناحية فلم يكن ينقصه الكثير ليفعل.

– هل تعرف يا سيد بيدرو؟ يقولون إن العقيد بوافنتورا سيأتي للاحتفال – أعلن دورفالينيو، العليم بكل شيء.

– يا دورفالينيو من قبل كان العقيد يحب، ويرغب دائماً في امرأة جديدة. كان أكثر عصرية وأقل ثراء.

– لا يزال يحب المرأة الجديدة حتى اليوم.

وبينما كان يتكلم عن المرأة أراد التركي أن يعرف ما إذا كان الصديق بيدرو سيغانو قد زار من قبل نزل نورا باودي – لو:

– هناك فتاة جديدة، تدعى سيسي... جمع فضول أصابع يده اليمنى، وقطف منها قبلة بشفتيه ورماها في الهواء ليستكمل مديح فتاة الهوى.

لم يكن بيدرو سيغانو قد ذهب. لقد وصل لتوه، ولكنه لن يتخلى عن الذهاب بالتأكيد، وذلك بغية التعرف على الواصلة الجديدة في نزل اللقاءات.

– سيكون المستودع الثالث الذي أشارك في افتتاحه. ولكن نزلاً في توكايا غراندي فمسألة لم أرها من قبل. لقد أخبروني عن ذلك ولكنني اعتبرت الخبر حكاية لا أساس لها.

واتخذ بيدرو سيغانو وجهة نزل نورا – باو – دي – لو مندهشاً. وقد نسي التذمر، راح يطوف في الناحية من نقطة إلى أخرى، متوقفاً في كل لحظة ليتبادل بعض الكلام الطيب ويكرر دواعي اندهاشه. وفي النزل لم يعر اهتماماً لحذاقة سيدة النزل، ولإغراءات أفاليا، ولتوصيات الإغراء بسيسي، وفضل باولينيا ماريسكا التي كان قد وضع عينه عليها منذ زمن طويل.

إن الريف أسطوري في ثرائه ومبالغاته: فمن كأس ماء يصنع البحر. في الذهاب والإياب عبر الشعاب والمسالك الضيقة وعلى الطرقات كان رجال القوافل والأجراء والعاهرات والمتنقلات والمستزلمون وحتى العقداء يعلقون ويضخمون تقدم توكايا غراندي. لقد كانت هذه ضحية فيضان هائل، حتى الفيضان نال ما نال من تضخيم في حجمه وعنفه. ولكن السكان عادوا إلى ما تبقى منها، ولم يكتفوا بالعودة إلى ما أصبح بل عادوا وحولوها إلى مكان آهل صاخب بالحركة، وأخذت تتحول إلى ناحية ذات مستقبل مضمون: تقدم قليلاً إلى الأمام ولن تصدق إلا إذا رأيت بأم عينيك.

بدلاً من الهجرة فإن السكان تجمعوا متضامنين وأصبحوا عائلة واحدة. قال العقيد روبستيانو دي أراجو في إيلايوس وهو شاهد ثقة. بعد وقت طويل عادت الأغراس تولد من جديد، وللكلام، تفصيلاً إثر تفصيل، عن إعادة بناء توكايا غراندي، يوماً بعد يوم، يصبح من الضروري استعمال البصق واللصق. وإذا كانت بعض التفاصيل تستحق بعض العناء فإن الجزء الأكبر من الكلام لا يعدو كونه تكراراً للعادات الشائعة والأمور الواقعية البسيطة مما يجعل التقرير مملاً.

عاد السرجيبيون والسرتاويون إلى حراثة الأرض وتربية الماعز، وبمساعدة البنائين والنجارين أقيمت مقرات إقامة أقوى من سابقاتها وأكثر عدداً للغرف. واقتضت الحاجة عدداً أكبر من الخدم والبنائين وقاطعي الخشب ومعلمي البناء من الدرجة الأولى. أما باستياو دا روزا فقد تذكر الوعد: وقبل أن يهتم ببناء جوزي دوس سانتوس والسيدة كلارا، جدي ابنتيه، فقد اهتم ببيت السيدة فانجي وزوجها إمبروزيو. إن الوعد دَيْن، وهذا الدين لا يدفعه أحد، ولكن باستياو، الشاب المستقيم دفع الدين ووفّى بالوعد. يحدث أحياناً أن يتم دفع الدين.

وهم يشتغلون ليلاً ونهاراً كمجموعة اجتمعت فجأة لتبادل الخدمات على أن يتم الدفع بمواد زراعية وحيوانات داجنة، إذا أمكن، والمال يدفع عندما يتكرم الله بطقس مناسب، فإن السكان عادوا فمسحوا طوبوغرافيا أراضي الناحية. إن الطوبوغرافيا لفظة أدبية ورسمية ولا ينطبق استعمالها على توكايا غراندي: لقد بدلوا معالم المكان.

قبل الفيضان، بالإضافة إلى درب الحمير، المسلك الوحيد المحاذي للنهر، كان هناك فلاة، يتوسطها مكان الاحتفال، وتتوزع بعيداً عنها الدكان، ومحل حذاء الحمير، ومستودع الكاكاو والإسطبل – وهذا كناية عن مكان تستريح فيه الثيران. وأبعد، إلى الأمام، أسفل المنحدرات، حيث

أكواخ السعف والبيت الخشبي الذي تقيم فيه برناردا وكوروكا، هكذا كانت توكايا غراندي: كمحط رجال تبدو جميلة. وكمكان إقامة بشع للغاية... حتى تلك الذكرى غرقت في المياه.

أصبح درب الحمير يعرف بالشارع الأمامي ويمتاز بواجهات ملونة مفرحة وبموازاة ذلك الشارع قام شارع "روادوس فوندوس"؛ كان هناك من فضل السكن بعيداً عن النهر – وعند المنفرج الوسطي الذي كان يفصل بين الدربين – أو الشارعين في قناعة السكان – كان يعيش الفلاحون – ويشتغلون. وهناك وضعت السيدة ناتالينا ماكينة الخياطة التي لم تكن تكفي لتلبية الطلبات. أحد الطلبات، مؤخراً، فستان عيد ساكرامنتو التي كان النقيب ناتاريو دا فونسيكا قد جاء بها. والفستان يجب أن يليق بالجميلة التي أدفأت شيخوخة العقيد بوافنتورا.

عند أسفل المنحدرات قامت أكواخ جديدة بدلاً من تلك التي جرفها النهر.

كانت الفتيات محتاجات إلى مكان يرفعن فيه أعلامهن. أخريات، أقل استعجالاً وقد أصبح لهن جذور في توكايا غراندي، استفدن من الوضع ليبنين بيوتاً دائمة. وهكذا نشأ زقاق جديد وازدهر: وعند الركن منه، مصبوغاً بالأصفر، كان يقوم نزل نورا – باو – دي – لو. إنه نزل نورا لاريسو: ريسو المسكينة لم تكن قادرة على إدارة مسكنها الخاص، فأعطت الفكرة إلى نورا بالسعر نفسه الذي دفعته للنقيب: مجاناً.

تجدر الإشارة إلى أمر فضولي يعبّر عن الاهتمام بالبناء الذي يشاهد عند الناحية. إن أصحاب المستودعات التي تمكنت من الصمود في وجه الفيضان انتهوا إلى هدمها لبناء أمكنة أخرى أكثر راحة.

أما ألواح الجسر الكبيرة التي جرفتها المياه فقد أعيدت إلى أمكنتها، وكان لوبيسينيو قد ذهب شخصياً إلى تاكاراس للحصول على المواد من المسامير والزوايا الحديدية.

– الآن لن يأتي أي فيضان – قال النجار للعقيد روبستيانو دي أراجو – وهو يقدم برهاناً لا وجود له: سيادتك رأيت أننا لم نكن قادرين على بناء جسر دائم. ما عدا الألواح الخشبية العليا لم يتحرك من مكانه. لو وضع الرهان كيف كان سيادتك...؟

لم يتم الرهان، وليس لهذا لم يجد العقيد أنه لا يجب أن يتبارى مع شجعان كهؤلاء على أعمال محدودة المواصفات. لولا مساعدته، فإن المستودع ما كان ليغدو ذلك الصرح الذي يشير إليه باعتزاز والذي أهداه: من توكايا غراندي إلى السيد كارلينيوس سيلفا مبعوث كويفمان وشركائه الجدد:

لم أرَ قط شعباً عنيداً كهذا، لا يحني هامته، وهكذا هو الأمر، لا أكثر ولا أقل. وهو يقطع بعضاً من التبغ المعجون ويقطع طرف لفافة ورق الذرة بحدِّ خنجره. كان التدخين هو الشيء الوحيد الذي يفعله.

ولكنه تغير منذ اليوم الذي لمح فيه عند أعلى الهضبة صورة ساو جالسة على الحجر كعادتها: كانت قد جاءت لترعى الماعز وتبتسم له. ونادى على داس دورس لكي تأتي، هي الأخرى، ولكن حين وصلت الأم اختفت صورة ساو. عندئذ علم التاميراندو أنه، هو وحده، والماعز، يمكن أن يروها.

لم تكن تظهر كل يوم، بل بين فترة وأخرى. وكانت داس دورس ترفض أن تصدق: وهذا طبيعي، فقد كان ذلك سراً بين الأب والابنة. وعاد التاميراندو إلى العمل مستعداً، وبطاقة عجيبة. رعاة البقر الذين يتعاملون معه في الإسطبل لاختيار بعض العجول وإرسالها إلى الذبح ليباع لحمها بالمفرق، كانوا يقولون إن التاميراندو يبذل الكثير للكفاح والعيش.

4

على الرغم من إلحاح لوبيسينيو، وتوسلات قريبيه بالمعمودية كاستور وديفا، لم يتمكن العقيد روبستيانو دي أراجو من البقاء للمشاركة بحفل افتتاح المستودع. ولكن ما قاوم من أخبار شائعة، وأكده النقيب ناتاريو دا فونسيكا، هو حضور العقيد بوافنتورا أندرادي: إن صاحب مزرعة أتالايا قد وعد بالمجيء.

وتعويضاً عن ذلك فإن السيد كارلينيوس سيلفا، الممثل الجديد لشركة كويفمان وشركائه وهي كبرى شركات تصدير الكاكاو، حين عاد من جولته التقليدية في مزارع الكاكاو فإنه لم يتابع مسيره في الحال إلى تاكاراس، بل تأخر في توكايا غراندي للمشاركة في الحفلة الراقصة وأقام بالانتظار في النزل المركزي، بانسياو سنترال.

أي نبأ هو هذا النزل، بانسياو سنترال؟ في هذا الملخص السريع بولادة توكايا غراندي من جديد أشير أكثر من مرة إلى نزل نورا – باو دي – لو مع تفاصيل متعلقة بلون الواجهة، والموقع الصحيح، وركن درج الأكواخ، عند أسفل المنحدرات. أما رقم الباب فلم يدرج لسبب بسيط هو عدم وجوده، ولكن على لسان التركي فضول، المداح، فقد تمّ إعلاء من نوعية وجودة فتيات الهوى اللواتي كن يشغلن غرف المنشأة الجديدة. وهذا دليل آخر على دقة وصواب المعلومات والتقارير

التي تدعى جدية ولا يخالطها خطأ. ولكونه مقراً للعاهرات مخصصاً للاستئناس فإن نزل نورا قد استحق التبجيل والإطراءات. في حين أن النزل المركزي، وبسبب طابعه العائلي، ظلَّ غارقاً في النسيان.

الآن وقد تمّ توضيح الالتباس حول النزلين يقتضي الأمر الرجوع إلى السيد كارلينيوس سيلفا النزيل المحترم: إنه نقيض سلفه شكلاً وتصرفاً. فما كان لدى سيسرو مورا من رهافة وحذر، كان لدى السيد كارلينيوس خشونة وعفوية.

بسبب شعره الأشقر المعثكل وعينيه الزرقاوين وهندامه العادي، كانت الألسنة البذيئة تقول إنه الابن غير الشرعي لكلاوس كويفمان مؤسس الشركة، ولو لم يكن فلماذا أرسله الأجنبي صغيراً ليدرس في ألمانيا حيث مكث عدة سنوات؟ ومع موت كلاوس تنكب مسؤولية الشركة أخوه الأصغر، كورت، الذي أمر بعودة محمي الزعيم الكبير – الابن غير الشرعي إلى البرازيل في الحال! مثار شك! إنه ابن زانية بالتأكيد، وعاد الشاب كارلينيوس إلى إيلايوس بصفة ابن لبنديتا سيلفا الزنجية الرائعة التي كانت تخدم على طاولة الطعام وتدفئ الفراش الجرماني لكلاوس. ومن طالب في ويمار إلى موظف في شركة تصدير الكاكاو. لقد شق طريقه.

في حفلة الافتتاح تكشف عن إنسانية غير منتظرة. كان يعرف القيام ببعض الأعمال السحرية ويجد متعة في عرضها. وكان يخفي مفاجأة أخرى في الردن الآخر من معطفه كما تمّت مشاهدته لاحقاً في ساعة الحسم.

5

أسباب وجيهة جعلت الرأي حماسياً وعاماً: إنها أكبر وأفضل حفلة عرفتها توكايا غراندي حتى اليوم. تخيل أن الصالة – وهذه، أجل، تستحق أن تسمى صالة رقص – فقد تمّت إضاءتها بالفوانيس الزجاجية، أما حاملات تلك الفوانيس المعدنية، فقد كانت أدوات رفاهية جديدة لتحل محل حاملات الشموع والقناديل في بعض المساكن.

ودون نية في التقليل من أهمية عزف وحضور بيدرو سيغانو، كانوا يقولون في البدء للحديث إنه لم يكن الموسيقي الوحيد الذي يضفي الحيوية على الرقص. كان الأشتانسيون قد جاؤوا بأدواتهم الموسيقية: كمنجات، أوكورديونات، ومزامير قصبية، وعزفوا عدة أنغام راقصة على طريقة حفلات الرقص في سيرجيبي. كما جاء الأعمى تياكو وابنه لوغاس، وقد عزف الاثنان على الكمنجة وأثبتا

قيمتها الحقيقية. وكان يشكل جزءاً من مجموعات جاءت من تاكاراس استدعاها النقيب ولوبيسينيو وفضول عبد الله وباستياو دا روزا: رئيس محطة سكة الحديد، السيد لورنسيو باتيستا، وموظف التلغراف، تاجران أو ثلاثة، وبعض الفتيات على رأسهن مارا صاحبة نزل فتيات الهوى.

كان فضول عبد الله يضرب كفاً بكف فيرافقه الجميع. آخرون كانوا يقسمون أن الألعاب السحرية التي كان يقوم بها السيد كارلينيوس تجعله شريكاً للشياطين في شيء ما. أما من صفق أكثر من سواه وكان شديد التألق فهي الصبية ساكرامنتو. فقد كانت، حتى تلك اللحظة، مطرقة العينين وتجلس بصمت قرب السيدة زيلدا على مقعد خشبي. حتى العقيد بوافنتورا أندرادي ضرب كفاً بكف ولم يوفر التعليق على ألعاب السيد كارلينيوس السحرية: نعم، يا صديقي، تهاني الحارة: لو كنت ترغب لتمكنت من أن تكسب أسباب المعيشة بأعمال السحر في مسارح العاصمة.

بعد الاستعداد للرقصة الرباعية ضرب الزنجي كفاً بكف لافتاً الانتباه إلى أن الرقص الجماعي سيبدأ. رفع صوته وتكلم بالفرنسية.

6

كانت ديفا تتعثر في خطوات الرباعية محاولة أن تماشي تيساو، شريك الشيطان هو الآخر. ولكن تيساو الذي يعرفها ويتكهن بما في داخلها كان يعرف أنها قلقة منشغلة البال مهما حاولت أن تخفي حالتها النفسية. كان تفكيرها يهرب من الحفلة إلى بيت والدها على الضفة الأخرى من النهر.

لم يكن إمبروزيو وفانجي في حفلة افتتاح المستودع. ففي المعرض، قبل الظهر، وبينما هما يبيعان المواد المنتجة من الحقول، كان إمبروزيو يحترق بالحرارة المرتفعة التي تلفحه. أما زيلدا، التي كانت قد توقفت لتشتري وتحادث، حين رأته في تلك الحالة اعتراها شعور سيئ ونصحت فانجي أن تأخذ زوجها إلى البيت وتعطيه ما يساعده على التعرّق في أقرب وقت. من يدري ربما استطاعت أن تنظف دمه وتطرد منه السوائل السيئة؟ وعلى طاولة الغداء الصاخبة المليئة بالمدعوين إلى الحفلة قالت زيلدا للنقيب عما أصاب إمبروزيو من الحمى:

– لا جعلها الله تتفشى.

7

توفي إمبروزيو بعد ثلاثة أيام من حفلة افتتاح المستودع ولم يحضر إلى دفنه العجوز جيرينو والشاب تانكريدو ابن الأشتانسي فافا، فالوباء كان قد جندلهما.

إنه الوباء الذي لا اسم له، الطاعون، ذلك الذي، وفقاً لقول الشعب، يقتل القرد إذا أصابه. كانوا يتكلمون عنه بصوت منخفض وجليل، ويعتبرونه قوة إلهية وحشية، ومرضاً مستوطناً في منطقة الكاكاو مدناً وبساتين، يحصد هنا وهناك العدد اللازم من الضحايا المطلوبة. كان الناس يتجنبون الاستشهاد به في أحاديثهم ويحاولون أن ينسوه ليروا ما إذا كان الوباء ينساهم ويتركهم بسلام.

عندما كانت الحمى الخبيثة تقتل على مهل، ودون عجلة من أمرها، كانوا يقدمون لها مؤونتها من الموتى، متعايشين معها، متوافقين، لكنها حين كانت تجتاح منطقة آهلة وتتحول إلى وباء وتقتل بالجملة كان الخوف يتحول إلى رعب. وبدلاً من البكاء الذي يعتري الأب والأم والمرأة والزوج والابن كانت تتصاعد إلى السماء دعاءات اللعنة.

كان الوباء يستهلك ضحيته خلال أيام قليلة، يحرق الجسد، ويشعرها بالقيء. ويصيب الرأس بصداع فيبلغ الهذيان درجة يفقد معها الوعي، وتبدأ الرائحة الكريهة مع اللهاث، أما الأحشاء الممزقة فإنها تتصاعد بانتفاخ طاعوني. إنه الموت الأكيد البشع، ولا مناص من ذلك.

كان للأوبئة الأخرى مسميات: كالبرداء، والبردائي، والطاعون البقري الذي يهاجم البشر والقطعان، والحمى الصفراء، والحمى التيفية، وكان وباء أكثر خطراً من سواه، ولكن، لهذه الأوبئة دواء، وعلاج حتى للجذام الأسود: يوضع روث البقر، مجففاً، على الدمامل المتقيحة. ولكن لم يكن هناك دواء للوباء الذي لا اسم له، والذي كانوا يسمونه بالحمى، هكذا ببساطة، دون صفة تميزه، ودون شخص أو وصفة طبية، والمريض بيد الله إله الطاعون الذي لا رحمة له كانوا يلجأون إلى اللبخات الحارة، والكمادات والزجاجات الحارة، والأدوية المصنوعة من جذور وأوراق الشجر، وهي تركيبات أورثها الآباء للأبناء.. على كل حال قد تبدو أحياناً طلقة وإصابة لعدة أوبئة، ولكن ليس لها أي تأثير على الحمى التي لا اسم لها والتي تقتل القرد إذا أصابته... لهذا لم يكن يبقى غير الصلاة والنذور، والدعوات، وأعمال السحر والوعود...

كانت تصل دون أن تعلن عن وصولها، تجندل، تصيب الشحوب، وتبدأ بالسحل، تفرغ الأمعاء والعقل، وتحول أقوى الرجال إلى خرقة قبل أن تقتله. لم يكن هناك ما يمكن فعله غير الانتظار، انتظار أن تطفئ شهوتها، وتنصرف، كما جاءت بشكل غير متوقع، لتحفر القبور في مكان آخر...

هل تخضع لدورة زمنية أو تصل صدفة على هواها؟ وهل تنصرف لأنها شبعت أو لأن الله سمع الصلوات؟ كل شيء ممكن. إذا كان الأطباء المتخصصون في مدينتي إيلايوس وإيتابونا لا يستطيعون تشخيصها ولا يقدرون على محاربتها، فلم يكن على الشعب المسحوق في مجاهل الدنيا إلا أن يهرب أو ينتظر أن تقرر الحمى الانصراف مستبدلة محل إقامتها، حاملة في جعبتها عقاب الموت دون تسمية: إنه موت مؤلم قذر، متعفن، وقاسٍ.

8

دامت خمسة عشر يوماً، وصلت يوم أحد الاحتفال. واستعرضت نفسها مع إمبروزيو في المعرض، وبعد أسبوعين استفادت من متن ريح عاصفة فامتطته وتابعت رحلتها لتستمر في القتل في المكان التالي. كانت قد تركت في المقبرة العامرة في توكايا غراندي تسعة صلبان إضافية لتروي الحكاية.

ما لم يتمكن الفيضان أن يجترحه هو حمل السكان على الهرب وإفراغ الناحية، ولكن الحمى كانت على وشك أن تترك المكان في فراغ دون اقتلاع أو جرف، ولو أنها دامت أسبوعاً آخر، فمن هو المجنون الذي كان قادراً على أن يبقى هناك بانتظار الموت؟

كانت بداية الرحيل يوم الأربعاء الذي دفنت فيه الضحيتان الأوليان: العجوز إمبروزيو وفتاة الهوى كليمنتينا. واستمر الرحيل بأعداد متزايدة خلال الأيام التالية ومع تواصل الموت. كان على السيدة إيستر، امرأة لوبيسينيو، العاملة بالأمراض والطبابة أن تلوح بالسوط: لقد أقامت الحمى في توكايا غراندي. إنه رأي امرأة فهيمة: صرف المال على الدواء حماقة، والقيام بالنذور إضاعة وقت، ولم يكن في توكايا غراندي صيدلية، بل لم يكن هناك غير أربع زجاجات من الشراب في دكان التركي، وأكثر من هذا لم يكن هناك كنيسة يصلى فيها على روح الميت. لم يعد من شيء يمكن أن يحملوه غير الرحيل عن صندوق القمامة البائس، الذي بالإضافة إلى ما فيه من حرمان، كان مصاباً بالطاعون.

قامت السيدة إيستر بواجبها بنشر التحذير، من جار لجار، وتقوم بذلك العمل برضى بسبب الاحتقار الذي كانت تستشعره تجاه القرية والقرف الذي تعانيه كونها تقيم في موقع متخلف إلى هذا الحد؛ وبين الدواعي الأخرى، يكفي أن يكون الزوج في صحبة القيام والقعود مع عشيقة وهي بالإضافة إلى هذا ليست مطية خاصة محترفة وهلم جرا... ولكنها لا تعدو كونها عاهرة ذات باب

مفتوح. وحاولت السيدة إيستر أن تأخذ ابنها معها ولكن زينيو رفض مرافقتها... هزَّ كتفيه، فصبر. من الأفضل لها أن تعيش مهملة في تاكاراس على أن تموت متعفنة مع عائلتها. جمعت أغراضها وانطلقت دون أن تنظر إلى الوراء، وأعطت المثل.

وبمغالاة مضاعفة بفعل الظروف القائمة فإن أخباراً كانت تسري كالهشيم، تحكي عن حلقات مرعبة في المزارع، والقرى، ونقاط قضاء الليل، والهروب. يجتاح توكايا غراندي الهول الذي هبط على دسكرة شبيهة بها في ربوع أغوابريتا: كل المقيمين هناك نقلوا إلى القبور في ربوع أغوابريتا، سيكييرو دي إشبينيو في ريو دو براسو. كانت الجغرافية تتغير بتغير المتحدث، وتكبر مساحة المكان، ويزداد عدد الموتى، ولكن تفضيلاً واحداً يستمر هو نفسه: لم يبقَ أحد ليروي الحكاية. أما ما هو متعلق من هذه الأخبار بتوكايا غراندي فمفاده أن النقيب ناتاريو قد ذهب ضحية الوباء، ونزع جزمته ودخل الجحيم ليدفع ثمن خطاياه. وكان هناك من شرب سراً نخب ذكراه.

أما العاهرات فقد تفرقن تلقائياً. فالحمى التي بدأت القطاف في حقول السرجيبيين اجتازت الجسر الكبير إلى أسفل المنحدرات: هناك في المبنى توفيت ثلاث منهن خلال يومين. وكان اللفظ عاماً وكذلك الرحيل: مستفيدات من عبور القوافل أو العربات التي تجرها الثيران، والصرة في اليد أو على الرأس، انصرفن جميعاً. واحدة منهن غلوريا ماريا، كانت قد رحلت وهي تعاني من القيء حاملة الحمى في جعبتها. قامت بالرحلة تائهة عبر الغابات وماتت لدى وصولها إلى تاكاراس حيث دفنت، فتجنبت مقبرة توكايا غراندي أن يصبح عشرة مجموع القبور التي فتحت فيها.

بعض حداة القوافل راحوا يحولون سكة قوافلهم، وظلوا خلال بعض الوقت يتجنبون المرور من هناك فتقلصت الحركة. في الأسبوع التالي ازداد الرحيل وسيطرت فكرة الهرب على الناحية. وبعدما حاول أن يحصل، ودون أن يتمكن، على رفقة زي دوس سنتوس والسيدة كلارا – مع من كانوا سيتركون الحقول والحيوانات – فإن باستياو دا روزا جمع زوجته وابنته وراح يفتش عن ملجأ آمن في تاكاراس. وعندما رأوه يقفل باب البيت فإن المترددين حزما أمرهما وتوكلا على الله.

9

تمّ تعداد سبعة أيام وخمسة موتى منذ يوم الأحد الذي عبّرت فيه زيلدا عن مخاوفها للنقيب. وفي نفس ساعة الغداء، على الطاولة الصامتة التي لا ضيوف حولها، استعادت الموضوع عند النقطة التي كانت قد تركته عندها.

– لقد تفشى الوباء.

كان الأسبوع المنصرم حزيناً وصعباً. وكان ناتاريو يبدو متعباً، واهناً. كانوا يجيئون للتفتيش عنه، مرتبكين، خائفين كما لو أن النقيب كان طبيباً أو معالجاً، منتظرين منه مساعدة، حلاً، وهو لم يكن يمتلك ما يساعد به أو يحل، وإن كلمة تخفف من المصاب: كانت الكلمات غامضة فارغة، وتقع مزورة على الآذان. لم يكن الناس يفتشون عن عزاء على من مات، بل عن خلاص للأحياء. جلس زي لويس على المقعد، عند الشرفة، وقد انهارت قواه: لا يوجد شيء أكثر إيلاماً، ولا يمكن تحمله أكثر من رجل يبكي وقد أضاع الحياء وتجرد من كونه ذكراً. كررت زيلدا قولها وقد رفعت صوتها ليسمعه وتحصل على الجواب:

– لقد تفشى الوباء.

كان النقيب قد تناول بأصابعه كومة فاصولياء سوداء مع الطحين: يقولون إن قريباً للسيدة ليوكاديا قد أصيب. هل هو رجل أم امرأة؟ هل تعرفين؟ – إن الأشتانسيين كانوا قد دفنوا الشاب تانكريدو يوم الجمعة.

– إنه الطفل ماريوزينو، ابن عشر سنوات، ولم يكن لديها سواه. لم يكن يغادر بيتاً كان كالظفر واللحم مع بيبا.

– تتكلمين كأنه قد مات.

– فليسامحني الله! لا أريد أن أكون سوء فال على أحد، ولكن هل رأيت أحداً قد شفي من هذا الوباء؟ لم أعرف أحداً.

أطرقت عينيها إلى الصحن الخشبي، وتناولت بعض الطعام بالملعقة.

– إني ممزقة، متنازعة، بسبب الأولاد. ماذا تعتقد؟ أليس من الأفضل أخذهم والذهاب إلى المزرعة؟ فقط إلى أن يمر الوباء؟

جال النقيب بعينيه حول الأولاد غير المهتمين بالحديث، يأكل بعضهم على الطاولة وبعضهم الآخر على الأرض. بعد ذلك نظر إلى وجه المرأة:

– هل عددت كم من البيوت قد أقفلت وكم من الناس الذين غادروا؟ إذا غادرنا أو إذا أخذت الأولاد إلى المزرعة، ففي اليوم التالي لن يبقى شخص واحد في توكايا غراندي. نحن لا نستطيع أن نفعل هذا.

– تركت زيلدا الملعقة وأدارت عينيها باتجاهه:

– لقد أخذت أبناء الأخريات لأربيهم.

– هذا هو بيتهم ولن نخرج من هنا – لن يخرج أحد – ترك يديه المتسختين بالطعام، وهو يفرك الواحدة بالأخرى: لن نخرج إلا إلى المقبرة. هزّت زيلدا برأسها موافقة. لم يكونا يناقشان بل يتحدثان. كانت تعرف زوجها وطريقة تفكيره: إن من له الأمر والسلطة عليه واجبات. لا يفيد بشيء إعطاء الحجج، وأقل فائدة من هذه هو الاعتراض. لقد قام بواجبه وطرد مخاوفه: كان عليه أن يقرر، وعليها أن تطيع.

10

فيما بعد، وفي الفراش مع برناردا، قال لها النقيب:

إن قسماً كبيراً من الناس ينصرفون. كان عليك أن تفعلي الشيء نفسه. المجازفة كبيرة هنا.

كان ينظر إلى السقف الخشبي، ويتكلم بصوت حيادي هادئ: لم يكن يعطي أمراً بل نصيحة.

– انصرف؟ إلى أين؟

– يوجد مكان في تاكاراس تستطيعين المكوث فيه.

– وهل يذهب العرّاب أيضاً؟

– أنا لا أستطيع أن أخرج من هنا.

– والعرّابة؟

– تبقى هنا، هي والأولاد.

– لا أنت ولا العرّابة ولا الأولاد. ولماذا عليَّ أن أنصرف؟ لماذا تريد أن تراني بعيدة؟ لماذا تصرفني؟ ماذا فعلت لأستحق العقاب والاحتقار؟ إذا كان لا بدّ من الموت، فسأموت هنا بالقرب منك ومن نادينيو.

أراحت رأسها على صدر العرّاب كما كانت تفعل وهي صغيرة ولكنها بذراعيها ورجليها شدّته إلى جسدها العاري:

– هل تعبت مني؟

– لم أقل لك لتذهبي، بل لأذكرك.

إنها ستقوم بما عليها، وكما هو واجب زيلدا تجاه طاولة الطعام. ولامس النقيب ناتاريو دا فونسيكا بأصابعه وجه فليونته، وعشيقته منذ سنوات عديدة. عندما تكلم كان يعرف الجواب.

11

الإحساس بالموت كان في تأثر ميرنسيا. لو أنها كانت مصابة بأي مرض آخر، أو لدغة أفعى، لكانت استحقت جنازة لائقة على غرار ما تمّ للعوراء ومشتري الكاكاو، بل أفضل من جنازتهما. وكان لديها ذكريات عديدة تستعيدها، ونزهات مؤنسة، ولحظات توقد.

هي امرأة متزوجة، كانت تبقى على مسافة من فتيات الهوى ولكنها دافعت عنهن عندما حاول رعاة البقر أن يفرضوا شريعة الغاب. بيديها القويتين سعت جاهدة، ودون إبداء التعب، إلى بناء الجدران وتركيب القرميد لإعادة توكايا غراندي إلى ما كانت عليه قبل الفيضان. وبيديها الدقيقتين الماهرتين، وفي ساعات الفراغ ومن الورق والقصب كانت تصنع طائرات ورقية وتمنحها للأولاد ليطلقوها في سماء القرية. وكانت تحضر لمشاهدة حذاقة أحبائها الصغار وتصفق لارتفاع الطائرة وتطوراتها. كانت ترغب في طفل، ولله كم كانت ترغب في ذلك: ولكن رحمها كانت ناشفة. ولشوقها إلى طفل لم يأتِ كانت ترضع أطفال الآخرين وتربي الحيوانات. ومن لا يتذكرها غارقة في الماء حتى خصرها في صباح يوم الفيضان وهي تحاول أن تنقذ حيواناً من الغرق؟

وإذا كان زي لويس يتجاوز الحدود، في الكاشاسا والمبغى سكران أو عاشقاً فإن ميرنسيا كانت تغضب وتمزق ملابسه على جسده وهو لا يقوم بأية ردة فعل. كانت تذهب للمجيء به، المتهتك، من أسفل المنحدرات وتقوده إلى البيت بالشتائم والصفعات، وفي الجنازات عليها أن تتلو صلاة الوداع الأخير.

كان قد تمّ دفنها على عجل شأنها شأن الآخرين الذين استهلكتهم الحمى، وذلك حتى لا تتفشى الجراثيم في الهواء وتدخل في أجساد الأحياء. وكونها كانت متعبدة، وطاقة كبيرة في التعليم الديني والصلاة، فإن ميرنسيا كانت تستحق المرافقة إلى القبر مع الأناشيد والإطراءات. وبقدر ما كانت تستحق ففي الساعة الحاسمة نقصها كل شيء. لم يكن هناك حتى جوقة العاهرات تردد أمين. كانت الحمى تقتل بسرعة وبسرعة أكبر. كان الميت يؤخذ إلى المقبرة بفعل الخوف المقيم، وفي الهرولة السريعة لم يتوفر إلا القليل من الوقت ليجعجع فضول عبد الله "الأبانا" باللغة العربية.

12

بعد مرور ثلاثة أيام على دفن ميرنسيا لم يعد أحد يسمع عن حوادث جديدة من العقاب واللعنة في الناحية التي هجرتها الحركة وغادرها الفرح. فظهر بيدرو سيغانو في محل حدادة كاستور أبدووين في مهمة حياة وفرح لكي يناقش فكرة حفلة راقصة: كان ضرورياً نسيان الأيام السود، وتجفيف الدمع، وإطفاء ذكرى الحمى، ووضع النهاية لاحتفالات الموت. إن الأموات لا يقومون إلا في يوم الدينونة.

على أثر الاحتفال بافتتاح المستودع، كان بيدرو سيغانو قد اختفى في توكايا غراندي، واستفاد البعض من أصحاب الألسنة الطويلة ليهووا عليه بالسياط. لقد هرب القط بسرعة، وبخوف من الشدة إلى درجة نسي معها آلته الموسيقية في دكان التركي، لكن حضوره في ساعة الوليمة كان إجبارياً، وأصابعه الخمسة ممدودة لانتزاع الألحان الموسيقية والفم مفتوح ليبتلع المشروب على حساب الأيدي المفتوحة. إنها تهم حساد له على مواهبه، وحرية اتجاهاته وعشقه المزمن، وهي كلها أمور ما لبثت أن انكشفت على حقيقتها لدى بيدرو سيغانو الذي عاد على متن الريح التي حملته مردوداً بالكيد وغيرها من مخدرات طبية حصل عليها من تاكاراس في انتظاراته في محطة سكة الحديد، أدوية مصنوعة لمحاربة الحمى اللعينة، وكلها غير ذات فائدة في حالات الحمى التي لا شفاء منها. لم يعد حسب، بل مكث هناك يوزع جرعات احترازية من الكينا على السكان، وهذه الجرعة كانت تصبغ البول في توكايا غراندي باللون الأزرق.

متأكداً من أن الحمى قد بلغت نهايتها، فقد خرج تفتيشاً عن مساعدة لاقتراح حفلة طيبات على إطفاء الحزن واستعادة الضحك. ولكنه في محل الحدادة ابتلع حماسه عندما تذكر أن العجوز إمبروزيو، والد ديفا كان زائداً على مائدة اللعينة، ولكن ديفا لم تعترض، فوافقت الموسيقي: ليس أفضل من حفلة رقص لإبعاد الأحزان واستعادة حب الحياة. حاضر – قال تيساو. واستمر بيدرو في تجواله تفتيشاً عن موافقات أخرى.

13

توفيت ديفا عند طلوع الصباح، نظيفة هادئة ممددة في شبكة الأرجوحة وهي تحس على جسدها المتلظي رطوبة جسد تيساو وهو يضمها، تسمعه يخنخن يا زنجيتي، "أوايا"، وكتهدب مياه واسعة الموج المتكسر على الشاطئ أو كصوت بوق آت من بعيد قالت:

– يا أبيضي وسلمت الروح: لقد وقفت الحمى بالمرصاد عندما فكروا بالاحتفال بنهاية المصيبة واتفقوا على تاريخ الحفلة الراقصة. وفي اليوم التالي بعد زيارة بيدرو سيغانو اشتكت ديفا من الوهن في رجليها، والحرارة في وجهها والوجع في أمعائها. دام ذلك يوماً وليلة.

كانت ليا وفانجي قد جاءتا للمرافقة والمساعدة... لقد أخذا الطفل ليبقى مع دينورا بعيداً عن خط المرض المعدي. ولكن تيساو مكث راكعاً عند فراش القش حين كانت ديفا تنتهي لحظة إثر لحظة: يدها ملتهبة. كلمات هذيان، تحاول أن تبتسم فلا تستطيع. كان قد نذر خروفاً لأومولو وهو يعلم أن لا فائدة من ذلك. لقد كانت الحمى تقفل الطريق على الآلهة ولا تفتح غير باب الأوغونات، وأي شخص تضع يدها عليه يكون ملكاً للحمى. كان تيساو متأكداً من ذلك لكنه اعتزم على أن لا يترك للعينة تأخذ ديفا وحدها وإذا لم تقصِ عليه الحمى على نفس فراش القش المبتل بالقيء والإسهال فإن تيساو يعرف ما يفعل. هناك راكعاً، فكّر ووضع الحل.

تنهدت ديفا بهدوء وحاولت الأم والسلفة أن ينظفاها من القذارة، في حين كان تيساو يساعدها ضاماً إياها إلى صدره، ولكن الأطمار الجديدة لم تفد بشيء فقد كانت ديفا تحس بنفسها عفنة متسخة. طلبت أن يسخنوا الماء للحمام، لكن ليا وفانجي قاومتا: إن الاستحمام بجسد يحترق، رغبة سخيفة، وهذيان حمى، حباً لله.

توسلت ديفا وهي تنطفئ. طلب تيساو أن يستجيبوا لها: سخف، هذيان؛ إن لديفا ما تريد، وذهب للمجيء بالحوض.

نزعوا عنها قميص النوم القذرة ووضعوها في الماء الحار، وانسحبت ليا وفانجي إلى محل الحدادة تاركين إياها برفقة تيساو. عندما رآها عارية نظيفة تفوح منها رائحة الصابون، رغب في الصعود إلى الأرجوحة ليتمددا معاً. تحت الأرجوحة، لا يتحرك، وذيله بين جنبيه، كان الكلب ألما بينادا.

14

إنه زعيق الموت، وصرخة تيساو تمزق هدوء الفجر، وتشيع الخوف واليأس، فأيقظت الناس في توكايا غراندي. لقد حدث الشيء نفسه عندما فاضت مياه النهر، وقضت على ما قضت. أي إثبات آخر يعلن عن نفسه؟ ألم يكف الألم والشقاء؟

كان الفجر تقدم والذين استيقظوا رأوا الحمى تقلع على متن الريح: فلتكن إرادة الله في أن تكون الحمى قد شبعت؛ تسعة من الأموات، بل عشرة إذا أضيفت غلوريا ماريا! إنهم جزء كبير من سكان

قفا العالم. قاموا بالحسابات جمعاً وطرحاً، وحاولوا أن يقللوا من عدد الأموات والهاربين. لقد بقي القليل، فمن كانوا يسكنون هناك باستمرار لن يخسروا لأنهم انتظروا. إن الحمى التي لا اسم لها، والتي كانت تقتل حتى القردة، كانت تطوف في أرض الكاكاو، ومنتبهة يقظة كانت تنتقل من موقع إلى آخر. وكانت تقيم الهدنة ولكنها لم تكن تقول وداعاً إلى الأبد، ولن تقول أبداً.

ظهرت ليا وهي تركض مهرولة تطلب النجدة وتسأل فضول المساعدة. وتحلقت مجموعة في الحال، من رجال القوافل والعاهرات والمقيمات يريدون أن يعرفوا. وبخطوة بطيئة متجهماً، مقطباً، كان تيساو يجتاز الفلاة مقطباً، باتجاه النهر، يتبعه الكلب ألما بينادا. بيديه الممدودتين كان يحمل جسد ديفا، وهي ترتدي ضوء الفجر. لن يتركها تذهب وحيدة في أعماق المياه؛ في فراش النهر سيتمددان معاً في أرض أيوكا. يا للهراء أن يدفنوا الميت في مقبرة ويذهبوا في البكاء عليه وتذكر حسناته.

تعثرت فانجي قبل أن تصل إلى كاستور وتتوسله الاحترام للموت وظروفه. ظهرت برناردا وساعدتها على النهوض. وكانت كوروكا قد أخذت تهرول وهي ترتدي معطف الشيطان. في السماء كانت وجوه ترتسم على صفحات الغيوم...

بجهد، وعلى عجل، تمكن فضول من أن يدخل في بنطاله. ثم ألقى نفسه في وجه حذاء الحمير ليوقفه عن المسير وراح يصرخ:

– ما هذا يا تيساو، هل أنت مجنون؟

لم يوقف كاستور أبدووين خطوة، بل استعجله وتابع طريقه. لم يعد الحداد تيساو، الشاب الطيب، المحبوب من الجميع، بل أصبح روحاً من عالم آخر وخنخن بصوت يصعب سماعه:

– دعني أمر.

تحلقوا بشكل دائري حوله مستعدين لمنع الهراء واقترب منه التركي:

– سنلبسها ثيابها، ونضعها في الشبكة ونقيم لها جنازة.

– دعني أمر.

وفي عينيه فراغ الموت، حاول تيساو أن يجتاز فاصطدم بفضول. حولهما الشعب مستعد أن يتدخل: إنه محصن ضد الحمى ولن يسمح بالانتهاك.

حرّك فضول يده الغليظة وأقفل قبضته وأجهض المحاولة قبل أن يتقدم الشعب ويحدث ما لا تحمد عقباه؛ رفعت فانجي وبرناردا الجثة. واستدار تيساو ليقتل ويموت، لكن من وجدها واقفة في وجهه هي كوروكا، أم الحياة:

– هل نسيت، يا كريه، أن لديك طفلاً يجب أن تربيه؟

زياح السيدة ليوكاديا
واستئذان سكان توكايا غراندي
رقصة: كيلاريو كيلاريا

1

كان كاستور أبدووين منكباً على حذاية الفرس "أمبراتريس" مطية العقيد روبستيانو دي أراجو، المفضلة. العمل الدقيق، بحدِّ ذاته، لأن الحيوان بالإضافة إلى كونه دائم الخبب فإن أرجله دقيقة – عندما استرعى انتباهه نباح ألما بينادا وهو نباح مرتقب، واحتفالي. انتصبت أذنا الكلب ثم توقف وهو يهز بذيله وانطلق فرحاً لملاقاة القادم إلى هناك. لم يكن ألما بينادا، ذا طبع منفتح، بل متعلقاً بصاحبه واضعاً الانفعالات في تصرفه، ولا يعيش راكضاً وراء المجهولين، عند غروب الشمس الصيفي شعلول، كان يحرق سماء توكايا غراندي بلهب مضيئة حمراء صفراء.

وبينما يوكل برجل الفرس إلى الفتى، إيدو، ليكمل العمل، لمح تيساو، وقد ركّز نظره، شكل إنسان متماوج بين الأضواء والظلال الممتزجة عند غروب الشمس. مرّت في ذهن حذّاء الحمير فكرة انفعالية سخيفة؛ سوف يتمكن من أن يستجلي اللغز الذي يحيط بظهور الكلب ألما بينادا في توكايا غراندي. بعد مرور سنوات عديدة، لا بدّ من أن أحداً ما قد جاء عمداً ليراه من جديد.

جانبية غامضة لامرأة غارقة في الضوء والغبار، ثم أحنت المرأة نصفها الأعلى ووضعت صرة السفر أرضاً لتتلقى بصورة أفضل أشواق الكلب إليها في تلك اللحظة الحاسمة، ودون أن يرى وجه وملامح المرأة، فإن الزنجي عرف من تكون: لا يمكن أن تكون امرأة أخرى، غيرها. منذ أن غادرت المكان لم تبلغه أي خبر عنها. مكث تيساو واقفاً، ينتظر، ودون أن يعلن عن أية ردة فعل: إنه ميت من داخله، وحي، في مظهره، ليس إلا..

وهذا أقل ما كان يحدث في الناحية: إن الروح المعذبة في محل الحدادة هو الزنجي تيساو وليس ألما بينادا.

الخطوة مغرية، والجسد ممتشق، وتمايل الردفين، كلها جعلت إبيفانيا تقترب بوجهها الجدي. لقد احتوت أساليبها في التعبير، ودون مقدمات الإغراء، أو الافترار عن الأسنان، وقفت بلا غنج أو دلال. لم تبدُ تلك المرهفة دائمة الإغواء التي كانت تقلب عقول الرجال رأساً على عقب وتزعج راحة البال. وقفت أمام تيساو، والصرة تحت ذراعها، والكلب يدور حولها فرحاً.

– جئت أهتم بالطفل. لقد اختفيت لأني كنت على علاقة والتقيت صدفة بكوزمي الذي أخبرني. لقد تأثرت جداً.

وبصوتها الهادئ الحار.

– أين هو ابني؟ لن أنصرف من هنا وإن أمرتني بذلك.

ودون أن تنتظر جواباً، سارت باتجاه محل الحدادة يتبعها ألما بينادا، ودخلت إلى البيت. وإذ كانت الشمس قد استحمت بالدم فقد انطفأت فجأة في النهر.

2

برفقة حفيدتها آراكاتي التي لم يتم الاحتفال بعيد ميلادها الخامس عشر بسبب الحمى التي تفشت في الشتاء، كانت ليوكاديا تجتاز نصف الفرسخ الذي يفصل بين حقول الأشتانسيين وحقول السيدة فانجي.. لقد بدت مشاءة نشيطة بالرغم من عبء السنوات على كتفيها، مما جعل الفتاة تستحث الخطى لتتمكن من اللحاق بها.

كانت الاثنتان قد ذهبتا لتتحدثا في مواضيع تافهة في تلك الأماكن النائية. كانتا تتكلمان عن أزياء الراعيات، والنجوم، وفقاً لما يمكن فهمه من مجرى الحديث. وتشيران إلى أشخاص من ذوي أسماء وألقاب تقع على المسامع وقعاً غريباً ومغرياً: السيدة الآلهة، "بيمستا فيرا"، "كابوكلو غوستوزينيو"، هؤلاء وغيرهم من الكائنات العجيبة، بالإضافة إلى راعيات جميلات يرتدين ملابس الاحتفال التقليدية، سوف يسيرون قريباً في موكب في ربوع توكايا غراندي، وتحت إمرة السيدة ليوكاديا. لقد بدأ الصيف وزخات المطر تغسل السماء، وترطب الشمس، والأيام جميلة ودافئة، والقلوب منبعثة من مكانها. لقد ذهبت السيدة ليوكاديا للقيام بواجب يستوعبه اللطف حسب: كانت تريد أن تسمع رأي الجيران ولكنها كانت قد اتخذت القرار ولن يثنيها عن عزمها شيء، وهكذا قالت للجماعة:

– لن أمضي عاماً جديداً دون أن أقيم استعراضاً في الشارع.

بعينيها الغارقتين كأنهما حفرتان في وجهها المجعد راقبت الأهل والأتباع لملاحظة ردة فعل كل واحد منهم. أطرقت دونينيا زوجة فانا عينيها إلى الأرض، وشاحت سينيا بنظرها إلى البعيد، ولكن لم يرفع أحد صوته بالاعتراض. أما الصهر "أمانسيو" فلم يستطع أن يترك الأمور تجري طبيعياً. كان يرى أن الأمر يستدعي العجب، فاعتبر بلهجة تنم عن الحرد:

– أين شاهدت شارعاً في هذا المكان؟

– نحن سوف نرقص عند الضفة الثانية من النهر.

الضفة الثانية تعني إحدى الضفتين، على السواء، الضفة السكنية والضفة الزراعية، والمسألة متوقفة على من يتكلم. وتابع أمانسيو حجته.

– وهل من شارع عند الضفة الثانية؟ هل تعتقدين أننا لا نزال نعيش في أشتانسيا؟

– كنا نعيش في الحقول، على مقربة من أشتانسيا، والآن نحن نعيش على مقربة من توكايا غراندي. أعرف أن الأمر يختلف ولا أحتاج إلى القول، هنالك شيء أفضل، وشيء أسوأ، أما الأفضل فهو الأرض. عندما جئنا لم نجيء معاً بأجسادنا فقط.. عندما أتينا، فإننا جئنا معاً بالإيمان، وقد حملته على ظهري. والآن سيتم الرقص للشعب هنا، شئت أم أبيت. هل كانت تتوجه بالكلام إلى الصهر أم إلى كل الموجودين؟ – إذا كنت ضد الفكرة فأنت لست مضطراً إلى المشاركة وسأختار غيرك ليؤدي دور الجاراغوا. لا أحد مجبر، وسيشارك من يرغب في ذلك.

– يا إلهي أنا لست من قال هذا. إن سيادتك هي صاحبة الأمر.

كانت هي من تأمر، هي الأم الكبيرة؛ لم يكونوا يناقشون قراراتها، أما هو، "أمانسيو"، فلا أحد أكثر تعلقاً منه بالزياح الاستعراضي. إنه في تمثيل دور "الجاراغوا" الأقدر ولا يضاهيه أحد، أما دور بيستافيرا، فوضيع ومقلق. كان يتكلم من أجل الكلام، ويطلق لسانه بالمحادثات من أجل إخراج شيء ما من الفم، لا أكثر: وهناك الكثيرون من أمثاله. وختمت السيدة ليوكاديا المحادثة قبل أن تتذكر الأموات امرأة ما، كدوديتيا أو سنينيا أو أية ثولاء (حمقاء) أخرى:

– إن السكان هنا سيذهلون، هل فكرت في هذا؟

في العام الماضي، ولدى إقامتهم الحديثة في توكايا غراندي، لم يتذكروا شيئاً اسمه الزياح الاستعراضي. أما في أشتانسيا، وخلال أكثر من أربعين سنة، كان استعراض السيدة ليوكاديا، الذي ينطلق من الحقول، يتقاسم مع استعراضات المدينة الأخرى، التصفيق الحاد من السكان. لم يكن الاستعراض الأغنى أو الأكبر بل الأكثر فرحاً أو تأثيراً. فيما هو متعلق بالزينة والأضواء لم يكن أحد يتجرأ أن يزاحم استعراض عائلة ألينكار الذي، بالإضافة إلى مظاهر الإثراء، كانت ترافقه القراءات والممارسات الحميمة. كانت السيدة أغلابية والسيد ألينكار زينيو يقومان بالتدريبات طيلة العام، حتى إنهما يراجعان الكتب لدراسة كل خطوة وكل بيت شعر لتأدية التمثيلية والرقصة المرافقة،

تأدية كاملة. وعلى الرغم من ذلك، بمزاحمة الثروة والمعرفة، فإن زياح السيدة ليوكاديا الاستعراضي كان جميلاً: كان الموكب يلوح على الطريق إلى مدخل المدينة. وتشعل الراعيات مشاعلهن وترفع السيدة الآلهة العلم، فيركض المتفرجون لاستقباله وبين التصفيق والهتافات يرافقونه إلى محلة ماتريز. كانت السيدة ليوكاديا تنتعل حذاء وتسرح شعرها بفرق يتوسط لمتها البيضاء.

كانت الجدة والحفيدة تنوعان الأحاديث معلقتين على مرحلة خروج الاستعراض في توكايا غراندي ولا يمكن أن يكون شبيهاً بأشتانسيا، إذ ينقصهما كل شيء ابتداء من الطبل الكبير، الذي لا بدّ من وجوده، ويجب أن يكتفيا بالأكورديون والهرمونيكا. وأين هي المحلات الكبرى، والشوارع العريضة التي تضيئها قناديل النفط، والدارات الكبيرة والبيوت ذات الغرفتين عند الواجهة المقابلة للطريق لدخولها وإقامة الزياح في غرفة، والرقص في غرفة أخرى: وأين هي الموائد المليئة بالطيبات لاستقبال الراعيات وسائر الممثلين؟ في أشتانسيا كانت الاحتفالات تبدأ بقداس نصف الليل من عيد الميلاد وتستمر حتى يوم الملوك المجوس: وفي كل زاوية، رقصة، ولكن أشتانسيا غدت في العالم المنسي عندما تمّ استبدال زراعة الخضار والحبوب بقصب السكر.

أما في توكايا غراندي، فلا مشاعل نفطية ولا دارات كبرى ولا بيوت ذات غرفتين مواجهتين للطريق، بل ثلاث دزينات ونصف من السكان، بالإضافة إلى العاهرات المنتشرات على الطرقات، ورجال القوافل في مكان الراحة المخصص في المستودع، وأجراء يأتون من مزارع أخرى إلى المعرض للمشاركة في الحلقة. وعلى الرغم من هذا لن يكون الزياح الاستعراضي للسيدة ليوكاديا أقل نزقاً وتأثيراً.

عندما مرّت أمام حظيرة التاميراندو، أرادت الحفيدة أن تعرف:

– ألا تريدين أن تتكلمي مع السيدة كلارا، يا جدتي؟

– قبل أي شيء سأذهب للتحدث مع السيدة فانجي، وبعدها الآخرون. فإذا رغبت أصبح الزياح الاستعراضي عملاً مشتركاً.

3

كان زمناً مزدحماً بالمشاعل، إذ لم يكن قد مضى عام ونصف العام على وصول الأشتانسيين إلى توكايا غراندي حتى بدا لهم وكأنما وصلوا منذ قرن. وكانت السيدة ليوكاديا تختصر متظاهرة بالتعقل: لقد ازدهرت أمورهم، هنا، بصورة أفضل، مقابل تحمل الأسوأ. إنها أرض معطاء، عذراء،

وخصبة – في أشتانسيا الأرض متعبة ولها سيد – بالإضافة إلى قريب غني يحميهم، وجيران طيبين سيساعدونهم، ومواطنين لهم من سرجيبي، وتسهيلات من كل نوع، ولكنهم واجهوا، خلال فترة قصيرة الشقاء والموت.

شقاء الفيضان الذي قضى على كل ما حققوه بجهد ومشقة، وفي الوقت الذي كانوا يستعدون فيه لجني الإنتاج الأول، تشردوا وتحولت مزروعاتهم إلى طين. ولم يكادوا يستأنفون جهودهم ويستعيدون ما فقدوه حتى وصلت الحمى، وأقام الموت له مخيماً في توكايا غراندي.

كان الموت قد هاجم السرجيبيين، مؤثراً هؤلاء. أما الريفيون فقد بدوا أقوى مقاومة للوباء ومنهم من تجرأ على القول إنه يمتلك جسداً مغلقاً على الحمى، يمكن أن يكون صحيحاً. بين العشرة من الموتى الذين دفن منهم تسعة في مقبرة توكايا غراندي وواحد في تاراكاس، كان الستة منهم من السرجيبيين، والسابعة، كليمنتين، كانت قد جاءت من مكان قريب من سرجيبي، هو داس الأغواس، الواقع على الضفة الأخرى من نهر سان فرانسيسكو. اثنان من عائلة فانجي، الزوج إمبروزيو والفتاة ديفا، عشيقة تيساو، ومات اثنان من جماعة السيدة ليوكاديا هما الفتى تانكريدو والشاب ماريوزينو، ومن العاهرات الأربع اللواتي قضين كانت واحدة فقط هي دينايير قد ولدت وشبت في حقول الكاكاو، وكانت كايتانا قد جاءت من بوكين، وغلوريا ماريا من إيتابورنغا.

كانت السيدة ليوكاديا معتادة على التعايش مع الموت. من الأبناء والبنات، والنسبان والكنات، والأحفاد وأبنائهم تكون قد صلّت على أربعة عشر منهم، ومع الذين توفوا في توكايا غراندي يكون العدد قد بلغ ستة عشر. كان موت الآخرين مضنياً، لأن المكان كان مهملاً ولم تكن تعرف عن تلك الحمى حتى اسمها، فيسمونها الحمى التي تقتل القرود. إن الشاب والفتى، يا إلهي، قد انتهيا وهما يتقيئان الحياة من الفم، ومن الأحشاء: مشهد، مخيف أن تراه.

إن استعراض الزياح سيتم، ومعه الرقص في الشوارع، ولن يعيقها عن ذلك موت فورتوناتو، زوج ليوكاديا، وكبير العائلة الذي أسلم الروح بينما يعمل في الحقل ودون أن يصدر عنه صوت، ودون سابق مرض أو إنذار. خلال سنوات طويلة، كان المرحوم يؤدي دور كابوكلو غوستو زينيو، ووفقاً لكلام أهل أشتانسيا لم يكن السي ليوناردو والذي يؤدي الدور نفسه في استعراض زياح عائلة ألينكار يضاهيه في إلقاء نشيد الثور:

"من ثوري نال الردى،

بفعل عين حاسدة...".

مع موت فورتوناتو، فإن تمثيل دور الكوبوكلو غوستورينيو سيتم بواسطة هذا أو ذاك ممن تختارهم ليوكاديا من ذوي الشأن للقيام بالمهمة وإلقاء النشيد. وعندما كادتا تصلان إلى بيت العجوز فانجي تماسكت آراكاتي وسألت:

– من تعتقدين يا جدتي، سوف يرقص الكابوكلو في هذه المرة؟

يا للصدفة، كانت ليوكاديا، تلك اللحظة، تنقب في المشكلة.

– سأبذل قصارى جهدي ليؤدي تيساو الدور.. إنه يبدو كمن دفن نفسه مع امرأته.

– أرى الأمر جميلاً، يا جدتي، ومؤثراً. ألا ترين هذا؟

– إنه شاب عصري، يرتدي ملابس الحداد كما لا أرملة عجوز..

كلمة حداد طريقة كلام. إن ارتداء الأسود من الرأس حتى الأخمصين هي رفاهية الرجل الغني في المدينة وبيوتات المزارع الكبرى، أما حداد الشعب فهو الأحزان والانكسارات النفسية، ومعاناة الصدور، لا يعرض نفسه بالأزياء، يسمونه المعاناة، ويدوم قليلاً، وفي الحياة الشاقة، أين الوقت والراحة للشوق والبكاء؟

4

بدل السيد كارلينيوس سيلفا معالم مستودع الكاكاو، من الداخل والخارج، وأضاف إليه مع ذلك بناءين جديدين يستعمل أحدهما كمقر إقامة ومكتب، ومنح الآخر لسكن الأزلام، وهؤلاء كانوا، ينامون على أكياس مليئة بالقش قرب الكاكاو المخزون، ويستحمون في النهر ويقضون حاجاتهم في الغابة. ومع الإصلاح ربحوا فرشاً من الصوف وسريراً حديدياً... كانوا يقولون إن في السيد كارلينيوس جزءاً من الأجانب فهو لم يكد يصل حتى ابتنى بيتين: واحداً للأجراء، وآخر مقفولاً بالمفتاح لاستعماله الشخصي.

كان هناك من استغرب حين رآه يوماً في المستودع، وراء لوبيسينيو، يرسم المخططات، ويتعاقد على الأعمال، ويعطي الأوامر. ولكن النبأ ما لبث أن شاع: لقد تخلى العقيد روبستيانو دي أراجو عن المستودع لشركة كويفمان وشركاه. أما سبب القرار الذي اتخذه العقيد، فقد راحوا يفتشون عنه في دفن جيرينو ضحية الحمى التي لم تحترم كونه ريفياً.

كان العقيد قد ابتنى المستودع عندما، نتيجة خلافه مع السويسريين من شركة ويلثمان وشيرمان الذين يبيعهم المحاصيل، انتقل إلى التعامل مع المان شركة كويفمان وشركاه الذين، رغبة في إرضائه، عرضوا عليه أن يستلموا الكاكاو الجاف في توكايا غراندي عند منتصف الطريق بين مزرعة سانتا ماريانا ومحطة سكة حديد تاكاراس. وأوكل المستودع إلى الحارس جيرينو الموظف الكفوء، الجاد والمخلص الذي يرافقه أثناء المعارك، الجيد التصويب ولكن لا فائدة منه في الزراعة وتربية العجول.

شركات التصدير وغالبيتها ألمانية وسويسرية، ومنها واحدة فقط برازيلية – وهذه هي الصغرى والأكثر احتيالاً وسرقة وفقاً لأقوال طويلي الألسن – كانت كلها تخوض معركة الحصول على الامتياز في مناطق الكاكاو المختلفة بغية كسب زبائنها من كبار المزارعين، والاحتفاظ بهم... كانت تلك الشركات تسهل السُلَف لصغار المزارعين، على حساب الكاكاو الذي سيتم تسليمه، وكانت تعرض على الكبار منهم رفاهية الإقامة والظروف المعيشية والمكاسب المختلفة الأخرى... وبفضل السيد سيسرو مورا، وعلى الأخص السيد كارلينيوس سيلفا، فإن شركة كويفمان وشركاه قد وسعت نشاطاتها ضمن حدود منطقة نهر الأفاعي، واضعة يدها على الجزء الأكبر من إنتاج المنطقة. وبغية تسهيل الحياة لمزارعي الكاكاو، وبنوع خاص الصغار منهم، معتقة إياهم من تسليم الإنتاج إلى المقر الرئيسي في إيلايوس فرع إيتابونا، ومقلصة المسافة للقوافل وبالتالي المصاريف فإن السيد كارلينيوس عرض على كورت كويفمان، الرئيس الأكبر، القريب السابق، بناء مستودع في توكايا غراندي، ذات الموقع الجيد والمضمون مستقبلاً حتى يستلم ويخزن الكاكاو هناك، على غرار ما كانوا يفعلونه لدى استلام محاصيل العقيد روبستيانو دي أراجو.

وإذ كان المزارع الكبير لا يزال متأثراً لموت جيرينو الذي لا بديل عنه، فإنه عندما علم بالمشروع عرض التخلي عن المستودع للشركة، فهذه صفقة للفريقين. هكذا كان، ونتيجة له فإن السيد كارلينيوس سيلفا أقام في توكايا غراندي مع الأسلحة والأمتعة، وهذا حل مناسب وعملي: وكان يذهب إلى إيلايوس مرة في الشهر لتقديم التقرير.

بالإضافة إلى السرير الزوجي، فقد جاء معه من المدينة بمنصة ومكتبة أغلب كتبها مكتوبة بلغة أجنبية. أما الذين كانوا يبدون إعجابهم بالسرير الزوجي في بيت رجل أعزب فإنه كان يجيبهم متحبباً، متفكهاً: أعزب، صحيح، أما ناسك، فلا...

كان شخصاً منفتحاً، ذا طبيعة ودودة، وعندما لم يكن يسافر لشراء الكاكاو فإنه كان يتمتع بمجالسة الناس، ويهتم بكل أنواع السخافات: وصفات الأكل، والمشروبات وطرق معالجة الربو والسل، وحكايات عن الاستغلال، وأقوال وأمثال شعبية، وأحداث تافهة لا قيمة لها، وبقطعة من قلم الرصاص كان يدوّن ملاحظاته في الحياة على دفتر صغير! لهذه أو تلك من الأسباب كان براوليو أحد حراس المستودع يقول إن السيد كارلينيوس شخص مثير للاهتمام. كان براوليو قد سمع كلمتي "مثير للاهتمام" في نزل العاهرات في إيتابونا فأضافها إلى قاموس مفرداته المحدودة يستعملها كمحطة كلام عندما يريد أن يفسر ما لا تفسير له: مثير للاهتمام.

عندما سمع السيدة ليوكاديا تعرض فكرة القيام باستعراض الزياح، فإن السيد كارلينيوس سيلفا صفق للفكرة بحماس ووضع نفسه قيد أوامرها: كيف يمكن أن أكون مفيداً؟ اغتنمت السيدة ليوكاديا الفرصة لتثير مسألة الطبل الخطير: دون طبل فإن الزياح لن يكون كاملاً، والتزم كارلينيوس بالحصول من شركة كويفمان وشركائه على طبل تهبه الشركة مجاناً: كوني مطمئنة، فلن يتوقف الاستعراض بسبب الطبل... وبدلاً من ذلك فإنه طلب منها طلباً: هل يستطيع أن يحضر التدريب؟ طبعاً يستطيع، ويكفي أن يأتي إلى المستودع الكبير حيث ستتم، ولثلاثة أيام في الأسبوع. في أشتانسيا، كان كل تدريب عيداً للعشق، والغناء والرقص. وأحياناً كان يقود إلى الزواج.

5

أعاد النقيب ناتاريو دا فونسيكا معجون التبغ إلى إشبيريداو، واحتفظ بالخنجر في الغمد المعلق على زناره، وأبلغ العقيد بوافنتورا أندرادي رسالة السيدة ليوكاديا، – إن السيدة ليوكاديا طلبت أن أقول لك إنها تأمل في حضورك الزياح مهما يكن الأمر.

– إنه بلاغ مستعجل: لا تنسَ يا نقيب أن تتكلم مع قريبتي –. ابتسم العقيد وتذكر.

– العجوز الشمطاء! ما زلت أتذكر زياحها. لم أرَ في حياتي أكثر اهتماماً بالاحتفالات من أهل أشتانسيا.

– قالت إن والد سيادتك كان يمثل دور القديس متى، وكان جيد الرقص.

– إن العجوز زي أندرادي كان صاحب ميل إلى هذه الأمور. كان يخرج إلى الاستعراض، ويعزف على المترددة، ويرسم الشيطان، وظلَّ هكذا إلى أن مات.

إلى أن مات! على شرفة الدارة الكبيرة، أطال العقيد بوافنتورا أندرادي النظر إلى الرجلين، ناتاريو ذراعه اليمنى، وإشبيريداو، كلب حراسته... فالاثنان جازفا بحياتهما من أجله، على السواء. ما كان ممكناً أن يكون هناك، محادثاً، لولاهما. لقد أطلق ناتاريو النار مرتين، وإشبيريداو مرة واحدة، على الأقل، قبل أن يطلق الصعاليك الذين أرسلهم أعداؤه ليقوموا بالعمل الذي استلموا ثقله ذهباً. كانوا قد أقسموا على موته في الصراعات الدامية. عندما كان العقداء وأزلامهم يبنون ويثبتون ثراءهم بالإصبع على الزناد في أشتانسيا، فإن العجوز جوزي أندرادي، العازف على المترددة، ظلَّ يستأنس بالحياة إلى أن مات... على الشرفة في الدارة الكبيرة كان العقيد بوافنتورا أندرادي المليونير، القدير، يتأمل في مصير المخلوقين اللذين أمامه.

في المدن دلائل عظمة كثيرة، أحاديث، مقالات ذات عمق، محاضرات، أمسيات شعرية ورقصة الأقنعة السبعة وألف متعة راقية: وكل هذا المجد أصبح ممكناً لأن ناتاريو، وإشبيريداو، ومجموعة الأزلام المتعاقبة الأعداد، وبوافنتورا أندرادي، وإميليومدور، وسلسلة العقداء استلوا جميعاً الأدوات اللازمة وانطلقوا للسيطرة على الغابات، فكل جذع كاكاو كلّف حياة إنسان. أما الأشراف فكانوا يتناقشون ويكتبون عن المدينة، والتقدم، والأفكار الليبرالية، والانتخابات، والكتب وغيرها من السخافات بكلمات كبيرة ومعقدة. لو أنهم، العقداء والمقاتلين، لم يقتحموا الغابات، ويزرعوا الأرض، ومملكة الكاكاو الواسعة، فإن أطروحة الأمجاد الفكرية والثقافية تلك ما كانت لتكون وإن في الأحلام.

عندما سمع ناتاريو يتكلم عن الأشتانسيين، فإن العقيد ألقى على زلمتيه نظرة عطف وأحس تجاههما بالتقدير والعرفان بالجميل. لقد تقدمت به السن فلم يعد ذلك الفارس الذي لا يقهر، وذلك الآمر الناهي المتسلط، سيد الحلال والحرام، الآمر في السياسة والعدالة، وفي دار البلدية ومكاتب إيتابونا. إذا كان لا يزال ممسكاً بلجام السلطة، ويمسك به قصيراً لتجنب الإشكالات، فقد فعل، بالرغم من كل شيء، على أمل أن يرى ابنه عائداً ليستلم القيادة مفسحاً له المجال في الاستراحة بسلام.

إن العجوز زي أندرادي، الرجل الفقير، الموسيقي الهاوي، قد استأنس في حياته إلى أن مات، ولم يتخلَّ عن شيء كانت الحياة تعرضه عليه.

– قل لليوكاديا إنني تقدمت جداً في السن ولم يعد بمقدوري أن أرقص في الاستعراض.

– قالت: لو أن سيادتك تذهب فقط للحضور... وللاستئناس قليلاً.

6

كانت الحياة تمنح القليل بغية مؤانسة شيخوخة العقيد؛ وشيئان مما كانت تمنحهما العزاء والبلسم: الكاكاو والصبية ساكرامنتو.

رؤية بساتين الكاكاو وما لاقته من عناية كانت منظراً علوياً، ومهمة وديعة احتفالية. كان قد أنهى، برفقة ناتاريو، معاينة الموسم بستاناً بستاناً، القديم منها والحديث، وكل واحد أكثر حملاً من الآخر في ذلك الصيف المجيد الذي بلغت فيه نسبة الأمطار والحرارة حدَّ الكمال. وكل هذا تعويضٌ عن الخسائر التي سببتها السيول في العام الماضي. كان الحمل الاستثنائي والنضج المثالي للثمار يدفئان قلبه.

كان قد اجتاز أيضاً بساتين مزرعة بوافيشاتا، ولم تكن أشجار الكاكاو هناك تختلف عنها في مزرعة أتالايا، فقد حظيت بالعناية نفسها ونالت الفتنة التي تستقطب القلوب. لقد كوفئ ناتاريو. وإذا لم تكن المكافأة بقدر ما يستحق – لقد أنقذ حياته مرتين – فإنه على الأقل أصبح يمتلك قطعة أرض مزروعة بالكاكاو. وكونه عليماً، شغولاً فسيصبح غنياً. أما إشبيريداو فلم يكن يمتلك مكاناً يموت فيه، وكان يحتفظ بأطماره ومستلزماته في غرفة لا نوافذ فيها عند أقصى حدود الدار الكبيرة. نوم خفيف، وسمع مرهف، وينام في ردهة يحرس منها غرفة العقيد واستراحة السيد.

لم يفه إشبيريداو بكلمة، مطالباً، ولم يرغب أبداً في شيء. كان قد وصل إلى مزرعة أتالايا بعد النهاية الدامية برفقة ابنة صغيرة. كانت الأم قد ماتت مسلولة وهي تتقيأ الدم أثناء الجفاف الذي أصاب داخل منطقة كونكيستا. وباستعداد أبداه العقيد، لا بطلب من الأب، فإن الابنة الصغيرة أنطونيا، الخادمة في الدار الكبيرة، كانت قد أرسلت إلى مدرسة الإرساليين في إيلايوس: وكانت الزنجية الوحيدة المصطفة في حلقة التلميذات، البيضاوات أكثر أو أقل. معلمة متخصصة، بذلت جهدها لتعليم الصغار القراءة في مدرسة تاكاراس الصغيرة، وكانت تستعمل النظارات، ولم تتزوج، وراحت تربي العصافير. وكان للزنجي إشبيريداو احترام حقيقي لابنته. فكان يعاملها بوقار. ولم يكن ينقص سوى مناداتها بالسيدة. عندما كان يتلفظ باسمها فإنه كان يضيف إليه الألقاب: ابنتي المعلمة السيدة أنطونيا.

بينما يجلس إشبيريداو عند سلم الشرفة، وناتاريو عند حافة المقعد الخشبي، كان العقيد، بين زلمتيه، يفكر في الحياة والشيخوخة والمباهج القليلة التي بقيت له. ومن المطبخ كان يصل صوت ساكرامنتو مع جرحة موال تغنيه:

"الزرزور عصفور أسود،

والعندليب بلون القصب...".

كان فنتورينيا يغرق نفسه في ملذات الريو دي جانيرو. وكانت السيدة أرنستينا، زوجته المقدسة، تصلي وتضع النذور في إيلايوس، وأدريانا، فتاة الهوى، على طريق القداسة، هي الأخرى، لم تكن تفارق حلقات الروحانيين؛ الزوجة والعشيقة كلتاهما مع دعوتيها الإلهيتين: إنهما أخصاؤه من ناحية الإثراء، أما في المزرعة، حيث كان يطيل الإقامة أكثر فأكثر، فإن ناتاريو، وإشبيريداو، وساكرامنتو هم أخصاؤه أيضاً، من الناحية الثانية. وحتى لا يموت في وحدته، فقد منحته الحياة الصبية ساكرامنتو، ومن المؤسف أن تكون هذه قد تأخرت إلى هذا الحد.

أوقفت ساكرامنتو الغناء وظهرت عند الشرفة مع إبريق القهوة الطازجة الحارة والمعطرة تصب القهوة في فناجين صغيرة، وانتفض العقيد وقال:

– إن لدى إشبيريداو رغبة في كأس كاشاسا...

– هل هو وحده الذي يرغب؟ – مازحت الصبية المعتادة على عادات المزارع الكبير.

– أعتقد أن ناتاريو قادر على القبول. فماذا تقول يا ابن العم؟

– إذا كان لمرافقتك فأقبل بكل سرور...

ضحك العقيد مرتاحاً، إذ كان يحس بأنه بين أخصائه، وكان مجرد حضور الصبية يعادل منظر حقول الكاكاو فيدفئ قلبه. وجمعت ساكرامنتو الفناجين وعادت مع الإبريق والكؤوس الأخرى – التي كانت كؤوساً ناعمة وسريعة العطب لا تتسع الواحدة منها لأكثر من جرعة من الكاشاسا، وعندما عادت ساكرامنتو لتنحني أمامه، وهي تقوم بالخدمة، لمح العقيد تحت صدريتها انحناء وحجم الثديين وأحس بهما عند أعلى يده التي ارتفعت عمداً، فإذا الرغبة تصعد إلى عينيه وتحرق صدره ممتزجة بجرعة كاشاسا.

عند شرفة الدار الكبيرة كان العقيد يفكر في الحياة، والشيخوخة، والقليل من المسرات، والكثير من المشقات التي لا يخضع لها إنسان: فمع تقدم العمر تبدأ المسافة تتسع بين الرغبة والاحتراق، وبين

التفكير في أن يظل منيعاً والحقيقة في أنه لا يستطيع أن ينتصب. وكان ناتاريو وإشبيريداو يحترمان ساعات صمته، ولم يكن قط ضرورياً أن يتبادلا بينهما الكلمات ليتفاهما: حتى إن النقيب كان يتكهن.

إن الاحتفال بالزياح يعتبر لهواً للشباب، ولكن بحق الشيطان ماذا لديه ولدى ليوكاديا ما يفتشان عنه مع الأغنام والراعيات؟ هي، وإحدى قدميها في القبر، وهو على حافة الانحناء: على الحافة؟ إن العجوز الشمطاء تريد أن تموت فرحة. إن الناس الأقوياء لا يسمحون لأنفسهم بالانهيار: كانوا قد فقدوا اثنين في الوباء، شاباً وفتى. العجوز زي أندرادي أيضاً كان قد تمادى في المجون إلى أن مات.

إن زياحه فهو حقول الكاكاو... وراعيته هي الطيبة ساكرامنتو والسيدة الإلهة التي تحرسه. هذا كل ما بقي له. قلب كأس الكاشاسا إلى جوفه. وأمر، بين جد ومزاح:

– اتركي القنينة هنا، فهذه ليست جرعة تقدم إلى إشبيريداو.

ثم توجه إلى ناتاريو، بصوت متعب:

– قل لليو كاديا إنني لا أعد بالمجيء، والأرجح أنني لن آتي. كنت أرغب في ذلك. إما أن تأتي أرنستينا إلى هنا، أو أنني سأذهب لتمضية العيد في إيلايوس.. إن الوعد وعدم الوفاء به مسألة لا تعجبني.

كان الأصيل يتلاشى فوق حقول الكاكاو... وعند النهر كانت زقزقة طائر ليل تنازع في فم أفعى. في الصالة الداخلية، كانت ساكرامنتو، صبية العقيد، قد أشعلت قنديل النفط.

7

انطفأت الشمس في النهر بعدما اغتسلت بالدم. ظلَّ الزنجي كاستور أبدووين، ابن شانغو وعصبتي أوشوسي وأوشالا، واقفاً، دون حركة، قرب مدخل محل الحدادة الذي ولجت إليه الزنجية إبيفانيا مفتشة عن الطفل. إنه ابني، قالت، ثم دخلت. كانت الغيوم حمراء تطوف في السماء، وامتزجت العتمة بالضوء. في الجو الملبد، إنذار بالتهديد، وإعلان عن خطر، فما العمل؟ – سأل كاستور نفسه: – كيف يواجهها ويقول لا؟

ها هي الريح تهب مفاجئة، مرطبة، آتية من الشرق، تحرك صفحة مياه النهر، وتجتاز الغابة، ووسط الفلاة بين المستودع الكبير ومخزن التركي، امتدت الريح حاملة معها طبقة كثيفة من الغبار،

تقسم العالم إلى نصفين: أعلى وأسفل: في ضوء النهار دفء الحياة، وفي الآخر ظلمات الليل وبرد الموت. وبالتالي فإن طبقة الضوء لم تعد كثافة غبار بل ظهوراً عملاقاً ومخيفاً. إن القسم الأسفل يغرق في الليل ويرتدي أطماراً قذرة اتسخت بالقيء والبراز، وأما القسم الأعلى فيضيء بالنور ويتقد بالمشاعل الملتهبة.

إن الصورة الكاملة مع شعرها الذهبي ومعطفها المكون من النجوم، لم تتضح إلا لاحقاً عندما ارتدى الأفق الظلمة وغاص راحلاً إلى الأبد. لم يعد شيئاً من هذا العالم.

رآه تيساو أبدووين يأتي من الفراغ، عاصفاً منطلقاً، ممتطياً الإعصار، مرتفعاً بشكل دائري ليطال السماء... ركن الزنجي إلى خوفه، وانحنى احتراماً، ثم أقفل عينيه ليتجنب العمى وتلفظ بتحية الأموات: إيبا بابا: وبينما يلوك جملاً في المناجاة، أمره "الأوغون" بفتح عينيه والتقدم لسماع ما كان عنده ليقول. وجاعلاً من الضعف قوة، تقدم الزنجي لملاقاة "بابا" وهو يهز رجليه: كان قد فقد السيطرة على حركاته. وعندما أصبح على مقربة منه أحس بعبء يثقل على صدره، وبدوخة وتعب، كما لو أنه سيموت هنالك وفي تلك اللحظة بالذات. كان "أوغون" ديفا الذي أعلن عن نفسه، ولسبب طارئ جعله يمتطي ريحاً من النار الصحراوية: كان قد جاء من الماوراء تفتيشاً عنه. لقد آن الأوان، تعصف في رأسه تيارات الذهول، وتخذله رجلاه. لذلك لم يتمكن، بغير صعوبة، من الوصول إلى حجر يجلس عليه مطيعاً أمر "بابا" ووجد نفسه عند مداخل الليل التي لا تزال مقفلة، أمام أحد "أوغونات" إيمانجا، ولكنه لم يره إلا من الخصر إلى الأسفل، أطمار مقرفة تكسوه، تفوح منه عفونة الحمى، وتعرض قذارته القرفة بينما رجلاه مكبلتان بسلاسل شبيهة بتلك التي عرفها صغيراً في مزارع قصب السكر: كانت تلك السلاسل قد استخدمت لتكبيل أرجل العبيد لمنعهم من الهروب إلى الحرية.

لم يتمكن تيساو من أن يميز الوجه المنعكس على الأعالي، ولكنه تعرف إلى تموج صوت ديفا يهمس في أذنيه كلمات الدلال والغنج التي غدت مألوفة لديه: يا أبيض إني "سوداؤك" وأنا هنا. كان الصوت متألماً، تقطعه التنهدات، يخرج منه التذمر والألم. ما هو السبب في كل هذا الألم العميق؟ هل تريد أن تعرف؟ سأقول لك فاسمع جيداً: لقد بدأت التهمة. سألت لماذا لا يعتقها في عالم لم يعد عالمها، ويتركها مربوطة إلى كراسي الحزن والتمرد؟ أنا التي مت في اجتياح الطاعون، مجبرة على الحياة، وأنت الذي بقيت حياً، تبدو ميتاً، وكل شيء بنقيضه والعكس بالعكس، وكل شيء خلاف

لما هو منصوص. الويل، يا أبيض، إن سوداءك، تقضي العقوبة، لأنك حكمت عليَّ، ولم يعد لي سلام. لماذا تريدني عبئاً عليك. حرّر موتي واحتفظ في قلبك بذكراي حية. لماذا تحتفظ بأطماري قرب أطمارك في تنكة النفط؟ أطلق سراحي من السجون: خذ أطماري وأعطها للياو ودينورا، فإنها لا تزال صالحة للاستعمال. وضع المنحوتة في معبد "الأوريشاس" لأنني الآن مشرفة وغدوت "أوغونا" لإيمانجا. استدعِ إبيفانيا ابنة أوشون وإيشو ابنة يانسان وارقص معهما رقصتي المفضلة: إنك لم ترقصها حتى اليوم. حرّر موتي الذي تعتقله في صدرك وعد إلى الحياة كما كنت تحياها قبل أن تعرفني. أريد أن أسمع ضحكتك النقية والمفرحة. لا أريد بكاءك ولا يأسك. عُدْ تيساو، عد من جديد رجلاً.

توقفت التنهدات، وما كان تذمراً "واتهاماً" ومعاناة أصبح أسلوباً شيقاً: يا أبيض إلي، واسمع ما سأقوله لك. قالت وكررت ما قالته ثلاثاً حتى يدخل قولها ويستقر في دماغه القاسي العنيد: إن ديفا نفسها، فقيدتك، سوداءك، أم توفو، من قادت خطوات إبيفانيا، وجعلتها تعود إلى محل الحدادة لتعتني بالطفل. إن رجلاً وحيداً لا يعرف كيف يقدم على تربية الأولاد، وتوفو لم يتعلم حتى الضحك، يبدو حيواناً برياً أكثر منه طفلاً. إن ديفا نفسها هي من أرسلت إبيفانيا لتعتني بتوفو. عندما مت لم أخلدك، يا أبيض أنت أيضاً قد تحولت إلى حيوان، إلى شكل، إلى إنسان – ذئب. لماذا تبكي ما دمت أريد أن أسمع ضحكتك؟

عندها فقط رأى الوجه المضيء. والصورة الكاملة لأوغون: لقد تحرر من العواطف والأطمار، وارتدى النور. إن ديفا، بملامح الفتاة، وإيمانجا بشعرها الطويل، كانتا واحدة، وهذه الأمور ليست للتفسير بل للفهم.

وحلقت ديفا فوق النهر والفلاة.. وبشفتيها مسّت وجه الزنجي ونفخت الحياة فيه من فمها، وأيقظت رغبته، وبسلام مع الموت اختفت في اللاشيء.

الذين رأوا الزنجي كاستور أبدووين جالساً فوق حجر وعيناه باتجاه النور الذي تحول إلى غبار أخبروا أنه نهض وهو لا يزال غائباً وأخذ يقوم بحركات راقصة كأنها أعمال سحر. وإذ أخبر الآخرون فضول عبد الله فقد سارع الأخير إلى المكان قادماً من مخزنه:

– هل تحس بشيء يا تيساو؟

وإذ تفاجأ، فإن الزنجي ابتسم:

– لم يكن شيئاً. كنت نائماً فصحوت.

لقد استيقظ مبتسماً: أخبار جيدة.

8

كان تيساو قد فكّر بتمثال مزخرف لإبيفانيا دي أوشون. في أيام الوحدة والمعاناة، الوحدة عبء ثقيل، والمعاناة خانقة. كانت أوشون قد جاءت لترافقه وتساعده في مهمة الجمع بين الذين كانوا يعيشون غير مكترثين، ومتباعدين، وكل واحد يعمل لجهته كما لو أن الجار لا وجود له. إن الاثنين معاً حطما الوحدة الموحشة وهيئا للعيد في زمن اللقاء والفراق.

أما ديفا إيمانجا فقد صنع له كاستور أبدووين تمثالاً من الفضة في زمن الشكوك والانكسار: الشك جرح ظاهر والانكسار يستهلكه. كانت إيمانجا قد جاءت من سرجيبي على متن سفينة القمر وربطت المشكاة إلى أرجوحة النوم. يا أبيض، يا سودائي، كم كان الأمر طيباً: في الأرجوحة كان العالم يبدأ، وينتهي.

مع موت ديفا عادت الوحدة إليه مختلفة. الآن لم يكن منشأها الملل واتساع الوقت في المكان الذي فيه يقيم. لقد كانت الوحدة في صدره لا خارجه، ولم يرد أن يعطي الطفل إلى جدته، وعماته، ورفض عرض زيلدا: إني سأعتني به وأربيه مع أولادي.

ولكن وجود الطفل لم يكن يقلص من غياب ديفا، أو يعزي: بل على العكس كان يجعل الذكرى أكثر تأثيراً وأشد إيلاماً.

إنه طفل بلا أم يتربى في الإهمال. كان تيساو أحياناً يشعر بالذنب لإبقائه معه، ولكن، كيف ينفصل عنه؟ إن صرخة كوروكا، في ليلة اللعنة، ما تزال ترن في مسمعيه: هل نسيت يا أحمق أن لديك ابناً! ولكي يقوم بالواجب الذي تركته ديفا إرثاً له، لم يقتل الزنجي أبدووين نفسه. خلال الوحدة، وفي الإهمال، ثلاثة حيوانات تعيش في بيت الحجر والطين: توفو، تيساو، وألما بينادا. في مياه النهر وبين ذراعي الأب كان توفو يتعلم السباحة، وفي محل الحدادة كان يتعلم المشي، ويدب، متمسكاً بالكلب... وكان التركي فضول قد جاءه من إيلايوس بمصاصة صغيرة من المطاط كان توفو يعضها بأطراف أسنانه الطرية. إنه طفل بلا أم.

وقف تيساو عند باب محل الحدادة. عندما سمع ضحكة الطفل، متجددة، آتية من الداخل، ظلَّ واقفاً منتبهاً إلى ضحكة ابنه. إن توفو لا يعرف الضحك، كانت ديفا تراقب ذلك وتقول، إنه يبدو

كحيوان غاب، بينما تيساو يبدو شكلاً. كانت تلك هي الحقيقة. كان يسرع إلى الطفل عندما يبكي الأخير. فقط، لإعطائه ما يأكل أو لتنظيفه من البراز وكان يغسله صباحاً تحت الشجرة، وعند المساء في النهر. أما الباقي فيهتم به الكلب. أما هو فقد تحول إلى إنسان – ذئب.

كان الثلاثة يلهون على فراش القش: توفو، ألما بينادا، وإبيفانيا... وجمع تيساو نفسه قربهم. كانت إبيفانيا قد سمعت أن حذّاء الحمير لم يعد نفسه الذي عرفته، إذ نسي الضحك، وظلَّ يعيش ليعيش. من اخترع هذه السخافة؟ لقد كان هنالك، يضحك، تيساو الذي عرفته دائماً. لم يكن أحد يعرف أن يضحك بالسعادة التي يضحك بها.

– هل جئت لتبقي حقيقة؟

– ألم تسمعني أتكلم؟ ولن أغادر المكان حتى وإن طلبت مني.

لم تقل ذلك بصوت تحدٍّ، بل ليعرف ويوافق. رفعت عينيها إلى كاستور أبدووين الذي كان عشيقها في يوم. كانت قد أقسمت متمردة حانقة على ألا تعود أبداً إلى رؤيته.

ولكن ما كادت تعرف معاناته وشقاءه، وتحوله إلى كلب ملعون، حتى رأت رجليها عاجزتين عن الطاعة: وها هي أمامه. إنه لا يزال يحتفظ ببريقه السابق.

– لم آتِ لأحتل أرجوحتك، وتستطيع أن تملك كل النساء، لا يهمني. إذا كان عليَّ أن أنام هنا فمن أجل الطفلِ، وأستطيع أن أنام معه على فراش القش. لم آتِ بنية مصاحبتك وتبني الطفل، وأقسم بالله. كل ما أريد هو أن تتركني ألهو معه وأهتم به. كل من هو طفل يحتاج إلى أم، وكل امرأة تحتاج إلى طفل أو طفلة على السواء. هل تعرف أنني كنت قد رزقت بولد. لم أخبرك بذلك أبداً، ولماذا أفعل؟ كان ابني قد مات وهو في سن توفو الآن... أردت في يوم أن أموت يا تيساو...

لقد فعلت جيداً بمجيئك. إنها هي من أتت بك.

– هي؟ يمكن. لقد علمت بكل شيء من كوسمي. كنت ذاهبة إلى إيتابونا، ولم أكد أجتاز نصف الفرسخ حتى أدركني فقادني إلى توكايا غراندي.

كان الطفل يتململ متدللاً مفتشاً عن الاستئناس بإبيفانيا.

– إن توفو يحبك. – تكلم الزنجي كما لو أنه يعلن عن ترحيبه.

– هل هذا اسمه أم لقبه؟

– إن اسمه "كريستوفاو" تيمناً بعمي. أما توفو فهو اللقب الذي أعطيته إياه.

مدَّ الطفل ذراعيه إلى أبيه، وغطى الكلب ألما بينادا جزءاً من رأسه، أما الزنجي كاستور أبدووين دا أسونسيون فقد انتهى من الوصول إلى البيت عائداً من أعماق الجحيم.

9

الله القدير على كل شيء، العليم، وحده، ولا أحد غيره يستطيع أن يعرف إذا كان زياح السيدة ليوكاديا سيتحول مع الوقت إلى تقليد في توكايا غراندي مكرراً ما حدث في أشتانسيا. لقد توقع السيد كارلينيوس سيلفا أن الحدث نفسه سيتكرر هناك.

كان الاستعراض بالمناسبة يتم في أشتانسيا منذ أربعين سنة: التمثيل الخرافي للثور والخروف كوبوكلو، وحبال الراعيات، والجوقة الموسيقية التي يميزها الطبل. كان الطبل يوقظ الشباب، ويجعل الأجنحة تنفتح، ويثير حماس الناس. إن ما سيحدث في زياح السيدة ليوكاديا في توكايا غراندي، بعد ذلك العام من الظفر والمجد، يعرفه الله وحده، إذا كان يعرف حقاً.

ما هو مؤكد وجميل أن الرقص، والحب، والعشق، والاحتفال الجنوني الجماعي، أثناء التدريبات، قد نشطت كلها، ومنذ أواسط كانون الأول/ديسمبر وحتى يوم الملوك المجوس.

خلال الليل والنهار من احتفالات الملوك المجوس ظلت الناس المتميزة تستذكر طيلة العمر، عندما شاهدت السيدة ليوكاديا في يومي الخامس والسادس من كانون الثاني/يناير وهي تجتاز باب المستودع الكبير، منتعلة، وقد فرقت شعرها الأبيض عند منتصفه. وتواكب خلفها موكب الراعيات بالملابس التي تمثل كل رمز من الرموز، ليرقصن في الفلاة حيث كان الشعب ينتظر، مجتمعاً، وفي البيوت الخاصة ابتداء من دار النقيب ناتاريو دا فونسيكا حيث زيلدا تقلي شرائح لحم البقر المغمسة بطحين الذرة.

قبل تلك النجاحات التي لا مثيل لها من كانون الثاني/يناير، كانت التحضيرات خلال عشرين ليلة من العمل الدؤوب والمتواصل تم خلالها وضع الخطط الضرورية للالتحاق بالزياح. وكان النقاش عاماً – ولكن الفتيات كن يحتفظن بالتفاصيل المتعلقة بملابس الراعيات. أما القرارات فيمكن القول إنها اتخذت بالإجماع: كانت السيدة ليوكاديا تقرر وحدها، فيصفق لها الباقون بأكف ملتهبة.

كل يومين كانت الحيوية تزداد مع التدريب على الموسيقى وخطوات الرقص وعلى المراحل وإلقاء الأناشيد. ووفقاً لما قالت ليوكاديا إلى "المبجل" السيد كارلينيوس سيلفا – كانت قد حصلت على هدية الطبل – إن العيد بدأ، مع التدريب الأول وسيمتد طيلة شهر كامل.

الموجودون لاختيار الأدوار، كانوا يستعملون، بل يستغلون الحق في التصفيق للتعيينات التي تقوم بها السيدة ليوكاديا: إنها قائدة ماهرة. ولا تسمح بالاعتراضات وذات قبضة حديدية بائنة العظام... علّق النقيب ناتاريو دا فونسيكا أمام التركي فضول على وجه الشبه في تعيين المرشحين لانتخابات رئيس وأعضاء بلدية إيتابونا: مجلس السياسيين وهو يعلن الأسماء التي يقترحها العقيد بوافنتورا أندرادي. ألم يكن الاثنان قريبين، المزارع الكبير والعجوز الشمطاء؟

بينما يجتمع المشاركون والفضوليون في المستودع الكبير – عملياً كانوا مجموعة سكان توكايا غراندي – فقد وزعت السيدة ليوكاديا الأدوار... أما حفيدتها آراكاتي فستقوم بدور السيدة الإلهة لأن سنيها الخمس عشرة قد مرّت، بسبب الحمى، كالغيوم البيضاء. أما فافا فقد ارتدى ملابس بهلوان وسيؤدي دور متى الذي تمّ توقيفه وسجنه على أيدي الجنود. وكان أمانسيو ليموت قرفاً، لو أن دور الجاراغوا وقع على الآخر. وسيحمل أوريليو جلد الثور حتى يكون أقرباء فانجي مشتركين في الزياح. أما زينيو، وإيدو، ودورفالينيو، وزيليتو وجايير، فإنهم سيشكلون زمرة الجنود الذين سيلقون القبض على المتهم بقتل الثور. أما تيس الغنم كابوكلو غوستوزينيو وهو الذكر الرئيسي الذي يقابل ويحاور السيدة الإلهة، فغداً صباحاً تذهب ليوكاديا إلى محل الحداد لتدعو كاستور أبدووين للقيام بدوره. وإذا كانت قد ذهبت قبل أسبوع فإنها قوبلت بالرفض... واستفادت ليوكاديا لتقدم عرضاً إلى الزنجية إيبيفانيا لتقوم بدور راعية ولكن الفتاة شكرت وانحنت للاعتذار بسبب الطفل.

10

ابتداء من التدريب الأول، والأفضل القول من اللقاء الأول لاتخاذ القرار في شأن بعض النقاط المهمة في زياح السيدة ليوكاديا مع الاستعدادات للاستعراض في توكايا غراندي الذي لم يكن شبيهاً بذلك الذي كان قد أفرج سكان أشتانسيا خلال أربعة عقود. فهذه، مدينة كبيرة ومكتظة بالسكان، في ولاية سرجيبي، غنية ومزدهرة، وقد استضافت الإمبراطور بطرس الثاني وكانت حاشيته ترتدي ملابس الحضارة في حين أن توكايا غراندي لم تكن تعدو كونها مكاناً متواضعاً للعاهرات ورجال القوافل مع دزينات قليلة من السكان، وكيف يمكن أن يكون موكب الراعيات مساوياً؟ ولكن، مع هذا فإن الاستعراض الذي نظمته السيدة ليوكاديا في توكايا غراندي اعتبر كبيراً ورائعاً.

وتجنباً للكذب والقول إن الزياح لم تشترك فيه أبداً فتاة ذات شهرة سيئة، فإن الملكيين أكثر من الملك تذكروا دولورس وهي تتلوى مع الحبل الذي شدّت به ابنة السيد روميو الخياط، فهذه كانت

تذهب إلى الفراش مع أصحاب شركة النسيج مقابل المال، ولكن بابها لم يكن مفتوحاً لأي كان، وكان السيد روميو يخيط مجاناً زي متى وخياطته تقتضي يداً فتية ماهرة. وهي بعدما ذهبت لممارسة المهنة في نزل نينيتا في أراكاجو فإنها لدى عودتها إلى أشتانسيا بمناسبة الاحتفالات، بقصد المشاركة في الاستعراض، وجدت أن دورها قد أوكل إلى بديلة عنها، ولم يعطوا تفسيراً لذلك لأن الكلام عن الأسباب ليس ضرورياً.

كيف يمكن في توكايا غراندي تنظيم مجموعات الراعيات دون مشاركة العاهرات؟ في البدء يجب القول إنه لم يكن هناك عذارى بالعدد الكافي لتكوين الحبلين اللذين سيكونان مجموعتين تتألف كل واحدة منهما من ثماني فتيات. وبصورة عامة فإن المتزوجات والعاشقات كن يقدمن الاعتذارات بسبب الابن، أو الزوج، أو العشيق. إن الحل كان في الرجوع إلى فتيات الهوى إذ يستحيل في توكايا غراندي إقامة الحدود بينهن وبين العائلات. ما هي مهنة جاسنتا كوروكا فليقل من كان قديراً، وحباً بالله، هل هي قابلة أم امرأة هوى؟ شهيرة في المهنتين، لأنها ذات يدين ماهرتين وخبيرة في الشؤون الأخرى على السواء، فإنها كانت تكسب خبزها من فراش الدعارة، ولكنها لم تقبل قط أن تتقاضى أي مال بدلاً عن أتعاب الولادات التي تقوم بها. لقد ولدت كل الأطفال الذين ولدوا هناك بمن فيهم أبناء هيلدا، فاوستا وزيفيريا، وقد حملت ابنة الأخيرة اسم جاسنتا تيمناً واعترافاً بالجميل، لأنها ولدت في ليلة الفيضان. إن من يحاول أن يمانع في حضور العاهرات ومشاركتهن في رعاية توكايا غراندي فإنه لن يتمكن من إقامة الزياح وسيدفع ثمن فعلته الشنيعة.

وهكذا فإن كتيبة كاملة من النساء تنكبت مسؤولية أزياء الراعيات، فقد أخذت الخياطة ناتالينا على عاتقها خياطة زي البهلوان من ثوب شيت موشى، كما تنكبت تجهيز قناع النور وإعداد العلم.. وبغية استكمال الشكل الكابوكلو غوستوزو فقد استعاروا من الإسطبل قبعة وسترة جلديتين. ولم يكن من أعباء لتشكيل فرقة من الجنود في توكايا غراندي، فهؤلاء قد تحولوا إلى مقاتلين وأزلام مسلحين مدججين بالبنادق وبيوت الرصاص والخناجر. أما السيدة ليوكاديا فإنها اتخذت مسؤولية إعداد فستان السيدة الإلهة حفيدتها آراكاتي كونهم لم يستطيعوا الاحتفال بعيد ميلاد آراكاتي الخامس عشر بسبب الحمى التي اجتاحت توكايا غراندي خلال الشتاء والسيدة ليوكاديا ستعوض عن ذلك، خلال الصيف.

كان الصيف قد حوّل الطين إلى غبار، وضوء الشمس يغذي أشجار الكاكاو معطياً إياها القوة لتزدهر وتتحول إلى ثمار لا مثيل لجمالها. كان الشعب يمشي مزهواً بالفرح، وقد نسي عام لعنة الطاعون والفيضان: فما مضى قد مضى.

11

ممتطياً جواده خبباً على مقربة من العقيد بوافنتورا أندرادي، فإن ناتاريو لاحظ أن العقيد قد أصبح متلاشياً. فبين ليلة وضحاها انقضَّتْ الشيخوخة على المزارع مضيفة التجاعيد إلى تجاعيده، ومطيلة فترات صمته الحزين.

كان يرافقهما إشبيريداو وحادي القوافل جويل في الطريق إلى محطة تاكاراس لانتظار السيدة أرنستينا التي كانت قادمة لقضاء الأعياد في مزرعة الزوج، وكان البغل همالايا، هكذا كانوا يسمونه لضخامة هيكله وارتفاعه، يرافق مطية حادي القوافل وعلى متنه العريض سرج خاص تمت التوصية عليه ليتمكن من احتواء أشياء زوجة العقيد القديسة.

إذ كان قد رآه خلال أيام متتالية في أتالايا فإن ناتاريو لم يكن قد انتبه إلى ما بلغته الشيخوخة من العقيد، ولكنه في ذلك الصباح، وخطى الحيوانين متوازية، فإن النقيب تمكّن من أن يتفحص آثار السن المتقدمة على الوجه المرهق ولاحظ التنفس المجهد: فأحس بالخوف.

أشار العقيد إلى ناتاريو ليرافقه عن قرب فلكز الأخير جواده بالمهماز وتقدم. أما المرافق وحادي القوافل فقد مكثا على مسافة ملائمة.

– قل لليوكاديا إنني لن أتمكن من الذهاب إلى الزياح مع أرنستينا. إني متألم لهذا لأن ساكرامنتو كانت ترغب في الذهاب؛ طلبت منها أن تذهب وتبيت مع ابنة العم زيلدا، وهل تعرف بما أجابت؟ تخيل فقط: قالت إنها لن تذهب، لأنها إن ذهبت فلن يبقى في البيت من يساعد أرنستينا؛ إنها صبية طيبة.

احتفظ بالصمت لبرهة كما لو أنه كان يفكر في رفض ساكرامنتو، ثم قال بصوت خفيض:

– اسمع جيداً يا ناتاريو فأنا أريد أن أقول لك شيئاً.

– أوامرك يا حضرة العقيد.

– إنك لم تتخلَّ عني في حياتي وأريد ألا تتخلى عني في مماتي.

وكأن تياراً قد مسّه فغدا ناتاريو مستنفراً، أي طلب سيطلبه منه العقيد؟ إنه لا شك سوف ينتزع منه الوعد بالبقاء في خدمة الابن كما كان في خدمته، محتفظاً باللقب والموجبات الإدارية في مزرعة أتالايا. لم يكن في نيَّة النقيب أن يعطي وعداً كهذا. إنه يعرف كم من الضرر سيلحق بمزرعة بوافيشتا إذا ظلت أراضي العقيد موكلة إليه: إن الأغراس، والمواسم، والأعمال، والعمال لعبء ثقيل ومسؤولية كبرى. لن يكون له سيد آخر.

لقد كان العقيد بوافنتورا الأول والوحيد، وسيكون الأخير. بعد النقيب لن يعطيه أحد الأوامر. وظل ينتظر مستنفراً قواه:

– اسمع يا ناتاريو، عدني بأنني إذا مت فسوف تعتني بساكرامنتو. – كرّر: إنها صبية طيبة.

وإذ تحرر من المخاوف والارتباكات، وعده ناتاريو:

– إذا حدث أن مات سيدي، قبلي، فيمكنك أن تطمئن على الصبية. إن من تخصك كأنها ابنتي. سأصونها وأحافظ عليها.

قطعا مسافة وهما صامتان. اختفى القلق عن وجه العقيد المتعب الهادئ، وهدأ صوته. هكذا كان يحدث دائماً عندما يتخذ قراراً.

– إنها تتحمل متاعب عجوز دون أن تستفيد من شيء. هل تعرف يا ناتاريو؟ سأشتري بيتاً في إيتابونا وأضعه باسمها.

عن إذنك يا حضرة العقيد؛ أعتقد أنك تفعل جيداً.

12

أضيئت قناديل الراعيات، فانبعثت منها الأضواء باهتة على الطريق التي تقود إلى دار النقيب ناتاريو دا فونسيكا حيث سيبدأ زياح السيدة ليوكاديا بالعرض ليلة يوم الملوك المجوس. خلفها كان جميع السكان: شخص واحد لم يهتم بتقدير تطورات مشهد الراعيات: هو السرتاوني التاميراندو. إن العيد بالنسبة إليه يتلخص في ظهور ساو عند خيمة الماعز. لم يكن يحتاج إلى شيء آخر ليستمر في الحياة.

الصفان من الراعيات وبينهما التمثال تجمعا أمام الشرفة في بقعة الأرض الصغيرة الممتدة حتى جذع شجرة المولونغو. وبإشارة من السيدة ليوكاديا بدأوا بغناء نشيد يطلبون فيه الدخول إلى الصالة متوجهين إلى أصحاب البيت المباركين زيلدا والنقيب. منتظرين عند باب المدخل.

"لقد وصل الموكب،

موكب السمراوات.

لله كم هي رائعة، رقصة زياح الفتيان...".

لم يكن في صالة الاستقبال مكان كافٍ لحركة الاستعراض: التعبير عن سلطة الثور، والتطورات بين السيدة الإلهة أو الكابوكلو، وقفزات البهلوان متى، وهرولة بيستافيرا، ودخول الجنود، والأفضل القول: الأزلام. لا في بيت النقيب ولا في البيوت الأخرى التي تمّت زيارتها لاحقاً... عند كل المحطات في العرض اكتفوا بدورة واحدة، بالإضافة إلى طلب الصالة، كانت تغني الأناشيد تمجيداً للابن الإله:

"ليتبارك في الأعالي.

ليتبارك.

الابن – الإله – المولود...".

في البدء رقص الصفان معاً ثم افترقا. وقد بدأ النزاع على العلم وانقسم الجمهور إلى قسمين. وعندئذ قاموا بعرض شخصي للراعيات، واحدة إثر أخرى وسط الصالة، ودون نيَّة الانتقاص من إحداهن، فقد كن جميعاً جميلات بمن فيهن السيدة فانجي الأنيقة، ومن الطراز الأول، والتي أشاعت بين الجميع أن برناردا كانت أجمل الموجودات. وبعد انتزاع التصفيق الحاد، وبينما هم يحملون سرير الخيزران الطفولي مع نجمة ورقية شفافة، فإن الراعية الرائعة سيفانينيا وبيدها الأخرى جاءت إلى الحلقة بطفل في الثانية من عمره ابن بالتبني لزيلدا ولد من بطن برناردا.

ورقصت الأم والطفل احتفالاً بتأسيس الزياح في ربوع توكايا غراندي.

كانت الهرمونيكا والأكورديون تبعث ألحاناً واهية، أما الطبل، الجديد، فقد قام بطبع الاحتفال بطابعه. بأثوابهن الزاهية، المزهرة، الملونة بالأزرق والوردي، الموشاة، وبقبعات القش المزينة بأوراق الشجر والزهور البرية، فإن راعيات توكايا غراندي رقصن وغنين إلى الابن المولود في بيت لحم وهناك، يمكن معرفة لماذا رأوه في روما...

"لقد ولد الابن،

وشوهد في روما،

يرتدي كسوة موحدة،

عند أعلى المذبح...".

بعد انتهاء منح البركات، كانت هناك استراحة هي جزء من المشهد مخصصة للشرب، وللأكل الوفير الطيب، زجاجات الكاشاسا راحت تنتقل من يد إلى يد، وكانوا يجرعون منها مباشرة. وبعدما مسحوا أفواههم بأذرعهم فإن ممثلي الزياح بدأوا بغناء نشيد الوداع لأنهم سيذهبون للاحتفال في بيت آخر:

"تصبحون على خير،

سيداتي، آنساتي،

فذهابي من هنا،

سيجعلكم تبكون...".

وإذ أيقظتها الأناشيد وقرع الطبول، فإن الببغاء "اذهب ونل المتعة" اهتاجت في قفصها وراحت تصفق بجناحيها وتتلفظ بالشتائم البذيئة بينما كان جمع الممثلين قد انضم لإنشاد المقاطع النهائية:

"إني ذاهبة في الحال،

إلى بلادي،

وسأعود معي بأهلي...".

في الدورة الأخيرة من العرض كان الممثلون يلوحون بالوداع:

"كيلاريو كيلاريا"،

إن نجمة الفجر،

لا تسطع إلا فوق البحر...

نور القناديل الباهتة في أيدي الراعيات عند نزول الهضبة، وخلفهن سكان توكايا غراندي وقد انضم إليهم النقيب ناتاريو دا فونسيكا، والسيدة زيلدا، وأولاد الاثنين: المتبنون منهم والشرعيون.

رقصوا وغنوا، أكلوا وشربوا، وانطلقوا محتفلين على هواهم في بيوت ومواقع مختلفة، وحيوا الأشخاص الذين تباروا في المساعدة على خروج فكرة الزياح إلى حيّز التطبيق: الحرفيان كواراسيا وإيلوي كوتينو. لوبيسينيو. التركي فضول. السيدة ناتالينا. السيدة فالنتينا وجوكا نيفس صاحبا النزل المركزي ولم ينسوا كوروكا وبيت الخشب عند أسفل المنحدرات. وختموا طواف التعبير عن الصداقة في مستودع الكاكاو وعلى دوي الطبل الذي تبرعت به شركة كويفمان وشركاه. وشكر القطيع للسيد

كارلينيوس سيلفا الاهتمام والمساندة: إن مشتري الكاكاو لم يتأخر عن حلقة تدريب واحدة مدوناً الملاحظات. عندما لا يكون منطلقاً في الهز وسط القلقين من الموجودين.

أما المشهد الأخير أو لنقل الذي لم يشاهد. فإن تسجيله واجب إذ حدث في الفلاة وأمام المستودع الواقع في مكان العرض الأسبوعي وكان الليل قد أظلم. لم يتأخر شخص عن الحضور سوى التاميراندو وفقاً لما رووه. أما زوجته داس دورس فكانت حاضرة ولكنها تأخرت قليلاً لأنها منذ أن غادرت السيرتاون لم تعد ترى سوى مجموعة من الراعيات: كانت تحب كثيراً المشهد! وقد جاء المقيمون عند ناحيتي النهر: الذين يسكنون في الحي السكني والذين يقيمون في الحقول النائية على السواء، الشيوخ، والشباب، والفتيات، والأولاد، أما الصغار الذين جاؤوا خلال موسم الولادة الأخير فقد شوهدوا متعلقين بثياب أمهاتهم.

من رأى ذلك الجمع الغفير من الناس في الفلاة يستطيع أن يعتقد بأن توكايا غراندي مكان مكتظ بالسكان، وقد وصل الكثيرون من المزارع بين أجراء، وقتلة، وأزلام، وأصبحت حركة العبور مكتظة على طريق القوافل في ليلة الملوك المجوس. أما العاهرات فلا تتكلمن. السكان الأصليون الذين لم يشتركوا في الزياح كانوا معتزين به وقد تباروا في الإطراء على أهمية وأناقة الاستعراض الذي نظمته السيدة ليوكاديا فهو خاص، على كل حال، بتوكايا غراندي. أما زياح تاكاراس الذي لا حياة فيه ولا حيوية والذي قامت به نصف دزينة من الراعيات مستعملات أكياساً عتيقة من القنب، مصبوغة، فإنه يعتبر زياحاً تافهاً ومؤسفاً إذا قورن ما بزياح توكايا غراندي.

عندما وصلوا إلى الصلاة فإن ممثلي القطيع كانوا قد بلغوا قمة حيويتهم في دفء الرقص والجرعات الناشفة وأخذ العرق يتصبّب من الوجوه. وخلعوا أحذيتهم وأصبحوا زنوجاً بما كسى وجوههم من غبار...

توازنت السيدة ليوكاديا فوق تنكة نفط فارغة كانوا قد جاؤوا بها من مخزن اللبناني، وبيديها البائنتي العظم، يدي امرأة ثمانينية، ضربت كفاً بكف وطلبت السكوت: إن الزياح سيبدأ باجتياز مراحله.

لم تكد تبدأ ضاربة كفاً بكف، معلنة عن بداية العمل، حتى توقف الصخب وساد صمت مطبق. لم يعد أحد يسمع همسة واحدة. ولم يعد هناك غير تنهدات مرتكبة وخفقان قلوب.

وبدأ العرض بنشيد الطلب والبركات، ورقصات الحبال، والراعيات، وهي مراحل كانت مشاهدتها قد تكررت في البيوت ولكن الجمهور صفق لها. مع ذلك:

"لقد وصل الموكب،

موكب السمراوات،

لله كم هي رائعة،

رقصة الفتيات...".

من الآن فصاعداً غدا كل شيء جديداً، وتبجيلاً، ورفاهية. أفلت الثور من بين الأجنحة ليدخل إلى المشهد. لقد أخذ يحمل الموجودين على الهرب مهدداً بنطح الأكثر شجاعة، في حين أن الممثلين كانوا ينشدون نشيد دخول الثور:

"من لديه ثور

فليربطه في الإسطبل

فأنا لا أملك بستاناً

ليسرح فيه ثور...".

ودون توازن يخرجن من المكان، فإن الراعيات كن يحركن أرجلهن بخطوات رقص تعبيري، مستجيبات لألحان الفرقة الموسيقية. وكانت السيدة الإلهة تلوح بالعلم ذي الصفحة الزرقاء، والأخرى بلون الورد؛ على الزرقاء وبحروف وردية اسم الزياح، أما على الوردية فكانت الأحرف مخطوطة باللون الأزرق، زياح ليوكاديا بنفيندا دي أندرادي.

"من لديه ثور

فليربطه إلى الوتد،

فأنا لا أملك بستاناً

لثور لص...".

انطلق الكابوكلو ليجيء بالثور إلى الوسط بعدما أجبر على تقدير الاحترام بالانحناء أمام النقيب وفضول، كوروكا والسيد كارلينيوس سيلفا، والسيدة ناتاليا، جوزي دوس سانتوس والسيدة كلارا. ثم دخل البهلوان متى يلهو مع الصغار، ويداعب النساء. ثم توجّه إلى الكابوكلو عارضاً عليه أن يشتري الثور بعشرينات ثلاث:

"لديَّ عشرون
وجاسي منحتني عشرينين
لأشتري حبلاً
أربط به ثوري".

وكانت جوقة الراعيات تجيب:

"آوي"، "آوي"، "آوي"
ها هو الثور فخذوه...".

وفي حين كان متّى يغني مقطوعته، انطلق الجاراغوا من العتمة، وهو يستخف بملابس بيستافيرا البشعة، وجسده مخبأ بحصير من قصب الخيزران مكسوة بقماش الشيت، يرسل الصفعات والركلات مبدداً المتفرجين ومولداً فيهم الخوف. أما الراعيات فقد رفضن استقباله.

"ها هو المخيف، أتى،
فيا له من حيوان شنيع...".

شنيع وسيئ التربية، فقد قفز على الثور ونشب بينهما العراك – كان الثور يستعمل قرنيه بينما الجاراغوا كان مسلحاً بقوى جهنمية – ويستمر القتال حتى موت أحدهما، وفقاً لما علق به متى متوجهاً به إلى الجمهور. وإذ أخذ الثور من قرنيه، فإن الجاراغوا ألقاه أرضاً، ودون رحمة، قتله، ثم أطلق ضحكة من أسنان رأس الحصان الذي يعتمره. وطلب مساعدة الجزار، واختفى في هذا العالم.

وإذ أطلعها الكابوكلو على ما جرى، فإن السيدة الإلهة دخلت إلى المشهد فرأت متى قرب الثور، جريئاً، فأمرت باعتقاله ظناً منها أنه القاتل ولكن الراعيات اللواتي كن قد شاهدن كل شيء على براءة متى طالبن بالإفراج عنه:

"يا السيدة الإلهة
جئت أتوسل إليك
أن تطلقي متى حراً
لأنه صديقي...".

وبينما كانت تسير بين الحبال، رافعة علم الزياح عالياً، وباعتزاز، فإن السيدة الإلهة لم تستجب لتوسل الراعيات، إلاّ أنهنَّ لم يستسلمن ورحن يفتشن عن قرائن جديدة، فاستعملن كلمة حب:

"يا السيدة الإلهة،
جئت أطلب منك خدمة،
أطلقي لي متّى حراً
لأنه حبيبي...".

حطت عينا كليدي على زينيو، وعينا شيكا على بالبينو، أما ريكاردينا بعينها السليمة فراحت تفتش عن دودو بيرويا، سيد العصافير. وأما السيدة الإلهة وإذ أثّر فيها الحب فإنها استجابت لتوسلات الراعيات وأطلقت حرية متّى:

"ها هو حر،
ها هو حر،
فقد أطلقت سراحه".

بلغ نحيب الكابوكلو النهر والهضاب، وردد وادي توكايا غراندي صداه، بينما رافقته الراعيات بمرثية غنائية حزينة:

"من ثوري نال الردى
بفعل عين حاسدة".

كانت تلك المرثية إشارة إلى الكابوكلو غوستوزبنيو والسيدة الإلهة فسيبدآن بتوزيع لحم الثور، وهي أطيب المراحل في الزياح، فدنا الجمهور وعقد حلقة حول الممثلين، بدأ الكابوكلو بتقديم رأس الثور إلى النقيب ناتاريو دا فونسيكا:

– إن رأس الثور حصة النقيب. وعند كل جزء يشار إليه كانت الراعيات يرددن معاً:

وي. أويا. أوي
ها هو الثور فخذه...

وجاء دور السيدة الإلهة لتقديم الاحترام للسيد كارلينيوس سيلفا:

"إن لحم الفخذ،
حصة كارلينيوس...".

وهكذا، قطعة قطعة تمّ توزيع الثور... فنالت سينيا لحم الكتف، ونال جوزي دوس سانتوس الأمعاء، أما المعدة فقد نالتها كوروكا، وكالمعتاد نالت الفتيات البطن، أما سلسلة الظهر فمن نالها

هو لوبيسينيو، وبينما يستعمل الكابوكلو غو ستوزينيو بلسان تيساو المتفرنس الجزء الأخير فقد اعتبر التوزيع منتهياً.

"أما الجزء الخلفي

فللسيد فضول...".

لم يضحكوا أبداً إلى هذا الحد في توكايا غراندي ولكي تعم السعادة الجميع فإن المجموعة أنشدت مطالبة بقيامة الثور.

– من طالب بذلك أكثر من الآخرين، فهم بيستافيرا، جاراغوا، وتيميروزو:

"انهض أيها الثور.

وارقص أيها الثور.

لكل الناس...".

ونهض الثور بخطوة واثقة. قام بالانحناء هنا وهناك. ثم وجّه قرنيه نحو الأولاد وراح يركض وراءهم. وانضم إليهم الكابوكلو، والبهلوان متّى، وبيستافيرا، والراعيات، والجنود الذين جاؤوا من أشتانسيا فتحولوا في توكايا غراندي إلى أزلام وفي طليعة الجميع السيدة الإلهة بكبرياء تحمل علم الزياح الريفي الذي نظمته السيدة ليوكاديا بنفيندا دي أندرادي. اجتمعوا لينشدوا أنشودة الوداع.

14

ليس من طيب ليدوم، وتهيأ المشاركون للانصراف، وعدّت الراعيات النقود المعدنية ليعرفن أي صف من الصفين سيربح العلم ويستلمه من يدي السيدة الإلهة آراكاتي حفيدة السيدة ليوكاديا. وتقدم دودو بيريبا الحلاق ومعلم العصافير ليضع قطعة معدنية من فئة الكروزادو، أو لنقل أربعمائة ريس في جعبة ريكاردينا: إنه الوله بالتحدي يقود إلى أعمال مجنونة كهذه وبحركة من السيدة ليوكاديا، بدأت المرحلة الأخيرة:

"إني ذاهبة في الحال

إلى بلادي

وسأعود معي بأهلي...".

في تلك الليلة، عندما تلاشى غناء الراعيات، وانطفأت قناديلهن وتمّ جمع أقنعة الثور والجاراغوا والعلم، وتمّ حفظ الطبل جيداً في مستودع الكاكاو، فإن الهرمونيكا والأكورديون دعت المقيمين في

الناحية، ورجال الغابات إلى حفلة تذكارية بمناسبة استعراض الزياح الذي كان يودع:

"كيلاريو، كيلاريا

عندما أموت

يستطيع العالم أن ينتهي...".

كانت المشاعل آخذة بالابتعاد، فالتقى المنصرفون بفارس يتردد وقع حوافر حصانه في ظلمات الليل: كان يمتطي الحصان غير المسروج وينادي على النقيب. وعندما وصل أمامه، فإنه وبقفزة سريعة انتصب مترجلاً وراح يكلمه. لقد كان الفارس هو الزنجي إشبيريداو:

– ناتاريو لقد لفظ العقيد أنفاسه. لقد مات أمامي دون أن يتلفظ بكلمة. جحظت عيناه، ولوى عنقه، وجمدت شفتاه، ثم خرَّ واقعاً: – كان قد تكلم باحتراق، ربما أراد به أن يتحرر من المنظر الذي حمله في عينيه وصدره؛ لقد وقع العقيد بوافنتورا أندرادي ميتاً على مرأى إشبيريداو الذي كان يحرس باب غرفة السيد والزعيم ليدافع عنه ضد أي لص دفعه عدو لينال منه. ولم يتمكن إشبيريداو بالبندقية، من مواجهة النوبة القلبية التي كانت متربصة في الكمين تنتظر الساعة. في البعيد، كان الموكب ينشد نشيد الوداع:

"كيلاريو. كلاريا

عندما أموت

يستطيع العالم أن ينتهي...".

انحنت زيلدا مجهشة بالبكاء: أما النقيب ناتاريو دا فونسيكا، بوجهه الجامد كأنه لوحة خشب أو حجر: عن إذنك يا حضرة العقيد، فأي خطب أجلّ من هذا!

"كيلاريو كلاريا

لقد انتهى العالم".

مدينة الخطيئة ومعقل اللصوص
زيارة البعثة المقدسة لتوكايا غراندي،
للتحقيق، والإدانة، واللعنة الأبدية

1

حملا صندوقين مكسوين بالأقمشة المخملية الزاهية، وضعت فيهما الأواني المقدسة، والملابس الدينية الاحتفالية، والبخور، والماء المقدس، وخمر الذبيحة، وكلمة الله، ووصلت البعثة الدينية إلى توكايا غراندي بينما حلة الشتاء الثقيلة قد فرضت نفسها على المكان مطراً خفيفاً لا ينقطع وخطراً في الطرقات وضوءاً نهارياً مقلصاً وعتمة ليلية حالكة. راهبان نذرا نفسيهما للتعليم الديني كانا قد هبطا من أعلى سفوح نهر الأفاعي. على امتداد الوادي وتنسيقاً مع اطراد نمو أغراس الكاكاو كان المبشران قد لاحظا الدروب الجبلية تزداد، والدساكر تتعدد وتنمو، بعضها أكثر أو أقل بؤساً من سواها، ولكن الجميع في تلك الأماكن ودون استثناء كانوا يعيشون في الانحراف والخطيئة.

كان الأخ زيكمونت فون غوتشهامر، والأخ تايون داسانتا إيوكارستيا قد جاءا ليطوفا خلال شهرين من التبشير المتواصل والمتعب في ولاية الجهالة والكفر الواسعة. وعندما اقتربا من توكايا غراندي وقد امتطيا حمارين قويين ضخمين، كانا قد جاءا بقلبين مفعمين بالشفقة والغضب. بالشفقة: قلب الأخ الشاب تايون الهولندي المولد، المتدرج الذي سمي كاهناً في روما تمَّ اعتماده من قبل سلك الرهبنة التي ينتسب إليها مبشراً في البرازيل؛ وبالغضب: قلب الأخ زيكمونت النحيل، الجاف ذي السمات الشكاكة، والإصبع الدائم التهديد الديان، وذي الفم الناطق دائماً بالتهديد والحرمان من الحقوق الكنسية والأحكام القاسية. واسم عائلته غوتشهامر أي: مطرقة الله.

كان وجه الأخ تايون المستدير ينم عن تعب من الرحلة التي لا تنتهي بعدما انتهت مع مهمته المقدسة الأولى رفاهية الأمكنة التي يسكنها. وتلك الأماكن التي يواجهها الآن ترى محرومة من كل شيء بالرغم من كونها غنية ووفيرة الإنتاج للكاكاو، السلعة التي لا يضاهيها ثمناً غير الذهب. أما الأخ زيكمونت الذي يزيد رفيقه الطري العود عشرين سنة من العمل وعشر سنوات من الحياة المدنية اللادينية، فقد كان مرهقاً ولم يعد يستوعب شيئاً لشدة التعب ولكنه كان يستمر متقدماً بغية القيام بالمهمة في نزع الأقنعة عن بعل زبوب وجندلته.

على ضفاف نهر الأفاعي كان غياب النظام والاحتقار للمناقب مسألتين كليتين ومطلقتين. ومهمة إشاعة القانون وجعل المبادئ مسيطرة وغرس خوف الله في النفوس مسألة لم يتنكبها الأخ زيمكونت بأمر تلقاه من رئيس السلك الرهباني الذي أرسله إلى تلك المجاهل للتبشير وإعادة الناس إلى الطريق المستقيم، بل تلقاها مباشرة ودون وسيط من السيد المسيح. وفي وحدة الغرفة في ليالي السهاد والأرق فإنه كان يجلد نفسه بغية القضاء على الشهوة والسيطرة على الجسد وتحرير ذاته من مغريات هذا العالم، من الزنا والرفاهية وكان ما يزين جدار غرفته طبعة قلب المسيح والدم المقدس يسيل منها بسبب الخطايا المرتكبة ضد مجد الله، وكان الدم قد لطخ على الصورة البطن والساقين مما يسبب عذاباً موجعاً "للراهب". لقد أمره عيسى بالذهاب لمقاتلة الخطيئة بالحديد والنار إلى أن يجتثها نهائياً من جذورها.

وفي رأي الأخ زيكمونت أن الكنيسة المقدسة لم يكن لديها قديس ذو فضيلة أكبر وأكثر استحقاقاً للتشريف من تركيماو منقذ إسبانيا والبرتغال. لقد كان النقيب في جيش الله المكلف برفع شأن العقيدة والفضيلة، وتحت لوائه انضم الأخ زيكمونت، وانطلق للنضال ضد الكفار والفوضويين، وكان يسانده في نضاله حماس المنورين... وهو قد تنور، بدوره، بنار الجحيم: وخلال الرحلة المتعبة، من دسكرة إلى أخرى، فإن الكاهنين أخذا علماً بشهرة توكايا غراندي السوداء والمذرية. وكون توكايا غراندي المكان الأكثر ازدهاراً في الوادي فقد خيمت فيه الرذيلة والفوضى. ووفقاً لما سمعاه هنا وهناك، فإن بين سكان توكايا غراندي الذين يعيشون دون دين أو قانون ودون وصايا إلهية وطقوس، لأنهم وثنيون، ومتعايشون بالصحبة ومستزلمون ومتهتكون وكانا قد سمعا أن هناك أيضاً زنوجاً يعبدون الآلهة الأفريقية وعرباً مسلمين. إن اسم المكان كان يقول كل شيء. ولو تمّت ترجمة الاسم إلى اللغة التوراتية فإن توكايا غراندي ستعني سدوم وعامورة وقد اجتمعا على ارتكاب الخطايا السبع المميتة.

2

على طريق الراهبين، مرافقاً ومزاحماً لهما، كان يسير مشيراً بيده إلى اتجاه توكايا غراندي، عازف الهرمونيكا الشعبي والعاطل عن العمل بيدرو سيغانو الذي كان يصل كجزء مكمل لوجود رهبان وكهنة في مهمة تبشيرية: عبادة، زواج، اعتراف، حرمان، ويصل معه أيضاً الاستهجان لكل هذه

الأمور، ولكنه كان دائماً يصل مع آلته الموسيقية لتفخيم الاحتفال الذي يقيمه الشعب بمناسبة الاحتفالات بالزواج والمعمودية.

ولكثرة معاشرته للبعثات المقدسة أصبح بيدرو سيغانو قادراً على أن يقوم بدور الشماس والمساعدة بالقداس. وبالرغم من ذلك، فإن الأخ زيكمونت عندما لمحه مصغياً إلى الكلمات الاحتفالية الملهبة جالساً إلى المقاعد الأمامية أحس بأحشائه تحترق غيظاً. لقد رأى فيه صورة الشيطان وقد تجسدت لحماً وعظماً وابتسامة تهتك على الوجه الأغبر. كان الإرسالي يحس في ذلك الزمان بامتعاض كبير لانحطاط العادات والتقاليد، ولنشاط المهنة المعروفة وللقضاء على العبودية.

3

منذ أن باع مستودع الكاكاو لشركة كويفمان وشركائه، فإن العقيد روبستيانو دي أراجو قلص مروره بتوكايا غراندي. ومع ذلك، فإنه من حين إلى آخر، كان يسلك الدرب الجبلي الوعر ويصل ليلقي بنظره على الإسطبل، ويتبادل بعض الأحاديث مع العربي فضول والنقيب ناتاريو، ويقوم بزيارة إلى كاستور أبدووين مانحاً البركة لفليونه.

كان الزنجي بالنسبة إليه ذا حظوة وتقدير، وكان قد ساعده على أن يؤسس عملاً على حسابه الخاص. وقد شعر العقيد بالقلق عندما رأى كاستور يائساً، حزيناً، غير مكترث بعد موت ديفا. ولم يبقَ أي أمل عند الشاب بعد ما كان بحيويته يزرع المكان نكاتاً وألاعيب ويحيي بحماسة الشاب مزرعة سانتا ماريانا مبدلاً العادات في تلك الدسكرة.

إن خروج الحداد المفاجئ من أحزانه أشعر العقيد بالفرح. وقد أخبره كاستور على حدة بمسلسل إيشون، الذي ظهر عليه في البطاح معطياً إياه الأمر بإنهاء الحزن واستعادة جسده رغبة في الحياة. كان شبح إيشون قد نقر على رأسه وقلبه ونصفه السفلي. ولكي تأتي إبيفانيا لتهتم به وبطفله فإن إيشون قد غيَّر سكة حياة إبيفانيا وقاد خطاها. إن إيشون ديفا نجمة تلمع فوق أمواج المحيط في أبعد مسافات إيوكا.

وخلافاً لما حدث للكثيرين، فإن العقيد روبستيانو دي أراجو لم يكن يسعى لإخفاء الدم الزنجي الذي يسير في عروقه قوياً وغزيراً. إنه أبيض ناصع لكونه غنياً، ويملك من الكاكاو ما ينتج له أكثر من ستة آلاف أقة في الموسم الواحد، وهو صاحب إسطبل يحوي عدداً من العجول هائلاً، بالإضافة إلى مساندته الكنيسة وكونه والد زوجة رجل فرنسي – إن ابنته الصغرى كانت قد تزوجت

من أحد أبناء أسرة لافاييت من شركة الإضاءة بالغاز – ومع كل ذلك لم يكن ينكر الآلهة الأفريقية. أما أمه، الزنجية روزاليا، السوداء الجميلة، فكانت قد صعدت إلى مركب من مراكب إيادس للقيام بالحج دون أن تدري أنها كانت حاملاً من السيد الأستاذ الابتدائي سيلفيو دي أراجو الجميل والفقير والضعيف الصدر. ونما الطفل معافى وقوياً، وإذ لا يزال فتى في مقتبل العمر انطلق إلى حرب الكاكاو ومنها عاد مظفراً.

وقبل أن يموت همس الأب في أذن الطفل: لم يعد لديه ما يتركه له غير اسم العائلة. وانضم روبستيانو الشاب إلى باسيليو دي أوليفيرا في الصراع الأسطوري ضد عائلة بادارو: فحطم الغابات، وقلب الأرض، وواجه القتلة؛ إن جسده مغلق ويحرسه أوشاغيان فلم يصب بأي أذى. زرع الكاكاو، وربّى قطعاناً من العجول وتزوج من فتاة غنية، بالمناسبة كانت من عائلة بادارو، واسمها إيزابيل، ولم يفز بأبناء ذكور، فأرسل بناته للدراسة في مدرسة الرحمة مع الراهبات الإرساليات وأصبحن معلمات ابتدائيات كجدهن ولكنهن لسن مضطرات إلى التعليم؛ سمراوات رائعات، ووريثات غنيات، لم ينقصهن متقدمون للزواج. وهكذا حدث: الطبيب إيتازل فيفا تزوج من البكر. والوسطى كاتيا ربحت في اليانصيب، يوم الكرمس، بمناسبة عيد الخضر، الأجنبي جون لافاييت المهندس المتخرج من الخارج. وكان العقيد يساهم بمنح سخية للأعياد الكنسية، وأصبح متقرباً من الكاثوليك ولم يعد يرقص في حفلات الرقص، ولكنه في البيت كان يقدم الطعام لأوشاغيان.

4

كان قد حدث في الصيف المنصرم أن العقيد روبستيانو دي أراجو تأخر في توكايا غراندي وقتاً أطول مما هو معتاد لدى توقفاته السابقة التي لم تكن تستغرق إلا ساعات قليلة لمراقبة الإسطبل والتحدث مع الأصدقاء. وكان قد تأخر كل ذلك الوقت بناء على دعوة النقيب ناتاريو دا فونسيكا، وللأخير كان قد أبدى دائماً تقديراً خاصاً. كان قد وعد بزيارة إلى مزرعة بوافيشتا التي كان إنتاجها قد أثار الدهشة والتعليقات: إنها كناية عن قطعة من الأرض صغيرة إذا ما قورنت بمساحات مزرعة أتالايا أوسانتا ماريانا. وفي القطاف الأخير فاق الإنتاج ما يزيد على الخمسمائة أقة، وكان في نيَّة النقيب أن يضاعف الرقم خلال سنوات قليلة. وإذ وفى بالوعد – كان قد طاف في المزرعة من نقطة إلى أخرى ومن غرسة إلى تاليتها، وفحص الأشجار والجذوع والأغصان وبيوت العمال فإنه أراد أن يستجيب لفضوله: كان قد علم بما حدث بين ناتاريو وفنتورينيا عندما أصبح الأخير قيماً

على الأراضي كونه الابن والوريث للعقيد بوافنتورا أندرادي وسمع الشائعات حول الموضوع الحساس بينهما عن سوء تفاهم وتبادل الكلمات الغليظة.

عندما وقعت وفاة الأب غير المتوقعة، كان فنتورينيا في بداية رحلة خططت لتطول في ملاهي ومنتديات العواصم الكبيرة كلندن وباريس وبرلين وروما. ولم يكد يتوصل لزيارة برلين وروما حيث كان قد عشق وتوله، ومع الكثير من التأخير كان قد أقيم جناز السبعة واقترب جناز الأربعين وأوصت أرنستينا بتوزيع الصَدَقات على الفقراء لتساعد الميت على مغادرة الدوائر السفلية من العالم الآخر. وفي شوارع المدن، على الأخص في إيتابونا، فإن طويلي الألسن إزاء تلك الزياحات والظواهر الدينية السيكولوجية كانوا يعتبرون الدوائر السفلية حفراً عميقة في الجحيم: ألسنة لاذعة لم تكن تحترم الأموات.

وقيل أيضاً، غمزاً ولمزاً أن السبب المباشر بالنوبة التي قضت على العقيد هو الرسالة التي وصلت من الريو دي جانيرو ويعلن له ابنه فيها الذهاب إلى لندن على متن باخرة ملكية إنكليزية، وأن السفر إنما هو بغية الدراسة لمدة يحتمل أن تصل إلى ثلاثة أشهر. وطلب الابن في الرسالة تغطية قرض اقترضه من مصرف إنكليزي وهو قرض مخصص لتمويل الرحلة. سفرة تمّ تقريرها في الساعة الأخيرة ويتأسف فنتورينيا لأنه لم يكن لديه الوقت لإبلاغ والديه في الوقت المناسب: وعندما وصلت كان هو قد وصل إلى إنكلترا. وإذ لم يكن لديه عنوان ثابت بعد فقد أرسل بعنوان المصرف الذي يجب على الوالد أن يحول له بصورة مستعجلة مبلغاً كبيراً من المال: وكونه من كان فإنه لا يستطيع في أوروبا أن يظهر بمظهر بشع كما لو كان فقيراً معدماً لا حول له ولا قوة... وأظهر في الرسالة نفسه ساعياً إلى ترقية علمية سريعة ولكن مهمة: والدروس في أكسفورد والسوربون تكلف نور العينين.

وصلت الرسالة إلى تاكاراس ومن هناك أرسلت إلى العقيد. وإذ أطاع الأوامر التي كان قد حددها العقيد، فإن لورنسو، مسؤول محطة سكة الحديد، أرسل بالرسالة مع أحد أعوانه إلى أتالايا: "رسالة أو برقية من الأستاذ فنتورينيا يجب أن ترسلها في الحال وفي طليعة اهتماماتك بواسطة رسول يمتطي حصاناً".

ووفقاً لما رواه الزنجي إشبيريداو فإن العقيد أنهى بصعوبة قراءة الرسالة الرسولية. تقدم خطوة إلى السيدة أرنستينا وقدم لها الورقة، ولكنه لم يتمكن من تسليمها فخر منازعاً بين الرجل والقديسة، وعند

قدمي العشيقة ساكرامنتو. كيف تستطيع أرنستينا أن تتحمل الحدث دون أن تقع ميتة هي الأخرى، وفي اللحظة نفسها قرب الزوج؟

وبصرخة مدوية انهدت فوق الجسد الهامد. وعندما تمكنت ساكرامنتو من جعلها تقف على قدميها، تعانقت الاثنتان باكيتين، الزوج ميت، والابن غائب، وحيدة وضائعة، فإن السيدة أرنستينا وجدت ملاذاً وتعزية في ساكرامنتو المخلصة المتفانية. وأخذتها معها في صبيحة اليوم التالي في قطار خاص حمل الجثة لتدفن في إيلايوس. ووصل ناتاريو سريعاً عند منتصف الليل حتى يتكفل بالقيام باللازم.. وجهه ثابت لا يتحرك ولا ينم عن شيء مما كان يحس ومما كان مقفولاً عليه بصمت قاسٍ ثقيل.

ومنذ ذلك الحين وإلى أن وصل فنتورينيا فإن ساكرامنتو قامت برفقة أرنستينا وبكت معها موت العقيد بوافنتورا أندرادي، مزارع الكاكاو، الثري الكبير، الزعيم، وسيد أراضي أتالايا، الآمر الناهي في إيلايوس وإيتابونا.

5

لو لاحظ العقيد روبستيانو دي أراجو، كما كان يتردد على ألسنة الناس، أن العناية التي قدمها النقيب ناتاريو لأشجار كاكاو مزرعة أتالايا هي نفسها العناية التي منحها لمزرعة بوافيشتا، لرأى أن فنتورينيا كان على حق في أن ينزعج من رفض ناتاريو الاستمرار في العمل.

ولكن الرفض لا رجوع عنه، وليس هناك عروض مالية ومكاسب، مهما تكن، بقادرة على أن تجعله يتراجع عن قراره. لأي سبب؟ – سأل العقيد روبستيانو دي أراجو، وقد تحرك فيه الفضول ظاهراً بين التمجيد لرؤية المشهد وقد ازدهرت الأشجار وبدأت تثقل بالديافير.

أصغى العقيد ناتاريو إلى الاستشارة التي واجهته دون أن يتحرك عضل واحد في وجهه الثابت: عينان نائستان، وعلى شفتيه ذاك الخيط من الابتسام الذي كان قد وصفه الشاعر جورج مدور في مطلع شبابه وشبهه بحدِّ سكين حاد. كانت الابتسامة لغزاً يظنها البعض حرداً، ويرى فيها البعض الآخر تحدياً.

– سأقول لك الحقيقة يا عقيد إذا كان لديك الصبر لتسمعني. جئت من سرجيبي وكنت صغيراً، وكنت قد ارتكبت حماقة هناك. مسألة تافهة. والرجل الذي قضيت عليه لم يكن يستحق الرصاصة التي أطلقتها. وجئت بتوصية إلى العقيد فاستقبلني.

كانت مهرة العقيد روبستيانو وبغلة النقيب ناتاريو تعدوان متوازنتين بخطى بطيئة واحتراز بين أشجار الكاكاو. فلم يعلق العقيد وتابع ناتاريو الوصف:

– كان العقيد بوافنتورا قد دخل في الصراعات، كما تعلم، لأنكما كنتما تسيران معاً. ومنحني الثقة وأعطاني مجالاً للانطلاق من جديد وأخذني معه. أستطيع أن أقول إنه رباني وعاملني دائماً كما يجب أن يعامل الرجل، وأنا مدين له بما أنا وبما أملك. ولا أتذكر أبي. الأب الذي عرفته هو العقيد بوافنتورا.

– ولكني سمعته هو نفسه يقول إنك أنقذت حياته أكثر من مرة. إن بوافنتورا لم يؤدِّ لك خدمة عندما أمر بتسجيل هذه القطعة من الأرض التي تدوس عليها الآن، باسمك.

– إن العقيد آواني ودفع لي أجر مستزلم لأنضم إليه. إنني سطحي في الإحساس والتفكير. قمت فقط بواجبي. لو أراد العقيد لكان بإمكانه أن يرفض إعطائي أرضاً أو رتبة نقيب. لن أقول لك إنني لا أستحق؛ استحققت جيداً غير أنه لم يكن مجبراً على أن يعترف بما قمت به لأني حصلت على المأوى والمرتب.

شدَّ النقيب اللجام إلى أعلى السرج وترك البغلة تنطلق على هواها عبر المسلك. وراح هو يجتاز طرقاً أخرى غير طرق الماضي حيث، لم يكن آنذاك أحياناً حتى الشعاب:

– إن العقيد بوافنتورا هو الرجل الأكثر شهامة ممن عرفتهم، ولم يكن يهمني أن أموت من أجله. ولهذا عندما امتلكت أرضاً وزرعت الكاكاو لم أتخلَّ عن خدمته ومكثت أهتم بمزرعة أتالايا. قلت له في أكثر من مناسبة: ما دمت حياً وتريدني فإنني رجل في خدمتك. بعد موته وعدته بشيء واحد وها أنا أفي بوعدي. ولكن هذا لا علاقة له ببساتين الكاكاو ووظيفة الإداري.

– قيل لي إن فنتورينيا قد عرض أن يدفع لك ما تطلبه.

– يا عقيد. أعتقد أن لكل رجل الإرادة في أن يكون سيد قدره. عندما بدأت الحياة في سان فرانسيسكو سمعت الناس يقولون إن قدر كل إنسان مكتوب في السماء ولا يستطيع أحد أن يغيره. ولكن تفكيري مختلف. أعتقد بأن على كل شخص أن يهتم بنفسه، وكان لديَّ دائماً الرغبة في أن أكون سيد نفسي. خدمت العقيد بوافنتورا لأكثر من عشرين سنة: كان لي من العمر سبعة عشر عاماً عندما أقمت هنا، وها أنا في الثانية والأربعين. لم أعد أبداً بخدمة الابن أو الأرملة. وهو لم يطلب مني ذلك.

نظر إلى العقيد روبستيانو دي أراجو، وقال:

– قبل أن يرحل بقليل كنا نتحدث يوماً كما أحادثك الآن، ثم قال لي إنه يريد أن يطلب مني طلباً أحققه له بعد موته. خفت أن يطلب مني أن أبقى سركال أتالايا وكنت مزمعاً على أن أقول لا. إن السيد هو حده ولا أحد سواه. ولحسن الحظ أن ما طلبه كان شيئاً آخر وقلت له نعم. لقد ظنَّ فنتورينيا أنني كنت سأستمر في العناية بالمزرعة، وتعجبت عندما قلت له إني لن أفعل مقابل كل مال الأرض لا من أجل المال ولا التزاماً بالصداقة. إن الالتزام قد انتهى بموت العقيد.

تناول اللجام من جديد، وكانت المطيتان قد غادرتا بستان الكاكاو وبلغتا الطريق المؤدي إلى بيت ناتاريو الذي انتهى بناؤه. لم يكن العقيد روبستيانو قد تعرف بعد إلى البيت الجديد. وموَّج ناتاريو صوته:

– إني أحب جداً فنتورينيا، وعندما وصلت إلى المزرعة كان هو لا يزال غلاماً صغيراً، ولكنه مختلف عما كنت أحسه تجاه العقيد. إن العقيد مدَّ لي يده وأنا لم أكن أكثر من مطارد من العدالة. الآن من يأمر عليَّ هو أنا، وأنا من يقرر ما يفعل.

– وهل فهم فنتورينيا وجهة نظرك؟ هل وافق؟ هل علم بأنك رفضت؟

– لم أسأل. لم أرد أن أعرف. إنه سيتعاطى السياسة ويتسلم مكان أبيه. قلت له إذا احتجتني في يوم في الدفاع ضد أعدائك، يكفي أن تخطرني بذلك فأنا ما زلت أجيد التصويب. ولكن أن أكون مستخدمك، أو مستخدم أي شخص آخر، فلا.

وقبل أن يظهر أمام الدار، فإن العقيد روبستيانو وقد أشبع فضوله ختم المحادثة:

– إذا كان يهمك رأيي يا ناتاريو، فاعلم أنك تصرفت جيداً في خدمتك المخلصة للعقيد بوافنتورا وفي تنكرك لابنه فنتورينيا. لم يكن بين من يحب أن يأمر ومن يحب أن يطيع، المسافة اللازمة. – ثم بدَّل الموضوع: – يا لجمال البيت الكبير!! تهاني.

– بيت كبير؟ إنه بيت متواضع لزيلدا لتقيم فيه مع الأولاد. زيلدا لا تفوت عليها فرصة المجيء وإن مرة واحدة في الشهر إلى حقل الكاكاو. وبينما الأرملة تتكلم عن زوجها الميت وابنها الوريث الوحيد سمعت وهي تقول: في يوم، ناقصاً، أو زائداً، فإن كل شيء سيكون ملكه، وإن الله سوف يناديني قريباً للانضمام إلى زوجي، وما دام الأمر كذلك فلماذا اقتسام البساتين والبيوت والملكيات الأخرى، والرأسمال والفوائد؟ وما كاد فنتورينيا يترجل في الريو وبعدها في باهيا حتى كانت الأم قد

سلمت الوصية وحق التصرف بالثروة. شيء واحد يخصها هي، احتفظت به لنفسها: الخادمة ساكرامنتو.

6

ظِلٌّ مَنْ عساه يكون هذا الظل الذي لمحه النقيب منعكساً على نور الفانوس الباهت، في منزل تيبورسينيو؟ من جاء، ولماذا، إلى المستودع في غياب المقيمين؟ ليس الأمر طبيعياً أو مستحباً. دفع ناتاريو الباب بيده اليسرى وشوهدت يده اليمنى شاهرة المسدس. التقى وجهاً لوجه مع ساكرامنتو وقد كساها الغبار: فأطلقت الفتاة صرخة صغيرة عندما رأته، صرخة قلق، بل مفاجأة ورضى:

– يا نقيب: كم هو جيد أن أراك: قيل لك إنك ذهبت لتوك.

– وأنت، ماذا تفعلين هنا؟ هل طردتك السيدة أرنستينا؟

أطرقت ساكرامنتو بعينيها إلى الأرض. – من أجل السيدة أرنستينا لم يكن بنيتي أن أخرج من هناك. إن المسكينة لا بدّ من أن تفكر سيئاً في وأنني لم أعد أصلح لها. لقد هربت من هناك دون أن أقول لها شيئاً، ولكن كيف يمكن أن أقول؟

– هل هربت من بيت العقيد؟ أية أفعى لدغتك؟

– إنه الأستاذ. أراد أن يغتصبني.

لم يبدُ على النقيب الاندهاش: على شفتيه ظهرت تلك الابتسامة اللغز التي يصعب فهمها.

– فنتورينيا؟ كيف أقول لك؟ غزا الغرفة التي أقيم فيها مترنحاً، قذراً تفوح منه رائحة الكحول.

من حسن حظي أن يكون ضائعاً غير متماسك. دفعته فوقع أرضاً. ولم يكن لديه القوة للنهوض. قال فقط إنه سيدفع لي. خفت إلى درجة لم أستطع معها أن أجمع حاجياتي. ورحت أهيئ نفسي بعشوائية إلى أن عثرت على المنديل الذي وضعت فيه بعض المال ورحت أنتظر القطار في المحطة. ومن تاكاراس إلى هنا جئت سيراً على القدمين لأرى أمي وأراك.

7

في مزرعة أتالايا، كانت مساكن العمال – وهي كناية عن أكواخ مصنوعة من الخشب وأحياناً من الأسمنت – تتجمع بين الدارة الكبيرة وحقول الكاكاو اللامتناهية، وهي تجانب الطريق، وبعض تلك البيوت ظلت معزولة ومنتشرة عبر الحقول البعيدة. وكان ناتاريو قد عمد إلى المرور بكل تلك

البيوت ليعلن النبأ ويودع الجميع عارضاً عليهم القروض؛ كان قد حافظ مع العمال ورجال القوافل على علاقات عمل طيبة والبعض منهم كانوا من المقربين جداً. وهبط الليل على حقول الكاكاو والغابة الكثيفة، وبالرغم من فصل الشتاء فإنها لم تكن تمطر في تلك الليلة. كان النقيب يشعر أنه متجاذب بمشاعر متناقضة: مشاعر الفرح والارتياح لأنه لم يعد مسوداً من أحد، ومشاعر الأسى والحنين لتخليه عن تلك الأراضي التي عاش فيها وناضل من أجلها عشرين سنة.

وفي جولته لاحظ ضوء فانوس مستودع تيبوسينيو وأصيب بالذهول وانتهى إلى ملاقاة السيدة أفيجينيا وهي تهتم بإيدليسيو، قاطف الكاكاو الشاب، وقد لدغته أفعى في ذلك المساء: معالجة قديرة فإن العجوز هرعت إلى نجدته. راحت تملأ فمها الخالي من الأسنان بالتبغ المعجون وتضعه فوق مكان اللدغة ثم تمتص السم وتبصقه وهي تتمتم بكلمات الرقية:

"أيا سيدي القدير

اقضِ على الأفعى

اقتل الأفعى لأنها تؤذي.

ونجني من السم،

ومن الوقوع في التجربة".

كان إيدليسيو عَرِقاً من الحمى التي أصابته ولكنه ظل يقاوم، وتمكنت العجوز من أن تقلص كمية السم وتقضي على تأثيره القاتل.

وبينما هي منهمكة بمعالجة الشاب الملدوغ عثر عليها وتكلم معها قبل أن يتخلى عن مزرعة أتالايا. تمنى لإيدليسيو الشفاء، وربما شفي بشفاعة القديس بنتو ومهارة المعالجة. تكلما عن ساكرامنتو فتأسفت إبيفانيا: كانت تشعر بالشوق إلى الابنة التي تأخرت في إيلايوس حيث كانت تهتم بأرملة العقيد أندرادي، وأدى تأخيرها إلى عدم تنفيذ المخططات التي وضعت. علمت أنها أصبحت تملك داراً في إيتابونا هي هدية العقيد بوافنتورا، مشكوراً.

ولكن السيدة أرنستينا كأنما قد ورثت ساكرامنتو في جملة ما ورثت من ملكيات في الريف والمدينة: الطرقات والبيوت، والمال بالفائدة، والثروة الكبيرة وإذا أحلام إبيفانيا تجد نفسها مؤجلة إلى حين يشاء الله.

لم تخضع ثروة العقيد لأي جرد أو توزيع، وهذه الثروة هي بيت القصيد في المحادثات والأقاويل عند أركان الشوارع وفي المحلات التجارية. لم يعلق النقيب بشيء ولكن عينيه غدتا أكثر نوساناً وابتسامته دامت متمطية، ثم رفعت ساكرامنتو عينيها وحدقت فيه:

– لقد اغتصبني، بعد أن أوقعني أرضاً وضربني ثم عضني.. إذا كنت تشك فانظر. – أرته ذراعيها ملطختين وفي رقبتها علامات أسنان. وطال صمت ناتاريو. ومن يدري، فكرت ساكرامنتو، ربما لا يرى في هذه العلامات دليلاً كافياً لتبرير الهرب.

– كيف يمكنني أن أقبل بابنه معي؟ ليحرسني الله ولينجني! عندما دخل عرض عليَّ مالاً وقال إنني جميلة، ولا أعرف ماذا قال أيضاً، طلبت أن يتركني بسلام فراح يتكلم عن العقيد وصرخ إنه كان يعرف كل شيء، وأنه هو الآخر يريد.

– طلبت منه من جديد متوسلة أن يكف عني واستحلفته بأمه وروح أبيه. ولكنه كان قد نزع بنطاله وهجم عليَّ. وإذ كان السكر يطوح به تمكنت من الخلاص.

لم يتلفظ النقيب ناتاريو دا فونسيكا بكلمة واحدة ولكنه لمس برؤوس أصابعه وجه الفتاة ومسح الدموع عنه. فأخذت ساكرامنتو باليد التي كانت تؤاسيها وقبلتها:

– جئت في القطار مفكرة فيك ما عدا أمي التي لا تستطيع عمل شيء، فليس لي في الحياة سواك.

وأخفضت عينيها إلى الأرض:

– فكرت فيك كثيراً عندما كان عليَّ أن أرد على السيدة "ميزات" ووقع الاسم وقعاً خاصاً على مسمع النقيب:

– أعرف واحدة تدعى ميزات وهي تملك نزل فتيات في جزيرة الأفاعي.

– أرسلت لي مرسالاً تطلب مني الذهاب إلى عمل في نزلها. وهنا فكرت فيك عندما كنت تقول لي إن العقيد لن يكون ممتناً إذا رآك تمارسين المهنة. كان من الأفضل أن أبقى خادمة في بيت أرنستينا، لكن كون الأستاذ مقيماً فليس الأمر ممكناً! أخذت القطار ونزلت في تاكاراس ومشيت إلى هنا: إني وصلت الآن ولا أعرف أين هي أمي. ولكن يكفي أني رأيتك وهذا يكفيني.

عادت تنظر إليه مؤكدة بصوت ثابت وناعم:

– بالمال أو عنوة لن يكون هناك من يتمدد معي. – وبابتسامة امتزجت بالدموع تفحصت ذراعيها المغبرتين. وأمسكت بشعرها القوي بفعل التراكم، وتكلمت بصوت خفيض: إني أحتاج إلى حمام، فأنا مرعبة هكذا، حين تصل أمي سأذهب لأستحم في النهر.

قال لها ناتاريو أين كانت إبيفانيا وماذا تفعل.

– إذن سأذهب قبل أن تصل. إني مغبرة وبشعة إلى درجة أنك لا تنظر إليَّ...

– نظيفة أو قذرة، فأنت جميلة كيفما كنت. لو لم يضع العقيد عينه عليك فأنا من كان سيتخذك امرأة له.

– ربما، وكيف كنت سأقول لا ما دمت الوحيد الذي أفكر فيه؟ مشت باتجاه الباب ومرّت بقربه فلمست صدر الرقيب وهي تمر! عن إذنك يا حضرة العقيد! ثم اتبعها على طريق النهر.

إذ استوى إلى الطاولة في المشرب الذي يرتاده وبدا بتلمظ طعم العرق المعطر، مشروبه المفضل. ابتسم فؤاد كرم للبزرة التركية، الصديق فضول عبد الله وأعلن متحمساً:

– لقد هبطت فوق إيتابونا مجرة ذات تأثير جنسي على الناس وجميعنا نعيش تحت تأثيرها الفلكي. وعني بتلك الغمزة الشعرية الغامضة وصول لودميلا غريغوريوفنا سيتيكينباوون؛ إنها قصيدة، فانتبه جيداً، وأعاد الكرة بحركة تعبيرية ويده مفتوحة وصوته منطلق متموجاً: – لقد جاءت من الغابات السيبيرية: لودميلا غريغوريوفنا سيتيكينباوون!

خلال برهة أمسك نفسه عن الكلام ليصغي إلى صدى اللفظ النقي للاسم المعظم، مع تصفيق لا بدّ منه لصوته:

– هل سمعت أحدهم يتحدث عن المرأة – القدر يا فضولي؟ إن لودميلا غريغوريوفنا هي التجسيد الكامل للكمال؛ إنها النموذج الأوحد؛ إنها المرأة القدر بعينها، وكلنا على أهبة الاستعداد لتشريفها إيانا بالقدوم؛ إننا خدامها وسعداء بعبوديتنا من أجلها.

ابتلع فؤاد كرم رشفة من كأس العرق ليرطب بلعومه. ونمَّ وجهه بوضوح عن ممازحة ثقافية عميقة المعاني. وتابعه فضول مصغياً باهتمام إلى متعة الكلام عن الحياة الناعمة، وفؤاد كرم هو أحد سميريه المفضلين: أما الآخر فهو ألفارو فاريا الذي كان يسكن في إيلايوس.

– إنها مفترسة رجال يا "بزرة تركية". وهي تفضلهم سمراً وبقدر ما يميلون إلى الأفريقيانية فإنهم يسيلون لها لعابها ويرطبون متعتها. إنها تخص قانونياً سيدنا الجديد ولكنها لا تخصه عملياً، وهو

كما تعلم، الأستاذ بوافنتورا أندرادي الأصغر، وريث المملكة المتحدة المكونة من إيتابونا وإيلايوس. نحن إذن في عهد بوافنتورا الثاني، السعيد، خلف بوافنتورا الأول أبي الأمجاد المالية التي لا تحصى.

بالنسبة إلى فضول المدفون بإله الموارنة في مجاهل توكايا غراندي، فإن مجيئه إلى شوارع المدن المكتظة لملء المخزن ودفع الفواتير وتوقيع فواتير جديدة والذهاب إلى المشارب والملاهي كان يستهدف أيضاً الامتياز الشعري مع العلمين المثقفين: ألفارو فاريا في مرفأ إيلايوس وفؤاد كرم في داخل إيتابونا. كان الاثنان يبدوان غير مستعجلين للقيام بغير عمل ثقافي: المحادثة، ولعب البوكر، والحديث عن الأحداث المحلية. وكان فؤاد كرم يحظى سراً بتفضيل فضول لكونه عربياً ويتكلم لغة الأنبياء والعسل والتمر مع السكر واليانسون. ما عدا الأحداث والابتداعات فإن فؤاد كان يصفها ويحللها بمعرفة وروحية طيبة. وكان فضول يصغي منتشياً.

– هل هي جميلة؟ – سأل فضول بصوت ينمّ عن شهية مفتوحة.

– إن كلمة جميلة هي وصف غير مناسب لتحديد لودميلا غريغوريوفنا.

– دعنا نقل: حلوة، من الأفضل! أريد أن أتأكد من أنها أورو – آسيوية حصيلة سلافي وسامية، وقد تكون نسيبة بعيدة لنا وبهذا يجب أن نعتز. أبعد من كونها حلوة، فإنها لغز لكونها روسية، ورومانسية وشيقة بسبب دمها العربي. إذا كان حظ البذرة التركية لا يزال مقبلاً فإنك ستتمكن من رؤيتها خلال النهار وهي تجتاز الشارع، وهي تبدو ملكة الليل في الملهى، ومن أُذنيها تتدلى أقراط الجاد وتلمع العينان الخضراوان. – واختصر مشاعره بتعبير قاله بالعربي: أو هووو...

– وكيف جاءت إلى هنا؟

– جاء بها فنتورينيا... وإلا كيف يمكن أن تأتي؟

– ولماذا جاءت مع الأستاذ؟ – ما زال فضول يعتبر أنه لم ينل بعد ما يريده من معلومات.

لأنها بغي، وهذا هو عملها، إنها تموّه الحقيقة بغناء أغانٍ روسية شعبية.. تذبح زجاجة "الفودكا" وتبقى صاحية كلياً. إن أخاها، يقال إنه جاء في زيارة سريعة، يعزف على البلالايكا جيداً: يجب الاعتراف بهذه الحقيقة.

– هل هو حقاً أخوها؟

– رحت أتحقق واستنتجت أن الروابط التي تربط لودميلا غريغوريوفنا وبيوتر سركينوفيتس هي حقاً روابط دموية لا فراشية. إنهما شقيقان من ناحية الأم. أما كونها عاهرة فمسألة لا يجب أن تدان بسببها. بالمال تبيع نفسها فقط لبطلنا فنتورينيا. أما للآخرين فإنها تهب مجاناً رغبة في الأمر، ونحن نعلم يا فضول أن لا شيء يعادل في هذا العالم اللذة التي نتكلم عنها.

– لا شيء. لا.

إن مبالغات فؤاد كرم وتعليقاته كانت تلائم انفعال المدينة التي لا تزال تحت التأثير الصاعق للودميلا غريغوريوفنا سيتيكينباوون: في الملهى كما في البلدية تعليقات حيوية. وظهورها البارد الحار، متعلقة بذراع فنتورينيا، كان يسبب الانفعال ويحدث البلبلة: الجميع يريدون أن يروها، ويستدفئوا بابتسامتها، ويموتوا في اتساع عينيها. في الملهى كانت تصيب الضجيج بالصمت وفي الكنيسة كانت تقضي على صمت العبادة، وهنا وهناك تسمع الآهات... آهات الحماس والفوران، وشعلة من الرغبات تشتعل حولها كمحرقة إلهية...

8

إن نبأ وفاة العقيد بوافنتورا أندرادي قد أوقف دروس فنتورينيا الممتعة في "سوربون محلة بيغال"، فاستعجل العودة إلى البرازيل. في تلك الليلة غرق الأستاذ المتدرج في الفودكا والقرف وعذاب الضمير، وهناك أطفأ شقاء حياته.

وكذلك لودميلا غريغوريوفنا. عندما علمت بالمأساة التي حلّت بالأب، أصيبت بنوبة عصبية، ووقعت أرضاً تنازع، ولم يكن بكاؤها أياً كان، بل صاحبته دمعتان سالتا على الخدين: نواح على الطريقة السلافية وصلوات باللغة الروسية، وأصبح متولهاً حتى أصغر عظمة في مفاصله وآخر خلية من خلاياه فإن الأوروبي الجديد قرّر أن يأتي بلودميلا إلى البرازيل بصحبته وهذه هي الطريقة المثالية لاستيراد الثقافة الأوروبية التي كانت تمثلها خير تمثيل. ورافقه آلان بيوتر سركينوفيش، ولكن العشيق قسطنطين إيفانوفيتش سوروكوف فقد بقي في باريس يهز بقفاه حسب التعبير الفولكلوري للمظفر فنتورينيا.

إن الكونت والعقيد في الحرس الإمبريالي قسطنطين إيفانوفيتش سوروكوف ابن العائلة الإمبريالية ولكنه على خلاف مع القيصر أباح بسر من أسرار الدولة إلى البارون بوافنتورفيتش كما أصبح معروفاً في دائرة الهجرة السلافية: إن للودميلا غريغوريوفنا أيضاً دماً نبيلاً ولكنها لا تعلن عنه

بسبب الفاقة التي تجبرها على غناء المقطوعات الغنائية الحزينة في ملاهي باريس. وقد هربت من البلاط بسبب الاضطهادات التي مارسها الدوق الكبير نيكولاي نيكولايفيتش رومانوف الذي أرادها خليلته. أما عم القيصر نيكولاي الثاني القائد العام للجيوش الروسية فقد جعل من حياتها جحيماً وشرح قسطنطين إيفانوفيتش إلى حبيبه بوافنتورا بوافنتوروفيتش أن الصغيرة لودي، الناعمة الحساسة، لم تستطع تحمل رائحة الثوم في فم القائد العام: وكانت قبلات الدوق الكبيرة تسبب لها الدوخان، وتمنعها عن التجاوب. لذلك رافقت قسطنطين عندما التجأ العقيد إلى باريس. كانت العلاقة مأساوية لأنهما لم يستطيعا الزواج لأن له زوجة في موسكو، وكونها ابنة عم القيصر، ولكنهما أقسما على الحب الخالد وها هما يفيان بقسمهما. كان فنتورينيا يدفع الحساب وبكبرياء لها ما يبررها: فليس كل يوم يمكن وضع قرون لفرد من أفراد العائلة الإمبراطورية الروسية.

في "اللاداتشا" الملهى الموسكوفي في بلاس بلانش، يرافقها شقيقها بيوتر "أبو البلالايكا – بيدرينيو، أخي، كان يرجوه فنتورينيا وهو في قمة الوله والسكر: – اضرب على كمنجاك هذه واجعلني أبكي. – كانت لودميلا تغني أغاني روسية وترقص "باليه" قوقازي عارضة كمال جسدها؛ على طاولة قريبة، فإن الكونت قسطنطين وبوافنتورا الأصغر البارون الجديد كانا يصفقان وهما يستهلكان الفودكا والكونياك. وفي نهاية الليل ونهاية العرض كان بيوتر يسحب قسطنطين أبا القرنين تاركاً لعناية البرازيلي الخجولة والمتألمة، لودميلا: وفي الفراش، تبدو مهرة لا تتعب في فرقة الخيالة الإمبراطورية، مجد بلاط القيصر. وفي اللحظة الحاسمة، كانت تنشد أغاني بوشكين وتردد الصلوات الأرثوذكسية.

وانتهى فنتورينيا بحل المشاكل كلها بتهذيب وكرم ودفع بالفرنكات الفرنسية والليرات الإنكليزية لعدم توفر الروبلات. واستقل إلى الريو عابرة المحيط من شركة النقل المتحدة. وجاء مع الحقائب بلودي وبيوتر والبلالايكا: لنقل بروسيا الإمبراطورية.

9

في الملهى، تأكد فضول عبد الله من صحة كلام فؤاد كرم وردّد الاندهاش الخارج من أعماق النفس: يا هووو... ووجد الحجة والظرف المناسب ليمس يد صاحبة السمو الروسية برؤوس أصابعه الضخمة عندما لمحه فنتورينيا وأدى له تحية قلبية. وإزاء هذه غامر اللبناني بالتقدم من طاولة الأستاذ ليحييه وينظر عن قرب إلى القدر الذي أحرق مدينة إيتابونا وبحر إيلايوس. على لسان فؤاد

كرم، وهو لسان مسموم ومؤلم، فإن الروسية تميل إلى الزنوج: بالنسبة إليها يكون تيساو أبدووين المثل الأعلى، وهو على كل حال زنجي متعود على الأمور مع الأجنبيات.

لدى عودته إلى توكايا غراندي، ناقش الأمر مع النقيب ناتاريو دا فونسيكا وتأسف لكون الروسية متخصصة بالزنوج والمتمولين الكبار، وغير مكترثة بالعرب أصحاب الدكاكين الصغيرة. وعرفها النقيب وقد اهتم بعودة فنتورينيا معها. بالنسبة إليه كان فنتورينيا لا يزال الصغير الذي كان يأخذه رديفاً معه منذ عشرين سنة يعلمه الأشياء وإطلاق النار: الأولى التي عرفها الغلام فنتورينيا كانت جوليا سارويه، وكان النقيب من قدمها له:

– إن رأسه فارغ، ولا يستطيع أن يقاوم تنورة. مع هذه الروسية فإنه يصرف مالاً كثيراً. إنه لا يكتفي بها ويريد أن يعتدي على كل النساء. في الحقيقة إنه ليس أكثر من ولد جاهل.

– هل يصرف المال من أجل تركيب قرنين في رأسه؟

– إن القرون التي تضعها العاهرة على رأس رجل ليست قروناً حقيقية يا سيد فضول.

كان اللبناني قد فكّر في الاسترسال في الموضوع ولكنه امتنع عن ذلك. ربما كان الأمر سيسيء إلى النقيب الذي كان يحب فنتورينيا كثيراً، كما أن الأستاذ كان قريباً من أقربائه.

10

الإعلان عن الوصول المفاجئ للبعثة المقدسة شاع كصوت انفجار هائل أحدث انفعالاً وجعل سكان توكايا غراندي يشعرون برعشة: يا للخبر المثير على ضفتي النهر. ارتفع صوت واحد: الله يسدّد خطانا.

وراء ماكينة الخياطة لم تعرف ناتالينا الراحة. التوصية على ملابس نسائية جاءت من الجميع، وعلى الأخص من مخطوبات شهر أيار/مايو. النساء كن في أواسط الشهر، وهو شهر الأمطار الأولى، وشهر مريم كما أطلعهم المبشران على ذلك. الخطيبة الوحيدة الجديرة باستعمال فستان العرس والمنديل الأبيض هي الصغيرة شيكا، ذات العلاقة الغرامية المحترمة مع بالبينو. كانت شيكا تعيش مع والدها في حين أن المرشحات الأخريات للزواج اللواتي قدمن للحصول على البركة الرسولية كن جميعاً مصاحبات وبعضهن أمهات لأولاد غير شرعيين طبعاً.

أما شيكا، مع كونها لا تزال تعيش في المنزل العائلي، فمن الذي يتجرأ أن يضع يده على عذريتها؟ في توكايا غراندي وعلى غرار كل الأماكن الحضارية فإن الحب العذري كان يدوم قليلاً.

وفي المزارع كانت النسبة امرأة لكل عشرة رجال؛ كانت الزهور تقطف براعم.

كانت شيكا قد شوهدت برفقة بالبينو عند منعرجات النهر التي تشكل مخابئ أمينة، أكثر أو أقل، وشوهدت في أعماق الغابة الظليلة. وإذا كانت لا تزال محتفظة بالقفل مغلقاً، فواحدة من اثنتين: فإما أن يكون بالبينو جاهلاً صفيقاً، أو أن أعجوبة ما قد حدثت. كائناً ما كان فإن السيدة ليوكاديا جاءت بنفسها لتوصي على فستان العرس لحفيدتها وتشرح للسيدة ناتالينا أنها تريد الفستان على الموضة السرجيبية مع كل التفاصيل والتجاعيد والقطع الصغيرة الخاصة بعذراء.

الأخريات لم يطلبن إلى هذا الحد، وكن مكتفيات بملابس عادية، ولا يردن أن يتزوجن وهن مرتديات الملابس العتيقة. كليدي أيضاً حفيدة السيدة ليوكاديا وابنة عم شيكا أوصت على فستان أزرق سماوي هو أزرق السيدة العذراء. وتسجل أيضاً على لائحة الزوجات الصبية آراكاتي التي كانت سترتدي ملابس السيدة الآلهة في مسيرة أيار المقدسة. وصاحبات قديمات أوصين أيضاً على فستان عند السيدة ناتالينا أو خيطنه في البيت. أبيغال جاءت بفستانها من تاكاراس حيث هي وباستياو دا روزا كانا يعيشان منذ الطوفان: وكان في نيَّة الراهبين أن يصلا إلى هناك، ولكن تمّ تفضيل الزواج في توكايا غراندي وفي نفس الوقت الذي ستزوج فيه شقيقتها إيزورا: ومن المزارع وصل ثنائيون عديدون، إذ ليس بأمر شائع وصول بعثة مقدسة إلى ربوع نهر الأفاعي.

11

ولم يكن آباء الأطفال الذي سيتعمدون أقل اهتماماً من اللواتي سيتزوجن، حوالى دزينة من الوثنيين في توكايا غراندي ينتظرون المناسبة ليصبحوا كاثوليكيين تابعين لروما، موفرين على أنفسهم المرور بالمطهر إذا ماتوا صغاراً، ومن الجحيم إذا ماتوا شباباً... وكان هناك حيوية في الترتيبات، واختيار العرّابين كان يقود إلى مناقشات وقهقهات لا تتوقف. وأرسلت زيلدا برسالة إلى برناردا:

– اختاري العرّابين لنادو لأنه سيتعمد أثناء مرور البعثة المقدسة.

وإلى ناتاريو جاءت برناردا بالموضوع:

– هل فكرت في أحد؟ – كانت تريح رأسها على صدر النقيب وكان هو يداعب شعرها:

– إذا أردت، فأنا أختار العرّاب، وأنت تختارين العرّابة.

– بالنسبة لي لا تستطيع أن تكون عرّابة إلا كوروكا. إني مدينة لها أكثر مما أدين لأمي.. المسكينة.

– كعرّاب فكّرت في فضول لأننا أصبحنا نعتبره عماً كبيراً.

12

– "انصرف بعيداً أيها الشيطان" أمر الأخ زيكمونت غوتشهامر في اللحظة الحاسمة من اعتراف الصغيرة شيكا؛ ليست صغيرة لأنها كانت ستكمل الرابعة عشرة عشية القديس بطرس: وهي، بين خطيبات أيار/مايو المرشحات للزواج، الوحيدة ذات الإمكانية على استعمال الفستان والمنديل الأبيض في حفلة الزفاف.

وقد كشف عن التفاصيل والبراءة السخيفة مما هو متعلق بما كان أو لم يكن ومما هو خطيئة عرضية أو خطيئة مميتة، فإن الفتاة أخبرت المتفاجئ الأخ زيكمونت عن المتع التي كان يشعرها بها الخطيب. كان بالبينو قد أقام في إيلايوس ويعرف اختراعات الأجنبيات ومنهن تعلمت شيكا ما تعلمته. وهي متمتعة بالحديث أخبرته تفاصيل جعلته يشعر أنه يمنح أذنه لسدوم. ومع ذلك فإن الخطيبة طالبت بحقها باستعمال القداح رمز الطهارة وأقسمت بالله أن بالبينو لم يذهب بعيداً... أين سمع الأخ المحترم أن مثل هذه الأمور لا تمنع عن الزواج الطهور؟ في أشتانسيا كانت الفتيات يتزوجن عذراوات ولكن بانتظار الزواج كن يستعملن ما يستعملنه، ولا أحد مصنوع من حديد يا حضرة الأب الكاهن.

وأرسلها الأخ زيكمونت باللغة اللاتينية: "انصرف بعيداً أيها الشيطان". وصلت شيكا ثلاث مرات الأبانا وثلاث مرات السلام لأن الأخ كان قد نسي أن يطب منها ترداد فعل الندامة.

13

الراهبان بموافقة السيد كارلينيوس سيلفا، كانا قد أقاما كرسيين للاعتراف في مستودع الكاكاو الجاف، كل كرسي في أحد طرفي المستودع. لم يكن هناك عادة الفصل بين المعترف والمعرف، ولكن النساء القليلات اللواتي ذهبن لتأدية الواجب الديني لم يكن قادرات على النظر إلى الكاهن في ساعة تفريغ كيس الخطايا، ولم يكن يعرفن، التعيسات، ما هي الطهارة.

نساء قليلات. ولا رجل واحد. إن الكنيسة والكاهن مسائل من اختصاص النساء كان يقول الرجال الكافرون. مجرمون يستحقون الموت ابتداء من ذلك النقيب ذي الشهرة العريضة في القساوة. وقد سمع الكاهنان عن ماضيه وعن إشارات وحكايات مخيفة عن معاركه في تلك الفراسخ البعيدة من حقول نهر الأفاعي.

وإذ عاد الكاهنان من الطواف من بيت إلى بيت واستقرا في مسكن السيد كارلينيوس سيلفا حيث تمّت استضافتهما فيما كان تايون بقلب مفعم بالحزن بسبب ما رآه من احتقار لشريعة الله – آه: هؤلاء الفقراء التعساء – أما زيكمونت وإذ سيطر عليه الرعب والقلق فإنه راح يغلي غضباً لرؤيته الحالة المتدنية التي يعيش فيها أولئك الكفار الملعونون.

أطفال بلا معمودية، أولاد حرام حبل بهم بالخطيئة كالحيوانات دون موافقة ومباركة الله. الانحلال، الجريمة، الجهل والاستخفاف بمسائل الكنيسة. والأكبر من الزواج فهو التجمع السكني المبني بالقش والخشب عند أسفل المنحدر والذي يدعونه باللغة العامية: المبغى.

من الجهة المقابلة للنهر حيث كانت تزرع الأشياء التي تباع في المعرض الأسبوعي لم تكن المناقب بأفضل حالاً، وكذلك الدعوة إلى الله. والسرجيبيون هناك، الذين كانوا يخافون الله، تخلوا عن واجباتهم الدينية، وأضاعوا الخوف نحو الله وسارعوا في سكة السكان المحليين.

أما العربي الذي كان يتاجر هناك، يسرق الشياطين الفقراء، المقيمين والعابرين، ويدين بالفائدة، فإنه منحط مسترسل بالخطيئة، وأنه لم يكن مسلماً في الحقيقة ولكن ينقصه القليل ليكون كذلك. وكونه بعيداً عن أن يكون الابن المثالي للكنيسة الرومانية، فإنه كان ينتمي إلى مذهب الموارنة الشرقي غير الجدير بالثقة المطلقة. لو أنه عاش في إسبانيا في الأزمنة السابقة لما استطاع أن ينجو من السيف المسيحي الذي باركه سانتياغو ماتاموروس.

أما بالنسبة إلى الزنوج عبدة السحر، وفي طليعتهم الحداد الساخر ذو الضحكة الدائمة فإنهم يعيشون في التجربة، وقد جعلوا مركز سحرهم في حدادة حداد حدوات الحمير الكافر.

الأخ زيكمونت مطرقة الله كان مزمعاً على إحياء الإيمان في النفوس أثناء الاحتفالات الدينية، ومن يدري فقد يتمكن من تحريضهم على تدمير مركز الدعارة الواقع خلف الحدادة والذي تسكنه شياطين أفريقية مرعبة تمكنت من الهرب من العبودية.

بينما كان البربري يرتاح من عناء عشاء الفاكهة والطرائد الشهية – العشاء الفاخر الشهي –، في أواخر اليوم الأول من البعثة المقدسة، فإن الأخ تايون، متألماً ومحافظاً على هدوئه، تأسف لحظ أولئك الخاطئين ضحية الجهل والتخلف الذين كانت أرواحهم قد حكم عليها بالجحيم دون أن يستحقوا ذلك، ربما. إن ما حداهم إلى ممارسة الأخطاء والحياة في الانحراف والجريمة إنما هو في الدرجة الأولى بسبب افتقاد القيم المناقبية وعدم وجود القانون وفرض العادات بالقواعد التشريعية المنصوصة بالمختارين من الناس.

أما السيد كارلينيوس سيلفا المتكلم بالألمانية بطلاقة وبلفظ المثقف المولَّد، تأمل، والمفاجأة الكبيرة بالنسبة إلى الراهبين الرسوليين في البعثة المقدسة، وبصوت ثابت وغير مذنب، المنطلق كمن لا يريد شيئاً ولكنه يمضي في قول الأشياء، دافع عن المكان وعن سكان المكان. كان يبدو وكأنه محاضر يلقي في كاتدرائية ويمار، والأخ زيكمونت راح يحدق فيه بعينين من الشك. وبمنطق لا يقبل الجدل، فإن المتولد برأ ذلك الشعب الطيب من كل جريمة. إن سكان توكايا غراندي – قال – كانوا يعيشون هناك على هامش الأفكار المسبقة، غير ملتزمين بالحدود والقرارات المنصوصة بالقوانين، وأحراراً من الأحكام الأخلاقية والاجتماعية المفروضة بالتشريعات سواء كانت تلك الأحكام واردة في قانون العقوبات أو التعليم الديني. وأناس أكثر نظامية من سكان توكايا غراندي بالرغم من الاسم السيئ والعادات الرديئة، لا يوجد في كل منطقة الكاكاو وفي كل المناطق الحضرية. وهل تعرفون لماذا يا أصحاب السيادة؟ لأن هنا لا أحد يحكم أحداً. وكل ما يفعل إنما هو باتفاق جماعي لا بخوف من العقاب. ولو أن الأمر كان متعلقاً بالسيد كارلينيوس سيلفا، فإن هذا السلام هنا، لم يكن ليعكر، والحياة السعيدة التي تعيشها توكايا غراندي إنما كانت في نظره تستحق نعمة الإله الحقيقي.

– إذا سمحتم يا محترمين فإني أقول لكم: هنا لا يوجد النعيم الطبيعي لأصحاب المعرفة...

وتحرك الأخ زيكمونت غوتشهامر، مطرقة الله، بانفعال والسبحة بيده تكر بعصبية ضد الخطيئة والخاطئين، وعلى الملحد الذي أمامه. كانوا قد أعلموه في إيلايوس أن هذا المتولد هو ابن شرعي تربى في ألمانيا وكان ينطلق منه دخان أستاذ: عدو الكنيسة الرومانية وهو لوثري جاحد وربما كان أكثر نجاسة من العبيد ذوي الإيمان الأفريقي. وهو بالتأكيد أخطر من الماروني، وهو أسوأ نموذج في العالم: وبيت الأفكار الإلحادية الفرنسية، والموسوعات العلمية، وأعداء الله والملكية، وناقلات

النفط وفي قبضته القنبلة الجاهزة ضد الأباطرة والنبلاء وبخنجر مشهور ليطعن من جديد قلب عيسى ابن مريم. المتولد، أكثر من كونه لوثرياً فهو فوضوي.

15

النجارون لوبيسينيو، غيدو، وزينيو أقاموا في السهل وعند منتصف المسافة بين النهر والمستودع، مقابل موقع المعرض الأسبوعي، مذبحاً من الخشب البرازيلي الصلد، عملاقاً، ذا ارتفاع شاهق، وجاء عملاً هو بهجة للنظر ولا يقارن به غير المستودع الكبير. ومن ينظر وهو آتٍ من أعلى سفوح نهر الأفاعي أو مع محطة تاكاراس يرى من مسافات بعيدة القديس لينيو وقد بلغ بعبوره توكايا غراندي مع أول بعثة رسولية امتدت إلى نهاية العالم هناك لغرض الفضيلة والقضاء على الخطيئة.

وعند مرتفع مسطح من الألوان المتناسقة، جعل أمام المذبح، وضع الإخوان المعدات والأدوات للذبيحة الإلهية، وكذلك بركات ومقدسات المعمودية والزواج. وكان الكاهنان يرتديان الملابس الكهنوتية المخصصة للفرائض الدينية والذبائح الإلهية.

وكان الأخ تايون يقيم القداس صباحاً في الأفخرستيا، بينما يقيمه الأخ زيكمونت "مساء" عند ساحة التبارك. وكان رأي السكان موحداً في اعتبار قداس الأخ زيكمونت أعلى مستوى بكل مظاهره من قداس الهولندي. لا مجال للمقارنة. إن الأخ تايون الذي يتكلم البرتغالية دون لكنة تقريباً يطيل الكلام على طيبة الله ورحمته ووصف الجنة والحديث عن جمالاتها ونعمها.

أما الألماني النحيل الطويل ذو الوجه المحفور واليدين البائنتي العظم، وهو يمزج البرتغالية بتعابير ألمانية ومفردات لاتينية وبلفظ شبيه بنباح كلب الصيد، فقد كان يلهب المسامع، مسامع ذلك الجمع الصغير ولكنه أكبر من الجمع الذي جمعه إيزادودي سيا ليوكاديا في الصيف. كان موضوع زيكمونت الجحيم. إن بعل زبوب، كبير الشياطين، هو الخطيئة والنار التي تستهلك الخاطئين. ومطرقة الله، كما يشير إليها اسم الأخ زيكمونت غوتشهامر، نال نجاحاً يعادل نجاح كارلينيوس يلفا بالمخادعات الأدبية. "لهلوب" الأخ زيكمونت!

16

وشاءت المصادفة – والروايات مليئة بالمصادفات فما أحراك بالحياة – في اليوم الثاني والأخير من وصول البعثة الرسولية، أن وصل إلى توكايا غراندي قادماً من إيتابونا عائداً إلى مزرعة أتالايا، الأستاذ بوافنتورا أندرادي جونيور الذي، أكثر فأكثر، "أصبح ينادى بهذا الاسم، منه بفنتورينيا"، جاء ترافقه لودميلا غريغوريوفنا عشيقته – وعشيقة كانت اللفظة التي استعملها الخريج لأنها تشير إلى الأنثى النبيلة والغالية، ذات الكعب العالي، المتفرغة له. الموضوعة في أماكن عالية لا تصلها الصاحبات، والمدبرات، والسمسارات. غرة شعر ذات لون ناري، وعطر المسك القوي، وأناقة بزة الركوب الإنكليزية. "التراكسوت" وسلسلة النبالة التي تصلها بقيصر أو بحاشية الملك سليمان كما يفضل القول اللبناني فضول، قارئ التوراة.

في أزمنة الصراعات عندما كانت مجموعة من المقاتلين المستزلمين دليلاً على الأحداث الحسام وكان كل جذع جوافة كميناً، كان العقداء يسافرون محاطين بمجموعات من الأزلام لأن احتمال الهجوم كان قوياً. ولكن مع نهاية الصراعات، فإن الحراس قد تقلصوا إلى رجل ثقة واحد سريع التسديد. والعقيد بوافنتورا أندرادي الذي كانت حياته مهددة في أغلب الأحيان، كان يرافقه في السنوات الأخيرة من حياته إشبيريداو، وأحياناً كان ناتاريو يذهب معهما: للتحدث مع العقيد، ومناقشة ما يجب عمله، وليس بصفة "سركال" كالسابق.

أما فنتورينيا فلم يكن في تجوالاته بين إيتابونا ومزرعة أتالايا أو أي مكان يريد أن يبلغه يتخلى عن إبراز نفسه بمظهر جدير بباسيليو دي أوليفيرا أو وجيه من وجهاء بادارو أو أنريكي ألفس في الأزمنة الملتهبة.

وفي قيادة الدورية المؤلفة من أربعة رجال مسلحين حتى الأضراس كان مقاتل قد اشتهر في الصراعات السابقة ويدعى بينايا كوفارازا – ويعني القبر المسطح، وهو لقب سعيد، ولا شيء يضاف: عددت حتى العشرين، وبعدها توقفت عن التعداد، كان يقول بينايا وهو يتكلم عن عدد الذين أرداهم قتلى، والذين بعد العشرين كان يحفر لهم حفراً غير عميقة ويدفنهم فيها. كان قزماً صغيراً ونحيلاً ذا فم ممصوص وقليل الكلام، جيد في استعمال البندقية وأجود منه في استعمال السكين.

عندما قتل العقيد بيشوتو ظهر ثلاث مرات أمام المحاكم. في المحكمة الأولى حكم عليه بالسجن ثلاثين سنة، وفي الثانية بالسجن ست عشرة سنة، وفي المحكمة الثالثة أطلق سراحه بفضل

المحامي المشهور روي بينالغا. وعندما أعيد إلى الحرية، تطوع جندياً في فرقة الشرطة العسكرية ومن هناك جاء به فنتورينيا ليكون رئيس حرسه الشخصي. أما العمل الأخير الذي قام به فقد كان قتل فتاة هوى تدعى بيرا لأنها رفضت استقباله بسبب نذر نذرته في الامتناع عن الممارسة. وهو يرتدي بزة عسكرية وبشهرته العريضة، فإنه زجّ في السجن بمحاسبين فقيرين صرفا بعض النقود على نزيلات ماريا ساكادورا.

17

نزولاً عند طلب لودميلا، قرّر فنتورينيا أن يتأخر في توكايا غراندي حتى ساعة منح البركة، والمعمودية والزواج، للاحتفال الأخير الذي سيقوم به الأخ زيكمونت فون غوتشهامر: يجب أن لا تفقد ذلك المشهد مقابل أي شيء آخر في الحياة.

– في مثل هذه الحالة يجب أن نسافر ليلاً لأنني أريد أن أنام في المزرعة.

– "فواياجي دان لافوري باندان لانوي، سي رومانطيك مون أمور". السفر في "الغابة أثناء الليل رومانسي يا حبيبي".

وافق الحبيب فاستحق قبلة، وبرفقة بيوتر والقبر المسطح كوفا رازا، هو ولودميلا تناولوا طعام الغداء في بيت النقيب وزيلدا. وجيه سعيد ومعتز بنفسه ومشارك بالاحتفال. مع مرور البعثة المقدسة، فإن فنتورينيا اعتمد على وجود فضول عبد الله الذي ارتدى بزة السفر لمعمودية نادو. يوم عيد في بيت النقيب.

بعد ارتشاف القهوة، تمدّد فنتورينيا في الشبكة المعلقة، على الشرفة، وتناول سيجار "سوبرديك"، وظل يتحدث مع النقيب وفضول: تعاقد مع مهندس زراعي ليحل محل ناتاريو في إدارة مزرعة أتالايا وأطال الحديث عن مهارة المهندس الذي كان يقود ثورة في وسائل العمل والزراعة والحصاد ووعد بمضاعفة الإنتاج أضعافاً ثلاثة: فما هو رأي ناتاريو؟ لم يكن ناتاريو يرى شيئاً ولم يعلق ولم يزمع على مقارنة المعلومات في الكتب بخبرة العقداء والعمال المجربين. ظهر فقط على شفتيه ذلك الخيط من الابتسام، علامة الشك أو الرفض، من يدري؟

خطر اسم إشبيريداو فلم يفهم فنتورينيا لماذا لم يقبل الزنجي، وبنفس طريقة ناتاريو، أن يتسلم مركز رئيس حرسه الشخصي الذي يقوم به بينايا كوفارازا، ولم يفهم لماذا تخلى إشبيريداو عن المزرعة ليذهب ويعيش برفقة ابنته المعلمة في تاكاراس.. اعتبر العجوز عقوقاً فلم يوافق ناتاريو. إذا

كان من أحد يحب أن يقر بالفضل فليس إشبيريداو بفضل فنتورينيا، بل ابن العقيد بفضل إشبيريداو الذي أنقذ مراراً حياة الأب وحافظ على راحته خلال سنوات طويلة. وغيَّر الأستاذ الموضوع، فعندما كان صغيراً تعلم أن يحترم آراء ناتاريو؛ إذا فرض عليه الاحترام فهو لا يبرهن على ذلك.. لم يكن الإداري السابق يتكلم بلهجة اتهام أو بحق يريد أن يفرضه. كان يكتفي بالمحادثة بصوت حيادي ووجه لا يعبر عما يختلج في النفس.

من طالب بحق فنتورينيا فهو فضول عبد الله مذكراً إياه لدى مرور سريع في توكايا غراندي، بأن الأستاذ بدا متشائماً إلى حدٍّ كبير فيما هو متعلق بمستقبل المكان وتكهن له بحياة قصيرة متواضعة. لم ينسَ فضول الكلمات التي هزّته: ولولا المعاهدة التي تعاهد بها مع إله الموارنة لكان فقد حيويته وتخلى عن المكان: وبينما هو يضحك، اعترف فنتورينيا بأنه قد أخطأ بتقديراته:

– نعم سيدي، إني أقدم لك يدي لتضربها بالمسطرة الثقيلة. جهد في القول وهو يشرح أن المدينة هي في قوة التعبير، وكان يستعمل الكلمة ليشير إلى نمو البلدة إذا ما قورن بأماكن صغيرة في المنطقة فهو نمو، ولكن صفة المدينة بالمعنى الصحيح لا تنطبق لا على إيلايوس ولا إيتابونا عاصمتي منطقتين؛ وحتى باهيا عاصمة الولاية والريو دي جانيرو فإنهما ليستا مدينتين إذا ما قورنتا بباريس ولندن. عاصمتان؟ أجل. لله من نسائها: هل رأى الصديقان مثل الروسية التي اقتحمها؟

مثل هذه الروسية لم يريا سابقاً لا الصامت ولا اللبناني. ولكن ناتاريو تذكر أن المرأة الجميلة هي الخبز اليومي وفراش السرير بالنسبة إلى الأستاذ الخريج. في تلك الأثناء، ومنذ سبعة أعوام عندما استنكر الحياة في توكايا غراندي فإن فنتورينيا، الأستاذ الحديث، كان قد جاء بصحبة (أرجنتينية). هل تذكر؟

تذكر فنتورينيا. أديلا بورتينيا، امرأة، كانت تغني الأغاني الشاعرية، وطنية المعشر. ولكنها قرب لودميلا غريغوريوفنا سيتيكينباوون تمر غير مرئية.

18

بينما كان فنتورينيا يتحادث على الشرفة ويحمي خطواته بينايا كوفارازا هبطت لودميلا وبيوتر من بيت النقيب ليطوفا في توكايا غراندي.

كانت الروسية قد أحبت تلك السفرة على ظهر الحصان عبر المزارع والدساكر. في مزرعة كاربيشو حيث كان التوقف الأول في الرحلة، فإن العقيد ديموستينس بربرت استقبل فنتورينيا وعشيقته استقبالاً بهياً. وكونه عازباً فإن ثلاث صبيات كن يعتنين بالبيت الكبير وبمتع الماجن الثري، الأربعيني السعيد المتحدر من جدة فرنسية بمزيج دموي برازيلي. وهو يتكلم الفرنسية بطلاقة وفصاحة – تعلمها من جدته – قدم إلى لودميلا نعماته الثلاث: الهندية، والبيضاء والزنجية وكان العقيد ديموستينس الخبير المرهف والعليم الذواق قد اختارهن بإصبعه.

في أحراج الكاكاو كان صاحب مزرعة كارابيشو ظاهرة فريدة من نوعها: في البيت الكبير كان يمتلك مكتبة كبيرة، وقبواً للخمور، وبالإضافة إلى الغرامافون كان يمتلك معزفاً يعزف عليه بنفسه ليطرب حورياته الثلاث المصطفات أمامه تولهاً. أما فؤاد كرم، الضيف الدائم، فكان يشير إلى حريم العقيد ديموستينس، بينما ألفارو فاريا وقد ملَّ مشارب المرفأ فقد مكث هناك أسبوعاً وهو يجندل زجاجات النبيذ والكونياك البرتغالية والفرنسية. في رأي المثقف الإيلاوسي فإن العقيد بربرت كان المتحضر الوحيد في عالم المزارع.

على طاولة الفطور الصباحي كان العقيد قد قدّم مأكولات الولاية الشهيرة! الكوسكوزس، والسمنة، والأجبان والألبان المصفاة، والموز المقلي، والخبز المصنوع بالفاكهة، والبطاطا الحلوة، وأنواع الشكولاته السميكة. وكانت لودميلا تتذوق الطعام الطيب، وتأكل قليلاً من كل شيء وتثني عليه بصوت متموج رخيم تملأه الألغاز.

زاروا حقول الكاكاو أثناء القطاف – كان عمل الأجراء يبدأ في الخامسة صباحاً – كما زاروا إسطبل البقرات الحلوب حيث، مستفيداً من انهماك فنتورينيا بالصنف السلاماقي، مرَّ العقيد بيده على خلفية لودميلا غريغوريوفنا الأرستقراطية، وهمس في أذنها:

– في أي يوم تريدين اعتبري هذا البيت بيتك؛ هكذا ببساطة اعتبريه بيتاً كأي بيت آخر تملكينه بمواجهة البحر: – قال ذلك بأفضل ما عنده من اللغة الفرنسية في همس شبيه بالنسيم الصباحي العليل.

أجابت لودميلا بابتسامة ونظرة غاضبتين كما هو مفترض أن تكون الابتسامة والنظرة الروسيتان المخدرتان. والعقيد الشجاع قبل أن يرفع يده عنها قرصها لتتذكر العرض وتعمل بموجب الاتفاق.

رحلة بهرت عيني لودميلا غريغوريوفنا سيتيكينباوون. كانت الطريق بجانب حقول الكاكاو: الثمار الصفراء تلمع تحت وهج شمس الصباح وزرع أجمل منها: لا. وكانوا يتوقفون في مزرعة للاستراحة وقبول شربة ماء أو فنجان قهوة، تذوق حلويات الموز أو البرتقال، والتلمظ بكأس عصير طازج ممزوج بالعسل فوقه ثمرة كاكاو ناضجة هي اختراع الآلهة.

وللتعرف على المغنية الروسية التي كانوا يعرفونها بصاحبة الأستاذ فنتورينيا، كانت نساء العقداء يهملن المطابخ ويتخلين عن الأحكام المسبقة ويقدمن أنفسهن بأناقة بعدما يدخلن في أجسادهن ملابس العيد سريعاً. وكانت لودميلا تمد برؤوس أصابعها ليقبلها أصحاب المزارع، وتبتسم بتألق وتواضع للسيدات وتقول: "ميرسي". "فوزت تري جانتي، مدام". مغنية روسية رائعة ومشرفة.

كل ذلك الامتداد السرابي من العقداء الأثرياء والأجراء التعساء من البيوت الفخمة والأكواخ المتواضعة، كان النقيض والمثيل لامتدادات أراضي روسيا النبلاء والعبيد. وكانت لودميلا غريغوريوفنا تتبادل اللسان مع بيوتر، أخيها، عن الأمل في الحصول، يوماً أكثر أو أقل، من اليدين الكريمتين للأب الصغير بوافنتورا أو من يدي الآخر، هدية حقول واسعة مع قرية من العبيد السود. كانت تعيش في توقد الاكتشاف، وكان كل شيء يبدو لها حباً رومانسياً، مع حذر واحد من خطر الأفاعي وقطاع الطرق.

أخذت تمشي في الحقول، عبر الطرقات مشغوفة بتوكايا غراندي، ومرّت قرب المستودع الكبير وتأخرت في محل الحدادة تنظر إلى الحداد ذي الصدر العاري والجلد اللماع وهو يضرب على الحديد ليصنع سواراً من المعدن أرادت أن تشتريه ولكن الزنجي قدمه هدية ذكرى متواضعة لا مثيل لها: إنها تلمع تحت أشعة الشمس.

عندما عادت من المشوار، وعيناها متقدتان ووجهها مكسو بالعرق وبصوت يخنقه الانفعال فإن لودي سألت فنتورينيا الذي لا يزال متمدداً في الشبكة المعلقة كأرجوحة وقد أطال قيلولته:

– هل هذه القرية ملكك، يا أبي الصغير؟ وهل اللطفاء هؤلاء هم عبيدك؟ وانحنت فوق الأرجوحة بإثارة: إذا كنت تحبني حقاً فيجب أن تمنحني قرية وعبيداً دليلاً على عطفك.

الخطبة التي ألقاها خلال القداس الذي أقامه الأخ داسنتا أوخارستيا جاءت فصيحة ومثيرة للمشاعر، وفيها يتأسف على حالة الانحطاط الوثني التي يغرق فيها شعب توكايا غراندي ولكنه

أشار إلى رحمة الله، الرحمة العلوية رحمة القلب الذي نزف ألماً للخراف الضائعة من قطيعه، ودعت الخطبة إلى الندامة والأسف.

لم يكن سكان توكايا غراندي قساة القلوب ومتحجري العواطف فشاع الخوف عالياً ومغالىً فيه وراحت أيديهم تقرع الصدور الخاطئة: يا ويلاه. كل سكان المكان، ودون استثناء، هم خطاة. وإنه لمما يثير الشفقة الإشِارة إلى تسلسل الأحداث في توكايا غراندي وذلك التعبد المفاجئ خوفاً من معاقبة الجمع القليل الواجف أمام الصليب المقدس وهو يصغي بصمت نسبي إلى كلمات المبشر. وفي غمرة التساؤلات عن العقاب والثواب، لم يكونوا متفقين إلا على شيء واحد: أن المحترم كان يتكلم كلاماً جميلاً، بصوت جهوري ودافئ. وهو نفسه جميل في رأي النساء العاميات.

لم يكن هناك بكاء عند الصباح ولا صرير أسنان عند المساء. بل خوف مسيطر خلال خطبة الأخ زيكمونت، مطرقة الله. مع لفظه الشبيه بكلب سلوقي: غوتشهامر. وحظي الأخ تايون بالنجاح في الوسط النسائي: ففي حين كان مزجوجاً في أعلى منبر الخطابة فإنه كان يتمايل هناك ويتوجع على مصير الأحياء الذين كان إنقاذهم مسألة مشكوكاً فيها. وكانت النساء يتبادلن التعليقات برضى مشكوك فيه ونيَّة خفية ملحة فيما لو أعطين الامتياز للتعلق بذراعي الكاهن الشاب ذي الوجه الطفولي. بالمقابل، فإن الأخ زيكمونت بخطبته الملتهبة وتهديداته وشتائمه أثار حماس الرجال بنوع خاص لأنه أكثر رجولة.

ولم يبكِ إلا بعض الأطفال عندما جيء بحوض ماء معدني، جديد، أعاره التركي فضول وهو على كل حال قطعة غالية من مستودع الأدوات المعروضة للبيع في الدكان.. أما فضول فقد تنكب مسؤولية في حفلة المعمودية الجماعية ووقفت عن يمينه كوروكا التي كانت تحمل بين ذراعيها الطفل نادو، وعن يساره برناردا والدة الطفل المتألقة الرائعة وهي ترتدي التنورة والسترة المشجّرة وبيدها شمعة مشتعلة.

وإذ كان الأطفال الوثنيون من كل الأعمار ومن كل المزارع قد اجتمعوا فإن الأخ تايون استقبلهم في صحن الكنيسة المقدسة ليحولهم إلى مسيحيين، ومرَّ على كل واحد بمفرده يضع على جبهته الملح والزيت ويبل رؤوسهم بالحوض المليء بالماء المقدس. وكان يطلب أن يردد الجميع وراءه: أؤمن بالله العلي العظيم. وكان الآباء والعرّابون يرددون بأصوات متشابكة تولد الارتباك وبحرية شبيهة بحرية الصباح في المعرض الأسبوعي الطلق.

العقيد روبستيانو دي أراجو وزوجته السيدة إيزابيل حضرا صباحاً إلى توكايا غراندي ليشهدا على معمودية توفو ابن ديفا وكاستور أبدووين: لقد كانا هناك في ساعة الدهن بالزيوت المقدسة.

الكلب ألما بينادا نبح على الكاهن وحاول أن يعضه عندما بدأ الطفل بالبكاء لدى تذوقه طعم الملح في فمه. حادث هزلي سبب الضحك الجماعي.

وفي طريقهما إلى محطة القطار، في تاكاراس، بعد حفلة المعمودية يرافقهما المرافق نازارينو، فإن العقيد والسيدة إيزابيل التقيا بحاشية فنتورينيا وخلال عدة دقائق تبادل الجميع الملاطفات وسط اللغط. من أعلى سرج الحمار مانسيدا تأملت السيدة إيزابيل في "من هي" التي جاء ابن المرحوم العقيد بوافنتورا الصديق الحميم بها.

لم تستطع أن تنكر عليها الجمال الأجنبي وهي تبدو نسخة طبق الأصل عن مريم وهي هاربة إلى مصر متواضعة طاهرة. النساء الشبيهات بالقديسات هن الأسوأ. علقت بذلك السيدة إيزابيل على مسمع زوجها عند متابعتهما الرحلة. أما ما هو متعلق بالخريج فإنه لم يكن يعدو في نظرها غير قليل أدب.

19

عروسات أيار/مايو، بعضهن حبالى والأخريات يرافقهن أبناؤهن المولودون في حمأة رذيلة المصاحبات، كن يقفن جنباً إلى جنب ووجوههن مرتفعة إلى الأعلى باتجاه المذبح. وساعد الأخ تايون في ترتيب وقوف الأزواج وكل زوجين يقف قربهما الإشبينان.

كان تيساو أبدووين قد برم للعروسات الريفيات خواتم معدنية. وكان ضحوكاً وحيوياً عند الصباح خلال حفلة المعمودية، ولكنه بدا رصيناً وجدياً، بعد الظهر، عندما وقف إشبيناً لباستياو دا روزا وأبيغال. وكانت إبيفانيا وهي تقف بين الناس تحدق فيه قلقة: وكانت تعلم أن الزنجي كان يفكر في ديفا التي كان يمكن أن يتزوجها لو لم تستهلكها الحمى.

والقول من هي العروسة الأجمل والأكثر سعادة فمسألة صعبة وغير حكيمة؛ القول: من التي كانت الأصغر سناً فمسألة لا تقبل الشكوك وهي الصغيرة شيكا بسنيها الأربع عشرة غير الكاملة وعذريتها الأكيدة، لأن شيكا لم تفسح المجال لخطيبها بالبينو وتزوجت غارقة بالدموع وهي تعبّر بتنهدات عالية عن أسفها للعذرية المعاقبة.

بالتزويج والتعميد وصلت البعثة المقدسة إلى النهاية: في اليوم التالي، عند الفجر، انطلق المبعوثان إلى تاكاراس، المكان الأكبر والأقل شقاء. وكانت خطبة الأخ زيكمونت قد أنهت القسم الديني من الحدث الذي هزّ توكايا غراندي وقلبها رأساً على عقب خلال الثماني والأربعين ساعة من الانطلاق والحيوية. أما القسم الأخير فلم يعتمد فيه على مشاركة الأخوين الدينيين إذ كان تحت إشراف وإدارة بيدرو سيغانو العازف والمواطن الوجيه. وللاحتفال مرة واحدة بكل هذا العدد من المعمدين والمتزوجين، فإن العيد يجب أن يطول كما طال فعلاً. وبينما يرافقها فنتورينيا فإن لودميلا غريغوريوفنا سيتيكينباوون ذهبت إلى مزرعة أتالايا قبل أن ينتهي الرقص، ولكن ليس قبل أن ترقص الرباعية الفرنسية تحت قيادة كاستور أبدووين، الزنجي تيساو الذي خضع ذلك اليوم لانفعالات متعددة.

خطبة الأخ زيكمونت فون غوتشهامر جاءت بما يسمى بمفتاح الذهب والقفل على جواهر البعثة المقدسة. الكلمات التأكيدية والحارة إن لم تغرس في الأرض الصلبة لنفوس سكان توكايا غراندي، فإنها وقعت على مسامع أكيدة جعلت المكان كله يغرق في التأمل ويحدد الإجراءات وفقاً للتعليمات وللعادات الجيدة.

إن اسم المكان الذي أعطي إياه تكريماً لجريمة كان يقول على كل شيء: فانظر كيف بدأ المخلص الكبير خطبته. باختصار فإنه اتهم توكايا غراندي بمدينة الخطيئة ومعقل اللصوص، مكان بلا قانون، لا قانون الله ولا قانون الإنسان، وأرض السقوط ومملكة الشيطان. إن توكايا غراندي هي سدوم وعمورة التي تتحدى غضب الله، وفي يوم فإن لعنة الله ستتجمد ناراً لتعاقب الملحدين وتدمر جدران السوء والكفر وتحول إلى رماد ذلك الكهف من الفضائح والانحراف. هكذا تكهن.

في ساعة منح البركة، ومع منازعة الأصيل، فإن الأخ زيكمونت مطرقة الله حرك الكأس ودار بها، ثم رسم في الهواء إشارة الصليب ولعن المكان ومن فيه.

مع وصول القانون
انتهت توكايا غراندي، وهي لا تزال في بدايتها،
ليبدأ تاريخ مدينة إيروزوبوليس

1

ملجأ اللصوص والقتلة الذين لا قانون لهم ولا ملك، مسلحون بالبنادق، وعاهرات – استنكر المرسل من عند الله. كان لا بدّ من كبح العنف المتجذر ووضع حدٍّ للفوضى والانحراف: قرّر العالمون المرفهون. الشائعة كبرت بسرعة في قصر العدل والبلدية والمحافظة والملاهي.

التقليد كان في أن السطو والكمائن والاستزلام ينتج عنها القانون والملكية، وأمام جيشه امتطى الملك صهوة جواده الأصيل وانطلق ليفرض القاعدة والسلام، السلطة والطاعة، حيث لا شيء غير الحرية والحلم.

من بلاغة الخطيب المخلص إلى مسيرة الجنود، كانت الخطوة قصيرة، وتمّ اجتياز المسافة بدقة بين شتاء الاحتفالات وصيف الطلقات النارية، بين الحياة والموت، بين الرجل ومستعبده. وأقصر من الخطوة هو زمن المعركة: من الأخبار المتتالية إلى الاحتلال فإن ما حدث قد حدث خلال أيام قليلة.

2

وصلت رسالة العقيد روبستيانو دي أراجو إلى النقيب ناتاريو دا فونسيكا وهذا في طريق عودته من مزرعة بوافيشتا حيث القطاف كان قد انتهى وجاء إنتاج الغرسات الجديدة أكثر بكثير من الحسابات الأكثر تفاؤلاً.

كان النقيب قد توقع أن يزيد الإنتاج قليلاً على الستماية أقة، ولكنه زاد على السبعمائة. كاكاو كهذا معتنى به إلى هذا الحد، هو فقط كاكاو مزرعة أتالايا، ثم غدا أفضل منه بالرغم من مساعدة الأستاذ لويس سيزار غوسماو ونظرياته الحديثة حول زراعة (الكاكاو) (المخصب)، الشجرة الأستركولياسية – بعبارة المهندس الزراعي التشخيصية.

مع كل علمه الزراعي فإن المهندس لويس سيزار غوسماو أوشك على الطرد من وظيفته عندما عاد سيده فنتورينيا من الريو دي جانيرو حيث ذهب ليأخذ حماماً من الحضارة برفقة لودميلا غريغوريوفنا وأخيها بيوتر، وعلم بهبوط الإنتاج بالمقارنة مع إنتاج العام السابق. أصابته نوبة من

الغضب فهدّد الله والعالم وطلب تفسيرات. أما المهندس الزراعي وهو يقلب صفحات الكتب المتخصصة بالموضوع فقد فسّر أن الأمر هو كذلك: لأن النتائج الإيجابية لنظرياته العلمية الحديثة تحتاج إلى وقت وصبر. الوقت والصبر إلى حيث ألقت رحلها أم...: – تمتم فنتورينيا مغتاظاً. ولكنه عاد ليأخذ ببراهين الأستاذ غوسماو لأن ناتاريو رفض أن يأخذ علماً بالعروض المتجددة والمغرية ليعود إلى مركز إدارة المزرعة.

اغتاظ فنتورينيا وانفعل برفض ناتاريو بالرغم من أنه وعد ناتاريو سركال العقيد بوافنتورا بمنحه نسبة مئوية من الأرباح. وهذه مسألة لم تعرف سابقاً وهي مرفوضة وعرضة للنقد في آراء كبار المزارعين. وقاده الكلام إلى الغلظة في الكلام: لقد تكلم فنتورينيا لمن يريد أن يسمع عن عدم الوفاء واستعمل كلمة خيانة. وقال إن ناتاريو لم يحترم ذكرى رئيسه وحاميه الذي يدين له ناتاريو بكل شيء. وبالتالي إثر موت العقيد فإن النقيب أقام بيتاً ومنح مالاً لساكرامنتو صاحبة العقيد والذي وضع له قرنين وهو يثوي في مأواه الأخير. وكان يلفظ الكلمات بلهجة أستاذية بنفس اللهجة التي أشار بها المهندس الزراعي إلى (الكاكاو المخصب والشجرة الأستركولياسية).

3

سمعت محادثات وشائعات لم أحبها، فاحترز – كانت هذه رسالة العقيد روبستيانو دي أراجو، الغامضة، والتي جاء بها المستزلم نازارينيو رجل ثقة، ولكنه لم يعرف كيف يضيف التفاصيل. في البداية، ظنَّ النقيب أن المسألة متعلقة بانفعالات فنتورينيا التي لا تلبث أن تخمد والتي كانت تصل إلى ناتاريو فتحمله على الضحك: حرد آمر صغير وعندما سيذهب إلى إيتابونا فسيشمط أذنيه، وننتهي إلى كأس نتحدث معها عن النساء، وينتهي الحرد. وبينما هو يروي الحكاية لفضول عبد الله تفاجأ لمعرفته بأن اللبناني تلقى، وبفارق قصير من الوقت، ورقة كتبها فؤاد كرم بلغة أدبية مصقولة حتى لا نقول شاعرية. الأجير يزرع الواحة بستاناً من النخيل، ولكن من يقطف الثمر فهو "الزنكيل". انتبه جيداً، يا عزيزي فضول، لأن الثمار بدأت تنضج! هكذا أنذر بلغة عربية مخطوطة بإتقان. الورقة أوكلت إلى حادي القوافل زي – ريموندو الطبيب البيطري في المنطقة، لتسلم باليد إلى صاحب الدكان.

حاول الاثنان عصر دماغيهما: ناتاريو وفضول، ثم طلبا رأس كاستور أبدووين وكذلك لم يجدا مفتاح اللغز القادر على أن يضع تحت الضوء المعنى الواضح لما أعلمت به سفارة العقيد ولغة

المثقف العويصة.

– خلال أسبوع سأذهب إلى إيتابونا لاستجلاء الأمر: – قال ناتاريو ذلك وهو لا يزال يحك دماغه.

– ماذا يمكن أن تكون تلك المحادثات التي لم تعجب العقيد روبستيانو؟ احترز من أي شيء؟ ما معنى نضج الثمر الذي ألمح إليه فؤاد كرم؟

ولمرافقة النقيب من كان في البدء عرّاباً في التعامل وأصبح الآن عرّاباً حقيقياً بعد معمودية نادو. ولكي يكون مع النقيب في المشرب، وفي نزل شاندو، قرّر فضول أن يقدم تاريخ سفرة الأعمال: لقاء مع المجهزين، تصفية حسابات، وتجديد المستودع. وفي نزل الفتيات، سيوقظ مع شاندو ذكرى دلال زيزينيا دو بوتيا وهي وقد تاهت في سرجيبي فإنها لم تعد تطمئن بأخبارها وأن حفيدها دورفالينيو، (خذ – و – جيب).

وإذا ظلَّ لديه وقت فسيذهب للتفسح مع ألفارو فاريا ويرى البحر الذي، وهو فتى، اجتازه مع مجموعة من المهاجرين ليأتي من بلاد التمر إلى أرض الكاكاو.

4

لم يتمكنا من القيام بالرحلة المخططة، فلم يكن هناك متسع من الوقت لأن الأحداث بدأت تتعقد متتالية وانهارت عليهما بنسق أصابهما بالحيرة والغموض.

كان النقيب ناتاريو دا فونسيكا قد انتهى لتوه من الغداء عندما دخل ابنه بيبا راكضاً: لم يأتِ ليأكل. ومذعوراً توجه بالكلام إلى أبيه! في الخارج رجلان يطلقان النار على البقر، ويقال إنهما رجلا شرطة وقد قتلا...

لم يترك النقيب ابنه بيبا يكمل الجملة، فأخذ بزناره مع مسدسه "البارابللو" وكان معلقاً على الحائط قرب طاولة الطعام وخرج من الباب الخلفي... وصل إلى السهل في الوقت الذي كان فيه التاميراندو الذي استدعي على عجل يتجادل مع واحد من المجهولين كانا قد ارتكبا مجزرة بقتل البقر التي كان معظمها يعود إلى (السرتوني).

التاميراندو الخنجر بيده والرجل الآخر الذي كان المسدس قد أفلتَ من يده، كانا يدوران على الأرض في عراك حاد. وإذ لا يزال بعيداً فإن ناتاريو لم يستطع أن يفعل شيئاً سوى الصراخ، عندما قام الرجل الثاني بتصويب مسدسه إلى التاميراندو وأطلق عليه عدة طلقات: فسقط مربي البقر

وانفتحت في ظهره حفرة تدفق منها الدم متخلياً عنه.. وفي اللحظة نفسها تقريباً وقع القاتل ميتا برصاصة واحدة من بارابللو النقيب. ووصل الناس من كل الجهات، فأخذ كاستور أبدووين الرجل الآخر من ذراعيه وكان قد أفلت من جسد التاميراندو محاولاً النهوض.

عندما رأى نفسه محاصراً وتلقى الصفعات الأولى ركع على ركبتيه وتوسل كيلا يسحبوا روحه، حباً بالله. كان له زوجة وأولاد يعيلهم. لقد وصل إلى هناك مع زميله بأوامر محددة يجب تنفيذها. وكلاهما شرطي أحراج في رئاسة البلدية في إيتابونا: وفي أراضي البلدية كانت تقع البلدة الجديدة أو هي ما هي: توكايا غراندي.

جاءا لينفذا الأمر الذي تمنع بموجبه الحيوانات من أن تسيب في الطرقات. "إن من ينفذ الأوامر ليس مذنباً يا حضرة النقيب. اشفق على فقير مأمور".

أفلتوه في النهاية بعد أن أشبعوه تعنيفاً وسمحوا له بركوب الحمار الذي جاء به. قبل أي شيء جردوه من السلاح وهو بالإضافة إلى المسدس يحمل خنجراً وسكيناً وبيت رصاص – ثم نزعوا عنه ملابسه وتركوه عارياً كما جاء إلى هذا العالم.

على سرج الحمار، ربطوا جثة قاتل البقر، وليودعه النقيب أمر رجل الشرطة المرتعب: – قل لمن أرسلك إلى هنا، في توكايا غراندي، أي رجل من شرطة الغابات لا يضع رجله أو يده. من يقول هذا هو النقيب ناتاريو دا فونسيكا والدليل هو من تحمله معك. لا تنسَ أن تبلغ الرسالة.

5

بعد انتهاء توضيب الأشياء الضرورية لتمضية فترة الوقت المخصصة للمزرعة، جاءت زيلدا لتجلس قرب ناتاريو عند الشرفة. الأولاد، باستثناء نادو، في محل الحدادة، يساعدون تيساو، وكانوا يهبطون ويصعدون السفح وهم يحملون الصرات والصناديق إلى عربة الثيران، وينتظرون عند الأسفل. ظلت زيلدا صامتة لفترة من الوقت، ثم فتحت صدرها وتكلمت:

– إني ذاهبة رغماً عني. تخلَّ عن القرار إذا أمكن.

– لا أدري سبباً لهذا. اعتقدت أنك ذاهبة بفرح. منذ أن أصبح بيتنا جاهزاً فإنك لا تتكلمين إلا عن الحياة في حقول الكاكاو.

– كانت نيتي غير ما هي. منذ ظهور الشرطة هنا فقدت الرغبة. ماذا تعتقد أنهم جاؤوا يفعلون؟

من أعلى المكان، وهو جالس على المقعد عند شرفة دار سكنه، كان النقيب يتأمل في توكايا غراندي. في يوم من الماضي البعيد، وحتى عندما لم تكن المقبرة قد حفرت، قال للعقيد بوافنتورا أندرادي وهو يعلمه بوجود الوادي المجهول: هنا سأقيم بيتاً لي عندما تنتهي الصراعات وتتقيد أنت بالاتفاقية. ثم عاد إلى الزوجة وتأمل في وجهها الذي يبقى بشوشاً بشكل عام، ولكنه في تلك اللحظة بدا مظلماً من القلق. لم تكن زيلدا يوماً قطعة من الجمال ولكنها كانت ذات ملامح ناعمة ولا تزال تلك الملامح بادية على الوجه الضعيف الذي لا يزال فيه شيء من طراوة الشباب: السنوات والأبناء الذين ولدتهم والذين تبنتهم، كلها لم تستطع أن تحطم ذلك الوجه وتقلصه إلى وجه شوهته المسؤولية. حتى في اللحظات الحازمة الخطيرة، في زمن الصراعات، فإن ناتاريو لم يخفِ عنها الحقيقة حين كانت زيلدا تهمل واجباتها اليومية وتتابع أخبار المعارك.

– يمكن ألا يكون الأمر أكثر من نزوة من نزوات الرقيب أو ريجيني يريد بها أن يظهر نفسه، أو من نزوات رئيس البلدية الأستاذ كاسترو.

إن رئيس بلدية إيتابونا ظلَّ يحمل اسم الأستاذ ريكاردو كاستور الذي، منذ عشرة أعوام، وبعدها، خدم الأستاذ الياس دالترو، وانتهى إلى خدمة العقيد بوافنتورا أندرادي وهو يحمل معه سلاحه وحقائبه. إن سلاحه وحقائبه كانت الخدمة والطموح. انتخب وأعيد انتخابه، دون مزاحمة فإن الأستاذ كاستور كونه قبضة حديد كان يرغب في إظهار القوة والسلطة لإحكام قبضته.

– عندما أذهب إلى إيتابونا، سأقول لفنتورينيا ليمسح هذه الإشكالات: في زمن العقيد لم يكن أحد منهم يتجرأ على خطوة كهذه، وكانوا يعيشون في حيّز ضيق، ولكن فنتورينيا يترك الأشياء تمتد وتتسع.

– هل تعتقد أن مجيء الشرطة إلى هنا كان على غير علم منه؟ استعجلت زيلدا في الاستطراد:

– أرى رأيك أيضاً، يمكن أن يكون قد فعل ذلك بنية تعقيد الأمر. وافق النقيب برأسه. من يدري يمكن أن تكون هذه فكرة أوريجينس: إن الأستاذ كاستور كان تافهاً جداً ولا يصل إلى مثل هذا التفكير. وبدت المحادثة كأنها قد انتهت ولكن ناتاريو تابع الكلام. لا يريد أن يضع زوجته، أم أولاده، على علم فقط بنصف المشاغل: إنه مدين لها بالإخلاص مقابل تفانيها من أجله. أحياناً لم يكن يكلمها في هذا أو ذاك من المواضيع ولكنه لم يخفِ عنها يوماً أي أمر حين تفتح فمها لتسأل.

– ويمكن أن يكون الأمر مسألة ذات أبعاد أخرى. يمكن أن يكون هناك شرك خلف عمل الرقيب والأستاذ. إن توكايا غراندي تكبر وتنمو. سابقاً لم تكن ذات قيمة ولكنها الآن موضع حسد وطمع بسبب السياسة والحركة. إن هناك من يريد أن يثبت أقدامه هنا، ولكني لن أسمح بذلك.

وإذ أوضح فكرته، اعتبر الحديث منتهياً:

– اذهبي في رحلتك مع الأولاد.

– لديَّ الرغبة في البقاء.

حاد النقيب بنظره عن المنظر المهيب في ذلك الصباح الصيفي، وألقاه على وجه زيلدا المنقبض:

– هل تذكرين أنك في زمن الحمى كنت تريدين أن تذهبي مع الأولاد إلى الحقول وأنا قلت لا؟ لأنها لم تكن ساعة خروجنا من هنا لا أنا، ولا أنت، ولا الأولاد. وكنا قد بقينا وحتى لو أن البقاء سيكلفنا حياتنا. أنا من يقول: اذهبي وخذي معك الأولاد. في الوقت الحاضر يكفي أن أبقى وحدي.

– أليس من الأفضل البقاء معك؟

– منذ متى نحن معاً؟ قولي. ماذا كنت أفعل من أجل البقاء معك؟ هل نسيت؟ قالها في اللهجة العادية التي لا نبرة عالية فيها ولا توقد كما لو أنه كان يشير إلى أشياء عادية؛ إن قلقه على المرأة التي حظي بها بتبادل الرصاص ظلَّ جسيماً في صدره. كانت حظوته بها قد كلفت حياة رجل سيئ في وسط الطريق العام. وتزوج منها عند الكاهن مستفيداً من بعثة دينية كانت قد وصلت إلى ذلك المكان، وأنجبها عدة أولاد، وهي، غير مكتفية بهم، فإنها كانت تأخذ الأولاد الآخرين لتربيهم كما لو أنهم كانوا أولادها. وكان الجميع من صلبه.

– لقد كنت تبقين دائماً مع الأولاد، وهذا فعل حسن ومستقيم. أنا أعرف كيف أعنى بنفسي، وكما تعلمين كانت مهنتي في الحياة مهنة الشريد المسلح. اذهبي، خذي الأولاد معك، رتبي البيت وانتظريني هناك.

– هل ستتأخر في الذهاب إلى هناك؟

– يمكن أن أتأخر ويمكن أن أستعجل. لديَّ عمل كثير في الحقول ولكن قبل كل شيء يجب أن أذهب إلى إيتابونا لأعرف حقيقة ما يجري.

من أسفل المنحدر كان ضجيج الأولاد يصعد إلى مسامعها وهم ينقلون الحاجيات إلى غرفة الثيران. وجاء بيبا يعلن أن كل شيء كان جاهزاً للرحيل. وهبط النقيب مع زيلدا ليودع الأولاد ويباركهم. ومدّت زيلدا برؤوس أصابعها إلى النقيب فالتقت الأيدي وبحركة رقيقة منه لمس وجه المرأة.

6

كان هدوء الصباح المشمس يغطي توكايا غراندي كأنه معطف سلام. الضجيج هو نفسه ذلك المعهود دائماً، وكان نسيم الصباح يلفح وجه ماء النهر، والنساء يغسلن الملابس وينشدن الأغاني، والبقر تتمتع بأكل الثمار المهترئة تحت الأشجار. كان فضول واقفاً عند باب الدكان، ودورفالينيو ينتشل ماء من البئر وكانت تسمع طرقات المطرقة على الحديد الحار في محل حدادة كاستور أبدووين. وكانت برناردا وكوروكا قد اقتربتا لتتمنيا سفراً سعيداً لزيلدا وتقبلا الطفل نادو.

في المقبرة، كان نعش آخر يوارى التراب، وفي قبر قليل العمق كسائر القبور: إنها جثة التاميراندو، راعي الماعز والبقر كانوا قد دفنوه بجوار ساو متكهنين بإرادته في ذلك.

كانا عاريين بسبب الحر الشديد، في ذلك اليوم، ومنذ بداية الليل: النقيب ناتاريو دا فونسيكا وبرناردا عشيقته، عندما شعرا أن أحداً يفتح قفل الباب ويدفعه إلى داخل الباب الخشبي. يجب أن تكون كوروكا قد عادت من الضفة الثانية حيث ذهبت في زيارة إلى فانجيه. وهكذا فكّر النقيب وأراد أن يسترسل في نومه، ولكن برناردا شكت في الأمر وبجفلة جفلتها انتصبت واقفة. إنها منذ مجيء شرطة الغابات ومجزرة البقر كانت تسير حذرة ويثقل على قلبها عبء، ويسيطر على تفكيرها شيء غامض. في ظلمة الغرفة الدامسة لاح نصف أعلى لرجل كان قد وصل وصرخ:

– جاء اليوم الذي تموت فيه، يا ناتاريو دا فونسيكا، نقيب البراز. – صوب إلى النقيب ولكن من تلقى الرصاصة كانت برناردا التي ركضت مسرعة لتحمي النقيب بصدرها. مزّقت الرصاصة صدرها مخترقة الثدي الأيسر، فوقعت فوق ناتاريو.

في اللحظة نفسها انطلقت رصاصة من جهة الباب وأردت المسلح قتيلاً. إنه الزنجي إشبيريداو، الذي كان قد حضر كساحر، ولكنه لم يدخل الغرفة فظل ينتظر في غرفة الانتظار الصغيرة. كانت برناردا تموت بين ذراعي العرّاب كما تكهنت لها بذلك الغجرية التي قرأت كف يدها في يوم سحيق

في القدم. – يا حبي... – تمتمت وهي تنزف الدم من صدرها وفمها. وللمرة الأولى تقول يا حبي، لحبها الوحيد في الحياة. ورددت مرة ثانية قبل أن ينطفئ صوتها إلى الأبد: – يا حبي...

غطى دم برناردا جسد ناتاريو وأخذ يسيل على ظهرها وفخذيها فرفعها بذراعيه ومددها فوق الفراش وغطاها بالشرشف. الوجه لا حراك فيه، الخدان قاسيان، الأسنان تصطك، العينان غائرتان، خيط قاطع على الشفتين؛ هكذا تأخر ناتاريو واقفاً هناك أمام الجسد. شيء موجع وشيء يستدعي الخوف.

7

– إنه دالفينو، هل تتذكر؟ – قال الزنجي إشبيريداو وهو يدفع جثة القتيل بقدمه.

كان ناتاريو يتذكر جيداً الأبيض الأشقر الذي كان واحداً من الذين أقسموا أنهم سيقتلون النقيب في أزمنة الصراعات والمعارك الدموية السابقة ثم تخلوا عن الفكرة لأن ناتاريو في الصراعات ضد العقيد دالتوميلو، هو الذي غدا يحرس خطوات العقيد بوافنتورا. وفي أحد نزل غيتابونا تواجها مرة أخرى بسبب امرأة ولكن الخلاف لم يؤدِّ إلى نجاح دالفينو في أن يبر بوعده لأنه كان مُتَعْتَعاً بالسكر ولم يكن قادراً على أن يقف على رجليه. كان لسان الشتائم بسبب الكاشاسا قد قلّص التهديدات والقسم بالانتقام، وجاءت إحدى فتيات النزل وأخذته معها إلى الغرفة.

حسن المظهر، فإن دالفينو قد أصبح مرتكباً لعدة جرائم في الكمائن المسلحة ولحساب عدة آمرين. وعندما مات العقيد دالتون وقد أكلته الحمى، راح دالفينو يقتل حتى القرود، ثم تحول إلى قناص يؤجر سمعته ودقة تصويبه لأي واحد يعرض عليه عملاً أو مالاً؛ ثم اختفى، فظنوا أنه مات في داخل جاكيبي، من حيث جاء وإلى حيث رجع. وها هو يظهر من جديد في توكايا غراندي، وقد قرّر تصفية ناتاريو. تصفية حساب تهديدات قديمة وثأر بعد مدة متأخرة إلى هذا الحد، مسألة صعبة التصديق. لقد تمّ التعاقد معه للقيام بالعمل في خدمة أحد على علم بصك الملكية وعادات النقيب ومعاهداته وغرامياته.

– إن تاكاراس هي هكذا بقتلتها، وكل يوم تصلها دفعة من هؤلاء قادمين من إيتابونا. – وتابع إشبيريداو: – إذا أردت أن تعرف السبب فأنا أقول لك: إنهم يجمعون صفوفهم لمهاجمة توكايا غراندي.

إذ كان قد استغرب تدفق تلك الزمر من المستزلمين في محطة تاكاراس فإن إشبيريداو فتّش عن معرفة سبب هذا التلاقي بين الواصلين والذي يثير الفضول. منذ زمن بعيد لم تكن تشاهد هذه الأعداد من حملة البنادق مجتمعة دون سبب معلوم لأن السلام كان قد شاع في ملكيات العقداء، والأراضي اقتسمت بين الوجهاء والسياسة تسير بتفاهم، والانتخابات لا تزال بعيدة. وخرج إشبيريداو لالتقاط الأخبار: لماذا يتجمع في تاكاراس هذا العدد من المستزلمين وبينهم أصحاب شهرة مخيفة مستحقة؟ كلهم مسلحون حتى الأضراس، والمال فائض في جيوبهم؟ وفي نزل الدعارة كانت الكاشاسا تسيل كما يسيل النبع.

أغلبية المدعوين لم تكن على علم كثير سوى أن دعوة قد وجهت إليهم من قبل أوريجينس للقيام بعمل يمكن أن يعود عليه بأرباح كبيرة مع التأكيد بأن وظيفة في الشرطة العسكرية وحسب تصرف الشخص يمكن أن تعطى لمن يبلي البلاء الحسن. إن الانتساب إلى الشرطة العسكرية مع الحق الذي يلازمه، هو طموح أغلب المستزلمين العاطلين عن العمل: في تاكاراس، مكان اللقاء، سينقلون التوجيهات في ساعة الصفر. واحد أو آخر، مع ذلك، كان يعرف أكثر من الآخرين، وتردد اسم توكايا غراندي بالنتيجة عدة مرات. بينما دالفينو في نزل مارا وقد تعتعه السكر طلب أن توكل إليه مهمة خاصة تسبق تحرك المستزلمين. إن مهمة صعبة ستسمح له بأن يستعيد مكانته السابقة.

وانتهى بالإشارة إلى اسم النقيب، وابتدأ من هنا؛ فإن إشبيريداو لم يعد يغفل عنه لحظة، ووضع نفسه في إثره يرافقه خفية ويراقب من بعيد لقاء القاتل – بالآمر شيكو رونكوليو مساعد آمر شرطة إيتابونا الذي وصل في القطار، وهو يحافظ على المسافة حتى لا يشاهد. ثم اختفى أثر دالفينو عندما اتخذ الأخير الطريق باتجاه توكايا غراندي. وما تبقى من الحبكة يعرفه الصديق ناتاريو.

كان الزنجي إشبيريداو قد تأسف فقط على عدم إطلاق الرصاص وقتل المستزلم التعيس قبل أن يقتل برناردا، ولكنه من الباب لم يستطع أن يميز جيداً داخل الغرفة، وعلى الأخص أن الظلام كان كثيفاً. خاف أن يصيب الصبية أو ناتاريو، ولم يستطع أن يفرغ سلاحه إلا على ضوء طلقة دالفينو.

إنه أمر محزن موت برناردا: كانت في نظره الفتاة الأجمل في أراضي نهر الأفاعي؛ ولا واحدة تضاهيها جمالاً؛ "طبعة جديدة".

كان لجاسنتا الملقبة بكوروكا متسع من الوقت، ولكنها في النهاية بدت عجوزاً منتهية كأن السن والتعب قد هبطا عليها مرة واحدة وبشكل مفاجئ؛ جثت على ركبتيها أمام سرير موت برناردا وهي تحدق في وجهها. سرير الموت، على فراش كانت تمارس عليه المهنة خلال سنوات عديدة، وخلال كل تلك السنوات كانت امرأة لرجل واحد، هو العرّاب.

إن برناردا هي فليونة كوروكا مرتين. كانت كوروكا القابلة يوم ولدت برناردا، وكانت العرّابة يوم معمودية البعثة الدينية. أكثر من كونها فليونة، فهي ابنة، لأنهما عندما التقيا فإن كوروكا تبنت برناردا، وكانت الأخيرة لا تزال طفلة يحفر فيها الألم: كانت أمها مقعدة في الفراش، فنمت مع شقيقتها في الجوع والبؤس. لو كانت برناردا ابنتها بالولادة لما كان ممكناً أن تحبها أكثر.

خلال تلك السنين، سكنت الاثنتان في الكوخ الخشبي الذي أمر النقيب ناتاريو ببنائه، فلم تسمع كوروكا كلمة سيئة، ولم يبدر عن برناردا أي عمل قاسٍ تجاهها، ومن أي نوع كان، ولم يظهر بينهما أي شك أو عدم ثقة في يوم ما. يا إلهي، كيف سأكون من الآن فصاعداً؟

حنت كوروكا رأسها، لا تريد أن تفكر.

لم تعد تفكر في شيء، لم تعد تتذكر الماضي، والأحداث والمحادثات والمشاريع وساعات الفرح والحزن، والمخاطر والأحلام، والأعياد. كانت ناشفة وفارغة كما لو أنهم انتزعوا قلبها وأحشاءها بخنجر مسنون. غسلت جسد برناردا وألبستها، وسرحت شعرها السابل وعلقت في أذنيها الأقراط التي كان العرّاب قد أهداها إليها.

رويداً "رويداً" السكان يتوافدون إلى الكوخ. وأغلقت فتيات الهوى أماكنهن حداداً.

9

أقول لكم بصمتي: في الأزمنة السابقة، في هذه الأرض التي تنمو فيها أشجار الكاكاو، الأجمل والأغنى من كل بقاع العالم التي تزرع وتحصد، كان هناك التزام بكلمة العهد، وشرف في التعامل، ولم يكن ضرورياً استعمال الورق الموقع أو تقديم الوثائق. كان لدى المواطنين، الأغنياء منهم والفقراء، العقداء والمستزلمين، نيَّة صادقة، محترمة، وشريفة. وكان ثمن الخيانة الموت.

أشياء كثيرة تبدلت، من الخارج والداخل، وفي الماضي عندما كانت الطرقات تعج برجال القبضات النبيلة، والثقة بين النبلاء والرجال الشجعان كان المال ثميناً موثوقاً. الآن من يأمر فأناس آخرون؛ كان ناتاريو كحجر لا يفصح عن أفكاره المرة ولا يعكس وجع غياب من كانت حبيبته وتكاد

تكون ابنة بالمعاملة الطيبة. ولكن الجميع كانوا يعرفون خطبته دون أن يلقيها، يعرفونها عبر صمته الضاج.

ليحدث ما حدث، فهو سيشرف كلمة العهد، الكلمة المضمرة وسيتقيد بالاتفاقية التي وقعها في سفرة الاشتباكات والأحداث، الصغيرة منها والكبيرة، المباركة والملعونة؛ إنها المعاهدة الموقعة مع الحياة.

10

سمع إشبيريداو، هنا، وهناك: على المقاعد الخشبية في محطة سكة الحديد، وفي دكاكين الكاشاسا الصاخبة، ونزل الفتيات المليئة بالفرح، سمع شائعات، وحكايات، وقال قائل ما قال، عن الحركة الصاخبة في البلدية، وفي المكاتب الحكومية، وفي دابريوزا، والسجن، وشوارع إيتابونا. إن ما هو في طور الإعداد، إذا صدق اللفظ، يدل على أن هناك استعدادات متباينة ومتنوعة.

إشارات عديدة ولكن غامضة، لا تكفي للوصول إلى استنتاجات دقيقة. وفكّر النقيب في الذهاب إلى إيتابونا ليعرف تفاصيل ما كان يتعاقب من روايات فيضع كل شيء في صحن نظيف. ولكن الثلاثة الباقين، وبعدهم جاءت كوروكا أيضاً وهي ذات نصيحة مخلصة، نصحوا النقيب بعدم الذهاب، لأن مثل هذه السفرة خطيرة حيث يجب الاحتراز! إنها شبيهة بالارتماء أمام العدو، مغلول الأيدي ومكبل الأرجل.

وفي رأي إشبيريداو الأكبر والمتوازن أنهم إذا كانوا قد أرسلوا قاتلاً إلى توكايا غراندي ليقضي على ناتاريو، فسيكون عند كل ركن من إيتابونا لص قاتل بانتظاره، في كمين. وافق فضول عبد الله وكاستور أبدووين بالإجماع وكان إشبيريداو قد كلّف ابنته – المعلمة أنطونيا التي كانت تقيم علاقات مع الجميع وتستحق الثقة والاحترام من أصحاب العيون المرتمية عليها – كلفها بالحصول على كل المعلومات وإرسالها إلى شخص خاص مكتوبة باليد. والكتابة واضحة، وبأحرف جميلة؛ لم يكن هناك اثنتان بل معلمة واحدة هي أنطونيا.

ومع كل ذلك، لم يذعن النقيب للأمر لولا وصول السيد كارلينيوس سيلفا إلى توكايا غراندي. كان في إيلايوس لتقديم التقرير الشهري، وكان قد جاء بأنباء أكيدة وأمر سريع أمر به كورت كويفمان، شخصياً، لتفريغ وإقفال مستودع الكاكاو والرجوع بكل شيء إلى مقر الشركة العام.

11

توقفت فانجي أمام مدخل الشرفة في بيت النقيب ناتاريو دا فونسيكا ومعها أولادها الثلاثة: جواوزي وإغنالدو وأوريليو.

– عن إذنك يا نقيب، أريد أن أتكلم معك.

كان النقيب جالساً على مقعد خشبي ينظف مسدسه "البارابللو" ويتحدث مع فضول وتيساو. الأسلحة المكومة في غرفة الاستقبال عند أسفل الغرامافون استرعت انتباه السرجيبية.

– تفضلي بالجلوس يا خالة فانجي – وأشار ناتاريو إلى المقاعد الفارغة: – وأنتم أيضاً. توجد أمكنة للجميع.

إن جواوزي قد عاد من تاكاراس بعينين زائغتين، وأذنين مليئتين بما شاهد وسمع. كان قد ذهب إلى المعرض برفقة أخيه أوريليو، وأخذ معه على ظهر الحمار حمولة من الدجاج البياض والفواكه والخضار، وعاد مرتبكاً مستنفراً وبمشية وئيدة. كان قد شاهد حركة المستزلمين وهم يسيدون ويميدون في المعرض، وسمع دمدمات ودندنات أزقته.

– يا حضرة العقيد، هل تعلم بما سمعه جوازيه في معرض تاكاراس؟ لقد أخبرنا ولكني لا أصدق أن ما أخبره يمكن أن يكون حقيقة.

ذهب النقيب يفتش عن أقداح ليقدم الكاشاسا إلى الواصلين الجدد.

– تفضلي بمتابعة الكلام يا خالة فانجي، إني مصغٍ إليك.. وقبل أن يجلس، زاد الكمية في قدحي الزنجي واللبناني وفي قدحه. ووضع الزجاجة عند متناول يده.

– نعم، إنهم يقولون عنا مجرمين، وأننا نحتل أراضي الغير دون استئذان صاحبها.

– أجل هذا ما سمعته – أكد الابن: – يقولون إننا لصوص أراضٍ. وأخذت فانجي الكلام من جديد:

– إنهم سيطردوننا وأن أصحاب الأرض سيصلون قريباً.

– ويرافقهم مستزلمون... – أوضح جواوزي.

– مع المستزلمين. – أراد جواوزي الاعتراض ولكنهم أكدوا المقولة: إن القانون هو الذي سيصل. كونه مكاناً متخلفاً لم يكن هناك من قانون ولكن سيكون هناك قانون. هل صحيح؟ قل لي يا نقيب، إني فقط أؤمن بما تقول.

وضع النقيب ناتاريو فونسيكا "البارابللو" على المقعد وتأخر نظره إلى وجه العجوز السرجيبية المرتبك، ثم ارتشف بلعة كاشاسا وبيده مسح فمه:

– هناك أناس يريدون هذا، يا عمة فانجي. وإذا تركناهم فسيفعلون.

– وضح يا حضرة النقيب؛ إني لم أستطع أن أفهم.

الإخوة الثلاثة، ومعهم فضول وكاستور، كانوا يتابعون الحوار بين النقيب والعجوز وهم صامتون، يتلمظون بالكاشاسا بلعات صغيرة. كان هناك ضغط نفسي واضح وقوي يكاد الواحد يكون قادراً على تبينه بيده. بصق جواوزي بصقة كبيرة إلى خارج الباب.

– منذ كم سنة وصلت إلى هنا مع المرحوم إمبروزيو وعائلتك؟ أجيبيني إذا كان للأرض آنذاك سيد أو إذا كانت مشاعاً؟ وصلتم إلى هنا ونظفتم الحقول وبدأتم بزراعة الذرة. هل كان أحد يدعي أنه سيد الأرض؟

– لم يظهر أحد قط.

– ولا يمكن أن يظهر، لأنه لم يكن هناك من مالك. منذ كم سنة؟ الآن وقد غدت الأرض نظيفة ومزروعة وفيها بيت طحين وأنتم تبيعون هنا وفي تاكاراس، فقد وضعوا أعينهم عليها. ألم تري بعينيك عملية الشرطيين؟ لمن كانت الأبقار التي قتلاها؟ ألم تكن تخص التاميراندو؟ وقتلاه أيضاً. هل هو القانون الذي يجب أن نطيعه؟

فتح إغنالدو فمه، وتمكن من القول منفعلاً: القانون.. براز.. ولكن الأم لم تدعه يكمل:

– انتظر يا بني. يا نقيب، قلت منذ برهة إنهم سيهتمون بالأرض إذا تركناها، أليس كذلك؟ – وكررت رغبتها في الحصول على المعلومات: – إذا تركناها؟

هذه هي الحقيقة يا عمة فانجي. إن الرجال في إيتابونا قد حاكوا مؤامرة ويقولون إن لهذا المكان المقفر الذي سكناه سيداً، وأن سيده كان يملكه قبل أن تأتي إلى هنا. إن هذه الأراضي على ضفتي النهر، حيث شجيرات الكاكاو التي زرعتموها مع زي دوس سانتوس، والتاميراندو والسيدة ليوكاديا، وحيث تقع بيوتنا، والبيوت التي جرفها الطوفان وعدنا فأقمناها من جديد. هذه الأراضي التي تملكونها ونملكها يقولون إن لها سيداً منذ كانت، وهذا مكتوب ومسجل في دائرة العقارات ولم يعد لنا إلا أن نوافق.

– نوافق على أخذهم الأرض التي تخصنا؟

– انتبهي جيداً يا خالة فانجي. انتبهي إلى ما سأقوله. وأنتم أيضاً يا جواوزي، إغنالدو وأوريليو. فإما أن نقول بأن هذا صحيح ونتفق معهم: وإما أن نقاتل للدفاع عما نملكه.

– هل يستحق الأمر العناء؟ بصق جواوزي من جديد: – لم أرَ في حياتي مستزلمين بهذا العدد...

– إن القتال سيكون بشعاً... ونظر النقيب إلى السرجيبين بعينين نائستين، وخفض صوته: – من الأرجح أننا سنخسر المعركة.

ومع ذلك، فإن جواوزي، كان من الرأي الذي اعتبر أن المسألة تستحق العناء وكذلك فضول والصديق تيساو فكرا في الأمر. لقد قرروا شراء القتال.

وطال التأمل في وجه العجوز، ذلك الوجه الذي وشمته الحياة بوشمها.

– إن من صنع توكايا غراندي هم أنتم يا خالة فانجي، وكذلك إمبروزيو والتاميراندو، والطيبة ميرنسيا، والذين يرقدون الآن في المقبرة. هل أنا كاذب؟ ما دمت حياً فلن يستغلنا أحد.

أراد إغنالدو أن يقاطع، ولكن النقيب قام بحركة طلب فيها الصبر.

– سأنهي كلامي يا إغنالدو، وبعدها تتكلم. كل واحد حر في أن يفعل ما يريد يا خالتي. أنت وأولادك أحرار. تتفقون، أو تغادرون للرجوع، أو نهائياً، أو تمكثون وتواجهون.

– بالنسبة لي أعرف ما أقول. لن يكون الأمر كالمرة الأخيرة.. – انفجر إغنالدو بالصراخ.

أخذت فانجي الكلام، ولم تبدل من صوتها:

– هل تتذكر يا نقيب عندما التقينا على الطريق آتين من سرجيبي؟ كانت تلك المرة الثانية التي حصل فيها ما حصل لأرض والدي. إني أفهم تفكير إغنالدو، وهو لم ينسَ بعد. لا أعرف ما يفكر فيه الآخرون، وكل واحد يعرف نفسه. ولكني أستطيع أن أقول لك يا نقيب ناتاريو، لك أنت الذي كنت أباً لنا: من هذه الأرض التي كانت غابة وحشية عندما وصلنا، لن أعطي لأحد لا النصف ولا الثلث. لن أعطي أحداً. لن أخرج منها إلا جثة. أما الآخرون فلا أعلم.

– نحن نفعل ما تأمرين به يا أمي. وقف جواوزي لأنه لا يستطيع أن يترك الشجر المثمر في الإهمال.. دعينا نعمل.

– يكافئك الله يا نقيب – قالت فانجي ولحقت بأبنائها.

لكن أوريليو، الأصغر سناً. الذي لم يكن قد تلفظ بكلمة واحدة خلال اللقاء، تطلع إلى الوراء.

– هل تدبر لي سلاحاً ما يا حضرة النقيب؟ في البيت لا يملك أحد سلاحاً غير إغنالدو ولست سيئاً في التصويب.

12

هو القانون أيها السيدات والسادة. بعصا الطاعة الغليظة، وفوهات المسدسات وعلى ألسنة حملة البنادق يعلن القانون عن وصوله. ها هو القانون يصل بعد الطوفان والطاعون.

من أراد أن يذهب فبإمكانه الذهاب، يتخذ سكة، ويدرك طريقاً عريضاً، أو يبقى بعيداً بانتظار أن ينتهي الصراع، فيعود بهدوء، بصوت خفيض، ليتلقى الأوامر ويطيع نظام الآمرين، من أراد يستطيع أن يقود ويضع قدميه في مهماز ويجهز حاجياته ويفر. لم يعد من مكان في توكايا غراندي للعاجزين العاطلين.

بعدما قرّر ما يفعل، وقبل أن يتخذ الاحتياطات النهائية فإن النقيب ناتاريو دا فونسيكا، قائد المستزلمين سابقاً، المقاتل المر، مرة يرافقه كاستور، وأخرى فضول، ومرات الاثنان معاً، راح من بيت إلى بيت، على ضفتي النهر، وشرح لكل مخلوق هناك الذي كان يجري وما الذي سيجري.

للكثيرين منهم، ولمعرفته بهم، أعطى النصيحة بالحذر واستحثهم على الفرار. إذا كانت تنقصم الشجاعة فإن لديهم أسباباً أوجه من الخوف لكيلا يحملوا السلاح ويقاوموا. كان الأمر أصعب بكثير من مواجهة الفيضان. إن القانون، أيها السادة، هو أشد فتكاً من الطاعون.

فقط يستحق الأمر العناء بالنسبة إلى أولئك الذين كانوا قد تعاهدوا وقرروا أن يشرفوا معاهداتهم. معاهدة مع الله، مع إله الموارنة الصالح، هو وضع فضول عبد الله، ومعاهدة مع الحرية كانت معاهدة كاستور، ومعاهدة مع الأرض التي تكتسب بعرق الجبين كما هو شأن السيدة فانجي. وفي حالة كوروكا هي معاهدة صارمة مع الحياة. وأما شأن النقيب ناتاريو دا فونسيكا فهو شأن من انتزع القيادة والسلطة وتعهد بموجبات يجب أن يلتزم بها.

13

في الليلة الأخيرة من تلاحق الأمور. ظهر إله الموارنة في الحلم لابنه فضول عبد الله كما حصل سابقاً في عدة مناسبات مختلفة؛ كان الاثنان يعيشان بتماس متواصل، ويتبادلان الانطباعات حول الأحداث، وكان العربي يشكر أو يطالب، وفقاً للظروف، ممجداً العناية التي يحيطه بها السيد أو

متهماً إياه بعدم الانتباه والخفة في تحمل المسؤولية. بظهوره المجيد – غيمة كبيرة قد اتخذت شكلاً إنسانياً للتحدث مع فضول، شكل عملاق عتيق ذي لحية طويلة وشعر مشعث أسود، فإن الإله الطيب قطع على فضول ليلة كان الأخير قد بدأ يفكر فيها بالأرملة يسرى راموس رباط، التي غدت الآن متزوجة، ومنذ فترة، بعد وصول أحد المواطنين اللبنانيين الواصلين حديثاً، الذي مع مسؤوليته التي تنكبها في محلات الأثاث الشرقية فقد تنكب مسؤولية القرنين اللذين حملهما سابقاً المرحوم خليل. بعد ذلك وضع فضول عبد الله على اللائحة شقيقتين وكلتاهما متزوجتان ومتفتحتان، ومعهما بدأت علاقات كان الشيطان يسهلها له ليورطه مع فتيات ثريات ووريثات كبيرات بغية إبعاده عن توكايا غراندي. كانت الاثنتان شقيقتين لأدما البشعة كالحاجة، السيئة كالكلب، وكاد أن يتزوجها. قصة وقعت في بداية تحول توكايا غراندي إلى دسكرة، ولكنها قصة مختصرة في تاريخ توكايا غراندي لأن أحداثها وقعت في إيتابونا. وكان يمكن أن تكون ذات وصف فضولي ممتع مع أشخاص معروفين مثل فؤاد كرم ووجوه أخرى كأديب بارود خادم المشرب المذهل، مثلاً – ولكن الوقت قد تأخر كثيراً لإعادة روايتها.

وليستكمل متعة الأحلام في تلك الليلة من الوحدة، فإن الصبية أروزة التي اختفت من السرير الواسع ومتعه، منذ أن أوصلها أحد الخريجين إلى حيث لا يجب أن تصل، فإنها ظهرت له شبيهة بزيزينيا دو بوتيا المتعة بلا نهاية. في الليالي الأخيرة، عندما كان الانتظار طويلاً وبطيئاً، فإن زيزينيا رافقته باستمرار.

دقّ إله الموارنة الصالح على كتفه، وأخذه من ذراعه ساحباً إياه من عالم النساء ليحذره من الخطر المحدق به والمقترب من توكايا غراندي. فتح عينيه، فتحول إلى دورفالينيو، محاسب الدكان، الذي أعلمه، متوقداً:

– يا سيد فضول! إن الرجال قد وصلوا يا سيد فضول!

سيطر عليه هيجان غير معتاد: إنه شخص يمتاز أكثر ما يمتاز بالحركة الدائمة، فتأمل كيف هي حاله الآن. وقف فضول منتفضاً.

– كيف عرفت؟

إنه السيد بيدرو سيغانو من قال لي ذلك. إنه في المحل يريد أن يتكلم معك ومع النقيب. ولكن النقيب ليس في البيت.

وبينما كان يغسل وجهه في الحوض، طلب اللبناني تفاصيل، ولكن دورفالينيو أخبره بالقليل الذي يعرفه:

– إن السيد بيدرو التقى بهم آتين إلى هنا. اختبأ ولحق بهم إلى أن اقتربوا من المكان.

كان الخادم "اذهب بهذا وعد بذاك" يفرك يديه ثم يشد على خصيتيه ولا يستطيع أن يخفي عصبيته. وانتهى فضول من تنشيف وجهه:

– إنك ستذهب اليوم بالذات.

– أنا؟ أذهب إلى أين؟ أتطردني؟ ماذا فعلت؟

– ليس الأمر كذلك. أنت لم تفعل شيئاً. أنا لا أريد أن تبقى هنا. لا أريد أن تحملني خالتك غداً المسؤولية إذا ما حدث لك شيء.

ضحك دورفالينيو في وجه معلمه:

– إن خالتي زيزينيا عندما أرسلتني إلى هنا قالت يا لينينو، هكذا تناديني، ستبقى مع السيد فضول، وتهتم به، ولا تبتعد خطوة عنه لأن هذا اللبناني طفل كبير يعيش حياته كلها بالمجازفات، ومجازفة أكبر من هذه التي نعيشها الآن لا يوجد. كيف تريدني أن أذهب؟ ماذا ستقول خالتي عني إذا ذهبت؟

نظر بجدية إلى المعلم، جازف بالكلام، ووضع رأيه فوق كل تلك التفاصيل التي كانوا يرددونها:

– سترى يا سيد فضول أننا سنموت بين أيدي هؤلاء القتلة. لن يبقى أحد منا حياً، وسوف ترى.

14

مرتفقاً إلى لوح المشرب، كان بيدرو سيغانو، وعلى حسابه الخاص، يتناول جرعة الصباح ليغسل فمه. كان قد أمضى جزءاً كبيراً من الليل وهو يضرب في الغابات جاداً وراء حركة المستزلمين الآتين من تاكاراس بمسيرة ثابتة الخطو.

عادة آلية هي عادة فضول في قلب البقية الباقية في زجاجة الكاشاسا إلى جوفه. رفع كتفيه، والوقت لم يكن ملائماً للمطالبة. من المحتمل أن يكون دورفالينيو على حق ولن يتمكن من الخلاص، في حالة الحرب التي يعيشها تسقط كل تفاهات التجارة. واكتفى بالتحدث بثقة عالية بالنفس.

– لقد اخترت ساعة غير مناسبة، سيئة الطالع، للمجيء إلى هنا. إنها أسوأ لحظة للمجيء.

– لماذا يقول الصديق فضول شيئاً كهذا؟ هل أزعجتك بشيء.

– من يعرف السبب أكثر من سواه هو أنت، أنت الذي رأيت المستزلمين، قادمين، ألم ترهم؟ إنهم قادمون لمهاجمة توكايا غراندي، ألا تعرف هذا؟

– وهل تأخرت يوماً قل لي: من الذي كان هنا عندما قلب مانزينيو وشيكو سييرا جانجاو كل شيء رأساً على عقب؟ وأثناء الطوفان، من الذي خرج تفتيشاً عن سيسرو مورا وساو المسكينة؟ وأثناء الطاعون من الذي ذهب ليأتي بالدواء؟ لست ممن يجبنون يا صديقي فضول، فكيف أكون ممن يهربون في اللحظة الحاسمة. اسأل النقيب، فهو الذي يعرفني من زمان.

وضع الكأس على لوح المشرب.

– ما رأيك لو أننا ذهبنا لأكلة نكسر بها جوعنا؟ إن الكيس الفارغ لا يبقى واقفاً. ونحن بحاجة إلى ملء مِعَدِنا قبل أن ترتفع الحرارة، وسلم الهرمونيكا إلى اللبناني: احتفظ بها رجاء، فسوف نحيي حفلة بعد المعركة.

15

رؤية الأنباء التي جاء بها بيدرو سيغانو، تطابقت مع ما هو في رسالة المعلمة أنطونيا التي أرسلتها مع أحد تلاميذها ويدعى لازينيو ابن لورانسيو مسؤول المحطة.

وإذ كان معتاداً على المجيء بالرسائل والبرقيات إلى العقيد بوافنتورا أندرادي في مزرعة أتالايا فإن الغلام وقد امتطى حماراً سريعاً سبق المستزلمين في الوصول إلى توكايا غراندي جاعلاً اتخاذ الاحتياطات أمراً ممكناً، احتياطات ملحة ولكنها ليست دائماً ممكنة. لم يكن سهلاً إقناع الزنجي إشبيريداو، بالذهاب إلى مزرعة بوافيشتا، ولكنه قرّر أن يقوم بذلك عملاً بصداقته مع ناتاريو الذي توسل إليه أن يحافظ على زوجته وأولاده ليتمكن، هو النقيب، أن يتولى القيادة باطمئنان دفاعاً عن توكايا غراندي. عندما حدثه النقيب بهذا الموضوع كاد الزنجي أن يزعل:

– إلى المزرعة؟ هل جعلتني، يا ناتاريو، أهرب من هنا، الآن، وأتحول إلى عجوز جبان؟ لست أنا من يفعل هذا.

– وهل في هذا العالم من يستطيع أن يعتبرك جباناً؟ تعجب النقيب إلى حدٍّ أنه انطلق في الضحك، وهذه مسألة لا تحدث معه إلا قليلاً.

– اطرد هذا التفكير من رأسك، وأصغِ إليَّ رجاء: وضع يده على كتف الزنجي بحركة عطوفة، ليقنعه بصورة أفضل: لماذا جئت إلى هنا؟ ألم تأتِ بسبب توكايا غراندي، ألم تأتِ لأننا كأخوين؟ هل أنا مخطئ؟

– إنك تقول الحقيقة؟

– إذن افهم جيداً. إنك تساعدني أكثر إذا ذهبت لتعيش مع زيلدا والأولاد، وليس عندي سواك أثق به لمساعدتي عند الحاجة. ما لا ينقص هنا هم الرجال التافهون.

لم يعطِ ناتاريو الوقت لإشبيريداو ليفكر:

– إذا ظهر أحدهم هنا فإن له رصاصة أولاً ثم أرسل ابني بيبا ليعلمني.

وبيده الموضوعة على كتف الزنجي، أسر إليه برغبته:

– بالرغم من أنني أردت لابني إيدو أن يذهب معك، ولكنه لم يشأ حتى أن يصغي إلى ما أقول. إني لم أعصِ أبداً أوامرك يا أبي ولكنها ستكون المرة الأولى في عصياني لشيء تقوله – كان يردد بقلق واعتزاز، راضياً عن تمرد ابنه.

– يجب أن يكون كذلك، لأنه ابنك.

سحب ناتاريو يده عن كتف إشبيريداو وأهمل مرة أخرى تماسكه المعتاد، وأخذه بين ذراعيه. منذ أن ماتت برناردا، كان النقيب قد بدأ يظهر بشكل آخر.

– قل لزيلدا أن تنتظر هناك، وألا تخرج من المزرعة مقابل أي شيء في هذا العالم؛ انتبه إلى الأولاد وانتظرني.

16

أصعب من ذلك كله إقناع الزنجية إبيفانيا بالخروج إلى مزرعة سانتا ماريانا، في أعالي مرتفعات نهر الأفاعي، وهي تحمل توفو "فليون" السيدة إيزابيل والعقيد روبستيانو دي أراجو.

ابن شانغو إله الحرب، تيساو أبدووين، وكان فيه جانب من أوشوسي هو الصياد، وآخر من أوشالا الأب الأكبر. وكانت في إبيفانيا من أوشون سيدة النهر والفتنة، وكونها ملكة فإنها لم تكن تقبل بتلقي الأوامر من كائن فانٍ أياً كان.

عند الفجر، قبل شروق الشمس على السكان والمستزلمين، فإن حادي الحمير دعا ريسو لمساعدتهم وتقديم الضحية، ضحية الدم إلى إيبو: ضحوا بأربعة ديوك وخصصوا واحداً منها إلى

يمنجا سيدة وحامية المرهفة ديفا.

صعدت يانسان إلى صهوة الجواد، ورقصت ريسو رقصة الحرب، وانطلقت إلى المعركة، وعادت في طليعة الموتى وفتحت الطريق لإيجون وإشيشيه.

ارتعد الزنجي، غطى عينيه بيده، مضطهداً، هرباً من مكان إلى مكان، وفمه أحمر من دم الديك الذي قدم للإلهة يمنجا.

وعصفت الريح بصورة غير متوقعة، وهبطت من السماء غيمة تحولت إلى كيان، كانت إلهة المياه، سيدة المحيط، السيدة جاناييا التي أخذت الطفل بين ذراعيها ورفعته إلى أعلى، وأرته للجميع قبل أن تسلمه إلى أوشون، ثم غنّت للفرح والحياة.

إنها أوامر إيجون، وإبيفانيا لا تستطيع سوى الطاعة. امرأة عراك وإقناع، قاسية في المكابرة، لم تشاهد عيناها أبداً تذرفان الدموع، ولم تحمل شفتاها أبداً تعبير التشاكي. حاولت إبيفانيا المقاومة، فلم تستطع، لأن إيجون كان يدلها على طريق الحياة بإصبعه النحيل، وكما فعل سابقاً، سلمها الصفة وفرض القرار.

انطلقت إبيفانيا باكية، ومن رآها تبكي لم يصدق. ورافقها الكلب ألما بينادا لمسافة قصيرة من الطريق ثم عاد لينضم إلى صديقه الذي كان قد شهر السلاح.

عند الوداع، ضمّ تيساو الطفل إلى صدره: قولي للعقيد ليجعل منه رجلاً.

17

حوالى الساعة الحادية عشر صباحاً، أعلن القانون عن حضوره بشخص إيرينيو غوميز، رئيس القسم الجنائي في المحكمة – المكتظة بالمعاملات في إيتابونا. وصل إلى توكايا غراندي يرافقه جنديان من الشرطة العسكرية ليثبت وجود السلطة، ويفرضها إذا أمكن. كان الجنديان مسلحين حتى الأضراس، وإيرينيو يظهر على زناره مسدساً بهي المنظر، محرقة ناره.

ودون أن يترجل عن مطيته، وعلى جانبه المؤجران الاثنان، فإن ضابط قصر العدل أعلن في المحلة العامة أو نقل إلى الحقل، أمام المذبح الذي شيّد للبعثة الدينية، عن القرار الذي أصدره القاضي، قاضي الحقوق المدنية، والذي تمّ نشره في مجلة "الأسبوع الريفي" وتوزيعه مع الرياح الأربعة.

إن القرار يأمر مواطني توكايا غراندي بإلقاء السلاح وإعادته إلى السلطات العليا التي يجب تسليم أنفسهم إليها ووضعها في تصرف العدالة، والامتثال للتحقيق في جريمة قتل شرطي الغابات، والظهور أمام اللجنة التحقيقية للمتهم ناتاريو دا فونسيكا الذي صدرت في حقه مذكرة توقيف وإيداعه السجن.

وإذ انتهت الخطبة العلوية، وبين هزء وضحكات الموجودين بدأ إيرينيو غوميز بالانسحاب. وقام بذلك بهدوء. ولكن السكان المجتمعين للإصغاء اكتفوا بتجريد الثلاثة من أسلحتهم. أما السكان الأكثر انفعالاً فقد أرسلوا القانون إلى المرحاض... والقاضي إلى بطن العاهرة التي خلفته...

18

تبودلت الطلقات الأولى عند الساعة الثانية بعد الظهر، في مخزن الطحين على حدود بساتين زي دوس سانتوس والعجوز فانجي، والطلقات الأخيرة بعد منتصف الليل عند بيت النقيب ناتاريو في أعلى القمة لدى صعودهم المنحدرات. تكدست الجثث كما لو كان سياج البيت قد تمّ تشييده بمجموعة من المقاتلين الأشاوس. كانا يساويان كتيبة كاملة ولكنهما لم يكونا غير اثنين كمنا وراء جذع مولونغو.

المحاضرة، والهجوم والاحتلال دامت عشر ساعات وعشرين دقيقة، وكلها معدودة ثانية ثانية بساعة النيكل التي يحملها الرقيب العصبي أوريجينس. بين الثالثة والرابعة أو لنقل بين مذبحة السرجيبيين والهجمة الثانية التي قادها شيكو رونكوليو، حدث وقف لإطلاق النار. استغل الجميع وقف إطلاق النار، المهاجمون ليكملوا إعدادات الحصار، والسكان لدفن موتاهم في قبور مفتوحة على عجل والتي كانت الأخيرة من القبور الفردية التي تمّ حفرها. بعد ذلك لم يعد هناك وقت لدفن أحد. وأما الحفرة، في اليوم التالي، التي تمّ فيها دفن جميع القتلى من الفريقين فقد تمّ حفرها بواسطة أصحاب الحظوظ.

لدى توظيف المستزلمين في إيتابونا، فإن المعدين للمخطط وعدوا بحفلة فوق العادة، واحتفال لا مثيل له، ولمحرقة لا نهاية لها في العيد الاحتفالي بالنصر.. وبسبب قلة الفتيات، فإن المتعة اقتصرت على الأكل والشرب، وماذا يفيد الأكل والشراب دون حيوية الفتيات؟ وحدهن قادرات على إحياء القلوب وإشعال الحمية لدى المتعبين من القتال؛ أبعد من ذلك لم يكن هناك إلا نهب الدكان الذي سيكون وفيراً؛ في بيوت السكن لم يحصلوا إلا على أشياء لا قيمة لها. الذين كانوا قد تركوا

توكايا غراندي قبل وأثناء الهجوم أخذوا معهم ملكياتهم على ظهور حمير القوافل المحملة... ومن حسن الحظ أن ماكينة خياطة السيدة ناتالينا كانت يدوية، وكانت قد حملتها فوق رأسها حين غادرت المكان.

لا مجال لإضاعة الوقت في الكلام عن الذين، جبناً أو تردداً، تخلوا عن توكايا غراندي ورفضوا حمل السلاح. ولكن يجب القول إن النقيب وفضول وكاستور لم يمنعوا أحداً عن أخذ القرار الذي يريده. فليس أشد خطورة من قيادة الخائفين، والنقيب هو الذي يعلم هذا أكثر من سواه.

والذين هربوا وأنقذوا حياتهم وبعض حاجياتهم فإنهم قد أضاعوا كل شيء آخر بما في ذلك الإقدام واعتبار الآخرين لهم، كما لو أنهم في تخليهم عن أهاليهم وجيرانهم قد أصيبوا بالجُذام الأسود والبرص. هكذا يحدث عادة.

لا تتضمن لائحة الجبناء أولئك الذين ذهبوا للقيام بواجب أو لمرافقة الجرحى والأطفال. فزينيو، ما عدا مرافقة لوبيسينيو، والده، الذي أصيب إصابة خطيرة بعد الظهر، راح يشيع نبأ موت ناتاريو بغية تهدئة عنف العدو، وفقاً لما أوصاه به النقيب نفسه. أما جواوزي، ويده مربوطة إلى عنقه وبكتفه المكسورة، فكان قد قاد باتجاه أعالي نهر الأفاعي قافلة من النساء الحوامل واللواتي ولدن لتوهن وأبناؤهن معهن، وكان قد ترك في مقبرة توكايا غراندي ابنه وإخوته الثلاثة وحماته وإحدى بنات الأخيرة، بالإضافة إلى العم جوزي دوس سانتوس.

زينيو، لوبيسينيو، وجواوزي وكل المصابين الآخرين، آلوي بالينيو، زي لويس وريسو فإنهم موجودون على لائحة الشجعان وهي لائحة يجب التلفظ بأسماء من فيها بصوت عالٍ نظيف ليتذكروا إذا ما أتيحت الفرصة مرة أخرى عند وجود معطية جديدة مشكوك فيها.

وتحت إمرة كاستور أبدووين، وفضول عبد الله، والنقيب ناتاريو دا فونسيكا بقي من الأحياء ثمانية عشر رجلاً، ولكن سيكون ظلماً كبيراً ألا يتم تعداد النساء مع الشجعان بسبب عدم امتلاكهن الخصيتين. إن الخصيتين ليستا رجولة. وبالمساعدة في المعركة لا يمكن لأحد أن يتشبه بجاسنتا كوروكا. ما عداها، فقد غادرن الحياة وهن يقاتلن – السيدة فانجي، وليا، وباولينيا ماريسكا والسيدة ليوكاديا. وإذ اقتلع أحد المستزلمين عين ريسو بالخنجر وأصيبت بمدية في وجهها فإنها تحولت إلى شكل شبيه بشكل إنسان.

ومن الظلم أيضاً نسيان إيدو ونواندو، بسبب عمريهما الصغيرين. كان ناندو قد وصل إلى توكايا غراندي صغيراً في الحادية عشرة وهناك نما إلى أن مات قرب أهله. وكذلك ميرينيو، ابن تارسيسو، وحفيد السيدة ليوكاديا الذي، خلافاً لما أوصاه به أهله، جاء يضع الاثنتي عشرة سنة من عمره في تصرف ناتاريو، وكان ذا منفعة كبيرة في التجسس على حركات العدو. وإذ تمّ أسره في إحدى روحاته ومجياته فقد قتلوه بدم بارد، وانتزعوا خصيته. أما إيدو فقط سقط يقاتل إلى جانب اللبناني فضول عبد الله الذي ورث عن أبيه الغضب ودقة التصويب.

كانت الحصيلة النهائية للعشر ساعات من إطلاق النار، من الكمائن والمواجهات بالسلاح الأبيض والعصي الغليظة، تقارب الثمانية وأربعين قتيلاً، منهم اثنان وعشرون من سكان توكايا غراندي من شيوخ وشباب وأطفال، وستة وعشرون قتيلاً من المهاجمين منهم الآمر شيكو رونكوليو والاستعراضي التافه بينايا كوفارازا. حتى في أزمنة الصراعات الدموية الرهيبة بين عائلتي بادارو وباسيليو أوليفيرا لم يحدث أن وقعت خسائر بهذه الفداحة خلال فترة قصيرة من الوقت.

19

لا يفيد بشيء توجيه الاتهامات، وتحديد المسؤوليات، وتحريم هذا أو ذاك، والتحدث عن الطريقة التي تمّ فيها تلاحق الأحداث، وعن عدم تكافؤ القوى الذي أدى إلى احتلال نهائي لتوكايا غراندي.

إن فرقة الشرطة العسكرية المؤلفة من ثمانية رجال رسميين وأكثر من عشرين مؤجراً ليكفلوا ويعطوا شرعية للعملية بقيادة الآمر شيكو رونكوليو والرقيب أوريجينس، تقلصت إلى تسع رجال شجعان وامرأة واحدة هي كوروكا، فتاة الهوى، التي اتخذت مكان فضول عبد الله وكاستور أبدووين اللذين سقطا معاً في المعركة. أما الهجومات السابقة فقد قام بها المستزلمون الذين لا يرتدون الأزياء الموحدة وهم كناية عن عشرين آخرين. كم كانوا قد شوهدوا في الطرقات يزرعون الفوضى في الدساكر الآمنة ويعيثون فيها فساداً مهددين الله والإنسان.

الحقيقة التي يستحيل تجاوزها تجعل القول إن إغنالدو المتسرع لدى ظهور أوائل المستزلمين قررت المجزرة البدائية مسجلة طبيعية البعثة القاسية وحولت الصراع إلى مذبحة. زمرة من المستزلمين يتزعمهم فيلياو روزوريتا، تقدمت إلى الأمام سابقة الآخرين واحتلت بيت الطحين. أرسل ناتاريو كاستور ليتجاوز الهضبة مع أربعة من المتطوعين، بغية تضليل الغزاة، أو لمنعهم على

الأقل من الوصول إلى البلدة. وقبل أن يدع زمرة المهاجمين الأربعة تقترب فإن إغنالدو تناول بندقية وانحدر إلى بيت الطحين.

منذ الأيام البعيدة، المرة، في سرجيبي كان إغنالدو يحس بالتعطش إلى الثأر الذي يحرق صدره وحنجرته. كان يمكن أن يكون أمراً جيداً إطلاق النار على السينادور، ولكن من كان سيدفع الثمن هم الآخرون.

تقدم وهو يطلق النار من البندقية التي كان يحملها على كتفه صوب أي مستزلم ثم ما لبث هو أن خرَّ ناخرةً جسمه الطلقات، وكان المستزلم إغنالدو أول القتلى... في إثر إغنالدو، لتمنعه ربما، ومن يدري، كانت تسعى ليا زوجته: فتلقت رشقاً كاملاً من الرصاص فالتفت ثم وقعت فوق جثة زوجها. ومن خلفها انبعث أوريليو وبيده السلاح الذي أعطاه إياه النقيب، ولكن لم يتمكن من أن يشهره.

وإذ أصيب بالغضب للهجوم غير المتوقع، فإن فيلياو أمر بقمع عنيف بدأه الأزلام، ولكنهم لم يستطيعوا استكماله. لم يكتفوا بتصفية وتحييد زي دوس سانتوس وجواوزي اللذين كانا مسلحين، فقد عمدوا إلى قتل فانجي التي هرعت بالصراخ والعويل وكل ما فعلت البريئة هي أنها كانت قد رفعت ذراعيها أمام حملة البنادق.

لم ينتهِ المهاجمون من العائلتين السرجيبيتين – عائلة إمبروزيو وعائلة جوزي دوس سانتوس – لأن زمرة كاستور كانت قد وصلت من الجهة الأخرى وأخذت المهاجمين على حين غفلة، ففروا من بيت الطحين ليستمروا في القتل على هواهم. وراحوا يطلقون النار جماعياً أثناء الانسحاب.

20

عندما وجد اللبناني فضول نفسه وحيداً، وبالقرب منه إيدو ودورفالينيو مجندلان أرضاً، واحد ميت، والآخر ينازع أنفاسه الأخيرة، ولم يعد في مسدسه رصاصة واحدة ولا ذخيرة في زناده، قفز فوق أول مستزلم قربه ولم يكن الآخر غير بينايا كوفارازا. وبيديه، تلك اليدان الغليظتان اللتان بهما كان يفض الخلافات ويقنع الأكثر عناداً، بتلك اليدين الحديديتين، بهما، أمسك اللص القاتل ولكنه لم يتمكن من أن يخنقه ويجهز عليه نهائياً، فبينما كان يشد على خناقه بغية كسر عظام بلعوم السافل ومنع الهواء عن رئتيه فإن فضول تلقى رصاصتين، واحدة في كتفه، والأخرى في عنقه، فأرخى يديه وتمايل. لم يقتلوا اللبناني في الحال: فقد تريثوا بأمر من بينايا المهتاج، اللاهث،

المتنفس بجهد، فربطوا العملاق وألقوا به في الإسطبل حيث كانوا متجمعين. كان بينايا مزمعاً على الاهتمام بفضول عندما تنتهي المعركة.

خلال عدة دقائق ترك فضول نفسه بلا حراك مستجمعاً قواه. كان ينزف دماً من عنقه وكتفه، ولكنه تمكّن من أن يملأ صدره بالهواء، وينفخ أوداجه، ثم فك الحبال التي ربط بها كما تربط الثيران، وبردة فعل انفعالية سريعة انقض على مسدس من مسدسات المستزلمين وراح يطلق النار منه، فأرسل اثنين إلى الجحيم وأكثر من ذلك لا يستطيع لأن بينايا أفرغ في جسده ست رصاصات. لم يتمكن بينايا من القضاء على فضول، بهدوء، كما كان قد خطط، لذلك اضطر أن يتخلص منه خائفاً وغاضباً.

هكذا مات فضول عبد الله، "البزرة – التركية" اللبناني فضول، سيد فضول العمال ورجال القوافل، بائع الحقيبة ذو التقليد العريق، "الكانجي"، المواطن الأصيل في البلدة الناشئة، المشهور بقياسه الكبير، المحترم لقوته، المنظور إليه بعين الرضى لإخلاصه في الوعد والمعاملة الراقية، المحبوب لطبيعته الصريحة والمتعاونة: ألم يكن هو من شرع في الأزمنة الغابرة في توكايا غراندي مبدأ "الجميع للواحد، والواحد للجميع"؟

في الأيام الأولى كان قد وقع عهداً مع إله الموارنة الصالح الذي جاء به إلى هناك آخذاً إياه من يده. ونفذ هو المعاهدة حتى النهاية، بالرغم من كل الأعباء الثقيلة، وفي ساعة الموت طلب من الله الغفران. وفي غيمة قريبة رأى أمام عينيه الزائغتين وكان قد فتح فمه، ولكن، بدلاً من أن يهمس همسة رقيقة فإنه صرخ صرخة النزع عندما رأى زيزينيا للمرة الأولى فنال منها. كان لديه في تلك اللحظة أناس طيبون عديدون ليفكر فيهم، ولكنه فكّر في زيزينيا عندما أسلم جسده إلى الله، إله الموارنة الصالح. إله صالح؟ فليرَ هذا من يشاء، وانتفض انتفاضة غضب قبل أن يتقيأ روحه: إنه صنم بلا كلام، حقير لا يلتزم بالعهد، سافل لم يفِ بالوعد.

21

بعد أن انقضى كل شيء، وعندما فرض القانون وترسخ بالقساوة اللازمة فإن حكايات عديدة راحت تروى في الطرقات العامة والمساكن والدروب الكثيرة في الأرض المدنية، وكلها حول الانقضاض على توكايا غراندي واحتلالها. ووفقاً للأنباء الصحفية فإنها أكبر معركة وأعنفها وقعت في المنطقة منذ نهاية الصراعات على ملكية الأرض، الصراعات التي انتهت مع الكمين الكبير

الذي نصب في المكان نفسه ومنه اشتقت التسمية. وفي شعاب الداخل، وحقول سرجيبي المتماوجة بالأخضر فإن المغنين أمسكوا بآلاتهم الموسيقية وعزفوا الأحداث الحزينة على أوتارها، يصفون الثأر من الطيبة. وعقاب الأبرياء؛ من جهة، الخيانة والشر، ومن جهة أخرى الرجولة والتفاني؛ هكذا سحق الانحراف الحرية.

إذا كانت صحف العاصمة قد صدرت – بوثائق تدين هذا أو ذاك، وكل جريدة تصف حقيقتها هي، فإن العكس، قد حدث في أوساط سادة الحقيقة حيث جاء الحكم واحداً على المذبحة، وبموقف إلى جانب شعب توكايا غراندي... هؤلاء أوضحوا أسباب الجريمة – الحسد، والشهوة في الربح، وفرض القوة. واستهجنوا أسماء الذين أعلنوا أبطالاً في صحف الحكومة، ووشموا المنتصرين بخاتم الشر والعنف ودافعوا عن قضية المنهزمين. الأخبار الصاعقة التي رويت بإخلاص وصلت إلى مسافات بعيدة بلغت قصور العدل في بارايبيا وبرنامبوكو. كانت تلك المواقف تمثل ضوءاً خافتاً وبريق فانوس أضاء الوجه المظلم. في الأناشيد لعنت أسماء وأثني على أسماء أخرى. وكانت أبيات الشعر قد تحدثت عن الظلم والقساوة، وعن الحب والرياء الحقيقية عن الدم والموت ولكنها أيضاً أشارت إلى الجمال والفرح. وأنشدوا للرجال ذوي القلوب اللطيفة الذين بنوا بيوتهم وزرعوا الحقول بالفاصولياء السوداء.

"بيت النقيب

بيت حب وعطاء

وللعجوزة فانجي

كل حقول الفاصولياء...".

قصة النقيب ناتاريو دا فونسيكا الحقيقية روتها "فيلومينا داس روزاس ألينكار" القريبة الفقيرة لعائلة ألينكار الغنية المشرفة على الدراسات الفلولكلورية، وكانت قد وصفت أفعال النقيب:

"كان نقيباً باسلاً

وقائداً مبرزاً

عشير نساء طيب،

ولعنة على الأعداء...".

كل العازفين على الكمان، ودون استثناء، تحدثوا عن فضول عبد الله، عن قوته العملاقة، عن قدرته وضخامته، وعن حبه للمتع والعمل، وتذكروا كوروكا التي كانت أطيب في كل مرة تتقدم فيها السن، وكانت في القتال تساوي رجلين وأحياناً ثلاثة.

أما جيزوس دا ماتا الذي لا يضاهيه أحد في السرد وبينما هو يعزف على الكمان بلسان أهل السرتون، روى القصة الكاملة لكاستور أبدووين، الملقب بتيساو، ومنذ حقول قصب السكر في ريكونكافو إلى بساتين الكاكاو في الجنوب، واعتبره رجل الألف حب والمغامرات التي لا عدَّ لها.

كانت الأبيات الشعرية التي نظمت في كاستور قد تحدثت إلى الأشعة والصواعق في الساعة الأخيرة من حياة كاستور أبدووين دا أسونسيون، أميرابيبانو المراهق وهو يسرح في سرير البارونة والمستخدمة، حذّاء الحمير، صانع الخشاخيش المعدنية، ابن شانغو، ونسيب أوشالا، ومحروس يمنجا؛ على وميض الأضواء، وعلى متن الصاعقة، صعد إلى السماء الزنجي تيساو وكلبه ألما بينادا الذي لم يعرف من أين أتى: لعل الكلب كان هدية الإله إيشو، إذ لم يكن هناك تفسير آخر.

صعد إلى السماء في عربة وهناك يمكن رؤيتهما حتى اليوم، بالزنجيات والمتولدات، والبيضاوات والوجيهات، على صفحة القمر، وفي حقل النجوم، وهما يحلقان فوق حقول سانتو أمارو نهر الأفاعي المحروسة بالقديس جورجي دوس إيلايوس.

22

أما في العاصمة فإن الصحف المشار إليها قد خاضت سجال إعلامي ومناظرة مسهبة ظلت تمثل العناوين الأولى في الصحافة الباهيانية بفضل المواهب الملتهبة التي شاركت في تصوير ملحمة النسور!

في الصحيفة الوحيدة المعارضة، فإن كتاباً مرتعشين من الحادثة وضعوا أفواههم في العالم عبر مقالات ذاتية أو مطلوبة، وكانوا جميعاً يلهثون غضباً ورفضاً ضد الرذيلة والدم، متحدثين عن الأزمنة الغابرة وعندما كانت منطقة الجنوب أرض المجرمين الذين لا أرواح لهم، الوحوش البشرية المجردة من الإنسانية، واللصوص الذين يعبثون في الحياة بلا قانون أو رقيب. أما الصحف الحكومية الثلاث فإنها لم تكن أقل حماساً وراحت تؤكد أن المسألة هي على عكس ما هو مزعوم لأن العملية فرضت النظام والقانون في معقل للصوص والمجرمين، والهاربين من الشرطة. كانت

العملية، في عرف هذه الصحف بسيطة وقد رمت إلى تنظيف القذارة ووضع حدٍّ لبقايا عصر الانحراف والبربرية.

23

بالرغم من إلحاح السلطات العليا، المستعجلة لوضع حدٍّ، فإن الرقيب أوريجينس انتظر، بغية إملاء الأوامر، مدة نصف ساعة بعدما توقفت الطلقات النارية الآتية من ناحية المذبح والمستودع الكبير، وهي إشارة إلى أن الجرحى والموتى من الذين لا يزالون يقاومون قد تمّ تحييدهم.

إن حذر الرقيب فرضته الخسائر الفادحة التي تكبدها.

لم يتوقع من هذه المشكلة في صفوف المستزلمين والجنود. ومن الوجوه الرسمية الثمانية، لم يبقَ إلا ثلاثة، وأما الخمسة فقد سقطوا قتلى بالإضافة إلى شيكو رونكوليو. خمسة عشر مستزلماً كانوا قد أسلموا أرواحهم لله أو للشيطان. أما رجال توكايا غراندي والبعض منهم قد حمل السلاح لأول مرة فإنهم قاتلوا محترفين، وباعوا الحياة غالياً. لماذا أقدم الملاعين على هذا الفعل؟ إن الرقيب لم يكن يعلم. ولكن كونه مستزلماً في السابق فإنه قدر المواجهة حق التقدير. ومن حسن حظه أن النقيب ناتاريو دا فونسيكا كان قد مات. وبدون النقيب أصبح الباقي سهلاً للغاية.

إذ أطال التهدئة، وقد عبر نصف الساعة من الانتظار في ساعة الجيب البراقة، فإن أوريجينس أمر الكتيبة التي لا تزال كثيرة العدد بالرغم من الخسائر الفادحة، بالتقدم باتجاه المستودع، وبحذر، وعلى مهل، خوفاً من الأسلحة الجاهزة للإطلاق ربما. ليس الحذر من مجنون بأمر يؤسف له، والمجانين موجودون في كل النواحي ويظهرون فجأة حيثما كان.

لو أنه راهن لربح. كانوا يتقدمون من المذبح عندما ظهرت في دباميس الليل صورة غريبة تحمل وتحرك شيئاً شبيهاً بالبيرق.

أمر الرقيب المتفاجئ بإطلاق النار فأطيع. ونالت الرشقات من الخطير المتعاون مع سكان توكايا غراندي، فوقع البيرق مترنحاً أمام صليب المذبح. كان المقدم قد استخدم تلك القطعة الزرقاء كبيرق سلام، والذي استخدمه لم يكن إلا السيدة ليوكاديا التي بدلاً من الالتحاق بعائلتها فإنها فضلت البقاء في توكايا غراندي مجازفة بحياتها. لتقدمها في السن وقد بلغت الثمانين، كانت قد ارتدت ملابس حفيدة آراكاتي ورفعت العلم وذهبت تعبر الحقل بسلام.

وتابع المستزلمون وقوادهم الزحف إلى الأمام واحتلوا المستودع. وهناك فإن الرقيب أوريجينس بريتو من الشرطة العسكرية في ولاية باهيا، والموفود المنتدب من إيتابونا، اعتبر المهمة العسكرية منتهية وراح ينظم مع المستزلمين غير الوديعين حرس الشرف لاستقبال، بشكل احتفالي، سلطات البلدية والبعثة الرفيعة المستوى المنتظر وصولها عند أسفل المنحدر. والرقيب لن يطلق الحرية لمرؤوسيه لينهبوا وينتهكوا إلا بعد الاحتفال بالنصر.

على ضوء القمر المنعكسة أضواؤه على الأرض المغتصبة والنهر المذبوح، والموت المطلقة أعنته، وعند منتصف الليل، قرب جذع المولونغو، عند أعلى بيت النقيب كانت تجلس جاسنتا كوروكا ومعها رشاشها. ناتاريو دا فونسيكا وبيده البارابللو، في الكمين، وهما يتمتعان بجمال المشهد المترامي أمامهما. هناك عند الأسفل، كانت توكايا غراندي قد رقدت واحتلها المستزلمون ورجال الشرطة.

– إن أفضل شيء في هذا العالم – قالت كوروكا – والذي لا يضاهيه شيء هو أن تلد المرأة طفلاً، ورؤية تلك القطعة من اللحم تخرج حية من رحم المرأة لهو مشهد يجعلك تحس بالرغبة في البكاء... كان أول طفل قد جعلني أجهش في البكاء.

جعل النقيب خيط الابتسام يتمدد ظاهراً على شفتيه:

– لقد ساعدت في ولادة الكثيرين من الأطفال وأصبحت سيدة كبيرة.

– لقد تغيرنا ونمونا مع توكايا غراندي. أنت أيضاً يا ناتاريو لم تعد ذلك الرجل السيئ الذي كنت في السابق.

– أمر محتمل.. ممكن.

سيطر صمت قصير، وجاءت من ناحية النهر، في الليلة الرائعة، نسمة حملت معها رائحة طيبة وفاح في الهواء عطر الياسمين. وفي صوت كوروكا عبر البحر والنسيم:

– لم أرَ في حياتي أحداً أحب شخصاً آخر، أو امرأة أحبت كما أحبتك برناردا. – ثم وقفت برهة عن الكلام مفكرة لتتابع: – أعتقد أن هذا هو الحب الذي يتكلمون عنه. أعرف كيف هو عرفته في زمن الصبا. كان اسمه أولافو، وكان ضعيف الصدر فمات يتقيأ الدم. أذكره كما لو كان ذلك قد حدث اليوم.

وصل بالقرب من هناك كشاف قافلة الوجهاء. كانوا اثنين من ملتقى أسفل المنحدرات: الأكواخ التي هجرتها فتيات الهوى وكان المستزلمون قد دخلوها بعدما قتلوا باولينيا ماريسكا الوحيدة التي بقيت تحرس المكان. كانت قد تعلمت الرمي في الأغواس مع حملة المسدسات من عائلتها في البيت الخشبي؛ وكان رئيس البلدية، والقاضي، والمدعي العام، والقائد العام والحاشية المرافقة، وأهل القصر السامون، والجميع يلتجئون في الحفر المحروسة بانتظار لحظة الدخول المظفر إلى توكايا غراندي. انتظروا على ضوء القمر أن يقدموا بدخول مخبب على ظهور خيولهم، يستحق التصفيق: سمان، أقوياء، يرتدون الملابس الراقية، وقد بدوا في كامل الاستعداد لأنهم كانوا قد جاؤوا معهم بالقانون ليزرعوه هناك. أسندت كوروكا الرشاش إلى جذع الشجرة. وردد النقيب ناتاريو دا فونسيكا:

– إنه أجمل مكان ليعيش فيه الإنسان!

– ليس له مثيل. – وافقت كوروكا.

وبينما راح يمتطي مهرة أصيلة تنبهر العيون بجمالها، ووسط الحاشية المتقدمة، عن يمينه رئيس البلدية، وعن يساره الإلهية الجمال لودميلا غريغوريوفنا، كان الخريج البدين بوافنتورا أندرادي جونيور، الزعيم السياسي والآمر الناهي، قد انفرجت أساريره بضحكة فرح.

صوّب ناتاريو مسدسه بثبات مستهدفاً صدغ رأس فنتورينيا. خلال عشرين سنة لم تخطئ طلقة من طلقات ناتاريو – فكيف تخطئ الآن؟

"عن إذنك يا حضرة العقيد".

24

وهنا يبدأ تاريخ مدينة إيروزوبوليس بعدما كانت توكايا غراندي ووجهها المظلم. إن ما حدث لاحقاً – التقدم، التحرير، وتغيير الاسم وقصر العدل، والبلدية، والكنيسة، والقصور، والدور المسدسة الأطراف والمحافظة، والمدعي العام والقاضي، والمحكمة والسجن، والنادي الاجتماعي، والمنتدى الأدبي، كل هذه هي الوجه المضيء. – لا يستحق عناء التحدث عنه ولا خير فيه. وإلى اللقاء لرؤية المزيد.

كتب للمترجم

- غبار الهزيمة، مجموعة أحاديث.
- الرؤساء ألغاز وأسرار، سياسة.
- تيرزا باتيستا تعبة من الحرب، ترجمة عن البرتغالية، جورج أمادو، 1989.
- بوليفيا والبارود في الحلق، ترجمة عن البرتغالية، كيافيناتو، 1990.
- رقعة الشطرنج والرجل العاري، ترجمة عن البرتغالية، فرناندو سابينو، 1990.
- فمك المقمر – مجموعة قصص، كارلوس دروموند دي أندرادي، ترجمة عن البرتغالية.
- صهوة البراق، رواية.
- الميناء الأمين، رواية.
- الحركة الكردية في تركيا: إلى أين؟ – بحث.
- الوثيقة، رواية.